منشورات جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الجغرافية الاجتماعية

الدكتور
محمد رفعت المقداد
استاذ مساعد في قسم الجغرافية

الدكتور
قاسم الربداوي
عضو هيئة تدريسية في قسم الجغرافية

جامعة دمشق
١٤٢٥ - ١٤٢٦ هـ
٢٠٠٤ - ٢٠٠٥ م

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الفهرس

	الصفحة
الفهرس	
تقديم	١٥
الباب الأول	١٧
المقدمة	١٩
الفصل الأول	٢٣
مدخل في الجغرافية الاجتماعية ـ ظهور الأفكار الاجتماعية والاتجاهات العامة فيها	٢٧
مدخل في الجغرافية الاجتماعية	٢٧
أولاً: مفهوم الجغرافية الاجتماعية	٢٧
ثانياً: الجغرافية الاجتماعية تعريفها ـ محتواها	٢٨
ثالثاً: المدارس الجغرافية والجغرافية الاجتماعية	٣١
رابعاً: علاقة الجغرافية الاجتماعية بالعلوم الأخرى	٣٧
خامساً: طريقة البحث ومقوماتها	٣٩
ظهور الأفكار الاجتماعية في الجغرافية	٤٢
أولاً: البدايات الأولى للاهتمام في الجغرافية الاجتماعية	٤٢
ثانياً: الجغرافية الثقافية كشكل للجغرافية الاجتماعية	٤٤
ثالثاً: الجغرافية الاجتماعية كنظير للجغرافية البشرية	٤٨
رابعاً: بدايات علم التشكيل الاجتماعي	٥٦
خامساً: الهموم الاجتماعية في الجغرافية	٦٣
الاتجاهات العامة في الجغرافية الاجتماعية	٦٤
أولاً: الجغرافية الاجتماعية في الفكر الكلاسيكي	٦٤
ثانياً: الجغرافية الاجتماعية في فكر بيير جورج	٦٦
ثالثاً: الجغرافية الاجتماعية المعاصرة	٧٠
رابعاً: التيارات الفكرية الكبرى	٧٥
خامساً: الجغرافيات الاجتماعية	٧٦
سادساً: موضوعات الجغرافية الاجتماعية	٧٧

الفصل الثاني: النظرية في الجغرافية الاجتماعية وانبعاث علوم الإنسان وترابطها ٨١
الجغرافية الاجتماعية تبحث عن نظرية ٨٣
أولاً: هيئة وبنية المجتمعات ٨٣
ثانياً: آلية الطبقات والنظرية الاجتماعية ٨٨
ثالثاً: الجغرافية الاجتماعية وتوزع المجتمع المهني على قطاعات الأنشطة الاقتصادية ٩٥
تقدم النظرية الاجتماعية وانبعاث علوم الإنسان حتى أيامنا الراهنة ١٠٥
أولاً: استخدام الأشكال الجديدة للتفكير النظري الخاص بالجغرافية الاجتماعية ١٠٨
ثانياً: التغيرات والأزمات المعاصرة للتفكير الاجتماعي ١١٣
ترابط العلوم الاجتماعية ١٢١
أولاً: النماذج الإنسانية: الخطوط الأولية الابتدائية ١٢٢
ثانياً: نماذج الإنسان، الإنسان الاجتماعي - السلوكية ١٢٤
ثالثاً: أسس الحياة الاجتماعية ١٣٢
رابعاً: النظريات الاجتماعية: بنية عامة ١٣٦
الفصل الثالث: المكان والنشاط البشري - الاتفاقيات والسلالات وتطور المجتمعات البشرية ١٣٩
المكان والنشاط البشري ١٤١
أولاً: التغيرات المكانية التي يحدثها الإنتاج الأولي ١٤١
ثانياً: الوسط البيئي دعامة لنشاطات إنتاجية أخرى ١٤٥
ثالثاً: الوسط البيئي مجال للاستراحة والاستجمام وأوقات الفراغ ١٤٦
رابعاً: حيز المرور والحركة ١٤٨
خامساً: النمطية في الجغرافية الاجتماعية ١٥٠
الاتفاقيات والمكان ١٥٧
أولاً: الاتفاقيات وتنقلات الأشخاص ١٥٧
ثانياً: نظرية الاتصالات ١٦٠

ثالثا: الاتصالات والتبادل الثقافي ١٦٣
السلالات البشرية ١٦٦
أولاً : أصل الإنسان ١٦٦
ثانياً: معنى السلالة البشرية ١٦٧
ثالثاً: ظهور السلالات ١٦٨
رابعاً: العوامل المؤثرة في تنوع السلاسلات البشرية ١٧٠
خامساً: أسس تقسيم الأجناس البشرية ١٧٢
سادساً: تصنيف السلالات البشرية ١٧٣
تطور المجتمعات البشرية ١٧٩
أولاً: مراحل النمو الاقتصادي للمجتمعات البشرية عند روستو ١٧٩
ثانياً: التفسير المادي لتطور التنظيمات المجتمعية ١٨٣
الفصل الرابع: أنماط حياة المجتمعات البشرية وتوزعها على سطح الأرض- صورة الجغرافية الاجتماعية ١٨٧
المجتمعات البدائية ١٨٩
أولاً: مجتمعات حرفة الجمع والالتقاط ١٩١
ثانياً: مجتمعات حرفة الصيد ٢٠٤
ثالثاً: مجتمعات حرفة الرعي ٢٠٩
رابعاً: مجتمعات الزراعية البدائية ٢١٢
المجتمعات الزراعية المتطورة ٢١٨
أولاً: المجتمعات الزراعية الأوروبية في حوض البحر المتوسط ٢٢٤
المجتمع الايطالي ٢٢٤
مجتمع شبه جزيرة ايبيريا ٢٢٦
اليونان ٢٢٨
ثانياً: مجتمعات أمريكا اللاتينية ٢٢٩
المجتمعات الصناعية ٢٤٠
أولاً: مجتمعات أمريكا الشمالية ٢٤٤
ثانياً: المجتمع الياباني ٢٥٩

ثالثاً: المجتمع البريطاني ٢٦٩
الشعوب والمنظمات ٢٧١
أولاً: الكتل العالمية الكبرى ٢٧٢
ثانياً: الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية في العالم ٢٧٤
ثالثاً: مستويات النمو ٢٧٦
رابعاً: العلاقات الاقتصادية العالمية ٢٧٩
خامساً: التغيرات الاجتماعية الدولية الراهنة ٢٨٢
سادساً: اثر التحولات الدولية الراهنة على شعوب البلدان النامية ٢٨٥
سابعاً: الحياة الاجتماعية والاقتصادية للدول النامية في ظل الكتلتين العظميين ٢٨٦
ثامناً: الحياة الاجتماعية والاقتصادية للدول النامية في عهد المنظومة العالمية الجديدة ٢٨٨
تاسعاً: مفاوضات منظمة الاتفاقية العامة للتجارة والتعرفة الجمركية المعروفة اختصاراً باسم G.A.T.T (غات) ٢٩٣
المراجع العربية والأجنبية للباب الأول ٣٠٣
المراجع العربية ٣٠٣
النشرات والدوريات ٣٠٣
المراجع الأجنبية ٣٠٤
فهرس المصورات والأشكال للباب الأول ٣٠٥
فهرس المصورات ٣٠٥
فهرس الأشكال ٣٠٥

Damascus University

الباب الثاني	٣٠٧
الفصل الأول مجتمع الوطن العربي	٣٠٩
مقدمة	٣١١
أولاً: العوامل المؤثرة في بنية المجتمع العربي	٣١٣
ثانياً: خصائص مجتمع الوطن العربي	٣١٨
في شبه الجزيرة العربية - في بلاد الرافدين - عند الفينيقيين - العهد الآرامي - في مصر القديمة .	٣١٨-٣٢٧
مجتمع شبه الجزيرة العربية في العصر الجاهلي	٣٢٨
النظام القبلي - القضاء - التحالف - العادات والتقاليد - الأسرة - طبقات المجتمع .	٣٢٨-٣٣١
خصائص المجتمع في العصر الأموي	٣٣٢
المذاهب الفلسفية	٣٣٥
المعتزلة - القدرية - المرجئة - الجبرية .	٣٣٥-٣٣٦
ثالثاً: خصائص المجتمع العربي في العصر العباسي	٣٣٧
الحركات الداخلية المناوئة للحكم العباسي وظهور الدويلات الصغيرة -حركة الزنج- القرامطة - البويهيون - الحمدانيون - الشطار والعيار - حركة الأحداث - حركة أبي حرب المبرقع اليماني.	٣٤٤-٣٤٦
ظهور الدويلات وضعف الدولة المركزية	٣٤٨
رابعاً: الغزو الخارجي والاجتياحات الأجنبية	٣٤٨
الصليبيون - الغزو المغولي والتتاري - الغزو التيموري	٣٤٩-٣٥٠
- المجتمع العربي في العصر المملوكي	٣٥٠
- المجتمع العربي في عهد الاحتلال العثماني	٣٥٠
- المجتمع العربي في عهد محمد علي باشا	٣٥١
- المجتمع العربي في عهد الاحتلال الغربي	٣٥١
خامساً: التحولات الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع العربي	٣٥٢
أولاً- التحولات الديموغرافية والنمو السكاني	٣٥٣
١- النمو الطبيعي للسكان	٣٥٤
٢- الزيادة الهائلة في عدد السكان	٣٥٥

العوامل الديموغرافية ـ العوامل الاجتماعية ـ العوامل الاقتصادية ـ معدلات الإعالة الدخل ـ الغذاء وصحة الإنسان ـ زيادة عدد سكان العواصم العربية . ٣٦١-٣٦٤
ثانياً- نشوء مجتمع الضواحي ٣٦٩
أسباب ظهور مجتمع الضواحي ٣٧٠
أولاً: الخصائص العمرانية لمجتمع الضواحي في الوطن العربي ٣٧٦
- تجهيزات المسكن ٣٧٨
ثانياً- الخصائص الديموغرافية ٣٧٨
ثالثاً- الخصائص الاجتماعية لسكان الضواحي الشعبية ٣٨١
رابعاً- الخصائص الاقتصادية ٣٨٥
تضخم العواصم العربية ـ بيروت الكبرى ـ دمشق الكبرى ـ القاهرة الكبرى ـ الخرطوم ـ طرابلس ـ الجزائر ـ الدار البيضاء ـ نواكشوط ـ الرياض ـ بغداد ـ عمان ـ تونس ٣٨٥-٣٨٩
ثانياً: الهجرة وحركتها واتجاهاتها وتصنيفها ٣٩٣
نتائج الهجرة الداخلية ـ هجرة الكفاءات العربية ـ الهجرة بين البلدان العربية ٣٩٦-٤٠٢
ثالثاً: المستوى التعليمي في المجتمع العربي ٤٠٣
الأمية في الوطن العربي ٤٠٩
رابعاً: التنمية الصحية في المجتمع العربي ٤٠٩
خامساً: تنمية الخدمات ٤١٦
سادساً: التنمية الإعلامية ٤١٦
التنمية الاقتصادية ٤١٧
سابعاً: دور المرأة في النشاط الاجتماعي والاقتصادي ٤١٨
ثامناً: التنمية الحضرية في مجتمع الوطن العربي ٤٢١
التنمية المدنية ٤٢٢
التنمية الريفية ٤٢٦
تنمية البادية ٤٢٧
في مجال التنمية الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع العربي ٤٢٨
التنمية الفكرية الثقافية ـ التنمية الفنية ـ التنمية الإعلامية ـ تنمية دور المرأة في المجتمع العربي ٤٢٩-٤٣٠
المجتمع العربي بين الحاضر والمستقبل ٤٣٠
الفصل الثاني ٤٣٧
المجتمع الرعوي ٤٣٧

مقدمه	٤٣٩
تاهيل الحيوانات للرعي	٤٣٩
الخصائص الطبيعية للمناطق الرعوية	٤٤١
الصحاري والبوادي الجافة ـ مناطق ذات اعشاب كثيفة ـ المناطق السهبية المعتدلة	٤٤٣
التوزع الجغرافي لحرفة الرعي	٤٤٦
الأغنام ـ الماعز ـ الإبل ـ رعي الخيل ـ الرنة	٤٤٧-٤٤٨
الخصائص العامة للمجتمع الرعوي	٤٤٨
التوزع الجغرافي للقبائل الرعوية وخصائصها	٤٥٣
داخل الوطن العربي	٤٥٣
قبائل النوير وخصائصهم الاجتماعية - الدنكا ـ قبيلة الباري ـ قبيلة بني عامر	٤٥٣-٤٥٧
العشائر في بلاد الشام	٤٥٨
في سورية ـ في العراق	٤٥٨-٤٥٩
رعاة البقر خارج حدود الوطن العربي	٤٦٠
في القارة الأسيوية	٤٦١
الهندوس	٤٦٢
في القارة الأمريكية • وفي اوروبا	٤٦٤
رعاة الإبل	٤٦٥
في داخل الوطن العربي ـ الطوارق	٤٦٥
الكبابيش	٤٦٦
في بلاد الشام ـ في شبه الجزيرة العربية	٤٦٨
قبائل الرولة وسكنهم ـ حياتهم الاجتماعية	٤٦٩
رعاة الرنة	٤٧٠
خارج الوطن العربي	٤٧١
رعاة الخيل	٤٧١
رعاة الأغنام	٤٧٣
داخل الوطن العربي	٤٧٣

في سورية، في الجولان ، في محافظة حمص ـ في حماه في حلب ـ في إدلب وعين العرب ـ في دير الزور الميادين ـ في الجزيرة السورية . ٤٧٣-٤٧٦
في شبه الجزيرة العربية والعراق ٤٧٨
في إفريقيا العربية ٤٧٨
الخصائص الاجتماعية للقبائل البدوية ٤٧٩
مراتب البنية الداخلية للقبيلة الواحدة ٤٨٠
لباسهم ـ الزواج والطلاق عند البدو ٤٨٢-٤٨٣
الوضع التعليمي ٤٨٨
الخصائص الديموغرافية ٤٩٠
المشكلات التي تعاني منها القبائل البدوية ٤٩١
تطوير المجتمع الرعوي ٤٩٢
رعي الأغنام خارج حدود الوطن العربي ٤٩٣
الفصل الثالث ٤٩٥
المجتمع الاشتراكي ٤٩٥
مقدمة ٤٩٧
المراحل التاريخية ٤٩٧
خصائص المجتمعات الاشتراكية ٤٩٩
التوزع الجغرافي للمجتمعات الاشتراكية قبل عام ١٩٩٠ ٥٠١
الاتحاد السوفييتي ٥٠١
الخصائص الجغرافية للاتحاد السوفييتي ٥٠٢
المجتمع السوفييتي ٥٠٤
الخصائص الاقتصادية للاتحاد السوفييتي السابق ٥٠٦
طبيعة الحياة الاجتماعية للسكان ٥٠٧
المجتمع الكوبي ٥٠٩
المجتمع الصيني ٥١١
المجتمع الكوري الشمالي ٥١٧
المجتمع الفيتنامي ٥١٩

الفصل الرابع — مجتمع رابطة الدول المستقلة — المجتمع الهندي ٥٣١
المجتمع الروسي ٥٣٥
المجتمع البلاروسي ٥٣٧
المجتمع الأوكراني ٥٤٢
المجتمع المولدافي ٥٤٦
المجتمع الأذربيجاني ٥٤٦
المجتمع الأرميني ٥٤٩
المجتمع الكازاخي ٥٥٢
مجتمعات جمهورية آسيا الوسطى ٥٥٦
١ـ المجتمع الأوزبكي ٥٥٧
٢ـ المجتمع القيرغيزي ٥٥٨
٣ـ المجتمع التركمانستاني ٥٥٩
٤ـ المجتمع الطاجاكي ٥٦٢
مجتمعات بلدان بحر البلطيق ٥٦٤
اولاً ـ مجتمع جمهوريات استونيا ولاتفيا وليتوانيا ٥٦٦
ثانياً ـ المجتمع الجيورجي ٥٦٧
مجتمعات اوروبا الشرقية ٥٧٢
اولاً ـ المجتمع الألباني ٥٧٢
ثانياً ـ المجتمع البلغاري ٥٧٤
ثالثاً ـ المجتمع البولندي ٥٧٦
رابعاً ـ المجتمع الروماني ٥٧٧
خامساً ـ المجتمع التشيكوسلوفاكيا ٥٧٩
سادساً ـ المجتمع اليوغسلافي ٥٨٠
سابعاً ـ المجتمع الهندي ٥٨٣
المراجع ٥٩٣

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

تقديم:

نظـراً لقلـة المـراجع العربية التي تصدت لموضوع الجغرافية الاجتماعية، نسعى جـاهدون في هـذا الكـتاب لإغـناء المكتبة العربية بإيجاز لهذا الفرع الهام من فروع الجغرافـية الـذي يـتم مـن خلالـه وصـف النظم الاجتماعية المختلفة على سطح الأرض، وتحديـد مواقعهـا. غـير أنهـا ليسـت ثابـتة إذ سـرعان ما تتطور نتيجة للـتطورات التنظيمـية لـلجماعات ولحـياة البشـر. كما لا بد من الاهتمام بإدراك الـتغيرات الجاريـة، واتجاهـات تطـور المجـتمعات إن أمكـن كتلك التي تنجم عن احـتكاك المدنـية والـنظم الاجتماعـية المختلفة، أو تنشأ عن التطور الداخلي لكل مجتمع لا سيما المجتمعات الأكثر تقدماً.

إن المجـتمع صـورة لحشـد العلاقات البشرية وتنظيمها ، وهي ناجمة عن مجمل الظـروف المـتولدة عـن أحـوال إقامـة طـبقات مختلفة في بلد معين، وعن طبيعة إمكانـات الإنـتاج والحـياة الـتي يقدمهـا هذا البلد، وعن التقنيات المستخدمة في تجنيد مواردة.

إن تطـور الجغرافـية الاجتماعـية يتصـاعد باضطراد نتيجة للحركية الصرفة للجغرافـية، وتقـدم الـتفكير الاجـتماعي. إن المعـنى الأساسي للتحول هنا واضح وجـلي إذ نـتقل مـن وصـف سـطحي جداً للحقيقة الاجتماعية المتمحورة ضمن بعـض الأنمـاط الكـبرى إلى تحلـيل بناء للعلاقات الاجتماعية ضمن هيئاتها المختلفة، لكـن النسـق العـام للـتطور في هـذا الإطـار سريع جداً، وتنقصنا رؤية تركيبية، فالباحـثون مشـغولون أو مهـتمون باسـتثمار الموارد الجديدة أكثر من تجهيز النتائج ٦التي تم الحصول عليها لوضعها في متناول الطلاب المبتدئين في هذا المجال.

هـذا العمـل لـيس لـه طموحـات أخرى غير وضع جدول واضح للدروس، وبالتركـيز عـلى الهـيكل المعقـول الواجـب تطبـيقه في ميادين الجغرافية الجهوية كذلـك في مجـال الجغرافـية الريفـية أو المدنـية. وبفضـل هذا كله فإن الجغرافية

الاجتماعية لا تتوقف عن التطور. إن تاريخ التفكير الاجتماعي في الجغرافية يساعد على تصنيف مجال الدراسة فهي لا تكتفي بأن تفسر كل شيء، وتفهم كل شيء إذ لا بد أن يتبع ذلك كله بمحاولة توليفية أو تركيبة معقولة. إذاً من الممكن ملاحظة تباين خصوبة هذه المبادئ وانتظامها الذي يضعها موضعاً جلياً. وبهذا ننتهي إجمالاً فإن التوضيح والاهتمام قد سلط الضوء على التفكير الأساسي للمناهج التفسيرية النظرية أكثر من مناهج التحليل وإعداد نماذج عملية، وهذا الإطار الذي يكون فيه التذبذب هو الأكثر شيوعاً، ولكنه في الوقت الأكثر جوهرية نفسه فهو الذي يسمح فيما بعد بمساعدة أكثر فاعلية في مجال البحث.

وإذا أريد لهذا الكتاب أن يكون خطوة أولية في علم الجغرافية الاجتماعية. فإننا نرجو أن نكون قد وفقنا في تقديمه ليكون لبنة في بناء الكتاب العربي. وليكون منطلقاً حضارياً وعلمياً لبناء صرح اجتماعي واقتصادي متين.

وإننا نرجو أن نوفق جميعاً إلى تحقيق هذا الهدف وإلى رفع مستوى الكلمة العلمية المنطوقة والمكتوبة.

لقد قام بتأليف التوطئة والمقدمة والباب الأول من هذا الكتاب والمتضمن أربعة فصول الدكتور محمد رفعت المقداد وقام بتأليف الباب الثاني والذي يتضمن أربعة فصول الدكتور قاسم الربداوي.

والله ولي التوفيق

دمشق في ٥/٥/٢٠٠٤ م

المؤلفان

الدكتور محمد رفعت المقداد — الدكتور قاسم الربداوي

الأستاذ المساعد في قسم الجغرافية — عضو هيئة تدريسية في قسم الجغرافية

الباب الأول

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المقدمة:

لماذا ندرس الجغرافية الاجتماعية؟

لنبدأ بالتساؤل هل الجغرافية الاجتماعية لا تحمل بالضرورة هذا الاسم؟ إن هذا التساؤل يزيل الشك القائل بضرورة حملها هذا الاسم.

إن دورنا لا يتلخص بتقديم فهرسة توجيهية وتوضيحية ولكن فضلاً عن ذلك، فإننا في هذا الموضوع نتجاوز بشكل كبير الدراسات التي نشأت عن تفاعل معلوماتي بسيط مع العناوين كما أننا لا ننوي استرجاع التعليلات المسترسلة والمذهبية واستذكارها التي اتصفت بالتنوع والاختلاف مع الزمن باختلاف الباحثين. ولندون في ملاحظاتنا أنه يوجد في الجغرافية الاجتماعية عند "إليزي ريكلس" **Elisee Reclus** التزام شديد في صراعات من أجل عدالة اجتماعية ومكانية. وعلى العكس فإن الجغرافية عند "فيدال دي لا بلاش" **Vidal de la blache** هي مستبعدة، بل على حد ظننا، إنها أقل بكثير من أن يتجاهلها أحدهم في عرض الحديث في التجمعات الإنسانية والأوساط البيئية. حيث إنه يتحدث عن حضارة وليس عن مجتمع، ويعمل كما لو أن الأوساط الثقافية قد كانت أوساطاً أحادية الجنس بلا عيوب أو مواجهات أو مشاكل.

مع أنه في "مجلة الجيل" لـ أبيل شاتولا **Abel chatelain** الذي كان سبباً في إثارة الأنانية، جاء فيه أن التمثيلات والصور السينمائية للأحداث التاريخية والاقتصادية للمجتمعات والحضارات (التي كانت تفهم من علماء التاريخ والاجتماع والجغرافية) قد جهزت للقرار الحاسم، وأن أحدهم كان يستغني عن التاريخ الاجتماعي وبالعكس دون أن يسبب له ذلك إحراجاً أو إحساساً بالذنب.

أما أولئك الذين يستندون اليوم إلى الجغرافية الاجتماعية "فهم كالساعة" على حد قول "روبيرت إيران **Robert Herin** مجاملون جداً، وعلى طول الموجة "يتلونون مع الوضع" وأنهم مختلفون بشكل ملموس عن المذكورين سابقاً.

إن أنصار التاريخ الاجتماعي سيكابدون الحاجة إلى العودة صفاً واحداً، إن أخذنا في لحظة معينة، قد يسترجع المؤتمر التاريخي الاقتصادي الذي عقد في عام ١٩٦٧ في "إكس ـ أن ـ بروفانس Aix – en – provence" دون أن يحصل أي انشقاق حقيقي، فإن أنصار التاريخ الاجتماعي جربوا، وعانوا من الحاجة إلى العودة للاتحاد صفاً واحداً خارج نطاق المؤتمر الرسمي على الصعيد الواقعي، ولمسوا الحاجة إلى عودة اتحادهم وتجمعهم لتأكيد هويتهم وشريحتهم وتثبيتها نسبة إلى التاريخ الاقتصادي الرسمي.

وفي الميادين الجغرافية الحقيقية قد يكون من المفيد المخاطرة باقتراح نقاش عدد معين من القضايا والطروحات بعد معرفة واحد من بينها يمكن اتخاذه كقاعدة في حال الصمت المتوقع من قبل حديثي العهد بالجغرافية الاجتماعية وهذا ما نريده أن يجرب في جميع الأحوال.

هذه الطروحات كانت ستمثل الصمت السلبي (ضد) والصمت الإيجابي (لصالح) "الصمت السلبي":

١ـ السكوت ضد أمام الجغرافيين الذين يقولون دائماً الإنسان ليس الناس: كما لو أن الأفراد كانوا متغيرين داخل المجتمع الواحد أو بين مجتمع وآخر. "بالحقيقة نبحث جيداً وندقق، فنجده دائماً الإنسان نفسه" بما في ذلك البحوث والمواضيع النوعية المعاصرة.

من هذا المفهوم ندرك أن المعادلة: مواجهة بين الإنسان والطبيعية وغالباً ما تكون موظفة ومستخدمة دون غيرها بالحاحات دولية كثيرة من (منظمة الأمم المتحدة O.N.U. ومنظمة اليونسكو UNESCO) ويظهر لنا أنها الأكثر خطورة وقد أضمرت مخرجاً للهرب من المسؤوليات والشكاوى المتراكمة التي كانت السبب في ارتكابها للأخطاء. ألا يكون من الأفضل الاعتراف في كل مرة والقول صراحة بأننا نرى ذلك ونشهد عليه وهو واقع.

"دائمـاً يكـون القـول في كل مرة: من السبب؟" سواء في المجتمع المسلم به أم في فسـاد الطبـيعة أو في قضـية تخريـب الاحتياطي الأخضر في غابات الأمازون، أو التلوث الحضري ألا ندرك أن ذلك كان يمكن أن يكون بصورة أخرى؟

٢ـ السـكوت ضـد، أمـام أولئك الذين يقولون إن الجغرافية هي علم المجال ويـرجع ذلـك لـلمفهوم الذي يقول: إن المجال حاو وشامل وفيه الأشياء التي تملأه. ولكـن تواريـاً يوجـد هـنالك حقـل القوى الفضائية، التسابق الفضائي، مما جعل المجال منسوجاً بصورة من سياسات نزاعات الجماعات والأفراد.

٣ـ السـكوت ضـد، أمـام الذيـن تركوا المفهوم الذي يقول: إن الجغرافية التطبيقـية، يجـب أن تشـارك في طـرح حلـول من أجل تنظيم النهج أو الأسلوب الذي يدركه الناس في الفضاء وليس المصالح التي تستتر خلف السياسة المكانية.

٤ـ السـكوت ضـد، أمـام الذيـن استمروا بالقول، متقنعين بما يتراءى لهم، بـأن الجغرافـية هـي (عـلم المشهد الطبيعي)، وأن هذا كافٍ دون تحليل وفك رموز الـتاريخ الطبـيعي والإنسـانية، ودون الاهـتمام إلى حقـيقة أن المشهد الطبيعي هو دائمـاً رمـز أو صـورة ودون التسـاؤل حول فهم أسباب ودوافع وظروف أولئك الذين يستوطنون، وأولئك الذين يرتحلون والذين يفتعلون الحروب.

السكوت الإيجابي:

١ـ السـكوت مـن أجـل البحـث في الأسـاليب الاجتماعـية خاصة من المـراوغين الدارسـين والسياسـيين، والبحث عن مفتاح للإجابة عن مشاكل أساسية نحـن السـبب فـيها بعكـس ما هو مذكور عن تعليم كيفية إدارة الميادين الموضعية وكيفية عقد روابط القوى في المكان وحلها.

٢ـ الصـمت لتحلـيل رمـوز الخطابـات والأحاديث في المكان وفكها والمجال الواقعـي الحقـيقي، خطابـات السياسـيين وغيرهـم حـول كل المواضيع، كما في الأوسـاط الإعلامـية وفي الـنهاية كشـف التعليلات التي تضمنتها تلك الخطابات

وتوضيحها، وأخيراً يكون دورهم المتوقع إذاعتها ومساندتها أو الاختلاف معها، أو تكوين العمل المستقبلي.

٣ــ السكوت من أجل التبصر والتدقيق في الأمور المدروسة ليس كأشياء مكانية ولكن مواضيع، حتى إن مقدرتهم في المكان متعادلة، ومن أجل الانتفاع بالأسلوب الذي يعيشون فيه حياتهم.

نحن مقتنعون أن هذه الافتراضات الثمانية السابقة لن تكون محل إجماع الجميع، وأنها تخاطر بكونها تظهر تارة مبتذلة جداً وتارة أخرى كمواضيع قابلة للنقاش، ولكنها تثير الجدل حول ما إذا كان من الممكن الأخذ بها واتباعها، كما أنها تعمل على محاولة الكشف عن مواضع الاختلاف والانشقاق مع فرضيات مشابهة أخرى لباحثين جغرافيين آخرين، وهذا داخل في مجال البحث عن الهوية. وهذا يسمح لنا بطرح الاعتبارات التالية للوصول إلى نهاية نقاشنا:

١ــ إن تلك الفرضيات السابقة تتكرس في قلب الجغرافية الإنسانية وأن جوانبها تستطيع التدرج بالباقي، بما في ذلك البعد البيئي، إن صياغة هذه الفرضيات بشكل واضح في البدء سيتحاشى بأن تكون الجغرافية معزولة في أغلب الأحيان وسيجنبها أن تكون غير مستحقة الذكر في كشف لوائح أصحاب المكتبات، ومتعهدي مخازن المعلومات حيث يحتشد هناك باحثوا الأنظمة، ويذهب السياسيون، المتمرسون، والهواة من كل الأصناف للتثقيف وإغناء مجالاتهم، وفي هذا الصدد قال (فيرناند براندیل **Fernand Brandel**): "يظهر أي بأن الجغرافية، في مجموعتها الخاصة، هي الدراسة المكانية للمجتمع، أو، هي دراسة المجتمع في المكان".

ولنركز في هذا الموضوع على ما جاء به (هيلد بيرت إزنارد **Heldebert Isnard**) الذي يعود له الفضل بتوضيح هذه الملاحظة، وحتى إنه، حسب فهمنا، كتم الكثير من التوترات والمواجهات داخل المجتمعات، وأن له الفضل في

التعريف بأن الجغرافية كانت تعمل دائماً، وكأن الفضاء المادي كان دائماً المنظم المسلم به للفضاء الخارجي.

٢ــ لكن يظهر أن هناك أحاديث ونصوصاً جيدة، وكتابات، وأعمالاً، وأفعالاً، كلها ناتجة عن المشاركة الجغرافية، وإذا ما جربها أحدهم بعد أعمالها البحثية، وبرامجها التربوية، فإنها أبعد من ذلك. ويستطيع أحدنا أن يفهم أن التعب من الانتظار، يترك الآخرين يكملون فعل الذي يفعلونه في مستهل الجغرافية الإنسانية أو الجغرافية فقط دون زيادات، وأن عدداً معيناً من الجغرافيين يتحدون من أجل المطالبة بالجغرافية الاجتماعية كمادة أساسية، وذلك باستخدام عدد معين من المسلمات أو غيرها للتعريف.

هذه الجغرافية الاجتماعية ليست فرعاً جديداً من الجغرافية على الإطلاق، ولكن نظرة حديثة تسمح بالتدرج في حل المشاكل إذا ما أخذ بها من قبل الطرف الآخر.

٣ــ يبقى بلا شك للتعريف عن الأساس، أن الذي تفعله الجغرافية الاجتماعية هو إذا بتحريض من تشعبات أخرى تكون دائماً شافية عندما تكون مصاغة بوضوح. وكأمثلة على هذه التشعبات والاختلافات ما يلي:

آ ــ الاختلاف على جميع المستويات، وهنا فإن الجغرافية الاجتماعية تستطيع العمل على كل المستويات، وذلك بسبب تجمع سياسات على مستويات مختلفة. وللتوضيح أكثر، فعلى المستوى العالمي يمكن التكلم عن نصوص لـ هيرودوت **Herodote** تتعلق بالجغرافية السياسية، حتى إن هذه الأخيرة لم توضح كل جوانب المشكلات والعوائق، بل ذهبت بالتأكيد إلى الأصل، أما على المستوى المحلي فينظر كموضوع قوي وغني للبحث والاستكشاف.

ب ــ الاختلافات حول الاقترابات: الاقتراب من النمط الماركسي لدراسة الانتقال ضمن مجال الروابط الاجتماعية، وتفاوت المقدرة في المجال على تحديد أثر الأصناف والجماعات الاجتماعية، هو بالتأكيد الأكثر أهمية.

نحـــن نعـــتقد أن الجغرافـــية الاجتماعـــية مطلـــوب مـــنها أن تأخذ في الحسبان جدلـــية الـــثقافة والاجـــتماع، وأن الـــروابط بين الاثنين ليست بسهولة عرض روابط مـــن نـــوع معـــين، حـــتى إنه من الواضح جداً أن التصنيفات المهيمنة نشرت نماذجها الثقافـــية (نمـــاذج شـــكلية، تقنـــية، تمرســـية) مثل طبيعة المرجع. وإننا في هذه النقطة بالذات في جهل كبير.

بـــلا شـــك هـــناك ابـــتكارات وإصدارات مفاجئة، ذلك أن دراسات من نوع مشابه أو مطابق ستسمح بتجاوز ما هو قائم.

وســـيبقى في الـــنهاية أن نعـــلم كـــيف أن الأفـــراد أو العائلات تدبروا أمرهم وســـط كـــل هـــذه الـــتحديدات والتقيـــيدات وذلك على مستوى الممارسات المحلية كفضـــاءات ناقلـــة، والـــرموز كقيم، فالجغرافية المختصة بعلم الظواهر الطبيعية، هي الجغرافـــية الوجوديـــة. وهـــل هذا مطلوب من الجغرافية الاجتماعية، وهل هو خارج منها؟ كل ذلك موجود هنا.

مـــن هـــذا المفهـــوم ندرك أموراً معينة من استنتاجات (راسين J. B. Racine) بـــأن الاقـــترابات الـــثلاثة تدعـــو من أجل تبسيط جذري، سلوكي، إنساني، وأنها في النهاية أقل اختلافاً من المتممات.

في حالـــة إدراجهـــا وتعـــريف مستوياتها والتدرج بها، فإن الجغرافية الاجتماعية ســـتكون مهمـــتها جامعـــة مـــن أجـــل الـــتأكد من أسلوب أكثر دقة وثراء لتنظيم المجـــتمعات عـــلى ســـطح الأرض. وهـــذا يقـــر تنســـيقها وجمعها في طراز تفسيري وصفي وليس تجريبياً، وبشكل واضح.

الفصل الأول

مدخل في الجغرافية الاجتماعية وظهور الأفكار الاجتماعية والاتجاهات العامة فيها

- مدخل في الجغرافية الاجتماعية
- ظهور الأفكار الاجتماعية في الجغرافية
- الاتجاهات العامة في الجغرافية الاجتماعية

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

مدخل في الجغرافية الاجتماعية

أولاً: مفهوم الجغرافية الاجتماعية:

الجغرافية الاجتماعية تعبير دقيق يعني تنوع علاقات الإنتاج، والعلاقات الاجتماعية الناجمة عنها في البيئات الجغرافية، وهي تبدو وكأنها مفهوم جديد يرجع الجغرافية الاقتصادية إلى جغرافية بشرية، ذلك أن الجغرافية الاقتصادية هي المظهر المحسوس للعلاقات المتبادلة بين المجتمعات والوسط الطبيعي الذي حولته إلى وسط جغرافي موسوم بعمل الإنسان وتاريخه.

تأخذ الجغرافية الاجتماعية طابعاً مصطنعاً عندما نجردها من محتواها الاقتصادي، فالمجتمع ما هو إلا شكل من أشكال تنظيم جماعة بشرية لاستثمار الموارد الموجودة في مكان ما. ويجب عند دراسة مجتمع ما، الاهتمام بالظروف التاريخية الخاصة بتطور هذا المجتمع.

ترجع الأنظمة الاقتصادية إلى العلاقات الاجتماعية، وهي نتيجة لها إن تجمع أدوات الإنتاج في يد فئة قليلة من السكان في المجتمعات الرأسمالية هو واقع اجتماعي لأنه يؤدي إلى انقسام المجتمع إلى طبقة مالكة وأخرى غير مالكة. ويحدد الواقع الاجتماعي الخصائص الرئيسة للاقتصاد الرأسمالي، وأن زيادة حجم الطبقة العاملة الفقيرة هو حقيقة اجتماعية أخرى ناجمة عن هذا النوع من النظام الاقتصادي.

وأن النظام الاجتماعي ـ الاقتصادي لا يشكل كلاً متجانساً خصوصاً وأن كل انتقال جذري من نظام لآخر عن طريق القضاء على النظام السابق هو أمر غير طبيعي، لهذا فعند دراسة المجتمعات دراسة جغرافية اجتماعية لا بد من الاعتماد على دراسة تطورها التاريخي والسمات والآثار المنحدرة من مراحل الأنظمة الاجتماعية ـ الاقتصادية على الوضع الحالي للمجتمع المعني. فالمجتمعات السائرة في طريق النمو لا تمثل بأي حال من الأحوال، نظاماً اجتماعياً ـ

اقتصـــادياً أصـــيلاً، لكـــنها تمـــثل أنماطاً تعدلت وتحولت باحتكاكها وتأثرها بالاقتصاد الرأسمالي الاستعماري.

ثانياً: الجغرافية الاجتماعية: تعريفها ـ محتواها

الجغرافـــية الاجتماعـــية هـــي أحـــد أقســـام الجغرافـــية البشـــرية التي تتناول بالدراســـة المجـــتمعات البشـــرية عـــلى سطح الأرض، وعلاقاتها المختلفة، والناجمة عن مجموعـــة الظـــروف المتأتـــية عـــن أوضاع نشوء طبقات مختلفة من النمو السكاني في مكـــان معـــين ومقدراتهـــا الإنتاجـــية ومســـتوى الحـــياة فـــيها كمجتمعات المناطق الصـــحراوية أو المعـــتدلة أو الـــباردة والجبلـــية أو البحرية، أو مستوى تطور أدوات الإنـــتاج[1]. وفـــيها تتـــنوع أنماط الحياة نتيجة للعلاقات المختلفة المدعومة بالمعتقدات والعـــادات والتقالـــيد والأحكـــام[2]. لذلـــك فإن عناصر البيئة الاجتماعية كافة قابلة للـــتحول والـــتغير، وهـــذا يعمل على ظهور التناقضات داخل المجتمع القائم المستقر، يضـــاف إلى ذلـــك تطـــور وســـائل الإنـــتاج أو إنتاج شيء آخر، لأنه يغير من طبيعة العلاقـــات الاجتماعـــية فـــينفي ما كان في البداية ضرورياً، ويخلق حاجات ونشاطات جديـــدة، هـــي نشـــاطات الجماعـــات غير المتصورة في البنية الاجتماعية القديمة. فهي جماعـــات لم تكـــن في نظـــام المجـــتمع القديم ولا في تسلسله الطبقي، وبالتالي ليس لها مخصصـــات في توزيـــع المـــنافع والامتـــيازات بذلـــك المجتمع ونظامه، إلا أنها تكون قـــادرة عـــلى قلـــب نظـــام القـــيم الاقتصادية لمصلحتها عن طريق الاستغلال الكبير لـــلموارد وعـــندها يصـــبح المجـــتمع وكأنه محطم أو مجمد، وحينئذ إما أن يتطور بعد تلـــك التناقضـــات والصـــراعات وإما أن تقدم الثورات، وكل مجتمع في أي بلد لديه مقـــدرات بشـــرية ومادية وأي تطـــور في تقنـــيات وسائل الإنتاج يخلق التوتر بين

---

(١) فاضل الأنصاري، الجغرافية الاجتماعية: جامعة دمشق، الطبقة الثانية، ١٩٩٠.

(٢) بـــير جورج: جغرافية العالم الاجتماعية، ترجمة فايز كم نقش، منشورات عويدات، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ١٩٦٧.

حلقات الزمن أي بين فترة زمنية وفترة تليها، لأن هناك قوى في الفترة التالية تعمل على إيجاد التوافق بين المجتمع والتقنيات الحديثة التي ينجم عنها أهداف إنتاجية جديدة وبالتالي علاقات إنتاجية جديدة ثم مكتسبات ومنافع لا بد من إعادة هيكلة جديدة لتوزيعها.

فالتقدم التقني في العصر الحالي أسهم في ظهور تبدلات وبنات اجتماعية جديدة الأمر الذي أدى إلى خلق نوع من التوتر والتفرقة الاجتماعية في المجتمع فالمجتمعات التي قطعت شوطاً في طريق التقدم والتقنية العالية، التي تسمى بالصناعية، تميزت عن تلك المتخلفة أو السائرة في طريق النمو، وهذا أدى إلى خلق نماذج متناقضة في سلسلة التطور الاجتماعي، كما أن ظهور الاستعمار في القرنين الماضي والحالي عمل على الاحتفاظ بمجتمعات ترجع في عاداتها وطبائعها ونظمها الاقتصادية والاجتماعية الثقافية إلى العصور القديمة والوسطى، علماً أنها أصبحت تتقلص وبطريقها إلى الاضمحلال نتيجة للتوسع الكبير نحو أراضيها من قبل المجتمعات المتحضرة.

وقد عملت الثورة العلمية التقنية على إحراز تقدم كبير في مجال العلوم الإنسانية والأساسية والتطبيقية سواء على مستوى العلوم الطبية أم صناعة الحاسوب الآلي أو علوم الفضاء والتي رافقها تقدم في وسائل الاتصالات البرقية والتلفونية ووسائل الإعلام المرئية والمسموعة والأقمار الصناعية ذات الأغراض العسكرية، كل هذا أسهم بدوره في تلاقي المجتمعات وتواصلها كما أن ثورات الوطنيين في المجتمعات المستعمرة عملت على إزالة الاستعمار، وتراجعت المجتمعات الصناعية أمامها، وأدى هذا إلى نشوء أشكال جديدة من التنظيم لدى المجتمعات التي استعمرت إلا أن هناك مجتمعات بقيت متمسكة بنظمها وعاداتها ومعتقداتها القديمة كالمجتمعات التي ما زالت تسود فيها السلطة الدينية أو القبلية والمجتمعات الإقطاعية والملكية الواسعة لكنها هي الأخرى بطريقها إلى التفكك

نتيجة لاتصالها بالمجتمعات الصناعية، لكن دون أن يحدث شكل جديد من التنظيم الاجتماعي[1].

فالجغرافية الاجتماعية إذن تدرس نمط الحياة التي استطاع بها الإنسان أن يتأقلم ويخضع لبعض متطلبات الوسط كذلك للطريقة التي أثرت بها القوى الاجتماعية الصرفة فيه، مثل القوى الخاصة بالعادات التي تسهم في معارضة التنظيم العالمي، إنه لمن السهل جداً بالاعتماد على وصف نمط الحياة معرفة الجغرافية البشرية للجماعات البدائية التي كانت تعيش في الغابات أو الصحارى أو المناطق القطبية حيث كان التخصص المهني شبه غائب.

لذلك فقد قام أفراد المجتمع بالنشاط نفسه، ولفهم التنظيم على سطح الأرض نكتفي بمعرفة ماذا فعل كل واحد، وقد ولد المجتمع من تكاثر الأفراد المتماثلين بسلوكهم. والجغرافية الاجتماعية حين تدرس أنماط الحياة للمجتمعات البشرية في بيئاتها الجغرافية، فهي عنصر معرفة وتحليل جغرافي، تسهم في الجغرافية كعلم بشري يهتم بالعلاقات التي رسمتها البشرية على مر العصور التاريخية والتي ما زالت أنماطها حاضرة حتى عصرنا الحالي، وتؤثر في مصير العالم، وتهتم الجغرافية الاجتماعية أيضاً بمجمل المؤثرات الطبيعية في الإنسان، وتستعين بعدد كبير من العلوم الطبيعية كعلم المناخ والجيولوجيا والبيولوجيا، وبالعلوم الإنسانية كعلم الاقتصاد وعلم الاجتماع، والديموغرافيا، والتاريخ، والانتروبولوجيا، والانتوغرافيا والإحصاء إضافة إلى علاقتها الوطيدة بفروع علم الجغرافية الأخرى.

ويقول (أبير جورج): (فالجغرافية الاجتماعية ليست شكلاً جديداً للفكر الجغرافي إنها عنصر معرفة جغرافية لا منظر صورة خاصة للجغرافية أو لبعض الجغرافيين وهي بوصفها عنصر تحليل جغرافياً لا تسهم في التكوين الجغرافي

---

(١) محمد السد غلاب، الجغرافية العامة الطبيعية والبشرية، مؤسسة، شباب الجامعة، الإسكندرية من ص٢٧٧ إلى ٢٨١.

فحسب بل في الجغرافية كعلم بشري، علم العلاقات الوضعية ولا سيما الفعالة بين مختلف العوامل التي تؤثر في الحياة اليومية وفي مصير مجموعة بشرية ينظر إليها بحسب الفراغ والموقع اللذين تشغلهما في مجموعة العلاقات الأرضية[1].

ثالثاً: المدارس الجغرافية والجغرافية الاجتماعية:

١ـ المدرسة الحتمية:

تؤثر الطبيعية بوضوح في الأفراد والجماعات على سطح الأرض. ويظهر هذا الأثر بأشكال عديدة ومتنوعة. منها الأثر الفيزيولوجي المتمثل بلون البشرة، كارتفاع الصبغيات السود عند سكان البلاد الحارة، وكذلك زيادة الغدد العرقية عندهم، أو اتساع الصدر عند سكان المناطق المرتفعة. كما تؤثر في أنماط المعيشة من حيث شكل اللباس، ونمط المسكن، ونوع الغذاء، والعادات والتقاليد. كما قال البعض أنها تؤثر في الطبائع والملكات النفسية والمعتقدات الدينية والقوانين والأخلاق، البشرية.

وكلنا يعلم أثر الطبيعة في الإنسان فهو مدفوع بغريزته للبحث عن وسائل معيشته بشكل دائم والحاجات الأساسية موجودة عند كل إنسان على سطح الأرض لكن نمط المعيشة يختلف من بيئة إلى أخرى فسكان المناطق الباردة يختلفون في نمط معيشتهم عن سكان المناطق الصحراوية الحارة أو عن سكان المناطق المعتدلة.

ومع وضوح هذا الأمر فقد تعددت المذاهب والأفكار في تفسيره عبر العصور. فقد ظهر المذهب الحتمي عند الإغريق حيث كانوا يرجعون الاختلافات في الظواهر الاجتماعية أو البشرية إلى ظروف البيئة الطبيعية فمثلاً

---

(١) بيير جورج، جغرافية العالم الاجتماعية، ترجمة فايز كم نقش، منشورات عويدات، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ١٩٦٧، ص١١.

"إبيقراط"[1] في كتابه "الجو والماء والأقاليم" أظهر أن اختلاف الجبال عن سكان السهول من الناحيتين الخلقية إنما يرجع إلى اختلاف آثار بيئتين متباينتين. أما أرسطو فقد لاحظ في كتابه (السياسة) نوعاً من الارتباط بين المناخ وطبائع الشعوب.

وهكذا نلاحظ أن فكرة الحتمية قد انتقلت عبر التاريخ، فقد ظهرت عند ابن خلدون في القرن الرابع عشر الذي يرجع الصفات السلالية إلى أثر المناخ فيقول إن البشرة السوداء نتيجة للحر الشديد، وإن الطبائع والأمزجة تتأثر بالمناخ؛ فهو يقول: "وقد رأينا من خلق السودان (السود) على العموم الخفة والطيش، وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص... ولما كان السودان ساكنين في الإقليم الحار واستولى الحر على أمزجتهم وأصل تكوينهم كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم، فتكون أرواحهم أشد حراً، فتكون أكثر تفشياً، فتكون أكثر فرحاً وسروراً، وأكثر وانبساطاً، ويجيء الطيش على أثر هذه...

ونلاحظ الحتمية عند مفكري القرن السادس عشر أمثال "بودان **Bodin**" (١٥٣٠ـ١٥٩٦)، وهو أحد مفكري عصر النهضة، الذي ربط بين طبائع الناس والمناخ قائلاً: إن أهل المناطق الباردة هم قساة مخاطرون، وأهل الأقاليم الجنوبية الحارة يتصفون بالمكر والأخذ بالثأر، أما أهل المناطق المعتدلة فلديهم القدرة على القيادة وأكثر فطنة من أهل الشمال، وأكثر نشاطاً من أهل الجنوب، وفي القرن الثامن عشر بين مونتسيكو **Montesquiou** من خلال كتابه "روح القوانين" أن يربط بين المناخ والتربة من جهة وطبائع السكان وصفاتهم من جهة أخرى وعدّ الإنسان عاملاً تقابله قوتان عظيمتان هما سطح الأرض (الخصب أو الجذب) والمناخ (الحار أو البارد أو المعتدل)، وأخيراً استنتج أن المناخ الحار

---

(١) إبقراط **Hippocrate** ولد في عام ٦٤٠ قبل الميلاد وهو أب الطب القديم.

علاقة بالاستبعاد وللبرودة علاقة بالشجاعة وأن للمناخ أثر ركود عادات الشعوب الشرقية، وتعقد معتقداتها، إلا أن هذا الاستنتاج كان خاطئاً، ويتنافى مع الواقع.

فظهرت الحتمية عند مفكري القرن التاسع عشر أيضاً. فقد أكد كل من "همبولت وريتر" مبدأ الارتباط بين العناصر الثلاثة في الطبيعية الأرض والماء والهواء، في تفسير الحقائق وبنيتها وتطورها من جهة، وتوزيع الظاهرات وانتشارها في إطار مكاني من جهة أخرى. كما نلاحظ الحتمية عند "العالم داروين" في كتابه "أصل الأنواع" و"تطور الإنسان" حيث بين من خلالها أن العلاقة بين الكائن الحي والبيئة هي علاقة ملاءمة وتكيف؛ فهو يقول: "إن البيئة تختار الأفراد الذين تتلاءم صفاتهم مع ظروفها اختياراً طبيعياً، وتترك غيرهم للفناء، وإن قانون الحياة يقول: إن البقاء للأصلح ملاءمة مع البيئة" كما أكّد مبدأ الحتمية الجغرافية بعض من علماء الاجتماع وبعض من الفلاسفة أمثال "لوبلاي Play" و"ديمولان" حيث عدّ الأول أن الوسط الطبيعي يحدد نمط العمل الذي يحدد بدوره نظام المجتمع، لكن هذا الرأي ينطبق على العمل الزراعي، ولا ينطبق على الأعمال الصناعية وغيرها. أما الثاني "ديمولان" فقد أوضح من خلال مؤلفه كيف خلق الطريق النمط الاجتماعي (١٩٠١ــ١٩٠٣) أن النهج الذي تسلكه الشعوب ما الذي يعد استجابة للظروف البيئية الطبيعية هو المسؤول عن تباين تلك الشعوب في توزعها على سطح الأرض لأنه هو الذي أوجد النوع والنمط الاجتماعي معاً.

ويعد الألماني "فريدرك راتزل F.Ratzel" (١٨٤٤ــ١٩٠٤) مؤسس علم الجغرافية البشرية في العصر الحديث فقد أظهر في كتابه "الجغرافية الإنسانية" حدود المعمور واللامعمور من حيث علاقتها بالطرق والمواقع الطبيعية، ودرس العوامل التي تتحكم في توزيع السكان وتطورهم حضارياً. فركز على حتمية العوامل الجغرافية وأثرها في مصير الشعوب ومستقبلها، وإظهار دور الإنسان

كعامل جغرافي فعال. إلا أن آراء راتزل في حتمية تأثير البيئة على الإنسان وجدت ردوداً سلبية نحوها من عالم الاجتماع "دوركايم Dorkein" الذي أنكر على راتزل تصوره لكل تأثيرات الوسط الطبيعي على الحياة الاجتماعية. لكن رغم الانتقادات التي وجهت إلى راتزل فيعد المؤسس الأول لعلم الجغرافية البشرية في العصر الحديث.

وقد بالغ الحتميون في تصورهم لسيطرة الطبيعة على الإنسان، وعدوا الإنسان خاضعاً خضوعاً تاماً لقوانينها. وبقي هذا الاعتقاد سائداً حتى القرن التاسع عشر.

٢ـ المدرسة الإمكانية:

بالرغم مما قدمته المدرسة الحتمية من براهين وأدلة على أثر البيئة الطبيعية في الإنسان فإنه لا يمكن للجغرافية أن تتجاهل أثر الإنسان الكبير في تغيير البيئة الطبيعة وتعديلها واستغلالها. فهو قادر على الحد من سلطتها بقدر ما يحققه من تقدم في ميادين العلم والحضارة والجماعات المختلفة هي وحدها التي تعيش تحت رحمة الطبيعية ودراسة ما فعله الإنسان في البيئة الطبيعية، تظهر أن الإنسان عامل إيجابي في معظم الحالات، وأن البيئة الطبيعية، وحدها لا يمكن أن تفسر كثيراً من المظاهر البشرية المتنوعة والمتشابهة والمختلفة.

إن تشابه البيئة الطبيعية لا ينتج بالضرورة أنماطاً بشرية متشابهة، لأن ذلك يرتبط بطبيعة الإنسان ومقدرته الجسدية ومستواه العقلي، وتنظيمه السياسي والاقتصادي، ومطالبه ورغباته وتكوينه الاجتماعي، كما يرتبط بنواحي كثيرة متعددة أغلبها مرتبط بالظروف البشرية.

هذا وقد كان للنهضة التي ظهرت في علم الاجتماع في فرنسا، وإعطائها وزناً كبيراً للإنسان انعكاس في الجغرافية الفرنسية التي رأت أن نوع الإنسان ورغباته وقدراته الجسمية والعقلية لها أثر كبير في تنظيم المجتمع البشري في تعديل

البيئة الطبيعية.

فظهرت آراء جديدة أنكرت الحتم الجغرافي واعتقدت أن الإنسان قادر على التأثير في عناصر الطبيعة المحيطة به بما يملك من تقانة ووسائل تساعده في السيطرة على الطبيعة وقد أطلق "لوسيان فيفر **Lucian Febver**" على هذه الأفكار اسم "الإمكانية التي تطورت على يد كل من "فيدال دي لا بلاش" و"برين" في فرنسا، و"بومان وكارول ساور" في الولايات المتحدة الأمريكية.

يعطي الإمكانيون كما هو الحال عند الحتميين، وزناً كبيراً للعوامل الطبيعية، والعلاقات بين الظاهرات المختلفة على سطح الأرض. ويعتقدون أن الإنسان ليس له مطلق الحرية في كل ما يصنع، أو أنه حل من كل المؤثرات الطبيعية في كل الأماكن ومع ذلك بإمكان الإنسان تغيير بعض مظاهر البيئة الطبيعية، وقادر على استغلال خيراتها بما يتناسب مع حاجاته، وتبعاً لكفاءته لأن الناس ليسوا على الدرجة نفسها من التقدم التقاني في كل الأماكن.

وقد حدد "فيدال دي لا بلاش **Paul vidal de la blach**" (١٨٤٥ــ ١٩١٨)م طبيعة العلاقة بين الإنسان والبيئة قائلاً: "الإنسان والمجتمع ليسا نتاجاً للعوامل الطبيعية فقط بل تتشكل تلك العوامل نفسها نتيجة للعمل الإنساني أيضاً". كما ويؤكد، هل أن الإنسان عامل جغرافي فاعل، ومؤثر في الوسط الطبيعي لتحقيق مصالحه لكنه أضاف قائلاً: "كل ماله علاقة بالإنسان يبقى في حدود الإمكان" ورأى في الجغرافية البشرية مجالاً لدراسة مقارنة للمجتمعات البشرية، فركز على دراسة الاختلافات بين المجتمعات في ضوء علاقاتها بالبيئة.

وجاء من بعده "سور **M.Sorre**" الذي تعرض لدراسة أساليب الحياة الاجتماعية، فركز على الإنسان وعده العامل الجغرافي المؤثر بما لديه من تقانه تمكنه من التغلب على الطبيعة وتحويلها إلى مناطق جغرافية أو ثقافية معمورة وهكذا لم تنكر المدرسة الإمكانية أثر الإنسان في البيئة الطبيعية وأنه ليس ثابتاً

ولا نهائياً فكلما تقدم الإنسان وتسلح بالعلم والتقانة يستطيع تسخير ما هو في البيئة الطبيعية لمصلحته.

٣ـ المدرسة التوافقية أو الاحتمالية *Probablilism*

جاءت لحسم النزاع بين المدرستين الحتمية والإمكانية. ومن أبرز أعلامها "جريفت تايلور **Griffith Taylor**" الذي تصور أن البيئة تشبه شرطي المرور، الذي يسمح بالسير أو يوقفه، أو يغير من سرعته، فالسيطرة على البيئة لا يمكن أن تكون بفعل الإنسان وحده، بل لا بد من صلاحيتها وسهولة التفاعل معها. وأي استغلال لمنطقة ما يتطلب انسجاماً مع البيئة وضوابطها. وإمكانات البيئة غير متساوية، والفرص التي تقدمها مختلفة من مكان إلى آخر، فبعضها يحتاج إلى عمل قليل ، وبعضها الآخر يتطلب جهداً متواصلاً ودائماً. وبعضها ينتج غلالاً وفيرة، والآخر قليل الإنتاج.

ولا تؤمن المدرسة التوافقية بالسلطة المطلقة للطبيعة على الإنسان، بالمقابل لا تؤمن بالإمكانية المطلقة، فهي تقرّ بأن الاحتمالات موجودة في بعض الأوساط الطبيعية التي يقف أمامها إنسان تلك البيئة عاجزاً بإمكاناته ووسائله عن مواجهة تحديداتها وقساوتها "حتمية" وهناك بيئات طبيعية تكون قدرة الإنسان المتطور ومعارفه كافية لإخضاعها واستغلالها "إمكانية".

إن مؤيدي هذه المدرسة واقعيون في تصورهم للعلاقة بين الإنسان والبيئة، لأنه ليست كل البيئات الطبيعية متشابهة في تأثيرها في الإنسان، وكذلك فالكثافة السكانية ليست واحدة في كل البيئات، كما أن درجة تطور الإنسان وتحضره تختلف من بيئة لأخرى وعليه يمكن تقسيم البيئة إلى قسمين من حيث إمكانية استغلالها من الإنسان وهما: بيئة قاسية تتطلب تقدماً علمياً كبيراً، وجهداً إنسانياً وساعات عمل عديدة، مثالها المناطق الجليدية والصحراوية والجبلية والغابية وغيرها.

وهناك بيئة قاسية للاستيطان البشري، وسهلة الاستغلال وبالمقابل يمكن تصنيف المجتمع البشري إلى صنفين هما: أولاً: المجتمع المتقدم في جميع المجالات والقادر على الهيمنة على البيئة وتسخيرها له. ثانياً: المجتمع النامي الذي لا يملك تقانة عصرية ومتطور، بحيث لا يكون قادراً على استغلال موارد البيئة استغلالاً كاملاً، ويعجز عن فعل الكثير أمام قساوة الطبيعة.

وهكذا فالإمكانية تبرز بوضوح عندما يستوطن الإنسان المتحضر والمتطور بيئة سهلة في حين أن الحتمية تظهر عندما يقيم الإنسان المتخلف في بيئة قاسية وهكذا تتحدد نتيجة تفاعل الإنسان مع بيئته من خلال نوعية الوسط الطبيعي ومستوى التقدم الحضاري والتقني لوسائل الإنتاج لدى الجماعة الإنسانية.

رابعاً: علاقة الجغرافية الاجتماعية بالعلوم الأخرى:

يختص علم الجغرافية بدراسة الظاهرات الطبيعية والبشرية المختلفة وطبيعة تفاعلها من حيث التأثير على سطح الأرض. ونعلم أن ثمة علوماً كثيرة تختص بدراسة الظاهرات الطبيعية وأخرى تختص بدراسة ما يتعلق بالإنسان. غير أن هذه العلوم تتخصص في جوانب محددة لها آراء معينة فعلوم الجيولوجيا والجيزفيزياء تهتم بدراسة العناصر المكونة للغلاف الصخري، وهي تفصلها عن بعضها تسهيلاً للدراسة. وكل علم ينظر إلى العناصر نفسها، من منظار خاص. أما الجغرافية الطبيعية فتنظر إلى هذه العناصر كلها ضمن مركب عام يعيد إليها وضعها الحقيقي كوحدة طبيعية.

وهناك علوم إنسانية واجتماعية تركز على الإنسان وعلاقته بالطبيعة فعلم البيئة مثلاً وحسب وجهة نظر "هيكل **Haeckel**" تدرس: العلاقات المتبادلة كل العضويات الحية (وعلى رأسها الإنسان) التي تعيش في الوسط نفسه، كما تدرس تلاؤم هذه العضويات مع الوسط المحيط بها[1].

---

(١)**vidal de la blavche les princioesde geographie humaine ١٩٢٢.**

أمـــا الجغرافـــية البشـــرية فهـــي العـــلم الذي يدرس آثار الطبيعة المباشرة وغير المباشـــرة عـــلى الإنســـان والمجـــتمع كما يدرس أثر المجتمع البشري في الوسط الذي يعيش فيه.

والجغرافـــية الاجتماعـــية فـــرع مـــن الجغرافـــية البشرية، تمثل في الواقع آخر مـــرحلة مـــن مـــراحل تطـــور الطـــريقة الخاصة بالجغرافية البشرية، وإن تطور تلك الطـــريقة يتمـــثل في التغـــييرات الـــتي أصابت تعريف الجغرافية البشرية. فقد عرفها الجغـــرافي الفرنســـي **albert demangeon** أنهـــا دراســـة علاقـــة الإنســـان بالبيئة الطبيعية[1].

ولكـــن ســـرعان مـــا ظهـــر هـــذا الـــتعريف أنـــه واسع جداً، وأن كثيراً من العلاقـــات القائمـــة بـــين الإنسان والبيئة الطبيعية تخرج عن نطاق اختصاص الجغرافية البشـــرية، وتدخـــل ضـــمن نطاق اختصاص علوم أخرى فقد قدم "فيفر **L.Febver** " تعـــريفاً للجغرافـــية البشـــرية بأنها دراسة الجماعات البشرية في علاقاتها مع الوسط الطبـــيعي[2]. غـــير أن هـــذا التعريف يبدو ناقصاً أيضاً فالربط بين بيئة طبيعية ومجتمع إنســـاني يتضـــمن نوعـــاً مـــن التـــناقض أو نوعاً من النقص على الأقل ذلك أن كل وســـط طبـــيعي لـــيس مســـكوناً بالضـــرورة فهـــناك أوساط غير مناسبة للاستيطان البشـــري أضـــف إلى ذلـــك أن كـــل وســـط طبيعي تسكنه جماعة بشرية يتحول إلى وســـط جغـــرافي يحمـــل الآثـــار البشـــرية. لذا فقط ظهر تعريف ثالث شامل يبين أن الجغرافـــية البشـــرية: هـــي دراســـة علاقـــات الجماعات البشرية مع البيئة الجغرافية ومـــنذ أن بـــدأت الجغرافـــية البشـــرية بدراســـة العلاقـــات المتبادلة بين الجماعات البشـــرية والبيـــئة الجغرافـــية ظهـــرت المسألة الاجتماعية في الجغرافية، وظهرت معها الطريقة الاجتماعية في دراسة الجغرافية.

---

(١)**demangeon A.problemes de geographie humaine A. colin paris ١٩٥٢ – p.٢٧-٣٤.**

(٢) **Demangeon A.** مرجع سابق

فالجغرافية الاجتماعية هي دراسة العلاقات المتبادلة بين مختلف المجتمعات البشرية وبين البيئات الجغرافية التي تعيش فيها.

وتظهر العلاقات المتبادلة بين الجماعات البشرية وبيئاتها الجغرافية في أنماط معيشتهم ونظامهم الاقتصادي، لذلك فلكل مجتمع بشري اقتصاد معين، ويمكننا فهم أي مجتمع بشري من خلال نشاطه الاقتصادي ونمط معيشته. حيث تتباين المجتمعات في درجة تقدمها الاجتماعي والاقتصادي، وبناء على هذا التباين تصنف الشعوب إلى متخلفة ومتقدمة.

فموضوع الجغرافية الاجتماعية يتمثل بدراسة المجتمعات البشرية المختلفة في مدى تفاعلها مع البيئة الجغرافية التي تعيش فيها، ودرجة تطورها الحالي مع أخذ التطورات التاريخية بعين الاعتبار. ويجب على الجغرافية الاجتماعية أن تهتم بالتوزع الجغرافي للمجتمعات على سطح الأرض من ناحية، وتحليل الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية، التي تجد في بيئات خاصة من ناحية أخرى وتعليلها.

ونظراً لتنوع الظاهرات التي تدرسها الجغرافية الاجتماعية، فقد اتسعت علاقتها بكثير من العلوم الأخرى. ويرى كثير من الجغرافيين أن هناك صلة بين الجغرافية الاجتماعية وأقسام علم الجغرافية وفروعها من جهة والعلوم الطبيعية والاجتماعية من جهة أخرى، وبحكم تخصصها بالظاهرات الاجتماعية في أماكن توزعها الجغرافي، نجد أن لها صلة بعلم المناخ والتربة والحيوان والنبات وذلك لتحديد الشروط الطبيعية للوسط الجغرافي المأخوذ بعين الاعتبار وهي تستعين بالعلوم الاجتماعية كعلم الاجتماع والإحصاء والديموغرافية والانتروبولوجيا والاقتصاد لدراسة المجتمع البشري في تنظيمه وهيكله ومؤسساته.

خامساً: طريقة البحث ومقوماتها:

هناك طريقتان للبحث الأولى النظامية، وتبحث في خواص الظاهرة وتوزعها بشكل مستقل دون حصر لها بمكان أو إقليم معين معتمدة على نتائج

العلـــوم الأخـــرى. الثانـــية هي الطريقة الإقليمية: وتبحث الإقليم أو النطاق الجغرافي في إطار تميزه بعدة خواص أو ظواهر يختلف فيها عن الأقاليم الأخرى.

وكلاهمـــا تســـتخدمان أســـلوبين في العمـــل، الأول وهـــو الأسلوب الشكلي، ويركـــز عـــلى الشـــكل والبنـــية. والثاني الأسلوب الوظيفي: ويهتم بالعمل والوظيفة الـــتي تتمـــيز بهـــا الظاهـــرة الجغرافـــية إضـــافة إلى الهدف المنشود من بحث الظاهرة والنتائج الحاصلة والدوافع الذاتية والاجتماعية مع أدوار الباحثين والبحوث.

وللوصـــل إلى النـــتائج نســـتعمل وســـيلتين، الأولى وصـــفية: ونعتمد فيها على الاســـتنتاج مـــن خـــلال الـــبحوث الوضـــعية والمشـــاهدات الذاتية والثانية قياسية: ونستمد فيها النتائج من الخرائط أو البيانات باستعمال طرق القياس الكمية.

وللبحـــث في مجـــال الجغرافـــية الاجتماعـــية هناك عدة شروط ومقومات هي: أن تكـــون بحوثهـــا موجهـــة وتســـتجيب لـــلحاجات الاجتماعـــية أي إلى المطالب الـــتوقعات وتنشـــأ عـــن حافـــز وعليه فهي تقدم خدمات للقطاعات المهنية، كقطاع الخدمـــات الاجتماعـــية أو العائلـــة والتنـــبؤ الاجتماعي، والقطاع الطبي أو الهندسي كذلـــك إلى المؤسســـات الوطنـــية، مـــثل الجـــيش والإدارات ومنشـــآت التعلـــيم والسياســـة الخارجـــية، وفي التخطـــيط الاجـــتماعي ـــ الاقتصادي وتتصف البحوث الموجهـــة هـــنا كونهـــا متغيرة،تـــبعاً لتـــبدل المؤثـــرات الطبيعية والبشرية، ولما كانت أبحـــاث الجغرافـــية الاجتماعـــية جـــزءاً مـــن المحيط الاجتماعي المتبدل، لذا يجب أن تتـــبدل بتبـــدله بـــه، ويجـــب أن تحـــدث تعديـــلاً في المجتمع المدروس عن طريق حل مشكلاته.

ويقـــترن البحـــث الموجـــه بالبحث التطبيقي الذي يهدف إلى إعطاء أجوبة عن مشـــكلات عملـــية نوعـــية تلـــبي معايير استخدام واضحة، مثل وضع مؤشرات عن تـــوزع العمالـــة والـــبطالة. أو إعـــداد مخططـــات للوفيات ـــ كحالة ديموغرافية ـــ تســـمح بإجـــراء مســـابر عديـــدة للـــرأي العـــام وتصـــور نماذج من البطاقات أو

المخططات البيانية تسهل تصنيف المعطيات الاجتماعية والاقتصادية، وفي كل علم يتأثر البحث بوسائل الملاحظة، فكلما تقدمت تلك الوسائل تقدمت مجالات العلم، ففي الجغرافية الاجتماعية وعلوم الإنسان تم تقدم في ثلاثة مجالات هي[1]:

١ــ تطور تقنيات جمع الملاحظات بطريقة السبر، فمثلاً يحصل علم السكان على مواده الأولية من النشرات الإحصائية القائمة على تعدادات السكان.

٢ــ تطور تقنيات جمع المعطيات من الباحث، فتقدم الإحصاء الرياضي أسهم في تطوير عمل الباحثين وتقديم وسائل التحليل الجديد لهم.

٣ــ منجزات الحاسبات الإلكترونية.

وهكذا فالبحث الجغرافي الإنساني الموجه يتطلب أجهزة ومؤسسات متخصصة كالجامعات مثلاً، وضرورة توافر العنصر التعاوني بين الباحثين أو المختصين إلا أنه لا بد من التأكيد على أهمية تجنب المبالغة في استعمال الطرق الإحصائية أو الرياضية المعقدة بحيث تطغى على الهدف، ويجب وضع برنامج البحث موضع العمل وينبغي التنسيق بين التحليل البنيوي والتحليل التاريخي. فالرجوع إلى التاريخ ضرورة للتعرف على مسببات الظاهرة الجغرافية وكيفية تشكلها الزمني عبر التفسيرات الاجتماعية والاقتصادية التي مرت بها. ولا بد أيضاً من التخصص والتكامل في البحث الجغرافي، حيث تتميز المشكلات والنظريات التي تتعلق بالبحث بعضها عن الآخر، إضافة إلى وجود العلاقات التكاملية سواء التي تقع ضمن الظاهرة، أم تربطها بظواهر أو مواضيع مجاورة.

وبذلك يتمكن البحث الجغرافي الإنساني من تجاوز قيود الحتم والجمود والقدرية، ويرفض إطلاقاً التعميمات السريعة ووضع القواعد والفرضيات المطلقة وإبراز التأثير المتبادلة بين الإنسان والطبيعة.

---

(١) د. فاضل الأنصاري، الجغرافية الاجتماعية، مطبعة جامعة دمشق، الطبعة الثانية، دمشق: ١٩٩١.

ظهور الأفكار الاجتماعية في الجغرافية

أولاً: البدايات الأولى للاهتمام في الجغرافية الاجتماعية

تعد فترة نهاية القرن التاسع عشر بداية للحديث عن الجغرافية الاجتماعية، أي منذ أن وجدت الجغرافية علماً رئيساً. فقد كان يحجب تارة وينسى، أو يصنف في زوايا مبهمة، وتارة يثار، ويرقى إلى مستوى الاهتمامات الأولى. والجغرافية الاجتماعية تبدو خاضعة لنماذج ونظم علمية، لكنها لم تكن إلا نموذجاً مماثلاً للجغرافية البشرية وتحت اسم آخر. إن الاهتمامات المعاصرة تسمح بتعميق الجدل بهذا الفرع وتقويته، إننا نلاحظ من جديد وخصوصاً بعد الركود الذي تم في فترة الحروب أن الجغرافية الاجتماعية أصبحت تحتل مكاناً مهماً في التعليم والبحث. ودون أدنى شك فإن أزمة السنوات الأخيرة أسهمت في انبثاق هذا العلم. فكيف إذاً بالنسبة للجغرافيين الذين تجاهلوا الآن ظواهر عديدة، كالعطالة عن العمل، وأزمات الفلاحين، وشيخوخة المجتمعات المتقدمة، والانفجار السكاني في البلدان السائرة في طريق النمو والفقيرة، والاتفاقات الدولية العامة لتحرير التجارة المعروفة اختصاراً باسم "G.A.TT جات"، أو العولمة عموماً، وانفجار المدن، والجريمة المنظمة، إنها أحداث اجتماعية مثلما هي وقائع بيئية. لكن يبدو حالياً أن الجغرافي يلم بجميع عناصر المشكلة ولا يجهل أياً منها. فهو يُلم جيداً بجميع المعطيات الاجتماعية والبيئية التي تشكل مخرجاً تصورياً ذا حدين. فكل مصطلح يعني بحل نصوص أو رموز الآخر مع الارتباط التام بينهما. هذا وباتساع العالم تتكشف الأحداث الاجتماعية وكذلك الوقائع البيئية، وبالعكس تجتمع العلاقات الاجتماعية، والبيئية لتكون بيئة اجتماعية، ومنها يلعب تباين التوزيع في شكل البنيان، كحركة التطور البطيء، وفرقعات التصدعات والأزمات. إن دراسة هذه العلاقات والتنظيمات بين العلاقات البيئية والاجتماعية هي موضوع الجغرافية الاجتماعية. إن حقل الجغرافية الاجتماعية واسع جداً، ودراسته حديثة جداً ومتفرقة، ومشاكله غامضة ومتغيرة، ولهذا لابد

من التحكم بضبطه. وإن عدم الثقة بالمواضيع الجغرافية الكلاسيكية، يدفعنا لتقديم نبذة حول الجغرافية القديمة جداً والحديثة وبه نكون قد طرقنا باب هذا العلم.

١ـ أصل الجغرافية الاجتماعية:

من أجل الاطلاع على علم يبحث عن التكوين والشهرة لابد من التعرض لبداياته. ومن وجهة النظر هذه، يمكن للجغرافية الاجتماعية أن تستفيد من إرث مضاعف. إن مقارنة تطور الجغرافية الحديثة خلال الثلاثين سنة الأخيرة: التطبيقية منها، والكمية، والحسية، والأساسية، والإنسانية يتبين لنا أنها تطمح إلى الاعتماد على تاريخ يعود لمئة سنة، كالجغرافية البشرية التي يكون لها رديف أحياناً. لكن هل هناك تتابع أو صلة ما بين جغرافيي نهاية القرن التاسع عشر الذين ابتكروا تعبير الجغرافية الاجتماعية واستعملوه والجغرافيين المعاصرين الذين التصقوا بالجغرافية الاجتماعية. إن المنفعة المرجوة من المواضيع الاجتماعية ومظاهرها الجغرافية تفوق كثيراً تكون العلوم الإنسانية والاجتماعية.

٢-الارهاصات الأولية:

استخدم تعبير الجغرافية الاجتماعية لأول مرة في الأعوام ١٨٧٠-١٨٨٠ . فقد ظهر في المجلات المستوحاة من أفكار "لوبلاي Le play"وطرقه، ففي مجلة الإصلاح الاجتماعي نشر "إليزي ريكلس"Elisee Teclus" عام ١٨٨٤ مقالاً تحت عنوان (من أجل فهم الجغرافية العالمية الجديدة). وفي مجلة العلوم الاجتماعية نشر مقال لـ "ديمولان E.Demolins" تحت عنوان الجغرافية الاجتماعية الفرنسية، كما ظهر هذا التعبير عنواناً صغيراً في دراسته "للطرق" وبعد فترة وجيزة ورد تعبير الجغرافية الاجتماعية في أعمال "كميل فالو CamilleVallau" عن "البحر"، ثم في دراسته عن "حالة الترب". وهناك مقالات متنوعة قدمت جميعها دعماً لعنوان فرعي هو "مساهمة في الجغرافية الاجتماعية لفرنسا،

وكندا..إلخ. ويمكن أن يكون استخدام تعبير الجغرافية البشرية أكثر حداثة من ذلك بكثير. فقد ظهر تعبيراً جمالياً للأنتروبولوجيا في عام ١٩٠٩، هذه الظروف كان لها فائدة كبيرة. لكن علماء الاجتماع هم الذين توصلوا إلى تعبير الجغرافية الاجتماعية وليس الجغرافيين. لأن "لوبلاي" بدراسته كان قد أعطى للجغرافية الاجتماعية موضوعاً لدارسة العلاقات بين الوسط الجغرافي والعائلة وتنظيم العمل. وكان علماء الاجتماع الأوائل كاثوليك ومحافظين، وبالنتيجة يعدون أن للوسط الجغرافي تأثيراً قوياً في الأعمال والسلوك الاجتماعي. فيؤكد "ديمولان" مثلاً أن طرق المواصلات هي التي تجذب الجنس البشري والنمط الاجتماعي وتوجده، وهذا ما أراد تقديمه باختصار في الدوريات الجغرافية.

هذه الوقائع المتعلقة بالنص العلمي والجامعي ترجع لفترة نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في كل من فرنسا وألمانيا، وفي تلك الفترة تأكدت للجغرافية شخصيتها كفرع علمي إزاء الطبيعة والإنسانية، ومقارنة بمنهجها التعليمي فقد تحققت شخصيتها أيضاً. وترسخت حينئذ وعدة عقود سيادة توجهات علم الجغرافية.

ثانياً-الجغرافية الثقافية كشكل للجغرافية الاجتماعية:

ظهرت الجغرافية الثقافية في البلدان التي كانت العادات المحلية فيها قوية، وكان "هانز بوبيك" **Hans Bobek** قد شرحها جيداً. والجغرافية الألمانية المصممة على طريقة القرن التاسع عشر لم يكن لها الانفتاح الكافي على العلوم الاجتماعية. وقد درست الإنسان جيداً، ولكنها عالجته من وجهة نظر طبيعية، فهي تتساءل عن الأسباب الرئيسة لتنوعها أو اختلافها، أو لتعدد أعمالها. عموماً، فهي ترجع دائماً إلى التفكير بالدور الكبير للمجال الأرضي، والذي نلاحظه حيث تسجل الحضارات بصماتها عندما نعتمد وجهة النظر البيئية، ونلاحظ أيضاً يقلد الوظيفة الأسطورية إلى حد ما، بالقياس إلى إعداد مصير الشعوب من وجهة نظر تطور الجغرافية السياسية.

ولـلخروج مـن هـذه الأزمة فقد اتجه عدد من الجغرافيين الألمان أمثال "شليتر O.schleter" وباسـارج S.Passarge إلى تحليـل التـباين مـا بـين المظهر الطبيعي والمظهر الثقافي، وكان لديهم الوسيلة لتحليل المجتمع.

أمـا الجغرافـية الثقافـية الأمريكـية فمصـادرها ليست مختلفة إلى هذا الحد. فكمـا رواهـا "بـلات R.s.platt " إن فكـرة الـتعارض بين المشهدين الجغرافيين، الطبـيعي والـثقافي، نشـأت مـن خـلال دلـيل الخرائط الطبوغرافية حيث كانت الإشـارات متواضـعة تحـت عـنوان الطبـيعة والثقافة، ومنذ ذلك الوقت أصبحت تشـير لـتعارض نموذجـين من خطوط المشهد الطبيعي كأعمال الجغرافيين الألمان وما قدمه "ساور C.o.Sauer ". فقد كان الانتقال بين المدرستين سريعاً جداً.

تسـتطيع الجغرافـية الثقافـية ضـبط المشاهد الطبيعية الأصلية، وأثر الإنسان فـيها، بالاعـتماد عـلى كـثير من الاجراءات "فهانز بوبيك Hans Bobek " يميز ثلاثة منها ويعدها ضرورية لذلك ومكملة له وهي:

١ -إجـراء تحلـيل نموذجـي ونظـامي لعناصر المشهد الطبيعي بطريقة يتم فيها التنسيق الذي يربط بين نقطة وأخرى.

٢ -أخـذ الخطـوط البشـرية والسير إلى دراسة وظيفة آلية المجتمع، ثم الانتقال إلى المجال الجغرافي بقصد إظهار حججه في المجالات الجغرافية الأخرى.

٣ -الـرجوع إلى الـتاريخ، ورسـم مكونـات الظاهـرة المدروسـة بدلاً من إيضاحها بالشروط المحيطة في لحظة الظهور.

يـتم تحلـيل المظهـر الـثقافي جزئـياً مـن وجهة نظر تاريخية في بلدان أمريكا الشـمالية. حيـث يظهـر اهـتمام مباشـر مـن عـلماء السلالات بعدد من الأمم المقـترحة. وكـان سـاور أول من بدأ هذه المقارنة. فالجغرافية الثقافية ضرورية جداً، ويعـود الفضـل في تطورهـا إلى أعمـال المدرسة "الكرويبرية Kroeber". ويمكننا حصـر السـمات الثقافـية مـن خلال أعمال راسمي الخرائط المنظمة بخطوط ثقافية.

كما يمكن الأخذ بتفسيرهم معتمدين على علم الأحداث التاريخية، وغنى الخطوط المرئية، وتحديد نوع المساكن بدءاً من انتشار الثقافة التي حدثت.

إن تحليل المظهر الثقافي هو نوع من استدعاء التاريخ، ولكن بتاريخ خاص جداً، وبتاريخ ليس من عمل المؤرخين، وإنما من عمل علماء السلالات، وبالمقياس العريض علماء الآثار. فالتاريخ الذي استبعد فيه الإنسان عائد إلى أعماله. وقد نجحت الجغرافية الثقافية ببساطة وبفعالية إلى حد ما، لكنها فقدت نوعية العلوم الإنسانية التي ستتمكن من إيجادها في المستقبل. في ألمانيا مثلاً، كان استخدام مساهمات علم السلالات البشرية أقل تنظيماً من أمريكا، لكنه كان أقل تناقضاً، لأن المفاهيم التي استخدمت من قبل "كروبير" كانت قد استندت إلى أعمال علماء السلالات الألمان والنمساويين مثل "شميدت **B.Schimidt**"، أو غرادمان "**Gradman**" ومن خلالهم راتزل. جرت العادة على الاستفادة من الأعمال الأكثر وضوحاً في استدعاء التاريخ. وكان الشيء نفسه في فرنسا، حيث كان تحليل المظاهر الجغرافية في موضع آخر ظهرت في عدد كبير من الأعمال. في البداية يعد رسم "جان برونيس **jean Brunhes**: للخطوط الثقافية (نموذج أغطية المنازل، شكل السطح وكذلك المزارع) عملاً تطبيقياً. لكن التفسيرات التي نعطيها للنتائج تأخذ وبسرعة كبيرة شكلاً نفعياً حصراً (الأبحاث المتعلقة بسكان الأرياف مثلاً). أما "ماكس **Max**" في تحليله للمظهر الثقافي فقد أظهر النظرة الواضحة للتأريخ الإنساني على الأرض، كما تلاحظه كل البصمات التي حكمت في نتائج التاريخ عند "رينيه غروسيه **Rene Grousser**".

يستخدم الجغرافيون الألمان المنهج التاريخي لتفسير المظاهر الثقافية، والعمل الأكثر وضوحاً هو الذي أنجزوه خلال سنوات ما بين الحربين العالميتين، فقد كان القسم الأكبر من بحوثهم موجهاً لمذهب آخر يتضمن الخطوط المعترف بها اجتماعياً والمكرسة لأعمال متعددة، ولمسائل متعددة، تتعلق بالمنهج، توضع عندما نعتمد مفهوماً ما. وما حصل هو توضيح المفاهيم الأساسية للتحليل

الاقليمي، وذلك من أجل الادراك العميق للمظاهر الطبيعية أكثر من المظاهر الثقافية. غير أن ما ينقص هذا العمل هو الاثراء الحقيقي لمخطط إدارك الظواهر الاجتماعية وكذلك القوى الاقتصادية والاجتماعية. وهكذا باثنين من ثلاث طرق استطاعت الجغرافية الألمانية الخروج من الصعوبات التي أوجدها النظرية الإقليمية. كما عملت تلك الطرق على الاهتمام بمظاهر الحياة الاجتماعية، مع ذلك بقيت غير قادرة على السير بعيداً في هذا المضمار. ولا يكفي أن نكتشف وجود خطوط ثقافية في المظهر لكي نبني الجغرافية الاجتماعية، بل يجب شرح المكونات، يعني أن ننسى المكان لحظة كي نهتم بالفرد والجماعة والمؤسسات وهو ما يرفض فعله الجغرافي الألماني. كل هذا يفسر لماذا تصبح الطريقة الوظيفية ممكنة لشرح المظاهر الثقافية. وهي لم تكن إلا بحثاً متأخراً جداً وخصوصاً في تلك الفترة. وفي الواقع فإن الخطوات النفعية لم تفرض حقيقة في جميع العلوم الإنسانية قبل عام ١٩٣٠، ويرجع هذا للحذر المتكرر للمؤلفين الألمان الذين ابتعدوا عن بحث التباين الاقليمي لسطح الأرض، باحثين عن التوضيح حسب الأولوية.

قام بعض الباحثين بإجراء تجارب تتعلق بالمشاكل الاجتماعية، وتبنوا خطوات لم تكن عند زملائهم الفرنسيين الاجتماعيين، ودونوا أنماط الحياة. وذلك في الفترة ما بين الحربين العالميتين من هؤلاء الباحثين "ويبل **L.Waibel**" ، ويلهيمي **H.Wilhelmy** ، جيسان **O.jessen** ويهتمون بأنماط مجموعات الرعاة من نموذج الرعاة الأرجنتينيين المقيمين في السهول العشبية في جنوب أمريكا. إجمالاً فالمحتوى الاجتماعي للجغرافية الاجتماعية كان ضعيف البناء، وهو مستغرب في بلد تنشر فيه الأعمال المنجزة مباشرة. وهذا "ماكس ويبر **Max Weber**" يبحث مثلاً في علم الأخلاق البروتستانتي والفكر الرأسمالي، و"رويهل **A.Ruhl**" يبحث في العقلية الاقتصادية لمختلف شعوب الأرض. كل هذا يبقى متكاملاً أو منسجماً ضمن جغرافية حسبة مفهوم مذهبي صارم جداً.

صممت الجغرافيا الثقافية على طريقة علم السلالات لعام ١٩٢٠، ولها

محتوى اجتماعي أقل من الجغرافية البشرية التقليدية لـ فيدال دي لا بلاش، لكنها تهيء مجالاً أكثر تنظيماً للتفسير وبنظرية دقيقة للانتشار الثقافي لمراكز الحضارات. وهذا ما يفسر الازدهار المنظم لها منذ أربعين عاماً، وحقيقتها التربوية المتمثلة بالظاهرة. فالرجوع إلى التاريخ أدخل الجانب البشري بعمق في الأبحاث الجيدة القريبة من أعمال الملهمين الفرنسيين، كأعمال "ساور" مثلاً. وقد كانت الظروف خاصة إلى حد ما، خارج ألمانيا، بحيث لم يكن المذهب الوظيفي أكثر نجاحاً في تلك الفترة، وهذا ينطبق على حالة العلوم الاجتماعية نفسها التي لم تملك بعد نظرية متكاملة لتفرض إعادة حساب للظواهر التي تلحظها، ولا شيء يتشابه في هذا المجال مع الأعمال الاقتصادية المكانية، ولا شيء يناظر العناصر النظامية المفسرة. غير أن هناك مجموعة أعمال وجهت نحو هذه المشاكل، وتستحق أن تكون ذات شأن حتى وإن كان تأثيرها الحالي ذا بناء متواضع.

ثالثاً-الجغرافية الاجتماعية كنظير للجغرافية البشرية

يعد تعبير الجغرافية الاجتماعية قديماً، فقد كان تحت اسم الجغرافية الإنسانية، فمثلاً استخدمه "ادموند ديمولان **Edmond Demolins** في مؤلفه "على الطريق" وفيه رؤية اجتماعية أصلية. كما أن "لوبلاي **Le Play**" استخدمه في حالات كثيرة كمكافئ للجغرافية الانسانية. وبالمعنى نفسه يمكن تفسير عنوان كتاب "كميل فالو**Camille Vallaux**" "البحر" بما فيه من محتوى وبراهين تحاكي إلى حد كبير كتب راتزل **F.Ratzel** الخاصة بجغرافية الإنسان والجغرافية السياسية. إلا أن "فالو" ينتقدها، ويستخدمها في أفق أقل وثوقاً أو يقيناً وبطريقة أكثر عمومية. وقد ارتبطت أعمال المدرسة الفرنسية، في الجغرافية الاجتماعية بالجغرافية الإنسانية منذ بداية القرن العشرين. وكذلك الحال في إنكلترا فقد حل مصطلح الجغرافية الاجتماعية محل مصطلح الجغرافية الإنسانية في الجامعات الإنكليزية وذلك منذ نصف قرن دون تغيير عميق في محتوى

التدريس. وهو ما نجده في مؤلفات الجغرافيين مثل فريمان **Freeman** وفي هولندا نجد الجغرافية الإنسانية المأخوذة عن المدرسة الفرنسية قد اتسمت بتطور الأبحاث التي هي حقيقة "أبحاث الجغرافية الاجتماعية، ففي أمستردام أخذت الجغرافية منحى آخر وتحت عنوان الجغرافية الاجتماعية تكون قد اقتربت كثيراً من العلوم الاجتماعية الأخرى. إن الإمكانية التي حددها "فيدال دي لابلاش"هي التي نركز عليها حيث تشترط على الجغرافية فكرة التحرر من الأفكار والمعاني التي اقترحت من قبل علماء الاجتماع وقد حللت "آن بيتيمر **Ann Buttimer**" أهمية ارتباط الإنسان بالوسط وبنوع الحياة، وفهم الطريقة التي يقطن بها على سطح الأرض. التي ينتقل خلالها ويتغذى ويشق الطرق ويبني المساكن والطريقة التي خضع من خلالها الإنسان لقوى الطبيعة وللقوى الاجتماعية الصرفة مثل قوة العادة التي تسهم في تنظيم العالم. إن من السهل جداً، في الجغرافية الإنسانية، معرفة المجتمعات البدائية سواء في الغابة أم في الصحراء أو في المناطق القطبية من خلال وصف مبسط لنمط الحياة التي تعيشها، فالتخلص المهني يكاد يكون غائباً فيها، وجميع أفراد الجماعة يلتزمون بنشاطات مشتركة.

إن مفهوم نمط الحياة موجود في صميم الشرح الفيدالي، وهو بسيط في مضمونه إلا أنه لا يخلو من الغموض. فهو يقترح على الجغرافي أن يدع الناس يتكلمون، ثم يتفهم أنشطة المجتمعات والجماعات عن طريق مراقبة تصرفاتها، ليتدخل في أسرار تفكيرها وأحلامها وتمنياتها. إن الجغرافية الفيدالية تأخذ كشكل المفهوم الإنساني ذي الحساسية الخاصة في مجال دراسات العصر. إذ أننا ننتهي بنسيان المخطط الصارم لنمط الحياة، ونتساءل عن الأسباب الأساسية لنجاح هذه أو تلك من الحضارات. ويعد "ديمانجون **Demangeon**" رائداً في عمله الذي يحتوي على تفكير لهذا النمط الاجتماعي. ففي كتاباته عن الإمبراطورية الرومانية يبرز أثر وأهمية الطريقة التي تمكن بوساطتها الشعب الإنكليزي معرفة تنظيم المستعمرات واستغلالها. وفي هذا العمل نرى سيكولوجية جماعية تظهر من

خلال المؤسسات والمعاهد ومن قبل منشطيها كالمختصين في الجغرافية الاقليمية. هذه الحقيقة برزت في الثلث الأول من القرن العشرين، حيث جذبت بسحرها وخصوبتها مجموعة من المساعي الانطباعية، فهي تعرف كيف يشعر الإنسان بخطورة المسعى، وشرف الموقع عنده مثل جمال الأفق المتقطع، أو جمال قرية قائمة على منحدر. لذلك فهي تتعامل مع الحواس لتبين الوضع بدقة، كما أوجدت مجالاً جديداً حاولت شرحه لكنها ابتعدت كثيراً عن أن تخلق تعاطفاً عميقاً يضعنا موضع المواطن الأصلي. هذه الجغرافية تعرف كيف تجد الإنسان، وتعرف درجة ثقافته الأصلية وتأثيرها في الطبيعة، لأنها ليست فقط تحليلية أو تركيبية بل هي عامة وصريحة تجمع بين التحليل والتركيب. وتبين وزن المعرفة القديمة وتميز المدني من الريفي فهي تسند إلى الأدويسة* مثلاً وإلى الأعمال الكلاسيكية الكبرى التي ظهرت واكتملت في أرض الحضارات القديمة والتي تعد خير سلاح جاءت به المعرفة القديمة، فالجغرافية البشرية تتسلح إذاً بقدر أكبر من المعرفة بالعالم الاجتماعي، وبذلك تهتم بما يتعلق بعمل الحضارات وتأثيرها، ففي الكتابات الأولى وفي فرضية "جيل سيون **Jules sion**" فقد أظهر وزن القوى التاريخية على الثقافة لدرجة انشغل بها "فيدال دي لابلاش" الذي كان أكثر قلقاً وانشغالاً، وأكثر قوة وعنفاً، وأكثر حذراً من تجاوز الحدود والوصول إلى حد التهور. قد تنزلق الجغرافية البشرية أحياناً باتجاه مجالات أخرى، فهي تنشغل بما يخص المؤسسات الاجتماعية- السياسية، وبالطريقة التي يتم فيها تنفيذ الآراء والأفكار السياسية أو مميزات النشاط الاقتصادي من قبل عباقرة البلد. إن أعمال "أندري سييجفريد **Andre Siegfreid**" تلقي الضوء على العالم الجديد وعلى الديمقراطيات الليبرالية الكبيرة، وعلى حضارات البحر المتوسط، ونرى في ذلك نوعاً من الإلهام للجغرافية البشرية الغنية بالأبحاث التي تندرج ضمن أطر

---

* ملحمة من تأليف هوميروس.

مختلفة، وتنتقل من الجماعات البدائية المرتبطة بالوسط إلى المجتمع المعقد في المناطق الجديدة، عبر تاريخ طويل تجاوزته البشرية حتى وصلت إلى الحضارة الصناعية الحالية. إن المحتوى الاجتماعي للجغرافية البشرية التقليدية هو نوع ملحوظ عادة ولكنه لا يفسر على الوجه الأكمل إلا ببنية معنوية متصورة من قبل "فيدال دي لا بلاش" والتي استخدمها لكنها ذابت فيما بعد. ومن "فيدال" إلى "سيون Sion " وسور Sorre و "ديما نجون" و "سيبجفريد" لم يكن هناك تواصل للإلهام وللتطفل، أي لم يكن هناك مواصلة للمسيرة إلا الوفاء لبعض القوانين التي كانت متداولة في الوقت الذي كانت تتطور فيه الجغرافية نفسه وتوسع بحثها ليشمل مجالات جديدة، وبالتالي تتطرق إلى مواضيع بحث اجتماعية ونفسية أو ثقافية، وهو عمل جيد ناتج عن تصميمها العميق، إلا أنه ينقصها إطار لتنظيم النتائج التي حصلت عليها لعرضها على المبتدئين ولتكون أكثر قبولاً. إن الشيء الوحيد الذي يمكننا استخلاصه من دراسات "فيدال" هو بعض الجوانب الدقيقة التي أكد عليها فعلاً.

إن تاريخ الجغرافية البشرية يتمثل في مجهود يبقى مرتبطاً بالإرشاد الاجتماعي الذي يؤكد خصوبته، لكنه لم يستطع التعبير عنه بصراحة. وكالعادة عندما لا نستطيع حصراً الدافع العميق لنجاح مسيرة ما فإن الموانع والمحرمات تتضاعف، أليس العذر انتهاكاً للقوانين الموضوعة أو نسياناً للطبيعة من أجل عمل دورة طويلة من خلال التاريخ أو تنظيم للنهج الاجتماعي؟ أليس العذر إلا نسيان لتحليل أنماط الحياة؟

إن الشغل الشاغل للمهتمين في الجغرافية البشرية يتركز على: كيفية تعميق الحركة التي بدأت مع بداية القرن العشرين وكيفية الانطلاق؟ بعد هذا الوصف والتحليل للطبيعة البشرية والأعمال الاجتماعية نعود إلى المصادر التي نستطيع من خلال إلهاماتنا استعمالها في نواحي متعددة لنستطيع أخذ أشكال مختلفة لأنماط الحياة والأدب، ونحلل الأعمال التي كرست لها منذ بداية القرن العشرين فتقودنا

بالتالي إلى رؤية نظرية ضعيفة لابد من توجيه نقد لها، في مكان آخر محدد وجدنا أن كل الأفراد يتقاسمون طريقة رد فعل واحدة، وذلك نتيجة لتأثير قسري من الوسط ولمعلومات ضحلة ومخاوف اجتماعية طرأت (التفسيرات المحتملة التي تم تبينها كان قد وضحها "جورو **Gourou**" من هذه أو تلك من الفئات). إجمالاً فإن شرح ذلك يفسر إلى حد ما جزءاً منها، لأن كل واحدة من هذ المعلومات تقوم مقام الأخرى.

إن تحليل أنماط الحياة التي نحياها بهذه الطريقة لا يرضى عنها الجغرافيون، وبدءاً من نهاية الحرب العالمية الثانية تعددت الانتقادات الموجهة إليها. و"ماكس سور" **Max Sorre** يأسف لتزايد مشاكل العالم الحديث بتقسيم العمل، وتنوع الفئات وأنماط الحياة، في حين أن "بيرجورج" قد تناول هذه الحجة، واقترح فئات أكثر تطابقاً. وإذا لم نأخذ من الجغرافية الكلاسيكية إلا أنماط الحياة، فإننا لا نستطيع إلا إدراك ضعفها في معرفة الحقائق المتعددة التي نراها اليوم. غير أننا ننسى أن الإلهام الذي يبين ويحلل أنماط حياة الشعوب البدائية هو نفسه الخاص بتلك التي سبقتها في اكتشاف التفرعات الإقليمية في البلدان ذات الحضارات القديمة والتراكيب المعقدة للاقتصاد الصناعي. ألا يجب أن نكون أكثر فهماً، ونتخطى هذه المظاهر القديمة؟ في هذا الإطار من العمل يناسب أكثر فأكثر ما حققه "فيدال" وتلامذته. فقد وجدوا في مفهوم نمط الحياة مظاهر ومشاهد تؤكد حسب رأيهم خصوبته أما بالنسبة لـ موريس لولانو والكثير من طلابه الفرنسيين وغيرهم فإن الدرس الأساسي هو استخلاص المعلومات من الجغرافية البشرية الكلاسيكية وهذا يعني أنه نظام واقعي، نظام نحياه: وهذا له مظهر تطوعي أهمل خلال السنوات ١٩٣٠ و١٩٤٠، ولنتساءل إذا نسي الناس همومهم وآلامهم هل يوشك أن يكون هذا النظام العلمي مغلقاً، وفي أحيان أخرى منبوذاً إذا اقتصر على معالجة مشكلة واحدة تعترضه أثناء تطوره الداخلي.

ألا يعد هذا سخرية فيما يتعلق بالمعرفة والعلوم المزدهرة؟ هذا ما يسمى بالبناء الحلقي، لكن بزيادة الخصوبة وازدياد الإلهامات لن نتردد في نسيان الفئات الجغرافية الصرف، أو نتوانى عن الانطلاق في التحليل المباشر للمشاكل في مجال الجغرافية البشرية الأكثر كلاسيكية لقد قام "رينيهRenee Rocchfort" بدارسة العمل في سيسيليا، وأوضح من خلالها نمط الحياة والصعوبات التي يواجهها الناس على هذه الأرض الفقيرة ذات المفارقات، لكن ألا يوجد شيء أفضل من ذلك؟ وهل تكفي الجغرافية بإعادة هذا الأسلوب وبذلك تتبع نوعا من التحقيقات؟ ألا نستطيع استخلاص معاني من هذا العالم أكثر نظامية وأكثر كمالاً. لنتعرف على السياسة المطبقة وماذا يلزمنا، ويتطلب كل هذا الاستناد إلى نماذج كاملة وتامة كتلك التي تشير مثلاً إلى تحاليل اجتماعية، وهذا ما تطلبه عمل "رينيه رشفور" وبأسلوب اجتماعي صرف.

أما بالنسبة إلى "لولانو" وطلابه فالوضع مختلف فهم يؤكدون على الخصائص والسمات المادية في الجغرافية ويقدمون تعريفاً دقيقاً لطوحاتهم ونمط سيرها، وبمنحى يؤدي إلى إخصاب هذا العلم، حيث أن الشق النظري منه جاء متأخراً. ومن غير المستحسن الاستخفاف بالتفكير الأساسي حتى ولو كانت المنفعة منه محدودة وضيقة، لكن أليس من الأفضل أن نجدد هذا التفكير كي نتوصل إلى إنشاء علم أكثر قوة، وأكثر ثقة بنفسه؟

وبطرق أخرى يلتزم معلموا الجغرافية الكلاسيكية بطرق تجعل دراستهم تبدو أكثر تطوراً، وأكثر اقتراباً من اهتماماتنا. ماذا يعني المفهوم المادي ومفهوم التجربة التي نحياها؟ ألا يتعلق الأمر بالتقليل من شأن المنشآت النظرية التي حكم عليها بالتحذلق؟ ألا يتعلق الأمر بإثبات الأكثر أهمية والأكثر دلالة؟ إن المعلمين الفرنسيين الكبار في علم الجغرافية قد رفضوا ذلك التطور الطويل للجغرافية، فهم يعاتبون المفكرين الألمان الذين يكتفون بالدفاع عن جمال المبدأ وأناقته ووضوح البيان، ألا يشعرون على الأقل بالارتباك والحيرة لمحدودية التفكير

النظري؟ ألا يختبرون هيئة هذا العلم الجافة؟ ألا يجربون لوناً أكثر تطوراً وحداثة؟ إن مصطلح الوجودية استعمل الآن في نصوص جغرافية شمال الولايات المتحدة الأمريكية، وإن "آن بيتيمير Ann Buttimer" قد أعادت تفسير هذا الاتجاه من التفكير عن أنماط الحياة، والخصائص الاجتماعية في الجغرافية الكلاسيكية الفرنسية. أليس ذلك علامة مميزة للمعلمين الكبار مثل "فيدال دي لابلاش" الذي قام بالعديد من الدراسات التي تتعلق بعصور مختلفة نتيجة قلقة وحبة للاطلاع؟ وقد نشر "فيدال" ما هو مفيد عدداً و مضموناً وقد تأثر بأفكاره العديد من ذوي الأفكار الرفيعة والهامة. و"فالو" يدرك ذلك جيداً من خلال ما كتبه في هذه المجالات الرحبة، ويوجد لـ"فيدال" أحياناً كتابات غير واضحة يحيط بها الغموض والريبة وقد جاءته هذه الأفكار نتيجة احتكاكه المطول مع الأفكار الألمانية القادرة على تناول المظاهر المتعارضة للأشياء في آن واحد. و"فيدال" لم يرغب أبداً توضيح أفكاره ليبين إطارها الخارجي بوضوح.

تتميز الجغرافية البشرية الكلاسيكية بنوع من الطموح كالجغرافية الاجتماعية إلا أنها مغايرة للجغرافية الاجتماعية الحقيقية وذلك لعدم مقدرتها على بناء نظرية علمية فعلاً. فهي مشلولة منذ ولادتها، ويعوزها التفكير الاجتماعي، وهي الميزة الكبرى للافتراضات التي تميزها، والتي تصدم الباحثين المتعودين على التمييز الدقيق لخصائص شخصية ما، في جهة ما. وخلال سنوات عديدة تعارضت بعض الخبرات إذ اتهمت تعاريف مجالات الجغرافية البشرية من قبل "ديمانجون Demangeon" الذي ركز اتهاماته على الجماعات والاغراءات الخطيرة للبسيكولوجيا[1] في كل الأنواع، و"ديمانجون" يعرف أكثر من الجميع نصيب العوامل النفسية في تشكل الأنواع الحديثة، لكنه كان يعرف أن الأمر يتعلق بسوسيولوجيا مشتركة مع البسيكولوجيا الاجتماعية والانتروبولوجيا التي

---

(١) وهي النزعة لتغليب وجهة النظر النفسية على وجهة نظر علم آخر.

استخدمت شيئاً فشيئاً، ولا يوجد من التلقائية. والسيكولوجيا الفردية التي تم التصدي لها منذ عهد قريب، أو ذات طبائع مبالغ فيها وهي رسمية ومن بعض أشكالها بسيكولوجيا الشعوب.

في مستهل القرن الماضي، يبدو أن كل مدارس الجغرافية العالمية لم تعط الوزن الحقيقي للعوامل الاجتماعية حيث كانت العادة فهم الجغرافية كدراسة للاختلافات الجوهرية للقشرة الأرضية. إن التحول كان قاسياً جداً، وقد ترددت ألمانيا في التهجم على الأعمال البسيكولوجية أو الأعمال البشرية. ولم تهتم بهذه القوى إلا في المجالات التي نقرؤها مباشرة أو في النطاق الذي تهذب فيه الطبيعة ثقافياً. وقد أخذت الجغرافية توجهاً اجتماعياً أكثر حساسية مع تقدم هذا النوع من الدراسات، لكنها مازالت حبيسة بنظرة علمية والتي يعمل قسم منها بما يتعلق بعوامل التصنيفات.وكما أوضحت مباحث العلوم العصرية* فإن الجغرافية هي انعكاس لإدراك العالم الذي يقلقنا والذي يجب أن نوضح من خلاله نظام الأشياء، ونصفه وصفاً حسناً بدلاً من أن نوفر شرحاً وافياً للعوامل، ونبين نظامها.

إن الوسط الذي ازدهرت فيه الجغرافية الإنكليزية طريف للغاية، ويختلف عن الوسط الألماني، إن حب الاطلاع على الأقاليم لم يكن له الشكل القسري الذي كان منذ منتصف القرن التاسع عشر. إنها أكثر حيوية وتقترب من النهج الفرنسي أكثر من النهج الألماني ومازالت الدراسات والبحوث تتطور بسرعة منذ العقد الأول من القرن الماضي، وتصنف الجغرافية ضمن العلوم الإنسانية الأخرى، وتؤكد تقدمها. ومع ذلك هناك الكثير من الجغرافيين الذين اتجهوا نحو تحليل الأوضاع المادية أكثر من التأليف والابتكار الكبير ولهذا التوجه سبب رئيسي وهو تأثير "باتريك جودس Patrick Geddes"، ومن خلاله التلاميذ

---

* مبحث نقدي في مبادئ العلوم وفي أصولها.

الفرنسيين من "فريدريك" حتى "لوبلاي"و"إدموند دومولان" على وجه الخصوص. وقد اقتبس الجغرافيون الإنكليز نمط التفكير عن الجغرافيين الفرنسيين، لكن التطبيق الجغرافي الموجود عندهم مختلف جداً عن ذلك الخاص بكبار الأساتذة الفرنسيين منذ بداية القرن العشرين. ما عدا "فلوري **Fleure**" الذي تمكن من الاستزادة مباشرة من هذه المصادر بحكم موقعه وظروفه، فالخيار يكون غالباً عندما يتعلق الوضع بالتحليل المفصل والدقيق للمجموعات الإقليمية الصغيرة. وقد اهتمت الجغرافية الأمريكية خلال فترة من الزمن بالجيومورفولوجيا الديفيزية* ، وترددت بين الطرق التي تعرضها المدارس الأوروبية. وقد قلدوا التجربة الألمانية كثيراً، كما اهتموا ببعض جوانب الجغرافية الفرنسية.

رابعاً-بدايات علم التشكيل الاجتماعي

تم تأسيس علم الاجتماع في فرنسا مع الأعمال الأولى "لإميل دركهايم **Emil Dukheim**" إلا أنه انهار مع العديد من الاهتمامات بعلم الميتافيزيقية "علم ما وراء الطبيعة" الذي أعيق منذ "أوغست كومت **Auguste Comte**" وهو يكشف فضائل الطريقة التجريبية، والقواعد التي يقدمها علم السلالات الميداني، كالأسس الأولية للتحليل النظري للقضايا الاجتماعية. كل هذا قدم فوائد جمة للجغرافيين.

ركز دور كهايم في بحثه على تقسيم الأعمال الاجتماعية، كما طرح الاقتصاديون نظرية عامة وحيدة لهيكل المجتمع ووظيفته، ولتضامنه القائم سابقاً. ومنذ آدم سمث "تعلمنا وضع علاقة لتقسيم العمل امتدت إلى هيكل المجتمع، وتفهمنا الفوائد التي يجلبها للفرد وللجماعة، وهو نظام يساعد على جذب قسط أكبر من الكفاءة. وعلم الجغرافية اهتم بهذا التحليل الاجتماعي الذي اقترحه

---

* نسبة إلى ديفيز

دركهايم في المجال الاجتماعي والمبني على أسس متشابهة. أشار آدم سميث إلى أن تقسيم العمل على صعيد اقتصادي مقيد باتساع الأسواق. ومن جانبه أظهر دركهايم أن تنوع الأدوار هو وظيفة لكثافة السكان. غير أن دركهايم كان قلقاً قليلاً من تدخل مقياس مادي في نص مشروح. فالكثافة الطبيعية ليست شرطاً كافياً لتعددية النماذج النشيطة. وهو يتحدث عن الكثافة الاجتماعية (أخلاقية /معنوية).

يهتم علم الاجتماع الحديث إذاً، وبالرغم من هذه القيود، بقضايا التوزيع، كالعلاقة ما بين إقامة السكان على الأرض وأنماط تجمعاتهم غير البسيطة، ومدى المشاركة في أمور الحياة كافة. غير أنه هناك فرع خاص من علم الاجتماع وهو علم التشكل الاجتماعي الذي ظهر أول مشاهيره في كل أعوام القرن التاسع عشر. وبسرعة وقع خلاف بين الباحثين المختصين بعلم الاجتماع وبين الجغرافيين الذين يقودهم فيدال دي بلاش" فقد بدأ علم الاجتماع بالتعرف على علم السلالات الجغرافي (كان يسمى أيضاً بالجغرافية البشرية) من خلال منشورات راتزل، لكن شيئاً ما صدمهم خلال مسيرتهم المعتمدة. فقد أدان "مارسيل موسى Marcel Maussye" البحث من خلال مبدأ "الأرضية" للتفسير الذي يرتكز عليه فكر الجغرافيين، وبحق فهو يحذر كل من قال إنني لا أعرف أي ملكية متأصلة في الأرض، انشغل علماء الاجتماع بقضايا علم التشكل، وبملاحظة كيف تترجم شروط توزيع السكان من خلال متطلبات مستوى الحياة الاجتماعية. مثلاً لكي تبقى مجتمعات الأسكيمو فقد تكيفت مع الوسط القاسي جداً، وغيرت التنظيم المكاني تبعاً للفصول، ففي الشتاء تجمع السكان في القرية حول الحفر حيث تأتي عجول البحر لتتنسم فيصطادونها، وفي الصيف ينتشر هؤلاء بعائلاتهم في سهل التوندرا، وهكذا فحياتهم تتميز بهذا النظام، فمثلاً تفرض الطقوس الدينية على عدد كبير من السكان خلال الفترة الباردة حصراً، في حين يسود جو وثني حقيقي طوال أجمل فصول السنة.

يهتم علم التشكيل الاجتماعي بإظهار العلاقات الموجودة بين قضايا المظهر الخارجي المكاني وبنيان المجتمعات المختلفة وترتيباتها. لكن في أي اتجاه تقام هذه العلاقات؟ قد يتبدل الوضع قليلاً لكن من الواضح أننا نفكر أولاً بتجهيز الوسط الذي يقيم فيه المجتمع. فالبنيان الاجتماعي يحدد من خلال أسس البناء الأساسية التي دونها وضبطها علم الاجتماع. وإذا نظرنا هناك عن قرب نلاحظ أن اتجاه العلاقة كان غير واضح دائماً. وبحصر المعنى ألم يكن علم التشكل صدى دقيق للتنظيم الاجتماعي أيضاً؟ غموض يسيطر دائماً في هذا المجال. في بداية القرن العشرين كانت أعمال علم التشكل عديدة ثم اتسعت فيما بعد، إلا أن حرب عام ١٩١٤ قيدت الكثير من الأعضاء البارزين في الجمعية الاجتماعية السنوية. وبالرجوع للعلاقة التي وضعها "دركهايم" ما بين الثقل النوعي وشكل الحياة الاجتماعي، نرى أننا نفتقد كل عنصر نظري لتفسير الأعمال مجتمعة. لأن علم التشكل لا يملك القدرة نفسها على شرح مقاطع أخرى من علم الاجتماع. من خلاله نفصل ما بين علم الاجتماع الديني وعلم الاجتماع الأخلاقي أو علم العادات كي لا ننوه إلا لبعض المجالات التي تتطور.

هناك علاقات أخرى بين علم الاجتماع وعلوم المكان التي تأسست معها. وبالنسبة لهولندا فقد لعبت دوراً في تطور الجغرافيا البشرية على طريقة "فيدال دي لابلاش" وبدورها أسهمت في تطور الجغرافيا الاجتماعية. وبتأثير من "ستان ميتز Seinmetz" يمكن أن نتقدم خطوة نحو علم الاجتماع. لكن ألم ينقص العلوم الإنسانية إنشاء نظام علم؟ في مجال دراسة الشعوب البدائية، نلجأ مثلاً لعلم السلالات البشرية الذي يبحث في خصائص الشعوب ووصفها. ولعلم العادات الذي يشرح ويفسر خصائص الشعوب المتحضرة. وبهذا يكون علم الاجتماع مرجعنا الوحيد. ألا يجب إنشاء علم جغرافية اجتماعية يهدف إلى تزويد عالم الاجتماع بالعناصر الوصفية التي يحتاجها من أجل تفسيراته الدقيقة.

إن علم الجغرافية الاجتماعية مهم في المجال الذي يتطلب ملاحظة العناصر ذات الصفة الاجتماعية ضمن الواقع الجغرافي، فهو يدور بثبات حول وصف أعمال البناء، ويلح على تنظيم الجماعات وعلى المكان الذي تتخذه العائلة، المسجد، الكنيسة، المؤسسة، وأثر الدولة على حياة كل من المجتمع والفرد. من خلال ما تعرضه الجغرافية يبرز تساؤل، هو لماذا التوزيعات الاجتماعية الملحوظة في المكان. ألا يتعمد عالم الاجتماع الاستفسار عن كل المواد التي يعمل بها؟ أيملك حقاً الوسائل لشرح المظاهر الخارجية التي تواجهه، في معظم الحالات لا، في بعض الحالات نعم دون شك، لكن الوسائل المتاحة ناقصة تماماً.

إن نظرية العلم الاجتماعي مازالت تسير في مناحي جيدة منذ بداية القرن العشرين، لكن ألا يجب البحث عن إلهام في المجالات المجاورة؟ نعم وهو ما قام به أحد الشبان المعلمين لعلم الاجتماع الأمريكي في جامعة شيكاغو، وحسب روبرت بارك **Robert Park** فإن تطور علم البيئة كان بطيئاً حتى نهاية القرن التاسع عشر ثم لم يلبث أن ازدهر بسرعة عندما حلت رموزه بطريقة الأوساط المستوطنة المستثمرة بالزراعة، ثم تتالت المعلومات، وتعقدت إلى أن حصل التوازن. لكن هل يمكن الانتقال إلى مخطط طبيعي لأفكار تورينه**Turner** بحيث تكون في وضع الوسط بين وصف مراحل سابقة ومعلومات متتالية تحل محلها؟ هذا ليس مستحيلاً، ومما هو مؤكد أن كليمانت **Clements** قد أعد نظرية بسيطة وقوية أساسها هو أنه يأخذ بالحسبان أولاً الوسط الذي يمكن أن يكون مكوناً من وحدات طبيعية متجانسة: كالأرض المسكونة بوحدات زراعية مؤلفة من مجموعات متجانسة، وهكذا يمكن القول إن كل وحدة طبيعية تتكيف بوحدة زراعية بتأثيرها في الأرض بالمادة الحية التي تعدها، تغير في الوسط الطبيعي، إلى أن تندمج في مجموعات أو تنظيمات رصدت لها لتتكيف مع الظروف الجديدة، وهذه هي الأفكار القوية التي يمكن أن تجد في هذا المجال تفوقاً متتالياً. وقد نقل

علم الاجتماع الأمريكي هذه الأفكار وطبقها عل الكوادر الريفية والمدنية واعتبر أن المدينة صنيع لعدد من الأمكنة الطبيعية والتي نرى من خلالها الوحدات الإنسانية تسير بتفوق متتابع. وهذا ما سمح للتحريات الكبرى من الفصل التدريجي بين البنى المكانية للمدن الأمريكية الكبرى، ففي حي الأعمال وحيز التحويل يتراكم البؤس وتتضاعف الأماكن المعزولة، وفي غولدن كواست Golden Coast يقع مركز الجماعات الغنية، وإلى مسافة أبعد من ذلك يلاحظ عدد لا يحصى من الضواحي الفقيرة المتواضعة ثم الغنية. ومن النماذج التي يمكن الإشارة إليها في وسط الوحدات المتفوقة هناك الهبو Hobo والغانغGang.

وقد كان لمدرسة علم البيئة الإنسانية لحي شيكاغو ولجغرافية المدن المعاصرة تأثير بالغ جداً في تطور الجغرافية بمفاهيمها وطرقها، إن نمط هذه الأبحاث هو دراسة بنية الأحياء وتطورها، والنماذج الاجتماعية السائدة هناك.

إن المعايير المخصصة لتوضيح الحيز الاجتماعي للمدن لها مصدر واحد، كالدعوة لدارسة حديثة عن علم البيئة العاملي المطبق على المدن بحيث يكون الارتباط مباشراً بين صدى السنوات ١٩٣٠ وأعمال بيل Bell وشيفكي Shevky. وكذلك استخدام الطرق الإحصائية المتطورة من أجل تعيين حدود الأماكن الطبيعية التي تعلمناها حتى الآن بطريقة أكثر قوة.

هذا التأثير لعلم البيئة الإنساني في طريقة "بارك وبورجيس" لم يكن محسوساً إلا بعد فترة طويلة في أمريكا حيث جذب ولمدة وجيزة الجغرافيين في فترة الأعمال الأولى وكان النجاح الأول لمجموعة شيكاغو، ومن ثم توسعت الصلات. في أوروبا وفي فرنسا خصوصاً فقد تجددت بعض أنشطة دراسة علم التشكيل الاجتماعي وعلى نحو متراص. وكان موريس هالبواش Maurice Halb wach أحد أعضاء مجموعة المجلة الاجتماعية السنوية قد قدم تحليلاً موسعاً لقضايا البنية التحتية، كما كرس دراسة مطولة حيث تتبع تطور أسعار

العقارات والمضاربات العقارية في باريس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وعشية الحرب العالمية الثانية قدم "علم التشكل الاجتماعي" والذي يعد الكتاب الأكثر سهولة والأفضل بنية في فرنسا في هذا المجال. أما ساور Sorre، فقد أجهد نفسه ليكون مخلصاً لفكر فيدال دو لابلاش من خلال توضيحه أسسه الجغرافية، لكنه تجاوز نصائح المعلم وتعاليمه ليلتقي مع علم الاجتماع على هذا الشكل، وقد نشر كتيباً كرس لهذا البحث قبل وفاته بوقت قصير. وآن بيتمر Ann Buttemer حددت منذ عهد قريب بعضاً من انبعاث المصادر القديمة غير المباشرة لهذا التيار من حب الاطلاع بقراءة أسس الجغرافية البشرية لشومبارت دولاو. وعندما اكتشفت الفائدة من الطرائق الجغرافية في تحليل هيئة المكان واستخدام التصوير الجوي من قبل عالم اجتماعي شاب، تبين أنه بالإمكان طرح مسائل علم الاجتماع في المدينة بطريقة ملموسة.

بالرغم من هذه العلاقات المتأخرة، فإن هذا التبادل العلمي لا يوحي لنا بأننا امتلكنا طيلة زمن طويل الكثير من العلاقات الوثيقة بين علم الاجتماع والجغرافية: لكن هذا وحده لا يملك القوة للانتقال إلى علم اجتماعي، وتقع على الجغرافي مسؤولية المعرفة الكاملة بعلم الجغرافية بشقيه الطبيعي والبشري، وعدم فصل الطبيعة الإنسانية عن المكان وضرورة الإطلاع على المشاكل الاجتماعية حقيقة، وتعد المدرسة الجغرافية الفرنسية الوحيدة من بين المدارس في العالم في تجاوز معظم الصعوبات لكنها لم تنجح في التخلص منها تماماً، وهذا ما يفسر التفاوت الدائم بين التطبيق العملي الحيوي جداً، والقريب جداً من الحقيقة الاجتماعية والإنسانية، والنظري الأكثر فقراً والأكثر تبصراً وحيطة والذي لا يمكن تحضيره إلا في إطار خاص جداً بالناس البدائيين.

والعلوم الاجتماعية تقوم بمهمة دراسة العلاقات بين الأفراد وبين الجماعات وترابطهم لما فيه المصلحة ومنفعة الجميع، وتؤكد النظرية الحقيقية وتفسرها.

وقد لخص دركهايم بعضاً من نتائجه في الاقتصاد السياسي وهو الأقل جدلاً، لكن ولخوفه من التهم الجغرافية لأعماله الأولى: لجأ إلى الخروج عن المألوف والفوضى ونوه إلى الدور المنظم للمجتمع، وفتح المجال أمام التحليل الوظيفي الذي يغني الفترة اللاحقة. إجمالاً فإن تأثيره حاسم أكثر في خطة المناهج فهو يوجه علم الاجتماع نحو استخدام الطرق الاحصائية ونحو استغلال منظم لمعطيات مجهزة بإحصاءات. ومن خلال اندفاعه الدائم، يتطور علم السلالات الميداني والمبتكر من باحثين وأمريكان ومن بعض التقاليد الألمانية القوية، في فرنسا تقدم التفكير النظري في المواد الاجتماعية مع التعمق في علم السلالات، كما تم التوسع في علم الانتروبولوجيا الاجتماعية مثلما هو الحال في علم الاجتماع نفسه: وقد انشغل هذا كثيراً بعلم ما وراء الطبيعة ليسخره في بناء حقله. وهذا ما يفسر دون شك الميزة المحددة والمضللة قليلاً للعلاقة ما بين الجغرافية والعلوم الاجتماعية في بداية القرن الماضي.

خامساً-الهموم الاجتماعية في الجغرافية:

من الطبيعي عدّ الجغرافية علماً إنسانياً. إلا أنه من الصعوبة فهم تأخر ظهور الهموم الاجتماعية في هذا العلم. ومع ذلك ظهرت جغرافية إنسانية أصلية منذ نهاية القرن التاسع عشر تميزت عما كان مصمماً على طريقة كبار الأساتذة الألمان في بداية القرن التاسع عشر. اتجه هذا العلم نحو وصف تحليل التباينات الإقليمية للمجال الأرضي، الذي موضوعه سطح الأرض وجميع الموجودات والكائنات التي تساعد على إعطائه التنوع، ويتعلق كل توسع لهذا العلم بالأنظمة الخاصة بالظاهرات الطبيعية والبشرية، من وجهة النظر هذه، لابد له أن يأخذ الإنسان بأعماله وبصماته التي تركها خلال نشاطه.

أما النشوئية فقد قادت إلى وجهة نظر مختلفة، فالتباين الأقليمي للقشرة الأرضية، لم يعد الشغل الشاغل الوحيد للجغرافيين، وأصبحت دراسة العلاقة

بين الإنسان والبيئة الموضوع الأساسي المعني بالتفكير والتحليل من قبل راتزل وبتأثير من هيغل Heeckel والمدرسة النشوئية. لكن حب الاطلاع تركز على بحث تأثيرات الوسط في الإنسان والمجتمع، إلا أن الشرح لم يأخذ التأثير الفاعل للقوى الاجتماعية. فانطوى تطور الجغرافية الإنسانية في سجل غير ملائم لتحليل الأوضاع الاجتماعية، السياسية، الاقتصادية، والثقافية. ومع ذلك لابد من الاهتمام بتنظيم المجتمعات وتباينها. إن وزن المعتقدات والمواقف يطرح نفسه للحتمية وللذين يريدون معرفة المظهر الطبيعي وفهمه وتفسيره بعمق. دخل العديد من الجغرافيين في هذا المجال ودرسوه دون تفهم عميق بالموضوع. إنهم يتساءلون عما إذا كان شرعيا الابتعاد عن المشهد الطبيعي. أو عن تحليل تأثير الوسط في الإنسان. الوحيدون الذين يتجهون وبتصميمهم في هذا المنحى يظهرون أيضاً وساوس مدهشة: فمثلاً نرى "فيدال دي لابلاش" يردد بأن الجغرافية هي علم المكان، وليس علم الإنسان. وقد تأكد الباحثون من أن عمليات التوزيع البشري لا تفسر كلها من خلال علم القوى الطبيعية. ويشعرون بالحاجة لاستدعاء القوى الطبيعية. هذا والجغرافية ليس لديها شيء كثير مستخلص من تحليل للمجتمع مقدم من علماء الاجتماع. فطلاب لوبلاي Le Play هم الوحيدون الذين انطلقوا من أعمال قامت على التأمل النظري المستخلص على نحو غير دقيق من الفلسفة. فيما بعد تنبه علماء الاجتماع إلى أعمال علم الظواهر ووزنها في التكيف الاجتماعي. وعرضت إمكانيات للاتصال لكنها لم تحصل مباشرة.

عموماً كانت الهموم الاجتماعية محسوسة في الجغرافية منذ بداية القرن العشرين، لكن بشكل مختلف جداً عما تناوله الآن، ومن الضروري السير حثيثاً للأخذ بها بكثير من التعقل والفهم.

الاتجاهات العامة في الجغرافية الاجتماعية

يتجاهل البعض موضوع تهيئة المكان الذي يعد في أغلب الأحيان من مسؤوليات علم الجغرافية ولكن ما الذي يجب عمله كي تكون الجغرافية مفيدة؟ فهل من الواجب أن تهتم الجغرافية بالإنسان بشكل أفضل وأن تتوقف عن كونها أداة تحليل للظواهر أو المشاهد. وان تبحث فيما وراء النتائج المادية كدوافع النشاط الإنساني مثلاً. على ما يبدو فإن الجهود الجارية في هذا المضمار منذ حوالى ثلاثين عاماً، قد تضاعفت اليوم، وهذا ما يسوغ الاستعمال المتزايد لعبارة الجغرافية الاجتماعية.

وبالتحليل نجد أن هذا المفهوم ما زال عائماً، وهو يفيد للإشارة إلى بعض المساعي التي لا يمكن وصفها بالثورية. وعليه فإننا سوف نبدأ بتحليل مختلف الطروحات التي تستعملها، وبذلك نتجنب الغوص بعيداً، خصوصاً وأن هناك ما يسوغ استخدام هذا التعبير.

أولاً: الجغرافية الاجتماعية في الفكر الكلاسيكي:

إن تعبير الجغرافية الاجتماعية قديم كتعبير الجغرافية البشرية ويشير "دودلي استامب" في معجم التعابير الجغرافية الصعبة، الذي أشرف على طباعته أن التعبير قد استخدم للمرة الأولى من "كميل فالو" في عام ١٩٠٨، الجغرافية الاجتماعية، في مقال له البحر، والأمر يخص الجغرافية البشرية بالمعنى الكلاسيكي، وقد جرى الخلط عمداً بين الجغرافية البشرية والجغرافية الاجتماعية، الأمر الذي يتكرر في البلدان الأنكلوسكسونية وفي هولندا (مدرسة الجغرافية الاجتماعية في "أوتورشت"مستوحاة مباشرة من دروس فيدال دي لابلاش وبرونس). وقد أفرد لها "فريمان" فصلاً خاصاً في كتاباته عن الجغرافية البشرية. وأشار بأن هذا التعبير يميل إلى الحلول محل الجغرافية البشرية في الجامعات الإنكليزية منذ أكثر من جيل.

أما "دودلي ستامب" فقد بين أنه عندما تم إحداث كرسي للجغرافية

الاجتماعية في جامعة لندن عام ١٩٤٨، وأصبح أستاذاً للمادة تم استخدام هذه العبارة للإشارة إلى نوع من البحث يناسب معهداً مخصصاً لدراسة العلوم الاجتماعية، والتي استخدموها بمعنى قريب للمعنى المعطى للجغرافية الثقافية في الولايات المتحدة.

وقد يتوسع معنى العبارة أو يتقلص أحياناً. وهو يتعلق بدراسة السكان على سطح الأرض وتوزيعهم وطريقة تجمعهم وسكنهم، والعبارة مفيدة لأنها تسمح بالإشارة إلى الدراسة الشاملة لأحداث التوزيع البشري على الأرض في حين أن جغرافية السكان وجغرافية الإسكان لا تعالجان سوى جزء من هذا الميدان.

تستحق الدارسات الكلاسيكية أحياناً اسم الدراسات الاجتماعية من خلال الحيز الذي خصصته لتحليل بعض أنواع المجتمعات إذا اهتمت بالمجموعات البشرية في مجتمعاتها وحاولت البرهان على كيفية انتظام علاقات الإنسان بالوسط المحيط الذي يعيش فيه ووصف أنماط الحياة هنالك هذا المفهوم كان مألوفاً في الجغرافية منذ "راتزل" والذي تخلص من مقولته الحتمية على يد "فيدال دي لا بلاش" لكنها تبقى ضرورية للوصف وفهم المجتمعات البدائية.

قد يرى البعض أن في هذا إقحاماً للجغرافية في الميدان الاجتماعي، إلا أنه إقحام محدود يستعير فيه الجغرافي الكلاسيكي من العلوم الاجتماعية الأطر التي تلزمه وهو نادراً ما يبحث عن مبدأ التفسير بالنسبة له لا تتدخل الطبيعة الاجتماعية لتفسير التوزيعات والتراكيب التي يلاحظها، فضلاً عن ذلك فهو يدخل "قوة العادة" وقد كتب "فيدال" أنه يجب التذكير بان قوة العادة تلعب دوراً كبيراً في الطبيعة الاجتماعية للإنسان" وقد بين أن ذلك يكفي لنسف التفسيرات البيئية لأنماط الحياة "كما أن بعض الافتراضات الجغرافية التي تبدو واضحة في بلد ما، لا تبقى عقيمة أو تكون تأثيراتها متأخرة.

دخلت الطبيعة الاجتماعية في التفسير الجغرافي متأخرة، وكانت متزامنة مع التطور في ميدان الجغرافية الثقافية واستفادت الجغرافية من كثير من العلوم القريبة كالتاريخ وعلم الأجناس وغيرها.

في أيامنا الراهنة الكثير من الدراسات الجغرافية التي تهتم بتفسير العالم من خلال الإنسان والمجتمع، وتكشف عن الحقائق التي لا تظهر في المشاهد الطبيعية إلا من خلال التكيف مع الحياة وعليه فالمشاهد الزراعية لا تسمح بالإحاطة بكافة المسائل الزراعية لمنطقة ما، وهي لا تترجم الواقع الحالي لطرق الامتلاك واستصلاح الأراضي، وإنما لتأثير التنظيمات القديمة: هذا التفاوت يعطي الجغرافية الزراعية سحرها، الذي يدفع إلى فهم العالم الحالي خارج إطار المظاهر، ويعطي أهمية أساسية لجغرافية الأطر، والمؤسسات الاجتماعية وبذلك نتوصل إلى نتيجة مفادها أن دراسة الجسم الاجتماعي بشكل مستقل عن أعمالها ونشاطها، كان ضرورياً للفهم الجغرافي.

ثانياً: الجغرافية الاجتماعية في فكر بيير جورج:

يعد "بيير جورج" أحد كبار الباحثين الفرنسيين في الجغرافية البشرية، فقد خصص قسماً من أبحاثه حول الجغرافية الاجتماعية حيث نشر قبل الحرب العالمية الثانية كتاباً بعنوان "الجغرافية الاجتماعية لفرنسا، وفي عام ١٩٤٦ الجغرافية الاجتماعية للعمل". وفي سائر مؤلفاته اللاحقة احتلت الاعتبارات الاجتماعية حيزاً كبيراً، ويبدو لنا أن هذه الاعتبارات كانت في مركز التفسير الجغرافي الذي قدمه السيد جورج "حيث يقول... وعلى غرارها، فالجغرافية الاجتماعية لا تتميز عن الجغرافية البشرية بكاملها، والواقع فإن الجغرافية البشرية ليست سوى الدراسة الوصفية والتفسيرية لسلوك الجماعات البشرية في مختلف المناطق والأقسام في العالم، إلا أن هناك بعض الأشياء أكثر تحديداً في التعبير الجغرافي الاجتماعي، فمفهوم تنوع علاقات الإنتاج، والعلاقات الاجتماعية التي تنجم عنها في كل وسط جغرافي، وكسائر الجغرافيين وبعد الإشارة إلى القرابة بين

الجغرافية الاجتماعية والجغرافية البشرية، يشير جورج إلى أن العلاقات الاجتماعية ـ الاقتصادية هي التي تعطي الأصالة للجغرافية الاجتماعية كما يفهمها، ثم يعود إلى هذه النقطة عدة مرات، ألم يعلن أنه "من غير الممكن الفصل بين الأوجه الاجتماعية والاقتصادية نظراً لوجود علاقات سببية بينهما، فالعلاقات الاجتماعية هي أساس كل نظام اقتصادي ولها تأثير على الآليات الاقتصادية، فالملكية الخاصة لوسائل الإنتاج في النظام الرأسمالي هو أمر اجتماعي، لأنه يثير تقسيم المجتمع إلى طبقة المالكين وطبقة غير المالكين، ويولد هذا الأمر الاجتماعي بالتالي الصفات الخاصة بالاقتصاد.

من هذا المنظور فإن الجغرافية الاجتماعية على علاقة وطيدة مع الجغرافية الاقتصادي بل وكلاهما يوضح الآخر، والبيئة الاجتماعية هي المبدأ الكبير في تنوع الأنظمة الاقتصادية ودراسة علاقات الإنتاج هي التي تسمح بفهم التنظيم الحالي للعمل.

وفي كتابه بعنوان "نظرات حول الجغرافية البشرية" يقدم مفهومه عن الجغرافية البشرية، ويبين كيف أنها تدمج تحليل الأحداث الاجتماعية والاقتصادية.

ويميز بين عمليات استثمار الموارد من قبل المجتمعات البشرية (وهو الذي سميناه بالقوى المنتجة أو وسائل الوجود) وتطور أنواع الحضارات، وتوزع السكان على الأرض، والمؤسسات البشرية. ودراسة القوى المنتجة أو وسائل عيش المجموعات البشرية لا تعني جرداً للقوى الكامنة المتمثلة في القدرات الزراعية، أو الطاقة الكامنة أو المنجمية للعالم أو في منطقة معينة، وإنما دراسة درجة استثمار موارد الأرض وطرق استثمار هذه الموارد. ومن الواضح أنه من العبث البحث عن قوانين جغرافية لأن المعطيات الطبيعية ليست محددة. مما سبق يمكن القول: إن الإمكانية يمكن أن تتوافق مع الفلسفة الماركسية، فهي تؤكد على الدور الخلاق للإنسان في علاقاته مع الطبيعة.

ويرى "السيد جورج" أن الشروط الاجتماعية والاقتصادية ليست جغرافية وإنما تفسر أحداث الجغرافية البشرية، إذ يقول: "ومن الصحيح أن أنظمة الإنتاج، ومختلف أنواع العلاقات الاجتماعية ليست أحداثاً جغرافية على وجه الخصوص لكنها تصبح جغرافية عندما ترتبط بالمكان وحين يكون قاعدتها المستخدمة للتطبيق". ويؤكد في المقال نفسه بأن القوانين هي ذات جوهر آخر، فهي اقتصادية اجتماعية، وبذلك فإن الجغرافية البشرية تتضامن مع العلوم الاجتماعية والسياسية.

بالنسبة "للسيد جورج" لا تبحث الجغرافية البشرية عن إعداد قوانين بل تكتفي بتوضيح تنوع العالم باستخدام قوانين عامة تقدمها العلوم الأخرى، وبيان كيف أن تنوع الأوساط يعقد الصور النظرية.

موضوعه الثاني هو "الجغرافية البشرية العامة" وفيه تتم دراسة التراكيب الاقتصادية والاجتماعية الحاصلة نتيجة استغلال الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية الكبرى، وتخضع لتأثير الشروط المكانية: المساحة وتوزيع الأراضي والبعد عن البحار والمناخ والتضاريس.

وعليه فإن الجغرافية الاجتماعية لدى "بير جورج" قد توجهت نحو الفعل وبطريقها للتطبيق. وهو يفسرها بوضوح في قوله: "إن قوانين تطور الأنظمة الاقتصادية الاجتماعية والسياسية ليست جغرافية، ولا يمكن أن تدعي الجغرافية على أنها من عملها" ولن ندهش حين يكون رأيه مماثلاً لآراء رواد الجغرافية الكلاسيكية، معتبراً أن الجغرافية ليست تطبيقات وقد كان هذا الموقف لفترة طويلة هو موقف الجغرافيين الروس، حيث كان دورهم هو إعداد جرد للموارد، في حين أن عمل التنظيم المكاني يعود للاقتصاديين.

ويمكن أن نبدي أسفنا حين نرى الجغرافي واقفاً على عتبة ما يسمح له بتفسير العالم. والمؤسف جداً عندما يقبل استخدام قوانين تم إعدادها لم تهتم

بالمكـــان. وقـــد كـــان ذلك إحدى نقاط الضعف في الفكر الماركسي. ثم يتابع قائلاً: "... يمكـــن أن يكـــون هـــذا المفهـــوم خطـــيرا في الأبحاث الجغرافية عندما يكون في أيـــدي جغرافـــيين غـــير متمكـــنين، قـــد يغامـــرون في نســـيان الواقع، وفي إدخال الأحـــداث في أوضـــاع غـــير مرضـــية. تشكل المعارف الاجتماعية الاقتصادية جزءاً مـــن هـــذه المـــبادئ الضرورية لنقطة انطلاق لكل مسعى جغرافي لتصنيف الأحداث، لكـــن تفســـير هـــذه المـــبادئ لـــيس مـــن ميدان الجغرافيين. فالجغرافي يرفض القيام بتفســـير الـــتوزيعات الاجتماعـــية الـــتي يصـــفها، وهو يرى فيها الاحتمال التاريخي (وهـــو الموقـــف الطبـــيعي للجغرافـــية الثقافـــية) أو القوانين الاجتماعية الاقتصادية (وهـــذا موقـــف الجغرافـــية الكلاســـيكية) والوحيدة التي تختلف في ذلك هي فلسفة التاريخ.

في جمـــيع الأحـــوال، فالمجـــتمع هـــو مـــن صلب اهتمامات الجغرافي، فهو يصفه ويبحث عن تفسير لأوضاعه من خلال علاقته بالمكان.

كتـــب "آبـــيل شـــاتلان" في مقـــال له بعنوان "القادم الجديد":... يجب أن تهتم الجغرافـــية الاجتماعـــية بالإنســـان مـــن وجهـــة نظـــر مزدوجة، فهي تأخذ بمفهوم الطـــبقات أو الفـــئات الاجتماعـــية، وكذلـــك صفات الحياة الاجتماعية، وتنطلق من الحـــياة الفـــردية والاجتماعـــية. وبذلـــك يمكـــنها أن تســـتخلص جغرافية الطبقات الاجتماعـــية وجغرافـــية الحـــياة الاجتماعـــية. تـــبقى الأولى مورفولوجيا اجتماعية. وتصـــبح الثانـــية، حســـب تعبير"شاتلان" جغرافية اجتماعية، أي السلوك في المجتمع. وعـــلى مـــا يـــبدو فـــإن الجغرافـــية الاجتماعـــية تستحق وحدها تعبير الاجتماعية. وتفـــترض الجغرافـــية الاجتماعـــية الحديثة بحثاً اجتماعياً دقيقاً، وقد تطورت الجغرافية الاجتماعـــية في ألمانـــيا عـــلى يـــد هارك وذلك منذ سنوات عدة وكذلك في فرنسا، هـــذا الـــتقدم ندركـــه مـــن خـــلال الانـــتقال من الجغرافية التصويرية إلى الجغرافية الاجتماعية دون أي معضلة.

ثالثاً: الجغرافية الاجتماعية المعاصرة:

منذ نحو ربع قرن أحدثت الجغرافية الاجتماعية في فرنسا اهتماماً متزايداً بين الجغرافيين. فمؤتمر الجغرافية الاجتماعية الذي انعقد في "ليون Lyon" في تشرين الأول من عام ١٩٨٢م ضم نحو مائة من المشاركين استندت المناقشات فيه إلى أربعين موضوعاً. وفي بداية عام ١٩٨٣ انتظمت مجموعة من المهتمين في الجغرافية الاجتماعية، ما لبثت أن أصبحت أحد أهم الأركان الرئيسة للالتقاء في مجال الجغرافية الاجتماعية.

وقد بقيت الجغرافية الاجتماعية قضية وشأناً مهماً لدى الجغرافيين المعزولين، وذلك على الرغم من تقليد طويل، تراجع بمولد الجغرافية الإنسانية ونذكر هنا المؤلفين الأكثر شهرة أمثال "إليزي ركلس Elisee Reclus" وكاميل فالو Camille Vallaux وجون برينه Jean Brunhes فأولئك الذين خطوا منذ السنين الأولى للقرن، الخطوط العريضة للجغرافية الاجتماعية المختلفة بمعتقداتهم، وحسب اختلاف مسلماتهم ومنطلقاتهم ونظرياتهم التي قدموها، لكن بقيت تلك الرؤى الجديدة بلا استجابة.

بعد الحرب العالمية الثانية، أكد كل من "آبل شاتلن Abel Chatlaun وبيير جورج Pierre George" على ضرورة اهتمام الجغرافيين بالقضايا الاجتماعية والأبعاد المكانية للحياة الاجتماعية لكن إسقاط الاحتمالات التي تفترض أن الجغرافية الاجتماعية تعطي للجوانب الاجتماعية كل الأهمية التي تمتلكها الخطط الجغرافية، لم تبرز رغم شهرة "بيير جورج" وقد توجه الجغرافيون نحو مهمات أخرى، وهي على سبيل المثال: تنظيم الإقليم، الجغرافية الكمية، الجغرافية الطبيعية، أما الجغرافية الاجتماعية لم يكن لها منهج، ولم تستند إلا على بعض الأبحاث المنفردة في المنظورات المختلفة لـ "رينيه روشيفور Renee Rochfort" ومن ثم "بول شافال Paul Chaval".

إن إخفـــاق مشـــروع الجغرافـــية الاجتماعـــية في الجغرافية الفرنسية ترك حقلاً مجهـــولاً مـــن جانـــب الجغرافـــية للتداخلات الاجتماعية والمكانية ندعوه اليوم الحيز الاجـــتماعي وفي هـــذا المجـــال فقـــد جـــنى علماء الاجتماع والانتولوجيا فائدة كبيرة مـــن التحلـــيلات ذات المـــنفعة العامـــة أمثال: (شومباردي لاوي Chombart de lauwe ولـــودرو Ledrut وكوندومينـــا Condominas...الخ) ومـــع ذلـــك، فإن عـــلماء الجغرافـــية الاجتماعـــية قدموا خدمات للجغرافية الاجتماعية بأساليب مختلفة فمـــثلاً "لـــيون Lyon" اشـــتمل مؤلـــف "رينيه رشفورت Renee Rechfort" بحوثاً تستند إلى البيئة الاقتصادية والاجتماعية.

إن أحدنـــا لـــيدرس نشـــاط الشـــباب، الشـــيخوخة، تجـــار التحف، المرتزقة، المقـــاهي كأمـــاكن لـــلهوية الاجتماعـــية. مـــن مؤسســـي الجغرافية الاجتماعية بول شـــافال الـــذي وضـــع كـــتاباً عـــنوانه (نظريات الجغرافية الاجتماعية) عام ١٩٧٣ وفـــيه وضـــح وعـــرف الجغرافـــية الاجتماعية مستلهماً من نظريات الأحكام المطورة مـــن خـــلال أفكـــار أنصـــار الســـلوكية الأنغلوسكســـونية الـــتي ترفض "علم آلية الطـــبقات" في بدايـــة الســـبعينات أخـــذت فكـــرة المكـــان المعمور هيئتها، وبدأت بالاتصـــال مـــع العلـــوم الاجتماعـــية المتقاربة، علم الاجتماع ـــ الأنتولوجيا كذلك مع الجغرافية الأنكلوسكسونية في جزء من الإدراك الحسي والسلوكي.

في أي مقـــياس وبـــأي الطـــرق وفي أي مـــن اتجاهـــات التنمـــية المعاصرة من الجغرافية الاجتماعية في فرنسا، تدوم الطرق والتأملات وأفكار السبعينات؟

إن الإجابـــة عـــلى هـــذه الأمـــور يتمـــثل بعمل جدول للجغرافية الاجتماعية يعمل على تطويرها.

وانطلاقـــاً مـــن منتصـــف السبعينات، تبدلت الظروف الاقتصادية والاجتماعية وأدت الأزمـــة الاقتصـــادية إلى توقـــف النمو الاستثنائي لبعض البلدان الصناعية منذ الخمســـينات وتفاقمـــت الـــتوترات الاجتماعية والبطالة والفقر والمهاجرون الوافدون

والتباينات الاجتماعية، إنها نوع من مظاهر الأزمة الاجتماعية والثقافية ومظهر لأزمة حضارية نتيجة التوسع الاقتصادي. إن التغيرات الاجتماعية الكبرى وعملية رفع مستويات الحياة للطبقة المتوسطة، جعلت الجغرافيين أكثر اهتماماً بها. وكذلك بسبب التوسع في تعيين موظفين جدد في الجامعات، وازدياد عدد العاملين وأرباب العمل في بعض السنوات الذين نتجوا عن الفئات الاجتماعية الأكثر تواضعاً في المجتمع، من مستخدمين ومدرسين، والعمال ذاتهم والفلاحين، الذين واجهوا جمهوراً جامعياً منحدرا من الفئات المتوسطة والشعبية أكثر من باقي الفئات، وأكثر مما مضى بفعل هذه الوقائع ازداد الشعور بحيوية القضايا الاجتماعية في هذه الظروف نمت التساؤلات وظهر علماء اختصاصيون بالحوادث التاريخية يميلون إلى الالتقاء في نقطة واحدة، وجذبوا بعض الجماعات من الجغرافيين من الأصوات المنفردة إلى إعادة تعريف أنفسهم في الجغرافية الاجتماعية، وأصبحوا أكثر متابعة وتنظيماً وتفاعلاً مع التعابير الموجودة في الجغرافية الاجتماعية.

إن تقدم البحوث في "ليون **Lyon**" على يد الباحثين: "أندريه فان **Andre Vant** ومارك بونفيل **Marc Bonneville**، والباحثين الذين ضمهم مركز الأبحاث حول البيئة الجغرافية والاجتماعية **(C.R.E.G.S)** فقد عملوا بدءاً من نهاية الخمسينات، وألفوا مع "رينيه روشيفور **Renee Rochfort**" وبالاستناد إلى "أبل شاتولان **Abel Chatelain** " وأندريه إليكس **Andre Alliix**" أما بالنسبة لـ رينيه روشيفور فهو أحد مؤسسي الجغرافية البشرية في المدرسة الفرنسية وانطلاقاً من "بيير جورج والجغرافية الماركسية في الخمسينات، ظهرت فرضيات جديدة لجغرافيين حفزوا طلابهم، وعملوا أساساً كل حسب أسلوبه الخاص كما برز آخرون أثرت فيهم تحليلات الأساتذة الكبار، ومهدوا لخطوة جديدة من التطور. فمثلاً "رولاند سشواب **Roland Schwab** الذي يعد الابن الروحي لـ "إيتيان جو جويلارد **Etienne Juillard**" فقد درس الألزاس

خلال الفترة ما بين ١٨٢٥ ــ ١٩٦٠م، واهتم بالتوسع في الأماكن المعمورة بدءاً من الخلية الريفية إلى الإقليم، وتوصل إلى الأماكن الحية التي لم تكن نموذجية فقط في نطاقها وكثافتها بسبب التضاريس ومحاور الانتقال ووسائل النقل والمهن، والنطاقات الثقافية والريفية ولكن بالتساوي في الانتماء الاجتماعي للأفراد، كالأجير الملتزم، الخثرات، المالك الغني سابقاً، الفلاح حركة العمال اليومية، رجال الأعمال اليوم. وهؤلاء لا يستخدمون الأماكن نفسها، وليس لهم مخاوف من الأسلوب نفسه، إن المكان المعمور واحد من قياسات الحالة الاجتماعية، وإن الفوارق الجغرافية تعطي قياساً للبعد الاجتماعي إنها إحدى النتائج التي توصلوا إليها بالدراسات على القرويين المداريين والتي طبقت على جماعات النورمانديين إذاً من الطبيعي أن تنصرف الأبحاث القائمة حول المكان المعمور إلى الفئات الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية. فالمكان الجغرافي ليس مصمماً فقط كموسوعة أماكن مستهدفة لكن كمكان معمور بالجماعات، ولها علاقاتها الاجتماعية. يوجد تسلسل تدريجي آخر في جغرافية السكان يدور حول دراسة الهجرة، التمدن، الشيخوخة، العزوف عن الزواج، التركيبات الاجتماعية المهنية، السكان الناشطين، العمل والوظيفة، وهذا يتجاوز علم السكان إلى علم الاجتماع الجغرافي والجغرافية الاجتماعية، وهذه مهمة جغرافية السكان التي يترأسها "دانيال نوان **Daniel Noin**" الذي امتلك المبادرة في الندوة الجغرافية الاجتماعية عام ١٩٨٢م. وإعادة النظر في كل ما هو جديد في جغرافية السكان والمكان الاجتماعي والقاطنين والمجتمعات.

في نهاية السبعينات، توالت هذه الأعمال أكثر أو أقل، وذلك بفضل العمل الجماعي المبرمج لـ (C.N.R.S)[1] من أجل التغيير الاجتماعي والثقافي، واستندت الأبحاث التي تدور حول التغيير الاجتماعي، إلى نحو ٧٠ مركزاً

---

(١) C.V.R.S: المركز الوطني للبحوث الاجتماعية، فرنسا.

لـلملاحظة والدراسـة موزعـة في كـل فرنسـا، وتهتم بأبحاث محلية محددة، كناحية ريفـية، زراعـية، قـروية، مدينة صغيرة، قطاع مدني، وحتى شامل في بعض المرات. كمـا أنهـا تـتعلق بأبحاث جامعة ومتعددة العروض. وليس من النادر أيضاً أن يبحث المتمرسـون بأنفسـهم في مـيادين اجتماعـية، اقتصـادية، تاريخية، جغرافية، وأحياناً سـلالية، قانونـية ولغويـة، كـل مـتمرس يبحـث في مجال اختصاصه إذا، فالـ (A.T.P.) "مراقـبة الـتغير الاجـتماعي" كانـت في عدد من الحالات، مكاناً لتلاقي المـيادين، ومواجهـة الإشـكاليات، والأسـاليب والاستنتاجات داخل نظام، وداخل منحنـيات الفكـر. وذلـك في منـتديات أسـبوعية محلية، أو عالمية والتي شخصت وسـببت تلاحـق وتوسـع الخبرات ومن الملاحظ، أن الجغرافيين الذين شاركوا بدور فـاعل في ذلـك، اسـتطاعوا معـاً الإلمـام بعلـوم اجتماعـية مجاورة، واستخدموا مصـطلحات أكـثر حصـراً، وطـرق وأسـاليب التحليلات الجغرافية للتساؤلات الاجتماعـية والـروابط بـين المجـتمعات داخـل الأمـاكن المعمورة كانت دراسة التغـييرات الاجتماعـية جـادة، حيـث اسـتطاع الجغرافيون تنظيمها ووضعها في علاقـة مـع الـنظام المحـلي ولكـن بالرجوع إلى تغيرات اقتصادية في البعد القومي والعـالمي، وتحـولات اقتصـادية وتغـيرات في الهـيكل الاجـتماعي والـروابط الاجتماعـية، وكذلـك بالـرجوع إلى تحلـيل الـتغير الاجـتماعي بوساطة الأبعاد المكانـية الـتي تضـم: الهجـرة، أشـكال الـتملك والتحكم في الأماكن المعمورة والإنـتاج وتحويـل الاسـتيطان. وكـان التسـاؤل حول الروابط المحلية والشاملة، الخاصـة والعامـة، وفي الوقـت نفسـه حـول المصـادفات أو الـتوقعات المكانية والزمانـية لمخـتلف التركيـبات مـن الـتغيرات، الـتي تعـالج تقنيات اقتصادية واجتماعية وسياسية أو ثقافية.

إن الاستقصـاء المـيداني مفـروض بكيفـيات البحـث وإلهام علم الاجتماع الهـادف، ومدعـوم بمقدمـات إحصـائية، خرائطـية وتاريخـية مألوفة أكثر بالنسبة للجغرافـيين، هـذا الـتكامل في الطـرائق هـو انعكاس للمصلحة، وحدود النطاق

المحلي من أجل إدراك التغيرات الاجتماعية. وهو انعكاس للروابط المحلية مع نظام إنتاج شامل. إن الجغرافيين الذين شاركوا بدراسة التغيرات الاجتماعية، استندوا إلى الجغرافية الاجتماعية، واهتدى إليها جغرافيون قادمون من آفاق أخرى، من جغرافية السكان وجغرافية العمران الريفي والمدني، وأيضاً من جغرافية البلدان النامية وذلك في سبيل التطوير.

إن القول بأن هذه المشاركات المختلفة تشكل تياراً وحيداً سيكون بالتأكيد خلطاً في الاعتبارات وفي كل الأحوال سابقاً لأوانه مثلما سبق في الجغرافية البشرية الفرنسية. عملياً يبدو البحث مسبقاً بالانعكاس النظري، الذي يبقى مضمراً. عموماً فالجغرافيون الفرنسيون المهتمون بالجغرافية الاجتماعية، لم يكن لديهم الوقت الكافي لتعريف الجغرافية الاجتماعية.

رابعاً: التيارات الفكرية الكبرى:

استمر الاتجاه النظري مجسداً في المعلومات والأفكار المستوحاة من أعمال "بيير جورج" حتى بضع سنوات وخصوصاً ما يتعلق بالمكان المعمور ومراقبة التغيرات الاجتماعية، وقد كان ممكناً ترجيح ما تم الإجماع عليه، وتجاوز بعض النقاط المنظورة دون أن يدرك أحدهم أنها نقاط أساسية للاختلاف. ودار الجدل أساساً حول أهمية المكان في النهضة الجغرافية الفرنسية. الذي كاد لا يستخدم في منظومة العلوم الاجتماعية. ولا مجال هنا لأن نميز في النزاعات التي نشأت عنها الاتجاهات المنهجية الكبرى والمرجعيات الإيديولوجية الرئيسة. ووفق أي منها تطورت الجغرافية الاجتماعية، وكل ما نلاحظ هو أن بعض الجغرافيين مثل كاستيل ولودور ولوفيفر الذين احتلوا مع الاقتصاديين والاجتماعيين مكاناً مرموقاً، وكانوا أكثر تأثراً بالأفكار الماركسية، وقد عملوا في دراستهم على مراقبة التغيرات الاجتماعية. وطبقوا البحث ميدانياً، وحاولوا إيجاد مقاربة متزامنة للمعلومات المصغرة ولجغرافية المناطق الصغرى، واهتموا بدراسة بعض المشكلات الاجتماعية كالفقر والوضع الاجتماعي، من خلال العمر والنوع

والجنسية...الخ وتحليل الأبعاد الاجتماعية السياسية للأنظمة المكانية، وانعكاسها على العلاقات بين الروابط الاجتماعية وآفاقها ولا سيما الآفاق المدنية. واستخدموا طرقاً هادفة تتعلق بالظاهرات البشرية أو وجودية (ما يمكن وضعها هكذا) يشار من خلالها إلى الإسناد الفلسفي، الإحساس بالناس وبالقضايا الاجتماعية. غير أن هناك قلقاً في وظيفة الباحث في العلوم الاجتماعية، والرغبة في تطبيق البحث المناسب يترك مجالاً للحدس وللمناقشات الشخصية، وهكذا كان الاختيار لكتابة أدبية ضمن بعض التقاليد التابعة للمدرسة الفرنسية التي فتحت أبواب الجغرافية واسعة أمام جمهور الناس وسمحت بإيصال الرسالة.

وقد جسد "رينيه روشيفور" وحدة الروح في جزء من المكان والمجتمع، ووجدت الجغرافية السلوكية أيضاً مكاناً في الجغرافية الاجتماعية كما استنتج "روبير شابوي" في دراسته للصور التي كونها عن قرويي "دوبس" المتعلقة بالمدينة والقرية أن: كل ذلك لن يبعدنا عن الجغرافية بل على العكس طالما أن القرارات الفردية أو الجماعية المتخذة بخصوص المكان أو المجال الجغرافي لا تتم من خلال تدقيق موضوعي للأحداث بل بموجب ما يتكون من أفكار لدى الأفراد والجماعات إذا ليست الجغرافية الاجتماعية تياراً جديداً في الجغرافية الفرنسية فهي تبدو قادرة على أن تكون حقلاً للقاءات ومناقشات متجددة، ولفرضيات في بعض الطرائق والتقنيات حتى في أماكن العبادة المقفلة، إن قلب المنظورات الذي تمثله الجغرافية الاجتماعية في فرنسا يستفيد من النظام بكامله.

خامساً: الجغرافيات الاجتماعية *Sociologigues*

عندما يقوم الجغرافيون بدراسة الواقع الاجتماعي بكل أبعاده يجدون أنفسهم أمام أرض شاسعة من التقصي لا يعرفون كيف سينظمونها وقد كانت دراسات الجغرافية الاجتماعية قليلة، ووصفية بحتة فيما بعد حاول البعض تحري أوجه الظاهرة البشرية كافة وهذا ما قامت به الآنسة "فوشفور" في أطروحتها التي خصصتها لدراسة "العمل في صقلية" ويعد العنوان بحد ذاته جديداً وثورياً: إننا بعيدون عن عالم الأماكن وليس الناس.

وقد درسنا العمل البشري في الجغرافية، لكننا لم ندرس العمل نفسه ولا نتائجه المادية. فالمفهوم المعنوي كان خارج ميدان الجغرافية الكلاسيكية (التقليدية) إلا أن الآنسة فوشفور بينت أن الطرح الاجتماعي يسمح بتوضيح مجموعة من الظواهر التي تبدو مستقلة وتفسر مجموعة من الظروف الاجتماعية المتماثلة وتلك حالة ما هو في جغرافية صقلية الغربية التي تعتمد على المافيا في جو معقد يصعب تحليه من عادات في التفكير، وبنى من الوعي الموروثة، وعليه يجب البحث عن أصل القوة الحالية لهذا التنظيم، وبذلك تفسر السمات العجيبة لتلك المحاور الذهبية. وتبقى مثل هذه الدراسات الشاملة للمجتمع نادرة مع الأسف لكن التحليلات القائمة على الأوجه المحدودة للواقع الاجتماعي عديدة. ويحاول رجال الجغرافية والاجتماع أن يظهروا كيف تلعب التشكيلات الجماعية للمكان دوراً هاماً في ظهور توازنات جغرافية وهذا ما يجعل الدراسات الأمريكية هامة كدراسات "وولتر فيري" أو الفرنسي "شومبار دولو" الذي نشر مؤخراً كتاباً بعنوان: "الإنسان والفكر والأرض" حاول من خلاله تحليل العلاقات القائمة بين الإنسان وتمثيلاته والبيئة، أظهر فيه صور التفاعل التي وضعها "باتريك جيد" لكن الطريقة ركزت على دراسة فحوى التمثيلات. هذا وقد خصص "وولتر فيري" قسماً كبيراً من كتابه لتحليل بعض الأمثلة التقليدية لاستعمالات الأرض الزراعية: الزراعات المتنقلة، الزراعات ذات العزل الإجباري في بلدان أوروبا الشمالية الغربية، إبان فترة الحكم الإقطاعي، ووصف عوالم استصلاح السهول الأمريكية الشاسعة في القطاع الجنوبي (تكساس).

سادساً: موضوعات الجغرافية الاجتماعية:

في السنوات الأخيرة الماضية، ظهر العديد من الموضوعات في الجغرافية الاجتماعية التي يمكن الاستدلال عليها من خلال الإعلانات والبرامج الفردية والجماعية المستمرة للباحثين والتي تشكل خروجاً أكيداً وتراجعاً عن حدود الإقليم الوطني فهناك الكثير من الأعمال بعضها حول إفريقيا الاستوائية وحول

المغرب وأشباه الجزر المتوسطية وإيران والبلدان الاشتراكية سابقاً وغيرها.

تهتم الجغرافية حالياً بالمجموعات الاجتماعية بنشاطها المهني ومسكنها وأوقات فراغها والسياحة والاستجمام لديها وبأشكال تجمعاتها وما لديها من آفاق عملية وممارسات يقومون بها فمثلاً نجد لدى سكان بعض الأماكن الريفية أفقاً يمارسون فيها نشاطاتهم بما يتناسب مع ما هو في المدينة، وبما هو لدى عمال وعاملات بعض الضواحي إن انهيار المجتمع الريفي من خلال الأفق العملي الذي يشكله انسجام المشهد مع هواء المداخن والمصانع وأماكن العمل وأوقات فراغ السكان جميعها عوامل تتفاعل، وتؤدي إلى الشكل الجديد للمجتمع.

إضافة لما سبق يمكننا دراسة الغجر ومشاركتهم في الأعمال الزراعية، ودراسة المجموعات الأجنبية المهاجرة في الأوساط الاجتماعية الجديدة. كل هذا يثير الاهتمام ببيئة اجتماعية معينة في إقليم محدد وانطلاقاً من القضايا الاجتماعية والروابط بين المجموعات الاجتماعية ترتسم جغرافية انسجام أو تنافر.

يمكننا البدء بتركيب هذه المقاربات المختلفة، طامحين إلى انتقاء العلا قات الداخلية بين المجتمعات والمجموعات الاجتماعية التي تؤلفها مع آفاقها (هناك محاولات أولية لجغرافية التركيبات ذات الآفاق الاجتماعية) فقد طرحت على بساط البحث قضية الطبقة العاملة والأفق العمالي في أقاليم مختلفة.

هذا ويلوح في الأفق تطور لا يزال حديثاً، لكنه يواجه بعض الصعوبات في مسيرته الشاقة وبقدر ما نرى أن الجغرافية الاجتماعية هذه شاقة وصعبة في أوساط أولئك الذين يسعون لتوسيعها إلى مستوى الجغرافية البشرية فإننا نرى أولئك الذين يحددونها على أنها مجرد جغرافية اجتماعية.، ونجد بين هؤلاء وأولئك من يضعون نظرية وسط بين الفريقين وكل منهم يسعى إلى إثبات حجة نظريته من خلال الأعمال والمنشورات الراهنة، فالجغرافية الاجتماعية، تدرس الأحداث الاجتماعية بطريقة تحليلية، عن طريق المدلولات الاجتماعية دون أن

تستبدل مرحلة البحث وهي تعدّ الشيخوخة والخصوبة ومكان الولادة والهجرة أحداثاً اجتماعية تشكل المادة الأساسية لما يمكن أن نسميه الديموغرافيا الاجتماعية، ويمكننا من خلال تركيب المدلولات (فئات اجتماعية مهنية، بنى، منظمات، العمر، الحالة الاجتماعية، السكن المريح) وأن نكون تصوراً للبنى الاجتماعية ذات الآفاق، وتوزيعها وتطورها.

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الفصل الثاني

النظرية في الجغرافية الاجتماعية وانبعاث علوم الإنسان وترابطها

- الجغرافية الاجتماعية تبحث عن نظرية
- تقدم النظرية الاجتماعية وانبعاث علوم الإنسان حتى أيامنا الراهنة
- ترابط العلوم الاجتماعية

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الجغرافية الاجتماعية تبحث عن نظرية

أدرك الجغرافيون أهمية القوى الاجتماعية في التوزيعات التي حللوها. وبالتدريج ارتقت تحليلاتهم، وبرز هذا الدور بجلاء أكثر في كتاباتهم. إلا أن تعنت الكادر الجغرافي التقليدي، وبدايات علم الاجتماع الوليد حال دون أي تقدم في المجال الذي نعده أساسياً. وبدءاً من بداية الثلاثينات من القرن العشرين، أخذ الوضع بالتطور، حيث تزايدت الأعمال الجغرافية، وتطرقت بدقة أكثر فأكثر لمجال الأعمال الاجتماعية.

أولاً- هيئة المجتمعات وبنيتها:

الجغرافية هي علم الهيئة: وانطلاقاً من هذا التعريف الضيق قليلاً يمكننا فعل عمل مهم. وهو ما تظهره الأبحاث العديدة في كل مكان من العالم، حيث تخلت عن وصف الانطباعات التي ظهرت منذ عهد قريب، مروراً برسم الخرائط المفصلة، وقد وجدت الجغرافية من خلالها وسيلة للوصول إلى معرفة البنية الأساسية للمجتمع.

أشار "ماكس دورو **Max Derruau**" إلى أن التوجه الجديد ظهر في فرنسا في خرائط للإعمار الريفي. وقد عمل على وضع سلم مفصل جداً أظهر من خلاله مختلف الاستثمارات، ومنه توضحت مرتسمات نسيج كل خلية ريفية، وأهم الاستثمارات والوسائل وجموع الفلاحين المياومين والعمال الذين يتجمعون حول تلك المشاريع.

وخلال جيل لاحظنا أفضل العقول، وقد شغفت برسم الخرائط وتحليل أنظمة جديرة بالملاحظة والتي تشكل نظاماً داخل الحقل وخارجه. إننا نتعلم بسرعة عفوية الفرضيات الأساسية للمادة. لكن يجب ألا ندعي النبوغ بمعرفة مختلف المجالات ولابد من مراعاة المظهر الزراعي، لأن حدود التقسيمات ليست متطابقة. وراء المظهر الزراعي هناك نظام كامل يمكن كشفه، تكون فيه المكونات عديدة أحياناً. لكن من الممكن إعادة البناء، والتعلم من منجزات علماء القرون

الوسطى، في إعادة بناء التكوين البطيء للحقول الأوروبية في الشمال الغربي. ونلاحظ الدورات الزراعية التي تقام كل سنتين أو ثلاث سنوات قد فرضت نفسها، وانتظمت تبعاً للانحسار السكاني الذي تلا الوباء الكبير. إن التركز العمراني والضغوط التي تفرض النظام الجماعي أصبحت ذات فاعلية كبيرة، حيث يتركز النظام الذي ينظم كل التغيرات التي تحدث ردود أفعال مقابل كل ما يرمي إلى فقدان التنظيم المكاني.

وقد عمل الجغرافيون بمشاركة محدودة مع المؤرخين. ففي فرنسا، نجدهم الأوائل في الاستفادة من توجيهات "مارك بلوش"، واهتموا كثيراً بالمشكلات التي تهم الجميع حتى بداية الخمسينات من القرن الماضي، وفيما بعد جاءت مرحلة التراجع والتقهقر. وفي الإطار الإقليمي الذي يعد قاعدة دائمة تقريباً في فرنسا. فغالباً ما يكشف البحث والتحقيق عن خيبة الأمل، حيث هناك بعض المفارقات التي وضحناها في موضع آخر، وغالباً ما نستند على قلة النصوص لأنه من النادر أن نجد سلسلة من الشواهد هي التي تمكننا من اتباع الخطوط العريضة للتحويل والتغيير المتدرج على مدى ألفي سنة. لذا يلزم الكثير من الأناة والمهارة لإعادة إنشاء أصل المظهر الطبيعي.

وقد نجح الدكتور ميرل **Merle** في كتابه تاريخ الإكارة الفاندينية، وفسر جزئياً المظهر الطبيعي لأعماق غابة صغيرة، لكن كانت تلزمه مهارة نادرة في استعمال وثائق الأرشيف: أما الجغرافيون فقد كان اهتمامهم واضحاً في أحسن الظروف. لكننا غالباً ما نتساءل عن التحولات المعاصرة أو ما قبل المعاصرة للمظهر الطبيعي ولأصله، ونترجم اللمسات التي طرأت، ونتبع عبرها التغيرات في المجتمع الذي ينفتح للتبدلات والمستسلم للثقافة القائمة، والتي تشوشت بكل الأحداث التاريخية الكبرى للحياة الاقتصادية العامة. وقد روى إيتيان جويارد **Etienne Juillard** التطور الفسيفسائي للعناصر المختلفة في البلدان الصغيرة مثل منطقة باس ألزاس، حيث أظهر الطريق السالك، وواجب كل فرد نحو

الجماعة التي ينتمي إليها، فمثلاً يتركز البروتستانت هناك في منطقة الكوشيسبيرغ الغنية، أما الكاثوليك فيتركزون أكثر في الجنوب في ماركولشيم ويعشون حياة بؤس منذ زمن بعيد. وقد عمل التصنيع هناك على زيادة التباين بين هذه الأوساط، وساعد على الهجرة من الريف إلى المدينة ، حيث تضاعف عدد المهاجرين المتذبذب، بعد أن تركزت الورش المبعثرة. وعبر تاريخ هذا الريف، أي نحو قرنين من تطور المجتمع الألزاس المكتشف، تبين الوزن الكبير لتلك الطائفة التي تراجعت قليلاً فيما بعد مع الابقاء على دور العقائد المواكب للضغط المتنامي لعالم المدن والذي بقي وقتاً طويلاً غير متميز عن ريف أقدم الحضارات الرينانية لهذه البقعة من الأرض.

في جبال أربيج الفرنسية يروى ميشيل شوفالييه التفكك التدريجي لمجتمع قائم في وسط صعب يعيش حياة شقاء، ويتحين أقرب الفرص للهجرة، فالمظاهر الطبيعية الحالية هي شكل للحضارة المنهارة، ولمجتمع توقف عن النمو بنفسه، ولكي تستقر الحياة في وسط الخلايا الريفية ما هو العمل الضروري، وكيف يفسر رفضهم له؟ إنها مشكلة أساسية تطرح من أن تحل، لأن التقنيات المستعملة ضعيفة الأداء، ويجب أن نذهب بعيداً أكثر في المشهد الريفي وفي الوثائق التي ترسم تاريخه أما روجير برونيه **Roger Brunet** فيقدم تحليلاً دقيقاً لهذا التطور، إذ يتخذ تقنيات الخرائط التي اقترحها شولتي، ويتوصل إلى تخصيص كل حصة للحيز الريفي، ولكل حي سكني بسيط من أحيائه من أجل تنظيم استغلال خاص له. إن سمة المكان تعبر جيداً عن هذه الركائز المتغيرة من نقطة لأخرى، والثابتة عبر الزمن، والتي لا ترتبط بالوسط: في الريف التولوزي هناك تشابه كبير في وجهات النظر الجيدة، إن بعض التغيرات التي حصلت للأرض والتي تسمح بتمييز البلدان قد فقدت معناها في الحياة الحديثة لأن كل ما يحسب هو البنى الاجتماعية.

إن المنهج الذي يتبعه الجغرافيون الفرنسيون في هذا المجال مستمد دائماً من ذاك الذي تبناه "فولفجان هارتك Wolfgang Hartke" وتلاميذه، وهنا يكون التشابه كلياً تقريباً ما بين هارتك وروجر برونيه رغم أن الفرنسي لم يجر أي عملية دقيقة ونظامية كزميله الألماني.

ولفهم منهج هارتك، يجب جعله في منظور الجغرافية الألمانية التقليدية، التي تلازم المكان، وترتاب إزاء كل ما هو مجرد. فهارتك يتبنى حالة تقليدية ظاهرياً، ويتمسك بالمشهد، ويصوره، ويجعله حياً، فهو يراقب حالة المجتمع والمشاكل والأزمات التي تمر به، ومن بين العناصر المضبوطة، بعضها له دلالة خاصة، لأنها تلقي ضوءاً أكثر عمقاً على الجماعات التي تسكن الأرض.

وقد تناول هارتك من خلال المشاهد الطبيعية والجماعات التي تسكن الأرض وتستغلها أوهجرها مؤشرات عن بنية المجتمع وتغيره والتي تتكون من نماذج مختلفة. ولقياس مراكز المدن الصغيرة، فهو يبحث عن معرفة حصص أراضيها الزراعية التي تستثمرها الجماعات الريفية المجاورة. لكن ما أثار انتباهه أكثر هي الأراضي البور القائمة على تخوم الأراضي الهامشية للمناطق التي لا يهتم بها أحد إلا تحت ضغط الفاقة والعوز، كما كان لديه اهتمام آخر وهو ما يحصل في فترة الخصب من إهمال أو هجر للأراضي. إلا أن ما لوحظ في بداية الخمسينات من القرن العشرين في حقول "هيس" يختلف تماماً. فقطع الأراضي البور الصغيرة تكون موزعة بالصدفة في الأراضي القابلة للزراعة والتي غالباً ما تكون من أجود الأراضي، فهي ليست أراض هامشية، ولكنها تترك بوراً لترتاح. فالمجتمعات الريفية هذه تكون قد تخلت كلياً عن الأرض دون أن تهتم بقيمتها، وعليه فالأرض البور تظهر التغير في العقلية، وفي نمط الحياة، وفي الأنشطة الاقتصادية السائدة، ومن أجل كل هذه الأسباب، فهي تستحق اسم الموات الاجتماعي. وعموماً فإن الظواهر التي تم إيضاحها تسمح بإعادة بناء الأوضاع المعقدة وتنظيمها في وسط الأنماط التطورية.

بالنسبة للبحوث الفرنسية وعلى غرار ما أتى به هارتك في ألمانية، فقد اهتمت بإظهار وزن الأعمال الاجتماعية في تنظيم المظهر الطبيعي، كما ركزت على الأعمال التي بنيت على نظام تطوري واضح، مع زمن طويل من الجمود ومظاهر الأزمات، حيث كانت الملاءمة أكثر عدداً وأكثر سرعة. هذه الجغرافية الاجتماعية يمكن أن تكون المجال الوحيد لفرع مقولب حقيقة على نمط تحليل البنية المأخوذة من العلوم الاجتماعية الأخرى، لكن لسوء الحظ لم يتصلوا هنا لإعداد القواعد الأساسية بدقة.

أما الجغرافية البريطانية فيمكن أن تكون قد أعطت اهتماماً أقل عمومية لمشاكل البنية الزراعية والتي لم تكن عليها حالة القارة، كان جزء كبير من طاقتها قد امتص من قبل كبار مساحي الأراضي لإنجازه على الطريقة المتمثلة باستغلال الأراضي، كما أن المنظور التاريخي لم يتطور مدة طويلة. لكن الأعمال المنجزة في هذا المجال يمكن ملاحظتها من جميع النواحي، كتلك التي قدمها الجغرافيون الاسكندنافيون أو من قبل بعض الجغرافيين الايبريين. وهكذا اكتشفت الجغرافية الاجتماعية للأرياف في معظم الأماكن تقريباً، حيث تم تحليل المظهر الطبيعي بطريقة غير مباشرة، وتفسير البنى التي كنا قد أشرنا إليها. ولدينا الانطباع أن الخطوة طويلة نسبياً في كل مكان، لكن من الممكن معالجة هذه المسائل بطريق أقل التواء، وهو ما يمكن أن يدرسه أخصائيو مناطق التوتر (في ريف البلدان النامية مثلاً) والذين اهتموا بمعالجة مشاكل التبعية للاقتصاد الأجنبي.

بالنسبة للجغرافيين الإيطاليين فقد كانوا أقل من قام بتحليل البنى الحقلية أو الزراعية، لكن الدراسات التي اهتمت بمشاكل الجنوب الإيطالي، كانت من عمل الصحفيين، ورجال السياسة، وعلماء الاجتماع، والاقتصاديين والجغرافيين، حيث صنعت خرائط البنية لكي تتطابق مع الفكرة القائلة أن فهم العالم يمر من خلال فهم منظماته الاجتماعية.

بالنسبة للمهتمين بشؤون المدن سيتمكنون من تقديم ما هو مماثل أيضاً،

لكـــن الجغرافـــيين قـــلما يغامـــرون، وقـــد تركوا الميدان حراً لعلماء البيئة الإنسانية مـــثلاً، ولعـــلماء الاجـــتماع خصوصـــاً، وهـــذا يكشف مشاكل الوسط الاجتماعي لـــلمدن الكـــبرى بمـــنهج يمـــاثل الذي قدمه "هارتك"، وذلك بربط الظواهر المدنية بعضها كالتي في الريف.

ثانياً-آلية الطبقات والنظرية الاجتماعية – الجغرافية:

إن تطـــور الدراســـات الجغرافـــية الاجتماعـــية ممكـــن دون الرجوع إلى نظرية تفســـيرية عامـــة، كمـــا ســـنرى، وعليه يمكن أن نأخذ علماً ينشأ عن اختلاف البنى الاجتماعـــية، ودورهـــا في إعمـــار الوســـط، وتـــتالي المسوغات والأسباب التي تخلق الـــتوازن. لكـــن كـــل هـــذا يبقى غير منظم بدقة، ولا نستطيع أن نستمد منه مخططاً شـــاملاً دون أن نســـتدعي كـــبرى الفرضـــيات التفسيرية، وبالنسبة للذين لا يتابعون الـــتحول الطويـــل لتحلـــيل المظهـــر الطبيعي وأشكاله، ستكون هذه الأفكار مرجعاً ضرورياً لهم.

وكمـــا أشـــرنا ســـابقاً فـــإن تطور علم الاجتماع لم يكن من الأهمية بمكان سهل الاســـتزادة والأخـــذ مـــنه، فاضـــطراباته المنهجية لم تكن مقبولة من قبل الجغرافيين. وفي الوقـــت نفســـه فـــإن حقـــل الـــنظرية الاجتماعية قد بقي ضحلاً تقريباً بحيث لا يمكن الاعتداد به.

وقـــد وجـــد "دركهـــايم" واحـــدة من إلهاماته الأولى عند الاقتصاديين التقليديين كـــآدم سميـــث، حيـــث كانـــت الفكرة المحرضة لإدراكه المعنى العميق لتقسيم العمل الاجـــتماعي. كمـــا أن بدايـــات عـــلم الاقتصاد الذي ظهر خلال القرن التاسع عشر قدمـــت كـــبرى التصـــورات وكـــبرى التفسيرات للمجتمع الحديث. ومنذ أيام سان ســـيمون ســـاد الاعـــتقاد بانقســـام المجـــتمع الاقتصـــادي إلى مجموعـــات متناقضة، ويكشـــف المؤرخـــون المختصـــون في تـــاريخ العصور الوسطى والحديثة، التناقض ما بـــين الـــبرجوازية الولـــيدة وهـــياكل أنظمـــة المجـــتمع الإقطـــاعي. أمـــا المنظرون

الاشتراكيون فقد قسموا المجتمع إلى طبقات، وطرحوا مشكلة صراع الطبقات الذي يعد واحداً من الخطوط الأساسية للحياة الاجتماعية، فهم يفسرون مع ماركس، كيف وصل تقسيم العمل الاجتماعي دفعة واحدة إلى الرسوخ والثبات وإلى التوسع، ثم كيف يقود إلى الحل وللتكيف وتجديد الهيكل الاجتماعي في الجماعة.

وقد وضعت النظرية الاجتماعية هكذا من قبل الماركسيين وكانت مفعمة بالدقة، لكن من الممكن أن تقود إلى ميكانيكية غير متقنة، فالحياة الاجتماعية كانت تسيطر عليها بعض الطبقات، وكان لابد من أن نحيط بها ونفهمها لكي نعمل على قياس تيار التغيرات واتجاه التحولات. وقد خلق عمل هذه الطبقات المسيطرة الصعوبات، وولد التناقضات التي يمكن أن تضع التغيرات الجذرية لقيام الثورة. وكانت الحياة الاجتماعية على هذا النمط البسيط أحياناً، مع وجود فئات من المخلصين والسيئين وآلية بسيطة تسمح دورياً بعقاب كل من لا يحترم الكرامة الإنسانية، وقد دخلت النظرية الماركسية الاجتماعية إلى صميم الأوساط العلمية في النصف الأول من القرن الماضي، حيث وجدت تقبلاً مميزاً من قبل كل من علم التاريخ والجغرافية وبعض فروع علم الاجتماع.

ولم يتأثر علم الاجتماع ككل بهذه الرؤية للأشياء، لكن الطبقات التي ظهرت في القرن التاسع عشر، كالبرجوازية والطبقات الكادحة، كانت حقلاً خصباً للتحليلات. ففي ألمانيا مثلاً كرس "ماركس ويبر" جزءاً هاماً من عمله لشرح أصل البرجوازية ولفهم الأسباب التي عملت على جذبها وتطورها، وقد ظهر الفكر البروتستانتي في شكله الكلفاني (اللاهوتي الفرنسي) كجزء من أجزاء أساسية للطريقة الجديدة لفهم العالم.

وقد وضع "ماكس ويبر" الأسس النموذجية المعقدة للمجتمعات، كما أظهر كيفية تنظيم هذه الأسس في نظرية أو منهج. وحدد مثلاً دخل الرأسمالية،

الـذي يـنظم جـزءاً كـبيراً مـن حضارات الشرق. ويتعارض مع ماهو مفروض في الغـرب مـن حيـث العقلـية والمحافظة على الرأسمالية الصناعية، كما أكد على دور الطـبقات في الـتوازن الاجـتماعي وفي الـتحولات العالمـية، وعدّ أن البناء الذي صمم في بعض من الصيغ الماركسية ينقصه التخطيط الحقيقي.

وعـلى هـذا الـنحو تقـدم العلوم الاجتماعية مجموع متشابهات من النظريات التركيبـية الـتي يعـدون مـن خلالهـا تقسيم العمل جائراً جداً، ويكون التركيب حسـب الطـبقات ملازمـاً للتخصـص المـتعلق بـأجواء الإنـتاج، ويبرز المظاهر الجغرافـية واضـحة. في الـدول الصـناعية المـتقدمة تمـيل البرجوازية للتكتل في المسـتويات الأكـثر رقـياً. في مواقـع عديدة، تقدم المناطق الزراعية وبعض المناطق الصـناعية مراتـب تكـون فيها الدرجات الدنيا أكثر وأفضل تمثيلاً، ويظهر التحليل الاجـتماعي للطـبقات بهـذا الشكل تتابعاً منطقياً لدراسة الترعة الاقتصادية للبلدان والأقاليم ضمن المجتمع العالمي أو الأمة الواحدة.

إن الـنظرية الاجتماعـية الـتي تنهج هذه الطريقة تقدم صورة حقيقة للمشاكل ووضـعها الـنهائي الغـامض، ويكـون أساس الإلهام هنا إقتصادياً. وفي نهاية المطاف تمـت مناقشـات نسـبية للجغرافـية الاجتماعـية، ملهمة من خلال قونين كانت قد أثـيرت مـنذ بضـع سـنوات. وقـد وضعت ازدواجية جغرافية "بيير جورج" على حافـة المجـالات الاجتماعـية، فهـي لوحة حقيقية للعالم الاقتصادي الذي ترسمه أما "كوينـنغ" حيـنما يعـرض مـا يشـكل الوحـدة والأصالة للجغرافية الاجتماعية، ولمشـاكل التفسـير الـتي راعاهـا، فهو يفكر بأنه يجب صياغة الجغرافية الاجتماعية وترجمتها لإكمال المعنى غير الكافي لنوع الحياة.

إن تحلـيل أنمـاط المشـاريع الـتي توجـه العمـل في مختلف قطاعات الانتاج، يسـاعد عـلى الـتعرف عـلى الجغرافـية الاستهلاكية، ولقراءة هذا البيان علينا أن نتصـفح وجـيزاً للجغرافـية الاقتصـادية. إن تصور المشاكل الاجتماعية لا تظهر إلا

في الوقت الذي نتجه فيه نحو المكونات (الكائنات والأحياء الإقليمية)، وهنا نسترد الفرض المألوف سابقاً في مجال علم الاجتماع النباتي.

منذ عدة سنوات حصلت مناقشات بهذا الموضوع في ألمانيا بين "إيرتيش أوتريمبا **Erich Otremba**" وهانس بوبيك **Hans Bobek**، فأصر الأول على ضرورة تقديم الجغرافية الاجتماعية كمجال مستقل يتطلب اهتماماً خاصاً، وطلب من كل من يدرسها أن يرتبها أولاً ضمن فئة الجغرافية الاقتصادية. أما "هانس بوبيك" فرد عليه بإصرار ملحاً على النزعة الكبيرة للجغرافية الاجتماعية، حيث يظهر أن التقسيمات التقليدية للجغرافية كانت بصدد تجريدها استقلاليتها، ومن ثم تنظيمها في تركيب معقد يكون اجتماعياً في طموحه، وهذا يكون "هانس بوبيك" محقاً في الواقع لكن "إيرتيش أوتريمبا" كان ذا حجة أقوى إذ أثبت إلى حد بعيد أن هناك اختلافاً كبيراً بين الجغرافية الاجتماعية والجغرافية الاقتصادية حينما نقتصر على اعتمادها مبدأ لتفسير أي كان من ميكانيكية الطبقة. إن صعوبات النظرية الاجتماعية تأتي من كونها مصممة تبعاً لنموذج التقسيمات التدريجية المتولدة جميعها من إحدى الافتراضات الضرورية لتراكيب من هذا النوع، تعرف بالجوانب الموضوعية التي تولد بالصدفة ونتيجة الاستعمال كالتي عاشها الأفراد. علينا أن نعالج كل مستوى من تفرع العينات عند السكان ككائن جماعي دون البحث عن معرفة وجود تطابق في وجهات النظر أو الاهتمامات بين العناصر التي تكونه. إن جزءاً كبيراً من الأعمال مزودة بمادة اجتماعية منذ عام ١٩٢٠ تدور حول هذه المسألة الصعبة، ولكن في المجال الجغرافي قلما نهتم بهذا البحث، ونبقى أمناء على المخططات التقليدية.

– في فرنسا تم اللجوء إلى مخططات الصنف أو الطبقة، وبرز ذلك في البحوث المنتهية على طريقة "تشولي" أو المؤرخين للبنى والمظاهر الزراعية. ويرجع هذا إلى فترة الحرب العالمية الثانية وتحديداً إلى فترة ما بعد الحرب. في

مجـال الجغرافـية الاجتماعـية لخص "بيير جورج" اللوحة منذ عام ١٩٣٧ في الإطار الفرنسـي، وذلـك لكـل البشـر عـلى سـطح الكرة الأرضية، كالتحركات أو الـتمحورات الكـبرى وخاصـة تلـك الـتي تغني المخططات الاقتصادية الماركسية. وكذلـك الـبلدان ذات الاقتصـاد الـرأسمالي، والأمم الليبرالية والصناعية في العالم الغربي، ولجميع البلدان أيضاً التي مازالت تسير بطريق التقدم والتطور.

أصـبح اسـتعمال تعـبير "الطـبقات" واحداً من خصائص الجغرافية الفرنسية المـتعلقة بالزرعـة الاجتماعـية الـتي تسـتعمل من "آبل شاتولان" الذي يحرص على الاهـتمام بمـنطقة "بـاس لانـغ دوك" فمثلاً في إطار التطور التاريخي لزراعة الكرمة لابـد مـن تحقـيق تـوازن مـع البنية المالية، إن وجود الأرستوقراطية والبرجوازية مـرهون فعـلاً بـالأرض، كمـا أن قلـة الاسـتثمار والأعمـال بالنسبة للمطالب والمصـالح الإقليمـية في بعـض الحـالات أدى إلى توقـف التصـنيع وتراجعه وإلى التدهور العام لمستوى الحياة.

إن الوصـف والتفسـير يمكـن أن يكـون أقـل تبسيطاً وأكثر إظهاراً للفروق الدقـيقة في أبحـاث "روجـر رونيه"، لكنها بالإطار التصويري لا تسجل تبايناً كبيراً. إن آلـية الـنمو أو الـتزايد يمكـن تفسـيرها بحكم الطبقات والسلوك الاجتماعي. ودون شـك في مجـال الـبحوث المتعلقة بالعالم النامي (العالم الثالث) فإن هذا النمط هـو الأكـثر جذبـاً، لأن أبعـاد المشـاكل تكـون اجتماعية على وجه الخصوص، فالجماعـات الإنسـانية الـتي تكـون متآلفة عرقياً وطبقياً نلاحظ أنها تتغير ما أمكن عـند وضـع مخطـط بسـيط يسـمح بتحليل كامل لكل التباينات، ولكل المشاكل، فمـثلاً ألا يوجـد بـرجوازية وطنـية وبرجوازية أجنبية مترفة انضمت إلى الرأسمالية صـاحبة الدخـل، وآخـرون يحـلمون بتقلـيد سلوك البرجوازية الموجودة في الأمم الغربـية، ألا يوجـد بروليـتاريا عمالـية، وطـبقة عمالية مستغلة من طبقة الفلاحين التي تتجاور مع المجموعات التي تبقى مخلصة للنمط الأكثر قدماً في التنظيم.

وعلـيه يمكـن أن يكـون في القـرائن التي نلمس أنها الأفضل لكشف الضعف

المتكرر في مخططات ميكانيكية الطبقة، لكن قد نرهق بسرعة لأننا لا نرى إلا عاملين على المسرح الجغرافي، هما الحسّ السيء الذي اعتمد أحياناً على بعض التأملات، وما تبصره العين الذي تمت معرفته بسهولة.

وأينما نتلمس الصعوبة توجد ضوابط لمعرفة الحقيقة. وقد كتبت الأقاصيص الشعبية، والميلودراما* التي يظهر فيها تحيز كبير من قبل الكاتب، من أجل كسب شعبية أكبر لكتاباته، فهو يروي التاريخ الذي يعجبه، لأنه معنوي، وينتهي بشكل جيد، وكل ذلك دون فهم دقيق لحبكة الرواية. لم تحتكر الجغرافية الفرنسية استعمال ميكانيكية الطبقات، بل أخذت دوراً ريادياً بالنسبة للأعمال التي قدمها الجغرافيون الإيطاليون، والإسبانيون، والبرتغاليون، والبرازيليون، فالبنية التركيبية تكون أكثر قرباً مما هو عند الكاتب، وهي موجودة كذلك عند الكتاب باللغة الألمانية، وهي تأخذ مكاناً أكثر رقياً، أما الكاتب قلما يشدد على نتائجه. وحتى عام ١٩٥٦، كان الفكر الماركسي نادر الانتشار في الخارج. لكن الفئات التي حللها "هارتك أو بوبيك" هي الطبقات. وبالنسبة للطرق المعتمدة من قبل "بوبنج" فتفسر المشهد المادي غالباً، وتحيي التحليلات التي تزوده فهو يضع نفسه بعيداً عن الموضوع الذي يضبط، ويبحث لتحديد مميزات المجتمع ككل، وتقدم تفسيراً للفئات التي تخيلها "ويبر Weber"، وقد اهتم هذا الاختصاص منذ خمسين عاماً ببلدان المشرق، خصوصاً إيران، حيث شرح الطبائع الأصلية للمجتمع ولمشاكله ولتحضره بوساطة البنى الرأسمالية للدخل. أما البلدان الأنغلوساكسونية، فلم تعرف القاعدة فيها النتيجة نفسها من النجاح، غير أن البنية كانت جيدة وأكثر وضوحاً مما هو في مكان آخر، علماً بأنها أسست على التفتت الاقتصادي، لكن الماركسية هناك لم تستحسن مثلما هي عليه في الخارج. ومنذ بضع سنوات ومع تركيز علماء الاجتماع الشباب

---

* مشجاة تمثيلية عاطفية مثيرة.

والجغرافيين على الحركات الراديكالية، فقد استيقظ الاهتمام بهذه المسائل، لكن النماذج المستخدمة كان مبينة إلى حد ما على الخطط المجربة من قبل الماركسية التطبيقية، ومن الممكن القول إن التفسيرات الحرة جداً التي قدمها "وليم بونج عن ميكانيكية الطبقة، تتبع للخطة الداروينية الاجتماعية المبتكرة. إن البنود التي استند إليها مخطط الطبقة الأرثوذوكسية تبدو إلى حد ما تحدياً للمؤسسة الجامعية أو السياسية وكمحاولة للتفسير المقنع. وفي إيطاليا من الممكن أن يتم التعرف على المخططات القديمة للطبقة وتطبيقاتها الأكثر حداثة، فقد اتجهت "تيريزا إيزابنورغ" نحو دراسة تطور الأقاليم الريفية لسهل "إلبو" في منطقة الدلتا مع ما رفقها من التحسينات التي تمت منذ نهاية القرن التاسع عشر كبناء كبرى المنشآت الرأسمالية التي تستخدم اليد العاملة المهاجرة من أعمال المياومة الزراعية. وقد تتبعت "تيريزا إيزنبورغ" من خلال النصوص ولادة هذه الطبقات المتناحرة وانتهزت اللحظة التي وثقت بها بنفسها وباهتماماتها المعاكسة، فأظهرت شكل الحركة النقابية في وسط المزارعين الذين لا يملكون أرضاً ومراحل تطورها، وشكل الكفاح والتناحر، ولأول مرة ظهر الانطباع بالخروج عن القاعدة مائة مرة مكررة للتفسير الذي فقد كل قوة مثيرة للذكريات، والذي توقف عن الشرح والإثارة والقلق. عند "يتريزا إيزابنورغ" تكون الطبقات شيئاً آخر يختلف عن الطبقات المحددة والمقيدة من خلال إحصاءات الدخل. وتتوقف الجغرافية الاجتماعية في هذا الطريق كما هو الحال في الطرق الأخرى، لتهتم فقط بحقائق المتوسط أو الحجم الكبير كالتعدادات الرسمية الواصلة التي توجد الإنسان، إن الجغرافية الاجتماعية ذات القاعدة الإحصائية والاقتصادية لا ترتكز كلها على التحليل الميكانيكي للطبقة وقد وجدت منذ أكثر من ربع قرن إلهاماً جديداً في أعمال كولان كلارك **Klark – Colin** و"جان فوراستيه **Gan Faurastie**".

ثالثاً: الجغرافية الاجتماعية وتوزع المجتمع المهني على قطاعات الأنشطة الاقتصادية الأول، الثاني والثالث:

كان العرب من بين من تصدوا لدارسة الأنشطة الاقتصادية – الاجتماعية بالعرض والتحليل والتفسير، فقد أبرز ابن خلدون في مقدمته دور العوامل الاجتماعية وأثر الإنسان في تكوين خواص المجتمع، وتحديد نمط العمل الذي يمارسه قبل أن يتعرض لحتمية العوامل الطبيعية. وقد أكد في الباب الخامس من مقدمته على أن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية حيث قال: "المفادات (الهواء والماء والطبيعة) كلها أو أكثرها إنما هي قيم الأعمال البشرية". وأظهر وجود مقدرات كامنة في الأحياء والصخور حيث قال: "إن في الحيوان والنبات والمعدن لابد من العمل". وفرق بين العمل البسيط والعمل التقليدي المصحوب بالأفكار والأنظار في الحضر حيث تكثر وتزهر الصنائع. كما ميز بين العمل المنتج والعمل الخدمي حيث "فصل في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه"[1]. وعدّ أن حجم القيمة يتناسب طرداً مع مقدار العمل المتجسد في المتمول (السلعة) حيث قال: "وقد يكون من الصنائع في بعضها غيرها مثل النجارة والحياكة معاً الخشب والغزل، إلا أن العمل فيها أكثر، فقيمته أكثر وإن كان من غير الصنائع فلابد من قيمة ذلك المفاد والقنية (الشيء المنتج) من دخول العمل الذي حصلت منه، إذ لولا العمل لم تحصل قينتها وقد تكون ملاحظة العمل ظاهرة في الكثير منها فتجعل له حصة من القيمة عظمت أو صغرت"[2].

وفي عصرنا الحاضر فقد اهتم الكثير من المفكرين والباحثين الاقتصاديين في تحديد قطاعات الأنشطة الاقتصادية، إلا أنهم لم يتوصلوا إلى اتفاق نهائي حول

---

(١) ص ٣٤٥ من مقدمة ابن خلدون.

(٢) ص ٣٤٤ من نفس المرجع السابق.

مضمون الناتج الإجمالي والدخل الوطني، والسبب يكمن في تشخيص الحدود الفاصلة بوضوح علمي قابل للوصف النوعي والحساب الكمي لقطاعات الإنتاج المادي وغير المادي (الخدمي).

وهناك تساؤل حول الإنتاج، هل هو تأدية خدمة؟ وهل كل من يؤدي خدمة هو منتج؟ أم هل يمكن عدّ العمل المنتج للمنتجات المادية هو المصدر الوحيد الذي يخلق الناتج الاجتماعي الإجمالي والدخل الوطني (مع حساب ناتج الفرق ما بين الاستيراد والتصدير)؟

والإجابة على هذه الأسئلة خلقت اتجاهين مختلفين لتصنيف القطاعات الرئيسية للأنشطة الاقتصادية وما تقدمه من دخل للمجتمع. إلا أنه في عام ١٩٦٨ قدمت الأمم المتحدة تبويباً لنظام الحسابات القومية وهو على النحو التالي:

١- الزراعة والغابات والقنص وصيد الأسماك.
٢- الصناعة الاستخراجية، وتشمل المناجم والمحاجر.
٣- الصناعات التحويلية.
٤- البناء والتشييد.
٥- الكهرباء والغاز والمياه.
٦- النقل والمواصلات والتخزين.
٧- تجارة الجملة والمفرق.
٨- الإدارة العامة (دخل النشاط الحكومي).
٩- البنوك وشركات التأمين والمكاتب العقارية.
١٠- ملكية دور السكن (الإيجارات).
١١- خدمات أخرى

أما الأقطار العربية فقد تبنت تبويباً آخر وهو على النحو التالي:

١- الزراعة والصيد.

٢- الصناعة التحويلية والاستخراجية.

٣- البناء والتشييد.

٤- النقل والمواصلات والتخزين.

٥- التجارة والمال.

٦- ملكية دور السكن (الإيجارات).

٧- الخدمات وتشمل الحكومة (الإدارة العامة)، والخدمات الأخرى والدفاع.

وهناك بعض الاقتصاديين العرب ممن فضلوا تبويب البنود السابقة على النحو التالي:

١- القطاعات السلعية: وتضم الزراعة والصيد، والغابات، والمعادن والتعدين، والنفط الخام، الصناعات التحويلية، البناء والتشييد والماء والكهرباء.

٢- قطاع التوزيع: ويشمل النقل والمواصلات، تجارة الجملة والمفرق، والبنوك والتأمين.

٣- قطاعات أخرى: وتتألف من الإدارة والدفاع، ملكية دور السكن، الإيجارات لخدمات أخرى.

أما الدول الاشتراكية سابقاً فقد فصلت بين قطاع الإنتاج المادي والقطاعات غير الإنتاجية. فالأولى التي تشمل القطاعات الإنتاجية فكانت على النحو التالي:

١- الصناعة الاستخراجية والتحويلية على أساس وحدة تصنيف المؤسسة وليس إنتاج بضاعة معينة.

٢- البناء (إنتاج الأصول الثابتة في المكان الذي ستؤدي فيه وظيفتها في المستقبل).

٣- الزراعة (الإنتاجان النباتي والحيوان).

٤- الغابات (رعاية الغابات والمحافظة عليها وإعدادها للاستثمار).

٥- النقل (للبضائع والركاب).

٦- تداول البضائع (التجارة بما فيها المطاعم).

٧- قطاعات إنتاج مادي أخرى، كالطباعة والنشر ومؤسسات الإخراج السينمائي والتسجيل والصيد وجمع الثمار البرية.. إلخ

وبالنسبة للقطاعات التي لا تسهم بصورة مباشرة بالإنتاج المادي فهي كالتالي:

١- المرافق والخدمات العامة (بما فيها الاسكان).

٢- العلم والخدمات العلمية.

٣- التعليم والثقافة والفن.

٤- الصحة والضمان الاجتماعي والتربية البدنية.

٥- المالية والتمويل والتأمين.

٦- الإدارة العامة (بما فيها القضاء والأمن والدفاع).

٧- قطاعات أخرى غير مساهمة بصورة مباشرة بالإنتاج المادي.

إن التبويبات السابقة تعمل على فصل قطاع الإنتاج السلعي وقطاع الخدمات المرتبطة بالإنتاج السلعي عن القطاع الأخير وهو الخدمي غير المنتج أي المستهلك لجزء من الدخل الوطني، ودخل هذا الأخير مصدره عمليات توزيع وإعادة الدخل الوطني.

أما في الدول الغربية كفرنسا مثلاً، فيتم تقسيم الأنشطة الاقتصادية - الاجتماعية إلى ثلاث قطاعات رئيسية وذلك تبعاً للعاملين المنتجين في كل قطاع، والذين يشكل إنتاجهم مصدر الدخل الوطني أو يسهم به وذلك على النحو التالي:

١-القطاع الأول: وهو الزراعي ويشمل الزراعيين الذين يعيشون من العمل الزراعي بمختلف أشكاله والحرف المرتبطة بالزراعة، كالري، والعاملين في قطع الأخشاب بالغابات أو زراعة الغابة ورعايتها، الحيوان بجميع أنواعه.

٢-القطاع الثاني: وهو الصناعي ويضم العاملين في فروع النشاط الاقتصادي - الاجتماعي التالية:

أ- الخشب والورق.

ب- الصناعات الاستخراجية الغذائية والكيميائية.

ت- الجلود الملابس والمنسوجات.

ث- البناء والإنشاءات.

ج- المناجم والتعدين وحقول النفط وتكريره.

ح- الصناعيون والحرفيون والعمال المهرة.

٣-القطاع الثالث: وهو القطاع الخدمي ويضم ما يلي:

أ- المواصلات والتجارة (العاملون في قطاع الطرق والمواصلات والقطاع التجاري والمؤسسات المالية: بنوك وشركات تأمين).

ب- المهن الحرة (أطباء، محامون، مهندسون، معلمون، فنانون... إلخ).

ت- الوظائف العامة (الإدارة بما فيها القضاء والأمن والدفاع).

ث- المستخدمون والخدم في البيوت.

يضاف إلى الفعاليات السابقة فعالية رابعة أو ما يسمى بخارج الفعالية الاقتصادية كأصحاب الأملاك العقارية، وذوي الدخل من أموالهم عن طريق المصارف والشركات، وهناك فئات المتقاعدين عن العمل، والمتدربين على تعلم مهنة.

إن الحدود بين مختلف قطاعات الأنشطة الاقتصادية- الاجتماعية السابقة ليست فاصلة وخصوصاً في القطاعين الثاني والثالث، فمثلاً كثير من المصانع والمؤسسات الإنتاجية، تضم عدداً من الخبراء والإداريين أو عمال الخدمات إلى جانب العمال الفنيين في ميدان الإنتاج الفعلي مما لا يميز في الإحصاءات. ومادامت البحوث التي تأخذ بكل التابعين إلى عمل المؤسسة وفقاً لصفتها أو تعريفها، فإنها أبعد ما تكون عن الكمال. ولهذا لابد من تصنيف المشاركين في الأنشطة الاقتصادية – الاجتماعية، مهنياً حسب طبيعة كل حرفة.

إن مسألة تبويب قطاعات النشاط الاقتصادي – الاجتماعي مهمة لحساب الناتج الاجتماعي الإجمالي والدخل القومي كجزء منه، لدراستها وتحليلها واستنتاج المعلومات المتعلقة بالطريقة الإنتاجية (صنع الدخل الوطني) أو بتوزيع وإعادة توزيع الإنتاج واستخدامه. فعلى سبيل المثال يعد النفط في أي بلد عربي منتج للنفط مصدراً لجميع الدخول المتحققة في القطاع النفطي، وفي بقية القطاعات المنتجة الأخرى ولمداخيل العاملين في جهاز الإدارة الحكومية والمجالات الخدمية الأخرى، ولكن الدخل الوطني لهذا القطر المعني لا يساوي مجموع هذه المداخيل، وهذا ما دفع للتحفظ على الطريقة الاتساعية في حساب الدخل الوطني المطبقة فعلاً في الوطن العربي حالياً.

ومن ناحية اقتصادية ينظر للدخل الوطني من حيث التنمية الشاملة على أنه العائد الذي يمكن استهلاكه كلياً دون أن يؤدي ذلك إلى إنقاص الثروة الكلية للبلد المعني.

ولما كان النفط ثروة ناضبة فإننا نحسب الدخل الوطني من منظار التنمية الشاملة، زائداً الفائض الاقتصادي الذي سينفذ وبهذا سنكون أمام مسؤولية تاريخية بالنسبة لأبنائنا من الأجيال القادمة إذا لم نستثمر هذا الفائض من عائدات النفط ونحوله إلى ما يعادل هذه الثروة الناضبة مجسداً بأصول إنتاجية قابلة للتجديد.

وبناءً على ما سبق فقد تقدمت الجغرافية الاجتماعية كثيراً في قوة التحليل والتفسير لهذا الموضوع عندما وضعت تفسيرات إجمالية لاقتصاد الأمم الصناعية الذي سمعت به الفئات المفروضة من قبل "كولان كلارك" عام ١٩٤٠، في التقسيم التقليدي إلى طبقات البرجوازية، عمال وفلاحين جاؤوا وانتظموا حسب قطاعات متميزة: المزارعون، عمال المناجم، والصيادون في القطاع الأول فهم على اتصال مباشر مع الطبيعة، ويستخرجون المواد الأولية والمواد الغذائية اللازمة للحياة، وعمال القطاع الثاني يحولون هذه المنتجات ويحضروها للمستهلك، كما ويعدون الأدوات التي تسمح للجميع بتحسين إنتاجية أعمالهم. القطاع الثالث هو الأكثر تغايراً، فكل العاملين به يتميزون بتقديم مخصصات وخدمات متميزة.

إن خصوبة وحيوية الفئات المفترضة من قبل كولان كلارك تعمل على امتصاص ما يمكن أن تحصل عليه من الطبيعة، ثم تقوم بتحويله إلى منتجات ناجمة عن التقدم التقني. وقد تزايد الإنتاج في القطاع الأول والثاني دون أن تتبع إمكانات الامتصاص للإنتاج نفس المنحنى. وتترجم المكاسب الإنتاجية إذاً بتحول تدريجي للعمال بين القطاعات بحيث يصبح عملهم غير نافع بالنسبة لتلك التي يوجد عليها طلب محتمل وغير مرض.

وقد رأى "جان فوراستيسه" في بداية سنوات الخمسينات من القرن الماضي أن كل قرار يمكن استنتاجه من هذا المخطط. فهو يستخلص الدرس الذي افترض القياسات الإحصائية للسكان العاملين الموجودين في العالم الصناعي منذ بداية القرن التاسع عشر. وعليه تتميز بنية المجتمع المهني في البلدان التقليدية بالحصة الكبرى للعاملين في القطاع الأول بنسبة ٨٠% من مجموع العاملين في قطاعات الأنشطة الاقتصادية. وبهذا تترجم الثورة الصناعية أولاً بالتركيز على العمل الزراعي، وبالنمو السريع للقطاعين الثاني والثالث.

وعلى المدى الطويل، يتنبأ فوراستيه بأن كل الدول الصناعية سوف تتجه نحو بنية يسمح فيها باستشفاف أن العاملين في الأرض لا يمثلون إلا جزءاً طفيفاً من قوة العمل كما هو حال تركيب السكان العاملين في الولايات المتحدة الأمريكية. والأرباح الإنتاجية يمكن تتبعها في المصنع، غير أن تشكيلة الحاجات تتوقف عند إظهار قابلية المد، وهذا ما يترجم بتكتل تدريجي للأعداد،وفي نهاية المطاف ستكون الأغلبية العظمى من السكان العاملين في القطاع الثالث.

حالياً هناك صعوبات كثيرة لقياس أثر هذا المخطط، ومع ذلك يبدو إلى حد ما طبيعياً كالبلدان الناطقة بالفرنسية مثلاً، وهناك تماثل منذ زمن بعيد بالتاريخ والاقتصاد، لكن ومنذ نصف قرن تقريباً فقدت تلك الفكرة المقصودة مفهومها، وظهر نمط ثوري يهدف لوضع حد من الشكاوي عن الهجرة الريفية التي استمرت منذ بداية القرن العشرين، حيث سببت الكآبة لكثير من القرى المهجورة من سكانها، وعليه يجب أن نعمل على تفهم الميكانيكية العميقة لحركة التمدن المعروفة، والتي تفسر غالباً بمصطلحات نفسية صرفة، والتحدث عن مدن كأساطير سحرية بالنسبة للشباب الريفيين؟ أما في البلدان الناطقة بالألمانية وبالإنكليزية نلاحظ أن التخطيط قد فرض نفسه مؤخراً، وحافظ بجدية على أصالتها، وهذا ما يشاهد من خلال أعمال المدارس الاجتماعية الألمانية مثلاً. ففي كل البلدان كان لمحتوى الجغرافية الاجتماعية عمق اقتصادي، أوجد نوعاً من الغنى، وفي المخطط نفسه طرقت مجموعة موضوعات مثل، المجتمعات التقليدية، والمجتمعات المتطورة، الثورة الصناعية، والانطلاقة المدنية، الهجرة الريفية، حتف الفلاحين، التناقض ما بين العمال والبرجوازيين، المنظمات العمالية، الياقة البيضاء* ، أما موضوع المخططات الماركسية التقليدية فقد أهمل، ونظرية "ويبر"

---

* ذوي الياقة البيضاء هم الموظفون الإداريون.

عن البيروقراطية لم تعرض إلا بصورة غير كاملة، وعليه فإن كل تلك الموضوعات قد وضعت في إطار بسيط، وهو تحول المجتمعات التقليدية إلى مجتمعات متطورة. أما "فوراستيه" فقد ناقش موضوع الماركسية في مخططه، إلى حد أظهر فيه عدم كفاية إطارها للتأمين والملاحظة، لكنه وجد فيها فوائد كثيرة يمكن تبنيها بصورة شبه فورية، للتغلب على العوامل المؤثرة في تضخم القطاع الثالث في الاقتصاد الغربي والإمبريالية العالمية الحرة كون هذا القطاع لا يتخذ إلا مكاناً متواضعاً في الاقتصاديات الاجتماعية. وهكذا يمكن بعد (تكلس) خفيف سد الثغرات الطفيفة في النموذج الفوراستي الذي اندمج بنظرة شاملة للجغرافية الاجتماعية للطبقات.

إن المعلومات الاحصائية المتوافرة عن شعوب بلدان العالم النامي (الثالث) تسمح بإغناء المخطط المتعلق بالتراكيب الديموغرافية. فالمجتمعات التقليدية تتميز بمعدلات ولادة مرتفعة من الحد الأقصى الفيزيولوجي الطبيعي، وكذلك بمعدل وفيات مرتفع جداً، لأن السكان يتعرضون للأوبئة والمجاعات التي تودي بحياة الكثيرين منهم، كما ترتفع وفيات الأطفال لتصل إلى ٢٥٠ بالألف أحياناً، وبالنتيجة تكون معدلات نموها ضئيلة. ويترجم الازدهار الاقتصادي بهبوط في نسبة الوفيات، بينما تبقى نسبة الولادات ثابتة، أو تتزايد بفعل زوال المثبطات التي عرفتها نهاية بعض الفترات، إن الانفجار الديموغرافي يتجه نحو الاستقرار، لأن نسبة الولادات عرفت انخفاضاً ثابتاً، ونستطيع أن نتوقع حالة الانفجار البطيء، أو فترة من الثبات.

إن مخطط التحول الشديموغرافي يكمل كذلك الجزء الخاص بتحول الأعمال، وهذا ما نراه مطروحاً بمنهجية الفرنسيين، مثل "لاكوست La coste" الذي جاء بفكرة العطاء الأساسي للنمو، من خلال نظرية أطوار التحول التي قدمت تطوراً جديداً مع منشورات "زولينسكي Zolinsky" ، وذلك بالتركيز

على أهمية تطور الحركة أو الانتقال الجغرافية. فنظرية أطوار التحول تظهر كواحدة من النظريات الأكثر إغراءاً للجغرافية الاجتماعية الأمريكية المعاصرة كونها تبرز الحقيقة.

تستخدم الجغرافية الاجتماعية نظرية أطوار التحول ما بين المجتمعات التقليدية والمجتمعات الصناعية أو بعد الصناعية، كونه شكلاً من أشكال تحول العمل بتأثير من أرباح الإنتاج. قد يتغير المصطلح أو المفهوم من باحث لآخر "فهانس بوبيك" يفكر مثلاً بوجود مؤشر تركيبي مبتكر شامل لحالة التطور. وهذا واحد من الأبعاد التي نستطيع تعلمها والتي تقدم مقياساً لظاهرة معقدة في مخططها العام للتطور الاجتماعي، ولتوزيع مستويات التطور التي تقدم مكاناً مهماً له.

إن ما تبحثه الجغرافية الاجتماعية هو نظرية بنيوية ولدت في حقل التغيرات الاجتماعية الاقتصادية للمجتمع. وذلك بتجمع الأفراد العاملين في فئات تبعاً للعوامل المشتركة التي تحقق التوازن الجماعي. إلا أن الجغرافية الاجتماعية هذه تتطلب إعادة تفهم لتيارات التطور، فهي لم تهمل الإنسان لكنها تتوضع دائماً في مستوى شامل وغير قادر على عرض الفروق الدقيقة للحقيقة، مثل دمج العوامل الذاتية، والتجربة الاجتماعية المباشرة تثبت أهمية ذلك.

تقدم النظرية الاجتماعية وانبعاث علوم الإنسان حتى أيامنا الراهنة

استخدمت الجغرافية في حركتها المتعمقة وحتى الثلاثين سنة الأخيرة مخططات نظرية أعدت على قاعدة من التفسير البسيط جداً لحياة الجماعات.

والحقيقة الاجتماعية كانت ترى من على سلم آخر وعلى نموذج آخر كالحقيقة الفردية، إن القوى التي تحددها تشرح سلوك الجماعات وتبين أن القضايا الاجتماعية تفسر تبعاً لشعور جماعي ومشترك. إلا أن كل هذا يقع بخطورة على الحدود الميتافيزيقية، لذا سار الفكر الاجتماعي في مقياس عريض وذلك بالعدول عن هذه الفرضيات البسيطة، وبالتوجه نحو العلاقات الفردية والجماعية، وبطريقة تتحدد فيها الواحدة بالأخرى، وهكذا ولدت نظرية اجتماعية أكثر صواباً.

خلال فترة ما بين الحربين العالميتين ظهر واحد من التفسيرات النفعية الذي جذب الانتباه إلى عدد من المشاكل المهملة منذ أيام ماركس. لكن هناك تساؤلات مثل، ما الذي يسمح لمجتمع أن يتكاثر مع الاحتفاظ بهويته ووضعه تقريبا؟ وما الذي يسمح لكل واحد من أعضائه بالمشاركة في المهمة المشتركة دون أن يكون بالضرورة إقامة حكم ضابط ومستمر؟ مثل هذه الأسئلة تطرح في محيط علمي يختلف تماماً عن الذي ساد في نهاية القرن التاسع عشر. فلقد ولدت العلوم الإنسانية والاجتماعية في قرينة عقلانية جداً. وبالنسبة لفلاسفة القرن الثامن عشر الذين أنشأوا العلوم الاجتماعية، يعدون أنه إذا كان الفرد كلاً، فهو عقلاني ومستقل في حكمه عن المجتمع، والمشكلة الاجتماعية في هذا الإطار تكون في فهم كيف يتجمع متطوعون مستقلون وهذا النموذج يرتكز بأكمله على نظرة شمولية للمجتمع، حيث هناك أعضاء أصليون هم الأفراد، وهناك جسم معقد، فالمجتمع يضم التوازن الذي يأخذه هؤلاء الأعضاء الدائرون الواحد حول الآخر، وقد تتمحور القوانين الاجتماعية ذات الشكل الاقتصادي والمتعلقة

بتقسيم العمل، كتلك التي قدمها "آدم سميث" في هذا الإطار تماماً. وقد كشف تطور علم النفس في نهاية القرن التاسع عشر عن كائن بشري كثيراً ما تقيد في إطار محيطه، حيث عدّ الإنسان مفهوماً معنوياً أكثر من كونه مفهوماً حيوياً. وأن من العبث مواجهة المجتمع والفرد، لأنه لا يوجد فرد خارج المجتمع، والروح الاجتماعية غريزة موجودة في داخل كل واحد منا. وقد كان الانتروبولوجيون أكثر ليناً وأكثر سرعة من علماء الاجتماع لهذه الخلفية، لقد واكتشفوا وعلى طريقة "رث بينيديكت Ruthe Benedict" الأشكال الثقافية وغالباً ما راعوا بعين الاعتبار التجانس المدهش بين المؤسسات العامة لدى الجماعة، كالمعتقدات، والطريقة التي تنظم فيها حياتها النفسية، هذه هي الأوليات السهلة والمنطقية في نمط الحياة الثقافية، والتعاونية، وقد تم تحديد وجهة نظر الأنتروبولوجين من المحللين النفسيين، وهذا ما ساعد على صنع هذه التبدلات للقيم.

وقد وضع فرويد في الإطار الذي عمل فيه ملاحظات في ميدان الانتروبولوجيا، حيث برزت واضحة في جيل كل من "أبراهام كاردينيه، ورالف لينتون، ومارغاريت مياد، وكورا دوبوا".

منذ زمن ونحن نتمسك بتتبع تكون الفرد في إطار التطورات التربوية، ونقيس وزن الهيكل الاجتماعي داخل هذا التأقلم الاجتماعي والثقافي والطريقة التي تتبلور فيها الشخصية الأساسية وهذا هو المخرج المشترك لإعداد المجموعة والذي يترجم الوجود الاجتماعي لكل فرد.

إن التأقلم الاجتماعي والثقافي لا يفسر تماماً، لكنه يوضح كيف أن الأفراد يتأثرون بوسطهم الذي أثر بدوره في ثقافتهم على مدى فترة طويلة وكذلك على مجرى حياتهم، فالمجتمع وضع خططاً هي إحدى عوامل استقراره على مدى العصور، لكن أليس هناك ميكانيكية وراء ذلك تساعده على تأمين التوافق لتصرفات المسؤول العام؟

وهو ما تم توضيحه من علماء الاجتماع "كجورج ميد" وكذلك من الأنتروبولوجين "كرالف لنتون"، فمجموعة الأدوار والأنظمة الاجتماعية تظهر الحياة الاجتماعية كآلية ميكانيكية في تحقيق التوازن ممثلة بأشياء غير مرئية، لكنها أساسية للفرد الذي يشكل النفوذ والاعتبار. كما أسهمت النظرية الاجتماعية بمجال رحب، وكانت أساسية دائماً، فهي لم تأخذ بالحسبان أعمال التكوين الشامل، بل تكون قريبة في تركيبها وتكوينها من النظرية الاقتصادية الحرة، لأنها أكثر مرونة وأكثر واقعية، كونها تعيد الاعتبار لخطوط الهيئة والتركيب إلى حد بعيد. إن هذه التطورات لعلم الاجتماع تتمحور في اتجاهين:

١ـ تعدد الأبحاث المتعلقة بالجماعات الصغرى، والتي نلتمس منها الطريقة التي تتوافر فيها مكونات السلطة المتزنة، والتباينات التي تفسر المظهر الإجمالي للخلية.

٢ـ من ناحية أخرى فقد تم البدء بدراسة توازن المجتمعات كافة، وكذلك ديناميكية الأدوار والأنظمة الأساسية، ومنذ نهاية القرن التاسع عشر بقي التركيز على الفكرة التي وضعها "جيمنشافت وجيز لشافت" والتي كانت أساسية، لكنها لم تكن قادرة على تبيان لماذا وكيف؟ وهذا ما عرفناه سابقاً بصلابة الأدوار، من خلال الطريقة التي تجعل الإنسان يعتقد أن الوظيفة قد تغيرت في كل مرة، وهي واحدة من تأثيرات هذه المواقف، وبالنهاية يمكن النظر وبكل وضوح في التناقضات الملحوظة منذ زمن بعيد بين مجموعات ريفية ومجتمعات مدنية، وقد تبلورت النظرية الاجتماعية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وأصبحت أكثر غنى ووضوحاً من تلك التي وضعت منذ زمن بعيد فهي لا تظهر كرافضة للمجالات الاقتصادية بل تبين أحياناً التواصل الاجتماعي والنفسي والدور الأساسي للأول، كما تؤكد على القيم.

إن أعمال "إيفان بريتشارد وبروبرت .ك. مارتون" في الأنتروبولوجيا، قد

حـــددت الأمـــاكن الخاصـــة في هـــذا المجـــال، فالأول اهتم بالحيز التركيبي، والثاني بموقـــع الجماعـــات فجمـــيع هـــذه الـــتطورات الـــنظرية لم تكن سهلة كي تصاغ في جغرافـــية اجتماعـــية، إذ يجـــب إعداد مكان أوسع لهذه العوامل الذاتية في سلم هذه القـــيم والـــذي كـــثيراً ما يجهد الذين يعملون على تفاديه، فالريفي يلزمه التعود على هـــذه اللمســـات الـــتطورية، كـــتلك الخاصـــة بالأماكن المبهمة، وكل هذه الأشياء الجديـــدة أوشـــكت عـــلى ألا تســـبب أشـــياء كثيرة تثقل الجغرافي، وفي هذا المجال الـــذي تـــبدو فـــيه أعمـــال مـــن أجـــل شـــرح الحقائق عند دراسة أشكال الحياة الاجتماعية لدى الفئات الصغيرة.

أولاً: اســـتخدام الأشـــكال الجديـــدة للـــتفكير الـــنظري الخـــاص بالجغرافـــية الاجتماعية:

إن مـــا قدمـــه عـــلم الجغرافـــية من مساهمات للعلوم الاجتماعية كانت محدودة حـــتى وقـــت قريـــب، إلا أن ظهـــور جغرافيين مهتمين بالتوجيهات الجديدة من أمثال "هـــانس بوبـــيك **Hans Bobek**" كـــان له دلالـــة ومغـــزى، لكن كيف يبرز عجز مثل هؤلاء عن الانتفاع من التجديد؟

لـــيس بالباحـــث كـــل مـــن يشعر بالنضوج، وإن من الضرورة تطعيم الجغرافية الســـكانية بـــالعلوم الاجتماعـــية ذلـــك أن كل المداخلات قد سارت في هذا الاتجاه، ففـــي الموضـــوع الـــذي طـــرحه "أوتامـــبا" تبين أن الجغرافية الاجتماعية قد تناولت عمومـــاً كـــل الجوانـــب التقليدية المتميزة في الجغرافية الإنسانية وإن تفسير الفعاليات الاجتماعـــية، الثقافـــية، الاقتصـــادية والسياســـية، يمر من خلال تفهم لمجموع القوى التي توجد الأفراد والذين هم بالمعنى العام قوى اجتماعية.

إن الـــنظرية الجغرافـــية لا يمكـــن أن تكـــون بمحـــتواها إلا اجتماعية، خصوصاً وأنهـــا بالأصـــل اجتماعـــية، ودون ذلـــك لا يمكـــن التوصل أبداً إلى صورة تركيبية لـــنظرية كاملـــة. قـــد تنجح المواضيع عندما تبين عنوان أي مدخل أو جزء أو فصل،

حيث يقدم من خلالها تصنيفاً للأشكال الكبرى للحضارة، وبذلك ينظم التحليلات التقليدية لميكانيكية الطبقة والنموذج الأكثر حداثة للتركيب حسب القطاعات، وهذا يقدم تصنيفاً للفئات الكبرى التي من المفروض أن تحصل عليها الجغرافية الاجتماعية في خطتها، ونتساءل ونحن ندرس هذا الموضوع فيما إذا لم يكشف عما يمنع "بوبيك" من السير في محاولته حتى النهاية أو يؤخره بلا انقطاع، فالفئات التي يطرحها ليبين قصده هي كيانات إقليمية يمكن أن تكون خلايا استقطاب حول المدينة، أو خلايا ليس لها أي استقطاب كالعديد من الأقاليم القارية في أفريقيا أو في عدة مدن صناعية متجاورة، إضافة لذلك تأتي فئات أكثر اتساعاً، دول، قوميات، مظاهر ثقافية وأنظمة اجتماعية، هذه الفئات المكانية وضعت كعناصر لسطح الأرض ذات طابع خاص.

وقد قطعت العلاقة مع جغرافية اللاند شافت الألمانية، لكن لا نظن بأننا أبعد عن استخدامها بطريقة تجمع تماماً مساهمات علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى.

وهكذا شيئاً فشيئاً يتقدم التفكير في هذه الميادين، فالاهتمام المنصب على ظواهر التوازن المحضة قد تناقص، وغالباً ما تتناول المؤسسات العلمية دراسة موقع علم الاجتماع منذ بداية القرن العشرين، إلا أنه من الآن فصاعداً نتفحصه من زاوية الدراسات العلمية وليس من زاوية القواعد القانونية التي تحدده وتصوره بشكل واضح، فتبدو الحياة الاجتماعية وكأنها ميدان علاقات ومشاركات، ويبدو أن "بوبيك" كان مدركاً لذلك لأنه يشير إلى الفروق بين الأماكن القطبية والأماكن التي لم يحصل فيها أي تغيير، لكنه لا يتجاوز الحيز الاجتماعي الحديث الذي يجبر على تناسي المساحات في وقت ما من أجل عدم رؤية تجمعات الكيانات الإقليمية ومجموعة التنقلات وتدفقات المهاجرين.

إذاً هناك عدة صعوبات تحدد وجهة النظر الخاصة بإظهار فاعلية الجغرافية

الاجتماعية كعلم له وزنه بين العلوم الأخرى، فالحاجة ملحة منذ أكثر من قرن، والخطوات قد تمت، لكن لدينا الانطباع بأننا ما زلنا في منتصف الشوط، وهذا ما يترجم بقليل من عدم الرضى إزاء علم الجغرافية، والذي تمت ترجمته والمطالبة بالتعمق الاجتماعي أكثر بكثير وبالتالي التوصية بالاتجاه نحو الفئات الأكثر حداثة للتحليل الاجتماعي، مع المطالبة بالعودة إلى إدراك الحقائق المزودة بالقيم التي لا يمكن إهمالها، إن عدم الرضى هذا لوحظ عند الآخرين وذلك منذ البدايات الأولى للبحث الاجتماعي.

وقد تأثر ج.و. فاستن بتطور الأفكار الاجتماعية وأشار إلى التحول في مجال الجغرافية الاجتماعية الذي تم خلال عام ١٩٥٠.

في فرنسا وبمساعدة عدد من الأكاديميين، فتحت السيدة "روشافورت" الباب واسعاً أمام كل المشاكل التي تواجه المجتمع، فقد أكدت على أن القوة تابعة وتتمحور في إطار هذه الجغرافية الجديدة، كما أشاد الكثيرون بفعاليات الحياة الاجتماعية، وتكلموا عن الهندسة الاجتماعية وحب الاطلاع على المقاييس الاجتماعية للفعاليات الجغرافية المؤكدة في كل الأماكن.

حالياً يحصل تحول تدريجي ودون تخطيط شامل، فالاختلافات الجزئية في الأبحاث قد أخذت بتكوين طرق أو مناهج تبدو ثابتة بالنسبة لها، ودون أن يبذلوا جهداً لدمجها في نظام كبير، واكتشف ذلك المختصون في العالم الريفي من خلال خصوبة التحليلات للعقلية الريفية والمجتمعات الريفية.

ويمكن الاستفادة من أبحاث الأنتروبولوجيا الاقتصادية، ومن اهتمامات الجغرافية السياسية، ومن الطرق المتقدمة التي تدرس ممارسة السلطة (الموجودة إلى جانب الجغرافية الإقليمية القديمة) والحدود والإدارة إلى جانب الجغرافية المنتجة على طريقة "سييغفريد" المثيرة للاهتمام، ولكن من الصعب الانضمام إلى التركيب الاجتماعي ككل، فهي جغرافية ذات ميكانيكية للانضمام والتوافق

للأعمال بالمراجعة والمراقبة، حيث دخلت في عمق مشاكل العالم الحديث، كما تعمل على فهم البنية الفريدة للمجتمعات الأفريقية المبنية بجوار الأجزاء الصغيرة.

يعمل علماء الاجتماع في عدة ميادين وكلها في الاتجاه نفسه، فهم يكتبون تقارير في الحقل الجغرافي مباشرة بحيث لم يستطع الجغرافيون إنكاره، ومثال ذلك التقرير الذي أعده "براس" والصيني "بولار" في فرنسا في الميدان الديني، وجميع هذه الأعمال وجدت فجأة وبكل وضوح، حيث أظهرت الجوانب الجغرافية الكثير من الفرضيات، ففي فترة الخروج عن النصرانية، ظهر دور التصنيع، ونفوذ باريس، وتيارات الهجرة، وهنا قسمت المناطق ذات العلاقات الاجتماعية القوية إلى نصف دائرة على مسافة من الحي الباريسي، لكن عدم انتظام الأوضاع في أماكن كثيرة، ووجود مسائل ومواضيع يطرح تساؤلات منها، هل يمكن ملاحظة أبنية اجتماعية محلية؟ وهل يمكن رؤية عارض في جغرافية النفوذ؟

على مستوى الوسط الريفي ككل فإن أطلس علم الاجتماع الفرنسي الريفي قد ضاعف القضايا التي من هذا النوع، حيث أثار نواقص التفكير المكاني في المادة الاجتماعية.

حاول هؤلاء الكتاب إبراز المناطق المتجانسة في السلوك وعليها دعموا سبرهم وتحقيقاتهم المتعاقبة، وكل ما حصلوا عليه هو مجموعة تصورات غير واضحة أبداً، في حين كان من الممكن الإشارة إلى الحدود الحقيقية المعبرة لكن هل يسمح التحليل العملي لعدة معطيات بالوصول إلى حقيقة مرضية جداً؟ هذا مؤكد تماماً، ولكنه غير كاف.

وتبعاً لوجود المعطيات، فإن مجموعة التغيرات يمكن أن تكون مكتوبة من قبل اثنين أو ثلاث عوامل، ومن الخطأ التفكير بما هو تنظيم اجتماعي في المكان، وأن كل عمل في البحث يوجه من أجل أطلس يبقى في جانب يصعب استغلاله

في نهايـــة المطـــاف، فالأكـــثر سهولة متكامل من قبل الجغرافيين، ومخططات التصنيف هـــذه لا توجـــد في محـــور العلـــوم الاجتماعية، لكنها تسمح بترتيب سلسلة تطورية لجمـــيع الـــثقافات الـــتي تـــتوزع في العـــالم. منذ زمن بعيد ونحن نواجه جموع علماء الســـلالات الذيـــن يعـــدون للكـــتابة، ونصـــر اليوم على وجود تباين بين المجتمعات الصـــناعية والمجـــتمعات التقلـــيدية، ولا يمكن عدّ هؤلاء الآنفي الذكر أنماطاً مشتركة إلى جانـــب تكـــتلات قـــروية مشاركة أيضاً في أنماط الحياة، وأنماط السلوك، وأنظمة الاتصـــال في العـــالم القـــديم، بالإضـــافة إلى بنية مركبة غالباً من الحضريين، التي تؤمن الإشـــراف، وتؤكـــد عـــلى المراقـــبة والاتصالات الأطول أو الأقصر مسافة، وتعلن بالدرجـــة العلـــيا للمشـــاركة في هـــذه الحـــياة الاجتماعية الواسعة للعالم الصناعي، وانطلاقـــاً مـــن هـــذا المخطـــط هناك ركود حقيقي ودون مبالغة في الجغرافية البشرية التقلـــيدية، ويتوضـــع بحســـب مخطـــط مـــنطقي، وقد كانت مجتمعات مرحلة ما قبل الكتابة والتي فنيت بسبب الطبيعة مشغوفة بالكفاح من أجل الوجود.

اتســـم وصـــف أنمـــاط الحـــياة عـــلى الطريقة الفيدالية لتلك المجتمعات القديمة بالعـــزلة النســـبية الـــتي وجـــدت علـــيها، وكانـــت أكثر مقدرة على تكييف المظهر الطبـــيعي حيـــث أعـــدت الـــريف بحقوله وأقامت تجمعات سكنية هامة فيه، فكانت الخطـــوة التقلـــيدية للتحلـــيل الإقلـــيمي للعـــالم الصـــناعي، فالطـــرق المستندة إلى الـــتأويلات الخاصـــة بالاخـــتلاف في الهـــيكل الاجـــتماعي تتبع التقسيم الاقتصادي والاجتماعي للأدوار التي تميزه.

فالطـــرق إذا هـــي للجغرافـــية الاقتصـــادية أو الجغرافية الاجتماعية التي تستند عـــلى مـــبدأ ميكانيكـــية الطـــبقات وقد لوحظ منذ أكثر من ربع قرن إعادة تصنيف للأعمـــال، ولطـــرق مـــادة الجغرافـــية الاجتماعـــية، وذلـــك عند "هانس كارول" و"هـــانس بوبـــيك" في العـــالم الجـــرماني، وفي فرنسا عند بعض الكتاب مثل "جورج" و"أدولفيس".

لكن منذ ذلك الوقت هل يمكن الحديث عن جغرافية اجتماعية واضحة؟ بالتأكيد لا، لأنها استمرت بإعطاء المنفعة الظاهرة لدراسة الآلية التي تفسر التصورات الإنسانية، وكل الأجهزة أو الوسائل النظرية للعلوم الاجتماعية أبعد من أن تكون مستخدمة، إننا نشعر بضرورة اكتشاف الأصوات الجديدة، فمثلاً "ما يكسيل" يبحث عن طريقة للانتفاع بأعمال الانتروبولوجين وفي إنكلترا فقد اعتاد كل من "فير يجلاي وباهل" على تنظيم الأنماط المستخدمة في الجغرافية الاجتماعية.

وفي ألمانيا حاول "بارتليس" بناء جغرافية اجتماعية على أسس أكثر ضبطاً وإحكاماً مما قدمه الآخرون، ومنذ عام ١٩٦٥ ورغم هذه الجهود فقد ازداد التباعد ما بين العلوم الاجتماعية والعلوم الجغرافية، ونسمع عن جغرافيين صغار يقولون بعدم وجود جغرافية اجتماعية، وهذا شاهد على وجود أزمة أو بالأحرى على وجود تحول.

ثانياً: التغيرات والأزمات المعاصرة للتفكير الاجتماعي:

التطلعات الجديدة للجغرافية الاجتماعية:

أشار الجغرافيون الأمريكيون في مناسبات عدة إلى المساهمات الاجتماعية في الجغرافية، وبقي هذا الميدان حبيساً عندهم حتى السنوات الأخيرة، وكانت الجغرافية الثقافية الفرع الوحيد الذي تمت من خلاله دراسة مشاكل المجتمع، ولكن ربما أحسن وضعاً من الفروع الأخرى وذلك للإحساس بالتجديد في الفكر الاجتماعي والتغيرات الأساسية للحالة التي ظهرت سابقاً إن طرق علماء الاجتماع كانت أكثر وضوحاً وشمولاً من المدارس الاجتماعية الأخرى، ولكن الجهد وزع على ثلاثة قطاعات:

١ـ البحث بأشكاله المختلفة وخصوصاً ما يتعلق باستغلال المعطيات الشاملة والمزودة بالتعدادات الكبرى.

٢ـ التحليل النظري: وهنا لم توضح القواعد والاستنباطات بالطريقة نفسها، والوضع مختلف تماماً إذا ما قورن بعلم الاقتصاد، حيث إن الإجراءات التجريبية قد أهملت منذ أقل من جيل لكن ومنذ وقت طويل والجهود متواصلة لجعل الآلية التفسيرية أكثر دقة.

٣ـ البحث التجريبي والصلات المتكررة بين العلوم الاجتماعية والعلوم الاقتصادية وما نجم عنها من أعمال أظهرت الكل في نظرية اجتماعية مبنية على نموذج للنظرية الاقتصادية الكلاسيكية، وفي هذا الاتجاه لا بد من الرجوع إلى المفاهيم التقليدية لكي نعطي الأفراد استقلالاً عن الجسم الاجتماعي وذلك بتصنيفها مع الفرضيات الأكثر حصراً للحجج الاقتصادية والتحدث عن المنفعة دون الربح أبداً، مع تصور لأنماط السلوك الغير منطقية.

وبمبادرة من "هاربارت سيمون" تمكنا من التعرف على تنوع نماذج الإنسان، وظهرت نظرية متجددة للمشروعات، ومن الآن فصاعداً نفهم تضاعف الحوافز ونعد أطراً تبين الطريقة التي تتهيأ فيها القرارات ونتائجها. هذه الأبحاث كانت متفائلة وأحياناً محيرة قليلاً في النطاق الذي تنزع فيه لتكوين علم الاجتماع من جوهر الفرد وقليلاً على النمط الاقتصادي والسياسي للقرن الماضي.

وقد وجدت الجغرافية غارقة في بلبلة العلوم الاجتماعية التي نحياها الآن، اكتشف منذ نحو عام ١٩٦٥ التقارب السلوكي الذي يسمح لها بتوسيع حقل النظرية المكانية، إذا كانت حتى ذلك الوقت قائمة على الفرضيات الموضوعة من علماء الاقتصاد.

وأخذت المدرسة الشابة في حسبانها العقلية المنطقية للمواضيع واستنتاج الأنماط المتطورة التي تسعى لأن تكون الأسمى والأقرب إلى الواقعية، وكذلك الأنماط الطبيعية التي تعين الحلول الأفضل، التي نستطيع من خلالها الإشارة إلى

النقاط التي يمكن أن تكون مشروعاً للنتائج الممكن أن تحدثها وهي تدخل في سلوك الكائنات الجغرافية اللامبالاة والحيرة والممكن أن تكون مرضية مع قليل من الجهد، وتعمل على إغناء الابتكار للعناصر التي أدت إلى إرضاء الناس ومنفعتهم.

طبقت أنماط القرار بأعجوبة في عدد كبير من الميادين، وهي فعالة خصوصاً لإعادة الاعتبار للوضعية التي وضع الأفراد من خلالها اختياراتهم، فمثلاً في قرارات الهجرة يوجد عادة في كل إقليم أو بلد إمكانات الإقامة أو عمل قليل وفي كل الأماكن نظام تسوية يتمثل بجغرافية موضوعية لمستويات أجور المرتبات، ولإمكانات الوجود. والتنظيم يتم بالضبط والأخذ بالحسبان لحظة الاختيار لهذه العناصر الموضوعية، وتحليل القرار يمكن بهذا الشكل ضم المظاهر الفردية والعناصر التي تترجم الوزن الكبير لمجموع أفراد الشعب دفعة واحدة.

وقد اعتادت الجغرافية الاجتماعية بهذا الشكل على قياس حجم الكتل البشرية المتعلقة بالمساحة والخصائص المجاورة، كما بينت كيف انتشر التجديد في الأوساط القروية، وأين تأخذ التحولات شكلاً أكثر أو أقل تنظيماً في أوساط المدينة حيث التكوين الطبقي الموضوع للاشتراك والذي يعطيه سلوك آخر، وانطلاقاً من التنظيمات القياسية في الهيئات نحاول استنباط قواعد عامة للسير في العمل مع تجنب محاولات التحليل النظري الأولية. وعندما تكون المعطيات التي نفترضها مقبولة يمكن وضعها في تجارب للتأكد فنكتشف الطريقة التي يمكن من خلالها تشغيل الآليات المعقدة. فمثلاً يشرح "موريل" التطور في البناء المحلي لوسط السويد وكذلك الأنماط التي تكون في الأصل للمنبوذين، وانتماءاتهم، وتكوينهم، وازديادهم، وتحولاتهم في المجتمع الأمريكي. ويقوم بسلسلة أبحاث عن الفقر والتمييز، وذلك باستعمال الطرق الدافعة للتحليل العاملي آخذين البناء المعقد للعواصم في كل الأماكن من العالم، ومحاولين تفسيره، مستعملين أدوات نظرية تم تمحيصها تدريجياً. هذه الجغرافية تمارس جاذبية للتراكيب

المصطنعة بحيث تسمح باستعمال كل وسائل التدقيق الفعالة وبهذا تكون أكثر غنى بالمحتوى الاجتماعي من التي سبقتها. لكنها تستمر في التسجيل من طرف جزئها المتعلق بدراسة أشكال الحياة الاجتماعية في الفئات الصغيرة، بموضوعها وبنظرتها الأساسية إنها لا تستطيع إرضاء أولئك الذين يشعرون أو يتأثرون بعجز التفكير الاجتماعي التقليدي، ومطالبين بتحديد جذري لطرقه.

إن الانتقادات الموجهة إلى علم الاجتماع والانتروبولوجيا في السنوات الأخيرة تقع في عدة مستويات، فقد أشار البعض إلى عدم الكفاية في الطرق، والعجز في الهيكل النظري، وآخرون يؤكدون على انقلاب يخص الوزن المحدود المعطى للإنسان والمجتمع، إنها تأخذ شكلاً أكثر خطورة من الحالات التقليدية التي قادت الباحث إرادياً إلى التبصر الحذر في شأن الالتزام السياسي، وأصبح وضع رجل العلم مختلفاً من وجهة النظر التي تتوخى النشاط قد أحدثت الحرب الفيتنامية الأمريكية فتنة أمام عدة مظاهر للحضارة التقنية وأمام تناقضاتها، وقلة تبصرها، وعدم إنسانيتها واحتقارها للفقراء والضعفاء، وتحول الجدل إلى الحلبة الجامعية وإلى ميدان الحياة السياسية. واتخذ مظهراً عاطفياً صدم الباحثين المنكبين على إيجاد نمط آخر وغالباً ما يبدو رمز الثورة والتحول والاضطراب متقدماً على الأخطار المتسببة إجمالاً فقد كانت أسس التحول جدية جداً.

بقيت النظرية الاجتماعية كل هذه السنوات الأخيرة نظرية جزيئة، حيث تمت دراسة تفاعل الناس واشتراكهم في العمل على مستوى الجماعات البدائية أكثر من دراسة علاقات الجماعات فيما بينها والتفكير الاقتصادي كان قد عرف مرحلة مماثلة وهي الخاصة بالليبرالية أو التحررية بوساطة بعض الفرضيات البسيطة عن عقلانية القيادات وميكانيكية الضبط للقرارات، لذا علينا أن نسعى لتجنب العوامل التي تعود للمخطط الأول والتي تجاوزها أنماط التفاعل. إن تحليل ميكانيكية الأدوار والأنظمة الأساسية وصلت بالمخطط الاجتماعي إلى نتيجة مماثلة تقريباً حيث نستطيع شرح الكل دون الحاجة لأن نلتمس سلوك الكائنات

مجتمعة. من وجهة النظر هذه يكون مكان الإنسان من العلم نفسه في المادة الاجتماعية كالمادة في العلم فعلاً، فهو يوضح الآليات التي لها سلوك ثابت مستقل عن إرادتنا دون أن يكون دوره مرتبطاً، ولكن ليقول كيف يجب إخضاع الطبيعية إذا أردنا التحكم بها.

إننا نثق منذ عدة سنوات بالدور الأساسي للأعمال الاجتماعية الكبرى فقد تطور المصطلح وترجم هذا التحول.

منذ سنوات قريبة ونحن نسمع عن العلاقات الاجتماعية وعن النهج الاجتماعي ودراسة أشكال الحياة الاجتماعية على مستويات مشتتة فكان "أميتي إتزيوني Amitai Etzioi" أول من استخدم المصطلح ثم "ماركوسوسيو Marco – Sociua" إذ تم تبنيه مباشرة من علماء الاجتماع مثل "تالكوت بارسون Talcott Parsons"، أو من طرف الأنتروبولوجين "كجاك ماكيت Jacques Maquet" ومن الضروري الإشارة إلى الحقائق ذات الأبعاد الكبرى التي تهيمن تماماً على الحياة الاجتماعية فالأفراد المنعزلون والجماعات الصغيرة يسهمون بصورة مباشرة في تطوير الهيكل الاجتماعي،

وقد كان "أميتي إتزيوني" في موقع أفضل من الآخر لجلب الاهتمام إلى المظاهر الخاصة بالحياة الاجتماعية لأن هذه الأعمال حملت الأساس للمنظمات الحديثة وللبيروقراطيات وقد تبين من أقوال "ماكس وبر Max weber" العلنية دور أنظمة العلاقات الاجتماعية في تطور المجتمعات الغربية وإليهم يعود الفضل في مراقبة الأعداد الضخمة للكائنات والقدرات التي تسمح لهم بالهيمنة على المكان والفترة التي تكفل بالوصول إلى الثورة الصناعية لكن ألم تكن هذه المنظمات الحديثة مع عقليتها الجماعية في موقع أفضل من الجماعات؟

وقد أخذ علماء الاجتماع والأنتربولوجيون بعين الاعتبار وزن هذه الأشكال الاجتماعية، واستجابوا بطرق متعددة، وملكوا الإحساس لاكتشاف

قوى خارقة في مجتمعنا، والتي كانوا يجهلونها فترة طويلة، ويجعلونها مسؤولة عن المغامرات الفيتنامية، وللنمو المتوخى في قيمة الفوضى البيئية والفردية ذات الكلفة المتزايدة، فهم ينصحون بالخروج، والبحث عن حل بالرجوع للقيم وفي أنماط العلاقات الاجتماعية لما قبل الصناعية، وآخرون بحثوا عن تقويض لهذا النمط كما دأبوا على إحداث أنظمة لأبنية متوازنة قادرة على حمايتها ومراقبتها، والبعض الآخر حاولوا حل المشكلة من زاوية أخرى، وذلك بالتبصر النظري أيضاً، ذاك التبصر الذي يغير من طبيعتها الأخلاقية والأنظمة الاجتماعية هي أنظمة تسمح بالمراقبة وتوجيه الجماعة للحياة الاجتماعية، ويمكن أن تكون محللة مثل تحليل آلية السوق في الاقتصاد لاكتمال الأدوار في علم الاجتماع الكلاسيكي ولكن يمكن أن تكون ميداناً لأن وزن العامل الإرادي واضحاً ومرئياً تماماً، ويمكن إرجاعه لنمط الموزانة أو لإعادة الموازنة الذي يقضي البحث اللامحدود للقطاعات غير الواقعية.

وقد غير علم الاجتماع من نظامه الأساسي فكان في البداية يدرس الأطراف المتباعدة والفاصل بينها وهذه خواص النظرية الكلاسيكية ومع التطلعات الجديدة أصبح يهتم باجتماعية الإنسان كنظرية الأدوار التي تهتم بتنظيم البشر على مستوى الشخصية أو على مستوى الجماعات، وأدى هذا للتقدم خطوة أكبر وكشف عن المستويات العليا وذلك لأنه بحث عن المكان الذي يصنع فيه تحليله مثل: الدولة، الأسلحة، الكنائس والأنظمة الكبيرة العامة أو الخاصة. والمشكلة الأساسية ليست في وصف الآليات الأتوماتيكية حيث تكون الإرادة مستبعدة، لكن للعمل على تفهم الأصوات التي تعتمد المراقبة والطريقة التي تكون متأثرة بالنتائج العائدة للنوع الأكثر تكراراً والمتعددة الوجوه، وبهذا أصبح علم الاجتماع علم حديث، حركي، تطرح من خلاله المشاكل التي تكون مسائل للالتزام أو المسؤولية.

أعد علم الاجتماع ليقود على نحو جيد مهماته الآلية الجديدة، ونظرية الاتصال حملته على الطموح للقوة وللدعم المادي في توازن الأنماط.

ومنذ أكثر من ثلاثين عاماً عرفنا أن الاقتراب الكلاسيكي للنظرية من الجسم الاجتماعي كان مطروحاً كالرسالة، وأسندت نتائج الاستقرار لمنعطفات بارزة في المفهوم الاقتصادي (كتحركات الأسعار) في حالات السوق، ولمنعطفات بارزة في المفهوم الاجتماعي، فالتسديد في هذه العملية المرئية هو الوصول إلى حالة ميكانيكية الأدوار هذه المعدات استعملت حتى وقت قريب من قبل أنظمة تحليلية تقليدية متواضعة، لكنها يمكن أن تساعد في فهم الآليات العامة بالاعتماد على الأداة التي صنعت بوساطة آلية الطبقة بأشكالها المتنوعة. والجغرافية الاجتماعية أدركت التحول الذي تم في علم الأنتروبوبوجيا وعلم الاجتماع، ودأبت في البحث للاستفادة من التحليلات الاجتماعية الوفية، وتحاول استعمالها في نطاق المكان، فكانت النتائج هامة ومرضية لكن كيف يمكن تعيينها؟ ولماذا تهتم الجغرافية الاجتماعية الجديدة بالجماعات وليس بالأفراد؟ وفي أي اتجاه يمكن تخصيص حركتها؟ وأي مكان أعطي للجغرافيين من أجل البحث في هذه المواضيع الجديدة؟

ارتكزت المواقف التقليدية على إدراك فني (تكنوقراطي) وكان للخبراء في مادة العلم الاجتماعي اتجاه دائم في رفض رأي رجل الشارع والذي يتعلق مباشرة بالمعايير الموضوعة كالمهندس الذي يرفض سماع ما لا يتعلق بالفن. إلا أن المواقف الحديثة مختلفة فنهاية العمل تبدو مخصصة عموماً لتوضيح كل عمل تقني وهي أقل سهولة للاستنتاج عندما تتعلق بالمجتمع لكن ألم تكن مهمة رجل العلم المساعدة على الشعور بالمميزات الأساسية وتبيان النتائج الضمنية أو البعيدة للاختصاصات الراهنة؟ ألم تكن هذه المظاهر هامة أيضاً كتلك وأكثر تقنية، وترتكز على إظهار منطقية العلاقات التضمينية؟ ألا يقود هذا إلى مفهوم مختلف

عـــن دور الأكـــاديمي أو الباحـــث؟ ألا يجـــب تبني موقف حياتي، والشعور بالمشاكل ذات القيمة؟

في إطـــار هـــذا الغلـــيان المعاصـــر، يـــأخذ البحث عن جغرافية جديدة، وأدب جديـــد وآراء مختـــلفة، وآراء متناقضـــة، وقـــد ضـــلل الـــبعض بالمخططات العامة المخصصـــة لآلـــية الطـــبقات، والـــبعض الآخـــر يـــرى الحل الوحيد في العودة إلى الماضـــي، وهـــذه الطـــريقة كانـــت جذابة في بلد انتقدت فيه المواقف الذهنية الأكثر صـــحة مـــنذ "والـــت وايـــتمان Walt whitman". أضـــف إلى ذلـــك أن القسم الأكـــبر مـــن الباحـــثين قـــاموا بالبحـــث في أعمال جزئية تتطلب الالتزام والاختبار المفاجـــئ. إن الجغرافـــية الـــتي لا ترتـــبط بحياة الإنسان ولا تحمل أي معنى أو قيمة في مـــرجعها للأفـــراد ولتصـــوراتهم ولمشـــيئتهم ولتوجـــيه مصيرهم الخاص الظاهر تعد مرفوضـــة ومجهولـــة. لكـــن بعد هذه الخلافات المتعددة بدأت تظهر عناصر الجغرافية الاجتماعـــية وارتســـمت نـــزعة إنســـانية جديـــدة وظهرت مراحل تحول حيث اخذ الـــنمو شـــكلاً أساســـياً أصـــبح معروفاً منذ جيل كما فقدت المواضيع الاقتصادية من حدتها وأصبحت المهمة الأساسية بناء مجتمع لإنسان جديد.

يتســـاءل بعـــض الجغرافـــيين الصـــغار المنـــتمين إلى الولايات المتحدة عن عدم إدخـــال دور البيـــئة الطبيعـــية في الجغرافـــية، ويؤكـــدون عـــلى مكانتها الأخلاقية ومدلولهـــا الاجـــتماعي. وفي نهايـــة المطـــاف فـــإن لهـــذه الجغرافية حرية الاختيار في رؤيـــتها للعلـــوم الاجتماعـــية فهـــي تقـــوم عـــلى تبصـــر وتفكير قادر بفضل تقدم التحليـــلات الشـــاملة، وتعمـــل عـــلى فهـــم الوظـــيفة والمكونـــات المتعددة للبنى الاجتماعية وطريقة مراقبتها وتحويلها ومعالجتها في الاتجاه الأفضل للجماعة.

لكـــن كـــيف تحقـــق الجغرافـــية الاجتماعية الازدهار والتألق؟ هذا ما سنحاول إبرازه فيما بعد.

ترابط العلوم الاجتماعية

لم تتعرض الجغرافية خلال فترة طويلة للخوض في نظرية موحدة لكل التوزعات الثقافية والاجتماعية التي نلاحظها. وقد اختارت مبادئ للتفسير وتبدو مطابقة إلى الأسئلة الأكثر ارتباطاً بها. وهذه المبادئ تعكس بوضوح تشكل المناطق المتجانسة منذ ما يقرب من جيل وهذا يشعرنا بأهمية المناطق الوظيفية (العقدية) ومجموع العلاقات في المنطقة الإقليمية.

إن المخططات التقليدية كانت غير قادرة على توضيح الظواهر في الوسط الجغرافي. لهذا تم البحث عن إيحاءات وإلهامات أخرى، كما تمت الاستفادة مما قدمته العلوم الاجتماعية المجاورة وخصوصاً الاقتصادية والعلوم السياسية والاجتماعية والانتروبولوجية. لكن هذه الإلهامات استعملت بطريقة غير منتظمة ودون الأخذ بعين الاعتبار الظروف التي تمليها نظرية الحياة الاقتصادية ومع ذلك كانت مرضية.

خصص "أليكس انكليز Alex-Inkeles" بعض الصفحات لهذا المشكلة في نص مقدمة علم الاجتماع الذي نشره منذ عدة سنوات وكانت الأفكار التي طرحها غير معقدة ويمكن أن تساعد في بناء الجغرافية الاجتماعية.

تعريف المجتمع: هو مجموعة من الناس تربطهم مجموعة علاقات داخلية تمثل شكلاً وطبيعة مستقرة نسبياً عبر الزمن، وكل أعضاء المجتمع يدركون ترابطهم، لكن كيف وصف وشرح هذا البناء؟ إننا نلاحظ فيها طبقتين: واحدة للأفراد، والثانية للعلاقات الاجتماعية الداخلية، فهناك إذاً شكل واضح حكماً، ويجب اتباعه على هذا الأساس، وكلا المستويين ليسا مستقلين. فالأفراد هم نتاج المجتمع كما أن المجتمع هو نتاج العمل الفردي.

إن الصياغات الأولى للنظريات كانت تعاني من البساطة، وأحياناً تغالي في هذه النقطة، وهذا ما يمكن أن نستعرضه فيما بعد.

غير أن التباينات في خطط العرض الاجتماعي لنماذج الأفراد ولنماذج المجتمع تظهر لنا مفيدة جداً. إن سلسلتي النماذج تكون مركبة في أكثر الأحوال بحيث يمكنها الإجابة على بعض القواعد المنطقية المشتركة والتي سنمر عليها. لكن قبل الوصول إلى هذه القواعد يجب أن نستعرض بعجالة نماذج الإنسان والمجتمع المقترحة مشيرين إلى أصولهم وميزاتهم الأساسية.

أولاً: النماذج الإنسانية: الخطوط الأولية الابتدائية:

جرت العادة منذ زمن بعيد إلى بناء نماذج مبسطة جداً للإنسان وعليه يمكن عدّ جسم الإنسان آلية يمكنها معرفة ردود الأفعال كافة. وأصبح من الضروري العمل على تحليل العمليات الذهنية ووصفها وبيان تسلسلها بحيث نتعرض لخطورة القيام بأعمال شخصية دون أن نصل للإجابة عن الأسئلة البسيطة التي غالباً ما تخطر لنا، كما يجب عدّ الفرد كعلبة سوداء[1] لا يهمنا عملها الداخلي بقدر ما يهمنا معرفة الطريقة التي يثير الحافز من ورائها ردود أفعال، وبهذا يمكننا التأكد من إمكانية الجمع بطريقة سليمة رد الفعل الناجم عن تحريض خارجي وعليه كانت تنظم الفلسفات. في فترة نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، قاد الخوف من علم النفس إلى عدة مواقف، والموقف يمكن أن يحلل بكل موضوعية، ويخضع للاختبار، وما نتعلمه من دراسة هذا الموقف،هي قواعد الترابط بين الدخول والخروج من العملية الغامضة. وقد ظهرت مدرسة فكرية تلح على دور الوسط الخارجي (المناخ والبيئة) في تحديد السلوك وتعيين المعطيات. وتبعاً لتلك المدرسة ظهر تقليد متبع كالذي يرجع إلى نظرية المناخات في الطب القديم والتي أعيد الأخذ بها في الأزمنة الحديثة من قبل مجموعة من المفكرين أمثال "جان بودان **Jan Bodan** ومونتسكيو **Montesquieu**" في بعض من كتاباتهم ولكن على نحو مغاير.

---

(١) العلبة السوداء: توضع في الطائرة للكشف عن حادثة مبهمة قد تحدث للطائرة.

تهتم الجغرافية بالبيئة، وقد استؤنف الأخذ بهذه الفكرة بحيث أعطيت مظهراً علمياً مع التأكيد على دور التقنية في تشكل أنماط السلوك، أما الذين لهم ردة فعل ضعيفة تجاه هذه التوجيهات فقد استبعدوا، وهكذا يفسر التوافق التام بين التوجيهات الخارجية والتصرفات التي تولدها. أما الأعمال الأكثر عدداً فهي أصلاً من نوعية أخرى إذ يرى أصحابها أنها بناء للمجتمع أكثر منه للطبيعة. فالإنسان مدين أساساً إلى مخططاته التي تقوده إلى التأقلم الاجتماعي والثقافي، فهو كالإنسان الآلي الذي تتم برمجته من قبل المجتمع، فإن كانت البرمجة حسنة فهو يتوقع حافزاً للتكيف الآلي مع كل تحريض خارجي. وهذا ما يعبر عنه "بيير غورو Goorou – Pierre" عندما يتكلم عن حتمية الثقافة أو الحضارة، لكن النمط الأكثر أهمية هو ذلك الذي يتخذ من الإنسان قوة فاعلة في التأثير على الطبيعة ألا وهو الإمكانية.

وفي الوقت نفسه هناك تحول عن هذا النمط الذي غالباً ما استخدم من الجغرافيين، فهو لم يعد يعدّ الإنسان كآلة ولكن يلح على الصعوبة التي تواجهه، فقد يكون الإنسان ضعيف الأفق في حالات كثيرة بحيث لا يتمكن من حل مشكلة لأنه ليسي في متناوله إلا حل واحد فقط.

أما الاقتصاديون فلهم رؤية أقل تشاؤماً فيما يتعلق بالإنسان فهم لا يرونه مجرد إنسان آلي وإنما هو كائن مفكر وعاقل، ولكن هل يعني هذا أن رؤيتهم أكثر دقة وواقعية مما عرضناه آنفاً؟ لا فقد كان الإنسان الاقتصادي القديم "هوموإيكونوميكوس 'homo-occomomicus" أو الإنسان الجامع مغامراً مجداً منذ ولادته فهو مزود بملكه التفكير هذه للحكم والتقرير دون خطأ، وهذا ما يميز الإنسان الأرقى في سلم التطور. غير أن طبائعه لا تعدل بالوسط الاجتماعي عن طريق الجوار واللغة، بل تترجم الكفاءات والميول التي لا تفسر إلا عن طريق الوراثة التي تمنح لكل منها قدرات القرار الثمينة هذه فإنسان "هوموايكونوميكوس" (الجامع للطعام) ليس للمجتمع أي فضل عليه، فهو لم

يكـــن ولـــيد هـــذا المجـــتمع، ولـــيس صـــورة عنه، فهو يعتمد على المجتمع من ناحية ظهـــور كفاءاتـــه، لكـــن لا يســـتطيع أن يعـــيش وحيداً تماماً معتمداً على نفسه مثل "بوبينســـون كـــروزوي Pobinson-Crosoe" فـــوق جزيرته. ولهذه الأسباب يمكن أن يظهر أنانياً بلا شفقة.

لكـــن هـــل يمكـــن أن يكـــون عقلانياً بسلوكه الإيثاري؟ بما أننا لم نطلب شيئاً مـــن المجـــتمع فلـــيس له علـــينا فضـــل. يـــرجع الاهـــتمام بالإنسان الاقتصادي إلى الفلســـفات العقلانـــية العـــائدة للقـــرن الثامن عشر وإلى علم النفس الذي يعتقد أن الإنســـان يمكـــن أن يـــتأثر بأكملـــه عـــن طريق إحساسه لأن كل شيء واضح لديه. وكمـــا هـــو في كـــل المخططات التي تفرض نفسها فإننا نعدّ الأفراد كذرات مستقلة الواحدة عن الأخرى لا يتبدل شكلها وغير قابلة للفساد إلا عند موتها.

الدراســـة الـــتي نقـــترح القـــيام بهـــا لـــيس عن العلاقات الداخلية بين الأفراد والمجموعـــة، فهـــي أكـــثر بســـاطة إنهـــا تلك التراكيب الممكنة لهؤلاء الأفراد الذين يكونون نسيجاً مماثلاً للذرات والجزئيات التي تكون الجسم الكيماوي.

مضـــت مـــدة طويلـــة عـــلى العـــزوف عـــن هـــذه الرؤية المبالغة في التبسيط للإنســـان. وقـــد عـــرف علماء النفس الطريق منذ نهاية القرن الماضي. أما المختصون في العلـــوم الاجتماعـــية فقـــد اســـتغرقوا زماناً لتقليدها إذ وجدوا من السهل جداً أن يفترضوا فارقاً واضحاً بين علم النفس والاجتماع.

ثانياً-نماذج الإنسان، الإنسان الاجتماعي – السلوكية*:

يرتكـــز اهـــتمام العلـــوم الاجتماعـــية عـــلى دراسة العلاقات أكثر من دراسة الأفـــراد أو الجماعـــات، وكـــل مـــا هـــو عفوي لا قيمة له إذا لم يعدل من الوسط الاجـــتماعي، وعلـــيه فـــإن كـــل ســـلوك هو استجابة منظمة ومحددة اجتماعياً. وهنا نتـــلمس أهمـــية الأدوار الـــتي تتوافق مع الثورة الأساسية في العلوم الاجتماعية.و قد

---

* نظرية تقول بأن دراسة السلوك الظاهر للإنسان والحيوان هو موضوع علم النفس الحقيقي.

توجهت الجغرافية في بداية هذا القرن نحو تحليل أنماط الحياة كنقطة انطلاق وهو نفس النهج الذي سار عليه علم الاجتماع والانتروبولوجيا، وذلك للحصول على تصورات خاصة بالفرد والجماعة يمكن من خلالها الوصول إلى نظرة واقعية حديثة عن المجتمع، إلا ان الجغرافيين لم يتطرقوا إلى فكرة تقسيم الخطط للوصول إلى عناصر سهلة.وقد بقيت أداتهم غير متلائمة مع المجتمعات المعقدة التي تنحدر منها، ذلك لأن الجماعات قد تضاعفت. فالأفراد هناك يتتالون الواحد عقب الآخر مع تغير بالأدوار، والأدوار ما هي إلا وسائل للمعرفة، ولا تنتج عن طبائع نفسية غريزية لموقف واتجاه مستقلين عن الوسط، فهي موجودة، وتظهر دائماً من خلال الخبرة الاجتماعية. إن ما تقدمه التحليلات الحديثة هو: لا وجود للفرد دون الجماعة، فالفرد بهذا الشكل يتلقى برمجة اجتماعية تتماشى مع البرمجة الغريزية والوراثية التي تلزم لطبيعته الفيزيائية. هذه البرمجة الاجتماعية صارت ممكنة بفعل كفاءة التمثيل، فهي تفسح للتعليم الاجتماعي مكاناً كبيراً مغايراً للبرنامج الفيزيائي، حيث لا يمكن قراءتها إلا من خلال الأدلة الاجتماعية المعطاة، فالإنسان قادر على إدراك الإشارات والاتصال لأنه يختلف عن الكائنات الأخرى في قدرته على خلق اللغات وتصنيفها وتطويرها.

وعلى المدى الطويل فإن هذه اللغات تملي على الفكر الإنساني انطباعاً قوياً، حتى الإستبطان لا يمكن أن يتقولب أو يتكيف إلا بواساطتها، فماذا نفعل عندما ننطوي على أنفسنا أو عندما نتساءل عن وجودنا أو عن حالتنا الروحية إن لم تكن فئات تعلمنا اللغة، القلق، الفرح، الطمأنينة؟ هل هناك خارج هذه الركيزة اللغوية ما يساعدنا على ضبطها؟ نعم دون شك، لكن الحدود التي نفكر بإيحائها هل هي جيدة. بحث يمكن الشعور بها، وهل هي اللغة التي اعتدنا على إدراكها؟ وقد ضاعف علم النفس الاجتماعي من الأمثلة المشروطة أساساً باللغة: فلو أخذنا حالة مخالفة جداً لتلك العملية الاستبطانية يمكننا من خلالها أن نحلل الطريقة التي تكون فيها النقاط الأساسية ملموسة.

فالجزيرة العربية الواقعة في الجزء الغربي من آسيا، التي يحيط بها الخليج العربي وبحر العرب والبحر الأحمر، مواطن العرب ومنازلهم، وقد قسموها إلى أقسام: اليمن، الحجاز، تهامة /نجد/ اليمامة.

وفي هذه الأرض المباركة نبغ الكثير من أبنائها في قرض الشعر، وكان الشاعر قبل الإسلام لسان حال قبيلته.. والمدافع عنها المنافح عن آمالها، والمنتقد لخصومها، والناشر لمفاخرها وأمجادها، يحمسها في الحرب، ويشيد ببطولاتها وانتصاراتها بعد الحرب.

والشعر العربي، كما وصل إلينا، كان مقسماً إلى أبواب، من حماسة وأدب وغزل وهجاء وقصص وإضافة لذلك وصف لمظاهر البيئة وسرد لأسماء الأماكن، وعرض لبعض المظاهر المناخية أي ما يتصل منها بعلم الأنواع.

فالشعر العربي إذاً، مزين بعرض لأسماء الأماكن وبالشواهد لحياة الجاهلية، وقد أيد المؤرخ الفرنسي "ريتان" هذه الفكرة فقال: "إن الشعر الجاهلي لم يفقد قيمته التاريخية والأدبية من حيث هو تصوير صادق للحياة الجاهلية".

والشعر الجاهلي صورة صادقة لحياة العرب الاجتماعية، صدر عن الشاعرنفسه وخلا من التقليد، وابتعد عن التكلف، وهذا نتيجة الحياة البدوية فكلما كانت الحياة ساذجة لا تكلف فيها ولا تعقيد كلما كان الشعر ساذجاً صادقاً قريباً من الطبيعة الخشنة التي يحيا فيها.

"ولبيد" من الشعراء البارعين في الوصف كثير الدقة، يحيط بجميع صور الموصوف خصوصاً في المعلقة وذلك بإبراز بعض المظاهر الجغرافية ما يتصل منها بعلم الأنواء وأسماء الأماكن، فنراه يصور الديار البالية والدمن الخالية، وتحديد المكان حيث يقول[1]:

---

(١) القاضي لإمام أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين – الزوزني، شرح المعلقات العشر، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، ١٩٨٩.

عفت الديار محلها فمقامها بمنىً تأبد غولها فرجامها[1]
فمدافع الريّان عري رسمها خلقاً كما ضمن الوحي سلامها[2]
دمن تجرّم بعد عهد أنيسها حجج خلون حلالها وحرامها
رزقت مرابيع النجوم وصابها ودق الرواعد جودها فرهامها[3]
من كل سارية وغادٍ مدجنٍ وعشيةٍ متجاوبٍ إرزامها[4]

---

(١) منى: موضع بحمى ضرية، غير منى الحرم. الغول والرجام: جبلان معروفان، ومنه قول أوس بن حجر

زعمتم أن غولا والرجام لكم ومنعجاً فاذكروا فالأمر مشترك

يقول: عفت ديار الأحباب وامحت منازلهم ما كان منها للحول دون الإقامة وما كان منها للإقامة، وهذه الديار كانت بالموضع المسمى منى، وقد توحشت الديار الغولية والديار الرجامية منها لارتحال قطانها واحتمال سكانها.

(٢) المدافع: أماكن يندفع عنها الماء من الزبى والأخياف. الريان جبل معروف. ومنه قول جرير:

يا حبذا جبل الريان من جبل وحبذا ساكن الريان من كانا

(٣) مرابيع النجوم: الأنواء الربيعية وهي المنازل التي تحلها الشمس في فصل الربيع، الواحد مرباع. الصوب: الإصابة، يقال: صابه أمر كذا وأصابه بمعنى. الودق: المطر، وقد ودقت السماء تدق ودقاً إذا أمطرت. الجود:المطر التام العام. الرواعد: ذوات الرعد من السحاب، وحدها راعدة: الرهام والرهم: جمعاً رهمة.. وهي المطرة التي فيها لين.

(٤) السارية: السحابة الماطرة ليلاً. المدجن: الملبس آفاق السماء بظلامه لفرط كثافته، والدجن: لباس الغيم آفاق السماء، وقد أدجن الغيم. الإرزام: التصويت، وقد أرزمت الناقة إذا رغت، والاسم الرزمة، ثم فسر تلك الأمطار فقال: هي من كل مطر سحابة سارية ومطر سحاب غاد يلبس آفاق السماء بكثافته وتراكمه وسحابة عشية تتجاوب أصواتها، أي كأن رعودها تتجاوب، جمع لها أمطار السنة لأن أمطار الشتاء أكثر ما يقع ليلاً، وأمطار الربيع يقع أكثرها غداة، وأمطار الصيف يقع أكثرها عشياً. كذا زعم مفسرو هذا البيت الأيهقان: وهو الجرجير البري. أطفلت أي صارت ذوات أطفال. الجهلتان: جانبا الوادي.

فعلا فروع الأيهقان وأطفلت بالجهتين ظباؤها ونعامها

وعند الهنود الحمر فإن الصياد "يوردك" أحد سكان الشاطئ الغربي للولايات المتحدة الأمريكية، اعتاد على صيد سمك السلمون على طول نهر كولومبيا أو على امتداد فروعه، كما اعتاد الكلام عن الحب وعن مهبط النهر وكل ما يجاوره أو يبتعد عنه. فالأداة اللغوية تشترط إذاً تفهم الوسط أيضاً. فالمفردات اللغوية تشير إلى كل ما يتعلق بحياة الجماعة وإلى مورفولوجية الحيوانات كما تظهر مثلاً الفروق الدقيقة بين الجماعات المربية للحيوانات من خلال نمط الكساء الذي نميز بوساطته الظروف المناخية مثلاً كالعواصف الثلجية في كندا أو ظروف البحر عند الشعوب التي اهتمت بالملاحة ويشير "وايت جينستين **Witgenstein**" إلى عدد من المسائل الخاطئة التي قادت معها التفكير الغربي إلى خطأ أبعده عن تحديد وتوضيح مفاهيم وفئات القاعدة وتوضيحها.

إن التكيف الأولي يرتبط باللغة وبكل أنظمة الإشارات التي بفضلها أصبحت العلاقات الاجتماعية ممكنة بحيث وصلت عند الأطفال إلى التكيف التدريجي وللتأقلم الاجتماعي والثقافي الذي يسمح باستبطان مختلف العناصر المنقولة بوساطة اللغة. وبالنتيجة يسمح الرمز بتعلم ما قد أعطي مباشرة عن طريق التجربة فالاثنان يسيران بشكل متواز عند الأطفال بدءاً من اللحظة التي أعطيت فيها المحاولات المختبرة في التجارب الحية تفهماً لقواعد المنطق فالتعبير الرمزي فاق التجربة وأصبح بالإمكان التعلم أولاً كيف يستجيب الفرد حينما يكون أمام كذا وكذا موقف. إننا نستجيب خلال ملاحظة ما يحدث حولنا، وبالتعود على القواعد الملحوظة والقواعد المحددة. وقد ظهر التأقلم الاجتماعي والثقافي منذ بداية الاتصال الجماعي، لكن هذا الاتصال طويل ومرهق، قد لا يمكن العمل دون استعمال المداخل القادرة على تجنب التصنيفات والنتائج المشوهة المرافقة لها. فهي تنتهي عندما يعرف الإنسان قيادها والتحكم فيها. وعلى الإنسان أن يتأقلم عندما يوجد في ظروف معينة، لكن ما هي الاستجابة للظروف الخارجية، وماذا ننتظر منه؟ عندما يكون الإنسان مبرمجاً وحاجزاً للعمل

في المجتمع يعمل على إعطاء قوة ديناميكية كبيرة. إن الإعداد المتقن للغة يسمح بنقل العوامل بأقل التكاليف للحوافز التي تقود إلى الاستجابات المرجوة منها. إذاً بعد هذه المرحلة من التكيف الاجتماعي فما هو نشاط الخلية الأولية التي تكون الفرد؟ إنه يتصرف تبعاً للدوافع التي يتلقاها من الوسط الخارجي على شكل إدراكات حسية وغايات أو رسائل تباعاً للقواعد التي تتكون داخلياً. إن الإدراك الحسي للوسط الخارجي هو مشوه دوماً لأنه منظم تبعاً لتكوينات عقلية تنتج عن النشاط الداخلي للعقل وتبعاً لاهتمام ملقن جزئياً من قبل الحوافز الفردية يعبر عن الإدراك الحسي من خلال لغة مفهومة تحمل الانطباع الخاص بالمجتمع. وهي حال كل ما نتلقاه على شكل رسائل إذا يصبح المحتوى الرمزي متفوقاً.

إن ما يهم المختصين في العلوم الاجتماعية هو الأنشطة حيث تندفع المحرضات المباشرة أو الداخلية عند الأفراد. إن ترابط العالم فيزيائياً وميكانيكياً لا يمكن أن يفي تلبية حب الإطلاع، لأنه يستطيع أن يجد مفتاح القيادة التي تظهر ميلاً وتترجم بوساطة اختيار القيم. إن دراسة وظيفة التمثيل تحتل موقعاً قياسياً لتلك الحقائق الفيزيائية التي لا نستطيع تجاهلها، لأنها تعطي للسلوك اتجاهه. لكن لا يكفي إدراكها من أجل تحقيق التوازن العميق للأنشطة، وجميعها تشكل مجالاً وسطاً، حيث تتخلص تماماً من قيود وشروط عالم الجماد العالم العضوي. فمن جهة تكون بعيدة عن بعض الاتجاهات الكيفية وعن كل حالة اصطلاحية، إذاً فعالم التمثيل قابل للتحول. تصدر الأفعال بفعل التعبير بطريقة واضحة، وبهذا تولد تكيفاً في العالم ولكن تبعاً لمشيئتها ولاختياراتها ولقيمها. هذه الأفعال تشكل مستوى من الحقيقة تبدو فيه حدود الأشياء مرنة جزئياً وذلك في منتصف الطريق بين الحتمية "**Determinisme**"* لمشاكل المادة والاصطلاحية "**Conventionalisme**" لمشاكل العالم الرمزية. وقد أدخل الإنسان من خلال

---

* مبدأ يقول إن أفعال الفرد والتغيرات الاجتماعية هي نتيجة عوامل لا سلطة للمرء عليها.

تأقلمه الاجتماعي والثقافي العديد من القيم التي تحث على البحث بصورة منتظمة عن بعض أنماط الحلول المتميزة. إذا كان المجتمع بلا مرونة ولا جمال والأوضاع غير مستقرة فيه، فيلزم العمل على توازنه ولتحقيق ذلك يكفي الحصول على عدد قليل من البنى القيادية. وغالباً ما ينتقل الفرد من جماعة لأخرى ويرى أنه موكل إليه عدة أدوار، وعندها لا تكون شخصيته إلا حصيلة لهذه الأدوار وانسجامها. قد توجد توترات بين مختلف الأعمال التي نقوم بها خلال حياتنا اليومية وبين القيم التي يجب احترامها في إطار الممارسة. وهناك قيم تخالف تلك التي يجب علينا احترامها في إطار آخر. فالحياة المهنية تتطلب أن نكرس لها الجزء الأكبر من وقتنا وطاقاتنا. وعليه لا تستطيع الحياة العائلية ولا تربية الأطفال أن تضع شيئاً إذا لم نهيء لها فترات طويلة للغاية من أجل الملاحظة والتصحيح والمراقبة وغرس المحبة وتحضير المهمات المستقبلية. إن شخصية الفرد تعبر الطريقة بنفسها التي تكون فيها مختلف القيم مبطنة ومنسقة تماماً. إن الحصيلة synthese* تكشف عن نوعيات ليست من نتاج اجتماعي صرف فهي تعتمد على الموقع وعلى الطاقة الخاصة بالفرد، لكن ورغم كل شيء فهي تعبر إلى حد بعيد عن أهمية البيئة الاجتماعية. ويمكننا التعرف على الأعضاء في الوحدة الثقافية نفسها من خلال المنحني البياني العادي الذي يتعلق بنتائج اختباراتهم لأنه يوجد بين الشخصية الأساسية لمجموعة من الناس وبين المظهر العام لثقافتها تطابق كبير ودقيق وهذا ما أكده العالم "روث بنديكت Ruth-Benedict". إذاً يتكون الكائن البشري في المجتمع وعن طريق المجتمع. فالفرد يستجيب لأي مثير ملم به ومقبول. لكن المناسبات التي يمكن أن نطبق فيها كل الطرق المجربة لا تغطي الحق الكامل للوجود لأنه غالباً ما يوجد صراع بين القيم المختلفة. ومن المناسب أن نوازن بينها ونحكمها، هذا الاختيار ممكن في حالة الفرد حين يتحقق نموذجاً لكل مقاييس التخمين والتقديرات العائدة إليها.

---

* نتيجة الجمع بين الطريحة والنقيضة.

ويعمل على إعطاء النخبة منها منهجاً مطلقاً. إن تفاوت مستويات الذكاء له مدلول جوهري في الحياة الاجتماعية، ولابد من قياس تلك المستويات بصورة مجردة كونها تتولد من مجالات ذهنية تقع بين القيم والأشياء ذات القيم. كما تظهر العلاقات الضمنية المكانية لنماذج الكائن الاجتماعي، التي تتناول المدلول على نحو أفضل. إن النموذج الذي أتينا على عرض خطوطه الكبرى استغرق وقتاً طويلاً لتحضيره وإعداده، وقد ألح علماء الأنتروبولوجيا والاجتماع الذين عاشوا في فترة ما بين الحربين العالميتين على أهمية التأقلم الاجتماعي والثقافي، وكشفوا عن أهمية الأدوار كوحدات أساسية للملاحظة. فيما بعد الحرب تبين أنه يجب التحول عن القاعدة القديمة التي بموجبها تكون الأعمال القيمة مستبعدة من حقل الدراسة الاجتماعية. ومنذ أكثر من ربع قرن تضاعفت الأعمال على القرار. وكان السلوكيون هم الأكثر اهتماماً بها، فقد حاولوا الحد من استعمال الرسم التخطيطي المفرط للإنسان الاقتصادي. لكننا نتساءل هل الإنسان الاجتماعي لدى السلوكيين مزود بنفسية مناسبة لأن يكون واقعياً؟ يمكن الشك بذلك، لكن ألا يجب أن نتجاوز مستوى الحوافز الشعورية للنخبة المعقلنة؟ ألا يجب أن نراعي اتجاهات معمقة للعدوانية، للشهوات التي يصنعها المحلل النفسي؟ ألا يوجد مكان من أجل نموذج جديد للإنسان؟ بالتأكيد يوجد، إلا أننا في العلوم الاجتماعية قلما نهتم بمثل هذه التعقيدات. إن كل المجالات التي تهتم بتطوير التفسيرات العامة أو المعمقة تتجنب الأرضية التي يصعب السيطرة عليها. وقلما توجد علوم تهتم بالفرد أو الجماعة مثل التاريخ والانتروبولوجيا، أو بعض فروع الجغرافيا التي تبدو أكثر جرأة، وهو السبب الذي تطور من أجله تيار إنساني جديد، يتمثل بالجغرافيا الاجتماعية. إلا أنه نتيجة للنقص في الإجراءات الاقتصادية والسلوكية يتولد النقد، ويقترح التوصل إلى رؤية للإنسان الواقعي والقديم تاريخياً، والمستوفي الشروط بطاقته الحيوية التي تتمثل فيها غريزة الحياة "الليبيدو" ومع أحلامه وتناقضاته.

ثالثاً- أسس الحياة الاجتماعية:

للتعرف على الحياة الاجتماعية لا يكفي البحث والتركيز على نموذج الإنسان الاجتماعي فقط، لأن ذلك غير ممكن، في الواقع يجب علينا أن نجيب عن سؤال مطروح وهو لماذا يبحث ويتقرب الناس من الرفاق الشبيهة بهم، كما علينا أن ندرك كيف تتطابق مصالحهم وتتحد قراراتهم، والجواب هو أنماط الحياة الاجتماعية. يقال بأن الفرد ناضج بغريزته وبطبيعته يبحث عن الرفاق من أمثاله لأنه ولد مرتين، مرة في العالم الطبيعي والأخرى في العالم الاجتماعي، وأن ما نعرفه هو أنه ولد في الشكل الأخير. إنه في مستوى الحركة الاجتماعية والثقافية وعليه أن يأخذ مكانه من أجل توضيح المشكلة فعلاً. لكن قد نتساءل ماذا تقدم الحياة الاجتماعية للفرد وللجماعة أيضاً؟ وللإجابة على هذا السؤال يمكن تصور نموذجين مثاليين للتجمعات أحدهما يتعلق بالتجمع القائم على البحث في الحياة الانفعالية أكثرما يمكن والآخر يتعلق بالمجتمع المبني على شكل كويكبات عقدية وكل واحدة منها مخصصة لهدف خاص مع الالتزامات الواضحة والمحددة التي تستبعد الأداء الانفعالي. وهنا يضمن التجمع لكل واحدة مناخاً من الثقة لتكبر وتزدهر. أما المجتمع فيؤكد على حقيقة هي أن المنافع المادية تولد العلاقات بين الأفراد وهذا ينتج عن الرغبة بالانتفاع بالأعمال التكاملية، لكن الحياة الاجتماعية تخضع لسلسلة من التحولات التي يرجع إليها ضعف الشعور بالروح الإنسانية. إن معظم الباحثين يؤكدون على الخصائص المتناسقة للمجتمعات المختلفة، وإذا سلمنا مثلاً أن للفرد غرائز عدوانية، كحاجات أولية للهيمنة، فالشكل الاجتماعي الذي يسمح له بالتعبير يتميز غالباً بحالات من الشدة تتجدد باستمرار. وإذا حللنا أكثر فأكثر قيمة هذه الشدة هل نستطيع حقاً أن نعرض ونحلل تحول المجتمعات مع الزمن؟ وإذا عددناها مجموعات متجانسة فعلاً، هل يمكننا أن نتصور بأنها تتطور؟

بالنسبة "لطوني Tonnies" فالبشر الأوائل والفلاحون بأكواخهم الصغيرة وبيئتهم المنسجمة عاشوا تحت تأثير الجماعة، أما عالم الحضارة المتطورة فيتسم بنمط من العلاقات الباردة والمجردة من المجتمع لكن يمكن أن توجد نماذج مثالية أو على شكل أفضل، تحدد مبادئ الحياة الاجتماعية فهي غير مستبعدة بالضرورة، وتنظم تبعاً لنسب مختلفة. أما التجمعات المنتشرة التي تأخذ مكاناً مناسباً أكثر فأكثر في العالم الحديث فإنها تحظى ببروز مناخات من الشدة كتلك المتمثلة بعلاقات العمل. فالحياة الاجتماعية تقوم إذاً على هذين المبدأين. لكن هل نحن متأكدون مما يمكن أن يحدث دون تنافر؟ وهل نوشك أن نرى البعض وقد اجتذبوا محبة جيرانهم دون مقابل؟ وهل نحن متأكدون من تطابق الارادات الفردية عند العديد من الأشخاص ومن النظام المعمول به؟ ولهذه المشكلة التي تربط أولئك المسؤولين عن الانسجام الاجتماعي. فما هي طبيعته إذاً؟ وما هي الآليات التي تضمن النظام؟ وتسمح بضبط الفوضى العفوية؟

إنها ثلاث هي:

١- الالتحام الكلي لهياكل القيم.

٢- الالتحام الكلي بمبدأ البحث في الأنانية وتخلي كل فرد عن استعمال العنف.

٣- الانتقال إلى سلطة عليا تمتاز بالعنف حتى الوقت الحاضر وفي كل مكان. وهذا يحدد الطريقة التالية التي يمكن من خلالها بحث اتفاق القيادات وانسجام الحياة الاجتماعية وهي على النحو التالي:

ـ وحدة الشعور بالوعي، فإذا حددنا القيمة يمكننا توزيع الجماعة إلى مجموعة أعداد نموذجية.

إن الخوف دائماً هو نتيجة لما هو غير كافٍ لتحريك الإدارة وفي مثل هذه الحالة يجب على السلطة أن تمارس مراقبة مستمرة على الأشخاص الذين لا

يترددون أن يكونوا مستبعدين.

والمراقبة لا يمكن أن تتم من وراء شعاع أو دائرة أو بعد من مستوى النظر بعيداً عن المنطقة التي يتواجد فيها المسؤول وإشرافه وتدخله المباشر، والمراقبة لا يمكن أن تكون فعالة إلا إذا طبقت في حيز مكاني محدود، وإذا كانت مسبوقة بسياج لتعيين الحدود، وهذه الضرورة الملحة تفسر الأمر الذي تكمن فيه الحدود فالخيط المراقب مأخوذين في جميع الأنظمة السياسية وكذلك الأنظمة التي يمارس فيها القسر أو الاضطهاد.

والمراقبة القسرية ضرورية لتوافر الأخبار يكون مرتبطاً بإدراك مباشر للتصرفات وهذا الإدراك لا يمكن أن يتم في شروط جيدة إلا إذا كانت المراقبة هي من عمل الخلية الاجتماعية. إن القسر الممارس من قبل مجموعة من الأشخاص المنظمين يمكنهم عن طريق التناوب تغطية حقل كامل وعملهم هذا يكون أكثر فعالية من ذلك الممارس من قبل شخص وحيد أكثر فعالية من ذلك الممارس من البنى الاجتماعية التي يمكن أن توضع تحت تصرفه.

يمكننا أن نفهم إذاً أن هناك صلة نسبية بين الكثافة السكانية وقوة المراقبة الممارسة على الأشخاص. ففي مجتمع ريفي مثلاً يكون الحيز المكاني مخصصاً بأكمله للتنمية ولا يوجد ما يحد النظر أو التطلع إلى الحقول وتكون القرى متتابعة، ويستحيل الهروب هنا من المراقبة الجماعية، بيد أن القاعدة النسبية لمراقبة الأفراد لا تكون محققة دوماً.

فعندما ننتقل من العالم الريفي إلى العالم الحضري فإننا نلاحظ أن المراقبة تتلاشى تقريباً لأن الجميع موجودون تحت أنظار الآخرين لكن المراقبين لا يعرفون الأشخاص وفي معظم الأوقات يشكلون تجمعاً ضمن نطاق غير مستقر ومرتبط بضرورات العمل وبالتالي لا توجد طريقة لجمع الأخبار الواصلة. وهذه الأخيرة لا يمكن أن تروج بحيث تستطيع إثارة أفعال ذات مفعول رجعي، قد

تتعود الأفعال الإجرامية التي يدركها المجتمع، لكن أي الأخطار أو التصرفات الإجرامية التي لا تدع مجالاً لأية شكوى أو متابعة. وهذا ما أدهش كل الدارسين لتنامي العنف في التكتلات الكبرى من العالم وبشكل خاص في الولايات المتحدة الأمريكية. لكن هذه الملاحظات لم تكن سوى قيم نسبية. فنظام القسر لا يتبع في فعاليته القدرة على بناء شبكة للمعلومات تضع السلطات يدها عليها، وإنما توجد لغة أكيدة للتعبير عن سر الحركة وطريقتها التي لهما مفعول رجعي. فالذي يولد الخوف إلى حد كبير لا يحتاج إلى نظام له مفعول رجعي لكن العداوة التي يفرضها تكون قوية جداً ومع ذلك فالإرادة في زعزعة القسر تبقى في حدود الإمكان. في بعض البلدان التي تكون فيها السلطة العامة ضعيفة، نلاحظ وجود مراقبة دقيقة تفرض نفسها فالتطبيق الدقيق لأحكام القرآن الكريم عمل على اختفاء السرقات والاختلاس في بعض البلدان العربية لأن الخوف في الظهور بيد مقطوعة كان كافياً لجعل المواطنين شرفاء.

في المدن الأمريكية أسهمت العربة على توسيع نطاق الوسط، ومكنت الناس من الاطلاع على المجهول وبذلك حصل تناقض مستمر للأمن في وسط جزائي متساهل. غير أن هناك نوعاً من نظم المراقبة الاجتماعية بدأ يعرف بشكل جيد، وأصبحت المتغيرات المكانية تؤثر فيه على نحو كبير وحساس.

وقفنا سابقاً على الحدود المتلازمة للأنواع الثلاثة الأساسية التي يمكن أن يأخذها العقد الاجتماعي والمتمثل بعضها في عدم فعالية تنسيق الأنشطة عندما يكون الجميع محكوماً بالهدف نفسه. غير أن قلة الفعالية هذه ترجع إلى أسباب جغرافية تتمثل في ضعف ناتج الأنظمة. ومعالجة ذلك على أهمية كبيرة لفهم التوازن الاجتماعي مع عدم إدخال عوامل أخرى مثل: البعد، المسافة، الامتداد وعليه لابد من ملاحظة كيف يمكن مزج نظريات مختلفة من أجل بناء نماذج قادرة على تفسير أنظمة مجتمعات عديدة، وهذا سابق لأوانه حالياً.

رابعاً: النظريات الاجتماعية: بنية عامة

عندما نبحث عن تكوين نظرية اجتماعية متكاملة، لابد من أن نعرف كيف ننظم نماذج للإنسان ونماذج للعلاقات الاجتماعية، وهنا يلزم الرجوع إلى نظرية الإنسان الصانع وهذا ممكن دون صعوبة. غير أن بعض النظريات تستعمل صوراً مبسطة للإنسان لأنها مبنية لكي تفسر بعض أقسام الظواهر الاجتماعية دون صعوبة، كما يمكن أن تعطي مثالاً يجعل الأمور أكثر وضوحاً، فإذا ما بحثنا في تشكل تلك الأماكن المتجانسة في المناطق الريفية التقليدية، هل نستطيع استعمال نموذج الإنسان الاقتصادي homo Oeconomicus حسب المبدأ نفسه وهذا ما يفعله الجغرافيون عادة. لكن هناك تساؤل آخر وهو هل على الناس العقلانيين أن يستعملوا الوسائل نفسها إذا واجهوا البيئة نفسها؟

علينا أن نراعي القدرات الكامنة في بقعة ما، ونكشف تجانسها مع بعض التجمعات، بالنسبة لنشاط معين قد تتهيأ له الاستعدادات الكبيرة في بقعة ما. لكن هل المنتجات التي تقدمها بقعة ما متناسبة مع الاحتياجات دائماً؟ وهل يجب زرع كل المناطق المناسبة لزراعة التفاح أو البندورة بهذين النوعين مثلاً؟ إذا كان الأمر كذلك فعلينا إذاً أن نزرع نصف فرنسا بالتفاح عندما تكون الإرادة موحدة والمخططات منسجمة، وهذا ما تفسره نظريات المجتمع التي تجمع بين نموذج الفرد ونموذج المجتمع في تفسير تركيبي غير أنه يجب أن يكون هناك تناغم وانسجام بين طرفي المخطط إذا أردنا أن لا يتعثر.

إن الوسيلة الأكثر بساطة لإدراك المشكلة هي بافتراض نموذجين ناجحين للعملية في الزمن دون تدخل. بالنسبة لبعض الانتروبولوجيين وعلماء الاجتماع فإن المجتمع سابق في وجوده للفرد. إذاً فالنموذج الاجتماعي يأتي أولاً ونموذج الفرد غير محقق هنا وهو ليس إلا قطعة مشتقة من الميكانيزم (الإدالية)*.

---

* مذهب يقول بأن جميع حركات الكون ناشئة من القوة الآلية.

وقد بقي فهم المشكلة معكوساً لفترة طويلة من الزمن، فبالنسبة لعلوم القرنين السابع عشر والتاسع عشر فالمجتمع مكون من أفراد مستقلين في خصائصهم عن الجماعة التي يشكلونها: وعليه فإننا نستطيع دراسة الإنسان، ثم نرى كيف يتصرف بحضور الآخرين، وهذا ما تجيب عليه النظرية الاقتصادية: فالأنانية سهلت المهمة، وأكدت أنه يمكن فهم الإنسان دون الاهتمام بالبيئة الاجتماعية. والنظرية العقلانية تؤيد استعمال تقنيات قادرة على تحليل الآثار والأعمال الاجتماعية، لكن بعيداً عن الأنشطة الاقتصادية لا يمكن التوصل إلى إعداد بنية معقدة، ومتجانسة، وفعالة، وبالتأكيد هناك الارتباط بين تحليل الإنسان وتحليل كل أنماط سلوكه الاجتماعي، لكن هل يرجع هذا إلى طموح ومتطلبات الباحثين المهتمين بتعقيدات النفس البشرية ودوافعها ووجدانها.

ويقول علماء النفس والمهتمين بالنمو والتطور: إن هناك ارتباطاً بين نماذج الإنسان الممزق القلق ونماذج التوتر. إلا أنه ليس من المؤكد أن كل النظريات ومخططات التفسير المقترحة مبنية دائماً على قواعد علمية، لكنها مع ذلك أفضل من غيرها إذا علمنا أن الحقيقة لا تنقصها.

لكن كيف لهذه التأويلات والتفسيرات أن توضح توزع البشر وأعمالهم وزياداتهم على الأعمال والمساحات الأرضية؟

إنه السؤال الذي يطرح نفسه ويبحث عن إجابة، وعليه يجب التركيز على الجوانب التالية: الوسط والسلوك، القرار، والتنظيم الاجتماعي.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الفصل الثالث

المكان والنشاط البشري ـ الاتفاقيات والسلالات وتطور المجتمعات البشرية

- المكان والنشاط البشري
- الاتفاقيات والمكان
- السلالات البشرية
- تطور المجتمعات البشرية

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الاتفاقيات والسلالات وتطور المجتمعات البشرية

المكان والنشاط البشري

يسعى النشاط البشري عادة إلى تغيير الوسط والحصول على منتجات لتهيئتها للاستهلاك البشري ويرتبط التعامل هنا بالبيئة الاجتماعية مباشرة، التي تقدم الثروات والعلامات والإشارات وبشكل خاص الأخبار والمعلومات والاتصالات وحتى السنوات الـ ٢٥ الأخيرة كان الاهتمام مركزاً على النشاط ومنذ "كارل دوتش" وأوائل المهتمين بعلم التوجيه، انصب الاهتمام أكثر فأكثر على المعاملات لكن ما هي المميزات والضغوطات التي يفرضها الوسط على النشاط والمعاملات؟ والإجابة على هذه الأسئلة سنفردها في الفصول القادمة.

أولاً: التغيرات المكانية التي يحدثها الإنتاج الأولي:

يعدّ الإنسان أحد العوامل الأساسية التي تسهم في تغيير سطح الأرض، وتكون نشاطاته فعالة ومحسوسة على مستوى البيوسفير، وهامة أيضاً في مجال التطور الفيزيائي والكيميائي وقد تصل هذه النشاطات إلى خلق بيئة اصطناعية مؤلفة من مساكن وبيوت على شكل قرى ومدن وطرق مواصلات عديدة.

أما التجمعات فإما أن تكون قد اندثرت أو استبدلت بأشكال أخرى أقل توازناً وقد تبقي تلك التغيرات مظهراً محتشماً وخجولاً قياساً إلى فعاليتها.

وقد أدى حرق الغابة والزحف نحو زراعة الأراضي الغابية المحروقة إلى تغيير مظهر مساحات شاسعة ففي مناطق من الأراضي السودانية في أفريقيا، وفي بعض الأقاليم الداخلية في البرازيل أصبح البعض يتساءل عن جدوى وجود السافانا لكثرة الحرائق التي تلحق بها كل عام. أما في العالم الاستوائي الأمريكي والأفريقي فتحتل المناطق المزروعة مكاناً مهماً بين النباتات الطبيعية المتشابكة والمتقاربة

والتي تكون متنوعة ومظهرها كثيف وغير منظم. في المناطق المتوسطة تبدو الأراضي المستغلة في الزراعة ضعيفة المردود أحياناً وكأنها تزرع منذ ملايين السنين والشيء نفسه يمكن أن يقال عن النشاط الرعوي فقد تجتاز مساحات واسعة جداً تخصص لقطعان الماشية وتنقلاتها دون أن تتغير باستثناء الجزء القليل منها وببطء شديد.

وفي كل هذه الحالات تسمح المناطق الطبيعية المدارة من قبل الإنسان بإنتاج غذائه وكذلك بممارسة نشاطات أخرى وتبدلت الطرق السابقة في الاستغلال الزراعي نتيجة التطور الكبير والمستمر في قطاع الزراعة من خلال استخدام الطرق الحديثة في تربية المواشي بأعداد كبيرة واندمج النشاطان الزراعي وتربية الحيوان في مواقع عديدة. وأصبح من الضروري وضع مناطق واسعة لإنتاج محاصيل مفتوحة. وأدى التطور في القطاع الزراعي والرعوي إلى إحداث تخصص شامل تقريباً.

في البلدان التي عرفت حضارات زراعية قديمة هناك محاولات للتقليل إلى أقصى حد من الضغوط الناتجة عن هذا التخصص وذلك بترك الأراضي دورة كاملة للاستراحة بعد جني المحاصيل أما المناطق ذات الحضارة الزراعية الأحدث والأكثر تميزاً فقد جرت العادة فيها على سد المنافذ إلى الأراضي المستغلة منذ لحظة بدء زراعتها بقصد حمايتها.

إن الحماية البيئية بنمطيها الحيواني والنباتي ضرورية وهامة من أجل الحصول على غذاء الإنسان، وخصوصاً إذا لم تمارس سوى جمع المحاصيل والمنتجات التي تقدمها الطبيعة، وهنا يجب أن ننظم مساحات شاسعة لتلك الغابة، وفي المساحات المخصصة للجني والصيد البري وصيد الأسماك يجب رصد عدة كيلو مترات مربعة للفرد. وإذا أدخلنا التقنيات الحديثة بصورة تدريجية على

الـــزراعة وتربـــية المواشـــي فـــإن المتطلبات الخاصة بالمساحة تصبح قليلة لكن بالمقابل فـــإن الـــتغيرات المؤثـــرة بالوســـط تصـــبح أكـــثر عمقـــاً وبالتالي فإن التخصص في استعمال الحيز المكاني يصبح مؤكداً.

ففـــي غـــرب أوربـــا عـــاش الفـــرد الواحد أيام الزراعة التقليدية على أقل من هكـــتار وفي بعـــض الحـــالات كـــان يعيش على أقل من ذلك كما حدث في إيرلندا أيـــام المجاعـــة عـــندما كانـــت بضـــعة آرات من البطاطا وبضعة أكرات من الأراضي الزراعية تكفي لإعالة عائلة كبيرة.

امـــا في عـــالم الـــبحر المتوســـط وحيـــث تتوافر مياه الري فقد ارتفعت الكثافة الســـكانية مـــنذ زمـــن بعـــيد وعـــاش الفرد الواحد على ما ينتجه من قطعة أرض لا تـــتجاوز مســـاحتها الـــ ٥٠آراً. وفي المـــناطق الأعـــلى كثافة بالسكان انخفضت المساحة إلى ٢٠آراً.

في المـــناطق الاســـتوائية تتشـــابه الظروف في كل من أمريكا وأفريقيا وآسيا فإن المســـاحة اللازمـــة لإنـــتاج مـــا يعـــيل شخصـــاً واحداً تكون أقل مما هو في المناطق الأخـــرى، وتحددهـــا القياســـات مـــا بين ٢٠ و ٣٠ آراً في المناطق الغابية ومن ٤٠ إلى ٥٠ آراً في مـــناطق الســـافانا. وهـــذه الأرقـــام أعلى من تلك التي في دلتا جنوب شرق آسيا.

وتجـــدر الإشـــارة إلى أن اخـــتلاف الكثافة يتعلق بمدة الدورة الزراعية أي بمدة تعاقـــب الـــزرع ففـــي الـــبلدان الواقعـــة في أمريكا وأفريقيا التي تتبع نظام استراحة طويلـــة لـــلأرض العشـــبية أو الغابية، تتضاعف فيها المساحات الزراعية لأكثر من ٤ إلى ٥ مـــرات لتصـــل إلى ٢٥ أو ٣٠ مـــرة كمـــا هـــو الحـــال في نظـــم "شيتميني Chitemene: في جنوب حوض الكونغو وفي خط القمة الكونغولي الزائيري.

إن الاحتـــياجات الإيكولوجـــية تفـــرض عـــلى المجتمع الإنساني تنظيم مساحات واســـعة لإنـــتاج مـــا هو ضروري لغذائه أو ما يسهم في تطوير أدوات إنتاجه والتقدم

المحقق في هذا المجال ملموس منذ قرنين لكنه لم يتغير بالشكل المطلوب على مستوى المساحات الزراعية أو المجتمعات والأفراد إلا منذ وقت قريب حيث سجلت مكاسب قيمة في مجال إنتاجية العمل بالنسبة للمساحة في كل من بلدان أمريكا الشمالية وأوروبا. أما في الأرجنتين وأستراليا وسيبيريا فقد تم اختيار حلول متعددة تسمح بإنتاج أكثر مما كان عليه في الماضي.

وقد أسهم الاستعمال المتنامي لمصادر الطاقة الاحفورية منذ جيلين إلى رفع كمية الإنتاج التي يقدمها الهيكتار الواحد، فمثلاً ارتفع المردود من ١٠ قناطير إلى ٤٠ وحتى ٥٠ قنطاراً من القمح، كما أدى التنامي الكبير في الإنتاج إلى تغيير النظام الغذائي حيث استبدلت هيوليات من أصول حيوانية بهيدروكربونات نباتية.

ومنذ عهد قريب اهتمت الحضارات الحديثة بضرورة إيجاد دعامة بيئية وتنظيمها لكل فرد تكون مساحتها ما بين ٢٠ و ١٠٠ آر (من أجل وضع نظام ضبط للتكبير أو التحجيم) إلا أن الثورة الصناعية عملت على تغيير عدد ساعات العمل المخصصة لتنمية الأرض، وحركية الثروات. وانخفضت أسعار النقل بحيث لم يعد من المستحيل العيش بعيداً عن الدعامة البيئية أو الإيكولوجية.

وخلاصة القول هو إن ازدياد الطلب على المواد الغذائية يفرض على البشرية عرضاً ممنعاً من أجل إنتاج المحاصيل المختلفة وتربية قطعان الماشية بمختلف أنواعها، كما يفرض سياسة إعادة توزيع السكان. وهذا هو الضغط الأساسي الذي تفرضه البيئة على المجتمعات الإنسانية، لأن التوزع على الأماكن الصالحة لسكن الإنسان له نتائج جد إيجابية على المستوى الفيزيولوجي فهو يقلل من فرص العدوى وأخطار التلوث بالنفايات والمياه المستعملة لأن المناطق الاستوائية التي تعرف أسوأ الأوضاع الصحية في العالم تعاني من كثافة سكانية خانقة.

ثانياً: الوسط البيئي دعامة لنشاطات إنتاجية أخرى:

يعمل النشاط الزراعي على استغلال مساحات مهمة من المناطق المخصصة له، كما تحصل الأعمال الإنتاجية الأخرى على بعض التخصص من الحيز المكاني حتى وأن كانت المشاريع يدوية أو متخصصة في الصناعة التقليدية وعندما يكون العمل جارياً في إطار المنزل السكني فإنه يحتاج إلى أدوات، وإضاءة، ومخازن، وجميعها تتم في ملحقات وأماكن معدة لهذا الغرض.

في المجتمعات الحديثة تتجه الأنشطة الإنتاجية إلى الانفصال عن الحيز المخصص للاستجمام والراحة وأوقات الفراغ. فالمساحات اللازمة لذلك تكون مهمة لكنها لا ترقى إلى مستوى تلك المخصصة للزراعة. فيما يتعلق بالحديث عن مقدار المساحة المخصصة لكل عامل ويمكن القول إن عدة أمتار كافية لشخص واحد يعمل في القطاع الثالث (الخدمي) لأن العقارات تكون أصغر مما هو في القطاعين الآخرين الزراعي والصناعي بحيث لا تتجاوز بضعة عشرات من الأمتار المربعة للشخص الواحد، وبالنسبة للمحلات فإن المعايير تتشابه تقريباً، ولا ترتفع إلا في حالة التجارة الكبيرة، حيث تكون الأدوات المستخدمة كثيرة إلى درجة الإرباك: بيع السيارات، أو الأثاث مثلاً.

فيما يتعلق بأنشطة النقل فإن الأرقام ترتفع عن ذلك، وتختلف كثيراً من مجال إلى آخر، فبالنسبة للمشاريع التي تتجه إلى الميكانيكا الدقيقة، أو تركيب قطع الغيار المستوردة من الخارج، أو نحو التجهيزات النهائية لمنتجات معدة، فإن معامل المساحة يتضمن من ١٠ إلى ٣٠ متراً مربعاً للموظف الواحد.

أما ما يخص الصناعات الثقيلة وصناعة الورق وتكرير البترول ومصانع الفولاذ، والمركبات الصناعية والكيمياوية فإن أنظمة التحجيم أو التكبير تختلف إذ يجب أن تفوق الـ ١٠٠ متر مربع للموظف، وفي أحيان أخرى الـ ١٠٠٠ متر مربع وهذا التكبير ينتج عن المساحة الخاصة بالتخزين.

ثالثاً: الوسط البيئي مجال للاستراحة والاستجمام وأوقات الفراغ:

يحتاج الإنسان إلى مكان ليستريح فيه، ويأويه، ويحميه من تقلبات المناخ والضجيج، وعليه لكي يتمكن الناس من المشاركة في الحياة الاجتماعية التي تعمل على زيادة فعاليتهم لا بد لهم من الاهتمام بصحتهم ومظاهرهم. ولن يتحقق ذلك إلا إذا أجهدوا أنفسهم من خلال المشي، والركض، والسباحة وإن للاتصال والاحتكاك بالطبيعة دوراً توازنياً مهماً للتخفيف من ضغط الحياة العصرية.

إذاً فالحاجة ملحة جداً إلى مجال للاستجمام والراحة وقضاء أوقات الفراغ لكن هذه الاحتياجات تختلف تبعاً لطبيعة المجتمع الخاضع للدراسة ولمستوى تطوره وإيديولوجيته، ونظام القيم التي تميزه.

إن المتطلبات الدنيا للحيز الخاص بالمسكن تتحدد بمترين مربعين لتنظيم مضجعه، وترتيب أمتعته التي يحتاجها غير أن بعض شعوب الشرق الأقصى لا يهمها أن تتخطى الحد الأدنى سالف الذكر. إنها دون شك تلك المجموعات التي تعيش بشكل دائم في المنازل الخيزرانية، أو في زوارق موانئ جنوب شرق آسيا في الأحياء السكنية الجديدة العديدة منذ الحرب في هونغ ـ كونغ وسنغافورة. فالظروف الحياتية متقاربة، وهي شبيهة بتلك الموجودة في الأكواخ القصديرية في العالم الاستوائي، كما أن أحياء الأكواخ في المدن الأوروبية تعرف الكثافة نفسها تقريباً.

عندما يكون المناخ معتدلاً فإن الكثير من الأنشطة يمكن أن تمارس في الهواء الطلق وتتغير المعايير بالتأكيد عندما يتعلق الأمر بالبلدان التي تعرف فصلاً بارداً محسوساً، وبالتدريج عندما تطول فترة وقت الفراغ خلال الأسبوع فإن استملاك الحيز يتضاعف وهذا يفسر الأوضاع المختلفة التي نشاهدها في الدول الصناعية ففي أوروبا الشرقية بقيت برامج البناء متواضعة نتيجة للدمار العارم

الـــذي خلفـــته الحـــرب وهـــنا فإننا نتحدث عادة عن سبعة أمتار مربعة للفرد الواحد أمـــا في أوروبـــا الغربـــية فالوضـــع مختلف فنصيب الفرد يتحدد بين ١٢ و١٥ متراً مـــربعاً كمعـــدل وأقـــل مـــن ذلك في البلدان اللاتينية. في فرنسا وإيطاليا مثلاً أكثر بقلـــيل ممـــا هـــو في ألمانـــيا وسويســـرا وإسكندنافيا، غير أن المعدل في بريطانيا كان الأكـــثر ارتفاعـــاً عـــلى مســـتوى القـــارة، ومع ذلك فهو أقل من ذلك الموجود في دول القسم الشمالي من القارة الأمريكية.

في مجـــال العمـــل في الهـــواء الطلـــق فـــإن المتطلبات متنوعة وهذا يترجم تطور المجـــتمعات، وطـــريقة اســـتعمال الـــتربة الـــتي تميزها. وهذا يعكس أيضاً تغير نوع النشـــاط الســـائد حـــتى إن قســـماً كـــبيراً من العمال بقي متمسكاً بالأرض ولم تكن هـــناك أيـــة حاجـــة إلى توقـــع مجـــالات خاصة لكي يجتهد أو يجد كل واحد فالحقول تكفـــي. وعـــندما تـــتوقف الحقول عن تقديم محاصيلها فإنها تعرض لاستعمالات شتى، غـــير أن الأراضـــي المســـيجة أو ذات الملكـــية الخاصـــة يصـــعب استعمالها لغايات مـــتعددة. ولهـــذا الســـبب بـــالذات يعـــزى ومـــن دون شك التعدد المبكر للأماكن المخصصة لأوقات الفراغ في بريطانيا ثم في الولايات المتحدة الأمريكية.

فكـــيف يمكـــن مـــثلاً، الـــتنزه في الريف بعيداً عن أرضية للعبة الغولف؟ وكيف لـــنا أن نعـــرف الطبيعـــية الحقـــيقة بعيداً عن المنتزهات والمحميات إذا كانت الغابات القريـــبة وكذلـــك المـــياه مســـيجة؟ كـــيف يمكن الهروب إلى هذا الطريق للوصول لأمـــاكن أوقـــات الفـــراغ والاســـتجمام، وإلا سنبقى في وسط مستعص على تعيين الحدود والمحتويات؟

وفي العـــالم الصـــناعي ســـبب لتبني الموقف الذي تتبناه الدول الأنغلوسكسونية. إن تحديـــث الـــريف يضـــر باســـتعماله وسطاً للاستجمام. كيف يمكن الاستجمام في وســـط لـــيس في نشـــئ طبيعي وحيث الاستعمال المكثف للسماد والمبيدات الحشرية التي تشكل خطراً حقيقياً دائماً على الجسم البشري؟

لم يحدث أن وجد الاستجمام وكذلك الأنشطة الرياضية مكانهما في البيئة البرية التي لم تكتمل فيها التنمية بعد، وإنما في مكان آخر هو الوسط الزراعي.

لذا يجب وعلى نحو متزايد تخصيصهما (الاستجمام والأنشطة الرياضية) بأماكن محفوظة داخل التكتلات الحضرية أو في القطاعات الريفية المعدة خصيصاً لهذا الغرض.

رابعاً: حيز المرور والحركة:

الإنسان بطبيعته متنقل دون انقطاع، ويخصص لذلك ساعات عديدة خلال اليوم فهو يذهب إلى العمل، ويردّ الزيارات، ويمارس رياضة الجري.

ولما كان التنقل يتم على الأقدام فهو بذلك لا يتطلب إلا ترتيبات خفيفة حيث تكفي بضعة ألواح أو عبّارات لتفادي المستنقعات وعبور المسيلات. حتى وإن كانت تلك المسيلات والمستنقعات عميقة فليس هناك شيء أسهل من عبورها بوساطة عبّارات. غير أن استعمال الوسائل السابقة، ينتهي بصنع خيوط من آثار الأقدام في سهب ما أو مرج أو درب في غابة ما. كذلك فإن حيزاً مكانياً للمواصلات غالباً ما يكون عفوياً عندما يكون المرور موزعاً، إذ يمكن أن يتوافق مع استعمالات أخرى فلا أحد يمنع اجتياز الحقول أو السير بمحاذاة حوافها، ونحن متأكدون أنه غالباً ما تكون المساحة المخصصة للمرور متواضعة للغاية في المجالات الرعوية والزراعية. ففي الحالة الأولى تكون موزعة ومتناثرة، وآثار الأقدام لا تكون واضحة إلا بالقرب من مواطن ظاهرة أو بالقرب من نقاط المياه. وقد دأبت الحضارات التي استخدمت الحيوانات على شق الطرق وسط الأراضي لتجنيب المزروعات أنياب قطعان الماشية. فقد كان من الضروري استعمال عربات لنقلها.

في الأماكن التي تتراصف فيها المنازل في مجموعات يصبح من الضروري جداً رصد مجالات للمرور والانتقال.

وهـذا الالـتزام لـيس مطلقاً وتثبت ذلك بعض القرى، حيث يمكن التنقل من سـطح إلى آخـر أو المـرور مـن مسـتوى إلى آخر بوساطة سلالم دون الحاجة إلى طريق آخر لكن الأمن الجماعي غير مضمون.

في الأحـياء الأكـثر كـثافة في المـدن العربية مثل حي القصبة في الجزائر نرى شـبكة مـزدوجة للمسـالك، وهـي عـبارة عن أزقة وشوارع ضيقة، وهي الشبكة العامـة الـتي يمكـن من خلالها الدخول والخروج من الحي لكنها غير ملائمة للتجول ومـع ذلـك لعبـت دوراً لا يمكـن إهماله وخاصة في حالة الأزمات والتوتر بشكل كامل أو جزئي.

في كـل الأمـاكن الـتي جـرت العادة فيها على استعمال طرق مزدوجة، فإن تـأثير الحـيز المخصـص للانـتقال والمـرور مهـم بما فيه الكفاية وسط التكتلات والطـرقات الحضـرية، وهـي واسـعة وفسيحة في كل دول أوروبا الغربية وأمريكا، بحيـث يمكـن اسـتعمال السـيارة دون مشـاكل في الدول المتوسطية (دول حوض الـبحر المتوسـط). وحيـث عرض الطرقات أقل بسبب قلة الاهتمام بالسير والنقل، فـإن حـيز المـرور القـديم فـير قـادر عـلى تسيير وتوجيه أفواج السيارات التي تعـددت، وتنوعـت بسـبب الحضـارة الصناعية. وبالنتيجة فقد سجلت بعض المدن الإيطالـية أرقامـاً قياسـية في الاكـتظاظ والتلوث. وبتطور وسائل النقل الحديثة فإن الحـيز المخصـص لـلمرور لم يـتوقف عن النمو حيث تجاوز بعضه ١٠أمتار إلى ١٥ مـتراً في العـرض. وبالنسـبة لـلخطوط الحديديـة أيضاً. أما الاتوسترادات (طرق الدرجة الأولى الممتازة) فقد يقترب الرقم من مائة متر.

في المـناطق الحضـرية نلاحـظ أن المحطـات والمسـاحات المرصوفة بالإسفلت تـزداد باضـطراد وتعـادل من ١٠% إلى ١٥% بالنسبة للمدن الضيقة في حوض الـبحر المتوسـط والشـرق الأقصى واليابان. وترتفع إلى ما بين ٢٥% و٣٠% في مـدن الـدول الأوروبـية وأمـريكا المخططة في القرن التاسع عشر. أما في البلدان ذات الحضـارة القـروية والمدنـية القديمـة، فيختلط عادة الحيز المخصص للتنقل مع

حيز التفاعل الاجتماعي، حيث تتم اللقاءات في الطرق والميادين والساحات العامة. ومع التطور أصبحت النشاطات التي تربط بين الناس تتم في مكاتب، حيث تلتقي كل التيارات ذات العلاقة. أما التي لها لقاءات مباشرة فتلتقي في مباني ضخمة معدة أصلاً للتظاهرات والعروض مثل صالات السينما والمسارح وصالات التجمعات ودور العبادة.

وقد سمح التقدم الذي أحرز في مجال تقنيات نقل الأشخاص والثروات، بإيجاد حيز للاقتصاد، فقد نستعمل مسالك للطاقة تتمثل في خطوط قوية بحيث تتوافق مع الاستعمال الزراعي. أما بشان نقل الأشخاص فإن الطائرات لا تحتاج إلا إلى علاقات مميزة ومحددة ومنشآت خاصة. كما أن التقدم الذي تحقق في مجال الاتصالات الخاصة بتوفير الأخبار والمعلومات ملحوظ جداً، فخطوط الانترنيت والتلغراف والتلفون والفاكس تقدم وسيلة اقتصادية للاتصال والربط بوساطة الكابل أو النقل الهيرتزي أو بوساطة الراديو أو التلفزيون التي جعلت الاتصال ممكناً بأي مكان في العالم دون الحاجة إلى دعائم أرضية.

خامساً: النمطية في الجغرافية الاجتماعية:

تعد الجغرافية الاجتماعية تجربة حقيقة للتقنيات الحديثة في البحث الجغرافي. وإن إحدى نتائج هذه التقنيات هي تزايد النماذج التي تظهر "الفوارق الاجتماعية في المكان". فعند تطبيق هذا التصنيف الاجتماعي خاصة على الأماكن داخل المدن حتى وإن لم تظهر كيفية تشكيل تلك الفوارق، فقد كان له الفضل في لفت الانتباه إلى التمييز بين الأماكن من خلال الوظائف المدنية وعلاقات المدن والأرياف أو تنظيم المناطق حيث تندرج فيه العلاقات الاجتماعية إلى مستوى التبعية في إطار الحتمية الناتجة عن الظروف الطبيعية والتاريخ أو الأنظمة. أخيراً لم يعد ينظر إلى المدينة من الجانب الوظيفي فحسب إنما بات الاهتمام بالأدلة المكانية للانقسامات الاجتماعية والبحث عن تمثيلها على الخرائط لإعطاء صورة ممثلة.

١-حدود وصف التباينات المكانية:

يعتقد الجغرافي عند استخدامه الخريطة أن الهدف "الاجتماعي المكاني" يكون أولاً بتعويض التباين الواضح وقد ذكر "رينو **A.Rynaud**" في عام ١٩٨١، أن العدالة الاجتماعية المكانية تسعى إلى الحد من التباين بين المركز والمحيط على جميع الصعد الجغرافية. كذلك فإن المؤشرات الكمية المستخدمة لإجراء تقسيمات تحليلية للمكان غير واضحة، وتجنب القيام باختيارات طرح السؤال التالي: (ما هو الرفاه في المجتمع الغربي المعاصر؟) كان الاتجاه في السبعينات يسعى إلى المبالغة في التحليلات الكثيرة التنوع لأكبر عدد من المتغيرات الممكنة ونتج عن هذا الخليط الخرائط الشهيرة التي تدل على جودة الحياة في فرنسا: الصادرة عن "بوانت **Point**" في عام ١٩٧٤ وفق ٤٨ متغيراً، وكذلك عن "كنوكس **Knox** وسكارت **Scarth**" في عام ١٩٧٦ وفق ٤١ متغيراً مختارة من أعمال السابقين مثل (باي **A.S.Bailly**) عام ١٩٨١ علماً بأن المؤلفين قد استنتجوا عنصرين أساسيين لجودة الحياة هما: "مستوى المعيشة والتناغم الاجتماعي" وأن هذه المعطيات تفضل الأرياف وباريس. نرى بالرغم من ذلك بأن جمع الإحصاءات وفق التقسيمات الإدارية تبقى أداة ناقصة جداً للتشخيص. ويربط (ماك لاران **Mac Laran** عام ١٩٧٧) بين الإحصاءات الإجمالية ومؤشرات الرضا والأفضلية استناداً لاستطلاعات الرأي للسكان. وبخصوص مدينة دوندي تطلبت النتيجة ضرورة تصحيح المعطيات.

في الواقع تدل "مؤشرات الراحة" على السكان الذين يعانون من سوء السكن ولكن كما يؤكد من "ألبون **A.lion** ومكلوف **P.Maxlouf**" عام ١٩٨٢، فإنه لا شيء يسمح باكتشاف السكان المتذمرين عند ذكر القاطنين في بيت مريح غير مكتظ، أو من يسكنون في بناء سيئ التصميم لضاحية بعيدة، وعن معاناتهم من رداءة بيئة المسكن. وعند السؤال عن الصلة بين "مؤشرات التجهيزات المدرسية" سواء بالنسبة لطلاب المدارس الثانوية أم لطلاب المعاهد

المتسربين (حيث يتسرب الكثيرون منهم والقادرون على التعلم من أبناء الأسر العاملة)، حينما يكون المدرسون أقل كفاءة. وتزايد أعداد الطلاب المسجلين في المعاهد الفنية حينما يكون المدرسون أكثر كفاءة. وقد أشار "ديفيد لي David Ley" عام ١٩٨٣ إلى أن بعض المعاهد في أحياء شياغو فيها مدرسون لديهم خبرة أربعة أعوام في حين أن متوسط الخبرة في الأحياء الميسورة تبلغ اثني عشر عاماً. هل يدفع الجغرافي بالمعرفة قدماً عندما يبين الفوارق المكانية؟ وهل تشكل هذه آلية أم أنها نتيجة للوصف؟ وهل يكون هذا الوصف مناسباً؟ في بعض الحالات يتصادف فقر المكان وبؤس السكان. ولكن هناك الكثير من الأمثلة غالباً ما تكون مصطنعة، واستنتاجات يستخلصها الجغرافيون مثلاً: في لندن توقف الشرطة أكبر عدد من الشباب المشبوهين في بريكستون أكثر منه في الضاحية، ويذكر "كيربي A.kirby" (١٩٨٢) الشرطة تفضل حجز غير الأوروبيين، وأن "تأثير المكان" الذي أوضحه الجغرافيون كان ثانوياً بالنسبة للتأثير العرقي. إن فعل "المكان" ما هو إلا نتيجة تمييز أدى إلى وضع سكان جزر الأنتيل في حي، والطبقات الوسطى في حي آخر. كذلك يمكن مقارنة وحدات الإحصاء في مدينة ليفر بول التي تتصف في آن معاً بارتفاع نسبة وفيات الأطفال والبطالة، وقلة حملة الشهادات إلى أحياء قليلة الوفيات والبطالة وإلى العديد من حملة الشهادات.

لكن هل عمليات التغيير هي حقاً مختلفة من حي إلى آخر؟ إذا تمكن الجغرافي من تحويل المجال الأرضي فإن عمله يصبح دون جدوى، ويقتصر كما يقول "غريغوري" على جرد مقترحات ضعيفة فكرياً أو بديهية، وعلى العكس إن تمكن من إثبات أن تنظيم المجتمع ينقسم إلى وحدات جغرافية متميزة لها بعض التأثير الاجتماعي فربما يؤخذ على محمل الجد.

ويعتقد "فوساير" (عام ١٩٨٣) أن الجغرافية ستبرز عندما تضع نموذجاً للأراضي تمثل تقاطعاً بين أنواع من معطيات طبيعية وأنماط من المجتمع وحين تضع قطاعات للمناطق كإدارة الدولة وبلورة السوق واستمرارية الهوية المتميزة.

٢.أين يمكن وضع بحث المجال الأرضي:

إن أكثر ما يدهش الباحث هو أن الجغرافية لم تعد تشغل سوى مكان ثانوي في طريقة تفكيرنا. بالأمس كنا محددين بالجغرافية. أما حالياً فقد تم ظهور أخبار السياسة في الصحف. وتبعاً لهذا الرأي فإن القوى الكبرى لم تعد تعدّ نفسها أنها تحاول احتلال مكان ما. ولكن تعرف بنفسها على فترات أطول في ضوء مشروع مستقبلي. ففي المجال الاجتماعي يبدو أننا لا ندع الوقت للاجتماعي لأن يتكيف مع المكان. وعندما نلوم الناس بمقاومة التغيير فإننا أخيراً نلوم مقاومتهم لأن يصبحوا أعضاء في مجموعات عابرة.

إن حركة النواس في التاريخ توصلنا إلى الأرض، وإلى الفضاء المناسب كمطلب اجتماعي. إننا ندرك معنى العلاقات الاجتماعية التي لم نتحدث عنها بشكل كاف وكما يقول "بوديار" (سنة ١٩٧٩) فمنذ أن فقد الاجتماعي جوهره الرمزي، فالجنس لا يذكر إلا عند الحديث عن العلاقات الجنسية مع إغفال كل أشكال الإغراء. وأمام العمران، والحركة المفروضة، والمجموعات المحلية، وحلقات الأسر والتضامن المهني لم يتوقف التدهور بين مختلف الهيئات الوسيطة بين الفرد والجهات المختصة. وقد تم تقسيم المجال الأرضي إلى عدة أماكن وظيفية تتعلق بالقوى المختصة التي تملك القدرة على تنظيمها والتي لا تتأثر بالأفراد لأن كل واحد منهم زائل بالنسبة إلى مسارهم الخاص: مكان المسكن والعمل والتسوق والترفيه فمثلاً في أماكن التجمعات الكبيرة: تعيش العطلات، وفي المصنع: يعيش التقاعد، وفي المخزن: يعيش المخرج، وفي المخيم: قريباً العودة. إن الفرد المستهلك الدائم العابر لا يمكنه التسليم إلا لقوة حقيقية للبنية التقنية المحددة للإدارة الأكثر كفاءة.

إن طموح الاجتماعي والجغرافي هو أن يتم تعريف العامل من خلال

وظيفته، والساكن من خلال مسكنه، والمستهلك من خلال عاداته. إنه يتعرض للكيان الذاتي للأشخاص ويبين "ريكس" أن بعض قادة الأنتيلية في برمنغهام ترى في تنظيم المجموعات المحلية محاولة لإضعاف انسجام مجموعتهم في بعض سياسات مكافحة التمييز في المسكن كذلك أدى استغلال المال في الصناعة إلى تأسيس النقابات. وبظهور التمييز العنصري تم التنظيم الجماعي الذي قاد إلى المحافظة على حقوق الأقليات.

إن هذا التنظيم للمجموعات المحلية لا يكون دائماً ممكناً. وإن الدراسات التي تتناول توزيع السكان العاملين غالباً ما تتجاهل ملاجئ الفقراء في القرى المحيطة بالمدن. وكذلك برامج تأهيل الأحياء القديمة مقارنة بأماكن تأهيل الأطفال والشباب في المدينة. علماً بأن أعضاء الجسم التي نعدها الأكثر ضعفاً تكون ضرورية.

يعاني حاليا قطاع واسع من المجتمع من مشكلة التهميش، وأصبحت البطالة ظاهرة جماعية وهناك قطاع كامل من الشباب يميل إلى العيش على الهامش. وتبدو الدول وكأنها منتجة لمجتمع من المستفيدين من المساعدة. وقد أصبحت المشكلة الأساسية للمجتمع هي درء مخاطر التهميش إذ إن التضامن لا يندرج فقط في علاقات الإنتاج والتبعية لعالم العمل، وإنما في إرساء قواعد اجتماعية واقتصادية للضمان الاجتماعي. كما يرجع التضامن في جزء منه إلى الأرض. وفي دراسة عن الفقر يعرض "باور" عام ١٩٧٩ خريطتين لضاحية مدينة "روان" في فرنسا تبين فيها أن توزع الأسر التي تعاني من المشاكل هي النسخة السلبية لأحياء العمال القديمة. هذه الأسر الفقيرة تم استملاك مساكنها القديمة في مركز المدينة، ووزعت على الطبقات الوسطى في مناطق عمرانية ذات أولوية، وهي مريحة وفق كل المؤشرات الموضوعية للإحصاءات. إن القطعية مع نسيج المجتمع القديم، وإدماج تلك المجموعات في وسط جديد قد أدى إلى تدهور الأوضاع، في حين أن الأحياء العمالية قد حافظت على تماسكها.

٣. تأثير المجتمع في نفسه:

يرى بعضهم أنه يجب عدم انتظار الجغرافيين لإعطاء حلول ناجعة لمشاكل البحث في الجغرافية الاجتماعية. وأن التقنيات هي تعبير عن حالة البحث. وتقتصر تأكيدات تحديد الكمية على نتائج حسابات المعطيات الرقمية المستخدمة. كما هو الحال في البحث الطبي حيث تضبط العناصر غير القابلة للقياس باختيار عدد معين من كميات قابلة للقياس. وتدور الشكوك دائما حول ما تعرضه الأرقام، وهنا نجد المشاكل الاجتماعية الحقيقية، في هذه الحالة تكون الرغبة قوية كما يفعل الاقتصاديون غالباً في الفصل بين التقنية والتفكير إذا صح التعبير ويرجع "فابيوس" (عام ١٩٧٥) التقنية إلى المطابقة بين مختلف مقاييس الرياضيات عند عدم التساوي. وشرط "بيغور ـ دالتون" هو حساسية مؤشر القياس عند نقل إنسان من فئة إلى أخرى، وعدم الاهتمام بالاستنتاج.

إن المسألة الأساسية ليست في إحصاء الفقراء، ولا بالتعريف الدقيق لمستوى الفقر على الرغم من أن اهتمام الدولة يتركز على وضع جداول بالمستفيدين من المساعدة من فقراء وعجزة ومسنين وأمهات غير أن "غومبلوفيتز" يتساءل عما يمكن عمله بشأن الفقراء الذين لا يتمتعون بوضع قانوني. ويمثل عدم توافر الموارد المادية أهم مظاهر الفقر، ولكن الشعور بالاقتصاد في مجتمع مسيطر يحتل مكاناً هاماً. كما أظهر "موسه" (عام ١٩٨٣) أثر الحرمان في بريطانيا. ومن غير الممكن توضيح ظواهر الحرمان والتهميش من خلال الإحصاءات الفرنسية، وخاصة فيما يتعلق بظروف العمل والصحة والبيئة، ويقدر عدد السكان المعنيين بنحو خمسة ملايين نسمة في فرنسا بينهم مليون من الشباب.

هذا ويجب على الجغرافيين القيام بعمل هام يتعلق بعوامل الحرمان وظروفه

إذا لم ينحصر تحليلهم الوصفي للفئات الاجتماعية المهنية للسكان العاملين. وإذا لم يطلب أن يكون لكل أرض بالضرورة قاعدة اقتصادية. ويتعلق تنظيم الوقت بتنظيم المكان وبمفهوم المكان وانقساماته، ويتعين القيام بتحليل أكثر عمقاً لمعرفة التناقض بين التنمية الصناعية، والتقنية والحياة الاجتماعية والأسرية. وأن يتم تقدير الكلفة الاجتماعية للأشكال الجديدة لتنظيم وقت العمل: تنظيم النقل، والإسكان، والحياة الاجتماعية تتجاهل مشاكل اليد العاملة في الأوقات غير الاعتيادية، حيث الضرورة الاقتصادية غير واضحة وعليه نتساءل عن أشكال تطور الحياة. والعلاقات في ذلك الفرز الذي أعد للأسر الشابة كثيرة التنقل. أخيراً فإن إسهام الجغرافية الكمية وبشكل أكثر شمولية من النموذجية إلى الجغرافية الاجتماعية لم يكن في البحث عن الحلول. ومن يدعي أنه وجد الحلول في الجغرافية الاجتماعية؟ إنها على الأغلب في طريقة طرح المشاكل. وقد كان تطبيق نموذج الديناميكية العمرانية على ضاحية محددة من قبل "الين وأوزان" عام ١٩٨٣، يبين الثغرات في: دور المسافة بين العمل والمنزل، العلاقة بين الطلب وكلفة الخدمات، وميل مختلف الفئات الاجتماعية إلى السكن في الضواحي...

ضمن هذا الإطار فإن النموذج علاوة عن أنه تمرين رياضيات، فإنه مناسبة لتفكير مشترك بين المختصين بالحاسوب والجغرافيين، والمنظمين والممثلين الاجتماعيين بغية التوصل إلى فهم أفضل للعلاقات بين مختلف عوامل تغيير المجتمع. إذاً تقع النموذجية في الجغرافية الاجتماعية في قلب التفكير بتطور المجتمع وقد أشار "تيلار" إلى أنه بعد عصر التطورات الطارئة افتتح عصر التطور الذاتي.

الاتفاقيات والمكان

تنطوي الاتفاقيات الاجتماعية، على انتقال الأشخاص، وتبادل الأموال، وعلى الأخبار والرموز. فلو كنا نملك منظومات فعالة للغاية للاتصال عن بعد، لاستطعنا أن نقلص إلى حد بعيد من هذه التحركات الناشطة من خلال البحث في التفاعلات الكامنة فيما بينها. وعلى الرغم من التقدم المحقق في هذا المجال، إلا أننا ما زلنا بعيدين عن غايتنا المنشودة. كما أنه بقدر ما يتضاءل الوقت اللازم لتكوين الثروات، يتجه الناس إلى النشاطات الاجتماعية الصرفة. فالحاجة إلى التواصل وإقامة العلاقات الثنائية تتأكد، حتى إننا بتنا نلمح مع تقدم الوسائل العصرية للاتصال عن بعد إمكانات جديدة في هذا المجال.

أولاً: الاتفاقيات وتنقلات الأشخاص:

لا ضير بأن المعاملات تتم بين زملاء، وحتى تفترض إقامة علاقات مباشرة وغير مباشرة. فكيف يمكن دراسة هذه المعاملات في الحالة الأولى، أي حالة العلاقات المباشرة؟

إن الحياة العصرية تزيد من التنقلات الفردية، وذلك بقدر الأدوار التي يقوم بها كل فرد عبر اندماجه التدريجي في مجموعات مختلفة. وقد درجت العادة أن نشكل شبكة هذه التحركات المعتادة بإقامة ما يسمى بالموازنة المحيطية، وذلك برسمنا الخطوط البيانية لرغبات الأفراد.

إن عدد المسافات وطولها يحدد بعنصرين اثنين: كلفة السفر، والوقت الذي يتطلبه (وهو ما يمكن أن نعبر عنه على هيئة الكلفة غير المباشرة من خسارة إلى ربح، ومن اقتطاع من فترة الراحة أو من فترة العمل) فمنذ قرن من الزمن ووسائل التنقل في تقدم محسوس للغاية، وحتى ذلك الحين وعلى الرغم من التحسينات الهامة على صعيد النقل البحري والنقل البري، كانت إمكانية التنقلات لا تزال محددة بالزمن الضروري لها أما الرحلات الطويلة التي كانت

تقام أحياناً فلم يكن المقصود بها سوى مغامرات فريدة إلى حد ما، ومقتصر على بعض الأشخاص كما لم يكن من الممكن أن تعاد إلا فيما ندر.

وقد كان لثورة وسائل النقل أثر هام جداً ففي مرحلة التطور الأولى، لم يكن لها تأثير في النقل لمسافات قصيرة أي تلك التي لا تتجاوز مدتها ساعة واحدة، كما لم يكن لها من شأن في هذا المجال إلا مع تضاعف خطوط السكك الحديدية الواقعة في الضواحي، ومع إنشاء خطوط للقطارات البطيئة، ومن ثم مع عربات "الترامواي" الكهربائية أما السيارة فقد غيرت تغيراً جذرياً من ظروف الحركة فبعض المسافات كانت تقطع بسرعة عالية، بينما استمرت التنقلات في أمكنة أخرى تجري بوسائل تقليدية. وهكذا فقد أصبح المكان في متناول الفرد الذي وجد نفسه منشرحاً. فبينما لم يكن من المستطاع قط أن نقطع يومياً من نقطة معينة، وفي أقل من نصف ساعة أكثر من ثلاثة كيلو مترات، نستطيع اليوم أن نقطع في الزمن عينه ثلاثين كيلو متراً.

غير أن هذا التحول قد رافقه عدم توازن على قدر كبير، إذ إن فئات السكان لم تشارك كلها مشاركة متساوية بالشكل الجديد لوسائل النقل، إذ غالباً ما وجد الأطفال والشيوخ أنفسهم مهمشين على هذا الصعيد وسجناء في محيط واسع جداً بالنسبة لهم. إن الأبحاث التي قام بها علماء نفس المكان "كأبرهام مول" في فرنسة، على سبيل المثال، يشيرون إلى كيفية امتثال المكان لدى كل فرد بحسب الزمن الذي يملكه هذا الفرد. كما يتعين علينا لكي نفهم الجغرافية الاجتماعية أن نهمل، في الواقع، وجهة نظر من يدرس المجتمع من بعيد من خلال ردود أفعال أعضاء المجتمع فالمكان يبدو متجانساً عندما ننظر إليه من الأعلى أما بالنسبة لمن يعيش فيه فهو مكون من مدى قابلية بلوغه فالحاجات على صعيد النقل في المدن فرضت منذ نهاية الخمسينات المزيد من التحقيقات على صعيد الخط البياني للرغبات وهكذا تعلمنا معرفة ما يسمى بالموازنة المكانية للأشخاص،

ومعـــرفة كـــيف أن هـــذه الموازنـــة تقـــوم عـــلى أساس الموازنة الزمنية، وتفسر من خلالهـــا. وتلـــك هـــي النـــتائج الـــتي حاول "مول" نظمها عبر وصفه مظاهر الفرد المتتالية.

يـــتكون المجـــال الأول مـــن المكـــان الضـــيق للحضـــور اليومي، أي من المنزل والشـــقة والحديقـــة أي مـــن كل ما هو في متناول اليد ومن كل ما هو معروف حتى أدق تفاصـــيله. فالمســـافة هـــنا مـــن القصر إلى درجة انها لم تكن محط إزعاج في يوم مـــن الأيـــام أي أن الســـلوك يمكـــن أن يكـــون عفويـــاً بأكملـــه، إلى درجة عدم الإحساس بالمكان الذي بدوره لا يؤثر في القرارات.

والمجـــال الـــثاني هـــو على مسافة أبعد بقليل، كالشارع مثلاً أو الحي أو القرية، حيـــث يعـــرف المـــرء كل شيء يمكنه الوصول إلى كل شيء سيراً على الأقدام خلال بضـــع دقـــائق، ويحـــيّي الأشـــخاص. فزمن التنقلات قصير جداً حتى إننا لا نستطيع ملاحظـــته بوضـــوح. فالمـــرء يتصـــرف دون تفكير في استخدامه الوقت وفي اختياره وجهة السير، فيعود إلى الوراء أو ينعطف، وهذا ما تسمح به كل الطرقات.

أمـــا حـــين يـــتجاوز الوقـــت الـــلازم لقطع مسافة ما بضع دقائق، يتسع مجال التـــنقل، ويـــتعاظم بالمســـاحة الـــتي يمكـــن الوصول إليها، ويصبح من غير المستطاع معـــرفة كـــل شـــيء. فباســـتخدام الســـيارة أو الـــنقل العـــام أضحى علينا أن نعد المسافات بالكيلومترات.

كمـــا أن مجـــال تـــرددنا الـــيومي لا يتوافق إلا مع جزء صغير من دائرة محددة بشـــعاع يســـتغرق نصـــف ســـاعة، والـــذي يحـــد من الانتقال اليومي خارج المدن الكـــبيرة، والقطاعـــات المكانـــية داخـــل حدود هذه المنطقة هي أيضاً معروفة معرفة غير متساوية، ذلك لأن هناك مناطق واسعة غير ملحوظة جيداً.

إن الســـلوك المكـــاني يفـــترض اســـتراتيجية معينة، لأن الكلفة الزمنية محسوسة بوضـــوح. وبذلـــك تخـــرج مـــن مجال المباغتة والعفوية. وبعد ذلك تمّر بالمجالات التي

لا نتردد عليها بالمناسبات وتلك منها أولاً التي يستغرق الوصول إليها والإياب منها يوماً كاملاً والتي يدعوها "مول" "بالمجال الجهوي" والذي يترك فيه أيضاً للفرد بضع فسحات للأمور المفاجئة وذلك لأن التنقل لا يتطلب أي تحضيرات، ويصبح التنقل من جانب آخر أمراً نادراً شيئاً فشيئاً، واختيار المناطق التي يمكن زيارتها يصبح أيضاً بالتدريج أمراً حساساً، لأن الفرص تتضاعف، وسبل الوصول تقل فيها المفاجآت.

وهكذا نرى كيف أن المسافة قد أصبحت ينظر إليها على أنها كلفة وقسر وحاجز في وجه ازدهار نظام التفاعل المشترك. أما بصدد المعاملات فالمكان يتدخل دائماً تحت هذا المظهر. وهذا ما ستؤكده لنا دراسة الاتصالات.

ثانياً: نظرية الاتصالات:

إن تحليل الاتصالات يرتكز اليوم على أدوات أوجدها أخصائيو الربط الإذاعي منذ ثلاثين سنة، وما زالت معتمدة حتى الآن.

والمبدأ العام في ذلك بسيط للغاية. ففي اتصال ما تتدخل ثلاثة عناصر على الأقل: باث وخط اتصال ومتلق. ولكي تنتقل الرسالة يجب أن تكون قد أخضعت لعملية تشفير، الأمر الذي يسمح بتحميل الرسالة عبر خط الاتصال. وعند وصولها لا بد من فك شيفرتها من جديد.

وعلى هذا النحو، فالاتصالات تضعف من محتوى الرسالة، فارضة عليه جملة من التصفيات، ذلك لأن عملية التشفير وعملية فك التشفير تفترض بالخبر المزمع إرساله أن يتطاوع مع منطق اللغة الذي نستطيع إمراره عبر خط الاتصال. كما يشكل خط الاتصال نفسه مسرحاً لجملة من الظواهر الطارئة التي تشوش النص شيئاً فشيئاً وتدخل فيه ضجيجاً. حتى إذا ما تجاوزنا مسافة ما يصبح الاتصال مستحيلاً وذلك لأن ثمة مجالات محددة للاتصال لا يتعداها. ومن ناحية أخرى لا يحمل خط الاتصال سوى كمية منتهية من الرموز، وله بالتالي

قـدرة محـددة إذ أنـنا عـندما نحاول أن نبث إلى وجهة متلق بعيد جداً فإن التشويه الـذي يحدثـه الضـجيج يصبح كثيفاً وخطراً. بحيث يكون من الحكمة تقليص سرعة البث وعليه فمدى البث يعين قدرة البث المحدودة.

إنـه لمـن الضـروري طـبعاً أن نوضـح ما قدمناه آنفاً. ففي المجتمعات القديمة كانـت الاتصـالات تجـري مباشـرة دومـاً فلم يكن تصفية للاتصال إلا من عامل المسـافة الـذي كـان يضـعف مـن القـدرة عـلى الإدراك ويحجب بعض وجوه الاتصـال. وقـد كـرس "إدوار هـول" صفحات مميزة لهذا الغرض كما نجد أيضاً في مقـالات ومؤلفـات "إبـراهام مول" إشارات مشابهة لذلك. وهكذا فإننا نستطيع أن نتصـور بـأن كـل فـرد محـاط بمجالات تتضمن الاتصال القريب والمباشر لجميع المعـاني موضـع العمـل. فالمـرء يشعر بمحدثه ويكون على بينة حتى من نفسه، ومن الـدفء الـذي يبعـثه. فكيانه برمته يشترك في الرسالة وحين لا تتجاوز المسافة اثنين أو ثلاثـة أمـتار يتـبين المرء بوضوح تام تقاسيم وجه محدثه ويميز أي تغير في صوته: وهـذه هـي المسـافة المثـلى لمعظم التبادلات السمعية ــ البصرية. وفي ما عدا ذلك لا نـرى سـوى أشـكال وخـيالات وحالات كلية كما تفلت الكلمة، ولا تلتقط إن هي ضعفت قليلاً.

إن تحلـيل هـذه العلاقـات المباشـرة توضح أهمية الثرثرة المتبادلة. فمن مزايا الحديـث الثـنائي أنـني أسـتطيع أن أرصد حركات وجه محدثي، ورؤية ما إذا كان هـادئ الأعصـاب أو مـتوترها، وأن أسـجل لحظـة خجله، ولحظة ما يبالغ بتصنّع نبرة صوته ليظهر صادقاً.

ففـي مجـتمع يعـتمد الصـدق والشـرف قـاعدة، لا يعود لإمكانات ردود الأفعـال العفويـة ولا للعلاقـات الكلامـية المتـبادلة أية أهمية. وليست هذه حال معظـم الحضـارات. غـير أن ذلك يفسر في جزء منه الدور الذي تقوم به العلاقات المباشرة.

إن المعـاملات تغـير مـن نمطهـا تبعاً لما تكون متماثلة أو متضادة. ويعد الحوار

من قبيل المعاملات المتماثلة. وإلى النمط تعود المحاضرات والخطاب والدروس وعندما تكون العلاقات شفوية ينتج بالطبع عدم التماثل مع ما هو متفق عليه اجتماعياً.

وقد تعلم الناس منذ زمن بعيد الاتصال عن بعد، إذ سمحت لهم الكتابة بالتغلب على الزمن والبعد في آن واحد، وذلك بالقدر الذي أصبحت فيه الرسالة شيئاً خفيفاً قابلاً للنقل بكلفة بسيطة. كما لم تعد الأخبار مرتبطة بأشخاص، بل استطاعت أن تنتقل إلى مسافات أبعد بأقل كلفة وأكثر سهولة، غير أن الكتابة فرضت للأسف الشديد إفقاراً عظيماً، إذ إن الكتابة ناقل جامد كيفت مع إرسال ما يمكن عقلنته ولكن أقل نجاعة في الميادين الأخرى.

وقد أحدث اختراع الطباعة تأثيراً في عدم التماثل العام في ميدان المعاملات، فالكتاب أو الجريدة ينقل أفكار الفرد الواحد إلى سواد عظيم، كما أن الاستعمالات العصرية لوسائل جديدة للاتصالات عن بعد عمقت هذه النزعة، فالهاتف والبرقية أعدا من أجل المبادلات الثنائية والتماثلية للتحاور عن بعد ولكن السينما والمذياع والتلفاز والإسطوانة وآلة التسجيل والفيديو قد عممت تأثير وسائل الاتصال ككل.

إن تأثير الاتصالات عن بعد يتغير بالقدر الذي يختصر فيه من محتوى الرسالة وبقدر ما تقوم به وسائل الاتصال العصرية هذه من غربلة وتصفية يطالان الرسالة نفسها. كما أن العناصر المرئية تنتقل بالقدر نفسه الذي تنتقل فيه العناصر التي تتلاءم مع العبارة العقلية.

وهكذا يوضع تحت تصرف الرجل العصري جملة من وسائل الاتصال إذ يمكنه أن ينتقل لملاقاة محدثيه كما يمكنه الكتابة والمهاتفة وبعث الرسائل المسجلة وبالتالي أن ينتقي حسب الوقت المتاح له نمط العلاقات التي يهدف إليها ونوعية الاتصالات التي يرغب في الحصول عليها. فكيف يمكننا ترجمة ذلك في إطار مختلف الأعمال والتفاعلات الاجتماعية.

ثالثاً: الاتصالات والتبادل الثقافي:

في سياق مرحلة التبادل الثقافي، لا بد، أن نوجد بين الطفل والعالم الذي يحيط به سيلاً عارماً من الاتصالات سهلة الإدراك. وعليه فإن نتائج اختيار المعلومات التي تقوم بها وسائل الإعلام خطرة للغاية، وذلك لأنها تفقر موضوع الرسالة، وتسلبه جزءاً أساسياً وهاماً لتكوين الطفل في هذا العمر.

إن أول عملية لجعل الطفل اجتماعياً لا تتم إلا بالاحتكاك مع أطفال آخرين، أو مع أشخاص كبار تعلموا كيف يدركون العالم الخارجي شيئاً فشيئاً، وكيف يفهمون الرموز، وينظمونها في لغة.

وفي سياق المراحل التالية كثيراً ما كنا، بصفة خاصة، رهن نوعية العقد نفسها. فالطفل ينمو في المحيط العائلي وبين رفاق من عمره يشارك تدريجياً في النشاطات المشتركة التي يتعلم منها بالملاحظة والتقليد. وغالباً ما كان للرسائل هيئة مرئية كلية، ونادراً ما كانت علنية.

إذا كنا نتعلم المهنة دون شرح نظري عنها وإنما عبر المعالجة الذاتية للأدوات، وعبر تعودنا على الحركات، وعلى إيقاع العمل، وعلى المواقف، وطرق التفكير.

ولمجتمعاتنا تقنيات وتنظيمات مختلفة تماما لهذه المرحلة من مراحل التبادل الثقافي، إذ سمح تطور الطباعة تدريجياً بتوضيح المعارف كلها وإيداعها شكلاً قابلاً للحمل والتبليغ. ومع ذلك لم تصب التغيرات جميع مناحي الحياة في الوقت نفسه.

وحين نبين كيفية عمل إحدى التنظيمات الاجتماعية أو الهيئات الجماعية نرى أن اللغة اليومية كانت ضرباً من الإعجاز فمنذ العصور القديمة عرف الإنسان كيف يولي الكتابة أمر مظاهر التثقيف الأخلاقية والمدنية والدينية.

فيما يخص التقنيات فقد حصل التطور في وقت لاحق تطوراً افترض

استخدام لغة كفيلة بالتعبير عن كل ما يتعلق بالعالم المادي، وقد تطلب هذا كماً من المعارف العلمية مشكلة ومركبة بدقة. هذا ولم تكن المدرسة قبل أن تؤسس سوى أداة جزئية في عملية التثقيف. ففيها تعلمنا القراءة والكتابة والحساب، وسرعان ما كان يغادرها الأشخاص في سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة للعمل في مزرعة الأب أو لاكتساب مهنة عند حرفي أو للعمل وكسب العيش في مصنع. وبتقدم الوسائل التقنية العصرية طرأ تغير على وسائل العمل فلم يعد من الضروري اكتساب المهارات اليدوية التي كانت تكفل العمل الجيد قديماً. وتطلب تشغيل آلات عصرية ضروباً من المعارف المتنوعة. وهكذا، فالحركات تفقد إلى حد ما الكثير من قيمتها إضافة إلى أننا قد تعلمنا كيفية تحليلها وتدريسها بأسلوب مكثف يمكن من بلوغ درجة عليا من الآلية دون الحاجة إلى فترة طويلة كما في السابق.

إن التوازن المكاني للمجتمع قد تغير برمته، فحتى السنوات الخمسين الأخيرة من القرن العشرين، كانت حركة المعارف التقنية البسيطة المرتبطة بالمتطلبات الهامة في مجال التعليم، كانت ترمي إلى أن تؤمن للتعليم المحلي تفوقاً ساحقاً على أساس ما كان معمولاً به في الوسط نفسه. ولم يكن من الممكن قط غض الطرف عن تنظيم رحلات لاستكمال تكوين الشبان: كرحلة الأرستقراطين الإنكليز الكبرى أو طواف الأصحاب لفرنسة مثلاً. غير أن ذلك لم يكن سوى عمل سطحي فثمة نزعة دائمة في الكيان الاجتماعي إلى تكوين معارف حول الانفجار الجغرافي. فالمجتمعات التي تنطوي على لحمة محلية قوية يكون التضامن فيها نشطاً بين مختلف فئات الأعمار للسكان.

إننا نلاحظ، مع الأشكال العصرية للتربية، ظهور مجتمعات مترابطة ترابطاً متغايراً، فقد ضعف مستوى التعلم الذي يتم اكتسابه عبر حركات المقربين والمجاورين، وأهملت الفنون الشعبية الأمر الذي أدى من وجهة النظر هذه إلى

وجود شريحة غير مثقفة من السكان، والتي قلما يتم تعويضها بأشكال من المعارف أكثر فكرية تهيمن اليوم على مجال الفكر. وهو ما يحدث في نشاط المجتمع انفجار ثقافي حاد. هذا بالإضافة إلى ثقافات أخرى نشيطة لدى الشباب بصفة خاصة ومرتبطة ارتباطاً غير مباشر بثقافات الجيل السابق، وهذا ما لم يكن ليحصل في الماضي.

وبالتعارض مع حاجات الاتصال الضخمة التي تتطلبها عملية التبادل الثقافي تتلاءم أغلبية النشاطات مع الرسائل الأكثر انتشاراً والأسهل لعملية التشفير والنقل فمن أجل نشر معرفة مكتسبة من ذي قبل، يوفر الكتاب وسيلة مثلى تفي بالغرض. وعلى هذا المستوى يمكن للوجود الاجتماعي أن يتلاءم وخطوط الاتصال البعيدة جداً، كما تختلف أيضاً خصوصية الاتصال بحسب سنوات العمر.

إن تكوين الفرد، والحياة الاجتماعية، يتطلبان مستويات معينة من التفاعلات. فالنتيجة المحققة تختلف باختلاف أشكال الاتصال والأنظمة التي تعطي خصوصية للمشافهة تسهم في خلق كائنات اجتماعية أكثر من الكائنات الأخرى. أما أولئك الذين يولون الكتابة عناية أكبر فيسهمون بتكوين شخصية انطوائية من الصعب إقحامها أو إدخالها في اللعبة الاجتماعية الإجمالية. ومع دخول المذياع والتلفاز، نشهد عودة قوية لأشكال الاتصال السمعية البصرية وهذا ما يجعلنا نتكلم عن عصر للمشافهة جديد.

وقد أكد "مكلوهان" أن الكائن يتشكل في جزء منه بالامتدادات التي تكون لديه وسائل الاتصال. فثمة بعد للأعمال الاجتماعية هنا التي وإن أهملها الجغرافيون بعض الشيء إلا أنها تبقى جوهرية.

ولكي نتبين كيف أن المعاملات تغير المكان وتكيفه، يجمل بنا أن نتساءل عن صلابة المجالات التي توحدها ثقافة معينة. وسنتمكن بالتالي أن نتساءل عن تلك المجالات التي تتطلب قيماً اجتماعية واحدة، أو مسارات معينة لتبادل الأشياء.

السلالات البشرية

أولاً- أصل الإنسان:

يعيش الإنسان على سطح الأرض منذ زمن بعيد، فقد قدر الباحثون عمر الإنسان بأكثر من مليون عام مضى.

ونتيجة لتطور الأبحاث على مستوى العلوم الطبيعية والإنسانية، وما قدمته نظرية "داروين" عن التطور، فقد أثارت اهتمام المختصين بعلم السلالات البشرية وفضولهم، وبدأ البحث والتنقيب عن الإنسان القديم لمعرفة صفاته الوراثية وأثر العوامل البيولوجية والطبيعية والاجتماعية في تطور الكائن البشري. وتشير دراسات الأنتروبولوجيين إلى أن طليعة الناس الأوائل ترجع إلى المخلوق المعروف بـ"أوسترالوبيتيكوسAustarlopithecus"المنحدر عن حيوان "الراما بيتيكوس Ramapithecus"[1] وأن الاسترالوبيتكوس كان يمشي على طرفيه الخلفيين، وقادراً على صنع الأداة، ويعيش على الصيد وجمع الغذاء بشكل جماعي. ومن هذا المخلوق انحدر نوع بشري عثر على بقاياه في جزيرة جاوة والصين وبعض الأماكن الأخرى في العالم، ويطلق عليه الباحثون اسم إنسان جاوة أو الإنسان منتصب القامة، وقد انقرض هذا النوع منذ نصف مليون عام، ليترك المجال أمام إنسان نياندرتال[2] الذي عاش منذ ربع مليون عام، ثم جاء الإنسان الحالي "هوموسابيان Homo sapien" وكان قد عاصر إنسان ينياندرتال فترة طويلة، وورث عنه ثقافته، إلا أن النياندرتاليين انقرضوا منذ ١٠٠٠٠٠ عام ليتركوا المجال أمام الإنسان العاقل أو الحالي.

عموماً يصعب تقدير زمن ظهور الإنسان على سطح الأرض، إلا أنه

---

(١) د. علي الجباوي، الجغرافية، التاريخية، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، ١٩٨٠.

(٢) نسبة إلى وادي نياندر في ألمانيا حيث عثر على هيكله العظمي وآثاره هناك.

بالرغم من ذلك فقد تمكنت السيدة ليكي وزوجها من اكتشاف هيكل الإنسان الزنجاني في أولدفالي في تنجانيقا قدر عمره بـ ١٧٥٠٠٠٠ عام، كما اكتشف الطفل المدلل (Dearboy) الذي يقدر عمره بمليوني عام. وقدر عمر إنسان كينيا بنحو ثلاثة ملايين ونصف عام، كما اكتشفت آثار أقدام بشرية على غبار بركاني في كينيا قدّرها الباحثون بأنها ترجع إلى أكثر من ثلاثة ملايين ونصف عام. ومنه نستنتج أن الإنسان قديم على هذه الأرض إلا أن النوع البشري الحالي أو الإنسان العاقل لم يسد العالم إلا منذ ١٠٠٠٠٠عام[1]. لكن ليس له صفات متماثلة في صفاته الجسمية، أو في فصائل الدم. فمن ناحية اللون هناك الأسود والأبيض والأصفر، ومن حيث طبيعة الشعر فمنهم ذو الشعر المسترسل، أو المستقيم، أو المجعد الصوفي الشكل، ومن حيث شكل الرأس هناك اختلاف في طول الرأس أو استدارته، وجميع هذه الصفات تكوّن ما يسمى بالسلالات البشرية، وتلك الصفات الجسمانية تورث طبيعياً.

ثانياً – معنى السلالة البشرية:

السلالة هي مجموعة من الصفات الجسمية الخاصة والمعينة تتميز بها جماعة بشرية عن غيرها من الجماعات البشرية الأخرى. وهذه الصفات المشتركة تحملها الجماعة في صبغياتها الدموية (المورثات)، وتنتقل من الآباء إلى الأبناء ثم الأحفاد وهكذا. والسلالة مفهوم إحيائي طبيعي يختلف عن الثقافة، وهناك أسس نعتمد عليها عند تصنيف السلالات البشرية كشكل الرأس والوجه، ولون البشرة، وشكل الشعر، ولون العينين، وشكل الأنف، والشفتين، والفكين، وطول القامة، إضافة إلى فصيلة الدم، وهذه الصفات جميعها وراثية تحملها مورثات خاصة تنتقل عبر الأجيال بالوراثة.

أما الصفات الثقافية كاللغة والدين والعادات والتقاليد والفنون وغيرها، فهي مكتسبة نتيجة للعلاقات الاجتماعية، فمثلاً يستطيع الإنسان الأسود أن

---

(١) محمد السيد غلاب، الجغرافية العامة الطبيعية والبشرية مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية ١٩٩٥ ص٢٩٤.

يتعلم لغة الإنسان الأبيض، ويتكلمها، والعكس بالعكس أيضاً، وكذلك الديانات، فالدين الواحد قد تعتنقه مجموعة من السلالات العرقية دون أي تغيير في صفاتها الجسمية.

عموماً فالإنسان الحالي المسمى بالإنسان العاقل، مهما اختلفت صفاته الجسمية من حيث لون البشرة، أو شكل الرأس، أو الشعر، أو الأنف والفم، أو طول القامة، ومهما اختلف موقعه على سطح الأرض سواء في العروض الاستوائية أم المدارية أو الصحراوية الأساسية. والدليل على ذلك هو أن جميع أفراد الجنس البشري الحالي المنتشر على سطح الأرض استطاعوا التزاوج فيما بينهم على مر العصور، وكان التزاوج منتجاً، وأعطى أجناساً خليطة أو خلاسية[1]. تجمع بين صفات المتزاوجين، فهناك عدم فوارق في القدرات العقلية أو الوراثية أو في الصفات التشريحية، كانتصاب القامة، وتطور اليدين، وتحررهما بين مختلف الأجناس البشرية.

ثالثاً -ظهور السلالات:

تشير الدراسات العلمية التي تمت على الهياكل العظمية للإنسان الحالي وآثاره التي عثر عليها نتيجة التنقيبات التي تمت في كل من غرب أوروبا وشمال شرق أفريقيا، وفي جنوب غرب آسيا، على أن الإنسان قديم على هذا الكوكب كما سبق وأشرنا. وينتشر في أماكن مختلفة من العالم القديم، وانتشاره هذا يشير إلى هجراته التي تمت خلال العصور الحجرية المختلفة وعصر المعادن والتي كان لها أسباب عديدة منها:

١- الصراع بين الجماعات البشرية المختلفة.

٢- التغيرات المناخية التي حصلت خلال عصور البلايستوسين وما تلاه.

---

(١) الخلاسيون: هم الأبناء المولودون من تزاوج سلالتين عرقيتين مختلفتين في صفاتها العرقية.

٣- هجرة حيوان الصيد نحو المناطق المطيرة وانتقال الإنسان وراءه.

٤- اكتشاف المعدن، ونمو التجارة، وظهور حركة الاستعمار (الإعمار) للمناطق المكتشفة مؤخراً.

كما وتشير الدراسات والأبحاث العلمية المتعلقة بالإنسان في مختلف مناطق انتشاره في العالم القديم، على أنه يتمتع بصفات جسمية متجانسة، وأنها لا تختلف عن صفات المجموعة السلالية الكبرى المسماة بالقوقازية. وتدل الحفريات[1] على أن ظهور الإنسان الحالي كان مختصراً على العالم القديم، لأنه لم يعثر على آثار بشرية قديمة في العالم الجديد. والسبب في ذلك يرجع إلى أن الإنسان الحالي ظهر أولاً في العالم القديم الذي تفصله عن العالم الجديد عوائق طبيعية كالمسطحات المائية الواسعة وغيرها. وفي العالم القديم نفسه هناك حوافز وموانع جغرافية مختلفة كالتضاريس والصحراء والمناخ والمسطحات المائية (بحار ومحيطات وأنهار ومستنقعات..)، وجميعها عملت على فصل أماكن الاستيطان البشري الكبرى عن بعضها، وأهم هذه الأماكن ما يأتي[2]:

١- إفريقيا جنوب الصحراء

٢- شرق آسيا وجنوبها الشرقي.

٣- أوروبا وسيبيريا الغربية واتصل بها جنوب غرب آسيا وشبه الجزيرة العربية وأفريقيا الشمالية والشرقية.

وفي كل من أماكن الاستيطان البشري الثلاثة هذه عاشت جماعات بشرية منعزلة عن غيرها في الأماكن الأخرى، وتأثرت بالظروف البيئية التي انعزلت فيها، وتأقلمت معها، وكان لتكيفها مع بيئاتها أن نمت طفرات وراثية تتناسب

---

(١) د. محمد السيد غلاب، الجغرافية العامة الطبيعية الطبيعية والبشرية، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية ١٩٩٥. ص٣٠١.

(٢) الحفرية هي بقايا وآثار الكائنات الحية في الكهوف أو الحفر الصخرية، أو المطمورة بالردم.

والظروف البيئية بحيث ساعدتها هذه الطفرات على الاستمرار في العيش بتلك البيئات، وأن تتناسل، وتحقق مجتمعات كبيرة. ففي البيئات الحارة كأفريقيا مثلاً أصبح لون جلد الإنسان أسود كنوع من التكيف ضد الأشعة فوق البنفسجية، وكذلك تفلفل شعره واتسع أنفه للتأقلم مع الحرارة المرتفعة. أما في المناطق الباردة حيث تكون كمية الإشعاع الشمسي أقل، فقد أخذ جلد الإنسان صبغة اللون الأبيض، والشعر المسترسل، والأنف الضيق، ولون العينين الفاتح، كنوع من التكيف الطبيعي للإنسان في البيئات الشمالية الباردة. هذه الصفات التي اكتسبها الإنسان في أماكن توطنه أصبحت موروثة تنتقل عبر الأجيال، وأصبح بإمكان الإنسان الاستمرار والبقاء في المكان الذي اكتسب فيه هذه الصفات. وبالنتيجة أصبحت الجماعات التي تحمل الصفات الوراثية نفسها تشكل مجموعة سلالية داخل مكان إقامتها.

وكان من نتيجة انعزال الإنسان في مناطق جغرافية معينة الأثر الكبير في حصر الجينات الوراثية المتجانسة في مكان خاص ومحدد تفصله حواجز جغرافية طبيعية عن بقية الأماكن أو الأقاليم الجغرافية الأخرى.

رابعاً – العوامل المؤثرة في تنوع السلالات البشرية:

مما سبق يمكن القول إن الجنس البشري الحالي قد انقسم إلى عدد من السلالات وأن هناك مجموعة من العوامل ساعدت على نشوء هذا التباين في الصفات الوراثية والجسمية وهي على النحو التالي:

١ – العزلة: وهي انفراد مجموعة من البشر في مكان منعزل، بحيث تظهر لديها صفات وراثية وفروق فردية تنمو، وتتطور عبر الأجيال، تتكيف من خلالها مع البيئة، وهما تختلف عن غيرها من الجماعات البشرية الأخرى. "ويقول الأستاذ (دن) أن العزلة الجغرافية كانت الصانعة العظيمة للسلالات.. هاجر الناس جماعة تلو الأخرى، وظهرت صفات جديدة في الجماعات المختلفة بالطفرة والتكيف

مـع البيـئات المخـتلفة، فتكونت بذلك معنيات جديدة للمورثات. وهكذا تكونت المجموعـة الجنسـية الرئيسـية نتـيجة لـتطور عملـيات شديدة التعقيد هي الطفرة والانـتخاب والتكـيف والعـزلة[1]. عمومـاً يجمـع المختصـون أن الناس الحاليين انحـدروا مـن أصـل واحـد، وأن الاخـتلافات بـين المجموعات البشرية يرجع إلى عوامـل تفـريق تطوريـة كالعـزلة، والانتقال العشوائي، والتغيرات التي تطرأ على بنـية المورثـات وطبيعـتها، والـتهجين والاصـطفاء الطبيعي، وبهذا أصبحت هناك مجموعات متباينة في صفاتها الجسمية والوراثية.

٢-الوراثـة: تنـتقل الصـفات الجسـمية من الأجداد إلى الأحفاد عن طريق الجيـنات الوراثـية والـتي تكـون المسؤولة عن إعطاء صفات وراثية معينة للأجيال، وأحـياناً قـد يحـدث طفرة في الصفات الوراثية لم تكن موجودة عند الأهل من قبل، وهي ذات أهمية عظيمة في التغير والتنوع.

٣-البيـئة: للبيـئة تـأثير في الجيـنات البشـرية فـإذا ما توافرت الظروف الملائمـة لـنمو صـفة معيـنة فإنها تظهر بارزة، وبالعكس فإذا لم تساعدها الظروف البيئـية عـلى الظهـور فإنهـا تضمحل وتزول. ولهذا أثره في تطور الكائنات البشرية وصبغها بصفات جسمية ذات نمط سلالي معين.

٤-الاصـطفاء الطبـيعي: تنتخـب البيـئة الطبيعـية الصفات الجيدة التي تناسـبها والمـتوافرة عـند البشـر. وبالـتالي فالأفراد الذين لديهم مناعة ضد بعض الأوبـئة، ويتصـفون بصـفات تتناسـب والشـروط البيئـية، فـتعمل البيئة على اصـطفائهم وهـو قـانون طبيعي: البقاء للأصلح. لأن الضعفاء ينهارون أمام تغيرات البيئة ومصاعبها.

---

(١) د.فـؤاد محمـد الصقار، د.محمد رشيد الفيل، أصول الجغرافية البشرية، وكالة المطبوعات/الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٨٠، ص٩٩

٥-الاختلاط: يحصل الاختلاط عن طريق انتقال الأفراد أو الجماعات من مكان استقراراها الأصلي إلى مكان آخر فيه جماعات أخرى تحمل صفات وراثية مغايرة لما هو عند الآخرين، وبنتيجة التزاوج بين العناصر المختلفة تنتج سلالة جديدة تجمع صفات خليطة لكلا العنصرين المتزاوجين، ومن ثم تتكون سلالات فرعية عن الأصول.

خامساً: أسس تقسيم الأجناس البشرية:

السلالة أو الجنس:

هو اصطلاح علمي غير محدد يطلق على مجموعة من البشر لهم صفات طبيعية خاصة مثل لون البشرة وشكل الشعر ولونه، وملامح الوجه، وشكل الرأس وغير ذلك من الصفات الظاهرة كفصائل الدم، ولون العينين وشكلها وشكل الأنف. ولابد من أن يشترك نحو ٢٥% من مجموع أفراد المجتمع بالصفات البيولوجية المقارنة نفسها، وهو ما يعرف باسم قاعدة ٧٥% ٧٥ perecent nute[1]. ويجب أن يتوافر فيهم تجانس تام في الصفات الجسمية التي يمكن قياسها أو تحليلها، والتي تحملها مورثات، وتنتقل من السلف إلى الخلف.

ويعتمد الانتروبولوجيون والمهتمون بعلم السلالات البشرية، مجموعة من الأسس في تقسيم البشر إلى سلالات وهي:

١-فصائل الدم: يختلف البشر في فصائل الدم التي تنقسم إلى فصيلة (ف)، وفصيلة (أ)، وفصيلة (ب)، وفصيلة (أب). وهناك فصائل أخرى أكثر دقة وتفصيلاً. وهذه الفصائل الدموية تتميز بأنها وراثية، وتنتقل عبر الأجيال، ولا تتغير بعوامل طبيعية كالمناخ ولا بالطعام أو المرض، وتوزيعها ثابت في

---

(١) د.يسري الجوهري و د.ناريمان درويش، الجغرافيا البشرية، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٩٢، ص١٠٢.

الإنسان، ويمكن توزيعها جغرافياً. وقد أصبحت وسيلة حديثة يمكن على أساسها تقسيم البشر الحاليين إلى أوروبيين قدامى، وأوروبيين حديثين (قوقازيين)، وأفريقيين (زنوج)، وآسيويين (مغول)، وهنود أمريكيين، وأستراليين أصليين. والتقسيم على أساس فصائل الدم ينسجم مع التقسيم العام للمجموعات السلالية الكبرى.

٢-الصفات الهيكلية للإنسان: ويمكن قياسها وملاحظتها وتحليلها بدقة وذلك بوساطة أدوات قياسية خاصة. وهذه الصفات تتمثل بحجم الجمجمة وشكلها، والوجه، والأنف، والفك، والأسنان، والوجنتين، والحواجب، وطول القامة، والأطراف، ونسبة كل منهما إلى طول الجسم ويضاف إلى ذلك بنية الجسم.

٣-الصفات الظاهرة: وهي الصفات الجسمية التي يمكن لنا أن نميزها بالعين والتي تتمثل بلون الجسم أو الجلد ولون العينين وثنيتهما، وشكل الشعر ولونه، وشكل الشفتين وهل هما مقلوبتان أم لا. إلا أن لون البشرة ليس صفة قاطعة في تصنيف السلالات. وكذلك لون الشعر الأسود هو صفة عامة في سلالات المجموعتين الزنجية والمغولية.

سادساً-تصنيف السلالات البشرية:

جرت العديد من المحاولات لتصنيف البشر إلى سلالات بشرية رئيسية وفرعية، وكان أقدمها تلك التي قام بها العالم السويدي كارلوس في القرن الثاني عشر، حيث قسم العالم إلى أربعة عناصر تبعاً للون البشرة؛ وهم الأوروبيون، والآسيويون، والأفريقيون، والهنود الحمر، إلا أن هذه الدراسة لم تكن كاملة، ولم تأخذ كامل الأسس الواجب اتباعها في تصنيف البشر إلى سلالات.

وفي عام ١٧٤٠ قام العالم السويدي لينايوس **linneaus**، بإجراء تصنيف مشابه تقريباً لسابقه، فقد قسم فيه البشر إلى أربع مجموعات. (أوروبيون ،

آسيويون، افريقيون ، وهنود حمر أمريكيون).

وفي عام ١٨٩٩ جاء العالم الفرنسي "دينيكر Deniker" وصنف البشر على أساس شكل الشعر. ثم عقبه الأمريكيان سترن Stern وجاكوبس Jacobs وقسما البشر إلى أحد عشر عنصراً، ثم تلاهم كون coon وقسم سكان المعمورة إلى ثلاثين عنصراً.

في عام ١٩٧٥ قام العالم بليمنباخ بدراسة علمية على سكان العالم معتمداً على جميع الصفات البشرية ودرجات اختلافها. وفيما بعد جاء عدد من العلماء وأشهرهم هادون وهوتون وايكشتد وسونيا كول، وجميعهم قسموا المجتمع البشري إلى ثلاثة أقسام رئيسية هي كالآتي:

١- المجموعة القوقازية Caucasoid:

وتضم معظم سكان أوروبا (فيما عدا أقصى شمال اسكنديناوة) وشمال أفريقيا وشرقها، وجنوب غرب آسيا والهند، إضافة إلى المجموعات التي هاجرت إلى العالم الجديد، وأعمرته بعد أن قتلت أعداد كبيرة من السكان الأصليين.

تتميز هذه السلالة بالتدرج في ألوان البشرة من اللون الأبيض المشرب بالحمرة في شمال أوروبا إلى الأبيض العاجي في وسطها وشرقها ثم إلى الحنطي في حوض البحر المتوسط، وإلى اللون الأسمر الداكن وأحياناً الأسود في الصومال والقرن الأفريقي.

بالنسبة للصفات الهيكلية تتميز هذه السلالة بسماكة الهيكل العظمي وثقله، وبطول عظام المفاصل وظهور العضلات. أما القامة فهي متوسطة عن سكان البحر المتوسط والألبيين، وطويلة عند النورديين. والرأس متوسطة عند سكان البحر المتوسط وطويلة عند النورديين، وعريضة عند الألبيين. أما الوجه فهو متوسط الاتساع يميل إلى الضيق، والفكين غير بارزين. بالنسبة للشعر فهو بين البني القاتم، والأشقر الفاتح وغالباً ما يكون بين المموج والمجعد، بالنسبة

لشعر البدن فهو متوسط أو غزير. والعينان زرقاوان. وشكل الأنف بين الضيق ومتوسط الاتساع وتكون قنطرته مرتفعة عادة. ويضم الجنس القوقازي مجموعة من السلالات هي:

أ-سلالة البحر المتوسط: وتتوزع في جميع أرجاء حوض البحر المتوسط وشبه الجزيرة العربية وفي القرن الافريقي. وتتسم بلون البشرة الفاتح والأسمر خصوصاً في شمال أفريقيا والقرن الأفريقي والقامة المتوسطة، والرأس المستطيل أو المتوسط، والشعر المجعد الأسود، أما شعر البدن فهو متوسط أو غزير، والعين لوزية فاتحة، والشفاه متوسطة.

ب-السلالة الألبية: وتضم الأتراك والأرمن كما يضم بعض العلماء سكان مصر إليها، وتتصف بالقامة المتوسط المائلة للقصر، والجسم الممتلئ، والرأس العريض، والشفاه المتوسطة، والعيون العسلية، والشعر البني أو الأسود، وهو مجعد أو مموج، وشعر الوجه والجسد غزير، والأنف بارز معقوف، والبشرة حنطية فاتحة.

ج-السلالة الشمالية أو النوردية: وتنتشر في شمال أوروبا، وتتميز بالقامة الطويلة والجسم النحيف، ولون البشرة الآبي المشربة بالحمرة والشعر أشقر مموج، والعيون زرقاء أو خضراء أو ملونة، والأنف مستقيم، أما الرأس فيمتاز بالطول.

والمصور رقم (١) يوضح التوزع الجغرافي لهذه المجموعة:

المصور رقم (١)

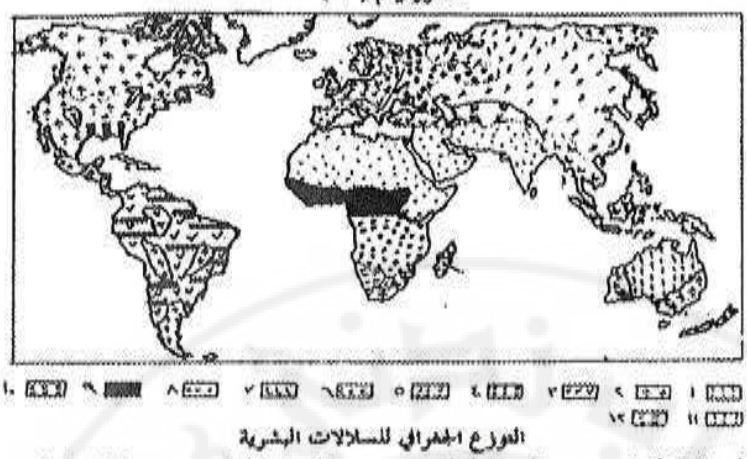

٢-المجموعة الزنجية Negroid:

تنتشر في أفريقيا جنوب الصحراء، وتتميز بلون البشرة الأسود الداكن والشعر الأسود الخشن المجعد، أما شعر الجسم فهو قليل وعلى شكل زغب، والأنف أفطس وقنطرة الأنف منخفضة عادة، والشفاه غليظة مقلوبة الشكل. الرأس بين الطويل والمتوسط، أما الوجه فهو متوسط الاتساع إلى ضيق، الفك بارز ولون العينين بين الأسود والبني.

أهم سلالات هذه المجموعة: بالنظر لامتدادهم الواسع جنوب الصحراء الكبرى حتى شرق أفريقيا وجنوبها الشرقي، فقد انقسموا إلى عدة أقسام سلالية. وأكثر التقسيمات شيوعاً هي تلك التي ذكرها الأستاذ "سليجمان" وتقسمهم إلى قسمين رئيسيين هما:

١-الزنوج الحقيقيون true Negro في غرب أفريقيا وإقليم السودان الطبيعي.

٢-زنوج البانتو: ويعيشون جنوب خط يمتد من خليج بيافرا إلى شرق أفريقيا، وتنقسم السلالة الزنجية تبعاً إلى تقسيم "فون أيكشتد Von Eickstedt

" إلى الأقسام التالية:

أ-زنوج الغابة أو الزنوج القدماء **Palaeonegroide**: وينتشرون في نطاق يمتد في حوض الكونغو وشمال ووسط أنغولا، والغابون وجنوب الكاميرون وفي أرجاء الإقليم الساحلي لغرب افريقيا حتى "دكار"، وينتشرون عبر النيجر الأدنى حتى هضبة جوس.

ويتميز هؤلاء بالرأس القصير والجسم الكبير بالنسبة لطول الأرجل. أما الأنف فهو مفلطح والشفاه غليظة.

ب-زنوج السودان **sudanide**: فينتشرون في إقليم السودان الطبيعي من السنغال حتى الجزيرة في جمهورية وشمال غرب الكونغو عند نهر الأوبنجي. وتمتد لتشمل غرب أفريقيا ما عدا الساحل وهضبة جوس وثنية النيجر، ويتميز زنوج السودان بالشفاه الغليظة، وصغر عظمة الذقن، والجمجمة الضيقة جداً والطويلة، والفك البارز، والجبهة الضيقة البارزة والأنف العريض، والشعر الصوفي الكثيف، والقامة المتوسطة، ولون البشرة أسود داكن، وعضلات الرقبة والصدر والساق قوية جداً.

ج-زنوج النيل **Nilotide**: وينتشرون في الجزء الجنوبي من السودان وفي السودان الأوسط والجزء الجنوبي من تشاد، ويتوسعون شرقاً إلى أقدام الهضبة الحبشية وجنوباً إلى شمال أوغندا وشرقها وكل الساحل الشرقي لبحيرة فكتوريا. يتميزون بالقامة الطويلة، والجسد النحيف، والأطراف الطويلة والنحيفة، والكتف عالية، والفك العلوي أقل بروزاً مما هو عند زنوج السودان، والشفاه أرق، والأنوف أضيق.

ء-زنوج الجنوب أو الكافير **Kafrid**[1]: يتوزعون في أفريقيا الجنوبية والشرقية. بدءاً من جنوب بحيرة فكتوريا وساحل كينيا والصومال الكيني حتى

---

(١) الكافير اصطلاح سيئ لأنه يستخدم لفظاً هولنديا قصد به تحقير البانتو.

ساحل ناتال ومن جنوب الكونغو ووسط أنجولا حتى حدود صحراء كلهاري. وهؤلاء هم البانتو (حسب تصنيف سليجمان). إلا أن هؤلاء اختلطوا بالأثيوبيين (الحاميين)، وبالعرب (الساميين) وهم من أصل قوقازي، وعليه أطلق عليهم اسم الزنجانيين لأنهم زنوج وإنما يتصفون بالصفات الزنجية.

٣-المجموعة المنغولية:

وتنتشر في شرق آسيا وجنوبها الشرقي إضافة للجماعات التي خرجت منها، وهاجرت إلى أمريكا عبر مضيق بهرنغ. تتميز بالطول المتوسط، والرأس العريض، والوجه، المسطح العريض، أما الوجنتان فهما بارزتان. والأنف متوسط غائر في الوجه والمنخران عريضان، والعين منحرفة ومبطنة، ولونها بني وبني فاتح. أما لون البشرة فيتراوح بين الأصفر والأصفر المائل إلى السمرة.

والمصور رقم (١) يوضح أماكن انتشار هذه المجموعة:

مما سبق نستنتج أن البشر يختلفون في أشكالهم وألوانهم وصفاتهم الوراثية وزمرهم الدموية، رغم انتمائهم إلى أصل واحد، وذلك نتيجة لتأثير عوامل البيئة من جهة، وانتقال الصفات الوراثية المكتسبة والأساسية عن طريق المورثات إلى الأجيال من جهة أخرى. إلا أنه يمكن القول إن حركة السكان واختلاطهم عبر العصور، عملت على الاختلاط بين السلالات عن طريق التزاوج، وحصلت سلالات جديدة تجمع بين صفات السلالات الرئيسية. وعليه بالرغم من تقسيمنا هذا للنوع البشري إلى ثلاث مجموعات رئيسية وإلى عدة سلالات فرعية إلا أنه يمكن القول إنه ليس هناك حدود مانعة بين سلالة وأخرى، وأن كل الفروق هي ظاهرية وليست جوهرية، وليس هناك شعب نقي في العالم كما تدعي بعض الفئات العنصرية والسبب كما ذكرنا اختلاط الشعوب على مر العصور.

تطور المجتمعات البشرية

يعد موضوع تطور المجتمعات البشرية من أهم الموضوعات التي عالجتها الكثير من العلوم، مثل علم الاجتماع، والاقتصاد، والجغرافية، والانتروبولوجية، وهو يحظى باهتمام الكثير من العلماء والتيارات الفكرية.

وقد حددت المدارس الجغرافية الثلاث علاقة الإنسان بالطبيعة. وظهر في العالم اتجاهين رئيسيان في تفسير تطور المجتمعات البشرية هما: الأول الاتجاه الرأسمالي، والثاني الاتجاه الاشتراكي، ويمثل الاتجاه الأول راي روستو w.w.Rostow أستاذ الاقتصاد في جامعة "ماساشوستيس" في الولايات المتحدة الأمريكية الذي اعتمد على دراسة مراحل النمو الاقتصادي للمجتمعات البشرية في تفسيره مراحل تطور المجتمعات البشرية كما يلي:

أولاً: مراحل النمو الاقتصادي للمجتمعات البشرية عند روستو:

يعترف روستو بأهمية التغيير الاقتصادي، ونتائجه السياسية والاجتماعية على المجتمعات البشرية، لكنه يرجع ذلك التغيير إلى عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية، ويميز بين الأثر الاقتصادي والأثر غير الاقتصادي، ويعتقد أن كثيراً من الدوافع والرغبات الإنسانية غير الاقتصادية تلعب دوراً في إحداث التغييرات الاقتصادية، ويستدل على ذلك من مقولة "كيز" أن الطبيعة الإنسانية لو لم يستهوها حب المخاطرة، ولو لم يلذ لها بناء مصنع ما (بغض النظر عن الربح). أو بناء خط حديدي، أو استغلال منجم، أو إنشاء مزرعة لما كانت التغيرات الناجمة عن الحساب البارد وحده، ذات شأن[1].

---

(١) فاضل الأنصاري، الجغرافية الاجتماعية، مرجع سابق ص ١٥١.

ويـــرى روســـتو أن المجـــتمعات البشرية تمر بخمس مراحل من النمو الاقتصادي هي:

١ـ المجتمع التقليدي:

ويضـــم جمـــيع الـــبلدان الســـابقة لعصـــر العالم الفيزيائي نيوتن، كمجتمعات أوروبـــا في العصـــور الوســـطى، وحضـــارات الـــبحر المتوســـط والشرق الأوسط وحضـــارة الصـــينيين. ويضـــم إلـــيها المجتمعات ما بعد نيوتن التي لم تصل إلى مستوى المجـــتمعات القـــادرة عـــلى اســـتغلال الوسط بصورة منتظمة واقتصادية. وتتميز تلك المجـــتمعات بنـــية اقتصـــادية هشـــة، ووظائف إنتاجية متواضعة تعتمد على الأساليب القديمـــة. واعـــتمد روســـو فـــترة ظهـــور العالم نيوتن كحد فاصل بين عالمين: الأول قـــديم يخضـــع لقوانـــين غـــير مـــتطورة، ولا يمتلك العلم والتكنولوجيا. الثاني حديث يتســـلح بقوانـــين يســـتخدمها بشـــكل منـــتظم في أغـــراض الإنتاج، ويمتلك العلم والتقانة الحديثة.

إن المجـــتمعات التقلـــيدية لا تعـــاني مـــن قدريـــة عدم زيادة الإنتاج أو الركود، ولكـــن زيادتـــه رهـــن باستعمالها وسائل محدودة لتحسين الإنتاج الزراعي والصناعي والتجارة.

ورغـــم كـــل التحســـينات يبقى سقفاً لمستوى إنتاج الفرد لا يستطيع أن يتعداه نتـــيجة لضـــعف القـــدرات وعـــدم امـــتلاك العلم والتقانة. ومع ذلك قد اتصفت المجـــتمعات التقلـــيدية بالـــتغير المســـتمر عـــلى مر الزمن فمثلاً كان حجم التجارة ونطـــاق الـــبلدان المـــتاجرة يتـــبدلان تـــبعاً للاستقرار السياسي والاجتماعي. وتبعاً لكفـــاءة الحكـــم المركـــزي ومحافظـــته عـــلى الطرق. وكان حجم السكان ومستوى المعيشـــة يـــرتفعان، وينخفضـــان تبعاً لكميات الإنتاج، كما يتحددان بانتشار الأوبئة والمجاعـــات وقـــيام الحـــروب. وظهـــر عدد من الصناعات ولكنها غير متطورة بسبب عدم تطبيق العلم الحديث والتقانة فيها.

ونتيجة لنظام هذه المجتمعات وطريقتها في الإنتاج وذلك بتخصيص قسم كبير من مواردها للزراعة، ظهر نظام اجتماعي متسلسل المراتب ناجم عن النظام الزراعي، أدى إلى نشوء مجتمع طبقي يصعب فيه الارتقاء من الطبقة الدنيا إلى الطبقة العليا. وكان نظام القيم السائد قائماً على القدرية وقد كان للقبيلة دور هام في التنظيم الاجتماعي.

ويحدث التغير في هذه المجتمعات نتيجة لتزايد حجم السكان والحاجة لمزيد من المواد الغذائية. أو نتيجة للاتصال بالعالم الخارجي أو الوقوع تحت السيطرة الأجنبية ونمو الشعور الوطني مما ينجم عنه انهيار النظام الطبقي وظهور قيم جديدة.

٢- مجتمع التأهب للانطلاق:

وتمثله مجتمعات أوروبا الغربية، في الفترة بين نهاية القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر. عندما أصبحت تلك المجتمعات تطبق المنجزات العلمية من اكتشافات وغيرها في مجالات الإنتاج الزراعي والصناعي، في إطار التوسع الجغرافي الأفقي للأسواق والمنافسة العالمية عليها. وتعد بريطانيا من أول الدول التي نشأت فيها هذه الشروط حيث توافر فيها الموقع الجغرافي والموارد الطبيعية والبشرية.

ويبقى نموذج بريطانيا مزيداً من حيث الانتقال من مرحلة إلى أخرى بفضل عوامل داخلية. حيث إننا نشاهد أن معظم بلدان العالم قد انتقلت عبر المراحل بفعل تدخل خارجي. ويكون التطور والتنمية الاقتصادية في تلك المجتمعات ضرورياً من أجل الكرامة الوطنية أو تحقيق تنمية بشرية مثل تأمين حياة أفضل للأطفال، محو الأمية والتوسع في التعليم، تأهيل القوى العاملة وتحقيق الربح الأوفر، حيث ينمو القطاع الخاص ويبرز عدد من الأشخاص ذوي النفوذ الاقتصادي. فتبنى المؤسسات والمصادف، وتنمو الاستثمارات، في مجالات عدة

وخصوصاً النقل والمواصلات والمواد الأولية. ويكبر حجم الواردات والصادرات. وتطبق الأساليب العلمية والتقنية في الإنتاج. إلا أن التنمية تبقى متواضعة وبطيئة الخطى ويبقى النشاط الاقتصادي التقليدي مرافقاً للتحديث. وبالنتيجة تحصل إصلاحات وتغييرات اجتماعية وسياسية كقيام حكومة وطنية مركزية تعارض المصالح الإقليمية والإقطاع والاستعمار.

٣ـ مجتمع الانطلاق:

ينتقل المجتمع إلى هذه المرحلة بعد تحقيق تقدم ملحوظ في مجال التنمية. وهنا تزول العقبات التي تواجه خطط التنمية، ويصبح التطور هو الطريق الصحيح لتقدم المجتمع ففي الجانب الاقتصادي تزداد نسبة الاستثمار، ويتمكن المستثمرون وبعض العاملين من الادخار، كما تظهر صناعات جديدة مربحة تزيد في عملية الاستثمار، ويزداد الطلب علي اليد العاملة مما يؤدي إلى ارتفاع نسبة الخدمات المقدمة للمجتمع، وتنشط التجارة الداخلية والخارجية، فتنمو المدن، وتتطور، كما يزداد عدد الأغنياء وأرباب الأعمال، وتتسع شريحة العمال، وتستغل الموارد الطبيعية أكثر مما سبق، وتطبق النتائج العلمية ووسائل التقانة في مجالات الأنشطة. ويرتفع معدل النمو بشكل منظم، ويستمر مما يؤدي إلى تغير في التراكيب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

٤ـ مجتمع النمو التلقائي أو السير نحو النضوج:

وفيه يتم تعميم التقنية الحديثة على جميع نواحي نشاطه، فترتفع نسبة الاستثمارات والتوظيف فيها، ويزداد الإنتاج، وينمو بشكل ثابت ومستمر ويكون أعلى من زيادة السكان، وأسرع، وتتغير بنى الاقتصاد مع استخدام النتائج العلمية وأساليب التقانة. وتتقدم الصناعات الحديثة، وتتراجع الصناعات القديمة. ويصبح لاقتصاد هذا المجتمع مكانة مرموقة عالمياً. فينتج ما كان يستورده، ويصدر سلعاً جديدة ويستورد أيضاً بضائع تتوافق ومستوى التطور الذي وصل إليه.

ويعرف روستو النضوج أنه: المرحلة التي يظهر فيها مقدرته على تجاوز الصناعات الأصلية التي حركت مرحلته الانطلاقية وتطبيقها على جانب كبير من موارده. وهذه هي المرحلة التي يظهر فيها الاقتصاد القدرة على إنتاج أي صنف يختاره. وقد يحتاج إلى المواد الأولية وغيرها من مستلزمات المرحلة الاقتصادية.

٥ـ مجتمع الاستهلاك الشعبي العالي:

يتحول الاقتصاد هنا إلى إنتاج البضائع والخدمات الاستهلاكية. ويرتفع دخل الفرد مما يؤدي إلى زيادة الاستهلاك والتوجه إلى استهلاك السلع الأخرى غير الأساسية. كما يتغير تركيب القوى العاملة فترتفع نسبة العاملين في المكاتب أو في الوظائف التي تتطلب المهارة والخبرة. ويرتفع عدد سكان المدن. ويقلل المجتمع من توسيع نطاق استخدام التقنية الحديثة. وإلى تخصيص المزيد من الموارد للرفاه العام والضمان الاجتماعي.

وهكذا يتضح أن الآراء التي يعرضها روستو هي جزء من الأفكار السائدة في المجتمع الرأسمالي التي تقلل من دور الحوافز الاقتصادية في تطور المجتمعات. حيث ركز على الحوافز السياسية والاجتماعية والثقافية دون الإشارة إلى ماهيتها وكيفية تشكلها.

وبعد أن قدمنا هذا العرض من الأفكار الذي جاء به روستو في تطور المجتمعات البشرية والسائد في النظام الرأسمالي. ننتقل إلى تفسيرات المدرسة الشرقية التي كان يسودها النظام الاشتراكي والتي تقوم على التفسيرات المادية في تطور المجتمعات.

ثانياً: التفسير المادي لتطور التنظيمات المجتمعية:

يبين هذا الاتجاه، أن الأوضاع الاجتماعية هي انعكاس للحياة المادية في

المجتمع. وأن إنتاج الخيرات المادية هو الذي يحدد شكل النظام ومنشآته، وتؤثر عملية الإنتاج هذه في عمل الإنسان ووسائل العمل.

فلكي ينتج الإنسان عليه أن يعمل بعقلانية، ويؤثر في الطبيعة من خلال استغلاله مواردها وفق حاجاته. فالعمل هو الشرط الأول للحياة الإنسانية كلها. ومن دونه تستحيل عملية الإنتاج، ويتم الإنتاج بوسائل العمل وهي: الأرض والآلات والأدوات والأجهزة ومباني، ومنشآت الاستثمار، ووسائل النقل والأقنية وخطوط نقل الطاقة. ولأدوات الإنتاج دور هام بين وسائل العمل المختلفة فعليها تتوقف قوة تأثير الإنسان في الطبيعة وبوساطتها يؤثر في مواضيع العمل.

يتألف الإنتاج من عنصرين، القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج: وتمثل القوى المنتجة وسائل العمل ومواضيع العمل التي تسمى وسائل الإنتاج بما فيها أدوات العمل والناس المنتجون وبين هؤلاء الناس تقوم علاقات اقتصادية أو علاقات ملكية. وهي إما أن تكون تعاونية أو تنافسية ففي المجتمعات البدائية أو الاشتراكية تكون الملكية جماعية وتقوم العلاقة فيها على التعاون. تشكل القوى المنتجة، وعلاقات الإنتاج ما يعرف بأسلوب الإنتاج. وتعد القوى المنتجة أكثر عنصري أسلوب الإنتاج حركة، فهي تتحول باستمرار تبعاً لتطور القوى المنتجة وهي تؤثر فيها أيضاً، وعندما تكون علاقات الإنتاج مطابقة لمستوى تطور القوى المنتجة تتطور الأخيرة بنجاح والعكس صحيح.

يتطلب تطور القوى المنتجة إلى مستوى معين من علاقات إنتاج مطابقة. وهذا هو القانون الاقتصادي الذي يفسر تطور المجتمعات، ويكشف الأساس الاقتصادي للثورات الاجتماعية، فعندما تتأخر علاقات الإنتاج عن تطور القوى المنتجة وتعرقل تقدمها، يستعاض عنها بعلاقات جديدة وفي المجتمع المنقسم إلى

طبقات متناحرة يتم دائماً تغير علاقات الإنتاج عن طريق الثورة الاجتماعية[1]. أما في المجتمع الذي يخلو من تلك الطبقات المتناحرة فتتطور علاقات الإنتاج نتيجة لتعديل علاقات الإنتاج بانتظام نتيجة لتعديل علاقات الإنتاج بانتظام. وبقدر ما تنمو القوى المنتجة، وليس بفعل الثورة الاجتماعية.

ولمعرفة حالة التبدل في خواص المجتمع يجب التمييز بين البناء التحتي، أو ما يسمى أحياناً بأساس المجتمع، والبناء الفوقي للمجتمع.

والبناء التحتي: هو علاقات الإنتاج السائدة في مجتمع، والمرتبطة بمستوى معين من القوى المنتجة، وتبعاً لطبيعة تلك العلاقات يكون هذا البناء إما تناحرياً كما هو الحال في المجتمعات الطبقية، أو تعاونياً كما هو في المجتمعات البدائية والاشتراكية.

البناء الفوقي: ويتضمن المفاهيم السياسية والفلسفية والحقوقية والفنية والدينية وغيرها. مما يؤمن به المجتمع والمؤسسات المطابقة لها.

عموماً عندما يتغير البناء التحتي، يتغير البناء الفوقي، فتغير الأساس الاقطاعي وحلول الأساس الرأسمالي محله أدى إلى حلول البناء الفوقي الرأسمالي محل البناء الاقطاعي. وأحياناً فإن بعض عناصر البناء الفوقي يمكنها أن تنتج ضمن المجتمع القديم حيث تصدر أفكار وقيم تتوافق مع النظام الأحدث.

ومن الأمثلة على تطابق البناءين لا يمكن قيام حكومة مركزية في المجتمع المشاعي البدائي. كما لا توجد حرية انتخاب في نظام الرق.

وهكذا فإن أسلوب إنتاج الخيرات المادية المكون من وحدة متكاملة من القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج، يشكل مع البناء الفوقي المطابق له النظام الاقتصادي ـ الاجتماعي وتاريخ البشرية، وهو تتابع لهذه الأنظمة التي شهد

---

(١) فاضل الأنصاري، مرجع سابق، ص١٥٨.

خمساً منها هي:

١ـــ مجتمع المشاعية البداية.

٢ـــ مجتمع الرقيق.

٣ـــ مجتمع الاقطاعية.

٤ـــ مجتمع الرأسمالية.

٥ـــ مجتمع الاشتراكية.

وهكـــذا يـــبقى التـــباين في وجهـــات الـــنظر بـــين مختلف التيارات العقائدية، والاتجاهـــات الفكـــرية أمـــراً قائمـــاً حول الإنسان: الفرد والمجتمع، وطبيعة تطورهما عـــبر الـــتاريخ ســـواء أكـــان هذا التطور نابعاً من الفرد والمجتمع أم من عوامل أخرى طبيعية واقتصادية.

وســـوف نـــتابع في موضـــوعاتنا تقـــديم أهـــم أنمـــاط حياة المجتمعات البشرية وتوزعهـــا عـــلى ســـطح الأرض مـــن خـــلال درجة تطورها الاجتماعية والاقتصادية والثقافـــية والسياســـية مـــع إظهـــار علاقة الإنسان التاريخية بالوسط الطبيعي وسنبدأ من ابسطها في سلم التطور إلى أكثرها تقدماً.

الفصل الرابع

أنماط حياة المجتمعات البشرية وتوزعها على سطح الأرض

صور الجغرافية الاجتماعية

- المجتمعات البدائية
- المجتمعات الزراعية المتطورة
- المجتمعات الصناعية
- صور الجغرافية الاجتماعية

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المجتمعات البدائية

عاش الإنسان البدائي ولا يزال هائماً على وجهه باحثاً عما يسد رمقه من طعام وشراب، فهو أكثر الجماعات الإنسانية ارتباطاً بالطبيعة وخضوعاً لها. وتعبير المجتمعات البدائية، أطلق على الجماعات التي تعتمد في حياتها اعتماداً تاماً على الطبيعة، على عكس الجماعات المتحضرة التي تعتمد في معيشتها على استغلال البيئة من تغيير وتعديل وتطوير وتنظيم الوصول إلى حاجاتها الأساسية والترفيهية. فالجماعات البدائية تستغل البيئة بطريقة غير منتظمة فتستنزف مواردها وتدمرها وبالتالي قد تهلك الجماعة معها، فهذه الجماعة في تفاعلها مع البيئة تقوم بجمع الغذاء أو صيد الحيوان أو رعية أو مزاولة حرفة الزراعة البدائية، وفي السابق أي منذ ألف عام كانت هذه الجماعات تسيطر على العالم حيث عاشت في البيئات التي استقر بها المزارعون ثم ورثتها حديثاً المجتمعات الصناعية[1].

مرت المجتمعات البدائية بمجموعة مراحل من التطور، تغيرت من خلالها الحرف التي مارستها. فقد كان تطور الحرف مواكباً لتطور الإنسان ووسائل إنتاجه للطعام، وللتغيرات البيئة الطبيعية. فكلما ازداد تفاعل الإنسان مع الطبيعة، وابتكر أدوات أكثر تقدماً وتعقيداً، وتطورت الحرفة، وتغيرت، وازداد استثماره للطبيعة، وبالتالي المردود الاقتصادي. فمثلاً كانت حرفة الجمع والالتقاط ولا تزال من أبسط الحرف التي زاولها الإنسان، ومع تطور صناعة الأدوات الحجرية ومن ثم المعدنية، انتقل الإنسان إلى حرف أكثر تعقيداً وكل هذا واكبه تغيراً في نمط المعيشة وفي العلاقات الاجتماعية.

---

(١) د.يسري الجوهري و د.ناريمان درويش، الجغرافيا البشرية، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٩٢، ص١٧٧.

عاش الإنسان البدائي في العراء، ثم سكن الكهوف وبعد تطوره ثقافياً واكتشافه للنار انتقل إلى سكن المنازل بمختلف أنواعها وأشكالها ومواد بنائها[1]. إلا أن هذا التطور لم يتم بسرعة بل استغرق ملايين السنين وذلك نتيجة لتغيرات في البيئة الطبيعية أيضاً. فمثلاً حدثت تغيرات مناخية أدت إلى جفاف المناطق العشبية، نتج عنها اختفاء الحشائش والنبات في بعض العروض الجغرافية، الأمر الذي أدى إلى هجرة الحيوانات وكذلك الإنسان الذي تبعها ليؤمن من قوته ويحافظ على بقائه وهنا اضطر الإنسان بسبب قربه من المياه والأودية النهرية، أن يغير نمط معيشته الاقتصادية فبرزت حينئذ حرفة استئناس الحيوان ورعيه، ثم حرفة الزراعة البدائية. وبالنسبة للصناعة فهي قديمة وتتطور تبعاً لتطور المستوى الثقافي للإنسان. وعليه يمكن القول إن التطور من حرفة لأخرى لم يكن واحداً على جميع أرجاء الكرة الأرضية ولم يستغرق الفترة الزمنية نفسها، فمثلاً ظهرت الزراعة في بلاد الشام وخصوصاً في فلسطين منذ ٦٠٠٠ عام ق.م[2]. وفي مصر منذ نحو ٥٠٠٠ عام ق.م[3]. في حين نلاحظ أن الأفارقة (أقزام البانتو) المقيمين قرب خط الاستواء، وكذلك الأستراليين الأصليين لم يعرفوا تلك الحرفة، وبقيت الكثير من الجماعات تمارس حرف الجمع لم يعرفوا تلك الحرفة، وبقيت الكثير من الجماعات تمارس حرف الجمع والالتقاط أو الصيد أو الرعي. كما نلاحظ أن بعض الجماعات انتقلت من حرفة الصيد إلى الزراعة مباشرة دون أن تمارس حرفة الرعي، وبالمقابل هناك جماعات كالبوشمن مثلاً قد غيرت حرفتها نحو الأكثر بدائية من الرعي إلى الصيد والجمع والالتقاط،

---

(١) علي الجباوي، الجغرافية التاريخية، جامعة دمشق ، دار المعارف للطباعة، دمشق ، ١٩٩٠.

(٢) محمد السيد غلاب، الجغرافية العامة الطبيعية والبشرية، مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية، ١٩٩٥.

(٣) فؤاد محمد الصقار ومحمد رشيد الفيل، أصول الجغرافية البشرية، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٨٠، ص١٢٢.

ويرجع السبب في الحالة الأولى بسبب الاتصال بجماعات متطورة، وفي الحالة الثانية بسبب التغير في الظروف الطبيعية نحو الأسوأ مع بقاء الإنسان في المنطقة نفسها. في صلب دراستنا للمجتمعات البدائية، سنتعرض لتحليل أنماط حياتها بناءً على أساليب معيشتها وذلك من خلال اعتماد إنسان تلك المجتمعات على البيئة وخضوعه لها أو استغلالها، وما تظهره الحرف التي يزاولها الإنسان البدائي.

أولاً- مجتمعات حرفة الجمع والالتقاط

تعد حرفة الجمع والالتقاط من أقدم الحرف التي عرفها الإنسان البدائي طيلة العصر الحجري القديم الذي دام قرابة مليوني عام ونصف[1]. كان نشاط الإنسان مركزاً على جمع الغذاء من مصدريه النباتي والحيواني. وهذا النشاط تمثل بالبحث الدائم عن مصادر الطعام المذكور التي يتناولها مباشرة من خلال مطاردته للحيوانات في مكان إقامته والمناطق المجاورة من جانب، وفي قطف الثمار وجمع النباتات وجذورها والدرنيات من جانب آخر. استمر الإنسان البدائي يزاول هذا العمل سنين عديدة رغم محاولاته المتكررة لتطوير أدوات إنتاجه إلا أن سلطة الطبيعة القاسية بقيت مسيطرة عليه. إن هيمنة الظروف الطبيعية كانت ولا تزال تتوافق في سيطرتها على الإنسان تبعاً لتطور وسائل الإنتاج، فكلما تطورت وسائل الإنتاج، استطاع الإنسان أن يخفف من وطأة الطبيعة، ويحقق وفراً أكبر من حاجاته اللازمة، وعلى العكس من ذلك فإذا كانت وسائل الإنتاج بدائية يصعب عليه توفير موارد عيشه، ويكتفي بما تجود به الطبيعة.

وبالرغم من قدم حرفة الجمع والالتقاط فما زالت موجودة حتى عصرنا الراهن، ولم يقتصر وجودها على زمن محدد أو إقليم معين، فهي تبرز في الأزمنة كلها وفي مختلف الأقاليم النباتية. وحسب تصور "بنت **Benett**" فإن الجماعات البدائية التي تعيش على حرفتي الجمع والالتقاط كانت تمثل ١٠% من مجموع

---

(١)علي الجباوي، الجغرافية التاريخية، جامعة دمشق، دار المعارف للطباعة، دمشق ص٣٩٨.

سكان العالم في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي أو حوالي ٢٧٥ مليون نسمة[١].

إلا أن هذا الرقم قد تناقص تدريجياً وذلك منذ بداية العصور الحديثة إلى حد يشير إلى انخفاض أعدادهم إلى ما يقرب من ربع مليون من أصل أربعة ملايين نسمة يمارسون حرف الصيد والجمع والالتقاط أي لا يمثلون إلا ٠,٠٠٣ % من مجموع سكان العالم، إلا أنه قبل الانتقال إلى حرف الزراعة واستئناس الحيوان منذ عشرة آلاف عام كان معظم البشر أي نحو ٩٠% من سكان الكرة الأرضية يعيشون على الجمع والالتقاط والصيد[٢]. وتبعاً لبدائية وسائل الإنتاج فإن تأثير الإنسان في الطبيعة غير فاعل، ولم يكن تغييره فيها إلا ضئيلا، رغم استمراره في التفاعل مع البيئة مدة طويلة.

تعد حياة الإنسان الجامع صعبة لأنه كان لزاماً عليه أن يعمل عملاً شاقاً من أجل بقائه. وأنصب نشاطه الاقتصادي على جمع النباتات والثمار البرية في بعض المناطق، وعلى جمع الحبوب والجذور والثمار الجذرية في بعضها الآخر. إلا أن الإنسان الجامع لم ينج من أزمات اقتصادية ففي فصول معينة يحصل نقص في الفواكه والمحاصيل، ينتج عنه مشاكل غذائية كبيرة، وهذا ما دفع بالإنسان إلى حفظ كل ما يزيد عن حاجته وتخزينه في فصول النضج لاستهلاكه في فصول القحط، وعليه بدأ الإنسان في التفكير بوضعه المعيشي، علماً بأنه في تلك الظروف لم يحتج إلى جهد عضلي كبير أو تفكير عقلي عميق. أما كثافته في المنطقة التي يعيش فيها فكانت قليلة، بمعدل ٤ ــ ٦ أشخاص في الميل المربع

---

(١) Benett, H.soil conservation. N.Y.١٩٣٩.chap I.IV

(٢) يسري الجوهري وناريمان درويش، الجغرافية البشرية، مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية، ١٩٩٢.

الواحـــد[1]. كـــان دائـــم الـــتجوال للحصـــول عـــلى النباتات والفواكه والدرنات والديـــدان وغيرهـــا. يعـــتقد الكـــثير مـــن الباحثين أن مجتمعات الجمع والالتقاط لم تعـــتمد في حـــياتها عـــلى حـــرفة الجمع والتقاط النباتات في جميع الأزمنة والنطاقات المناخـــية، بـــل إن مـــنها مـــا اعـــتمد في معيشته على لحوم الحيوانات، ودليل ذلك وجـــود الأنـــياب والقواطـــع للإنســـان التي تمكنهم من أكل اللحوم، وكذلك وجود أدوات الصـــيد مـــن أســـلحة حجـــرية وغيرها في أماكن إقامته تثبت مزاولته لحرفة الصـــيد، وذلـــك بســـبب عـــدم ديمومـــة توافـــر الأغذية النباتية الأمر الذي يضطر الإنســـان إلى صـــيد الحـــيوانات أو قنصـــها مـــثل قنص الإحياء الصغيرة كالضفادع والفـــئران والديـــدان والـــثعابين والجـــراد إضافة إلى جمع الأصداف وبيوض الطيور. وعـــلى ســـبيل المـــثال جماعات البوشمن (Bushmen) في صحراء كالاهاري بأفريقيا، والفويجـــيين (Fuegian)، والـــياجان (Yaghans) المقـــيمين في الجـــزء الجـــنوبي من أمـــريكا الجنوبـــية بـــ "يـــتيرا دلفويجـــو" جميعهم يعتمدون في حياتهم على صيد الحيوان وجمـــع الأصـــداف. يضـــاف إلى تلـــك الجماعـــات أقزام جزر أندمان(Andman) في خلـــيج البـــنغال الذيـــن يمارســـون حـــرفة صيد السلاحف والأسماك البحرية، إضافة إلى جمع الفواكه والعسل من الغابات[2].

أضـــف إلى ذلـــك أن إنســـان حـــياة الجمـــع والإلتقاط لا يعيش في بحبوحة من العـــيش، فكـــثير مـــا يقع ضحية الظروف البيئية الطبيعية القاسية أو البشرية الحديثة. مـــثلاً تعـــيش في الهـــند جماعـــات "الـــبيرهور Berhor" الـــتي تعمل بدأب ونشاط، ورغـــم ذلـــك فهـــي تـــتعرض للمجاعة المستمرة، ويرجع ذلك إلى الظروف الطبيعية القاســـية، وكذلـــك اتصـــالهم بالإنسان الحضري الذي أمن لهم أدوات صيد متطورة كالبـــنادق وغيرهـــا مـــن الوسائل المعدنية المستخدمة في الصيد الأمر الذي عمل على

---

(١) محمد السيد غلاب، مرجع سابق ، ص٢٣٩.

(٢) فؤاد الصقار ومحمد رشيد الفيل، مرجع سابق، ص١٤١.

دمـــار الحـــيوانات ومنـــتجات البيئة المحيطة بهم. إلا أن هناك من يعارض هذه الفكرة مـــثل العـــالم "مارشـــال ســـاهلير Sahlur". الذي يقول إن جماعات الجمع والالتقاط والصـــيد تمـــتلك وفـــرة مـــن الغـــذاء، ولا تحتاج لساعات طويلة للعمل كي تسدد حاجاتهـــا، ولديهـــا قســـط كبير من الراحة. إلا أنه لا يمكننا أن نعمم هذا القول على جمـــيع الجماعـــات المـــزاولة لهـــذه الحرفة، وذلك لأن هذا يعدُّ استثناء وربما يرجع إلى أن الظـــروف البيئـــية الطبيعـــية والعـــادات الاجتماعية، كانت عوامل ساعدتهما على تأمين وفرة في الغذاء إلى جانب الراحة.

ترتكـــز الحـــياة الاقتصـــادية للإنســـان الجامع على الاكتفاء الذاتي، إلا أنها قد تضـــطر إلى المقايضـــة مـــع ممن حولها، وأهم ما تتعامل به من منتجات: الملح وأدوات الإنتاج والحلي وذلك من خلال تظاهرات وعادات متميزة

خصائص مجتمعات الجمع والالتقاط:

تتمـــيز هـــذه الجماعـــات بأنهـــا تقطـــن مساحات محددة يحدد اتساعها انتشار بعـــض أنـــواع مـــن الأشجار المثمرة أو النباتات مثل جوز الأناناس الذي يحدد مسار جماعـــات الشوشـــون "shoshone"، أو جـــوز المونجـــو "Mongongo-Nut" الذي يســـهم في تحديـــد طـــرق تجـــوال جماعـــات البوشمن، وعلى الأغلب فإن لكل جماعة مـــنطقة خاصـــة بهـــا لا تـــزيد عن ٤٠ كيلو متراً مربعاً، وفيها تعيش الجماعة، وتؤمن غذاءهـــا، شـــريطة ألا يخـــرج مـــنها أحـــد إلى مـــنطقة أخرى، إلا ضمن اتفاقات تم الـــتفاهم علـــيها مـــن الجماعات المجاورة، مثل حق الحصول على بعض الموارد كالملح أو الجـــذور والدرنـــيات والنـــباتات الفصـــلية دون المســـاس بما يتوافر من ثمار على الأشـــجار، وهـــي مـــبادئ تحـــترمها جمـــيع الجماعات وهي إحدى أسس وخصائص النظام المشاعي عندهم[1].

---

(١) فاضل الأنصاري، مرجع سابق، ص١٨٥.

إضافة إلى ذلك تعيش كل جماعة بحالة من الاكتفاء الذاتي، ولكنها غير مطلقة على الأغلب، وذلك بسبب الظروف البيئية والاجتماعية الصعبة أحياناً التي تمر بها تلك الجماعات، وتعرضها للجماعات التي تستمر فصولاً أو سنين طويلة بسبب الجفاف أو الفيضانات أو انخفاض درجات الحرارة وارتفاعها.

ونتيجة للظروف الطبيعية القاسية والعرف والعادات الاجتماعية الصارمة مثل فرض قيود على الزواج، فإن عدد أفراد الجماعة يبقى قليلاً. كما أن انتشار الأمراض والأوبئة بين صفوف أفراد الجماعة يعد عاملاً محدداً لنمو أعدادها التي تبقى محصورة ما بين ٢٥ــ٥٠شخصاً [١]. وعليه فإن لهذه الجماعات خطة تعمل على الاحتفاظ بأعداد قليلة بدلاً من أن تنمو أعدادها، وتجد نفسها فجأة أمام كارثة غير متوقعة. فكثافة سكان هذه الجماعات قلما تزيد عن شخص واحد في الكيلو متر المربع وهي كثافة قليلة.

وبالنظر إلى أن حرفة الجمع والالتقاط لا تمارس حالياً دون حرفة الصيد سواء أكان بحرياً أم برياً، فإن هذه الحرفة تتطلب جهداً كبيراً وتجوالاً مستمراً نظراً لبدائية أدوات الإنتاج ولقلة وفرة الموارد. وهذا ما دفع بالرجل إلى الخروج من المنزل لفترات طويلة وممارسة الأعمال المجهدة. وعليه تمتعت المرأة بمركز هام بالنسبة للحياة الاقتصادية والاجتماعية نظراً لمكانتها المهمة في جمع المواد الغذائية، إضافة إلى عملها المنزلي. وهنا ساد النظام الأمومي، وأصبحت ظاهرة تعدد الأزواج منتشرة عند بعض المجتمعات.

أهم جماعات الجمع والالتقاط:

تنتشر جماعات الجمع والالتقاط في المناطق النائية والبعيدة عن الحضارة في عصرنا الراهن، وذلك في معظم قارات العالم: آسيا وأفريقيا وأوقيانوسيا وأمريكا

---

(٢) يسري الجوهري وناريمان درويش، مرجع سابق، ص١٨١.

الجنوبية (مصور رقم ٢) وأشهرها:

المصور رقم (٢)

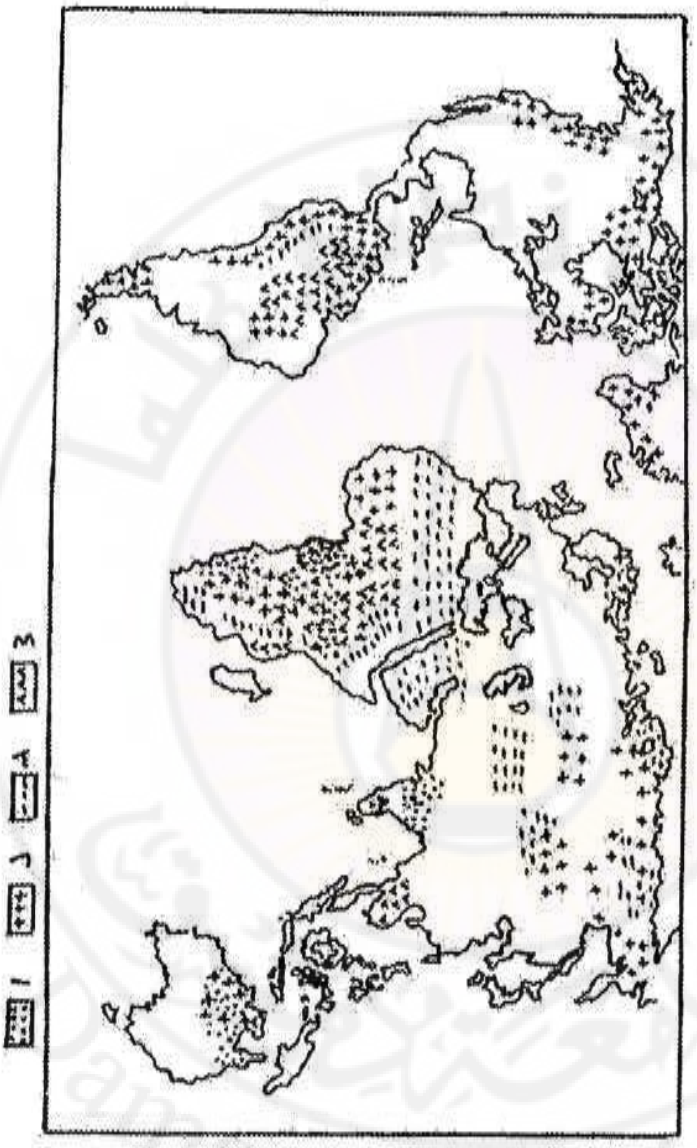

مقياد

أنماط المجتمعات البدائية في العالم

١ ـ مناطق انتشار حرفة الجمع والالتقاط. ٢ ـ مناطق انتشار حرفة الصيد البدائي.
٣ ـ مناطق انتشار حرفة الرعي البدائي. ٤ ـ مناطق الزراعة البدائية.

السيمانج والسكاي:

تمثل جماعات السيمانج والسكاي نموذجاً لمجتمعات الجمع والالتقاط في الغذاء والمسكن ووسائل الانتاج وطرق الانتقال وفي العادات والتقاليد أيضاً فهي تعتمد على الجمع والتقاط الثمار والجذور ولا تقوم بالصيد إلا في الحالات الخاصة وهي لا تعرف الزراعة أو تربية الحيوان.

الموطن الجغرافي:

تتوزع جماعات السيمانج والسكاي في المناطق الوسطى من شبه جزيرة الملايو وجنوب تايلاند. ويقيمون في أقاليم جبلية وعرة بمعدل ارتفاع يزيد على سبعة آلاف قدم(١). وبظروف مناخية تتميز بالارتفاع الدائم في درجة الحرارة والأمطار الغزيرة المستمرة طوال العام، في هذه الظروف المناخية الاستوائية نمت الغابة الكثيفة والتي تبدأ بغابات المانجروف الساحلية إلى الغابات المدارية المطيرة على السفوح المرتفعة تتخللها المجاري المائية، وهذا ما دفع بالحيوانات إلى ارتيادها نظراً لوفرة المياه وملاءمة الظروف الغابية لها. وإن مثل هذه الظروف المناخية ساعدت أيضاً في هروب جماعات السيمانج والسكاي إلى هذه المناطق بعد أن أخرجتهم الفئات الملاوية والصينية والأوروبية من المناطق الساحلية الصالحة لانتاج المزروعات المدارية(٢).

السكان وحياتهم الاجتماعية:

ترجع جماعات السيمانج في انتمائها العرقي إلى سلالة الأقزام وخصوصا النيجريتو Negrtoes. فهم قصار القامة إذ يبلغ طول الرجل حوالي ١٥٠سم والمرأة أقصر بقليل. ويتميزون عن غيرهم من أقزام أفريقية بتناسب أطرافهم

---

(١) فاضل الأنصاري، مرجع سابق، ص١٩٠.

(٢) Kendrew.w. the clemets of the continents. London.١٩٥٣ , p.٢٢١

ورؤوسهم مع أطوالهم. أما لون بشرتهم فهو شديد السمرة، إلى جانب الصفات الزنجية الأخرى كالأنف العريض والعيون الواسعة البارزة والشعر الصوفي المجعد على الرأس وقلة الشعر على الجسم والوجه. أما جماعات السكاي فيتميزون عن السيمانج من حيث الصفات الجسمية بأنهم أقل سمرة وأغزر شعراً وأطول قامة ورؤوساً وأضعف بنية[1].

يقدر عدد السيمانج والسكاي بعدة آلاف شخص يتوزعون في أواسط شبه جزيرة الملايو، وبكثافة قليلة جداً. وهم يعيشون في مجموعات صغيرة أو عائلات تضم الآباء والأحفاد بمعدل قدره ٣٠ شخصاً (علماً بأن هذا العدد يتذبذب ما بين مكان وآخر ومجموعة وأخرى). ولكل عائلة مساحة من الأرض تملكها بالوراثة وتقدر بحوالي ٥٠ كيلو متراً مربعاً، ربما تسمح لغيرها بدخولها أحياناً ولكن بغرض الصيد أو جمع الدرنات والجذور. أما ثمار الأشجار وخصوصاً الدوريان فهي حكر على أفراد الجماعة المالكة ولا يسمح لغيرهم بجمعها[2]. وهناك عرف بين الجماعات وهو أن الأرض تبقى ملكاً لأصحابها حتى وإن خرجت منها لأنها ستعود إليها لاحقاً. ويندر أن تستقر الجماعة في المكان الواحد أكثر من خمسة أيام، وخلال اليوم الواحد تقطع الجماعة قرابة، عشرة أميال، ضمن نطاق حقها في التجول، وهذا ما يحدد من اتصالها بالجماعات الأخرى. الأمر الذي ساعد على تعدد لغات السيمانج نتيجة لقلة الاتصال. وبالتالي صعوبة التفاهم بين الجماعات التي لا تبعد عن بعضها مسافات طويلة. لكن هذا لا ينفي وجود لقاءات بين جماعتين أو أكثر واختلاطهما ببعض. أما بالنسبة لاختلاط جماعات السيمانج والسكاي ببعضهما فهو محدود جداً، ولا يتجاوز نطاق قدره ٥٠ كيلومتراً تعيش خلاله الجماعات، وتشعر بروح الجماعة وقد تنشأ لغة

---

(١) forde, D.(١٩٥٢),p.١٢

(٢) Forde, D.(١٩٥٢).p.١٢

مشتركة تجمع بين الجماعات المتجاورة ـ إلا أنه عموماً ونتيجة لعادات وتعاليم الشيوخ، فلا نجد خروجاً للأفراد عن نطاق الجماعة بقصد التجوال مع جماعة أخرى إلا نادراً، لأن الفرد منهم تعود أن يقضي كامل عمره بين أهله وذويه.

الزواج:

عندما يبلغ الشاب سن الثامنة عشرة يبدأ بالبحث عن زوجة مناسبة من إحدى الجماعات المجاورة والقريبة، وقد جرت العادة بعد اختيار الشاب لزوجته وزواجه منها، أن يذهب ليقيم مع أهل زوجته مدة سنتين تقريباً قبل اصطحابها وعودته إلى أهله[1]. وللمحافظة على البقاء وكمحاولة مباشرة، كفرض المحرمات على زواج الأقارب، وضرورة البحث عن زوجة من جماعة أخرى إن أمكن.

النظام الأسري والنشاط المعيشي:

يدبر السيمانج حياتهم السياسية من خلال نظام عشائري أو أسري، فعلى الصعيد الداخلي ضمن الجماعة، ينظمون أمورهم من خلال العشيرة أو الأسرة الكبيرة، والتي تعد الوحدة الاجتماعية الأساسية هناك. ويتولى رئاسة الجماعة أكبرهم سناً وهو سيدها وزعيمها، وبدوره يقدم النصح والإرشاد والتوجيه لأفرادها، كما يحدد مكان الإقامة.

يتركز النشاط المعيشي لجماعات السيمانج والسكاي على جمع الدرنات والنباتات وجذورها والتقاطها، وهذه الموارد النباتية توجد بالغابة وتحتاج إلى قوت وجهد لجمعها وذلك لأنها لا توجد بوفرة. وعلى أفراد الجماعة أن يتجولوا باستمرار كي يوفروا حاجاتهم، ولهذا فقد اعتادوا على توفير غذائهم من النباتات، وقلما يقتنصون الحيوانات أو يصطادون الأسماك إلا عند الضرورة أو عندما تتاح لهم الفرصة للقيام بذلك. وهناك نلاحظ تقسيماً للعمل بين الرجل

---

(١) فاضل الأنصاري، (١٩٩٠) مرجع سابق ص١٩٢.

والمـرأة. فـالذكور يقومـون بالقـنص، ومطاردة الحيوانات، وإشعال النيران، وجمع النـباتات، وصـنع الأسـلحة وبعـض أدوات الصيد[1]. أما النساء فيقمن بالبحث عـن الدرنـات مسـتخدمات عصـا طويلـة مدببة صلبة، كما يقمن بقطف الثمار والأوراق والجـذور، وإعـداد وجـبات الطعـام اليومـية، وقـد تقوم المرأة بصيد الأسمـاك في مـناطق السـيمانج القريبة من المجاري المائية. ويستخدم في عملية الصيد الوسـائل البدائـية، كـرمي الـرماج، عـلى الأسماك الكبيرة أو مسكها بالأيدي في المسـتنقعات الضـحلة، أو تسـميم المياه لصيدها، وقد تستخدم آنية خشبية كالمغرفة مصـنوعة مـن البامـبو، أو الـراتان في صـيد الأسمـاك الصغيرة. كما تقوم النساء بـإعداد أدوات الطعـام، مـثل جعـل ورقـة موز كوعاء يوضع به الطعام ويصنعن السـلال مضـفورة مـن أغصـان البامـبو تستخدمها النساء في جني محصول الثمار الصغيرة، وكذلك أشياء الزينة.

يعـتمد السـيمانج والسـكاي في غذائهـم عـلى تـناول النباتات والدرنات والأرز (الـذي يحصـلون علـيه مـن الملايو بالمقايضة)، واللحوم والأسماك. وغالباً ما يقسـم الطعـام عـلى أفـراد الجماعة الواحدة. أما الأدوات والأسلحة وأشياء الزينة فهي ملك للأشخاص، ولا تقسم على أفراد الجماعة.

السكن:

تعـيش جماعـات السـيمانج في مسـاكن مبنية من جذوع الأشجار وأغصانها وأوراقهـا والأعشـاب أيضـاً، فهي بسيطة سهلة الإنشاء، يقيمونها بأنفسهم. ويحدد زعـيم الجماعـة مكـان إنشائها، وعادة يتم في موقع شبه خالٍ من الأشجار وفي ظل كـتلة صـخرية ليـتدارى بظلها من البرد والرياح الشديدة البرودة شتاءً، و من الحر صـيفاً. وغالـباً مـا تـبنى الأكواخ على شكل دائري بحيث يتناسب حجمها وعدد الأفـراد الذيـن سـيقطنونها. ويقـع عـلى عـاتق النساء مسؤولية كبيرة في إنشاء

---

(١) Forde, D. Habitat, Economy and Society. London.١٩٥٢٣p١٤

الكـوخ، كوضـع أعمـد خشـبية للأكـواخ، وجعلها مائلة نحو الداخل، ثم سندها بأغصـان أو حـبال مصـنوعة مـن نبات الليف وتثبيتها بأخشاب تغرس في الأرض. كمـا وتسـتعمل أوراق الخـيرزان الـتي تطـوى من وسطها لتصبح سميكة في بناء سـقف البيـت الـذي تحدد درجة ميلانه تبعاً لاتجاه الرياح والأمطار وشدتهما. وبعد الـتأكد مـن عـدم نفاذيـة السـقف للماء وغيره، توضع أعواد البامبو مصفوفة في قـاعدة البيـت لـيكون معـزولاً عـن الرطوبة والحشرات والنباتات. وبعد تحديد مكـان وسـط بـين الأكـواخ يوضع موقد نار ليبقى مشتعلاً ليلاً، حيث توقد النار عـن طـريق حـك قطعـتين جافـتين من الخشب. ولا يدمر السيمانج منازلهم عند هجـرها بـل يـبقونها قائمـة. أمـا سـكان السكاي فتتميز بأنها مستطيلة الشكل، وتصـنع جدرانهـا مـن أغصـان الأشـجار أو من ضفائر لجريد النخل، أما السقف فـيغطى بسـعف النخـيل. وتـبنى البـيوت عـلى أنـواع منها الكبيرة والوسطى والصـغيرة، وذلـك تـبعاً لعـدد الأفـراد الذين يرغبون بالإقامة معاً[1]. وبالنسبة لأرض الكـوخ فتـبقى مـرتفعة ومصـفوفة بالأخشـاب لتكون بمعزل عن الرطوبة والحشـرات والحـيوانات. وأحـياناً تـبنى البـيوت الصغيرة فوق جذوع الأشجار خشية الحيوانات، ولتكون أكثر أماناً.

اللباس والأدوات:

يعـتمد السـيمانج والسـكاي في حياتهم على الطبيعة. وفي لباسهم يلجأون إلى البيئة المحيطة للحصول على ما يستر أجسادهم.

فالسـيمانج يسـتخدمون جلـود الحـيوانات ولحـاء الأشجار وأوراقها لستر قسـم مـن أجسـامهم[2]. ويختـلف لـباس الرجال عما ترتديه النساء. حيث تلبس النسـاء أحـزمة عريضـة حـول الخصـر، وعقوداً حول العنق مصنوعة من أنواع

---

(١) Forde , P.٢٠

(٢) Forde, p.١٣

النباتات المتسلقة ومن الطحالب المتوافرة في البيئة، إضافة إلى الأقمشة المنسوجة، وهذه الأشياء ممتلكات خاصة قد تصنعها الجماعات أو تحصل عليها بالتبادل. وتستخدم النساء المشط الخشبي الموشى ببعض التزينات. وهناك بعض الحلي وأشياء الزينة والتي لا تعد ملابس وإنما طلاسم وحجباً تغطي العورة وتحمي حاملها من الأمراض والأرواح الشريرة أما لباس الرجال فيتألف من حزام بسيط أو أشرطة من لحاء الأشجار وألياف النخيل تتدلى منه أوراق الأشجار. ويتزين الرجال كالنسوة بالأساور والعقود والأقراط الملونة. أما الأحذية فليست معروفة لدى الجنسين أما الرأس فيبقى حاسراً عند الذكور والإناث.

فيما يتعلق بالأدوات والأسلحة فيصنعها السيمانج بأنفسهم. وتصنع غالباً من الخيزران نظراً لصلابته وليونته، فمنه تصنع أدوات المطبخ والسلال وشباك الفخاخ وجعب السهام، كما تستخدم حافاته في قطع الأشياء. أما الأسلحة فتتمثل بالسهم والقوس، وتصنع من النباتات وأعصاب الحيوانات.

المعتقدات الدينية ودفن الموتى:

تعتقد هذه الجماعات بالسحر وطقوسه المختلفة من شعوذة وتعاويذ، يقوم بها سحرة ماهرون، يجيدون الصنعة، فالساحر الذي يدعى "شامان" يصنع التعاويذ ويقوم بدور الطبيب المداوي والمنقذ لأفراد الجماعة من جميع مشاكلها وأمراضها[1]. ومهنة السحر تنتقل عبر الأجيال. وللساحر مكانة مرموقة لدى الجماعة. وكنتيجة لمعتقداتهم البدائية وتعرضهم للكثير من الأزمات الاقتصادية والكوارث البيئية، اعتقدوا بفكرة تناسخ الأرواح، وجعلوا لهم طوطم لحماية أنفسهم من مخاطر الطبيعة بما تحويه من كائنات مختلفة، أو كوسيلة لتأمين الغذاء وقت الشح والفاقة. إلى جانب ذلك آمنوا بالحياة والموت، وعرفوا كيف يدفنون موتاهم للمحافظة على المتوفى، إيماناً بأنه سيعود إلى الحياة مرة أخرى. ولذا تحفر

---

(١) Forde,p.١٣

الحفـر، وتوضـع بهـا جثـث الموتـى مـن خـلال طقوس وتعاويذ خاصة يديرها "الشامان".

الجماعـات البدائـية الـتي تمـارس حرفة الجمع والالتقاط إلى جانب الجماعات الآنفـة الذكـر، هـناك العديـد من الجماعات التي مازالت تعيش على حرفة الجمع والالتقاط حتى أيامنا الراهنة، وتتوزع في أماكن متفرقة من العالم وأهمها:

- الآيـتا (Aeta): وهـم أقـزام آسـيويون يعيشون في "لوزون" Luzon في الفلبين.
- الكوبو Kubu: آسيويون يقيمون في غابات سومطرة الاستوائية.
- الآندمـان Andaman: أقـزام آسـيويون ينتشرون في القسم الداخلي من جـزر الأندمـان بالقـرب مـن خليج البنغال، وفي المناطق الداخلية من غينيا الجديدة وفي بعض الجزر الميلانيزية.
- الـبوشمن Buchmen: وينتشـرون في كـل من شمال شرق أفريقيا الجنوبية الغربية، وكذلك في صحراء كلهاري.
- الفـيدا Vedda: ويعيشـون في جـنوب الهـند ووسـطها وبالـتحديد في مناطق التلال والأحراج.
- الأسـتراليون الأصـليون: ويقـيمون في شمـال غرب استراليا بالمنطقة ذات المناخ الموسمي، ويؤلفون أكبر جماعة بدائية حالياً.
- جماعـات المـاكو Maku: ويقطـنون في أجـزاء مـن حـوض الأمازون الداخلية وجويانا[1].
- قـبائل الأرواك Erwak والكاريـب Karib: ويعيشـون في المناطق الغابية من أمريكا الوسطى والجنوبية[2].

---

(١) فاضل الأنصاري، مرجع سابق . ص١٨٨.

(٢) محمد السيد غلاب، ١٩٩٥، مرجع سابق، ص٢٣٧ وص٢٣٩.

إن جميع هذه الجماعات تشترك ببعض المعتقدات، كما تتشابه في نمط الحياة الاجتماعية والاقتصادية وخصوصاً بين الأقزام الآسيويين والأفارقة، بحيث يظن المرء بأنهم كيان واحد يشتركون بالكثير من العادات.

ثانياً – مجتمعات حرفة الصيد:

خصائص حرفة الصيد:

تعد حرفة الصيد قديمة العهد فهي ترجع إلى العصر الحجري القديم، ولا تزال تمارسها الكثير من الجماعات البدائية وكذلك بعض الأفراد في المجتمعات المتحضرة في عصرنا الراهن. وعادة ما ترتبط حرفة الصيد بحرفة الجمع والالتقاط[1]. إلا أنها تعد أكثر تقدماً منها، نظراً لما تتطلبه من وسائل وأدوات ومهارات ومناورات لاصطياد الحيوانات وإيقاعها في الشرك. إضافة إلى التحرك المستمر والمسير الطويل للوصول إلى حيوان الصيد، نظراً لاستهلاكه على مر العصور ولبقاء الصيادين في المكان نفسه لفترة طويلة مما يقلل من عدد الحيوانات فيه. ولا يتوقف ظهور حرفة الصيد على إقليم بعينه، وإنما نلاحظ ذلك في معظم الأقاليم المناخية والنباتية المختلفة. غير أن حرفة الصيد البدائية هذه قد تختلف في نوعية الصيد وطبيعته من إقليم لآخر. فمثلاً ينتشر على ساحل كولومبيا صيادو الأسماك في حين يتوزع صيادو الثدييات البحرية في المناطق القطبية، وصيادو الرنة في شمال آسيا، وصيادو الأحياء البرية المختلفة في المناطق الأخرى. والصيادون في جميع المناطق. يحدد مجال تجوالهم ضوابط متعارف عليها بين الجماعات البدائية، حيث يحدد لكل جماعة منطقة خاصة بها تملكها، ولها حرية التصرف بما تحويه من خيرات مادية ونادراً ما يسمح للجماعة أن تمارس الصيد في منطقة جماعة أخرى. غير أن جماعات الصيد لا تعتمد اعتماداً على الصيد بل تقوم بجمع النباتات والثمار لتكمل ما ينقصها من غذاء، خصوصاً وأن الظروف الطبيعية ليست

---

(١) يسري الجوهري وناريمان درويش، ١٩٩٢، مرجع سابق ص١٨٤.

دائماً لصالح الإنسان فكثيراً ما تتعرض مناطقهم للكوارث البيئية كالجفاف الشديد أو البرد الشديد أو الحرارة المرتفعة والتي لا تودي بحياة الكثير من حيوانات الصيد.

الصيادون ونظامهم الاجتماعي: تكيفت جماعات الصيد مع الظروف البيئية، فقد عملت على تحديد غير إرادي للنسل، مثل طريقة اختيار الزوجة، وتحديد عمر المتزوج بحيث لا يقل عن ١٨ عاماً.

وهكذا نلاحظ أن الكثافة السكانية تتناسب وكفاية الموارد الطبيعية فهي تتراوح ما بين فرد إلى فردين في الكيلو متر المربع الواحد.

ولما كانت هذه الجماعات دائمة الترحال لتأمين مستلزمات حياتها فإن هذا الوضع يفرض عليها عدم تملك الأثاث أو الوسائل والأدوات الثقيلة، ومن ثم يجب التنقل دون متاع، ولابد من اصطحاب الأشياء الضرورية الخفيفة كأسلحة الصيد والقتال ومعدات البناء وكذلك أدوات الطهي والأمتعة الفردية. ولهذا فإن مجتمع الصيادين لا يستخدم الأواني الفخارية بسبب امكانية كسرها أثناء الترحال. ويتميز مجتمع الصيد بأن جميع الأفراد متساوون في الملكية والفارق بينهم هو الجنس والسن، حيث يعدان مصدر الأهمية وعليها تقدر قيمة الشخص. ولتحقيق المساواة في تقاسم الموارد الغذائية، اتفق الصيادون على اقتسام مناطق النفوذ، حيث إن لكل جماعة حدودها تتجول داخلها، ولكل شخص الحق في التجول ضمن حدود منطقة الجماعة، والحصول على نصيبه من الموارد التي توفرها منطقة الصيد. ويتم اقتسام الطعام بين أفراد الجماعة بالتساوي، عدا الرؤساء فيحضون بقسط أوفر، والملكية مشاعية على معظم الثروات باستثناء الممتلكات الفردية كالأثاث وأدوات الزينة والملابس[١].

في حرفة الصيد نلاحظ تقسيماً واضحاً للعمل بين الرجال والنساء، نظراً

---

(١) Daryll Forde, Habitat, Economy and Society, ١٩٥٢. p.٣٧١

لأن هـذه الحـرفة تتطلـب وقـتاً وابـتعاداً كبيراً عن السكان وقوة جسدية كبيرة. وهـنا كـان لابـد مـن أن ينصـرف الرجال الأقوياء لتأمين المواد الغذائية من لحوم الحـيوانات. أمـا النسـاء والكهـول والأطفـال فـيعملون بجمع الثمار والنباتات وجذورهـا الصـالحة للطعـام، إضـافة إلى الأعمال المنزلية وتربية الأطفال، وتصنيع أدوات الصـيد والأعمـال المخـتلفة. وأدى تقسـيم العمـل هذا إلى زيادة الانتاج ووفـرته نظـراً لاسـتخدام المهارات في العمل من قبل الجميع، كما يساعد على رفع مكانة المرأة.

الحياة الاقتصادية:

إن تحسـين أسـاليب الانـتاج كانـت حافزاً للإنسان على تفحص ومراقبة كل مـا يجـري حولـه، إلا أن هذا لم يرق به إلى مستوى يجعله يسيطر على الطبيعة، فبقي يعـتمد عـلى حواسـه في عملـية الصيد، فمثلاً كان من ملاحظته لحركة الأعشاب يعـرف نـوع الحـيوان الراقد فيها، ويستخدم العديد من الطرق للإجهاز عليها دون أن تكشـفه، أو تشـعر بخطـره. وهـذا حال أقزام مبوتي **Mbuti** الذين يستخدمون الشـباك في الصـيد. وكذلـك جماعات البوشمن عندما يغطون رؤوسهم بالأعشاب، أو يـرتدون جلـوداً بعـض الحـيوانات لـيموهوا عـلى الحيوانات. وبالتالي يسهل علـيهم الاقـتراب مـنها وصـيدها، أو تقليد أصوات الطيور ليتمكنوا من الاقتراب منها وصيدها[1].

جـرت العـادة في مجـتمعات الصـيد أن لا تختزن مواد غذائية فائضة، كما هو الحـال عـند المجـتمعات المسـتقرة كالزراعية مثلاً، ذلك لأن الجميع في حركة دائمة بحـثاً عـن الصـيد أو الطعـام، وبالتالي فإن بيتهم تعد مخزناً للطعام، باستثناء بعض الجماعـات كالاسـتراليين الأصـليين الذيـن يدأبـون عـلى الاحتفاظ بالفائض من اللحوم بدفنها في الرمال لاستخدامها وقت الحاجة.

---

(١) J.w. page, from Hunter to Husband man, ١٩٣٩, p.٢٤

تفرض عادات مجتمعات الصيد المتمثلة بتوزيع الطعام بالتساوي بين الأفراد على عدم الرغبة في اكتساب ثروة أو مركز، لأن الثروة في نظرهم تعدُّ علامة أكثر من كونها صفة مطلوبة. في هذا المجتمع تدأب العائلات على التحرك بسرعة بين المجموعات لتستقر في واحدة منها قد يكون بينها وبينهم صلة قربى، وهذا أسهم في دمج المجموعات، وسهل للجميع الوصول إلى الموارد، وأرسى قواعد المساواة بينهم.

الحياة الدينية والمعتقدات:

بالنظر إلى ظروف المعيشة التي تحياها هذه المجتمعات، كونها تعتمد على الحيوان في غذائها. فقد عدت الحيوان هو المعيل للإنسان، لأنه يقدم لحمة له ليبقى حياً، ونتيجة لهذا التصور أصبحت الكثير من الجماعات تحترم، وتقدس بعض أنواع الحيوانات[1]. لدرجة اعتقدت أن هناك روابط وثيقة بين الإنسان والحيوان، وظهر ما يسمى "بمذهب الطوطمية" حيث أصبحت بعض الجماعات تتخذ من صورة الحيوان شعاراً لها، كونه باعتقادهم يساعدهم على تحقيق ما يريدونه في الحياة، من تأمين لموارد الصيد والوقاية من الأخطار المختلفة، وممارسة طقوسهم الدينية هذه كانت تتم من خلال توجيهات بعض السحرة والمشعوذين الذين يمارسون السحر الطبي أيضاً كمحاولة لشفاء الناس من بعض الأمراض. وهكذا تكرست المعتقدات الدينية وطقوسها لدى مجتمعات الصيادين.

الجماعات المعتمدة على حرفة الصيد توزعها في العالم:

تتوزع جماعات الصيادين في أقاليم مختلفة ومتعددة، لكنها أقل مما كانت عليه في الفترات السابقة، حيث تقلصت المساحة التي تشغلها مجتمعات الصيادين، لأسباب عديدة منها التقدم الحضاري ومحاولة استغلال البيئة

---

(١) ابراهيم أحمد رزقانه، العائلة البشرية، القاهرة، ١٩٥٠، ص٤٦-٤٨

وإعمارها من قبل الدول، إضافة لإدخال أسلحة الصيد المتطورة والتي كان لها دور في القضاء على قسم كبير من الحيوان بحيث أصبحت بيئات الصيد لا تسد حاجة قاطنها. وأهم جماعات الصيد[1] التي لا تزال تمارس هذه الحرفة في أماكن مختلفة (مصور رقم) هي:

١-في القارة الأفريقية: هناك قبائل الولوف والسرر المنتشرة في المنطقة الساحلية الممتدة بين نهري السنغال وجامبيا. والزاندي في جنوب غرب السودان على طول حدود الكونغو ويمارسون الزراعة البدائية أيضاً إلى جانب الصيد، وهناك الهوتنتوت في الجزء الجنوبي الغربي من أفريقيا يضاف إليهم جماعات تمارس حرفة الصيد إلى جانب الجمع والالتقاط كالينجرلو والبوشمن.

٢-في أمريكا الوسطى والجنوبية: وأهم الجماعات هنود سان بلاس، وينتشرون حول البحر الكاريبي، ويمارسون زراعة الذرة أيضاً إلى جانب الصيد.

٣-في أمريكا الشمالية: هناك جماعات من الهنود ينتشرون في الغابات الصنوبرية شمالاً وعلى ساحل المحيط الهادي من آلاسكا حتى شمال كاليفورنيا وأهمها هنود الساليش والكواكيوتل ويهتمون بصيد سمك السلمون.

وهناك جماعة هنود البايوت والبلاكفوت وصيادو الجنوب الشرقي لقبائل الموهيجان والسيروكي الهندية، وهؤلاء يهتمون بصيد ثور البيسون، والأسماك، والحيوانات الأخرى إلى جانب الزراعة البدائية.

٤-في أوراسيا الشمالية: تنتشر جماعة اللاب **Lapp** في النطاق الشمالي لأوروبا وخصوصاً المرتفعات الغابية في السويد، وفي مقاطعات النرويج الساحلية، وفي اقليم التنورا في شمال فنلنده وشبه جزيرة كولا. وينقسمون إلى صيادي أسماك، وهم المقيمون على طول السواحل والأنهار، وإلى صيادي حيوانات الفراء ورعاة الرنة في الغابات والجبال.

---

(١) فاضل الأنصاري، مرجع سابق ص ٢٠٢-٢٠٧

يضاف إليهم جماعة الأوستياك Ostiak ، والبيريانس Buryates في إقليم بحيرة بيكال، والتنجوس Tingos، وجماعات الساموئيد Samoyede في منطقة التندرا غرب سيبيريا بين نهر ينسي ومرتفعات الأورال.

٥-الأسكيمو: وينتشرون على السواحل الشمالية لأمريكا الشمالية، وفي الأرخبيل القطبي وجزيرة جرينلند والطرف الشمالي الشرقي لسيبيريا.

ثالثاً-مجتمعات حرفة الرعي:

وهي نمط في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وتقوم على رعي الحيوانات التي استأنسها الإنسان عبر التاريخ، للإستفادة من لحمها ولبنها وبيضها كالأبقار والماعز والأغنام والإبل والخنزير والرنة والأرنب والطيور، وكذلك ليستخدم جلودها وصوفها وشعرها في صنع ملابسه وخيامه وأشياء أخرى، كما استأنس الحيوانات لمساعدته في أعماله اليومية المجهدة، كحيوانات الجر والركوب مثل الخيل والبغال والحمير وغيرها[1]. واستأنس بعض الحيوانات لمساعدة في الصيد والتغلب على الحيوانات المتطفلة كالكلاب والقطط. وعلى الرغم من النجاح الكبير للإنسان في استئناس الكثير من الحيوانات إلا أنه أخفق في استئناس معظمها.

العوامل التي دفعت بالإنسان إلى استئناس الحيوان:

ولدت حرفة الرعي نتيجة لعاملين رئيسيين هما:

١-العوامل الطبيعية: كالتغيرات المناخية التي طرأت على سطح الأرض وأدت إلى جفاف الكثير من المناطق وتصحرها، وأدى هذا إلى انتقال الحيوانات إلى المناطق الغابية والعشبية الغنية بمياهها، الأمر الذي دفع بالإنسان إلى الإسراع

---

(١) Burkitti, M.C. Our Early Ancestess, Cambridge,١٩٢٩. pp٥٦-٦٧

في استئناس الكثير من الحيوانات وتربيتها للمحافظة على بقاء جنسه، وبتأمين الغذاء والكساء والمتاع منها.

٢-عوامل بشرية: وتتمثل بتقدم ثقافة الإنسان وحاجته إلى الغذاء الدائم والوفير وخصوصاً أنه لمس حين كان يعتمد على الصيد أن الكثير من الحيوانات في طريقها إلى التناقص، مما يخل في أمنه الغذائي.

نتائج عملية استئناس الحيوان:

أسهمت عملية استئناس الحيوان وتربيته في سد حاجة الإنسان من لحوم الحيوانات التي كان يطاردها وشعورها وجلودها، الأمر الذي انعكس على حياته الاقتصادية والاجتماعية، فظهرت الحضارة الرعوية التي قادت إلى قيام حضارة زراعية تعتمد على الحيوان في استغلال الوسط الطبيعي، ووفرت الكثير من الجهد على الإنسان، وزادت من إنتاجه أيضاً.

ومن الناحية الاجتماعية فقد أدت العلاقة ما بين الإنسان والحيوان إلى تماسك الجماعات البشرية، حيث ارتبط الناس بالأسرة والعشيرة والقبيلة نظراً لارتباط الجميع بحيوان واحد اعتمدوا عليه في حياتهم الاجتماعية والدينية، وعدوه رمزاً لهم، وطوطماً يقدسونه، فظهر النظام الطوطمي المتمثل بتقديس الحيوان وذلك بإقامة الطقوس والحفلات الدينية لأجله، وسن المحرمات فأصبحت بعض الجماعات تؤمن بتناسخ الأرواح بين الإنسان والحيوان الرمز، وبين الإنسان والإنسان، فروح الشرير تنتقل إلى جسد أفعى أو خنزير، وروح الصالح تتحول إلى جسد إنسان أو طير وهكذا[1].

---

(١) J.G.Frazer, the Golden Bough (Aridged Edition) vol. II, ١٩٥٧.p٩٠٤.

خصائص حرفة الرعي:

يتميز الرعاة بحركتهم المستمرة طوال العام، وهذا ما تفرضه عليهم عوامل جغرافية مختلفة. وتأخذ حركتهم هذه اتجاهات مختلفة تبعاً للفصول وذلك بحثاً عن الكلأ والماء. فهم يتحركون إلى الجنوب أو إلى الشمال، وراء التهطال، كما يتحركون ما بين الجبل والسهل والوادي وقد يخطر للرعاة أن يهاجموا المناطق الزراعية الغنية المجاورة إذا سنحت الفرصة القيام بذلك كالغزوات التاريخية للشعوب السامية والمغول والتتار.

ونظراً لطبيعة حياة الرعاة المتمثلة بالترحال الدائم فقد انعكس هذا على جوانب الحياة الاقتصادية عندهم، فهم لا يقتنون إلا الأشياء الضرورية سهلة الحمل أثناء التنقل. أما بالنسبة لطعامهم وسكنهم ولباسهم فهو بسيط.

ورأسمال الرعاة وعماد حياتهم هو الحيوان لأنه يزودهم بالعناصر الأساسية لقيام مساكنهم ولباسهم وطعامهم، وبما يحتاجون إليه من أشياء أخرى ضرورية لحياتهم إذا ما تبادلوا الحيوان ومنتجاته بالأشياء المرغوبة.

يتمتع زعيم الرعاة بنفوذ كبير عند معظم المجتمعات الرعوية فهو يدير أمور الجماعة نظراً لصفاته الشخصية المتمثلة بالشجاعة والمهارة في العمل والحكمة في إدارة شؤون الجماعة ويجب أن يكون الأكبر سناً والأكثر تجارباً وحنكة كما أنه من أكثر أفراد القبيلة ثراءً وأولاداً كي يتمكن من فرض الاحترام على الجميع، ولا تنتقل زعامة الجماعة بالوراثة وإنما بناء على رأي الجماعة.

وتتطلب ظروف حياة الرعاة المتمثلة بالتجوال الدائم ضرورة حماية قطعانهم وأملاكهم، لذا فهم متمرسون على طرق القتال والفروسية فهم على استعداد دائم وكأنهم جيش في حالة استنفار تحسباً لغارات الآخرين الأمر الذي انعكس على طباعهم وأسلوب حياتهم[1].

---

(١) Daryll Forde, ١٩٥٢, opt. Eit.pp.٣٩٤-٤٠١

يسود النظام القبلي بين مجتمعات الرعاة ولكل قبيلة في هذا المجتمع استقلاليتها في إدارة حياتها العامة واليومية وفي الملكية وكثيراً ما تعد جميع قطعان حيوانات القبلية والآبار ووسائل الإنتاج والأراضي والمساكن ملكاً لجميع أفرادها إلا أن هذا لا يمنع من الملكية الفردية في الحيوانات أو المتاع.

مناطق توزع الرعاة:

تتوزع مناطق الرعي البدائية الحالية في العالم في مناطق كثيرة تختلف في ظروفها الجغرافية وأحياناً تكون متصلة بتوزيع النباتات الطبيعية الملائمة لحيوان الرعي فالحيوانات العاشبة ترعى في إقليم الحشائش سواء حشائش "السافانا" في المناطق الحارة أم حشائش "الاستبس" في المناطق المعتدلة الباردة. وبما أن نوع الحيوان يختلف من إقليم لآخر وفقاً لطبيعة الأعشاب ووفرتها، تتباين أنواع الرعي مما يؤثر بدوره في كل من طبيعة الإنتاج، وتقسيم العمل، والنظام الاجتماعي، أو القيم دون أي تغيير في القيم أو في الصفات العامة لمجتمعات الرعي البدائية. وإذ أبعدنا مناطق الرعي التجاري في أستراليا ونيوزلنده والأمريكيتين، وأجزاء من أوروبا، نجد أن مناطق الرعي البدائي تتوزع حسب تصنيف نوع حيوان الرعي إلى مناطق رعاة الأبقار، ومناطق رعاة الإبل، ومناطق رعاة الخيل، ومناطق رعاة الأغنام والماعز ومناطق الرنة والشكل رقم (٢) يوضح ذلك.

رابعاً ـ مجتمعات الزراعة البدائية:

ظهرت الزراعة منذ أكثر من ٥٠٠٠ عام قبل الميلاد والدليل على ذلك، هو ظهور ما يثبت زراعة نوع قديم من القمح في حضارة البراري التي ترجع إلى الألف الخامسة قبل الميلاد، وذلك بعد أن عرفت الإنسانية استئناس النباتات، وجمع بذورها في كل من مصر والحبشة وآسيا الصغرى، ومناطق الأنهار الكبرى في الهند والصين، وفي مناطق شرقي حوض البحر المتوسط كبلاد الشام

والـــرافدين، ومـــنها انتقلـــت إلى بـــلاد الغـــرب كفرنسا وإسبانيا وذلك بعد الألف الـــرابعة قـــبل المـــيلاد، كمـــا انتقلـــت الزراعة عن طريق شمال أفريقية إلى الساحل الغربي لأوروبا والجزر البريطانية، ومن أواسط أوروبا إلى شمالها.

وقـــد انتقلـــت الـــزراعة إلى مـــناطق الغابـــات الواسعة في أوراسيا بعد قطعها وذلـــك عـــلى أيـــدي مـــزارعي الفولجا الأعلى، والأراضي المرتفعة المحيطة بها الذين أسســـوا حضـــارة فاتـــيا نوفـــو **Fatyanovo culture** ، وتوســـعوا حـــتى أواسط أوراســـيا بســـبب ضـــغط الشـــعوب البوتنـــية وبذلـــك تميزت تلك الفترة باستقرار الإنســـان المرتـــبط بـــتأمين مصـــدر طعامه الأكبر ثباتاً وانتظاماً مما كان في فترة الجمع والالتقاط والصيد[1].

وبظهـــور الـــزراعة اتســـع مجـــال المعـــرفة عـــند الإنسان، واكتسب عادات وتجـــارب جديـــدة في العمـــل، وأخـــذ يصـــنع أدوات جديدة تتناسب والحرفة التي يمارســـها ممـــا أثـــر في تقويـــة الروابط الاقتصادية ومنها الإنتاجية وخصوصاً ما يتعلق بإدارة نشاط القبيلة أو تطور الفنون والتصورات الدينية وغيرها.

وفي عصـــرنا الحـــالي اســـتمرت الـــزراعة البدائـــية كحـــرفة أساســـية لبعض الجماعـــات البدائـــية المـــنعزلة في مـــناطق عـــدة من العالم لكنها على الأغلب قليلة الخصـــوبة حيـــث يجـــد الإنســـان نفســـه مضـــطراً لتبديلها واستخدام أرض أخرى وهكذا.

ويقـــوم الإنســـان عـــادة في الأرض المختـــارة للـــزراعة بقطع الأشجار وبحرق الجـــذور والهشـــيم، وبعـــد هـــذا يحفـــر الأرضن ويزرعها عدة أعوام ثم يهجرها بعد إجدابهـــا، وقـــد يضـــطر إلى تـــرك الأرض سنين عديدة حتى تصبح غابة مرة أخرى ثم لـــيعود إلـــيها مـــن جديـــد. ولهذا يسمى هذا النظام الزراعي البدائي بالزراعة المتنقلة أو نظـــام قطـــع الغابـــات في بعـــض الأحـــيان. أما الأداة الرئيسة المستخدمة في هذا

---

(١) فؤاد محمد الصقار، ومحمد رشيد الفيل، ١٩٨٠، مرجع سابق، ص١٦٠ــ١٦١.

النمط من الزراعة هي العصا الحادة المعقوفة لحفر بعض الحفر الصغيرة دون أي نظام لوضع الجذور والبذور التي تنمو في أرض الغابة المجتثة[1]. وهذه الطريقة لا تعرف حرث الأرض، وبالتالي عدم استخدام الحيوان للجر أو استعمال السماد، ويفضل البدائيون الأرض المنبسطة، ولكنهم قد يضطرون لتركها، والصعود إلى المرتفعات والتلال تحت ضغط الشعوب الأرقى والأقوى منهم، فيقومون بزراعة السفوح بدلاً من الغابة المستوية.

وتتميز الجماعات التي تمارس هذه الحرفة بالملكية الجماعية لأدوات ووسائل الإنتاج، مما يتناسب مع الطور البدائي للقوى المنتجة في المجتمع، ولكل فرد الحق في زراعة أية مساحة من الأرض يريدها ومجلس القرية أو زعيم القبيلة هو الذي يحدد للأشخاص زراعة حقولهم. والقاعدة العامة أن الأرض لمن ينظفها، ويحرق أحراجها، ويزرعها، وما أن تهجر الأرض حتى يزول كل حق لمن كان يزرعها، ويعود حق ملكيتها للمجتمع بأكمله إذا عاد إليها ما عدا الأرض المزروعة بالأشجار فتبقى لمن زرعها.

وانعكس نظام الاستثمار هذا على طبيعة العلاقات الاجتماعية فظهر نوع من التمايز في العمل والترتيب الطبقي، على الرغم من الجماعية في الإنتاج بالنسبة للطبقة الأكثر نفوذاً.

أهم الزراعات التي يمارسها البدائيون، وهي النباتات الدرنية كالفارو، والكسافا، واليام، كما يزرعون الموز وقصب السكر وجوز النخيل.

والبدائيون قليلاً ما يقبلون على زراعة الحبوب نظراً للمراحل العديدة التي يجب أن تمر بها قبل أن تصبح صالحة للأكل، ومع هذا فقد قامت الشعوب البدائية في جنوب شرق آسيا بزراعة الذرة الرفيعة التي تحتاج إلى فصل إنبات قصير من شهرين إلى ثلاثة أشهر فقط.

---

(١)mogey. J. the study of geograoly, lonaton, ١٩٥٠, p.٧٥.

غير أن للزراعة البدائية نتائج سلبية على البيئة، لأن إضرام النيران يؤدي إلى دمار جزء كبير من الغابة يزيد كثيراً عن الجزء الذي يرغبون بزراعته، إضافة إلى أن فرصة نمو الغابة مرة ثانية تبقى ضئيلة بسبب انجراف التربة ودوام الحرق، مما يقضي على المظهر الطبيعي ويغيره بحيث تتراجع مساحات كبيرة من الغطاء الغابي. وبالنتيجة سوف تفقد التربة جزءاً كبيراً من خصوبتها بسبب زوال الأشجار ونمو الأعشاب فيها، وبالتالي يخسر البدائي حرفته، ويتحول إلى صياد أو جامع للطعام.

تتوزع مناطق الزراعة البدائية حالياً في البيئات الاستوائية، ففي أفريقيا مثلاً يمارسها الأقزام كقبائل الكونغو **Kongo** ، والمانجو **Mango** ، واللوبا **Luba** ، والأزاندي الذين ينتشرون في الكونغو وشمال كاتنجا، وحول حوض نهر كاساي الأعلى. وفي أمريكا يقوم الهنود بزراعة الذرة بالطرق البدائية في هضاب المكسيك وأمريكا الوسطى وعلى سواحل جزر البحر الكاريبي. وكذلك الهنود من سكان أمريكا الوسطى والجنوبية الذين يقومون بزراعة أراضي الغابات المدارية المطيرة في قارة آسيا تتوزع الجماعات البدائية في مناطق الغابة المطيرة وخصوصاً جنوب شرقي القارة[1]. والمصور رقم (٢) يبين ذلك.

---

(١) عبد الفتاح محمد وهيبة، جغرافية الإنسان، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠.

خاتمة:

مـــرت المجـــتمعات البشـــرية بكثير من التطورات الثقافية نتيجة لتفاعلها الطويل مـــع الطبـــيعة ومـــع بعضـــها وكذلـــك بســـبب ما اكتسبته من خبرات متميزة عبر الـــتاريخ، الأمـــر الـــذي نجـــم عـــنه الميل نحو التحضر والاختلاط العرقي واللغوي. وهـــذا الوضـــع بـــدأت الحضـــارات البدائية في الاختفاء التدريجي، وتغير قسم منها تغـــيراً أساســـياً نتـــيجة للاقـــتراح الـــثقافي والحضـــاري الذي لحق بها من المجتمعات المتطورة حضارياً.

والمجـــتمعات البدائـــية في عصـــرنا الحـــالي غالباً ما تعيش في حالة شبه عزلة عن الأقالـــيم الحضـــارية القريـــبة مـــنها، وتعتمد في حياتها على الجمع والالتقاط والصيد البري والبحري والرعي المتنقل والزراعة البدائية.

أمـــا أمـــاكن تـــوزع هـــذه المجـــتمعات، فهي المناطق المنعزلة ذات البيئة المناخية القاســـية، كالمـــناطق الـــباردة والصحراوية الحارة، وفي المناطق الغابية النائية من الغابة المدارية المطيرة.

ويخشـــى عـــلى الجماعـــات البدائـــية مـــن الانقـــراض نتيجة لوصول الإنسان المتحضـــر إلـــيها، وتعاملـــه معها في الغذاء وغيره، مما أدى إلى انتقال أمراض الإنسان الأبـــيض وغـــيره إلـــيها أو بسبب نقص الموارد الغذائية في بيئاتها وتعرضها للكثير من المجاعـــات والأزمـــات الغذائـــية. وسبب ثالث هو مطاردة الإنسان الأبيض وغيره لها وقـــتله الكـــثير مـــن هـــذه الجماعـــات، مـــثال ذلـــك مـــا حدث للهنود الحمر في الأمريكيتين وإبان الكشوف الجغرافية وما بعدها.

في هـــذه المجـــتمعات غالـــباً مـــا تـــترافق عملـــية جمع القوت مع عملية صيد الحـــيوان، لضـــرورة توفـــير الغـــذاء في بيئة قليلة الموارد ففي حرفة الجمع والالتقاط يحصـــل الإنســـان عـــلى غذائـــه عن طريق جمع النباتات والأوراق والتقاط الدرنات

والجذور وبعض أنواع الديدان والحشرات والضفادع والأسماك أحياناً. تتوزع جماعات حرفة الجمع والالتقاط في المناطق النائية كالغابات الاستوائية من حوضي الكونغو والأمازون وفي جزر المحيط الهادي.

وعند هذه الجماعات نوع من تقسيم العمل بين الجنسين، حيث يقوم الرجال بالعمل بعيداً عن أماكن السكن، في حين تقوم النساء بجمع النباتات وتربية الأطفال وإعداد الطعام أما أدوات إنتاجهم فهي بسيطة وبدائية بالنسبة لجماعات حرفة الرعي فتنتشر في المناطق القطبية، وفي أقاليم المراعي الباردة وفي الصحاري الحارة والمناطق شبه الصحراوية. تتميز حياتهم الاقتصادية والاجتماعية بالبساطة فلا يملكون إلا الضروري في حياتهم والممكن حمله أثناء الترحال. وسكنهم ولباسهم بسيط والحيوان عماد حياتهم لأن الرعاة يحصلون على معظم حاجاتهم منه. يعيشون حياة قبلية منظمة وعلى رأس كل قبيلة زعيم يرجعون إليه في حل مشاكلهم جميعاً. الناس هناك شراكة في الماء والمرعى والحيوان.

أما الزراعة البدائية فتنتشر في معظم القارات عدا أوروبا وخصوصاً في المناطق الاستوائية والمدارية المطيرة، وفي الجزر النائية. وتقوم على حرق الأشجار والأعشاب والجذور إلا أن الجماعات لا تستقر في مكان محدد بل تنتقل بسبب قلة خصوبة التربة وانجرافها أحياناً. وغالباً ما يزرعون النباتات الدرنية وبعض الأنواع من الأشجار المثمرة. ونظام الاستثمار عندهم له طبيعة خاصة انعكست على العلاقات الاجتماعية حيث ظهرت الطبقات إلى جانب التمايز في العمل.

المجتمعات الزراعية المتطورة

الزراعة هي إحدى الحرف الكبرى التي يمارسها الإنسان في الأقاليم الجغرافية المختلفة، وقد عرفها الإنسان منذ وقت مبكر في البيئات الفيضية والوفيرة الأمطار اعتماداً على التربة الخصبة ومياه الأنهار الوفيرة مثل وادي النيل ودجلة والفرات والسند.

تختلف أنماط الزراعة اختلافاً كبيراً من بيئة لأخرى. بل وفي داخل البيئة الجغرافية الواحدة. ويؤثر هذا الاختلاف في أسلوب الزراعة على المجتمع، ويتأثر بالظروف الطبيعية والبشرية أيضاً.

ويقسم البعض الزراعة على هذا الأساس إلى أنماط مختلفة منها الزراعة البدائية والزراعة المتقدمة والتي نحن بصدد معالجتها الآن.

تنقسم الزراعة المتقدمة[1] إلى الزراعة الكثيفة **Culture Intensive**، والزراعة الواسعة **Culture Extensive** ، والزراعة العلمية التجارية **Planification agricole** والزراعة الجافة **Culture Seche** التي تقوم على مياه الري ثم الزراعة المختلطة **Culture Melangee** والتي تجمع بين الزراعة وتربية الحيوان.

١ـ الزراعة الكثيفة: وتنتشر في الأقاليم ذات التربة الجيدة في دلتاوات الأنهار والسهول الفيضية الغنية التي تغمرها المياه، وكذلك في الأقاليم ذات الظروف المناخية الأكثر ملاءمة للإنتاج وغالباً ما ترتبط بها ظاهرة ارتفاع الكثافة السكانية حيث يزداد الضغط على موارد الأرض، ويبدو ذلك بوضوح في المناطق شديدة الازدحام بالسكان كجنوب شرق آسيا، الهند ومصر وهولندا وبلجيكا. والملكيات هنا تتصف بصغرها نتيجة للكثافة العالية للسكان التي تبلغ في المتوسط أضعاف كثافتهم في فرنسا من ٨ إلى ١٦ مرة. ففي المكان الذي

---

(١) محمد السيد غلاب، الجغرافية العامة الطبيعية والبشرية، مرجع سابق ص٢٥٩.

ترتفع فيه الكثافة ويزداد اعتماد السكان على الزراعة تتفتت الملكية تفتتاً شديداً بحيث يعمل في الفدان الواحد فلاحان أو ثلاثة في المتوسط. وقد أطلق "بيير جورج" على هذه الحالة الاجتماعية تعبير ملكية الكادحين العاملين proletaires proprietaires نظراً للفقر الشديد الذي يدقع بالفلاحين، وتزداد المشكلة أحياناً حينما تظهر ملكية كبيرة كما هو في الهند.

وحسب تقديرات بيير جورج[1] فالوحدة الزراعية في الشرق الأقصى تقدر بـ ١,٢٤ هيكتار في اليابان و١,١٣ هيكتار في كوريا، و ١,٥ هيكتار في الصين. أما متوسط ما يقوم الفلاح بزراعته فيختلف من بلد لآخر فهو ٢٥ آراً في كوريا ٢٦ آراً في اليابان ٤٥ آراً في الصين (أي مساحة تتراوح بين ٠,٦٢٥ و١,٢٥ فدان)[2] فالحياة في هذا النمط من الزراعة تقوم على الاستقرار، ويتألف المجتمع وخصوصاً في الشرق الأقصى من صغار الفلاحين، أي أسر عديدة تعمل بزراعة الأرض مهما بلغ حجمها والفلاح غالباً ما يقع ضحية الرياح الموسمية العنيفة التي تجلب الأمطار الغزيرة فتفيض الأنهار وتغرق الحقول ورغم ذلك فالفلاح في هذه المناطق شديد التعلق بالأرض، ويقدسها، ويتفانى في خدمتها ومعه أسرته. المحصول الرئيسي هناك هو الأرز. والأدوات المستخدمة بسيطة إلى جانب الحيوانات. والأرض تزرع مرتين أو ثلاث مرات ولا يترك جزءاً منها سنة كاملة دون زراعة، ويستهلك معظم المحصول محلياً.

٢ـ الزراعة الواسعة: وترتبط بالمناطق القليلة السكان غالباً، حيث يزداد الاعتماد على الآلات الزراعية المختلفة بدلاً من الأيدي العاملة، وتتصف في الملكيات الزراعية الكبيرة. وقد تكون ملكاً للشركات أو أصحاب رؤوس الأموال الضخمة، وأبرز سماتها الإنتاجية أنها تتخصص في زراعة محصول معين تبعاً

---

(١)P.Gourov, le terre et l. homme en extreme orient paris, A. colin.

(٢) الهيكتار يساوي ١٠,٠٠٠ متر مربع أي ٢,٤٧ فدان) والآر ١٠٠ متر مربع.

لظروف الإنتاج الطبيعية. ويظهر هذا النمط في العالم الجديد كالأمريكيتين وأستراليا ونيوزلنده وفي الأراضي الزراعية شرق البرازيل ومنطقة السهول الخصبة في الأرجنتين[1]. وفي أوروبا يلاحظ في أوكرانيا وبلغاريا ويوغسلافيا وألمانيا وإقليم بروسيا الشرقية. وفي أفريقيا يظهر في إقليم الفلد في اتحاد جنوب أفريقية.

ونظراً لاعتماد الزراعة الواسعة على استخدام المكننة الزراعية، ولقلة عدد السكان فإنتاج الفرد فيها ودخله مرتفع بينما غلة الفدان فيها منخفضة مقارنة بالزراعة الكثيفة. أضف إلى ذلك أن مستوى المعيشة مرتفع بسبب وفرة الإنتاج الذي يدخل التجارة العالمية.

يتميز هذا النمط من الزراعة باستخدام العمليات الحديثة في الزراعة مثل وسائل الري الصناعي، وصنع المدرجات على المناطق المرتفعة واستنباط أنواع جديدة من النباتات واستخدام المبيدات الحشرية والسماد، إضافة إلى استخدام الآلات الزراعية والتوسع في مد طرق المواصلات لربط المناطق الزراعية بالعالم الخارجي. تزرع المزارع بالقمح والشعير والقطن، ومرة واحدة في العام.

تتميز مجتمعات الزراعة الواسعة بأنها تنتشر في محلات عمرانية متباعدة عن بعضها بحيث تظهر نمطاً عمرانياً مختلف تمام الاختلاف عن النمط العمراني الموجود في مناطق الزراعة الكثيفة وذلك من حيث التركيب الوظيفي والكثافة السكانية.

٣ـ الزراعة العلمية التجارية: تنتشر في المناطق المدارية المطيرة، فالاستعمار الأوروبي لجزر الهند الغربية ولمناطق أفريقية من حوض الكونغو وشرق أفريقيا، ولأجزاء من جنوب شرق آسيا كالملايو وأندونيسيا والفيلبين، ومناطق من أمريكا الوسطى وخصوصاً سواحلها عمل على قيام هذه الزراعة.

---

(١) محمد فائح عقيل وفؤاد الصقار، جغرافية الموارد والإنتاج، الإسكندرية، ١٩٦٥.

يعمل بهذا النمط من الزراعة السكان المحليون ويوجههم خبراء متخصصون يطبقون الوسائل العلمية الحديثة، حيث تزرع غلة نقدية معينة يحتاجها العالم وخصوصاً الدول الصناعية كالشاي وقصب السكر والموز والاناناس والمطاط والكاكاو ونخيل جوز الهند وزيت النخيل والجوت، وجميعها ذات أسعار مرتفعة ومطلوبة في السوق التجارية العالمية[1]:

هذه الزراعة تتطلب رؤوس أموال كبيرة، وطرق مواصلات سريعة متطورة، وساحات واسعة من الأراضي. ومما ساعد على انتشارها في المناطق المدارية المطيرة ملاءمة الظروف المناخية للمحاصيل التجارية وسهولة تسويقها نظراً للطلب الشديد عليها.

٤ـ الزراعة المختلطة: وتجمع بين الزراعة وتربية الحيوان بقصد إدخال الإنتاج في التجارة الدولية بعد سد الحاجة المحلية. يسود هذا النمط من الزراعة في غرب أوروبا ووسطها، وفي شرق الولايات المتحدة، وهناك يتبع المزارعون نظام الدورات الزراعية التي تضم الحبوب والمحاصيل الجذرية والخضار إلى جانب محاصيل علف الحيوانات. أضف إلى ذلك أن معظم دول حوض البحر المتوسط بما فيها الأقطار العربية أخذت بهذا النمط من الزراعة.

عموماً يمكن القول إن المجتمعات الزراعية الراقية استطاعت بفضل التقدم الحضاري للإنسان، والنمو السكاني الكبير في تحويل مساحات شاسعة من الغابات والمراعي إلى أراضي زراعية، وكان بالنتيجة أن توسعت على حساب المجتمعات البدائية من رعاة وصيادين وأسهمت في تغيير المظهر النباتي الطبيعي لأجزاء من العالم، وبرز مظهر من الرفاهية لدى عدد من المجتمعات الزراعية في أقاليم مختلفة من العالم وخصوصاً تلك التي تأخذ بمنجزات التطور العلمي، وتطبقها في ميدان الزراعة. واصبح النظام الاجتماعي في تلك المجتمعات يلعب

---

(١)Carlson, I,. Geography & World palltics englewood cliffes ١٩٦٢ p:٥٧.

دوراً هامـاً في تطويـر الـزراعة إذ يجدد العلاقات التي تربط بين المنتخبين أثناء عملية الإنتاج وتوزيعه[1].

وفي المجـتمعات الزراعـية الراقـية نلاحـظ إقطاعيين يملكون أجزاء كبيرة من الأراضـي الزراعـية، ويفرضـون العلاقـات الإنتاجـية، ويسـيطرون على صناعة المنتجات الزراعية وتجارتها، ويفرضون الأسعار التي يرغبونها.

بالمقـابل هـناك مجـتمعات مـا زال الـنظام الاجتماعي السائد هو القائم على الإنـتاج الاشـتراكي حيـث تـتدخل الحكومات في كثير من الأحيان بتحديد نوع المحاصـيل الزراعـية وتوجـه الفلاح وترشده إلى الاهتمام بالأرض وتمده بالمساعدات كالبذار والآلات والأسمدة والقروض وغيرها.

عمومـاً تمـارس المجـتمعات الزراعية أنماطاً عديدة من الزراعة تختلف من مكان إلى آخـر في العـالم، وذلـك تبعاً لدرجة تطور الإنسان ومقدرته على استغلال البيئة المحـيطة بـه، إضـافة إلى كـثافاته المتبايـنة عـلى سطح الأرض ومساحة الأراضي الصـالحة للـزراعة، وتـبعاً للظـروف الطبيعـية القائمة في الأقاليم المختلفة. يتميز المجـتمع الـزراعي عمومـاً بالـتفكير في المسـتقبل، وفي خـزن المحصول من فصل الحصـاد إلى فصـل الـزراعة، ويسـتقر المجتمع الزراعي في قرى يجمعها الريف. وفي القـرى الزراعـية ظهـرت التنظيمات الاجتماعية، وظهرت الطبقات حيث استطاع الأقويـاء اسـتحواذ مسـاحات كبيرة من الأرض في حين سخّروا الضعفاء لزراعتها، وأصـبح قدرهـم أن يتسـلطوا علـيهم فظهـرت الزعامة والرئاسة وبتطور العلوم تطـورت أنمـاط معيشـة الإنسـان وصعد في سلم التطور الحضاري. والمصور رقم (٣) يوضح المجتمعات الزراعية في أماكن انتشارها المختلفة.

---

(١) johes, c. & darkenwald g, ecchomic geography n.y, ١٩٦٥, p:٢٤٧.

المصور رقم (٣)

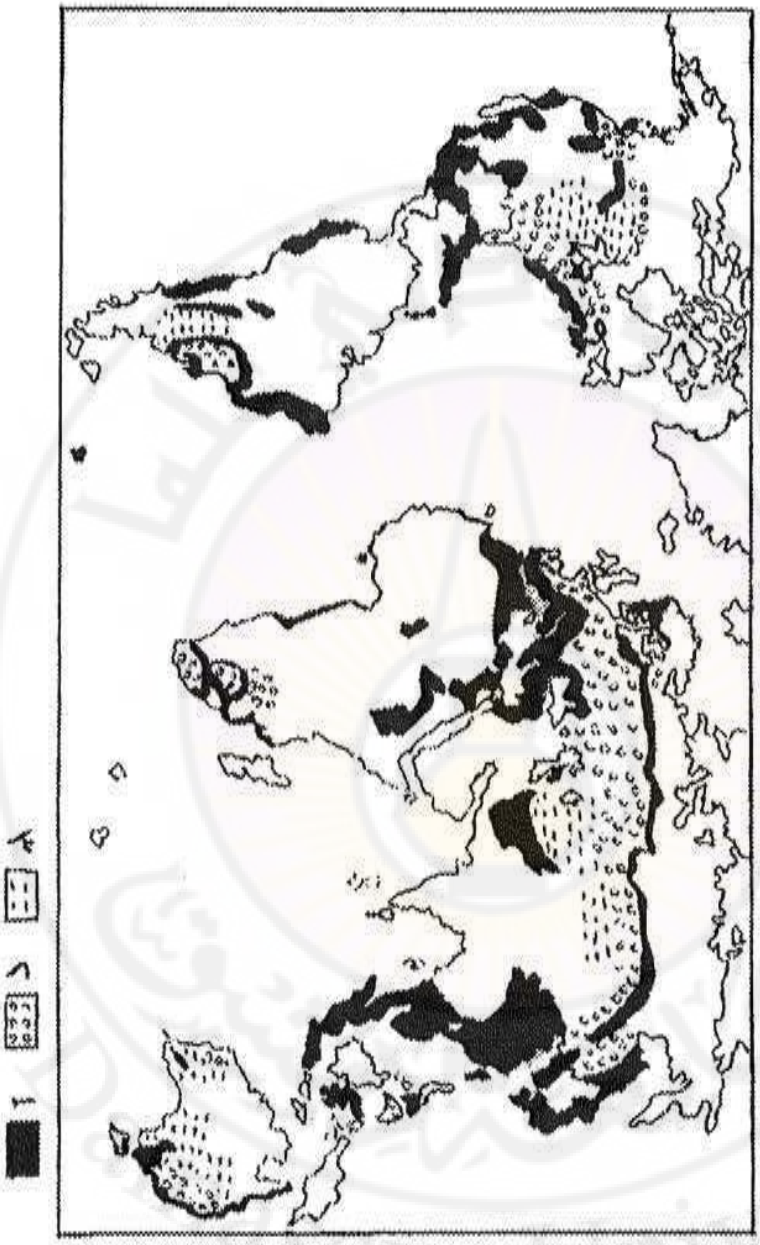

أنماط المجتمعات الزراعية الرافية في العالم

١ – زراعة كثيفة ٢ – زراعة مختلطة ٣– زراعة واسعة

أولاً: المجتمعات الزراعية الأوروبية في حوض البحر المتوسط:

حظيت مجتمعات حوض البحر المتوسط في الفترات التاريخية، بمكانة متميزة على المستوى الحضاري. فقد قامت فيه أزهى الحضارات العالمية وأكثرها تقدماً وبعد التغيرات المناخية وزوال الجليد عن أوروبا، انتقلت الحضارة إلى بلدان غرب أوروبا، حيث قامت الثورة الزراعية أولاً ثم الصناعية هناك. أما السكان الحاليون لحوض البحر المتوسط فلم يأخذوا بأساليب التطور الزراعي والصناعي الذي حصل في شمال غرب أوروبا وأمريكا الشمالية واليابان بسبب نقص التنمية فيها. ومع ذلك فبلدان حوض المتوسط ليست على درجة واحدة من التطور، فهناك دول وصلت إلى مستوى متقدم في ميدان الزراعة والصناعة، وقلدت دول أوربا الغربية. وهناك بلدان أقل درجة في التنمية والتطور من مجتمعات أوروبا المتوسطية والتي تعد نماذج لدراستنا هي:

١ــ المجتمع الإيطالي:

يغلب على المظهر الطبيعي لشبه الجزيرة الإيطالية، السمة الجبلية إلى جانب التنوع الكبير في التضاريس بين أجزائها، والذي خلق تنوعاً في المناخ من شمالها إلى جنوبها حيث المطر الوفير في الشمال ذي السهل الخصب (إلبو) إلى الحرارة المتزايدة والجفاف في الجنوب.

وقد عرفت إيطاليا الملكية الاقطاعية الواسعة، لكن الشمال الإيطالي كان قد سارع بالانتقال من ذلك المجتمع الاقطاعي وتحقيق الرأسمالية الصناعية نتيجة لاعتماد إيطاليا على وسائلها الخاصة، وتدفق رؤوس الأموال الأجنبية واحتلالها لبعض الدول وسلبها خيراتها واحتكاكها الحضاري بغرب أوروبا والخصوبة الزراعية والمناخ المعتدل[1]. غير أن تطور البلاد اقتصادياً واجتماعياً لم يكن

---

(١) هويز دوبروفيل، اقتصاديات بلدان حوض المتوسط، باريس، ١٩٦٠، الترجمة العربية ــ منشورات عويدات، بيروت، ١٩٦١، ص١٦٩.

واحـــداً في كـــل أجـــزاء إيطالـــية إذ نجد فيها مجتمعين متباينين من حيث درجة التطور والتنمـــية. ولهـــذا نجـــد عـــلى الخـــريطة الاقتصـــادية الحديثة لإيطالية ثلاث مناطق هي[1]:

آ. المنطقة الصناعية الزراعية الشمالية.

ب. المنطقة الزراعية الصناعية في وسط إيطالية.

ج. المنطقة الزراعية في جنوب إيطالية.

يـــتركز في شمـــال إيطالـــيا مجتمع صناعي متطور وحديث يستأثر بأكثر من ثلثي عمـــال الصـــناعة. وينـــتج فـــيه ثلاثـــة أرباع الطاقة الكهرومائية والمعادن وخصوصاً الحديـــد. وثلـــثا المصـــانع الكـــيماوية وأربعـــة أخمـــاس منـــتجات صناعة الهندسة الميكانيكـــية. كمـــا تقـــع فـــيه مشـــروعات صـــناعة السيارات. وتعد مدينة ميلانو اضخم مركز تجاري وصناعي ومالي في إيطالية.

في وســـط إيطالـــية تقـــع مدينة روما ودولة الفاتيكان وفلورنسه حيث الاقتصاد القائم على السياحة.

أمـــا الجـــنوب الإيطـــالي الفقـــير طبيعياً وبسبب انعزاله التاريخي فلا يزال يزرخ تحـــت ظـــل الـــنظام الاقطـــاعي، وعصـــابات المافـــيا الـــتي تؤمن ديمومة العلاقات الاقطاعـــية الاســـتغلالية لجهـــود الفلاحـــين الفقراء من قبل كبار الملاك. وعليه فليس أمـــام ســـكان الجـــنوب الإيطـــالي إلا الـــبقاء تحت الظلم والاستغلال أو الهجرة إلى الشـــمال والوقـــوع في بوتقـــة الـــبطالة، الأمـــر الـــذي أدى إلى زيادة أعداد سكان المـــدن. وتشـــير الإحصـــاءات إلى أن التـــباين كبير بين الشمال والجنوب من الناحية الاقتصـــادية. فبيـــنما يمـــثل عـــدد سكان الجنوب ٣٠% من عدد سكان إيطالية فإن دخلهم لا يتعدى خمس الدخل الوطني الإجمالي.

---

(١) فاضل الأنصاري، مرجع سابق، ص٣٥٠.

لكن بالرغم من الجهود المبذولة من الحكومات الإيطالية بتطبيق الإصلاحات الاجتماعية في الجنوب، إلا أنها لا تزال غير كافية لأن جميع الأموال تعود وتصب في الشمال، وتزداد الأزمة تفاقماً، ومما يعيق الإصلاح الأزمات الاقتصادية التي مرت بها إيطالية بعد خسارتها في الحرب العالمية الثانية وسقوط موسوليني (زعيم إيطالية)، وتفجر أوضاعها الداخلية ومن مظاهر التفجر هذه الهجرة، البطالة، عدم ارتفاع نسبة الإنتاج الغذائي مقارنة بعدد السكان. ونتيجة هذا ازدادت نسبة العاطلين عن العمل، وعمت حركات الاضراب كل مؤسسة مما أدى إلى انخفاض القدرة الإنتاجية، واشتدت الجريمة. وازدادت تناقضات المجتمع.

٢ــ مجتمع شبه جزيرة أيبيريا (إسبانيا والبرتغال):

تقع شبه الجزيرة الإيبيرية في الجزء الجنوبي الغربي من أوروبا، تفصلها جبال البيرينية عن أوروبا، ومضيق جبل طارق عن أفريقيا. تتألف أراضيها من هضبة مرتفعة واسعة ومن جبال تمتد إلى الشمال، وتشرف حافاتها الداخلية على سهول البرتغال مما أعطاها مظهراً قارياً، ومنع عنها المؤثرات البحرية الأطلسية التي اقتصرت على الجزء الشمالي في مقاطعات الباسك واستوريا وغاليتا. كما اقتصر مناخ البحر المتوسط على السواحل البرتغالية. أما داخل شبه الجزيرة أي هضبة الميزيتا فقد تميزت بمناخ جاف أو شبه جاف، تغطيها حشائش الاستبس وهذا ما ساعد على انتشار انتشار حرفة رعي الضأن والأبقار المتميزة بالترحال الموسمي بين المراعي الجبلية صيفاً والمنخفضة شتاء إلا أن ظاهرة الترحال قد تقلصت بسبب إدخال الأساليب الحديثة على حرفة الرعي وتربية الحيوان[1].

إن موقع شبه الجزيرة الايبيرية وغناها قد جذب إليها خليطاً من الشعوب

---

(١) دولت صادق وآخرون، جغرافية العالم دراسة إقليمية، مكتبة الأنجلو، المصرية، القاهرة، ١٩٧٠، ج١، ص٤٠٤.

على مدى التاريخ ولقد لعب الرعاة دوراً هاماً في إخراج العرب من المنطقة مما ساعدهم في الحصول على امتيازات كبيرة واحتلال مركز هام في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وكانت تضمهم اتحادات تسمى (الميزيتا) لحماية مصالحهم، فقد كان لهم اقطاعات واسعة في الأراضي المروية إضافة إلى المراعي وحافظوا على امتيازاتهم تلك رغم الاضطرابات السياسية والحرب الأهلية الإسبانية عام ١٩٣٦م، فاتحد كبار الملاكين الاقطاعيين، والملكيون والكنيسة، لمحاربة إصلاحات الجمهورية الإسبانية التي استهدفت إعادة توزيع عدد قليل من البلدان الواسعة[1].

إن أكثر من نصف الأراضي الإسبانية يحتكر ملكيتها نحو ٥٠ ألفاً من كبار الملاكين، أما أملاك الكنيسة فمكرسة لإعالة طبقة الرهبان وأصبح هؤلاء يشكلون الطبقة الغنية في المجتمع التي تتحكم بمقدرات الشعب.

كما نجم عن استثمار المناجم لصالح مستثمرين أجانب إلى ظهور طبقة عمالية فقيرة ومضطهدة أيضاً إلى جانب هذه الفئات ظهرت طبقة وسطى تعمل في السياحة بحيث أصبحت السياحة صناعة قائمة بذاتها ذات مردود كبير ورغم هذا بقي الفارق كبيراً بين الثراء والفقر.

وقد أثر الوضع الاجتماعي، المتمثل بتنامي الطبقات في الحياة الاجتماعية والاقتصادية لأبيريا فتراجعت الزراعة الممتازة وكثرت البطالة التي هددت المدن والريف. مما نجم عنها الهجرة إلى الخارج وتراجع بعض الأنشطة الاقتصادية ومما يزيد من حدة المشاكل ظهور الصراعات الإقليمية والحركات الانفصالية. وأهمها حركة "الباسك" شمال إسبانية التي تقودها منظمة "إيتا" التي تطالب بالحكم الذاتي في أربع محافظات، كما نشطت حركة أخرى مشابهة في إقليم كاتلونيا في شمال شرق إسبانيا.

---

(١) فاضل الأنصاري، مرجع سابق، ص٣٤٤.

إن الواقع الاجتماعي والاقتصادي الذي شاهدناه في إسبانيا يظهر بشكل مشابه في البرتغال التي هي جزء من شبه الجزيرة الأيبيرية.

٣ـ اليونان:

إن موقع اليونان الاستراتيجي قد أعطاها حافزاً لتوجهها البحري في فترات تاريخية، وفي تعميرها بالشعوب وبنية مجتمعها المعاصر. وكان عاملاً في شمولها بالحروب. تنقسم اليونان طبيعياً إلى ثلاثة أجزاء رئيسة هي: آ ـ الشمال والشمال الغربي، ويتضمن هضاب مقدونية المغطاة بالحشائش وجبالاً مغطاة بالغابات وسهولاً خصبة يزرع بها القمح والزيتون. وقد تملك كبار التجار والمتنفذون في السلطة الاقطاعات التركية بعد خروج الأتراك من البلاد، إضافة إلى بعض الملكيات الصغيرة العائدة للمهاجرين الإغريق الذين رجعوا من آسيا الصغرى.

ب ـ المناطق الوسطى ذات المناخ المتوسطي، حيث الجبال والسهول الخصبة التي كانت مراكز عمرانية هامة في التاريخ القديم، مثل أثينا وميناها بيريه. وتعد الملكيات الكبيرة في هذه المنطقة أكبر حجماً على مستوى الأفراد منها في المنطقة الأولى، إضافة إلى عدد من الملكيات الصغيرة. ويعد هذا القسم من اليونان مكاناً مناسباً للاستثمارات مما ساعد على ظهور طبقتين اجتماعيتين.

ج ـ جزيرة البيليوبونيز وبقية الجزر اليونانية. تضاريس هذه الجزء جبلية عموماً، وهي وعرة تنشط فيها الحياة الرعوية، وصيد الأسماك إلى جانب فلاحة الأرض ويعد هذا القسم من أكثر مناطق اليونان فقراً وتخلفاً من الناحية الاجتماعية.

وهكذا فالمجتمع يعاني من المفارقات الاجتماعية ـ الاقتصادية بين فئاته المختلفة. وكما حصل في أيبيريا وإيطاليا، فقد عانى الاقتصاد اليوناني من الأزمات الاقتصادية العالمية التي عمت منذ فترة السبعينات حتى وقتنا الحالي. فالميزان

التجاري يعاني من العجز المتصاعد، ونفقات الدولة بارتفاع مستمر مما أدى إلى تضاعف ديونها وارتفعت الأسعار، مما أدى إلى هجرة أعداد كبيرة من العمال اليونانيين إلى أوروبا الغربية والولايات المتحدة. كما أن سياسة خفض المنتجات الزراعية أدت إلى هجر الفلاحين لأراضيهم، فتقطعت الأراضي الزراعية، وقل الإنتاج.

وأدى الصراع مع تركيا على جزيرة قبرص إلى تفاقم الأزمة الداخلية. وإلى عدم الاستقرار السياسي في البلاد، وزيادة التفاوت الطبقي وتراجع التنمية والإصلاح الاقتصادي ـ الاجتماعي.

ثانياً: مجتمعات أمريكا اللاتينية:

المساحة والامتداد:

تبلغ مساحة أمريكا اللاتينية ٢٠٥٤٣٠٠٠ كيلو متر مربع أي ما يعادل ١٥,٣% من جملة مساحة اليابس في العالم وبذلك تأتي في المركز الثالث بين قارات العالم من حيث المساحة بعد آسيا وأفريقيا.

ويمثل خط الحدود السياسية الفاصل بين المكسيك والولايات المتحدة الأمريكية في نطاقه الممتد إلى الشمال من شبه جزيرة كاليفورنيا (عند خط العرض ٣٠َ ٣٢ْ شمالاً) أقصى امتداد لأمريكا اللاتينية ناحية الشمال. في حين تمثل رأس هورن Cape Horn (عند دائرة عرض ٥٦ْ جنوباً) أقصى امتداد للقارة ناحية الجنوب. وهذا يعني أن القارة تمتد بين الشمال والجنوب في ٣٠َ ٨٨ْ دائرة عرضية، فهي تمتد لنحو ١٠٧٠٠كم. كما تمتد بين خط طول ٣٥ْ غرباً الواقع شرقي البرازيل، وهو أقصى امتداد للقارة نحو الشرق. وخط طول ١١٥ْ غرباً في أقصى غربي شبه جزيرة كاليفورنيا. وبذلك تمتد أراضي القارة على ٨٠ خط طول بين الشرق والغرب.

ويمكن تقسيم قارة أمريكا اللاتينية من حيث الخصائص الجغرافية العامة إلى ثلاثة أقاليم متميزة هي:

ـ أمريكا الجنوبية مساحتها ١٧٨٠٩٠٠٠كم٢ أي ما يعادل ٨٦,٧% من جملة مساحة القارة.

ـ أمريكا الوسطى مساحتها ٢٤٩٣٠٠٠كم٢ ما يكون ١٢,١% من جملة مساحة القارة.

ـ جزر البحر الكاريبي مساحتها ٢٣٨ألف كم٢ وهو ما يوازي ١,٢% من جملة مساحة القارة.

الشكل:

للقارة شكل مثلثي قاعدته في الشمال ورأسه في الجنوب إلى جانب مجموعة هامة من الجزر هي: جزر الأنتيل الكبرى وتضم كوبا، هسبانيولا، جاميكا، بورتوريكو، وهي أكبر جزر الكاريبي ـ جزر الأنتيل الصغرى ـ جزر البهاما إضافة إلى مجموعة من الجزر المنتشرة جنوب القارة. وتعد أمريكا اللاتينية أكثر قارات العالم المأهولة بالسكان امتداداً في نصف الكرة الجنوبي، حيث تمتد في نحو ٥٦° درجة عرضية جنوب خط الاستواء. ويلاحظ اتساع أراضي القارة بين الشرق والغرب في نطاقاتها الوسطى في حين تأخذ الأرض في الضيق الملحوظ باتجاه الجنوب حتى تنتهي جنوبا بجزيرة تيرا ديلفيجو وتضيق أراضي القارة أيضاً بالاتجاه نحو الشمال حتى تبلغ أدنى امتداد عرضي لها عند منطقة قناة بنما في أمريكا الوسطى، لتأخذ في الاتساع التدريجي مرة أخرى بالاتجاه نحو الشمال لتبلغ أقصى اتساع لها في هذه الأجزاء في شمالي المكسيك ويتبين من تتبع الخريطة التفصيلية لقارة أمريكا اللاتينية الحقائق الرئيسية التالية: تضاؤل ظاهرة تعرجات خط الساحل بالقياس إلى سواحل أمريكا الأنغلوسكسونية بل واستقامتها في مسافات طويلة، وخاصة في نطاق أمريكا الوسطى، مما أدى إلى تكوين خلجان

بحرية هامة مثل خليج مصب بلاتا، خليج مصب الأمازون، خليج بنما خليج فنزويلا، خليج أوروبا.

ويبرز من يابس أمريكا اللاتينية بعض أشباه الجزر التي تتباين في خصائصها الجغرافية العامة، من أهمها: شبه جزيرة يوكاتان، شبه جزيرة كاليفورنيا، شبه جزيرة أزورو.

يمتد أمام سواحل قارة أمريكا اللاتينية عدد كبير من الجزر يمتد معظمها في شكل أرخبيلات، في حين تمتد بعضها في شكل جزر منفردة. من أهم الأرخبيلات جزر البحر الكاريبي وجزر الفوكلند وتيرا ديلفيجو جزيرة ترينداد.

الموقع:

تقع في غرب القارة، وتشرف على مجموعة من البحار والمحيطات والأنهار من جميع الجهات ففي الشمال تطل على البحر الكاريبي ونهر ريو غراند. ومن الغرب والجنوب المحيط الهادي، ومن الشرق والجنوب الشرقي المحيط الأطلسي، لذا فهي شبه جزيرة.

فإذا عبرنا نهر ريو غراند في أمريكا الشمالية نحو الجنوب نكون قد انتقلنا من عالم إلى آخر ومن مجتمع صناعي رأسمالي متطور إلى مجتمع زراعي إقطاعي متخلف. عموماً مع تعدد وتباين واسع في الاستثناءات البشرية، تاريخية واجتماعية، اقتصادية وعرقية، في حيز بيئة ذات مناخ مداري وشبه مداري، وعلى أرض شاسعة تغطي معظمها الغابات الاستوائية والأحراج الحارة، وتحف بها المرتفعات من جميع جوانبها، إلا ما يقع جنوب خليج لابلاتا، سواء كان جبالاً وهضاباً شاهقة الارتفاع مثل الأنديز في الشمال والغرب أم حافات هضابية مثل حافة غيانا وحافة البرازيل القديمة. أما الداخل فحوض كبير أو سلسلة من الأحواض الواسعة تتخللها المستنقعات التي تحتل مساحات كبيرة من القارة من الشمال إلى الجنوب، من حوض الأورينوكو إلى حوض الأمازون إلى مستنقعات

أعـالي لابلاتـا، ومـع ذلـك فإن هذه البيئة قد أسهمت في تقديم فرص واحتمالات توجـه النشـاط الاقتصـادي وأشـكاله ومـن ذلـك أنهـا أدت إلى ظهور مشكلة المواصـلات الـتي أصـبحت صـعوبتها إحدى المعوقات الهامة للاستغلال الاقتصادي والتطور في المنطقة.

البنية والتضاريس:

تمـثل أمـريكا اللاتينـية في نطاقهـا الشـمالي الممتد بين نهر ريو غراند ودائرة عـرض ٢٠° شمـالاً، امـتداداً لقـارة أمـريكا الأنغلوسكسـونية مـن حيث البناء الجـيولوجي بيـنما تشـكل أمريكا الجنوبية الواقعة بين درجتي عرض ٩° و٤٠° جنوباً وحـدة بنـيوية متشـابهة. ومـن ٩° جنوباً إلى ٢٠° شمالاً فيمثل نطاقاً أو وحدة بنيوية متبايـنة حيـث تأثـرت بحـركات التوائـية عرضية تمتد بين الشرق والغرب عكس الـنطاقين الشـمالي والجـنوبي اللذيـن تأثـرا بحركة التوائية طولية تمتد بين الشمال والجـنوب كـالموجود في قـارة أمـريكا الأنغلوسكسونية. ويمكن تقسيم قارة أمريكا اللاتينـية عـلى أسـاس البنـية والتضاريس إلى ستة أقسام رئيسة هي: الكتل القديمة ـ كورديلـيرا الأنديـز ـ السـهول والمنخفضـات الوسطى ـ السهول الساحلية ـ نطاق المكسيك ـ نطاق جزء الأنتيل وأمريكا الوسطى.

المناخ:

تعـد أمـريكا اللاتينـية أكـثر قارات العالم المأهولة بالسكان امتداداً في نصف الكـرة الجـنوبي حيـث تمـتد كمـا أشـرنا في نحـو ٥٦° جنوباً مما أدى إلى وجود الخصائص المناخية المنتمية إلى الأقاليم المعتدلة والباردة في أقصى أطرافها الجنوبية.

وقـد أدى الامـتداد العرضـي الكبير لأراضي القارة في النطاقات الممتدة على جـانبي خـط الاسـتواء إلى سـيادة المناخات مدارية الخصائص على نحو ٨٠% من أراضـي القـارة في حـين أدى ضـيق أراضـي القـارة في ثلثها الجنوبي إلى ظهور المناخات المعتدلة والباردة فوق مساحات محدودة من القارة.

ولعبت أشكال السطح دوراً مؤثراً في توزيع الأمطار الساقطة على جهات القارة المختلفة وتحديد كمياتها فقد كان للامتداد الطولي لجبال الأنديز بين الشمال والجنوب دوراً في زيادة كمية الأمطار في أمريكا الوسطى وكولومبيا وجنوبي تشيلي وكذلك النطاقات الهضبية مثل جيانا التي ساعدت على غزارة الأمطار.

كما يحف بسواحل القارة عدد من التيارات البحرية متباينة الخصائص تلعب دورا مؤثرا في تحديد سمات بعض عناصر المناخ كالحرارة والأمطار، وتتمثل التيارات البحرية الدفيئة في التيار الاستوائي الشمالي أما التيارات البحرية الباردة فتتمثل في تيار فوكلاند الذي يتحرك من الجنوب إلى الشمال.

هذا وتهب على شرقي القارة في النطاق الممتد من ٢٠° جنوباً إلى ١٠° شمالاً الرياح الشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية القوية. في حين تهب الرياح التجارية الشمالية الشرقية على شرقي القارة في النطاق الممتد بين ١٠° شمالاً وأقصى الأطراف الشمالية للقارة.

وتتعرض جزر البحر الكاريبي والنطاقات الشرقية لأمريكا الوسطى لهبوب أعاصير الهاريكان المدمرة.

النبات الطبيعي:

ينقسم النبات الطبيعي إلى ثلاثة أقسام رئيسة هي:

الغابات ــ الحشائش ــ النباتات الصحراوية.

السكان:

الخصائص البشرية: تتميز القارة بوحدة تركيبها السكاني تقريباً حتى مجئ الأوروبيين إليها في أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر حيث تألف سكانها من الهنود الأمريكيين الذين وفد أسلافهم من قارة آسيا عبر مضيق بهرنغ وغربي أمريكا الأنغلوسكسونية.

قدر عدد سكان أمريكا اللاتينية من الهنود الأمريكيين في بداية القرن السادس عشر، بين ستة وثمانية ملايين نسمة. ولهم أنماط معيشة متنوعة تبعاً للظروف الجغرافية المختلفة. وفي العصور الحديثة وصل الإسبان والبرتغاليون إلى القارة، فاستقر الإسبان في جزر البحر الكاريبي، ثم أقاموا مراكز عمرانية في أمريكا الوسطى. وبعدها انتقلوا إلى أمريكا الجنوبية وتمركز البرتغاليون بعد اتفاقية "تورد يسيلاس" المبرمة بينهم وبين الإسبان عام "١٤٩٤" في البرازيل حيث بنوا العديد من مراكز الاستيطان.

وقد ترافق الاستيطان اللاتيني هذا بالعنف والمجازر. فعمل الإسبان على تقتيل وتشريد أعداد كبيرة من السكان الأصليين، وحلوا محلهم في الأراضي ذات التربة الخصبة والمناجم المنتجة للذهب والفضة. تعاون الإسبان والبرتغاليون على استنزاف الثروات ونقلها إلى إسبانيا والبرتغال ثم عملوا في تجارة الرقيق، فجلبوا الأفارقة من ديارهم للعمل كأرقاء في مزارع قصب السكر والقطن والكاكو والتوابل والتبغ ومحاصيل الحبوب والتي تمركز معظمها في جزر البحر الكاريبي والنطاقات السهلية واسعة الانتشار في القارة وتعددت طرق تجارة المستعمرات في العالم الجديد عبر المحيط الأطلسي إلى أوروبا؛ ومع بدء تدهور القوة السياسية للدولتين اللاتينيتين وأمام الثروات الهائلة التي كسبتاها بدأت كل من بريطانية وفرنسة وهولنده تولي اهتمامها بالعالم الجديد حيث أصبح لها مستعمرات في جزر البحر الكاريبي.

الخصائص السياسية: بعد ضعف النفوذ الأوروبي في القارة بدأ ظهور الوحدات السياسية بصورتها الحالية منذ أوائل القرن التاسع عشر، ونمت روح التحرر والاستقلال لذلك استقلت هايتي عن فرنسا عام ١٨٠٤، وأعلنت كولومبيا استقلال اتحاد كولومبيا (كولومبيا وإكوادور وفنزويلا وبنما) عن إسبانيا. وهكذا توالت عمليات الاستقلال حتى شملت كل دول القارة.

ورغم تراجع النفوذ الأوروبي وانحساره أمام موجات التحرر التي سادت القارة إلا أن الاستعمار الأوروبي ما زال عند بعض المواقع الهامشية ممثلة في جيانا الفرنسية وجزر فوكلند البريطانية وبعض جزر البحر الكاريبي.

ورغم تكامل الصورة السياسية العامة لدول القارة إلا أنها عانت كثيراً من مشكلات الحدود فيما بينها والتي ما زالت آثارها باقية حتى اليوم وتعد تلك المشكلات من أهم خصائص الجغرافية السياسية لأمريكا اللاتينية نظراً لغموض الحدود الدولية بين القارة وقت حصولها على الاستقلال. وأهم مناطق الحدود التي أثارت المنازعات الحادة بين دول القارة هي: منطقة الحدود بين بيرو وبوليفيا وتشيلي ـ منطقة الحدود بين بيرو وكولومبيا واكوادور والبرازيل ـ منطقة الحدود بين بوليفيا وباراغواي ـ منطقة الحدود بين بوليفيا والبرازيل ـ منطقة الحدود بين بوليفيا وبيرو ـ منطقة الحدود بين البرازيل وفنزويلا ـ منطقة الحدود بين البرازيل وأوراغواي ـ منطقة الحدود بين البرازيل وباراغواي ـ منطقة الحدود بين البرازيل والأرجنتين.

وفي هذا الحيز أربع وعشرون دولة نامية من دول أمريكا اللاتينية وهي تشغل مساحة حوالي ٢٣ مليون كيلو متراً مربعاً يعيش فيها ٤٩٩,٥مليون نسمة عام ١٩٩٧ ويتكلم غالبية سكان هذه الدول الإسبانية والبرتغالية وينطق ما يقرب من عشر السكان بلغات الهنود الحمر.

الجانب الاقتصادي والاجتماعي: كان تاريخ الإنتاج في أمريكا اللاتينية منذ دخول الأوروبيين مثلاً واضحاً على الاستغلال الاستعماري بطرق تجارية، حيث مر بدورات اقتصادية متتالية، وأدى إلى تدمير التكامل الاقتصادي للقارة أو على أقل تقدير قلب أوضاعه التي مرت في أزهى الفترات على عهد هنود الأنكا والأزتك والمايا وقد مر تاريخ الاستغلال الاستعماري في القارة بدورات خربت الاقتصاد فكانت هناك دورة الذهب، ودورة البن، ودورة المطاط، وأخيراً

دورة البترول، وخلال كل هذه الدورات كان الإنسان يرى أقاليم بكاملها وقفاً على زراعة محصول واحد مع إهمال كل ما عداه، مما أضاع عليها ثروات زراعية هامة وقضى على زراعة قصب السكر من دون غيره في شرق البرازيل مثل واضح على ذلك حيث كانت هذه المنطقة في الماضي ذات تربة مدارية خصبة مغطاة ببساتين الفواكه التي تلاشت أمام زراعة السكر.

كما دخل هذا المجتمع خلال تاريخه عنصر الإعمار الجديد باستخدام الأرقاء الأفارقة. وهذا ما جعل الدول الأمريكية يتميز بعضها من بعض بحسب أهمية الدور الحالي للسكان من أصل أفريقي في حياتها الاجتماعية ـ الاقتصادية والسياسية.

وقد اختلفت العلاقات وروابط البنية نتيجة للاختلاط، بين الجماعات البشرية التي وفدت إلى القارة وتبعاً للأكثرية السائدة للسكان. ويشكل الهنود أغلبية في المجتمعات المكسيكية والأنديزية بينما ترجع نسبة السكان أوربيو المنشأ في الواجهة الشرقية من أمريكا الجنوبية. إن هذه المساكنة وهذا التعدد العنصري لشعوب حافظت على كثير من تقاليدها في أرض ليست مسقط رأس العديد منها كل ذلك أصبح يؤثر بشكل أو بآخر في أنماط الاستثمار الاقتصادية لموارد البلد.

وعلى الرغم من التباينات الاقتصادية الكبيرة بين أقطار أمريكا اللاتينية سواء في مستوى الدخل القومي أم الفردي ويعد الفقر ظاهرة عامة في مختلف الأنحاء، وقد صنف "جاك لامبزت" أقطار أمريكا اللاتينية إلى ثلاث مجموعات رئيسية مستخدماً في أسس التصنيف نسبة الأمية ونسبة المواليد ومستوى نصيب الفرد من الدخل القومي ونسبة السكان الممارسين للزراعة وعلى هذه الأسس صنفت الأرجنتين وأرغواي في مجموعة الأقطار المتقدمة اجتماعياً لما لديها من نسبة عالية من المتعلمين وانخفاض نسبة المواليد. أما الأقطار ذات البنية

الاجتماعية القديمة فتشمل بيرو وإكوادور وبوليفيا وباراغواي وغواتيمالا والسفادور وهايتي والدومينيكان. أما الدول ذات البناء الاجتماعي الإزدواجي فهي البرازيل والمكسيك وكولومبيا وفنزويلا. وتضم هذه الدول نحو ٦٠% من مجموع سكان أمريكا اللاتينية.

وقد أسهم تاريخ المنطقة في تكوين خواص الملكيات الزراعية وتلخصها على النحو التالي:

أولاً: قيام الملكيات الواسعة وتثبيتها:

وتسمى "لاتيفونديا **Lati Fondia**" حيث تملك قلة من المالكين أفضل الأراضي وأوسعها إذ تشكل الملكيات التي تزيد مساحتها على ١٠٠٠ هيكتار ما يقرب من ثلاثة أرباع مجموع مساحات الملكيات. ومجموع مساحاتها يزيد على مجموع المساحات المستغلة سواء للزراعة أم لتربية الماشية.

ويبلغ حجم الملكيات الزراعية الواسعة أحياناً كما هو الحال في البرازيل مساحة أكبر من مساحة بلد أوروبي صغير مثل بلجيكا ففي ولاية بوينس آيرس التي يزيد سكانها على ثلاثة ملايين ونصف تحتكر بعض الأسر الأرستقراطية التي يبلغ عددها ٣٢٠ أسرة نحو ٤٠% من مجموع الأراضي وكذلك الحال في الأرجنتين وتشيلي.

ثانياً: انتشار المزارع الصغيرة:

وتسمى "ميني فونديا" وهي ملكيات غير محددة المساحة تقل حجومها عن خمسة هكتارات وتؤلف ٠,٩٨% من مجموع مساحة الملكيات. يمتلكها ٤٨,٨ % من مجموع ملاك الأرض وتوجد في تشيلي والبيرو.

ثالثاً: تملك الشركات الأجنبية للأراضي الواسعة:

سواء بالشراء أم التزام الأرض من أصحابها الملاكين الكبار، والقيام بزراعة منتجات التصدير مثل البن والقهوة والتبغ، والزيوت والفواكه والزهور واللحوم وتقوم الولايات المتحدة الأمريكية بتصدير رأس المال والتأثير بوساطته في الحياة الاقتصادية والسياسية في أمريكا اللاتينية. وتمتلك (٢٠٠) شركة أمريكية ثلاثة أرباع استثمارات رأس المال الأمريكي الخاص الموظف في دول القارة.

رابعاً: انتشار الملكيات الزراعية من النوع المسمى (هاسيندا **Hacienda**):

وهي ملكيات واسعة تخصص لرعي الماشية ويخصص جزء قليل منها للزراعة. يعمل فيها عمال زراعيون بأجور قليلة جداً يسمح لهم أحياناً بزراعة أجزاء صغيرة من الأرض ضماناً لمعيشتهم. أما بالنسبة للطبقة البرجوازية فقد نشأت هنا مع قدوم الاستعمار الحديث، وحاجة رأس المال الأجنبي التجاري إلى وسطاء محليين له ويتكون معظمها من الوسطاء والموظفين وباستثناء رجال الأعمال الكباريكاد يكون دورها في التصنيع ضئيلاً جداً فهي لا توظف أرباحها في قطاع الإنتاج الصناعي (باستثناء بعض الصناعات الاستهلاكية والاستخراجية البسيطة) وإنما تصب جهودها في قطاع التجارة لذلك كان من مصلحتها الإبقاء على التخلف والتبعية الاقتصادية للسوق الإمبريالية، وعملت تحت شعار "التحالف من أجل التقدم" على تسهيل سيطرة رأس المال الأمريكي الشمالي على اقتصاديات أمريكا اللاتينية وجني الأرباح الطائلة.

إن تخلف الإنتاج، وشدة التناقضات الاجتماعية، وتدفق رؤوس الأموال الأجنبية كسمات مرافقة للنظام الاقتصادي القائم على الملكيات الواسعة في أمريكا اللاتينية قد تسبب بدوره في انخفاض الدخل القومي والفردي وتبايناته الكبيرة على مستوى الدول والأفراد كما سبقت الإشارة إليه، وارتفاع نسب الأمية وعكس أسوأ الآثار على الصحة العامة للمواطنين.

وتسبب المشكلات الاقتصادي توابع فعلية تعيق التطور ولا تكاد آية دولة من دول أمريكا اللاتينية أن يخلو منها وفي مقدمتها تأتي مشكلات ارتفاع الأسعار والبطالة والتضخيم والديون الخارجية والاستيراد والتصدير.

وتنشغل العديد من دول القارة بالنزاعات المباشرة مع الدول المجاورة حول الحدود الإقليمية بينها. وتهدد بعض تلك النزاعات بانفجار الصراع المسلح بين الدول، الأمر الذي يصرف طاقات التنمية، ويبطئ وتائرها المطلوبة ويسهم بالتالي في الإبقاء على التخلف.

ومن أبرز أمثلة تلك النزاعات:

١ـ الصراع بين الأرجنتين وتشيلي حول ثلاث جزر صغيرة في قناة بيجل، ولها أهمية تموينية ملاحية وغذائية (مصائد أسماك) إضافة إلى احتمال وجود النفط.

٢ـ المشاكل بين تشيلي والبيرو على إقليم "أمريكا" من جهة وبين تشيلي وبوليفيا، على إقليم "انتوفاجاستا" الساحلي، وتهتم كل من البيرو وبوليفيا ودولة تشيلي بالحصول على هذين الإقليمين بالقوة في حرب الباسفيك ١٨٧٩ـ ١٨٨٣.

٣ـ النزاع بين نيكاراغوا من ناحية، وبين جارتيها فينزويلا وكوستاريكا من ناحية أخرى، ويتخذ طابعاً سياسياً عقائدياً.

٤ـ النزاع بين الأرجنتين والبرازيل على النفوذ في القارة الأمريكية اللاتينية، وهو يبدو أكثر حسماً وتأثيراً في مستقبل القارة كلها.

مشروعات الإصلاح الزراعي:

أمام المشكلات التي أدى إليها نظام الاستثمار الزراعي، فرض التغيير قيام الإصلاح الزراعي الذي يهدف تحقيق العدل الاجتماعي. ومن أبرز نماذجه وأهمها ما جرى في كوبا حيث انتزع الإصلاح الإقطاعيات من أصحابها، وحوّلها

إلى مـــزارع جماعـــية. وفي المكســـيك وبوليفـــيا حيث انتزعت ملكيات "اللاتيفوندا" التقليدية من أصحابها، وخصصت إلى الهنود الذين كانوا عبيداً للأرض.

المجتمعات الصناعية

يعـــرف القـــرن التاســـع عشـــر بأنه عصر الثورة الصناعية، إلا أنه يمكن القول إنـــه عـــند منتصـــف القـــرن الـــثامن عشـــر حصل انقلاب صناعي عندما استطاع الحرفـــيون الصـــناعيون اخـــتراع الآلة وإدخالها ميدان الصناعة، وإنتاج مواد مختلفة مـــن الســـلع الاســـتهلاكية وتحويـــلها، ومنذ ذلك الوقت زاد الاعتماد على مصادر الطاقـــة المخـــتلفة. وفي الـــبداية الخشب والفحم الحجري ثم البترول والغاز. واستمر هـــذا الـــنمو في تصـــنيع الآلات وأدوات الإنـــتاج حـــتى العصر الحالي حيث نلاحظ توســـعاً هـــائلاً في اســـتهلاك مصـــادر الطاقة المختلفة، واستغلال المعادن حتى أصبح يطلـــق عـــلى عصـــر اخـــتراع الآلة اسم عصر الصناعة. في السابق كانت الصناعات يدويـــة، وتقـــوم في ورش صـــغيرة ملحقة بالبيوت السكنية، وكان عدد العمال قليلاً وهـــذا مـــا عمـــل عـــلى وجود صلة دائمة وعلاقة مباشرة بين العامل ورب العمل، ولكـــن مـــا أن اخترعـــت الآلـــة الـــبخارية، وانتشر استخدامها في المصنع حتى زاد الإنـــتاج، وانتعشـــت الـــتجارة، وتحولـــت الصناعة من الورش الصغيرة إلى المصانع المتخصصـــة، وزاد عـــدد العمـــال، وزادت رؤوس الأمـــوال، وترتـــب عـــلى ذلك ظهـــور علاقـــة إنتاجـــية، بحيـــث تعقـــدت العلاقة بين العمال وأرباب العمل، وبدأ العمـــال يتكدســـون في مســـاكن غـــير صحية، وفي ظروف عمل صعبة، فبدأ العمال يشكون من سوء الأوضاع غير اللائقة، فظهرت نقابات العمال.

وظهـــرت نـــتائج الـــثورة الصـــناعية في إنجلترا أولاً، إذ أدى الاقتصاد الصناعي إلى ازدحـــام الســـكان الفقـــراء في الأحياء القديمة، ومن ثم ظهرت الأحياء التي يطلق

عليها الأوروبيون اسم Slurrs، وتكدست منازل العمال[1]. وتبع ذلك إنشاء مدن عمالية مثل مدينة سالتين Saltaine التي أقيمت في عام ١٨٥٢.

لتضم ٣٠٠٠ عامل من موظفي مصنع النسيج بالقرب من برادفور بانجلترا بيسبريك أو مدينة Bessbreck التي بنيت لعمال مصانع الكتان بالقرب من نيوري newry بايرلندا، وكذلك القرى العديدة للعمال التي أقيمت بالقرب من مصانع الحديد في أسن بألمانيا.

وقد اعتمد النظام الصناعي على المواصلات إلى حد كبير لنقل المواد الخام إلى مناطق التصنيع، وإرسال المنتجات الصناعية إلى أماكن الاستهلاك إضافة إلى نقل العمال من مساكنهم إلى مواقع العمل. وهذا ما عمل على مد الطرق الحديدية لتفادي مشاكل الازدحام، وأدخلت القطارات المكهربة التي تسير تحت الأرض في بعض المدن الكبرى في أوروبا والعالم الجديد. وتبع ذلك صناعة الطائرات التي عملت على حل الكثير من مشاكل الواصلات والاتصالات وذلك من حيث المدة الزمنية والجهد والتعب أثناء السفر.

كما تطورت وسائل الاتصالات ففي عام ١٨٥٠ تم إرسال البرقيات بوساطة التلغراف، وفي عام ١٨٧٦ تم اختراع اللاسلكي، ثم تم اختراع الراديو. وقد نتج عن الثورة الصناعية ارتفاع عدد سكان المدن، بينما شهد سكان الأرياف نقصاً في أعدادهم. فانخفض عدد سكان المناطق الريفية في إنجلترا نحو ١٠ ملايين نسمة خلال الفترة ما بين عامي ١٨٢١ و١٩٣٦. في حين ارتفع سكن المدن من ٤ ملايين إلى ٣٧ مليون نسمة لفترة نفسها، ولم يقتصر الأمر على انجلترا بل شهدت أوروبا مثل هذا التغير في نسبة الحضر والريف. فلقد ارتفعت نسبة الحضر في أوروبا خلال الفترة ١٨٠٠-١٩٠٠ من ٣٠٠% إلى ٤٠٠%.

---

(١) Demangeon. A. Llisaes Britanniques, Geog. Unib. T.i. ch .xii. paris ١٩٢٧

وفي الولايات المتحدة كان سكان الريف يشكلون الغالبية العظمى من مجموع السكان في بداية القرن التاسع عشر. وكان سكان المدن لا يؤلفون سوى ٥% من مجموع السكان. وفي عام ١٧٩٠ كان هناك مدينتان فقط يزيد عدد سكان كل منهما عن ٢٥ ألف نسمة. غير أنه مع منتصف القرن التاسع عشر ارتفعت نسبة سكان المدن إلى ٢٠% لتصل إلى ٥٦,٥% من مجموع السكان في عام ١٩٤٠. وبلغ عدد المدن التي يزيد عدد سكان كل منها عن ٢٥ ألف نسمة حوالي ٤١٢ مدينة من بينها ٢٣ مدينة يتراوح عدد سكانها ما بين ربع ونصف مليون نسمة، وتسع مدن يتراوح عدد سكانها بين نصف مليون نسمة وخمس مدن يزيد عدد سكان كل منها عن مليون نسمة.

إن تركز السكان الصناعيين في المدن هو نتيجة للرغبة الملحة في تبادل المنافع. في المجتمع الصناعي نلاحظ أن حجم الأسرة قد صغر فعدد الأفراد قليل ضمن الأسرة، أما الملكية الفردية فهي سمة هذا المجتمع، باستثناء بعض المصانع التي أممت من قبل بعض الدول بحيث انتقلت ملكيتها إلى الدولة. وفي هذا المجتمع يبرز نظام الطبقات المؤلف من الرأسماليين والعمال وكذلك الطبقة الوسطى ذات الأهمية في تاريخ هذا المجتمع.

ونتيجة لتضخم المدن واتساعها نتيجة لهجرة اليد العاملة إليها، فقد ظهرت الأزمات والمشاكل الاجتماعية، كالبطالة والإضرابات وتشغيل الأطفال. فالعمال يشكون من إضرابات العمال والخسارة التي تلحق بمصنعه أحياناً. وكل هذا استلزم تدخل الدولة في الصناعة لوضع قوانين تنظم العلاقات الاجتماعية بين الطرفين.

ومن نتائج الصناعة أن ظهرت الحركة الاستعمارية في القرن التاسع عشر، ومازالت حتى الوقت الراهن. ويبرزون ذلك بحجج منها تنمية البلدان والأخذ بيدها نحو التطور والنمو. إلا أن السبب هو ضمان الأسواق وموارد الخامات في

الـــدول الخارجـــية. وحصـــل ســـباق فـــريد من نوعه بين الدول الصناعية للاستيلاء عـــلى المســـتعمرات وفعـــلاً عملت على تأمين المواصلات التجارية بالبلدان الخارجية المســـتعمرة، ووظفـــت رؤوس الأمـــوال فـــيها. فظهرت المشاكل السياسية التي نراها في أنحـــاء العـــالم المخـــتلفة. وضـــمن المجتمع الرأسمالي وخصوصاً غير المتجانس عرقياً نـــرى العديـــد مـــن المشـــاكل كالتمـــيز العنصـــري في كـــل من الولايات المتحدة وجـــنوب أفريقـــيا. وسياســـة اســـتراليا البيضاء ضد الملونين فيها وخصوصاً سكانها الأصـــليين. والـــدول الصـــناعية الكـــبرى في العـــالم تنتشـــر في أمـــريكا الشمالية كالولايـــات المـــتحدة وكـــندا، وكذلـــك في غـــرب أوروبا كبريطانيا وألمانيا وفرنسا إضـــافة إلى روســـيا في شـــرق أوروبـــا وهناك اليابان ونيوزلندا واستراليا وتضم أكثر من سدس سكان العالم. (والمصور رقم ٤) يوضح ذلك.

المصور رقم (٤)

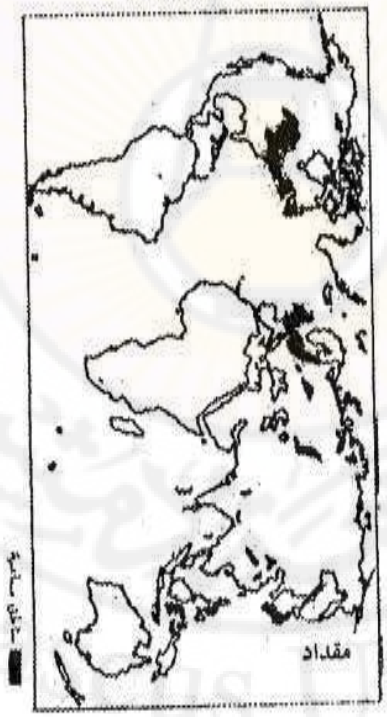

توزع المناطق الصناعية الكبرى في العالم

أولاً: مجتمعات أمريكا الشمالية:

جاءت تسمية أمريكا نسبة إلى أمريكو فسبوشي إيطالي الأصل A. vespucci عمل لصالح البرتغال لعام ١٠٥١م. أحد مكتشفي القارة بعد كريستوف كولومبوس[١].

الموقع والامتداد:

تتألف أمريكا من قارتين: الشمالية والجنوبية. وتقسم من الناحية الثقافية إلى أمريكا الأنغلوسكسونية وأمريكا اللاتينية.

أ- أمريكا الأنغلوسكسونية: وهي التي تسودها الثقافة الأنغلوسكسونية تبلغ مساحتها ١٩٣٣١٠٠٠ كم٢ أي ما يعادل ١٤,٤% من مجموع مساحة العالم. وتأتي في المركز الرابع بين القارات من حيث المساحة بعد آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. وتعد رأس كولومبيا في جزيرة اليسمير Ellesmere الكندية الواقعة على خط عرض ٨٣َ٧ْ شمالاً، أقصى امتداد للقارة ناحية الشمال، في حين تعد جزيرة كي ويست Key west الواقعة في جنوب غربي شبه جزيرة فلوريدا على دائرة عرض ٢٤َ٣٣ْ شمالاً أقصى امتداد للقارة ناحية الجنوب، وبذلك تمتد أمريكا الأنغلوسكسونية من الشمال إلى الجنوب في حوالي ٥٨َ٣٤ْ درجة عرضية أي تمتد مسافة ٦٣٠٠كم.

ويعد رأس "رس Race" في جزيرة نيوفوندلاند الواقعة على خط طول ٥٣ْ غرباً أقصى امتداد للقارة نحو الشرق، في حين تشكل رأس ويلس Wales الواقعة على خط طول ١٦٨ غرباً المطلة على مضيق برنج أقصى امتداد لأراضي القارة ناحية الغرب. وبذلك تمتد على ١١٥ خط طول أي على مسافة تقدر بـ٦٠٠٠كم[٢].

---

(١) Watson, J.w, North America. Its countries and regions, Second Edition, London, ١٩٦٩, p.١١٩

(٢) محمد خميس الزوكة، جغرافية العالم الجديد، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٢.

الشكل:

باستثناء أقصى الأطراف الشمالية للقارة التي تتألف من عدة أرخبيلات فهي تتخذ شكل رباعي، يسمح من الناحيتين الجيوستراتيجية والتكتيك من حمايتها، وصد أي عدوان محتمل لأنه بالامكان التحرك في عدة محاور. وتجميع القوات والقيام بهجوم معاكس سريع. ومن الناحية الجيوبوليتيكية، تعد هارتلاند جديد في غرب الأطلنطي، ذا أهمية كبيرة يقابل الهارتلاند الأوراسي، نظراً للصلات الوثيقة والحميمة على ضفتي المحيط الأطلسي أو ما يسمى بالمحيط المتوسط وخصوصاً بعد تطور وسائل المواصلات والاتصال الجوية والبحرية، إنها إقليم الأطلنطي الشمالي الذي يمكن أن يضم إليه كل أراضي أوروبة الغربية حسب نظرية ماكيندر.

أضف إلى ذلك أن هذا الإقليم ذو سواحل طويلة كثيرة التعرجات وتدخل عدة أذرع بحرية في اليابس مكونة بحاراً وخلجاناً، لذا يخدم الكيلومتر من سواحل القارة نحو ٣٢١ كيلومتراً مربعاً فقط من مساحة القارة، وفيما يلي أهم الخلجان في أمريكا الأنغلوسكسونية: خليج هدسن- خليج بافن- خليج ألاسكا خليج شيسابيك يمتد مابين ميريلاند وفرجينيا – خليج المكسيك.

ويبرز من يابس القارات عدد كبير من أشباه الجزر التي تتباين في عدة خصائص يأتي في مقدمتها الشكل والمساحة. من أشباه تلك الجزر: شبه جزيرة فلوريدا، وشبه جزيرة لابرادور – شبه جزيرة ألاسكا.

يمتد أمام سواحل القارة أعداد كبيرة من الجزر بعضها يمتد في شكل أرخبيلات، وبعضها الآخر يمتد في شكل منفرد ومن الأرخبيلات نذكر ما يلي: الجزر الكندية – جزيرة بافن – اليسمير **Ellesmere** – فيكتوريا – فلوريدا – كيس.

الحدود:

تعد الحدود السياسية ذات أهمية كبيرة في حياة الإقليم السياسية، وهي من عمل التاريخ والممارسات السياسية، الهدف منها وضع حدود فاصلة بين أقطار الإقليم. وهنا ليس للمؤثرات الجغرافية أي دور في امتدادات الحدود بين دول القارة. فالحدود هنا تسير مع خطوط وهمية هندسية، وحدود فلكية أي وفق خطوط العرض والطول. وتجري الحدود السياسية خلال النطاقات القليلة السكان كالبحيرات والأنهار والصحارى والتضاريس. وفي القارة الأنغلوسكسونية لا يوجد إلا حد مع كندا وهو يتبع خط العرض ٤٣° شمالاً وخط آخر للحدود مع المكسيك ويتبع نهر الريوغراند[1].

البنية والتضاريس:

يمكن تقسيم أمريكا الأنغلوسكسونية على أساس البنية والتضاريس إلى الأقسام الرئيسية التالية: الكتلة القديمة – السهول الساحلية – السهول الداخلية – الأراضي السهلية المنخفضة حول خليج هدسن – مرتفعات الأبلاش – الأراضي المرتفعة الداخلية – مرتفعات الكورديليرا الشرقية – مرتفعات الكورديليرا الغربية – الهضاب الداخلية – أودية الأنهار الكبرى.

فقد بنيت القارة تبعاً لتصميم بسيط ومتسع، لكنها مغلقة في الشمال بسبب من قساوة المناخ، وصعوبة اختراقها من الغرب والشرق، حيث المصبات الكبرى القادمة لتصطدم بعوائق من التضاريس.

الأراضي الواقعة إلى الشمال من الخط المار عبر نيويورك، شيكاغو، سياتل، غطيت بجليديات الحقب الرابع الواسعة، التي تركت بصماتها: بحيرات، مورينات أو ركام حجارة جرفها النهر الجليدي، مساقط المياه (شلالات).

---

(١) فتحي محمد أبو عيانة، الجغرافيا السياسية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٣ص٣٢١.

-المجن أو الدرع الكندي، في الشمال الشرقي، يتكون من جلاميد أو صخور معدنية قديمة. وهناك السهب المشوهة التي وسمت بالجليديات: تضاريس مشوشة، تصريف للمياه غير منتظم. وتشكل البحيرات الكبرى أكبر تجمع للمياه العذبة في العالم، والتي قطعت بوساطة مساقط نياغارا وسولت وسان ماري.

-سلاسل الأبالاش، إلى الشرق، تمتد على أكثر من ٢٠٠٠كم بين أرض نوف ومرتفعات أوزاك. هذه الجبال الهرسينية التوت، وتآكلت، ثم ارتفعت من جديد. الصخور الأكثر صلابة كونت قاعدة للتضاريس (٢٠٣٧ متراً في جبل ميتشل) لكنها تعرضت في الطبقات اللينة للإنجراف. باتجاه الشرق هناك حافة صلبة تدعى الفال لين. كما تسود سهول ساحلية تمتد نحو الجنوب. السهول الوسطى تشكل ميزاباً بين المحيط المتجمد الشمالي وخليج المكسيك، وتكوّن مستودعات طمية وصخور رسوبية ترتفع رويداً نحو الغرب يصل أعلى ارتفاع ٢٠٠٠ متر. ويجتازها اثنان من كبرى الأنهار في العالم، الميسيسبي والماكينزي، اللذان تتفرع عنهما الدلتات والبحيرات الشاطئية والمستنقعات.

-الأراضي المرتفعة في الغرب تألفت من سلسلتين: السلاسل الصخرية إلى الشرق، السييرا نيفادا وكواست رينجز إلى الغرب. تحاط هذه الجبال بالهضاب والأحواض حيث هناك البحيرة المالحة الكبرى وشعب كولورادو.

الجبال الغربية تنتمي إلى "نطاق النار" في المحيط الهادي: فهي تحمل البراكين النشطة باتجاه الشمال، وتحاط بصدوع جيولوجية، وتتأثر بالهزات الأرضية.

المناخ:

يتأثر مناخ القارة بالكتل الهوائية والتيارات البحرية والتضاريس. إذ يمكننا أن نلاحظ على خط عرض واحد، الاختلافات المناخية بين الواجهتين الشرقية والغربية للقارات. والتيارات الحارة أو الباردة هي المسؤولة.

يتسم المناخ الأمريكي بالقارية، فعلى درجة عرض واحدة، يكون الشتاء بارداً، والصيف أكثر حرارة من أوروبا. فمثلاً خط العرض ٤٥° المار بمدينة بوردو (حيث المناخ الأطلنطي الرطب) وبمدينة مونتريال (تجمد شتوي في سان – لورانت) إن انفتاح القارة نحو الشمال والجنوب يفسر وصول التأثيرات الجنوبية التي تصعد بعيداً نحو الشمال في الصيف. بينما تنحدر التأثيرات الشمالية حتى خليج المكسيك في الشتاء. حيث يحصل التجمد في نوفل – أورليانس التي تقع على خط العرض الذي تقع عليه كل من القاهرة وأغادير، في حين يزرع القمح حتى خط عرض وينيبغ.

هذا ويتراوح المتوسط اليومي لدرجة الحرارة بين ١٥° – ٢١° م عند أطراف القارة الجنوبية خلال شهر كانون الثاني، بينما يتروح هذا المتوسط بين –٢٩° و –٣٤° م عند أطرافها الشمالية. وقد سجلت أعلى درجة حرارة في القارة بوادي الموت في كاليفورنيا بالجنوب الغربي، حيث بلغت ٥٦,٦°م، في حين سجلت أدنى درجة حرارة في منطقة سناج Snag بإقليم يوكن في أقصى الشمال الغربي إذ بلغت أقل من ٣٤° م تحت الصفر.

ويشكل خط طول ١٠٠° غرباً حاجزاً مناخياً واضحاً، حيث يميز بين نطاقين متباينين مناخياً. إذ تتميز الأراضي الواقعة إلى الشرق منه بوفرة أمطارها، في حين تتسم النطاقات الممتدة إلى الغرب منه بضآلة أمطارها. وقد انعكس هذا الوضع المناخي على الواقع البشري وخصائص النبات الطبيعي وأنماطه. تبعاً لذلك يمكن تقسيم القارة إلى ثمانية أقاليم مناخية رئيسية هي: –اقليم المناخ شبه المداري الرطب – اقليم المناخ القاري الرطب – اقليم مناخ الاستبس – اقليم المناخ البحري (السواحل الغربية) اقليم المناخ الصحراوي – اقليم المناخ شبه القطبي – اقليم المناخ القطبي – اقليم مناخ المرتفعات[1].

---

(١) Kendrew , W.G. the climates of the continents. London, ١٩٦١.p٤٠١

الوسط والضغوط المناخية:

مازالت كبرى مناطق النباتات الطبيعية تغطي مساحات شاسعة، وكانت قد تركت منذ زمن بعيد انطباعاً باتساع المساحة والثراء. في مناطق أخرى، وعلى المساحات الأكثر ملاءمة للاستيطان البشري، فقد دمرت مناطق النباتات الطبيعية بالقطع الجائر، وبنيران معمري الأرض أو مستصلحيها. ويجب مراعاة شدة المناخ الذي يفرض العديد من الضغوط على الإنسان. إن دور هذه العوامل المتناقضة يفسر المظهر الحالي للمشاهد الطبيعية.

ومازال هناك نطاقات من النباتات الطبيعية التي قلما لمستها يد الإنسان هي:

-الغابات: وتضم غابات المحيط الهادي التي لا توجد إلا في كندا وهي أشجار معمرة، وأخر الأشجار الحرجية هي السيكوا التي تصنع شكلاً وأثراً تذكارياً تاريخياً. بالمقابل تحتل الغابات الشمالية في كندا مساحات شاسعة أيضاً. من جهة الشرق تختلط الأشجار كثيرة الأوراق كالقيقب الكندي مع الأشجار الراتنجية.

-سهب الصبار أو الأدغال الأرطماسية تشكل بيئة أو زخرفاً لمنطقة الجنوب الغربي من الولايات المتحدة الأمريكية، والتي تكيفت مع جفاف المناخ.

المناطق المستصلحة لم تتوقف عن الاتساع منذ مجيء الأوروبيين، وذلك في المناطق ذات التربة والمناخ الأكثر ملاءمة.

الغابة الأطلسية ذات الأوراق النفضية لا توجد إلا في الجنوب من كندا. أما في الولايات المتحدة فقد اختفت أما المزارعين الذين انتفعوا بهذه الأراضي البنية ذات النوعية الجيدة.

تراجعت مروج المناطق شبه المدارية بسرعة (فلوريدا، دلتا المسيسبي، ساحل الخليج) أمام الاستغلال الحالي (زراعة الكريفون، التصنيع، السياحة).

حددت الضغوط المناخية التوسع السكاني، وحددت حدود المعمورة. فالبرودة تمنع كل الأنشطة الزراعية في المناطق الصخرية، وعلى جزء كبير من الأراضي الكندية (تربة جافة متجلدة في الشتاء). كما أن الجفاف في ولايات الجنوب الغربي (أريزونا، نوفومكسيك..) التي تتلقى كميات من الأمطار أقل من ٤٠٠مم في السنة، لا يسمح بالأنشطة الزراعية خارج المناطق المروية.

هناك ذبذبات مناخية (برودة شديدة جداً، هطال غير منتظم من عام لآخر) تجعل من الزراعة صدفوية على مساحات شاسعة تقع إلى الغرب من خط الطول ١٠٠° أو خطوط الكوارث. فالولايات الواقعة في الجنوب تكون معرضة إلى موجات من البرد الذي يدمر حقول القطن. هذه الضغوط كانت قد أعطت للأمريكيين الشعور بالتحدي المعلن من قبل الطبيعة مما يدفعهم للعمل الدؤوب. وعلى أية حال، فالمناطق القابلة للزراعة واسعة، ويمكنها أن تعيل ٤٠٠ مليون شخص دون أي صعوبات.

السكان:

التركيب الجنسي للسكان:

يرجع السكان في أصولهم إلى عدة سلالات بشرية، تتباين في خصائصها وأصولها وحضارتها وتوزيعها الجغرافي وأهم تلك العناصر:

١-الهنود الأمريكيون (الحمر):

هم سكان القارة الأصليون، الذين انطلقوا من آسيا عبر مضيق بهرنغ إلى أمريكا الأنغلوسكسونية، منذ العصر الجليدي. ينتشر هؤلاء السكان في النطاقات الرئيسية التالية: -الأطراف الشمالية للقارة في مناطق الأسكيمو حالياً على طول السواحل الشمالية لأمريكا الأنغلوسكسونية، وفي مجموعات الجزر المنتشرة في المحيط المتجمد الشمالي - النطاق الشمالي الغربي في نطاق الغابات

المخروطية – النطاق الشمالي الشرقي في المناطق المحيطة بالبحيرات العظمى والأطراف الشمالية من السهول الوسطى – النطاق الجنوبي الشرقي في إقليم جنوب شرقي وغربي الوادي الأدنى لنهر الميسيسبي في الغرب – نطاق السهول الوسطى – نطاق الهضاب الغربية في مرتفعات الكورديليرا – النطاق الشمالي من ساحل المحيط الهادي ويمتد ما بين ولاية ألاسكا في الشمال وولاية أوريجون في الجنوب – النطاق الجنوبي من ساحل المحيط الهادي ويمتد من جنوب ولاية أوريجون وحتى الحدود الجنوبية لولاية كاليفورنيا.

ومعظم هذه الجماعات تعيش في أكواخ خشبية صغيرة معتمدة على الصيد وجمع الطعام.

تبلغ مساحة أراضي الهنود الأمريكيون في الولايات المتحدة حالياً نحو ٢٢٠ ألف كيلو متراً مربعاً وتصل كثافتهم إلى ٦,٨ نسمة/كم^{٢}. في كندا يسكنون في معازل خاصة بهم مساحتها ٢٥٩٦٥كم^{٢} وعددهم نصف مليون نسمة وكثافتهم ١٩,٢ نسمة/كم^{٢}. وتتعدد لغاتهم التي تنتمي إلى عشر مجموعات لغوية تضم نحو ٥٨ لهجة محلية[١].

ويقدر عدد جماعات الأسكيمو بحوالي ٤٠ ألف نسمة يعيش نصفها تقريباً في شمالي كندا، ونصفهم الآخر في ولاية ألاسكا الأمريكية.

٢ــ الأفارقة السود:

لا يعد السود الأمريكيون من عناصر السكان المهاجرة إلى القارة، حيث جلبوا إليها مع بداية القرن السابع عشر رغم إرادتهم كرقيق للعمل في العالم الجديد. وخاصة في زراعة الأرض. وفيما بين عام ١٦١٩ عندما وصلت أول شحنة من الزنوج إلى ميناء جيمستون بولاية فرجينيا، وعام ١٨٦٥ عندما تم إلغاء تجارة الرقيق وتحريرهم تم جلب مئات الألوف منهم إلى المستعمرات

---

(١) محمد خميس الزوكة، مرجع سابق، ص١٤٩.

البريطانية التي تركزت في شرقي الولايات المتحدة الأمريكية.

يتركز معظم الأفارقة السود جنوب القارة الأنغلوسكسونية، حيث تتركز أوسع وأهم الأراضي الزراعية جلبوا من أجل زراعتها. وتقل أعدادهم بشكل ملحوظ كلما اتجهنا شمالاً. يشكل هؤلاء ١٩,٣% من مجموع سكان القارة عام ١٧٩٠. ورغم تزايدهم الطبيعي إلا أن نسبتهم في الولايات المتحدة بالنسبة لمجموع السكان آخذة في التناقص، نظراً لكثرة المهاجرين الأوروبيين وارتفاع معدل وفيات السود وخاصة الأطفال الرضع لسوء أحوالهم المعيشية. لذا هبطت نسبتهم إلى ١٤,١، ٩,٧% من مجموع سكان الولايات المتحدة الأمريكية خلال عامي ١٨٦٠ ، ١٩٣٠ على الترتيب. ويتجاوز عددهم حالياً ٢٥ مليون نسمة.

٣-المتحدثون بالاسبانية:

من الأقليات السلالية الهامة في القارة وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث يبلغ عددهم ١٤,٦ مليون نسمة أي ما يعادل ٦,٤% من مجموع السكان عام ١٩٨٠. وقد جاء معظمهم من المكسيك وبورتوريكو وكوبا. وتركز معظم المهاجرين من بورتوريكو في مدينة نيويورك. والمكسيكيون في ولاية كاليفورنيا، والكوبيون في ولاية فلوريدا بسبب القرب الجغرافي.

ويشكل المتحدثون بالاسبانية غالبية سكان مدينة سان أنطونيو بولاية تكساس، في حين تفوق أعدادهشم أعداد الأفارقة (السود) في عدد كبير من المدن الأمريكية مثل نيويورك، سان فرنسيسكو، لوس انجلوس، دنفر، سان دييجو، فولكس.

٤-الآسيويون:

جاءت أولى موجات الهجرة الآسيوية من الصين إلى أمريكا الأنغلوسكسونية حيث بلغ تعدادها ثلث مليون نسمة للفترة بين ١٨٥٠ - ١٨٨٢. ثم تبعتها موجات أخرى من الصين والفلبين واليابان للعمل في مشاريع

التنمية، وبلغ عددهم عام ١٩٨٠ ٣,٥ مليون نسمة. كما اتجهت هجرة صينية إلى ولاية كولومبيا البريطانية وقدر عدد المهاجرين بـ٢,٧ مليون نسمة عام ١٩٨١. وهاجر إلى كندا أعداد من اليابانيين عام ١٨٩٦ إلى ولاية كولومبيا البريطانية. وفيما بعد توقفت هجرة الآسيويين إلى القارة بسبب القيود الصارمة على هجرتهم.

٥-الأوروبيون:

يؤلفون غالبية سكان أمريكا الأنغلوسكسونية. وقد بدأت موجاتهم بالوصول إلى القارة خلال القرن الثامن عشر، لتصل أقصاها خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حيث استقبلت القارة أعداداً من البريطانيين ومن شمال وغربي أوروبا ثم من جنوبي أوروبا وشرقها.

ولإبراز حجم الهجرة الأوروبية إلى أمريكا الأنغلوسكسونية نذكر أن الولايات المتحدة الأمريكية استقبلت وحدها خلال الفترة بين عامي ١٨٢٠ – ١٩٦٩ نحو ٤٥ مليون مهاجر شكل الأوروبيون نحو ٨٠% منهم. ومعظمهم من بريطانيا وأيرلندا وإيطاليا وألمانيا. وفي الفترة بين عامي ١٩٧٠ – ١٩٧٩ هبط معدل الهجرة إلى أن بلغت نسبة الأوروبيين المهاجرين ١٨,٤%، ويرجع ذلك إلى الهجرة القادمة من المكسيك وكوبا لاعتبارات سياسية منذ بداية الستينات[١].

ويعد الفرنسيون في كندا أول العناصر الأوروبية، حيث شكلوا نحو ٧٥ % من جملة سكان كندا خلال منتصف القرن الثامن عشر. وبقي الفرنسيون يشكلون ثلثي السكان في كندا حتى عام ١٩٠١والبريطانيون نحو الثلث للعام نفسه. وبسبب الهجرة الواسعة للأيرلنديين والاسكتلنديين والبريطانيين أصبحت

---

(١) فاضل الأنصاري، الجغرافيا الاجتماعية، مرجع سابق، ص٤٨٢.

نسبة المهاجرين من أصول بريطانية ٤٥% من مجموع السكان (عام ١٩٧١). أما نسبة الفرنسيين فقد تضاءلت إلى ٢٥% من مجموع السكان، وتركز معظمهم في مقاطعة كويبك (٨٥% منهم يعيشون هناك، ويؤلفون ٨٢% من جملة سكانها). ثم جاءت هجرات أخرى من أوروبا خلال القرن العشرين، وبلغت نسبتهم ٢٦% عام ١٩٧٠.

الجانب الاجتماعي والتاريخي:

هو المجتمع الأكثر تطوراً ونموذجية في بناء العلاقات الرأسمالية الصناعية وتكوينها، وقد ساعدته في اكتساب هذه الخصائص مجموعة من الظروف منها: مساحة البلاد الواسعة وثرواتها الهائلة، وجذبها للخبرة الأوروبية، واستفادتها من عمل الأرقاء ومن الحربين العالميتين. وهذا ما أتاح للقارة جنى مكاسب أكبر في تصدير رأس المال، والهيمنة على أسواق الشعوب ومقدراتها بعد الحرب.

وقد اكتسبت الولايات المتحدة رقعتها الواسعة التي تضم ٥٠ ولاية مع دائرة كولومبيا الاتحادية، في مدى زمن قصير نسبياً. فمنذ أنشأ الإنكليز مستعمراتهم على رؤوس الخلجان النهرية في الساحل الشرقي بدأ التوسع السريع لتلك المستعمرات بشراء لويزيانا عند مصب نهر الميسيسبي وشراء منطقة ألاسكا، وضم كل من تكساس وأريزونا وكاليفورنيا وواشنطن. ومن تكساس توسعت الولايات المتحدة نحو المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية القريبة من حدود المكسيك، والتي تعرف باسم نيومكسيكو التي كانت خاضعة أساساً للمكسيك. وبدأ توسع الولايات المتحدة على طريق البحر في وقت متأخر بامتلاك جزر هاواي الغنية بموقعها الاستراتيجي ومنتجاتها المدارية. كذلك ضمن جزر ساموي حيث أقامت قاعدة بحرية ضخمة. وفي عام ١٨٩٨ فرضت الولايات المتحدة حمايتها على كوبا لاستغلال مزارع قصب السكر، ثم فعلت الشيء نفسه في جزر الفلبين وبورتوريكو، كذلك امتلكت بعض الجزر الأخرى.

مثل "جوام" ومارست نوعاً من الحماية على نيكاراغوا وهايتي، وسانت دومينجو، وربطت بها مباشرة منطقة قناة بنما واشترت جزر (فرجين) من الدانمارك.

وبعد تغير معايير الضم والسيطرة المباشرة في القرن العشرين أخذت مظاهر النفوذ الأمريكي أشكالاً أخرى، في صورة المساعدات المالية والقروض وتصدير الاستثمارات، وعلى طريق الأحلاف والمعاهدات أو المساعدات العسكرية كما هو الحال في دول حلف الأطلسي وجنوب شرق آسيا ودول حلف المعاهدة المركزية، أو على طريق إرسال القوات الأمريكية كما هو الحال في تركيا واليونان، أو على طريق الاحتلال المؤقت كما هو الحال في برلين وألمانيا الغربية. أو الاحتلال الحديث للعراق وأفغانستان والهيمنة على منطقة الشرق الأوسط وخصوصاً شبه الجزيرة العربية.

النمو السكاني:

بلغ عدد سكان القارة ٣٠٤,٦ مليون نسمة عام ١٩٩٧ منهم ٢٧٣,٨ مليون نسمة في الولايات المتحدة، و ٣٠,٢ مليون نسمة في كندا، ووصل إلى نحو ٣١٥ مليون نسمة عام ٢٠٠١ منهم ٢٨٤,٥ مليون نسمة في الولايات المتحدة والباقي في كندا.

وبلغ معدل النمو السكاني للفترة (١٩٩٥-٢٠٠٠) نحو ٠,٨ أي ٠,٩ في كندا و٠,٨ في الولايات المتحدة الأمريكية. وسيصل حجم السكان في القارة إلى ٣٦٩ مليون نسمة في عام ٢٠٢٥، منهم ٣٦,٤ مليون في كندا و ٣٣٢,٥ مليون نسمة في الولايات المتحدة الأمريكية[1].

---

(١) UNFPA حالة سكان العالم ١٩٩٨ مجلة دورية صادرة عن صندوق الأمم المتحدة.

التمركز المدني والبنية الاجتماعية – الاقتصادية:

يتكون المجتمع الأمريكي من مجموعات عرقية وثقافية لم تنصهر بعد انصهاراً كاملاً نتيجة التوسع والهجرة المتنوعة المصادر، وأهم هذه المجموعات هي مجموعة البيض الأنكلوسكسون والبروتستانت وهي تتربع على قمة هرم المجتمع الأمريكي تليها مجموعتا البيض الكاثوليك من أصول فرنسية وإيطالية وايرلندية. واليهود البيض ذوو النفوذ الاقتصادي. وبين هذه المجموعات تناقضات، رغم أنها تشكل معاً القوى المسيطرة اقتصادياً واجتماعياً هناك. إلى جانب هذه المجموعات هناك الأقليات وأكبرها عدداً الأفرو أمريكيون والسكان الأصليون، والبورتوريكيون، والأمريكيون الشرقيون من أصل ياباني وفلبيني وغيرهم.

وتضافرت عوامل النمو ورفد الهجرات الخارجية والداخلية مع جواذب تطور التقنية الصناعية، في تحقيق النمو السريع للمدن الأمريكية، ففي عام ١٧٩٠ لم يكن في أمريكا الشمالية كلها مدينة واحدة تستطيع منافسة المدن الأوروبية، فلم يبلغ عدد سكان مدينة نيويورك مئة ألف نسمة إلا عام ١٨٢٠، وقد ظلت حتى قرن مضى بعيدة عن المليون، واليوم تناهز كتلة نيويورك ٢٠ مليون نسمة، وهناك ما يقارب من ٢٥ مدينة أخرى عدد سكانها يزيد على المليون نسمة، وأن تعداد السكان المدنيين اجتماعياً واقتصادياً في الولايات المتحدة يمثل أكثر من ٨٠% من مجموع السكان. وأصبحت المدن الأمريكية تضم خطين متباينين في الشكل والبنية والحياة:

١ً: ويتمثل في صورة المدينة المكتظة الكثيرة الضوضاء، ملوثة الهواء، ذات النواة التجارية التي تحتلها ناطحات السحاب، وتشغل معظمها المكاتب والمؤسسات والشركات حيث البنية السكنية آخذة في التناقص، وحيث تنتشر بعض الأحياء الشعبية المزدحمة بالسكان الفقراء.

٢ً: وتضم سكان الضواحي القادرين على الهرب من المدينة، لذلك تتشكل

غالبيتهم من الفئات المتوسطة من المجتمع.

وتكتظ المدن الكبرى بالأحياء الفقيرة التي تفتقر إلى الخدمات الضرورية، وقد نشرت مديرية الإحصاء الأمريكية تقريراً اجتماعياً ورد فيه أن عدد الفقراء في الولايات المتحدة ازداد بنسبة ١١%. ويفسر الخبراء الأمريكيون تزايد نسبة الفقراء بارتفاع عدد العاطلين عن العمل.

ويتميز الاقتصاد الأمريكي المعاصر بالتركيب الصناعي، حيث تقدم الصناعة والبناء أكثر من ٦٥% للدخل القومي في البلاد. ويتخذ مجال الخدمات أهمية متزايدة في الاقتصاد. وتتوزع صناعة القارة بشكل غير متساو تتبعها كثافة العمال. وتبرز بين المناطق الصناعية في أمريكا الشمالية منطقة الأطلسي، وتمتد من جنوب كندا حتى بوسطن ثم برمنغهام على شكل شريط يزيد طوله على ١٨٠٠كم يحتوي على مدن مثل بوسطن، نيويورك، فيلادليفيا، بالتيمور، شيكاغو ديتريت الميفلاند كمراكز صناعية رئيسية. وفي السنوات الأخيرة زادت الأهمية الصناعية لمناطق تكساس أكلاهوما بسبب النفط. ولوس انجلوس في بناء الطائرات وسان فرانسيسكو في بناء السفن.

وتتخلف الزارعة من حيث مساهمتها في تكوين الدخل القومي في الولايات المتحدة وكندا عشر مرات عن الصناعة والبناء. وهي تتمثل أساساً في المزارع الرأسمالية المتطورة المكننة، وتشكل ٥% من مجموع المزارع، ونصف مساحة الأراضي الزراعية في البلاد. وتتميز الزراعة الأمريكية بالتخصص الشديد في المناطق والقطاعات. وتعد تربية الحيوان قطاعاً زراعياً رئيسياً إلى جانب إنتاج القمح والذرة والقطن والتبغ والموالح.

الاحتكارات الأمريكية والسوق الخارجية:

تسيطر الشركات العملاقة الكبرى على الاقتصاد الأمريكي، وتوجه السياسات الداخلية والخارجية لمصلحتها، إذ تتحكم ثلاث شركات مثلاً في

سوق الألمينيوم الأمريكي وفي سوق السيارات والمكنات الزراعية، ومنتجات اللحوم والنحاس وصفائح التنك. وقد قامت الشركات العالمية المتعددة الجنسية كتعبير عن اتجاه التكامل الاقتصادي لرأس المال الاحتكاري في العالم، بحيث أصبح للولايات المتحدة المركز القائد في هذا المضمار. وتسيطر الاتحادات الأمريكية الصناعية اليوم، على القطاعات الصناعية الأكثر أهمية في الصناعة الأوروبية الغربية، فهي تسيطر على ٨٠% من انتاج الآلات الإلكترونية. وقد نجحت الاحتكارات الأمريكية في أوروبا، وفي بلدان العالم الثالث. ويمكن القول إن ثراء الولايات المتحدة لا يعتمد على إمكاناتها الذاتية، الصناعية والزراعية وثرواتها الطبيعية والمعدنية. وإنما يعود إلى استثماراتها في العالم الخارجي. فهي تعتمد اعتماداً كبيراً على مصادر المواد الأولية في العالم الثالث، وتأتي معظم مشاكلها من نزعات التحرر الوطني لدى الشعوب الأخرى في العالم.

المشكلات الراهنة:

التمييز العنصري:

يوجه التمييز العنصري ضد غير البيض، أو من أصول غير أوروبية، سواء بالنسبة للأفارقة السود أم لبقية فئات السكان هناك. لكن التمييز ضد السود عموماً، هو من أبرز أنواع العنصرية، التي تتنافى مع كل قواعد الإنسانية، ومرتكزات التحضر الحديث. وقد بدأت المشكلة الزنجية، منذ عام ١٦١٩، عندما حطت أول سفينة تحمل (٢٠) أفريقياً إلى شاطئ العالم الجديد، وهي مستمرة حتى أيامنا الراهنة، إذ يهيمن الفقر على أحياء الزنوج في المدن، وذلك بسبب الحاجز العنصري الذي يفصل المجتمع الأسود عن المجتمع الأبيض. وخصوصاً في مجال التوظيف والأجور وفي مجال التعليم، والسكن وفي الحياة العامة.

فيض الإنتاج والبطالة:

يؤثر فيض الإنتاج بشدة في معدلات نمو الإنتاج القومي، ويؤدي إلى تكدس البضائع وكسادها في وقت يقل الطلب عليها. ويلازم هذه الظاهرة استمرار التضخم الذي زادت سرعته خلال طور انخفاض الإنتاج. وتشير الإحصاءات أنه على الرغم من النمو الظاهر في التوظيف والإنتاج، بقيت القدرة الشرائية لمداخيل ٦٥% من الشعب الأمريكي، على ما كانت عليه قبل عشر سنوات. ولم تنجح معالجة التضخم من قبل الحكومات بالتقشف، بل عملت على زيادة البطالة وإفلاس المؤسسات المتوسطة.

مشكلات الشباب وتزايد الجريمة والجنوح:

إن التنافس من أجل الربح والثراء، وفقدان القيم الروحية وتفكك الروابط الأسرية، قد ولد عند الشباب حب العودة إلى الطفولة الأولى حيث عالم القيم غير المادية. فانتشرت ظاهرة الإدمان على المخدرات، والهروب من العائلة أو التسكع. أو إدمان الكحول تتجلى هذه الظاهرة على الأكثر بين شباب الفئات العليا والمتوسطة. وينتج من هذه المجتمعات المجرمون الفارون من العدالة[1].

ثانياً: المجتمع الياباني:

تعد اليابان من بين أهم المجتمعات الرأسمالية، وتتميز بالتحول والتغير والنمو السريع، فهي تحتل المركز الثاني في العالم الرأسمالي بعد الولايات المتحدة الأمريكية من حيث قيمة الناتج المحلي الإجمالي.

---

(١) فاضل الأنصاري، مرجع سابق، ص٤٩٢-٤٩٩

الخصائص الطبيعية:

الموقع والمساحة:

تقع اليابان في قارة آسيا، وتتألف من مجموعة من الجزر مكونة أرخبيلاً يمتد تجاه الساحل الشرقي للقارة الآسيوية بين خطي عرض ٢٥َ ٢٠ْ و ٣٣َ ٤٥ْ شمالاً. يتألف الأرخبيل من أربع جزر رئيسة هي: هونشو، هوكايدو، كيوشو وشيكوكو، إضافة إلى العديد من الجزر (٣٩٠٠ جزيرة) بمساحة قدرها ٣٧٧٨١٥ كيلو متراً مربعاً[1] ويوضح المصور (رقم٥) موقع اليابان وأهم المدن فيها.

---

(١) فاضل الأنصاري، الجغرافية الاجتماعية، مرجع سابق، ص٥٠٠.

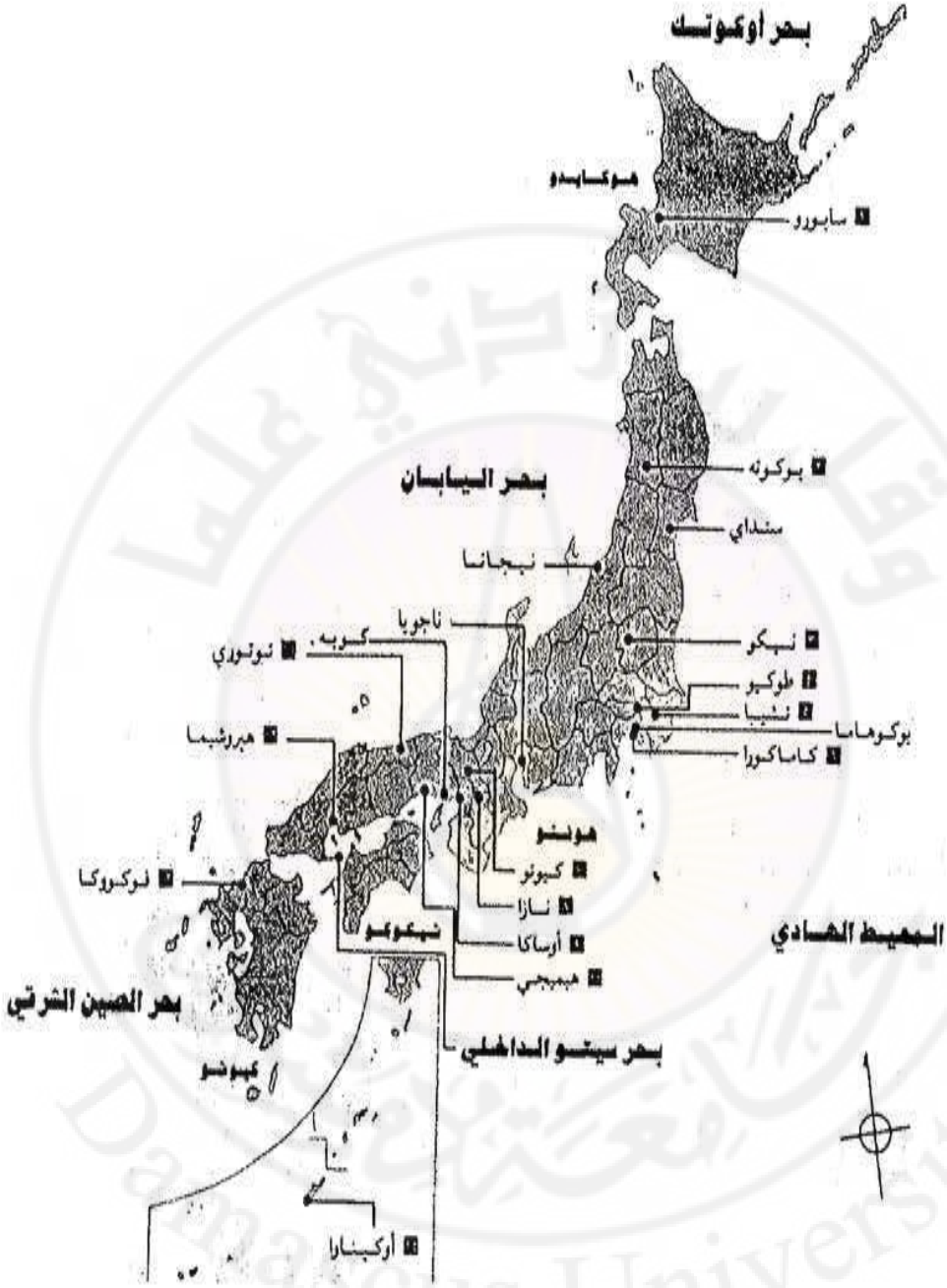

موقع اليابان وأهم المدن فيها

المناخ:

تقع اليابان في العروض المعتدلة وعند الطرف الشمالي الشرقي لمنطقة الأمطار الموسمية. والمناخ معتدل بصفة عامة رغم أنه

يتباين من مكان لآخر. وهناك أربعة فصول متميزة في أغلب أجزاء اليابان. والأمطار سخية تتراوح بين ١٠٠٠ و٢٥٠٠ ملم في السنة. وتسقط الثلوج الكثيفة في المناطق الشمالية والجبلية خلال فصل الشتاء، مما انعكس على زيادة انتشار الغابات والنباتات الوفيرة في مختلف أنحاء البلاد.

التضاريس والموارد الطبيعية:

تعد التضاريس اليابان معقدة، فهي تتألف من سلاسل جبلية طويلة موازية للسواحل، مما أعطى للبلاد خطاً ساحلياً طويلاً مع موانئ كثيرة صغيرة لكنها جيدة. كما أدى وجود الجبال التي تحظى بكميات وفيرة من التهطال إلى تشكل الأنهار والأودية الكثيرة السريعة التدفق والبحيرات العذبة. وتشكل الجبال نحو ٧١% من مساحة اليابان، وتعد قمة فوجي أكثرها ارتفاعاً (٣٧٧٦ متراً). وتستفيد اليابان من طبيعتها الجبلية وكثرة أمطارها في استثمار الطاقة وتوليد الكهرباء التي أصبحت تسد ٧٥% من حاجاتها المحلية للكهرباء[١]. وتعد اليابان غنية بالمياه من أنهار وبحيرات وعيون طبيعية ساخنة تندفع من جوف الأرض، وتستخدم في حمامات الإنعاش.

وتغطي الغابات مساحة قدرها ٦٨% من مساحة اليابان، وهي شديدة التنوع، وتسود الصنوبريات في الشمال أما في الوسط والجنوب فتختلط الأشجار النفضية ودائمة الخضرة. وتستثمر هذه الغابات استثماراً علمياً. وتزخر اليابان بحياة حيوانية فريدة[٢].

---

(١) وزارة الخارجية اليابانية، اليابان اليوم، ٢٠٠١.

(٢) وزارة الخارجية اليابانية.

غير أن اليابان تفتقر إلى الموارد الطبيعية، ويعوض اليابانيون نقص الموارد على اليابسة بما هو متاح في البحار من أحياء مائية تسد قسماً كبيراً من حاجات اليابان إلى المواد الغذائية. وقد بلغت حصة اليابان من صيد الأسماك ١٥% من مجموع مصائد الأسماك في العالم عام ٢٠٠١. وتهتم بتربية اللؤلؤ والمحار وبعض الأحياء المائية الأخرى.

الخصائص الديموغرافية:

يتميز المجتمع الياباني بخصائص مختلفة عن بقية المجتمعات الآسيوية وحتى الصناعية الأخرى[1]. فبالرغم من صغر مساحة اليابان فإنها تأتي في المرتبة الثامنة من حيث عدد السكان في العالم. إذ يبلغ عددهم ١٢٧,١ مليون نسمة عام ٢٠٠١، ومعدل النمو السكاني ٠,٠٠١ [2]. مما يجعل اليابان واحدة من أعلى دول العالم كثافة بالسكان التي تبلغ ٣٣٢ فرد في الكيلومتر المربع. وتتباين هذه الكثافة بين المناطق. هذا العدد الضخم للسكان مقابل المساحة الكلية التي يقيمون عليها وكذلك بالنسبة لمساحة الأراضي الزراعية. يجعل المجتمع الياباني يتحمل عبئاً كبيراً نتيجة لقلة الأراضي الزراعية، وكذلك بسبب ما ورثوه عن الإقطاعية القديمة من أنظمة اقتصادية واجتماعية. وتعاني اليابان من ظاهرة التركز المدني الشديد للسكان حيث يهاجر السكان من الريف إلى المدن نظراً لتوافر فرص العمل والظروف الحضارية الأفضل. فأغلب اليابانيين يعيشون في المناطق شديدة التطور على الساحل الشرقي أو في الاقليم الجنوبي حيث معظم مدن اليابان الكبرى، إذ يعيش أربعة أفراد من بين كل خمسة في المدن، وأن ربع سكان اليابان يقيمون في طوكيو والمحافظات المحيطة بها مباشرة؛ وتضم الأجزاء الواقعة في نطاق المدن الثلاث طوكيو وأوسكا وناجويا ما يقرب من ٤٥% من

---

(١) محمد صافيتا وآخرون، أسس الجغرافية البشرية، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ٢٠٠٠.

(٢) نشرية إحصائية صادرة عن الأمم المتحدة. حالة سكان العالم، ٢٠٠١.

مجموع السكان[1].

وقد سجلت معدلات الولادة ارتفاعاً كبيراً بعد الحرب العالمية الثانية فبلغت ٣٤,٣% في عام ١٩٤٧م مما أثارت الخوف لدى المسؤولين نتيجة لارتفاع عدد أفراد القوة البشرية، وبالتالي الذين يبحثون عن العمل. علماً بأن عدد السكان كان نحو ٥٥ مليون نسمة عام ١٩٢٠م. ويرجع هذا النمو الكبير والسريع في عدد السكان إلى ارتفاع نسبة الولادات وانخفاض معدل الوفيات وكذلك عودة جميع اليابانيين الموجودين خارج البلاد إليها.

بالنسبة لتركيب السكان فإننا نلاحظ تغيراً واضحاً، فقد كان الأطفال دون سن الرابعة عشر يشكلون قاعدة الهرم السكاني، ثم أخذت أعدادهم تتراجع نظراً لقلة عدد المواليد وكذلك عدد الوفيات. يبلغ متوسط العمر في اليابان ٨٠ سنة وهو أعلى متوسط للأعمار في العالم.

شكل رقم (١) يوضح أهرامات الأعمار لسكان اليابان للفترة بين ١٩٢٠ و٢٠٢٥.

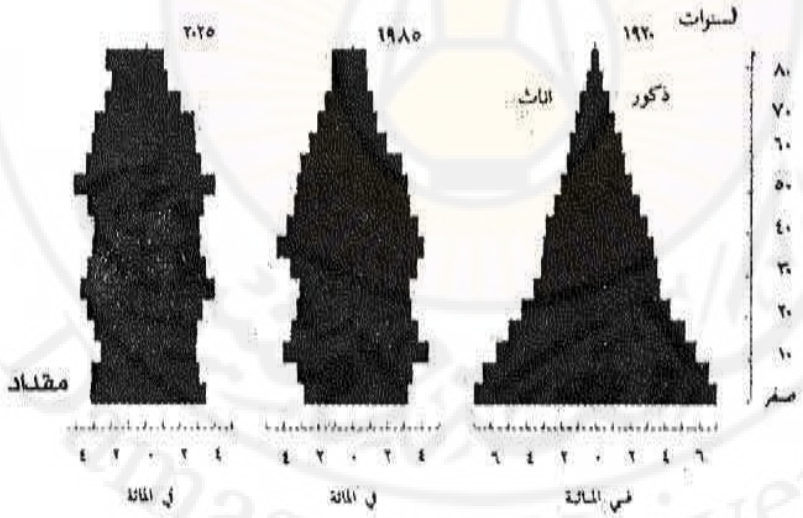

(١) وزارة الخارجية اليابانية. اليابان اليوم ٢٠٠١.

يحفل تاريخ اليابان بسلسلة من الأحداث التاريخية الهامة، وقد دخلت اليابان جماعات مغولية عن طريق كوريا وجزيرة تايوان، ودفعت بالجماعات السكانية القوقازية القديمة المعروفة "بالأينو **Ainu**" نحو الشمال. وكانت قد نقلت إليها بعضاً من أشكال الحضارة الصينية، كزراعة الحبوب والأرز، وفي منتصف القرن السادس عشر جاءت غزوات الأوروبيين (البرتغال) الذين سرعان ما نشروا التعاليم المسيحية، مما حمل اليابانيين على طرد الأوروبيين، وإغلاق موانئهم في وجه السفن الأجنبية، حتى إن صيدهم البحري اقتصر على السواحل اليابانية فقط. واستمر الوضع على هذا النحو مدة قرنين ونصف قرن، وخلالها تمكن اليابانيون من وضع الأسس الحضارية لمجتمعهم بعد أن كانت تسوده البنية الاقطاعية. لكن في عام ١٨٥٣م تمكن اسطول أمريكي من الدخول إلى ميناء يوكو هاما وأدى إلى سقوط الأسرة الحاكمة آنذاك، وفي عام ١٨٦٨م تسلمت الأرستقراطية العقارية الاقطاعية إدارة الثورة الصناعية. وتمخض عن ذلك أن أقيمت المصانع، وفتحت أسواق اليابان أمام الدول الأجنبية، ومدت السكك الحديدية بين طوكيو ويوكو هاما في عام ١٨٧٢م، وبنيت الأرصفة البحرية، وكثرت الموانئ التي تستقبل السفن الأجنبية، لكن هذا التطور في ميدان الصناعة سرعان ما أوقع اليابان في مصاعب كالحصول على المواد الخام من المعادن ومصادر الطاقة، إلا أنها رغم تلك الصعوبات نجحت في تجاوزها واستطاعت استيراد المواد الخام.

العمالة والعمل:

تنامت أعداد الطبقة الوسطى بحيث أصبحت تشكل أكبر شريحة اجتماعية، ويعد نحو ٨٥% من اليابانيين أنفسهم من الطبقة الوسطى. وعمال اليابان اليوم من بين أفضل العمال أجوراً في العالم. وبعض الشركات اليابانية تعد من أكبر الشركات في العالم، وتستخدم عدداً كبيراً من الموظفين، ورغم التحسينات في

كـل مـن الأجـور وظروف العمل، فمازال العمال اليابانيون أقل حظاً من نظرائهم الأمريكـيين والأوروبـيين مـن حيث الإجازات وساعات العمل. ففي مجال التصنيع فـإن أسـبوع العمـل في المتوسـط يـبلغ ٤٣,٦ سـاعة في اليابان أي أطول بسبع ساعات عما في ألمانيا التي تتميز بأقصر أسبوع عمل في العالم.

تشكو اليابان من الارتفاع المتزايد في نسبة العاطلين عن العمل، ويرجع ذلك إلى:

١- تحول الاقتصاد الياباني إلى طريق نمو أكثر بطئاً.

٢- عـدم الانسـجام في سـوق العمل صاحب الخطى السريعة لإعادة البناء نحو اقتصاد يقوده الطلب المحلي بدلاً من الصادرات.

٣- التدفق المتزايد للعمال غير المتفرغين وخاصة النساء.

وتتضمن الأولويات الرئيسية لسياسة المستقبل:

١- إيجـاد مصـادر جديدة للعمالة عن طريق تحقيق نمو اقتصادي ثابت وتحسين رفاهية العامل.

٢- بذل جهود طويلة المدى لإيجاد فرص عمل إضافية.

وتعـد الـيابان واحـدة من أكبر الدول المستوردة للمنتجات الزراعية في العالم حيـث لا تـزرع مـن أرض اليابان سوى ١٣,٣%. ويستخدم اليابانيون الأساليب العلمـية الحديـثة في الـزراعة. وتسـهم الموارد الزراعية في تأمين قسم من حاجات الـيابان لـلمواد الغذائـية. وتهـتم الحكومـة بصـيد الأسمـاك، ويمثل ٦٠% من البروتينات التي يستهلكها السكان.

التصنيع:

وقـد أسسـت مصـانع المنسـوجات القطنية أولاً، واستوردت القطن الخام من الولايـات المـتحدة، ونافسـت بذلـك المنسـوجات البريطانية، وبالنتيجة توسعت الصـناعة اليابانـية، وازداد نطـاق نفـوذ الـيابان في المـنطقة، مما سبب في نشوب حـرب بيـنها وبـين الصـين في عـام ١٨٩٤-١٨٩٥م، انتهـت بـأن أصبحت

منشـــورياً مـــنطقة صـــراع بـــين شعوب المنطقة. وفي عام ١٩٣١ تمكنت اليابان من السـيطرة عـلى منشـوريا. ومـا أن جاء عام ١٩٣٧ حتى استطاعت السيطرة على سـاحل الصـين ومدنـه الرئيسية. ثم في عام ١٩٤١ أصبحت قوة عظمى في شرق آسـيا، تسـيطر عـلى معظم الأراضي المجاورة لها، لكنها خلال الحرب العالمية الثانية انهزمـت أمـام الجـيش الأمـريكي في معـركة بيرل هاربر وبالتالي تقلصت مناطق نفوذها لتصل إلى حدودها الحالية[1].

أمـا الـيوم فـتعد صـناعة الحديـد من الصناعات الهامة، وتحتل اليابان المركز الثالـث بعـد الولايـات المـتحدة وروسـيا مـن حيث الانتاج. كما تكثر وتتنوع الصـناعات، كصـناعة بـناء السـفن أو تـأتي في المرتبة الأولى في العالم والسيارات والأجهـزة الكهربائـية والالكترونـية والنسـيجية (تـأتي في المرتبة الرابعة في العالم) والكيماوية إلى جانب العديد من الصناعات اليدوية والتقليدية.

أهـم المـناطق الصـناعية في الـيابان مـنطقة طوكيو ويوكوهاما والتي تشتهر بصـناعة الحديـد والصـلب، ومـنطقة أوزاكـا وكوبي وكيوتو التي تسمى بمنطقة هانشـين الصـناعية، ومـنطقة ناجويـا، ومـنطقة شمال شيوشو التي تشتهر بصناعة الكـيماويات والآلات الميكانيكـية والكهربائـية ومـنطقة غرب هونشو التي تصنع المـواد الكـيماوية والـزيوت الصـناعية ومـنطقة جـنوب هوكـايدو وبها تقوم الصناعات الثقيلة نظراً لتوافر الفحم فيها.

التجارة والاستثمار:

تحصـل الـيابان عـلى نصيب متنامٍ من التجارة الدولية حيث ارتفعت صادراتها الإجمالـية مـن ٨٢٥ ملـيون دولار أمـريكي أي ما يعادل ١,٣٨ من مجمل التجارة

---

(١) يسـري الجوهري وناريمان درويش، الجغرافية البشرية، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية ١٩٩٢، صفحة ٤٤٨.

العالمية عام ١٩٥٠م إلى أرقام هائلة وصلت إلى ٣٩٦ مليار دولار عام ١٩٩٤، إضافة إلى ذلك ترافقت تلك الزيادة في الصادرات بتزايد ملحوظ في الواردات حيث كانت لا تتجاوز ٩٦٥ مليون دولار أي ما يعادل ١,٥٨% من التجارة العالمية، ووصلت إلى ٢٧٥دولاراً عام ١٩٩٤م والجدير بالذكر هو أن اليابان تلاحق الولايات المتحدة الأمريكية في معظم المناطق وتتجاوزها في مناطق أخرى مثل آسيا.

كثير من الشركات اليابانية تفتح مصانع لها في مختلف قارات العالم، ففي عام ١٩٩٣ انفقت الشركات نحو ٣٦ مليار دولار كاستثمارات في العالم. وتحظى أمريكا الشمالية بنصف هذه الاستثمارات.

إن التصاعد المستمر في استثمارات اليابان الخارجية، يفسر إلى حد كبير التطلع المتزايد لدول شرق وجنوب آسيا للتعامل مع اليابان للحصول على فوائد التجارة الدولية وجلب الاستثمارات اليابانية.

تعرضت اليابان لأزمة اقتصادية عام ١٩٩٨ أدت إلى إفلاس عدد من شركاتها الكبيرة وإلى تعطيل النمو الاقتصادي الياباني وذلك في أواخر عهد كيزوأبوتشي. إن تداعيات الأزمة الاقتصادية والتغير السريع لرؤساء الوزارة قد حد من تنامي الاقتصاد الياباني ومني "الين" بخسائر كبيرة مقابل العملات الرئيسة.

وكبقية المجتمعات الصناعية يتألف المجتمع الياباني من ثلاث طبقات رئيسة هي كبار الرأسماليين وطبقة العمال، والطبقة الوسطى التي حجمها ودورها رئيسي في الاقتصاد والحياة السياسية.

مشكلات اليابان: وهي عديدة وأهمها:

١. الكثافة السكانية العالية.
٢. نقص الأراضي الزرعية.

٣. الهجرة من الريف إلى المدن.

٤. قلة الموارد المعدنية ومصادر الطاقة.

٥. البطالة وارتفاع نسبة العاطلين عن العمل.

٦. أزمات اقتصادية ناجمة عن روح المنافسة في المجتمع الرأسمالي الصناعي، وأثر الاحتكارات العالمية الأمريكية والأوروبية فيها.

٧. مشكلات الشباب وتراجع القيم الروحية أمام الحياة المادية ومتطلباتها.

ثالثاً: المجتمع البريطاني:

بريطانيا إحدى دول أوروبا الغربية الصناعية المهمة، ونموذج منها، فهي تحتل مركزاً ممتازاً بين تلك الدول، نتيجة لعوامل عديدة أهمها هو أن الثورة الصناعية الكبرى انطلقت أساساً منها ثم انتشرت إلى الدول الأوروبية المجاورة، إضافة إلى أن مجمل مقومات الصناعة تتوافر فيها كمصادر الطاقة (الفحم والبترول) والمعادن، والسوق واليد العاملة الخبيرة ورأس المال وطرق المواصلات.. إلخ.

ويرتبط توزيع الصناعات الرئيسية في بريطانيا بتوزيع الفحم[1]. والمعادن، وأهم الصناعات هناك: الصناعات المعدنية، وهي تظهر قوة بريطانيا الصناعية، وتتوزع في جميع أرجائها، وكذلك الصناعات النسيجية التي تتركز في يوركشير ولانكشير، أما الصناعات الكيماوية فتنتشر في مناطق حقول الفحم في كل من حوض نهر كلايد وحول نيوكاسل ودربي ويوركشير ووسط بريطانيا وويلز وبلفاست.

إن قيام الصناعة بالقرب من مناجم الفحم والمعادن أسهم في نشوء المدن، وتطورها

---

(١) عبد الفتاح محمد وهيبة، جغرافية الإنسان، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠ ص٢٢٤.

حيث نلاحظ توافقاً بين المناطق ذات الكثافة العالية بالسكان ومناطق الفحم، إذ ترتفع كثافة السكان لتزيد على ٢٠٠ نسمة في الكم٢ في وسط اسكتلندا وشمال شرق إنكلترا ويوركشير ووسط انكلترا وجنوب ويلز وإقليم لندن.

وبقي الوضع قائماً حتى الثلاثينيات من القرن العشرين عندما استخدمت الكهرباء وزيت البترول بدلاً من الفحم، فتخلصت بعض الصناعات من القيود المكانية التي فرضها الفحم، ويظهر ذلك بوضوح حول لندن.

يعتمد الاقتصاد البريطاني على الصناعة، إذ يعمل ٦٥% من سكانها في الصناعة والتجارة والنقل، و٢٥% يعملون في الإدارة والمهن الحرة أو الجيش. و١٠% من السكان يعملون في الزراعة وصيد الأسماك. فالمجتمع البريطاني هو مجتمع تجاري[1]. ويعني هذا كثرة المصانع والبنوك والمراكز التجارية والبورصات فيها. وقد كانت السباقة في تطبيق مبدأ حرية التجارة وقدمته للعالم.

ونتيجة لهذا الواقع يتألف المجتمع البريطاني من ثلاث طبقات أولها الطبقة الأرستوقراطية والرأسمالية القديمة، وثانيها الطبقة الوسطى المؤلفة من الموظفين وصغار المستثمرين، وثالثها طبقة العمال وهي أدنى الطبقات في السلم الاجتماعي.

وتشكو بريطانيا كغيرها من البلدان الصناعية من مشكلات شبيهة بمشكلات الولايات المتحدة. إلا أنها تنفرد بمشكلة وهي أنها أصبحت تعتمد اعتماداً تاماً في غذائها على ما تستورده من الخارج بعد أن ضحت بحقول القمح وإنتاج الطعام في بلادها، مقابل الحصول على الخامات بأرخص الأثمان، وحتى تتمكن من المنافسة في السوق العالمية، وتكسب أسواقاً دائمة لها.

---

(١) محمد السيد غلاب، الجغرافية العامة الطبيعية والبشرية، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٩٥، ص٢٨٢.

الشعوب والمنظمات

مما لا شك فيه أن التعرف على تاريخ الظاهرة يعمل على زيادة فهمها ووضوحها وخصوصاً ما يتعلق بالحياة الإنسانية لأن الصفة التاريخية واضحة وجلية قال أوغست كونت: لا تتيسر معرفة معنى من المعاني معرفة جيدة إلا بالاطلاع على تاريخه، وهذا القول عام وشامل إلا أن الدراسات الاجتماعية والإنسانية هي الأجدر بمثل هذه الأبحاث التاريخية وأحق وأولى من غيرها لأن الزمن ملازمها، والتغير والتحول طبيعتها، ولأن الحقبة التي تصل إليها لا يمكن معرفتها أو إدراكها إلا بالتعرف على الفترات السابقة منذ بداية العصور الحديثة حتى فجر القرن العشرين كان التفوق التجاري ثم الثورة الصناعية قد أعطيا لأوروبا وضعاً مسيطراً وقد كانتا الحربين العالميتين أوروبيتين أساساً، وأصابتا بعمق معظم دول هذه القارة، وكان نتيجتها خسائر فادحة في الأرواح ودمار مادي كبير بسبب الأعمال الحية للمحاربين، وظهر منافسون جدد منذ سنوات العشرينات الولايات المتحدة الأمريكية ثم اليابان إذ أصبحن من كبرى الدول الصناعية في العالم.

وقد فنيت الامبراطوريات بسبب من كثرة الصعوبات ولم تنجح الدول المستعمرة في البقاء في مستعمراتها لكن الفوائد الاقتصادية (أسواق محمية) قد حل محلها منافسات جديدة (مساعي للتطور)، بينما بقيت الروابط المالية والثقافية على حالها والتي يسميها البعض استعماراً جديداً وقد أعطى انهيار روسيا القيصرية ولادة لأول دولة اشتراكية ماركسية متمثلة بالاتحاد السوفيتي في عام ١٩١٧، وتشكلت الديموقراطية الشعبية في البلدان الأوروبية التي احتلتها الجيوش السوفيتية في عام ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥ هكذا فقد أدت الحربين العالميتين إلى تقسيم أوروبا إلى كتلة ما قبل عام ١٩١٤ التي قامت على تنافس القوميات والعالم إلى كتل قامت على الخصومة أو العداء الإيديولوجي.

أولاً: الكتل العالمية الكبرى:

هناك تساؤل: ما هي تلك الكتل العالمية الكبرى؟ منذ الحرب العالمية الثانية انقسم العالم تخطيطاً إلى ثلاث مجموعات: الكتلة الأمريكية الكتلة السوفيتية، والعالم الثالث وقد ساعد الغنى الديموغرافي على ارتقاء أمريكا، واستقبلت الولايات المتحدة من الخارج موجات من المهاجرين الطموحين الذين وجدوا في النظام الاقتصادي الحر كبرى المبادرات واحتمالات النجاح لتحسين معيشتهم كما استفادت الولايات المتحدة من التاريخ: فالتناقضات الداخلية للسكان الأوائل والصراع على الحدود مع المكسيك ترجع جميعها إلى القرن التاسع عشر إضافة إلى أن الحربين العالميتين قد أغنتاها، ودعمتاها صناعياً، ولم تضعفاها ديموغرافياً لأن الحرب لم تدر رحاها فوق أراضيها كما أن تدخلهم فيها كان متأخراً. وقد ترسخ نفوذ الولايات المتحدة عالمياً خلال الـ ٢٥ سنة الأخيرة التي تلت الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥ ـ ١٩٧٠) ونفوذها هذا استند إلى مجموعة من الأسلحة الفعالة منها المظاهر الإيجابية للحرية الاقتصادية وخصوصاً الإرادة المتميزة للالتزام والابتكار قوة الدولار الذي عرف الأمريكان كيف يجعلون منه أداة فعالة، وليكون نقداً قوياً حتى نهاية سنوات الستينات ومنذ ذلك الوقت أصبح فائضاً. التقدم التكنولوجي الذي لم يتعثر أبداً. أسلحة اقتصادية تتمثل بالفائض الزراعي ذي القيمة الكبيرة مقابل النقص الغذائي الكبير جداً في البلدان النامية والدول الاشتراكية. صورة إيديولودجية للديمقراطية التعددية وللحرية ـ ووسائط عسكرية واسعة على مستوى عالمي مدعومة بمعاهدات متعددة الجوانب مع حماية نووية وقواعد استراتيجية.

أما ارتقاء الاتحاد السوفيتي إلى مستوى الدول العظمى فقد كان متأخراً وأكثر صعوبة إذ تم في دولة متأخرة اقتصادياً والبنيان الاجتماعي غير موافق ويظهر لنا التاريخ عداوات واضحة هناك. الثلاثون سنة من عام ١٩١٤ـ

١٩٤٥ تميزت بمجازر ديموغرافية: الحرب العالمية الأولى، الحروب الأهلية المتتابعة حتى الثورة، ضحايا السياسة الستالينية (التأميم الزراعي الإخلاء) والحرب العالمية الثانية التي انتهت بما يقل عن ٣٠ مليون قتيل. دمار مادي، وفساد متتابع للنظام لم يكن بالقليل، لكن صرامة النظام الإيديولوجي هي التي جعلت الاتحاد السوفيتي أول بلد في التجربة الاجتماعية والاشتراكية، وضم هذا كل قوة الحزب الشيوعي على الصعيد الداخلي كما هو على الصعيد الخارجي، وتشكلت أكبر قوة عسكرية عظمى عملت على إخراج البلد من اقتصادها المتأخر إضافة لاستخدام مصادر منجمية وطاقات وقود هائلة، كانت أساساً للتقدم في التصنيع، وأعطت أولوية لأنشطة التجهيزات على الثروات الاستهلاكية، وقد ألزم النظام السوفيتي نفسه بتحسين مستوى الحياة في الداخل، وتوسيع نطاق النفوذ العسكري والإيديولوجي عالمياً (على الكوكب) لكن وحدة العالم الشيوعي كانت قد تفككت فالصين أصبحت قطباً آخر للتأثير وللتوجه الشيوعي. أما مصطلح العالم الثالث فقد حدده آ.سوفي مشيراً من خلاله، ومنذ نهاية الأربعينات للدول التي رفضت الدوران في فلك القوى العظمى على هذا الكوكب: وهؤلاء هم الحياديون من الجماعة الآفرو آسيوية ودول أمريكا الجنوبية والهند. يتألف العالم الثالث من أغلب البلدان ذات البنية الاقتصادية المتواضعة والبلدان النامية. وفي هذا المجال فهي تعارض خصيصاً البلدان الصناعية ذات المستوى المعيشي المرتفع لكن كل من هذين المعيارين قد تبدلا أصلاً منذ ٣٠ عاماً.

فبينما تمكنت بعض الدول من المحافظة على حيادها الأولي، فإن المواجهات الإيديولوجية والصراعات المسلحة بين الدولتين الإمبرياليتين المهيمنتين قد أجبرت الكثير منها على الالتحاق في إحدى الكتلتين. وقد أظهر اليوم مؤتمر هافانا ١٩٧٩ الانقسام ما بين الاتجاه الموروث من الأولين (باندونغ) الممثل بيوغوسلافيا "تيتو" وجماعة دول عدم الانحياز التي تتبع موسكو وراء كوبا كاسترو.

إن تـزايد إنـتاج البـترول والـنمو الواضـح لأسعاره عمل على تفجر وحدة العـالم الثالـث المحـدد كعالم نامي، بعض الدول ذات الإنتاج الضخم وقليلة السكان (العربـية السـعودية، إمـارات الخلـيج العربي) أصبحت غنية في بضع سنوات بينما دول أخـرى محـرومة مـن هذا المن* أرهقت في فقر أكثر إلى حد يجعلنا نتكلم الآن عن عالم رابع لكن هل سيكون العالم الثالث حقيقة حتى عام ٢٠٢٥.

ثانياً: الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية في العالم:

يمكنـنا المقارنـة بسـهولة بين البلدان الرأسمالية والبلدان الاشتراكية الماركسية. فالـبلدان الرأسمالـية تفوقـت بفعل نظام المركنتيلية* القائم على الولع بالربح، وقد ظهـرت الرأسمالـية مـع قـيام الثورة الصناعية في الدول الأوروبية الغربية وأمريكا الشـمالية ومازالـت قائمـة هـناك حتى الوقت الحاضر، ومن ثم انتشرت في مناطق أخـرى إلى أن أقصـيت عـن جـزء كبير من تلك المناطق من قبل النظام الاشتراكي الماركسـي. وهكـذا فقـد أصـبحت روسيا أول بلد اشتراكي منذ عام ١٩١٧، ثم تبعـتها بلـدان أوروبـا الشـرقية في عام ١٩٤٥، والصين في عام ١٩٤٦، إن هذه المقارنـة تقـوم عـلى الـنظريات الاقتصـادية المتعارضـة إن الرأسمالية والاشتراكية الماركسـية هـما مخططـان نظـريان لعـالم الاقتصـاد لأن الحـرية تكـون قاعدة للديموقراطـية السياسـية. فالرأسمالـية تدعـي الحـرية نفسـها في المجال الاقتصادي للأفـراد ولـلجماعات فالمشـروع يكـون مـن ضمن النظام فهو يربط بين مختلف الشـركاء الاقتصـاديين: المـزودون الذيـن يسـهمون جيداً، ويقدمون الخدمات، والممولـون الذيـن يشـاركون بالمـال والأملاك ثم العمال الذين يقدمون جهدهم في العمـل. وهـو يـوزع الدخـل مـن العمل (مرتبات)، ومن رأس المال (فوائد). إن

---

* يشبه بالمن والسلوى

* المركنتيلـية: نظـام اقتصادي نشأ في أوروبة خلال تفسخ الاقطاعية لتعزيز ثروة الدولة بتنظيم الاقتصاد واعتبار المعادن الثمينة ثروة الدولة الأساسية.

حرية التنافس تعمل على مواجهة المشاريع، وأنظمة القوى الاقتصادية تستطيع قيادتها باستبعاد الأكثر ضعفاً ثم إلى التكتل. لا يمكن أن يكون بالضرورة تجمعاً جغرافياً للوحدات الإنتاجية، لكن بتكتل اقتصادي لوسائل الإنتاج أفقياً، إذا كان للمشاريع النشاط نفسه، رأسياً أو عمودياً إذا كانت الأنشطة تكميلية (وهنا نتكلم عن الاندماج) لكن مشاريع جديدة تنبجس، وتظهر دون توقف، وتحافظ على خاصة تعدد الأقطاب في المبادرات الاقتصادية.

وتبعاً لما يزعمه التفوق في حرية الالتزام والتراجع. أو التفوق في امتلاك رؤوس الأموال في إدارة المشاريع، فإن أي نظام سيؤدي إلى الحرية الاقتصادية أو الرأسمالية.

يرجع الاقتصاد الاشتراكي إلى ماركس ولينين، وقد ظهر كرد فعل ضد الرأسمالية المتهمة باستغلال العمال، وهو اقتصاد موجه للمنفعة العامة، إن مؤسسي الاشتراكية يرغبون باستبدال اقتصاد الخدمات، والملكية الخاصة لوسائل الإنتاج بالملكية الجماعية، ومن ثم برأسمالية الدولة. والقوة هنا تكون كلها للحزب الوحيد المتمثل بالحزب الشيوعي والذي يعد التعبير الديموقراطي للطبقة الجديدة السائدة طبقة العمال (البروليتاريا) التي انبثقت عن النظام الاقتصادي. وقد نظر للاشتراكية كمرحلة انتقالية نحو مجتمع جديد: الشيوعية، لكن من الأنسب أن نطلق عليها اشتراكية ماركسية أو جماعية لكي نتجنب الغموض أو الإبهام مع الاشتراكية في الغرب، والتي تفكر بخلق ديموقراطية اقتصادية أكثر دون التخلي عن الديموقراطية السياسية التعددية. إن الواقع الرأسمالي مختلف جداً، ففي كل الدول العظمى ينشأ التطور الاقتصادي عن الغنى وعن ارتفاع مستوى المعيشة. لا يوجد إفقار لطبقات اجتماعية، ولكن تشكلت طبقات متوسطة فالهوة الكبرى لم تكن بين الطبقات بل بين المشروعات وبين المنتجين والمستهلكين، وبين الناس المالكين للعمل وبين العاطلين عنه. ولحسم هذا الصراع، تدخلت الدولة أكثر فأكثر وبصورة فعالة من أجل مصلحة العامل

نفسه فترعوع المقاولون. لكن المشكلة الأساسية ليست تلك التي تتعلق بالموارد ولكن تلك التي تتعلق بالعمل. وللتخلص من رقابة وحماية الدولة هذه، فقد أقيمت بعض المشاريع في مناطق عديدة من العالم، هذه هي التحولات الوطنية.

أما الواقع الاشتراكي فهو متعدد الأشكال، ففي عام ١٩٢٨ دخل الاتحاد السوفيتي فعلاً في حقبة من التخطيط لكن مضمون الخطط وسير المشروعات كانت قد تطورت فالتردد كبير بين الإدارة المركزية والموحدة للاقتصاد والحاجة إلى الليونة والمبادرة إزاء البيروقراطية.

وقد اتبعت الديموقراطيات الشعبية النموذج السوفيتي لكن الريفيين البولونيين كانوا قد نجحوا في المحافظة على أراضيهم. أما في يوغوسلافيا السابقة فقد تطورت تجربة التسيير الذاتي بالانشقاق عن السلطة المركزية للنمط الستاليني. وخلال ثلاثين عاماً مرت الصين بثلاث مراحل مختلفة هي: تقليد النمط السوفيتي خلال ١٠ سنوات ـ وبعد عام ١٩٥٨ ظهر النمط الماوسيتونغي للموازنة ما بين الزراعة والصناعة في إطار القرى الشعبية ـ ومنذ عام ١٩٧٧ ظهر توجه حديث جداً وهو هيمنة الاقتصاديين على إيديولوجيات الثورة الثقافية.

هكذا فالواقع الاقتصادي متنوع جداً، وكل نظام يرسم أشكالاً مختلفة، وفي كل مجموعة اقتصاد مهيمن، واقتصاد مهيمن عليه. هذا التفاوت وعدم التساوي على السلم الكوكبي هو التعبير عن الوقائع الأساسية للتباينات في مستويات النمو.

ثالثاً: مستويات النمو:

إن من بين الأسباب الأساسية المؤثرة في تطور النمو عاملين اثنين هما: الوضع الديموغرافي، ومستوى التطور العلمي التقني ففي وقتنا الراهن يتجاوز عدد سكان العالم خمسة المليارات شخص، وفي عام ١٩٧٥ زاد عددهم على أربع المليارات شخص فهو يتزايد بمقدار (٦٥) مليون شخص في السنة فهذا

العـــدد أكـــبر بـــــ ٨ مـــرات عمـــا كان عليه في عام ١٦٥٠. وقد تضاعف بمقدار ثـــلاث مـــرات مـــنذ قـــرن وهـــذا التزايد يتسارع على شكل متوالية هندسية خلال القـــرن العشـــرين وقـــد ســـجل الـــنمو الســـكاني ما مقداره ٨% سنوياً من عام ١٩٠١ إلى عـــام ١٩٢٥، ١١% مـــن عـــام ١٩٢٦ إلى عـــام ١٩٥٠ ٢٠% من عـــام ١٩٥١ إلى ١٩٧٥ أي بمعـــدل وصـــل فـــيه سكان الأرض إلى الضعف خلال ٣٥ سنة.

إن الانفجـــار الديموغـــرافي هـــذا هو نتيجة هبوط شامل في عدد الوفيات (١٣ %) فبيـــنما ســـجلت الـــبلدان الصناعية انخفاضاً في عدد الولادات (فمن أجل عدد للســـكان يقـــدر بـــــ ١١٠٠ ملـــيون أو أكـــثر من ربع عدد سكان العالم لم يسجل ســـوى ١٧ ملـــيون واقعـــة ولادة في عـــام ١٩٧٥ أو ١٥% من مجموع الولادات في العـــالم) أمـــا الـــدول الأخرى فقد حافظت على نسبة مرتفعة جداً من الولادات (٩٤ مليون واقعة ولادة) أو ٨٥% من مجموع الولادات في العالم).

هـــذا الـــنمو الكـــبير للسكان كان قد أعطى مكانة للتأويلات المتشائمة المتمثلة بأعضـــاء نـــادي رومـــا: وهـــي تـــزايد أعداد السكان بالنسبة للمصادر على سطح الكوكـــب الأرضـــي وستصـــبح الـــبلدان الأكـــثر فقراً مظلمة وستزداد شقاء لكن ولحســـن الحـــظ أن هـــناك اتجاهـــاً لتقليل النمو الديموغرافي والذي سجل ٣٤% في عـــام ١٩٦٠ ليهـــبط إلى ٢٨% في عـــام ١٩٧٥ ومـــن بـــين الدول تكون الصين البلد الأهم لكنها ليست المسؤولة الوحيدة.

إذا كـــان مـــن الصـــعب القـــول ما هي الابتكارات التي كان لها الوزن الأكثر ثقـــلاً في تـــاريخ الإنســـانية فمن المؤكد أنه منذ قرنين تسارع نمط التملك التقني. إذ ســـجل منتصـــف القـــرن الـــثامن عشر في إنكلترا أول ثورة صناعية (الآلة البخارية الكـــربون، الخ) واعـــتماداً عـــلى ذلـــك ومـــنذ تلك الفترة بدأ الحديث عن ثورات كهربائـــية، عـــن محـــرك للانفجـــار، عن الطاقة النووية والإلكترونية. في الحقيقة إننا نعـــيش فـــترة مـــن الكشـــوفات والاختراعات ومن التقدم التكنولوجي الدائم. وإذا

استطاع الاختراع منذ عهد قريب أخذ مظهر المصادفة فاكتشافات اليوم منظمة ومخططة. فالعلم ارتبط أكثر مما سبق بالاقتصاد بواسطة تطور البحث التطبيقي.

إن هذا التقدم التقني ملازم للتكون الثقافي للإنسان ولوسائل التمويل المكرسة للبحث وهذا يشير إلى الازدهار الخاص في الدول التي تملك أوضاعاً اقتصادية متميزة وهكذا يكون التباين بين البلدان الغنية والبلدان الفقيرة من أجل قياس الغنى الاقتصادي للدولة ولسكانها. يمكننا استخدام مؤشرات ذات قيمة للاختبار، مؤشر جاهزية البضائع والمواد الغذائية، الاستهلاك للطاقة الاستهلاك للفولاذ. لكن تبقى جميعها جزئية ومنذ أن سمحت المحاسبات القومية بتقدير دخل الدول أصبح بالإمكان استخدام مؤشر عام وهو دخل الدولة منسوباً إلى عدد سكانها، فمثلاً يكون الدخل في الإمارات العربية المتحدة أكبر بـ ١٢٠ مرة (١٢٠٠٠ دولار في عام ١٩٧٧) مما هو عليه في أثيوبيا والتحرك نحو التطور لا يكون باتجاه توازن قريب لأنه في أغلب البلدان ذات النمو الديموغرافي الكبير يكون النمو الاقتصادي بطيئاً جداً.

فالمقارنة بين معايير التطور هي الأساس في كل تصنيف لمستوى التطور: ففي البلدان المتطورة يكون التطور الاقتصادي أعلى من النمو الديموغرافي، وتكون الخيرات المعدة للاستهلاك فائضة وموزعة جيداً (أيضاً هناك بعض التقديرات التي وافقت بحث "نوعية الحياة" أو بالأحرى النمو الكمي).

فيما يتعلق بالبلدان السائرة في طريق النمو فقد وصلت مؤخراً إلى التقنيات الحديثة ولكن بفضل التقدم الاقتصادي الأكثر سرعة من التوسع الديموغرافي، فقد تحسنت أوضاعهم كاليابان والاتحاد السوفيتي إلا أنه كان لهما أنظمة اقتصادية مختلفة وهما أمثلة ناجحة "للانطلاق الاقتصادي والاجتماعي" والآن هي حال البلدان البترولية القليلة في عدد سكانها.

أما البلدان النامية فتتميز بنمو ديموغرافي يتخذ سرعة أعلى بكثير من التقدم الاقتصادي حتى الدول ذات الثروة الاقتصادية الكبيرة والقابلة للتصدير

تعاني مصاعب جمة في كفاحها من أجل التقدم مثالها (الجزائر، إيران، فنزويلا) وإن الأوضاع في مثل تلك البلدان ستؤول إلى التردي إذا ما نضبت، أو انخفضت كمية تلك الثروة.

وحالياً يقود العالم سباقاً ما بين تحقيق الثروة من جهة والتطور الديموغرافي من جهة أخرى. فمنذ القرن الثامن عشر كان مالتوس قد ارتاع من هذا الوضع، ونادى بالتقليل من نسبة الولادات والمواجهة التي نشهدها الآن ما بين المتفائلين والمالتوسيين ليست حديثة العهد.

رابعاً: العلاقات الاقتصادية العالمية:

تم الإقلاع عن نظام الحمائية* الذي أثير في الثلاثينات، لقد دخلت الدول العالمية تدريجياً فيما بعد الحرب العالمية الثانية في فترة من الانفتاح الاقتصادي ومن تسريع التبادل.

وقد أصبحت البلدان ذات النظام الاقتصادي الحر قدوة حيث تجمعت في مجموعات كبرى لتشكل نطاقاً من التبادل الحر وضمن هذه البلدان أو المجموعات اتفقت الدول الأعضاء فيما بينها على الشروط المتميزة لتبادل منتجاتها، وأيضاً بين البلدان المتطورة (الجمعية الأوروبية للتبادل الحر التي أنشئت باتفاق استوكهولم عام ١٩٦٠) وفيما بين بلدان العالم الثالث (جمعية لاتينو ـ أمريكان للتبادل الحر أسست في نفس السنة بمعاهدة مونتيفيديو) وقد ذهبوا بعيداً أحياناً فنموذج السوق المشتركة هو بالحقيقة اتحاد جمركي مع أهداف اقتصادية متطابقة كالسوق المشتركة لوسط أمريكا، الاتحاد الاقتصادي والمالي، هدف للـ C.E.E هو مرحلة نهائية لكذا تطور على مستوى عالمي من بعد مبادرة الأمم المتحدة، فمؤتمر جنيف التحضيري للمنظمة العالمية للتجارة عام

---

* الحمائية: مذهب حماية الزراعة أو التجارة أو الصناعة من المنافسة الأجنبية بفرض رسوم جمركية عالية على السلع المستوردة أو تحديد الاستيراد أو تشجيع التصدير...الخ.

١٩٤٧ أعد نظاماً تحت شكل للـ G.A.T.T غات (الاتفاق العام للتعرفة والتجارة)، وفي كنفه كانت تدور كبرى المفاوضات التجارية (كينيدي راوند من عام ١٩٦٤ ـ ١٩٦٧ طوكيو راوند منذ عام ١٩٧٣) وقد ترددت البلدان الاشتراكية كثيراً إلى أن انفتحت فيما بينها بوساطة نماذج كالـ C.A.E.M ومع دول من العالم الثالث (اتفاق يوغوسلافيا، مصر، الهند لعام ١٩٦٧) واتفاقات ثنائية مع عدد من الدول الرأسمالية المتطورة.

وقد كان الحساب الختامي لأي تطور يترجم على مستوى عالمي بالتبادلات والذي لم يصل أبداً: ١٢٩٥ مليار دولار عام ١٩٧٨. والنمو ١٣% بالسنة يعزى للتقدم بحجم (٤%) مع ارتفاع أسعار المنتجات بمعدل (٩%) حيث ارتفعت خصوصاً منذ عام ١٩٧٣.

الحصة لكل مجموعة تكون غير متساوية وقد حققت البلدان المتطورة ذات الاقتصاد الحر أكثر من ثلثي التجارة العالمية: ٦٧,٤% منها ٤٢,٣% لأوروبا الغربية وحدها أما البلدان الاشتراكية فلم تحقق إلا العشر (٩,٧%) ودول العالم الثالث أقل من الربع ٢٢,٩% لكن قد تندر المجموعات التي تكون بوضع من التوازن: فقد استأثرت دول أوروبا الغربية بمعدل من الاستيراد والتصدير قدره ٩٢,٤% الولايات المتحدة بـ ٧٦,٧% البلدان غير البترولية من دول العالم الثالث بـ ٨٨% البلدان الاشتراكية بـ ٩٣,٩% فقط اليابان وألمانيا الاتحادية والبلدان المصدرة للبترول كان لها فائض تجاري كبير إن عدم التوازن هذا قد خلف صدى على مستوى قيمة العملات التي تسدد بوساطتها هذه المبادلات.

إن تطور التبادل التجاري تطلب قيام منظمة عالمية لتسديد الحسابات بحيث تعمل في إطار من نظام مالي، فخلال ثلاثين عاماً كان قد أعد هذا النظام في بريتون وود عام ١٩٤٤ من قبل ٤٥ دولة، واستمر فيما بعد (الاتحاد السوفيتي لم يكن إلا مراقباً) كما أخذ بنظام مستوى التبادل المالي الذي أنشئ عام ١٩٢٢ والذي يشترط أن يسدد الفائض والعجز في موازين المدفوعات بالذهب أو بالمال

المغطى بالذهب، وكل الأموال كانت مرتبطة بتعادل محدد ثابت والدولار لعب دور العملة، ويستند على قاعدة من ٣٥ دولاراً لأونصة الذهب الخالص وقد أنشىء صندوق النقد الدولي، ويزود من قبل تحويلات الدول الأعضاء وهو مكلف بالتقدير أو الحكم والسماح بحقوق السحب.

وبدءاً من نهاية الستينات فقد الدولار استقراره للعجز الدائم في ميزان المدفوعات الأمريكية لكن لم يستطع هذا النظام من المحافظة على وضعه فالتضخم العالمي يرجع إلى ما بعد عام ١٩٧٣ بعد الارتفاع الحاد في أسعار البترول ليوسع الهوة ما بين العملات الصعبة (الفرنك السويسري المارك الألماني، الين الياباني) والعملات الأخرى اتفاقيات جامايكا لعام ١٩٧٦ وضعت من جديد نظاماً وتبعاً له:

ـ لم تحدد العملات أبداً بالنسبة للذهب والـ **F.M.I** يجب أن تتلخص من مدخراتها.

ـ تكون قاعدة لمستند الـ **D.T.S.** (حقوق السحب الخاصة) أموال الحسابات المؤرخة في عام ١٩٦٩ محددة بالنسبة لحقيبة الأموال (حيث إن الدولار يدخل بحدود ٣٣%) والذي يلعب دوراً مضاعفاً كقاعدة للقيمة وأداة للبقاء والحفظ.

ـ معدلات التبادل المتذبذبة تستبدل التكافؤ الثابت فالعملة (المال) تتذبذب من يوم لآخر لذلك سمحت بعض الدول بالتحقيق ما بين عملاتها والتكافؤات الثابتة والمضبوطة وهذا أساس نظام العملة الأوروبية **(S.M.E)**.

غير أن دور الذهب بقي هاماً جداً والديون التي يملكها الأوروبيون تكون بالدولار (أور دولار) أو من قبل البلدان المصدرة للبترول (بترو دولار) التي تخلصت عملياً من كل الضوابط.

خامساً: التغيرات الاجتماعية الدولية الراهنة:

هل زلزلت الأرض زلزالها ولفظت الكتلة الشرقية أنفاسها؟ وهل حدث تغير عظيم الأهمية في تاريخ المجتمعات المعاصرة على سطح هذا الكوكب؟ وهل هذا هو النظام العالمي الجديد الذي تولد عن التنفس والصراع بين الكتلتين العظميين الغربية والشرقية؟ مر العالم بسلسلة من الأحداث والتغيرات أثرت في جغرافيته، وقد اعتدنا عليها وعلى تصورها، ولم تغب تلك الأحداث وخلفياتها الجغرافية عن وعي الجغرافيين وحسهم المكاني وبصيرتهم النافذة وهي الأحداث التي ربما تمخضت، وبلورت ما كان قد بدئ به في أواخر الثمانينات وبداية التسعينات. فقد اتضحت حقيقة انهيار الكتلة السوفيتية وتفككها الأيديولوجي، وتحطم الروابط العقائدية بين كياناتها، والتي ثبت أن الارتباط العضوي بينها وشرائطه اللاصقة قد ضعفت، وتهالكت بعد أن هزت هذا الكيان وهياكل عوامل عديدة بمرور الزمن، رغم المحاولات المستمرة والمستميتة لرأب الصدع والدمج والصهر والسبك، والتي دامت أكثر من سبعين عاماً، وقد تبين أنها كانت تستر بذوراً قومية نمت، وكبرت، وعلل عرقية تأججت، ومشاعر دينية مكبوتة ولغات وثقافات طمست لفترة محدودة تغط في سبات لتظهر من جديد بعد غليان طويل وأخيراً لم تستطع الروابط أن تقف أمام هذا الانفجار، أو تحتوي كثافة الأبخرة المتصاعدة والتي كانت تحيا في الخفاء، ولم تجد أي محاولة من إنقاذ هذا الكيان من التفكك إلى كيانات إقليمية مشتتة تعيد بناء نفسها على هيئة دولة ذات سيادة تمخض عنه خمس عشرة جمهورية في كومنولث جديد له إقليمياته الجديدة وحدوده السياسية الجديدة وعلاقاته المكانية المختلفة التوجه والمتباينة الأهواء والأهداف.

وقد ظهرت أوروبا عام ١٩٩٢ بعد أن برزت معالم التشكل لوجهها، وكذلك للعديد من مظاهرها السياسية والاقتصادية وبعد انقضاء أكثر من ٥٠ عاماً على نهاية الحرب العالمية الثانية بمظهر التخلي عن الحروب المدمرة، وإعادة

التشكل أو التآلف بل وبالتخلي أيضاً عن السياسات المحدودة الأفق والمتصلبة. إلا أنه لا بد من القول رغم كل هذا فإن ما حدث في القارة الأوروبية لا يمثل بحال انقساماً جغرافياً لأجزاء من هذا الكوكب سيولد أشلاء متعددة ومتباعدة تفصل بينها حدوداً قاهرة، يؤدي إلى حدوث انفصام جسيم في الشخصية الأوروبية ينعكس أثره ونتائجه على سكان الكوكب بأكمله. لا بل هناك حدثان عظيمان يسيران معاً على نحو متواز على أرض أوروبا، أحدها هو تفكك سياسي لأوروبا في جزئها الشرقي والبلقاني من جانب، ليواكبه تكامل اقتصادي اندماجي عضوي في جزئها الغربي، فنتج عن كل ذلك ليس أقاليم جديدة بل عالم جديد ومغاير. لكن رغم التناقضات المحيرة التي تثيرها الأحداث وخصوصاً في بدايتها والتي يصعب وضع تفسير جغرافي منطقي وسليم لها. إلا أن البعض في العالم الغربي متفائلون رغم عدم وجود شيء ظاهر يبرز هذا التفاؤل. واستطراداً فيرى البعض أن هذا المولود أي هذا النظام العالمي الجديد والذي جاء بعد آلام مخاض وإرهاصات الماضي هو الثمرة الواعدة التي ستؤتي أكلها ولو بعد حين وهو في تقدير بعض الجغرافيين مسك ختام هذا القرن العنيف الذي شهد اندلاع حربين عالميتين وحرب باردة، وحروب إقليمية ضيقة او واسعة عانى من ويلاتها كل مواطن على سطح المعمورة، كما وشهد هذا القرن ميلاد أيديولوجيات، ثم انتهاءها، وذهاب أمم بفعل رياح سياسية عكسية، وقيام دول بفعل رياح أخرى موسمية، ناهيك بما حدث خلال هذا القرن من ثورات صناعية وتقنية أخذت بالعقول والألباب إلى آفاق الفضاء الواسع والرحيب حيث شاركنا نحن العرب بها في سورية والسعودية.

لذا فما علينا نحن الجغرافيين إلا أن نفكر ونبحث عن الأطر والأوعية المناسبة لاستيعاب كل هذه التغيرات والمتغيرات الإقليمية، ونلم شملها، ذلك إذا ما رغب العيش في سلام دولي عادل، ووئام، ووفاق حقيقي بين أرجاء هذا العالم غنية وفقيرة شماله وجنوبه، من يملك فيه ويملي، ومن يستجدي فيه ولا يملك،

لكـــن وحســـب رأي الكـــثير مـــن الجغرافيين في العالم وهو أن الأوعية (أي الأقاليم المقـــترحة) لـــيس بالضـــرورة أن تكون متساوية في الحجم من حيث المساحة والدخل والكـــثافة والمـــوارد، بـــل يفضل أن تكون آنية مستطرقة يتعاظم بينها التفاعل المكاني أمـــلاً في علاقـــات متـــبادلة أكـــثر توازناً واتصالات واضحة صادقة وصريحة تكون أكـــثر جـــدوى وفـــائدة. فعـــلى الجغرافـــيين تقـــديم التفسير الجغرافي العلمي لهذه الأحـــداث العالمـــية ورؤيـــة تداعـــياتها المستقبلية المنظورة القريبة والمحتملة النائية ليس فقـــط عـــلى الخـــريطة الأوروبـــية وجغرافيـــتها الإقليمـــية والسياسية والاقتصادية والاجتماعـــية بـــل تـــأثير ذلـــك عـــلى العـــالم أجمع وباقي أقاليمه الجغرافية الكبرى. والآن يتســـاءل الكـــثير مـــن الجغرافـــيين عن حقيقة جدوى أو صلاحية تقسيم ويلر Wheller الشـــهير القـــديم وأمـــثاله في ظـــل هـــذه التغيرات، الحدودية والتكتلات الإقليمية الاقتصادية الجديدة.

إن الـــتغيرات الـــتي حدثـــت هـــي جوهـــرية، وســـتؤثر في الـــنمط والتوزيع والعلاقـــات الســـكانية ممـــا يتطلـــب بالضـــرورة البحـــث عن مخرج أو منهجيات ومفاهـــيم جديـــدة تعـــالج مـــثل هذه التغيرات وما هي إذن ملامح هذه المنهجية التي ســـتعالج هـــذه الكـــيانات والتشـــكيلات الجديـــدة المـــندمجة أو المنفصـــلة؟ ما هي التصـــورات المحـــتملة والعديـــدة والمقـــترحة فيما يخص هذه الأطر الجديدة التي تحدد هـــذه الأقالـــيم وخطـــوط الـــتماس ودوائر التقاطع، نقاط الالتقاء، والأخرى المحورية أو المفصـــلية في تلـــك المـــنظومة الجديـــدة. إن مـــا يجري على الساحة الدولية حالياً يحـــتاج إلى بحـــوث تـــتعرض إلى آثـــر التغيرات الدولية في الدول النامية، ومفاوضات مـــنظمة الاتفاقـــية العامـــة للـــتجارة التعرفة الجمركية المعروفة باسم G.A.T غات، وللعناصـــر العرقـــية والســـلالية والعلاقـــات الاجتماعـــية ـــ الاقتصـــادية الجديدة والاســـتراتيجيات المســـتجدة في ظـــل الـــنظام العالمي الجديد في كل من بؤر التوتر في جمهوريـــات الاتحـــاد الســـوفيتي الســـابق والـــبلقان، وكذلـــك في الولايات المتحدة كقطـــب هـــام في العـــالم والاتحـــاد الأوروبي. وكذلك دراسة مشاكل منطقتنا العربية

كونها بؤرة صراع إقليمي دولي رئيسة تتمثل في الصراع العربي الإسرائيلي، واحتلال أمريكا ودول التحالف للعراق وما سببه من معاناة للشعب العراقي ودول المنطقة. وكذلك مشاكل المياه وجيوبوليتيكا المياه المتوقعة في المنطقة العربية سواء بالنسبة لنهري دجلة والفرات أم للعديد من المجاري المائية في المنطقة العربية إضافة إلى مشاكل الهند وباكستان، ودور التنمور الآسيوية الحالي والمستقبلي في المحيط الهادي.

سادساً: أثر التحولات الدولية الراهنة في شعوب البلدان النامية:

مر سكان العالم بفترة من الاستقرار النسبي في مناحي الحياة المختلفة، إذ تمكنت معظم الدول والقوميات من التعايش في سلام نسبي بعد الحرب العالمية الثانية. وتخلت كثير من الشعوب عن الحروب المدمرة وظهرت بمظهر التآلف وإعادة التشكل، إلا أنه رغم كل هذا كانت هناك مناطق ملتهبة من العالم، وتتلقى زادها للحرب من قبل المعسكرين، مثالها منطقتنا العربية ومناطق في الشرق الأقصى (فيتنام وكوريا) وجنوب أفريقيا وأنغولا. لكن الاستقرار النسبي في المعسكرين كان محاطاً بمخاوف ومهدد بالانفجار النووي وحرب النجوم في أي وقت إلا أنه لا أحد يدري ما النهاية، ومتى سيزول كابوس الرعب والخوف من الحرب النووية المدمرة؟

وعلى أي تقدير فإن عصر الكتلتين العظميين قد اتصف بالهدوء والاستقرار لسكان كوكبنا مقارنة بما حدث أو سيحدث في ظل المنظومة العالمية الجديدة، حيث نلاحظ بؤر توتر، وخطر جديدة في مناطق عديدة على هذا الكوكب. إن ما حصل في عهد الكتلتين الغربية والشرقية كان مقلقاً لكل قاطن على سطح الأرض ونذير خطر يمكن أن يشعل فتيل حرب عالمية ثالثة، وخاصة عندما تتفاقم الأزمة، وتتضارب المصالح بينهما، كأزمة سور برلين والحرب الكورية الفيتنامية والصواريخ في كوبا أو غزو تشيكوسلوفاكيا من قبل الجيوش السوفيتية أو مشكلة أفغانستان، لكن ورغم شدة الأزمة في كل مشكلة من المشاكل التي

ذكرناها كان بالإمكان السيطرة عليها واحتوائها، وتجنب العالم بذلك مخاطر جسيمة لو وقعت لدمرت الحضارة على الأرض، والسبب هو وجود قطبين متعادلين كان بإمكانهما أن يضعا حداً لكل تطرف يمكن أن يلحق الدمار بالإنسانية، وهكذا كان التوازن نتيجة الاستقرار النسبي في طرفي المعادلة رغم وجود التحولات المستمرة في مصالح كل قطب ومواقفه من زمن لآخر.

أما دول العالم الثالث فقد حاولت أن تشكل قطباً ثالثاً محايداً بعيداً عن جاذبية أي من القطبين العظيمين، وهكذا فقد تمكنت بعض الدول من الاستمرار في حيادها المبدئي لكن قسم كبير منها ونتيجة للتدافع والتجاذب للمواجهات العقائدية والنزاعات المسلحة بين القوتين المهيمنتين فقد فرضت على العديد من دول العالم النامي من الدوران في فلك إحدى القوتين، وذلك بسبب الظروف الاقتصادية والاجتماعية الصعبة التي كانت تمر بها تلك البلدان النامية، إذ كانت عبارة عن قوى هزيلة تابعة وخاضعة لإرادة إحدى المعسكرين الغربي والشرقي عليها أن تنفذ سياساته وفق مصالحه لا سياستها وفق ما تمليه عليها مصالحها وضرورات التنمية علماً أن كلا الكتلتين اعتمدت سياسة السيطرة الإمبريالية لتحقيق التكافؤ بينهما.

وعليه فالبلدان النامية في ظل القوتين المهيمنتين لم تستطع أن تتخذ أي منحى سياسي أو اقتصادي مستقل عن خطط الدول العظمى وهذا ما أثر سلباً على الحياة الاجتماعية والاقتصادية في البلدان النامية، فمعظم الناتج القومي كان يذهب هدراً ولمصلحة القوى العظمى كثمن سلاح وغيره.

سابعاً: الحياة الاجتماعية والاقتصادية للدول النامية في ظل الكتلتين العظيمتين:

إن أول تجربة اجتماعية تبنت الأفكار الاشتراكية والديموقراطية الشعبية قامت في الاتحاد السوفيتي السابق، وكان لها عظيم الأثر في البلدان التي كانت ترزح تحت نير الاستعمار، فقد كانت مثالاً وقدوة لمثل هذه الشعوب إذ نشرت

أفكار التحرر والحرية والعدالة والمساواة بين شعوب تلك البلدان، وأخذت بيدها بشكل مباشر أو غير مباشر للتحرر من الإمبريالية والاستعمار. وقد قامت الثورات العديدة في البلدان النامية، ونجحت بالنهاية، وفازت بالتحرر من الاستعمار، وبعد التحرر عملت الحكومات الوطنية الناشئة جاهدة للتخلص من رواسب الماضي والنهوض بأعباء التنمية من جميع النواحي لكنها تعثرت وأخفقت في الكثير من خططها وذلك لأن استقلالها السياسي لم يرافقه استقلال اقتصادي، بل بقيت الروابط المالية والثقافية كما كانت في ظل الاستعمار، والسبب هو ضعف هذه الدول التي أنهكها الاستعمار. وقد عاشت شعوب البلدان النامية في عصر القوتين العظيمتين حياة هامشية، وكانت قوى ضعيفة ترعاها، وتسيرها القوى العظمى وهذا هو العامل المسبب لضعف نمو الناتج القومي في تلك البلدان بحيث بقيت اقتصادياتها مهزوزة وضعيفة تتأرجح تبعاً للتأثيرات الخارجية فهي عبارة عن بلدان تابعة للدول المتقدمة خسرت كل فرص التنمية والاستثمار الداخلي، وأخفقت خططها المبرمجة على التنمية والاستثمار الوطني. نظراً للحرب التي خاضتها ضدها الشركات الاحتكارية والكارتلات الرأسمالية التي سيطرت على الأسواق العالمية، واقتسمت العالم إقليمياً فيما بينها. وكان نتيجة ذلك انهيار فرص العمل في البلدان النامية، وازدياد البطالة وعدد العاطلين عن العمل. وظهور طبقة مترفة قليلة العدد يمثلها كبار التجار والرأسماليون الأثرياء، وطبقة متوسطة من المهنيين والموظفين والعمال من ذوي المهارات العالية ومن أصحاب الحوانيت الصغار. وقد عملت الاحتكارات على توسيع صلاتها الخارجية وتقويتها والدخول في اتحادات تشعل نار الحرب بين البلدان النامية لتخلق أسواقاً لتصريف الأسلحة إليها، واستغلال ثرواتها وأملاكها. وكان بالنتيجة أن أجهضت كل الجهود الرامية إلى النهوض بالبلدان النامية إلى مستوى اقتصادي أفضل فأخفقت خطط التنمية وبرامجها وسياستها. وكثر عدد العاطلين عن العمل، وازدادت نسبة الأمية والجهل فيها. وكثرت

التناقضات والخلافات بين أبناء تلك البلدان، وتصاعدت مشاكل الشباب بعد ان طغت الحياة المادية على القيم، وعلى الروابط الأسرية والاجتماعية في المجتمع.

ثامناً: الحياة الاجتماعية والاقتصادية للبلدان النامية في عهد المنظومة العالمية الجديدة:

درج على لسان معظم المختصين في العلوم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، تسمية الفترة التي نعيشها بعد انهيار الكتلة الشرقية بعهد المنظومة العالمية الجديدة الذي حل محل عصر توازن القطبين العظيمين الغربي والشرقي.

ومن الملاحظ أن التغيرات التي حدثت هي جوهرية، وستؤثر في النمط والتوزيع والعلاقات السكانية وظهرت كيانات وتشكيلات جديدة مندمجة أو منفصلة، لكن ما يظهر في الأفق كأقوى قوة مهنية في العالم هو عظمة القوة الأمريكية أي الولايات المتحدة الأمريكية لقوة متعددة الأقطاب والمهام، حامية للنظام العالمي الجديد وللحرية الاقتصادية وللديموقراطية التعددية وحقوق الإنسان، وقد قامت هذه القوة باستغلال الأحداث والتغيرات الإقليمية لتوجه العالم كما تراه مناسباً لها. وتدخلت في الصومال، وخرجت تحت مظلة الأمم المتحدة دون مسوغ منطقي لها، ثم وقوفها موقف المتفرج على قتل شعب البوسنة ومحاولة اجتثاثه من جذوره، وخلقها أزمة كوريا الشمالية والحروب الاقتصادية التجارية مع اليابان...الخ

إن ما يحصل في العالم اليوم يشير إلى غياب قطب التوازن الثاني وانفراد القطب الآخر في تسيير شؤون معظم البلدان. إن ما يتميز به النظام العالمي الجديد هو انهيار الكتلة السوفيتية وتفككها الإيديولوجي، وتحطم الروابط العقائدية بين كياناتها ثم ظهور معالم التشكيل والتكتل والتكامل الاقتصادي والاجتماعي والسياسي للدول الواقعة في الجزء الغربي من أوروبا، وكذلك

جنوب شرق آسيا (اليابان، كوريا، سنغافورة) وكذلك أمريكا (الولايات المتحدة وكندا والمكسيك وأمريكا الجنوبية) وجميعها تكتلات تهدف إلى تحقيق التوازن والاستقرار في العالم الذي زلزل وتحطمت دعائمه مع انهيار الكتلة السوفيتية. لكن التكتلات الجديدة ليست الحل الأمثل لإقامة الاستقرار والتوازن في العالم بل على العكس ستخلق انقساماً وحروباً بين الدول.

وقد اتضحت حقيقة النظام العالمي الجديد، وجوهره المتمثل بحماية التكتلات الرأسمالية العالمية الجديد والكارتلات التي تبحث عن امتداد لها في أقاليم واسعة من العالم بحيث تحصل على المواد الأولية اللازمة لتنمية رأسمالها وتطويره، وكذلك أسواق لتصريف منتجاتها هذا النظام الذي نمت بذوره بعد الحرب العالمية الثانية بخطة مارشال ما زال يسير على النهج نفسه بقيادة أمريكا واشتراك أوروبا الغربية واليابان والصين وكوريا مع استبعاد للبلدان النامية ودول الكتلة الشرقية سابقاً التي تنتظر الرحمة والمعونة من الغرب، والتي ترغب بعضها أحياناً الانضمام إلى السوق الأوروبية المشتركة إضافة إلى دول أخرى كالمغرب وتركيا وهذه الأخيرة نفذت سياسات تلك السوق وطلباتها.

إن ما حصل ويحصل في البوسنة والأراضي العربية المحتلة يكشف لنا عن طبيعة هذه المنظومة العالمية الجديدة التي ستتمخض عن ولادة الصراعات القومية والدينية والعرقية والطائفية في كل مكان، وستزهق الكثير من الأنفس، ففي الأراضي العربية المحتلة من قبل الصهاينة تقتل الطفولة، وتتكسر العظام، وتحرق الأمومة، وتجهض الحاملات من النساء، وتنتحر الإنسانية، وما رد فعل النظام العالمي الجديد إلا أن يخترع الوسائل الخاصة لتجبير عظام العرب المكسورة، وتقديم الأسلحة الفتاكة للكيان الصهيوني من أجل القتل، وتكسير الأيدي والأرجل العربية المضطهدة، هذا هو نظام حقوق الإنسان والديموقراطية التعددية والحرية لكن هل هذا هو ما غنمته الشعوب المستضعفة من المنظومة العالمية الجديدة؟

نعم هو زيادة العنف والقتل والتشريد خير مثال ما يجري في أفغانستان حالياً وكذلك مصائب الهند وبنغلادش الدينية وكمبوديا وأنغولا وإيرلندا السياسية، إضافة إلى النزاعات القومية والطائفية بين جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق.

لكن ما هو مصير البشرية في هذا العصر الجديد، عصر التكتلات الرأسمالية هل هو الجوع والتشرد والفقر والحرمان لشعوب العالم النامي؟ إن العصر الحاضر هو عصر التنافس، وسيطرة القوي على الضعيف، والخروج من النظام والصراع والتناحر.

لكن ما هو دور الدول النامية في بناء النظام العالمي الجديد وهل ستتحسن أحوالها الاقتصادية والاجتماعية؟ هناك بعض المتفائلين بإمكانية التنمية لاقتصاديات البلدان النامية من خلال المساعدات والهبات والقروض المقدمة لها من البلدان الصناعية بشروط تختلف عما كانت عليه في ظل الدولتين العظيمتين من تبعية وولاء ونسب عالية للفوائد، وتدخل في الشؤون الداخلية للبلدان النامية، في حين أن هناك فئة متشائمة ولا ترى سوى العتمة في الطريق الجديد لأن هذه البلدان الفقيرة التي لا تستطيع أن تتكتل، أو تقاوم، أو تفاوض الدول الغنية لن يكون مصيرها سوى التبعية والفقر المدقع لشعوبها لأن من لا سبيل قوة لديه لا يستطيع أن يقف في عصر التيارات العاصفة، وبالتالي لن تكون البلدان النامية إلا أسواق استهلاكية لمنتجات العالم المتقدم، وحقول تستنزف خيراتها، وتضطهد شعوبها، وتسود فيها الفوضى الاجتماعية والاقتصادية بنشوء تنظيمات غير رسمية محتمية بشعار الديموقراطية وحقوق الإنسان. إن دول العالم الثالث كالخروف الذي يعد نفسه لتمزق جسده الذئاب التي لا تشبع.

إن من أهم آثار المنظومة العالمية الجديدة على دول العالم الثالث وشعوبها ما يلي:

١ـ أدى دمار المعسكر الشرقي، وتفككه الإيديولوجي، وتحطم الروابط العقائدية بين كياناته إلى تفكك اجتماعي وتدهور اقتصادي. وقد ضعف الترابط

العضوي بين دوله نتيجة لعوامل عديدة هزت كيانه وهياكله. فظهرت الصراعات القومية، وتأججت الخلافات العرقية والدينية التي كانت مكبوتة. فزوال الروابط والفلسفات التي خلقت الانسجام ما بين العناصر القومية والعرقية والدينية والاقتصادية أسهم في تشتت الكتلة الشرقية على شكل دويلات متناحرة وذات سيادة.

٢ــ انتقال التنافس والصراع بين الكتلتين الغربية والشرقية إلى صراع بين الشمال الغني والجنوب الفقير.

٣ــ تقسيم أجزاء من الكوكب الأرضي جغرافياً إلى أشلاء متعددة ومتباعدة تفصل بينها حدود قاهرة على أسس دينية وقومية وعرقية وثقافية وحضارية واقتصادية وأيديولوجية يتبع كل منها للقوى الاقتصادية الكبرى النظام العالمي الجديد.

٤ــ إن من أهم مبادئ النظام العالمي الجديد مبدأ التخصص العالمي في إحدى مجالات النشاط الاقتصادي، وسيخلق هذا ميداناً للصراع والتنافس بدلاً من أن يسود جو من الوئام والتعاون الدولي فسوف تنفجر أماكن نزاعات طويلة الأمد لا تنتهي إلى حد معين. وهذا ما نلاحظه في الأزمة التي وقعت بين الولايات المتحدة الأمريكية والسوق الأوروبية المشتركة وخصوصاً فرنسا والمتعلق بالطلب الأمريكي الهادف إلى إيقاف دعم القطاع الزراعي من قبل الحكومات الأوروبية، وعلى الأثر فرضت أمريكا نوعاً من الحماية التجارية على المنتجات الزراعية الأوروبية، وكذلك الصراع الحالي بين الولايات الأمريكية واليابان، إن الدول الرأسمالية المذكورة باستطاعتها أن تجد حلاً لمشاكلها على المدى البعيد لكن المشكلة هي عند دول العالم الثالث بماذا ستتخصص، وكيف ستنهض بالأعباء التي تثقلها الديون من ديون والحروب والفقر والجهل ...الخ. وإذا ما أرادت أن تتخصص بإنتاج نوع من المنتجات الاقتصادية فيجب أن تبحث عن رؤوس

الأمـوال والخـبرات اللازمـة للتخصـص بعـد أن توجهـت دول الكتلة الشرقية للانفـتاح عـلى الغـرب، والاسـتفادة مـن رؤوس أموالـه حتى ولو حصلت على الخـبرة ورأس المـال الـلازم للصـناعة تـبقى أمامها مشكلة تسويق إنتاجها، وهي عسـيرة في ظـل المنافسـة ونظـام الهيمـنة أمـا الدول الرأسمالية فإذا ما تضررت مصـالحها ووجـدت عائقـاً مـن قـبل إحدى دول العالم الثالث قد تلجأ إلى فرض نظـام للعقوبـات الاقتصـادي أو عسـكري عليها حيث تشلها، ولا يعد بمقدورها النهوض بالمستلزمات الضرورية لحياة شعبها.

٥ـ تحريـر الـتجارة العالمـية هو أحد أهداف الدول المهيمنة في النظام العالمي الجديـد، وعلـيه يجـب أن تلغـى الحواجز الجمركية أمام منتجات الدول الصناعية، وبالمقـابل يجـب أن يـبقى نظـام الحمايـة التجارية من حق الدول الغنية، وهذا ما سـينعكس سـلباً عـلى اقتصـاديات الـدول النامية التي ستكون مستوردة للبضائع والسـلع المصـنعة، ومصـدرة للمواد الخام، وهذه اتفاقات بين اللاعبين الرئيسين في الـنظام العـالمي الجديـد والذيـن لـن يقدموا إلا فتات موائدهم للعالم النامي. إنها سياسـة قديمـة تمـت صـياغتها في قصر بوتسدام بعد الحرب العالمية الثانية من قبل الـدول المنتصـرة في الحـرب وهـاهي ذي تصـاغ من جديد في ظل النظام العالمي الجديـد، وفقـاً لمصـالح الـدول الرئيسـة في تأسيسه بصورة غير معلنة وتحت ظل منظمة الدفاع من أجل إطلاق التجارة.

أخـيراً يمكـن القـول، إن الـتحولات العالمـية سريعة، وتسير لمصلحة الدول واضـعة أسـس الـنظام العـالمي الجديـد وما على الدول النامية إلا أن تنهض من سـباتها معـتمدة عـلى ذاتها وعلى تعاونها واندماجها واتحادها المتجانس مع أشقاء أو أصـدقاء لـيكون هـناك نوع من التكافؤ وإثبات الوجود في هذا العالم. وبالنسبة لنا نحـن العـرب فلـيس أمامنا إلا التنسيق بين كل الدول الشقيقة، وكذلك مع الدول الصـغيرة والفقـيرة لنسـتطيع أن نقـف في وجه التيار الهائج في هذه المنظومة العالمية

الجديـــدة. إن العـــالم الحـــالي يســـير بخطـــى حثيثة لوضع أسس النظام العالمي الجديد فمـــنذ بضـــعة أشـــهر اجتمعت ١١٥ دولة لإجراء مفاوضات تتعلق بالتجارة العالمية والـــتعرفة الجمركـــية، وتمخـــض عـــنها قيام منظمة الدفاع من أجل إطلاق التجارة، وتهـــدف إلى تحريـــر الـــتجارة العالمـــية، وهـــذه المـــنظمة هـــي امتداد جديد لمنظمة G.A.T.T (غـــات) مـــنظمة الاتفاقـــية العامـــة للـــتجارة والتعرفة الجمركية. وعليه فمـــن المستحســـن هـــنا أن نقـــدم عرضـــاً موجزاً عن مفاوضات G.A.T.T وآراء المتخصصين والمهتمين بها من معظم الدول المشاركة فيها.

ولكـــن الاتفاقـــيات الجاريـــة في ظل النظام العالمي الجديد وعلى مستوى عالمي، هـــل ســـتحقق المســـاواة بـــين الـــدول الغنية والدول الفقيرة؟ أو هل ستنقذ الدول الفقيرة من أطماع الدول الغنية؟

تاسعاً: مفاوضات منظمة الاتفاقية العامة للتجارة والتعرفة الجمركية المعروفة اختصاراً باسم G.A.T.T (غات):

أعلـــن بيـــتر ســـيفر لانـــد المدير العام لمفاوضات منظمة للاتفاقية العامة للتجارة والـــتعرفة الجمركـــية المعـــروفة اختصـــاراً باســـم G.A.T.T (غـــات)، انتهاء جولة الأورغـــواي يـــوم الأربعـــاء الموافـــق ١٥/١٢/ ١٩٩٣ بعـــد مضي أكثر من سبع ســـنوات أي مـــنذ أيلـــول ١٩٨٦ حيث بدأت أول جولة منها بالأورغواي. وجولة الأورغـــواي هـــي الثامـــنة في سلســـلة مفاوضات دولية شاملة لـــ G.A.T.T بدأت عـــام ١٩٤٧. وسميـــت كـــل منها باسم البلد الذي شهد أطول جلسة من كل جولة وهدفت إلى الوصول إلى اتفاق عالمي حول تحرير التجارة العالمية.

قـــال بيـــتر ســـيفر لا ند قبل بداية المؤتمر محذراً: لو خسرنا جولة أورغواي أي لـــتحرير الـــتجارة العالمـــية لكـــنا قد توصلنا إلى وضع لا يمكننا فيه من إصلاح الخلل الكـــبير الـــذي ســـينهك الـــنظام الاقتصادي العالمي، وهو النظام الذي اعتمدنا عليه

في بناء حضارتنا وتقدمنا منذ الحرب العالمية الثانية، كنا سنخسر مئات الملايين من الدولارات التي يمكن كسبها فحسب بل أيضاً ما ربحناه بالسنين الماضية، وهذا ما يضر بالدول النامية ويثير التوتر بين الدول المتطورة مما ستنجم عنه عواقب سياسية وخيمة، أما النظام العالمي الجديد الذي نحن بصدد إنشائه منذ انتهاء الحرب الباردة فلن يكتب له وجود في مثل تلك الظروف بسبب إخفاق الدول الصناعية في تسلم مقود القيادة.

كما يقول مارتن رونر*: خلال السنوات الثلاث أو الأربع الماضية كان هناك اختلاف كبير بين التصريحات التي صدرت للاستهلاك الشعبي ما بين ما كان يظهره كل زعيم فقد تميزت تلك الجولات حقاً بوفاق كبير.

وقد كان من الصعب على المجتمعين قاطبة إبداء المعارضة لفضيلة التجارة الحرة كمبدأ، ولكن العالم اليوم في قبضة انحسار اقتصادي أفرز بطالة بنسبة لم تشهدها الدول الصناعية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، ومن ثم كان من الصعب على معظم الدول التشبث العملي بمبادئ جديدة مهما كانت فوائدها على المدى البعيد وذلك بسبب الثمن الذي يجب على شعوبها دفعه على المدى القصير نتيجة بعض السياسات الاقتصادية التي يجب اتباعها.

أما الاقتصادي "دومينيك فاندر" الذي قدم بكتابة تقرير عن عواقب تحرير التجارة العالمية إلى المنظمة الأوروبية للتعاون والتنمية O.E.C.D فيقول: إن الحماية التجارية أمر طبيعي، وإن أي إنسان يعمل في قطاع معين سواء كان صحفياً أم إدارياً أو عامل نسيج يريد أن يحمي دخله، ولكن في خضم أوضاع اقتصادية معينة شحت فيها الأعمال والمداخيل، وانخفضت فيها مستويات المعيشة، يصبح من الضروري أن تتوافر قيادات حقيقية يكون بمقدورها القضاء على مشاعر الحرص والرهبة الكامنة في النفوس للانفتاح على الأسواق الخارجية

---

* مارتن رونر: الرئيس السابق لمركز أبحاث السياسة التجارية في لندن ورئيس التحرير الحالي المشارك لمجلة الفانيشال تايمز اللندنية.

أمـلاً في تحسـين مسـتوى المعيشـة على المدى البعيد، هذا في الوقت الذي توفر فيه أعمـالاً أخـرى للقطاعـات المتضـررة، وتقدم يد المساعدة للشعوب التي عليها أن تدفع الثمن على المدى القصير.

ولكـل تحـرك كـبير ثمن، وكان ثمن تأسيس الاتحاد الأوروبي عزوف الولايات المـتحدة النفسـي عـن الشـؤون الأوروبية. والولايات المتحدة هي المؤسسة لمنظمة الاتفاقـية العامـة للـتعرفة الجمركية والتجارة عام ١٩٤٧، إذ رأت ضرورة آنذاك في إتـباع سياسـة الـتحرر الـتجاري حتى من طرف واحد ليس بتنشيط التجارة، وحـركة إعـادة البـناء عقـب انتهاء الحرب العالمية الثانية فحسب بل في استخدام ذلـك أيضـاً في نشـر الديموقراطية والرأسمالية في أوج الصراع ضد العالم الشيوعي. وكـان ذلـك ممكـناً حـتى في غـياب التجاوب من الأطراف الأخرى بسبب هيمنة الاقتصـاد الأمـريكي في ذلـك الحـين الـذي مكنها من تطبيق خطة مارشال لإنقاذ الاقتصـاد الأوروبي بعـد الحـرب ولكن ولت الآن تلك الهيمنة الاقتصادية، وأصبح الحلفـاء منافسـين تجـاريين أيضاً وفوق هذا وذاك انهزم العدو الشيوعي المشترك ولم تعد هناك حاجة ماسة لاستبسال في التضحية في سبيل وحدة الصف.

يقـول سـيفن ولكـوك*: مـع نهايـة الحـرب الباردة تصبح الحاجة إلى إيجاد الـتوافق بـين الديموقراطـيات الغربـية المـتحررة أقل أهمية، ومن ثم يجد التنافس في نطـاق السياسـات الـتجارية متنفساً أكبر من ذي قبل. كذلك كان التكنوقراطيون والبيروقراطـيون في الماضـي يديـرون الأمـور الـتجارية والـيوم أصبحت الأمور الـتجارية تصـطبغ بالطـابع السياسـي، ومـن ثم تزايد اهتمام الزعماء قاطبة بنتائج مفاوضات G.A.T.T.

نعـم ولـت الأيـام الـتي كنا نسمع فيها وزير خارجية إيطالي يشكو من ضياع سـواد نهـاره في مفاوضـات حـول فول الصويا ولم يكن يعرف ما هو فول الصويا. هـو الـزمن الـذي كـان بالإمكان فيه احتواء الاحتكاك الذي ينجم عن المفاوضات

---

* سيفن ولكوك: وهو متخصص بالشؤون التجارية في المؤسسة الملكية للشؤون الدولية بلندن.

التجارية ضمن جدران تعبق بدخان سجائر المتفاوضين. إذ لم تعد الحكمة الاقتصادية نبراس المفاوضات. أصبح للسياسة الآن دور كبير لنتذكر مثلاً الدور الذي لعبته حكومة "إدوار بالادور" الفرنسية في اتفاقية G.A.T.T مؤخراً وذلك بإصرارها على عدم التزامها بأي اتفاقية ما لم يتم تعديل اتفاقية "بلي هاوس" مع الأمريكين التي وقعت في شهر تشرين الثاني من عام ١٩٩٢، وحددت صادرات دول المجموعة الأوروبية من المنتوجات الزراعية المدعومة حالياً من طرف الحكومات المعنية وإزاء المتصلب الفرنسي اضطر الأوروبيون بعد مفاوضات مكثفة دفع التعويض لفرنسا كي تسكت مزارعيها، وتوقع على اتفاقية الـ G.A.T.T ، هذا وسيتم تخفيض الدعم المحلي للمنتوجات الزراعية حسب اتفاقية G.A.T.T ، بنسبة ٢٠% وذلك في كافة الدول الموقعة على الاتفاق، ولكن يعترف "فليب سيغون" رئيس مؤسسة أوبزيرفيتوار الفرنسي بروجكتور إيكونوميك الفرنسية الاقتصادية التي تضع نصب عينيها في حساباتها أن فرنسا هي رابع أكبر دولة مصدرة للبضائع في العالم وثاني أكبر دولة مصدرة للخدمات يعترف في نهاية المطاف قائلاً: من وجهة نظر اقتصادية بحتة كنا سنخسر الكثير لو أخفقت G.A.T.T وهذا واضح تماماً. ولكن هناك قطاعات فرنسية لا شك خاسرة بسبب الـ G.A.T.T يمكن القول إن هناك نقاشاً كبيراً يدور في أوساط القطاع الزراعي من الواضح أن المزارعين الفرنسيين بحاجة إلى أسواق وإلى دعم حكومي لاستمرار تشغيل الأيدي العاملة. وقد كان هم الحكومة الفرنسية، ألا تدع اليأس يدب في نفوسهم خاصة الصغار منهم بسبب النقص الكبير في مدخولهم الإنتاجي. وبالطبع لهؤلاء دور كبير في لعبة الانتخابات الديموقراطية في فرنسا ومن ثم الحرص على إرضائهم تحرص الحكومات في العادة على قاعدتها الانتخابية. لنفرض أن عشرة أشخاص استفادوا من سياسة اقتصادية معينة ولكن بالمقابل تضرر ٩ أشخاص آخرين. في هذه الحالة، ستخسر الحكومة أصوات التسعة ولكن المشكلة أيضاً أن من غير المؤكد أنها ستعكس جميع أصوات العشرة الآخرين. اعتقد أن المسألة معقدة والسياسيين يراعون هذه الأمور. ومن ثم كان

الضغط شديداً على الحكومات الفرنسية لعدم التراخي في المواقف خاصة من طرف اليمينيين الفرنسيين دعاة الحماية التجارية الذين يتوقع لهم نجاح مرموق في الانتخابات الأوروبية في الأعوام القادمة وإن وجد الأوروبيون أخيراً مخرجاً للأزمة الناجمة عن قضية المزارعين الفرنسيين عن طريق التعويض من قبل الاتحاد الأوروبي لم يستطيعوا الانفكاك من التهديد الناجم عن الخدمات السمعية والبصرية عبر الأطلسي وقد كان لفرنسا موقف متشدد من ذلك أيضاً.

يقول "جاك لانغ" وزير الثقافة السابق: يجب ألا تفهم الأمور المتعلقة بالثقافة في اتفاقية تجارية ويجب ألا تعد الأفلام والكتب واللوحات وكل ما يتعلق بالفنون بضائع تجارية بحتة ويعني ذلك أنه لو غزت افلام "هولي ود" الأسواق الأوروبية بسبب رفع القيود التجارية لتعرضت للتهديد ليس فقط صناعة الأفلام الأوروبية بل التراث الأوروبي والثقافة الأوربية على حد سواء وحرصاً منها على تأكيد الهوية الوطنية الأوروبية تم الاتفاق على تأجيل الخوض في تلك القضية إلى مرحلة لاحقة وصمت الأمريكيين على مضد فأخرجت القضية من مفاوضات G.A.T.T ولكن في مجال الخدمات المالية كأعمال البنوك والتأمين لم يسكت الأمريكيون على هذه الأنظمة لأنهم حاذقون في تأديتها، فأدرج ما يتعلق بها في نص الاتفاق وإذا علمنا أن ثلثي التجارة العالمية بين مجموعة الدول الرباعية أي أوربا والولايات المتحدة وكندا واليابان لن يكون من المفاجئ القول إن قائمة اهتماماتها ومصالحها هي التي تصدرت في اجتماعات G.A.T.T "كيمن والكتر" المستشار الاقتصادي لأكسبند يبرز ظهور ذلك الأمر بشكل قوي في ناحيتين من نواحي الجدل بمفاوضات G.A.T.T الأخيرة ألا وهي الخدمات المالية وحقوق الملكية الفكرية. لا يسع المرء إلا أن يعزى من تلك المناقشات بشكل كبير فالأطراف التي كانت تدعو إلى تطبيق التجارة الحرة بين الدول في نطاق الخدمات المالية التي تعود منها علينا فوائد جمة، ولو فتحت أسواق العالم الثالث تتقوقع داخل نفسها، ويلتجم لسانها عندما يكون الأمر متعلقاً بحقوق الملكية الفردية. لماذا يبرز في هذا الجو جدل حول ضرورة امتلاك براءة الاختراع مثلاً؟

أليس ذلك بسبب تصدير أحقية الاحتكار، أليس ذلك بمصلحة الشركات العالمية العملاقة ويمكننا القول صراحة طالما أن الدول النامية لا تستطيع امتلاك التكنولوجيا المتقدمة التي تحتاجها فستظل خارج نطاق النظام التجاري العالمي بطريقة أو بأخرى برغم اتفاقية G.A.T.T.

إن الربح الوحيد الذي ابتغاه كل طرف من تأسيس G.A.T.T في الماضي هو تقييد الضرائب بمعنى عدم فرض المزيد عما هو متفق عليه، ولو أنه بالإمكان تخفيضها، وقد تم الالتزام بذلك حتى جولة يورغواي، لكن من دواعي الأسى أن نرى في مفاوضات الـ G.A.T.T الأخيرة إصرار العالم الصناعي على رفع جميع القيود الضرائبية لتوفير الدخول الحر لبضائعها في الأسواق العالمية رغم إصرارها أيضاً في الوقت نفسه على إدخال نظام الكوتا ونظام الرخص وماذا سيعني ذلك؟ سيعني أن الصناعة الناجحة المستوردة من دولة نامية أو حتى دولة متقدمة كاليابان ستجد عراقيل من نوع جديد يفرضها نظام الكوتا والرخص الذي تتبناه وتطبقه الدول الصناعية.

ويؤكد "كيفن وايت كيتر" أيضاً وجود دلائل على رغبة كامنة لدى الحكومات في استغلال ما يناسبها من ناحية، وإهمال ما لا يناسبها من ناحية أخرى، ويضرب مثلاً صارخاً على ذلك ما يتعلق بصادرات النسيج فقد حرمت اتفاقية G.A.T.T دول العالم الثالث من نظام الأفضلية في التعامل التجاري الذي كانت تتميز به فيما يتعلق بصادراتها من النسيج حسب اتفاقية سابقة متعددة الأطراف وقع عليها العديد من الدول الصناعية، وينص النظام الجديد على أن تعامل جميع الدول بالمقياس نفسه في المقايضات التجارية على أن يطبق ذلك في عام ١٩٩٥ وتدريجياً على مدى عشر سنوات، وقد أثار ذلك العالم الثالث على وجه العموم.

ويقول "أحمد بنين" السفير الباكستاني إلى مفاوضات G.A.T.T: إن ذلك لم يدمر باكستان بل النظام التجاري العالمي، إنه يدمر جولة أورغواي وروح

المفاوضات، لأنه يناقض جميع المبادئ التي اتفقنا عليها طيلة السنين السبعة الماضية.

ويتساءل "وايت كيتر" حول صحة الإدعاء بأن دول العالم الثالث ستكون حقاً في وضع أفضل بسبب اتفاقية G.A.T.T، لو تفحصنا الأرقام الصادرة عن المنظمة الأوروبية للتعاون والتنمية OECD اتفاقية G.A.T.T لايقنت بأن المدخول العالمي سيصل إلى أكثر من /٢١٥/ بليون دولار، ولكن ثلاثة أرباع ذلك سيكون من حصة دول الشمال، فالشركات العالمية العملاقة تتمركز في الشمال والخدمات المالية الرئيسية تتمركز في الشمال، أما الصناعة في الجنوب فربما تدخل بعض المرابح في بعض الأقطار، وربما لا ولكن من المؤكد أن تظل بعض العقبات عائقاً أمام صادراتها الاستوائية الأخرى بمعنى أخر ستظل الدول النامية في مرمى النار سواء باتفاقية G.A.T.T الجديدة أو بدونها فلو فشلت المفاوضات التي انتهت نهار الأربعاء ١٩٩٣/١٢/١٥ لكانت ستنشب نار حرب تجارية ضارية بين اليابان وأوروبا والولايات المتحدة، وكانت ستقع في مرماها الدول النامية نفسها مما سيعود عليها بنتائج وخيمة، أما وقد نجحت فسنرى استمرار بعض الممارسات المضرة من طرف الولايات المتحدة وأوروبا واليابان وغيرها عن طريق ترسيخ تلك الممارسات في القانون الدولي التجاري الجديد.

أما "ليون بريتون" المفوض التجاري للاتحاد الأوروبي فقد قال: إن الاتفاقية التي نحن بصددها الآن قد خيبت بشكل أساسي آمال أفقر دول العالم.

من جهة أخرى يعتقد "بيتر سيفرلاند" أن التنظيم على نطاق عالمي سيوفر اهتماماً أكبر بالدول الأفقر في العالم، ويصر على أن اتفاقاً كهذا عالمي الأطراف كان آخر وأفضل أمل بالنسبة للدول النامية، ومن دونه كان من الصعب التوصل إلى استراتيجية قوية لدعم انتشاره بحقه العام بالمستقبل المقبل. إما

ستعيش في عالم يسوده قانون الغاب بالنسبة للسياسة التجارية، وتستخدم فيه العصا الغليظة ضد الدول الضعيفة في الوقت الذي سيدب فيه التوتر بين الدول الصناعية نفسها وعبر الأطلسي، وتخلو القلوب من الرحمة. أما وقد توصلت الدول الرئيسة إلى القبول بمبادئ أساسية معينة في اقتصاد السوق ستصاب حتماً بخيبة الأمل في المستقبل لو استغلت بعض الدول كالولايات المتحدة الواقع الجديد لتعود إلى استخدام العصي الغليظة، ولكن بأساليب أخرى للهيمنة على بعض وجوه السياسة التجارية. ليست هنا الولايات المتحدة المستفيدة في ذلك، فضغوط الحماية التجارية كامنة في نفوس جميع الدول خاصة في وقت يسود فيه الانحسار الاقتصادي في كل مكان ولكن نأمل أن تكون اتفاقية أرغواي كافية لكبح جميع الأطراف.

ولكن تجدر الإشارة إلى أنه بدون اتفاقية أورغواي هناك بالمناسبة منطقة في العالم اختارت عن طيب خاطر أن تحرر تجارتها عملياً في غضون السنوات السبع الماضية التي أضاعها المجتمعون في جولة أورغواي بالجدل والنقاش. وقد قامت / ٦٥/ دولة في شرق آسيا بذلك وهي اليوم من أكثر دول العالم سرعة في النمو الاقتصادي.

ويقول "مارتن وولف" في صحيفة "الفاينانشال تايم": دول آسيا الصغيرة في منطقة المحيط الهادي هي أكثر عملية وواقعية إنها تؤمن بأنها غير قادرة على تغيير العالم،س، ومن ثم فعليها أن تتصرف من خلالها هذا الواقع، وأفضل ما ارتأته هو استغلال كل ما يمكن أن تشتريه بأثمان زهيدة وبيع ما يمكنها بيعه بأغلى الأثمان هذا هو التحرر بعينه لكن من طرف واحد، أيضاً خارج جولة أورغواي هذه المنطقة حالياً من أكثر مناطق العالم ديناميكية من حيث التجارة والاقتصاد وقد ارتبطت هذه المنطقة مؤخراً باتفاقية **APK** مع الولايات المتحدة، ويتساءل المرء في هذا المضمار ما الذي يضمره الأمريكيون حقاً من وراء تلك الشبكة من

الارتباطات الاقتصادية فقد صادق الكونغرس مؤخراً على NKTA أي اتفاقية التجارة الحرة بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك، ومن المعتقد أنه سيصادق دون شك على اتفاقية G.A.T.T هذا بالإضافة على اتفاقية APK، وهناك أيضاً تعامل تجاري على مستوى ثنائي الرئيس الأمريكي "بيل كلينتون" يلقي بعض الضوء بعد توقيع المفوض الأمريكي المستر "كانتور" على اتفاقية G.A.T.T، هذه الاتفاقية تلغي الحواجز أمام البضائع والخدمات الأمريكية في العالم ويعني ذلك المزيد من الفرص والأعمال والمداخيل إنها تثبت مركزنا القيادي في الاقتصاد العالمي الجديد قضية الإقليمية بأكملها مفيدة جداً في نطاق تحرير التجارة طالما هي جزء من نظم متعدد الأطراف أو تحت مظلة نظام متعدد الأطراف ومن دون ذلك تصبح كثير من الأفكار والممارسات في غاية الخطورة فالسوق الأوروبية من جهة و NKTA من جهة و APK من جهة أخرى كلها بحاجة إلى تنظيم داخل إطار واحد كبير معين،س ولا تنسوا أن التفرقة والخلاف يشحنان التوتر السياسي والتوتر السياسي هو الذي أسهم في إشعال نار الحرب العالمية الثانية.

"بيتر سيفرلاند" وهو كغيره من زعماء العالم الغربي القياديين وقعوا في الأيام القليلة الماضية في خضم حمى الخطابة التي تعدد مناقب G.A.T.T يقول للعالم: إن المنتخبين والمستهلكين والمستثمرين والتجار في كل مكان سيربحون أنا مقتنع أن هذا اليوم معلم مهم في التاريخ السياسي والاقتصادي الحديث.

أما رئيس الوزراء البريطاني السابق "جون ميجر" فيقول: يمكن أن تضيف اتفاقية G.A.T.T الجديد ما يوازي٤% إلى مدخولنا القومي مما سيحدث ٤٠٠,٠٠٠ وظيفة جديدة على مدى العقد القادم والاقتصاد الأوروبي كمجموعة هو أكبر رابح على انفراد.

في حين أن رئيس الوزراء الفرنسي "إدوار بالادور" كان مأخوذاً بنجاحه في

فـرض إرادة بـلاده عـلى الآخـرين. لم يكـن الجـدل بين التجارة الحرة والحماية الـتجارية لقـد كـان الجـدل بين الحرية المنظمة وقانون الغاب حيث يحكم القوي ثم يقول لقد كرست نفسي شخصياً دون كلل لكسب اتفاقية تتعلق بتنظيم الحرية.

وأمـام هـؤلاء وغيرهـم سمعـنا العـالم الثالـث يصـرخ ويستغيث فالسفير الباكسـتاني في مفاوضـات G.A.T.T يقـول: يمكـن القول بشكل عام أن الدول النامـية لم تسـتفد كـثيراً وقد كانت تلك المفاوضات بين اللاعبين الرئيسيين بشكل رئيسـي إنهـم لم يقدمـوا إلى الـدول النامـية إلا فتات الموائد وكان له ولأمثاله هذا الجـواب مـن "بيـتر سـيفرلاند" مجرد توصل الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة إلى اتفـاق حـول بعـض الأمـور لا يعـني هـذا نهاية لهذا الجدل فهناك /١١٥/ دولة مشـاركة قدمـت لهـم نـتائج المفاوضات، ويجب علينا أن نتقبل فكرة إجراء بعض التغـييرات الـتي يجـب تماشـيها مع الأسس في اتفاق G.A.T.T. لم يكن أمامنا إلا المـزيد مـن العمـل لـن نعـدُّ الأمر منتهياً إلا إذا انتهينا بالفعل من عمل كل ما هو مطلوب.

وقـد اسـتبدلت مـنظمة الاتفاقـية العامـة للـتجارة والتعرفة الجمركية يوم الأربعـاء ١٩٩٣/١٢/١٥ بعـد أن حققـت مـا أسست لأجله في هيئة جديدة هي مـنظمة الدفـاع مـن أجـل إطـلاق التجارة والمنوط بها تنفيذ أهداف وثيقة تحرير التجارة العالمية المؤلفة من /٥٥٠/ صفحة هي ثمرة جولة أورغواي.

المراجع بالعربية وللأجنبية للباب الأول

أولاً: المراجع العربية

١- أحمد رزقانة (ابراهيم)، العائلة البشرية، القاهرة، ١٩٥٠

٢- الأنصاري (فاضل)، الجغرافية الاجتماعية، جامعة دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٩٠

٣- الجوهري (يسري) ودرويش (ناريمان): الجغرافية البشرية، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٩٢.

٤- السيد غلاب (محمد)، البيئة والمجتمع، القاهرة، ١٩٦٠.

٥- السيد غلاب (محمد)، تطور الجنس البشري، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٩٧٤

٦- السيد غلاب (محمد)، الجغرافية العامة الطبيعية والبشرية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٥

٧- الصقار (فؤاد محمد) والفيل (محمد رشيد)، أصول الجغرافية البشرية، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٨٠

٨- بيك (هارولد) وفلير (هربرت جون)، الأزمنة والأمكنة، ترجمة محمد السيد غلاب، القاهرة، ١٩٦٢

٩- حمدان (جمال)، أنماط من البيئات، القاهرة، ١٩٥٧

١٠- فيفر (لوسيان): الأرض والتطور البشري، ترجمة د.محمد السيد غلاب (حزيران) القاهرة، ١٩٥٧

١١- محمد وهيبة (عبد الفتاح)، البيئة والإنسان، منشأة المعارف، الاسكندية، ١٩٩٠

١٢- محمد وهيبة (عبد الفتاح)، جغرافية الإنسان، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٩٩٠

١٣- عدد من الباحثين، الأسس البيئية للتنمية الاقتصادية، ترجمة سعاد محمد وقاف منشورات وزراة الثقافة، دمشق، ١٩٩٠

النشرات والدوريات:

١- UNFPA، حالة سكان العالم، ١٩٩٨، صندوق الأمم المتحدة.

٢- UNFPA، تقرير التنمية البشرية للعام ٢٠٠٣.

٣- المقداد، محمد رفعت، تنمية الموارد البشؤية في القطر العربي السوري للفترة بين عامي ١٩٦٠و١٩٩٤. مجلة جامعة دمشق،٢٠٠٢

ثانياً- المراجع الأجنبية:

١- Baker, A.R.H & Hamshere, J.D.& Langton: Geographecal Interpretation of Historical Sources, Newton Abbot, London, ١٩٧٠.

٢- Beaujeu – Garnier, J.& autres: De La Geographic urbaine a la Geographic Sociale, Corlet, Paris, ١٩٨٤.

٣- Bowmann, J: Geography in Relation to social sciences, New-York, ١٩٣٤.

٤- Brettele, L.: Social and Economic Geogrphy, London, ١٩٣١.

٥- Dumont,R: Types of Rular Economy, London, ١٩٥٢.

٦- Febvre, L, A Geographical Introduction to History, London, ١٩٣٢.

٧- Firth, R, Human Types, London, ١٩٣٨.

٨- Forde, C.D, Habitat, Economy and social Geography, New – York, ١٩٣٣.

٩- Huntigton, E. & others, Economic and social Geography, New-York, ١٩٣٣.

١٠- Huntigton, E. Principles of Human Geography, New-York, ١٩٦٤.

١١- Keith, A, the Antiquity of man, London, ١٩٦٤.

١٢-Weinert, H. , L'Homme Prehistorique, Paris, ١٩٤٤

فهرس المصورات والأشكال للباب الأول

فهرس المصورات

١ــ التوزع الجغرافي للسلالات البشرية

٢ــ أنماط المجتمعات البدائية في العالم

٣ــ أنماط المجتمعات الزراعية الراقية في العالم

٤ــ توزع المناطق الصناعية الكبرى في العالم

٥ــ موقع اليابان وأهم المدن فيها

فهرس الأشكال

١ــ أهرامات الأعمار لسكان اليابان للفترة بين عامي ١٩٢٠ و ٢٠٢٥

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الباب الثاني

- الفصل الأول: مجتمع الوطن العربي
- الفصل الثاني: المجتمع الرعوي
- الفصل الثالث: المجتمع الاشتراكي
- الفصل الرابع: مجتمع رابطة الدول المستقلة.

المجتمع الهندي

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الفصل الأول

مجتمع الوطن العربي

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

مقدمة :

تميز المجتمع العربي خلال مراحله التاريخية بعدة خصائص ومكونات ، تأثرت بالواقع والخصائص الطبيعية التي شكلت الأساس والإطار الحاضن لتطور هذا المجتمع، في الماضي والحاضر والمستقبل .

وحدثت تحولات في بنيته ، فانتقل قسم من حياة التنقل والترحال والبداوة، إلى مجتمع الاستقرار والتحضر ، فنشأت المراكز الحضارية في القرى والمدن والبلدان ، إلى جانب المجتمع البدوي الذي اتخذ البوادي والصحاري والمناطق الهامشية موطناً له .

وتعرض المجتمع العربي إلى عدة نكسات وظروف أثرت فيه ، منها ما سببتها الغزوات والحروب التي تعرض لها الوطن العربي ، أو بسبب النزاعات والحروب وحركات التمرد الداخلية ، أو بسبب الظروف الطبيعية التي تأثر بها المجتمع العربي ، والتي جعلته مثاراً لشهوة الاستعمار والاحتلال الأجنبي، وسادت حالة من الضعف والإحباط ، وكونه يتمتع بخصائص هامة من موقع وموضع ووجود ثروات باطنية وخيرات أثارت أطماع الاحتلال الأجنبي الذي كرس التجزئة السياسية والاقتصادية ، ولذلك كان لا بد لهذا المجتمع أن ينهض خصوصاً مع وجود عوامل القوة والإرادة والوحدة العربية الشاملة ، ووجود الثروة الباطنية التي يمكن أن تتحول إلى مصدر قوة اقتصادية، مع وجود الكتلة السكانية الكبيرة ، والمساحة الشاسعة والقدرة الإيكولوجية ، وأن يتحول هذا المجتمع إلى دولة عظمى ذات تأثير عالمي حقوقها مصانة ، ومجتمع قوي متماسك قادر على مجابهة التحديات وذلك من خلال ما يلي :

أولاً- العوامل المؤثرة في بنية المجتمع العربي:

تأثرت بنية المجتمع العربي بالعديد من العوامل الطبيعية والتاريخية ، والحركات الداخلية المناوئة ، ونشوء الدويلات المستقلة بالإضافة للعوامل الديموغرافية والاقتصادية . وهذه العوامل هي :

١- الخصائص الطبيعية:

أثرت الخصائص والعوامل الطبيعية في بنية المجتمع العربي والتي شكلت البيئة التي يعيش فيها الإنسان منذ ما يزيد على ٦٠٠٠ سنة ، وخاصة الخصائص المناخية والتضريسية والمياه والسهول والأراضي الزراعية والتربة ، ففي شبه الجزيرة العربية كان المناخ رطباً في الزمن الجيولوجي الثالث والرابع ، وفي العصر المطير كانت المنطقة خصبة زراعياً، وتهطل فيها الأمطار الدائمة، ويعيش فيها الإنسان حياة مستقرة خاصة على ضفاف الأودية مثل وادي الدواسر ، ووادي الرمة ، ووادي حوران وغيرها من الأودية التي تتجه من الغرب إلى الشرق وخاصة في عصر البلايستوسي ، وأن هذه البلاد غنية بالغابات والنباتات والأشجار المثمرة وهي كالأشجار التي نجدها في الزمن الحاضر في الهند وإفريقيا[1] . وأن التحول المناخي هذا قد حصل في عصر نيولتيك أو في عصر (البالكولتيك) .

ففي هذا الزمن تحولت المنطقة من رطبة إلى جافة قاحلة صحراوية . وانعكس هذا التحول المناخي على بنية المجتمع وخصائصه ، حيث هبط مستوى المياه الجوفية ، ويقول الباحث كيتاني " إن التغيير الذي حصل في مناخ شبه

---

١) د. جواد علي ـ المفصل في تاريخ العرب ـ نشر دار العلم للملايين بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٦٨ص ٢٤٠.

الجزيرة العربية كان منذ عشرة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح "[1]

يتضح من خلال ذلك أن هذا التحول الكبير في المناخ لم يأت في وقت واحد وبشكل سريع بل حدث ذلك من خلال حقبة طويلة من الزمن ، وأن ذلك الوضع مر في مرحلة انتقالية استغرقت وقتاً طويلاً ، وأثر هذا في التحول في طبيعة المجتمع العربي الذي كان يعيش في هذه المنطقة ، وتمثل ذلك في الانتقال من حياة الاستقرار والإقامة في بيوت مبنية من الطين والحجر وممارسة حرفة الزراعة ، إلى الاعتماد على حياة التنقل والترحال والبحث عن أماكن تجمع المياه، وذلك لإسقاء الأغنام والبحث عن الكلأ ، وأصبحت طبيعة حياة المجتمع بدوية .

ومن هنا نلاحظ هذا التأثير للعامل المناخي في حياة السكان والمجتمع ، ونشأ في شبه الجزيرة العربية نموذجان من الحياة الاجتماعية .

ففي الوسط والشرق منها عاش الإنسان حياة بداوة اعتمدت على التنقل والترحال ، للبحث عن الطعام والماء ، وفي الجنوب عاشت القبائل العربية مستقرة في بلدان ومدن وتمارس حرفة الزراعة ، ونشأت مدن ذات تاريخ عريق وسحيق، مثل مدينة مأرب وعدن ، وأصبحت الزراعة تعتمد على ما يجمعه سد مأرب من مياه الأمطار ، وكذلك في حضرموت واليمن والتي تعد مصدراً رئيسياً من مصادر الهجرة لتلك القبائل التي كانت تعيش هناك، واتجهت نحو مناطق تتوافر فيها المياه والتربة الصالحة للزراعة والمناخ الملائم لإقامة السكان والعيش، ولهذا فإن هذا الوضع المناخي الحار الجاف الصحراوي الذي حصل كان من أهم الأسباب النابذة للسكان والدافعة للهجرة ، وليس فقط خراب سد مأرب كان السبب في هذه الهجرة وانتقال المجتمع العربي المؤلف من القبائل

---

١) نفس المرجع السابق .

العديـــدة الـــتي كانـــت تعـــيش في جنوب شبه الجزيرة العربية ، وإلا كان من السهل عـــلى تلـــك القـــبائل أن تـــلجأ لإصلاح السد بدلاً من أن تهاجر إلى مناطق بعيدة ، بالإضـــافة للـــزيادة في عـــدد الســـكان ، ولم تعد تلك المناطق تكفي لمعيشة السكان وإقامـــتهم مـــع الـــتحول المـــناخي الذي سبق الحديث عنه . والازدحام على مناطق المـــياه بالإضـــافة لعـــامل آخـــر طبـــيعي هـــو هبوط مستوى الماء بالتدريج، وظهور الأمـــلاح في العديـــد مـــن الآبـــار وارتفاع نسبة الأملاح في المياه الجوفية ، وجفاف بعضـــها . كـــل ذلـــك عمـــل بشـــكل كـــبير وواضح على هجرة السكان، وتحول المجـــتمع العـــربي مـــن مجـــتمع الاســـتقرار إلى التنقل والهجرة منذ أكثر من ٣٠٠٠ سنة[1] .

وأهم المناطق التي توجهت إليها تلك الهجرات هي :

١- نحو الشمال (بلاد الرافدين) :

تعـــد هـــذه المـــنطقة الواقعـــة إلى الشمال من شبه الجزيرة العربية وهي المنطقة الواقعـــة بـــين نهـــري دجلـــة والفـــرات ، حيث الترب الرسوبية والسهول الفيضية، وهـــي الـــتي تشـــكلت بفعل الرسوبيات الناجمة عن حركة الفيضان البحري وانحسار المياه، أو بسبب الفيضان السنوي للنهرين المذكورين.

وتعـــد هـــذه الـــترب مـــن أخصـــب الترب في العالم بالإضافة للمناخ الرطب والماطـــر شـــتاءً، وكانـــت تعـــيش علـــيها أعداد كبيرة من السكان، وفيها حضارات عـــريقة مـــثل الحضـــارة الكلدانـــية والبابلـــية والآكادية والآشورية وغيرها .. ورغم ذلك استوعبت أعداداً كثيرة من السكان .

---

١) د.جـــواد عـــلي – المفصـــل في تـــاريخ العـــرب . مـــرجع ســـبق ذكره . نشر دار العلم للملايين بيروت– الطبعة الأولى ١٩٦٨ .

٢- سورية :

توجهت إليها القبائل العديدة بسبب الأمطار الغزيرة الشتوية والمناخ الرطب والمعتدل صيفاً، والترب الملائمة للزراعة، ووجود المياه الجوفية والسطحية والأودية مثل وادي العاصي ونهر بردى والأعوج وأنهار الساحل السوري ومنطقة الجزيرة السورية ، بين أنهار دجلة والفرات والخابور ، وكذلك نهر اليرموك جنوب سورية ، وفي لبنان وفلسطين والأردن حيث منخفضات الأغوار في الأردن وفلسطين ، والبقاع في لبنان والأنهار الساحلية ، والغاب في سورية ووادي الزيدي في جنوب سورية في منطقة حوران . وعاشت القبائل العربية المهاجرة حياة مستقرة، ونشأت في هذه المنطقة القبائل الغسانية والقحطانية وغيرها .

٣-في وادي النيل :

توجهت قبائل عربية عديدة نحو وادي النيل الذي استقطب مئات الآلاف من السكان. ونشأت على ضفاف النيل الحضارات العريقة . حيث الترب والسهول الرسوبية ذات الخصوبة العالية . والتي استقبلت العديد من القبائل العربية . وبدأ الناس يمارسون الزراعة، وعاشوا حياة الاستقرار.

ويتضح مما سبق أن العوامل الطبيعية من جفاف، والحباس المطر، ونضوب المياه الجوفية، والارتفاع في درجات الحرارة ، وزيادة نسبة الملوحة في المياه ، والتصحر ، وكانت عوامل طاردة للسكان من شبه الجزيرة العربية بينما كان توفر المياه والترب الخصبة الزراعية ، والمناخ الرطب . من العوامل الجاذبة للسكان وللقبائل العربية القادمة من تلك المناطق القاحلة . مما أوجد نموذجاً جديداً لحياة اجتماعية تعتمد على الاستقرار والعيش في قرى ومدن وبلدات في بلاد الرافدين، وسورية، ووادي النيل وهكذا نشأ المجتمع الحضري المستقر .

التوزع الجغرافي للينابيع في الوطن العربي:

إن توزع مصادر المياه على اختلاف أنواعها من مياه سطحية ، وجوفية لعبت دوراً هاماً في ارتفاع الكثافات السكانية في تلك المناطق ، وذلك بسبب الحاجة الماسة للمياه ، وتمثل ذلك في نشوء المدن والبلدان والقرى والتجمعات السكانية قرب مصادر المياه ، ومجاري الأنهار والينابيع ، وتميزت بارتفاع الكثافة السكانية وخاصة في المدن الكبرى ، ونشأ المجتمع المستقر في أنحاء الوطن العربي . كما هو الحال حول ضفاف النيل والفرات ودجلة والعاصي واليرموك وأنهار سيبو والشليف والمجردة في المغرب العربي.

١-الأهمية الاستراتيجية لموقع الوطن العربي:

يتمتع موقع الوطن العربي بأهمية استراتيجية جعلته في مواجهة الهجمات الخارجية ، ولجأ الأعداء إلى مختلف الأساليب للسيطرة على ثروات الوطن العربي ومقدراته، إذ يقع الوطن العربي في قارتين آسيا وإفريقيا ، وتزيد مساحته على ١٤ مليون كم٢ ، ويشرف على مضائق وممرات هامة ، مثل مضيق جبل طارق وباب المندب وقناة السويس ومضيق هرمز، ويطل على بحار ومحيطات، وهي البحر المتوسط شمالاً ، والمحيط الأطلسي غرباً ، والخليج العربي وبحر العرب والمحيط الهندي شرقاً، ويحتوي على ذراع مائي طويل هو البحر الأحمر. الذي يفصل بين القسمين الآسيوي والإفريقي .

ومن خصائص الموقع أنه يمتد من الشرق إلى الغرب بمسافة ٧٥٠٠كم ، وأقصى امتداد من الشمال للجنوب ٤٠٠٠ كم ويقع بين خطي طول ١٦ ــ ٦٠ شرقاً ، وبين درجتي عرض٣١-٣٧ شمالاً وطول سواحله ١٢ ألف كم . ويزيد عدد سكانه على ٣٠٠ مليون نسمة[1] (تقدير عام ٢٠٠٣م) .

---

١) د. قاسم الربداوي – تقدير عام ٢٠٠٣ ، اعتماداً على معدلات النمو السكاني في الوطن العربي

ويتميز بتنوعه الإقليمي والمناخي ، ويعود هذا إلى امتداده الواسع على درجات العرض والطول . فهنالك الإقليم المتوسطي الساحلي ، والذي يتميز بأمطاره الشتوية ، والإقليم المداري وإقليم السافانا في السودان .

وإقليم الجبال الساحلية ، والتنوع التضريسي، ووجود الصحاري الواسعة فيه وهي الصحراء العربية الكبرى في شمال إفريقيا، وصحراء الدهناء والنفوذ والربع الخالي في شبه الجزيرة العربية . والتي نشأ فيها المجتمع العربي المستقر جنوباً وغرباً، والمتنقل في الوسط والشرق وبادية الشام .

بالإضافة لوجود السهول والأراضي الزراعية في بلاد الشام وسورية ولبنان وفلسطين ومصر وإقليم المغرب العربي . كل ذلك جعله مثاراً لأطماع البلدان الأجنبية، وتنافست في السيطرة عليه لنهب خيراته، ولجعله سوقاً للمنتجات الاقتصادية الأجنبية ، وبذل هؤلاء المستعمرون جهوداً كبيرة لإبقاء المجتمع العربي متخلفاً غير قادر على النهوض ومجابهة التحديات ، وأثر ذلك في درجة تطور وعمل المستعمرون على تكريس التجزئة السياسية والاقتصادية لتسهل السيطرة عليه .

٢-العوامل التاريخية :

وتمثلت هذه العوامل بتعرض الوطن العربي إلى الغزو الخارجي منذ ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وخاصة بلاد الرافدين ، من كيشيين ، وفرس وعيلاميين ، وميديين ، وقد جاءوا من أواسط آسيا غزاة . وأصيب المجتمع العربي بانتكاسات متلاحقة نتيجة لغزوات متلاحقة في مرحلة ثانية من قبل التتر، والمغول والصفويين والتيموريين ، والسلاجقة ، والبويهيين والصليبيين والمماليك والعثمانيين والاستعمار الغربي ، وزرع الصهيونية في فلسطين المحتلة من قبل الاستعمار البريطاني والقوى الغربية.

٣-الحركات الداخلية المناوئة للحكم الأموي والعباسي والحروب الداخلية

ويأتي في مقدمتها التنافس على السلطة ، والتجزئة السياسية والاقتصادية للمجتمع العربي، ووجود عدة دول عربية في العصر الحديث . كل ذلك من ظروف وأحداث أنهكت المجتمع العربي، وأثرت في درجة تطوره . وسيتضح ذلك بالتفصيل لاحقاً.

٤-العوامل الديموغرافية :

إن تزايد سكان الوطن العربي وارتفاع نسبة النمو السكني ، والتي تصل إلى حوالى ٣٨ بالألف . ونشوء مشكلات اجتماعية واقتصادية عديدة، وارتفاع معدلات الخصوبة والإنجاب وعدد أفراد الأسرة الواحدة ، وزيادة معدلات الإعالة. شكلت عائقاً أمام تطور المجتمع العربي مع العوامل السابقة الذكر .

٥-العوامل الاقتصادية :

ويأتي في طليعتها وجود الثروات الطبيعية وخاصة النفط ، أثارت أطماع الاحتلالات الأجنبية المتعاقبة ، كما أن التوزع الجغرافي غير المتوازي لتلك الثروات بين أقطار الوطن العربي انعكس على حركة السكان والهجرة بين تلك البلدان ، وعلى مستوى دخل الأفراد مما جعل هنالك تبايناً في درجة تطور هذا المجتمع .

ثانياً-خصائص مجتمع الوطن العربي :

يمكن تمييز عدة خصائص للمجتمع في الوطن العربي ، قبل الهجرات العربية السامية من شبه الجزيرة العربية وفي المناطق التي استقر فيها المهاجرون .

- في شبه الجزيرة العربية :

إن تنوع أنماط الحياة الاجتماعية للسكان في شبه الجزيرة العربية ارتبط بطبيعة الظروف الاقتصادية والاجتماعية والمعيشية لهم، وهذه الأنماط هي:

١ــ مجتمع الاستقرار:

وتركز هذا النوع من الحياة في منطقتين رئيسيتين هما القسم الجنوبي من شبه الجزيرة العربية وقد كانت الموطن الأول للعرب الساميين ، حيث كان يطلق عليها اسم (جنة عدن)[1] وحضرموت ومأرب . كما يقول العالم الإيطالي كيتاني . وقد تمت الهجرة إلى بلاد الرافدين وبلاد الشام ومصر في الفترة الواقعة بين ٢٥٠٠ – ١٥٠٠ ق. م لأسباب سابقة الذكر . وبسبب هذه التحولات المناخية من ماطرة إلى جافة صحراوية .

وظهر هذا النمط من الحياة في يثرب . حيث عرف السكان الاستقرار بينما أهالي مكة سواء كانوا أعراباً أم شبه أعراب .

ومن القبائل العربية التي عرفت الاستقرار – القحطانيون فهم حضر ، وهم كما تشير المصادر بأنهم أول من تكلم العربية "ويعرب هو أحد القحطانيين ، ومن قبائلهم الأوس والخزرج وآل كنده .

وكان يعيش في تلك البلاد الأنباط والغساسنة والذين هاجروا نحو الشمال بحثاً عن الطعام والماء والكلأ ، وقد أقاموا في مناطق استقروا فيها في بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين .

٢ ــ المجتمع البدوي:

ويتألف من قبائل بدوية عاشت في شبه الجزيرة العربية وخاصة في القسمين الأوسط والشرقي ، ومنهم القبائل العدنانية ، والمناذرة وقبائل بدوية عديدة، اتخذت من بادية الشام وصحراء شبه الجزيرة العربية ميداناً لها وما زالت تلك القبائل حتى اليوم تعيش هذا النمط من الحياة، مثل الرولة والعنزة وبني خالد

---

١) مرجع سبق ذكره – د. جواد علي – المفصل في تاريخ العرب – الجزء الثاني – نشر دار العلم للملايين بيروت– الطبعة الأولى ١٩٦٨.

وغيرهم . وسيتضح ذلك بشكل مفصل في الفصل الثاني من هذا الباب أثناء دراسة المجتمع الرعوي

٣ ـ الحياة الحضرية:

في المدن والبلدان والقرى وقد تميز هذا النوع من الاستقرار بنشوء مدن صغيرة ومتوسطة وكبيرة ومدن مليونية في العصر الحديث وهو يعد أحد أشكال الاستقرار الرئيسية لمجتمع الوطن العربي . ونشأت مدن العواصم والتي بلغ عدد سكانها حوالى ٧١[1] مليون نسمة حالياً. بالإضافة لمجتمع الريف في البلدان والقرى .

١ ـ أما عن موطن العرب الساميين الأول:

فيرى الباحث (فلبي)[2] بأن الأقسام الجنوبية من شبه جزيرة العرب هي الموطن الأول لهم . وبسبب الجفاف هاجرت قبائلهم . وحملت معها آلهتها التي كانت تعبدها مثل (إله القمر)، واعتمدت الجمل كوسيلة نقل لها .

ويتضح من ذلك أن معظم الباحثين يجمعون على أن موطن العرب الساميين هو شبه الجزيرة العربية وهذا يتفق مع الواقع والظروف التاريخية ، والمناخية التي عاش فيها الإنسان في الوطن العربي . ويجب التأكيد أن بلاد الرافدين وبلاد الشام . من أهم المناطق التي استقبلت القبائل المهاجرة بسبب الظروف الطبيعية الملائمة للاستقرار منذ أقدم العصور التاريخية قبل الميلاد بآلاف السنين .

ولهذا تعد شبه الجزيرة العربية الموطن الأول للعرب الساميين الذين هاجروا منها إلى بلاد الرافدين ، وبلاد الشام . فهاجر الآراميون والفينيقيون إلى سورية.

---

١) د. قاسم الربداوي – تقدير عدد سكان العواصم العربية – الملتقى الثالث للجغرافيين العرب في مدينة الرياض- عام ٢٠٠٣ – بحث – النمو السكاني والسكن العشوائي في مدن العواصم العربية .

٢) د. جواد علي – المفصل في تاريخ العرب – ص٢٣١ .

والآشوريون والبابليون والكلدانيون إلى بلاد الرافدين للأسباب السابقة الذكر، ونشأ مجتمع جديد له عاداته وتقاليده. وقد اختلف الباحثون بتحديد موطن العرب الساميين الأول ، وهم ينتسبون إلى سام بن نوح الذي عاش في بلاد الرافدين ، ومن هؤلاء العالم الألماني (فون كريمر)[1] الذي قال بان إقليم بابل هو موطن الساميين الأول ، وفسر ذلك بوجود ألفاظ عديدة لمسميات زراعية وحيوية حياتية تشترك فيها أكثر اللغات السامية . كما استشهد على ذلك بأن الجمل الذي استخدمه الساميون قد جاء من آسيا الوسطى المركزية ، وبين نهري سيحون وجيحون .

ولكن النقد الذي وجه إلى هذه الرؤية . كيف أن الإنسان سكن في شبه الجزيرة العربية وهي منطقة قاحلة جافة صحراوية مهاجراً إليها ، وهل انتقل السكان من منطقة خصبة رطبة ذات أمطار وفيرة إلى منطقة قاحلة جافة وهي شبه الجزيرة العربية ؟ أم العكس هو الصحيح . ولذلك فإن النقد الذي وجه إلى رأي (فون كريمر) هو نقد صحيح . إذ لا يمكن للإنسان أن يهاجر من منطقة رطبة ماطرة وخصبة ليعيش ، ويستقر في المنطقة الصحراوية الجافة .

ومن هنا فإن الحقيقة تثبت أن شبه الجزيرة العربية هي موطن العرب الساميين، ولم تتوقف الهجرات بل استمرت منذ عام ٢٥٠٠ ق.م وحتى العصر الجاهلي والإسلامي والراشدي والأموي والعباسي ، وذلك بسبب فقر تلك البلاد وكونها جافة وللأسباب المذكورة سابقاً والتي درست أثناء البحث في الوضع الطبيعي لها . ومما يدل على استمرار حركة الهجرة في تلك العصور وجود القبائل والعشائر الموجودة في حوران وبلاد الشام، وقد هاجرت من شبه الجزيرة العربية .

---

١) د. جواد علي – المفصل في تاريخ العرب – الجزء الثاني – ص٢٣٠ .

وإنـــي أرى أنـــه عـــندما كانـــت شبه الجزيرة العربية ذات مناخ رطب، وذات أمطـــار وفـــيرة وتـــرب صـــالحة للـــزراعة (في العصـــر المطير) كان مليئة بالسكان ، والـــتجمعات البشـــرية ، وانطلـــق مـــنها العـــرب الساميون إلى مختلف الاتجاهات . عـــندما حدثـــت تحـــولات مناخـــية فـــيها كمـــا ذكـــر سابقاً أصبحت منطقة دافعة للســـكان، ويوضـــح ذلـــك الشـــكل رقم (١) المرفق والذي يبين اتجاهات الهجرة من شبه الجزيرة العربية إلى تلك المناطق .

الشكل رقم (١) اتجاه حركة الهجرات العربية السامية و الحامية وهجرة القبائل العربية من شبه الجزيرة العربية إلى أنحاء الوطن العربي .

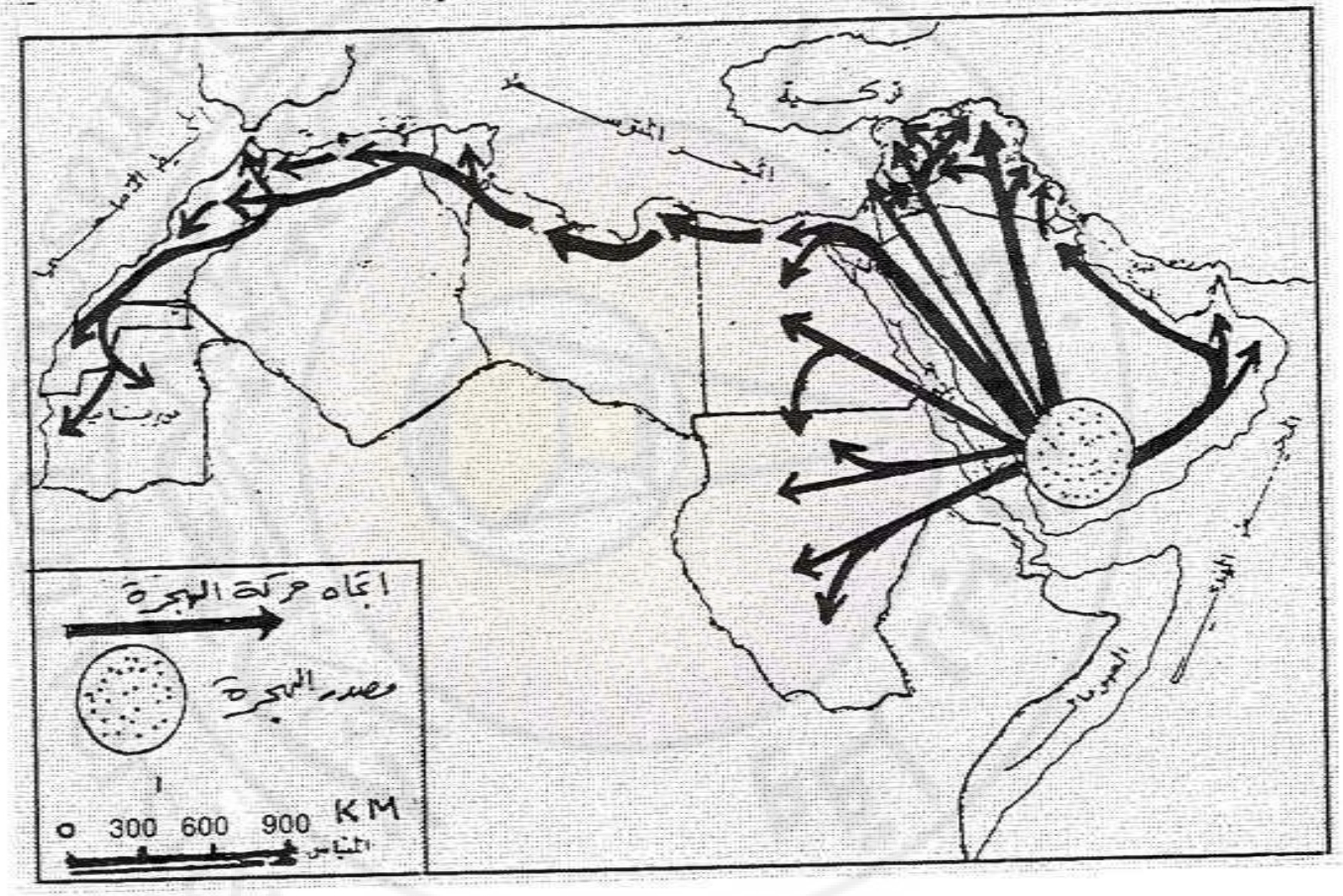

تميز المجتمع العربي في شبه الجزيرة العربية آنذاك بعدة خصائص ففي المنطقة الغربية منها ، وعلى السفوح الجبلية نشأت مدن ومراكز حضرية والتي كانت أكثر تطوراً وتقدماً مما هو عليه الأمر في المنطقة الشرقية ، وسكانها أكثر ثروة وغنى ، بينما امتاز سكان المنطقة الشرقية ، بالفقر والتنقل والترحال ، وسكانها بدو رُحل.

ومن خصائص المجتمع أيضاً ضعف الحكومات المركزية آنذاك، وعدم المقدرة على حماية القوافل التجارية المتجهة من الحجاز إلى بلاد الشام واليمن ، ونجم عن ذلك تحول طرق القوافل التجارية ، ونشوب الثورات الداخلية والفتن وانتشار المجاعة وحدوث الاضطرابات. والتنازع المستمر والغزوات بين البداو والحضر ، وظهور الزعامات القبلية والتي أصبح لها عرفها وتقاليدها وقانونها الخاص بها . وعدم استتباب الأمن ، وعدم مقدرة الدولة في السيطرة على مقاليد الأمور والسلطة وخاصة في القسم الجنوبي من شبه الجزيرة العربية في اليمن وحضرموت . بالإضافة للأسباب السابقة الذكر ، أثناء الحديث عن التحولات المناخية فيها، وأصبحت المنطقة حارة جافة ذات مناخ صحراوي قاحل . وانتهى بخراب سد مأرب. وكلها كانت أسباباً للهجرات العربية السامية نحو الشمال والشمال الغربي إلى بلاد الرافدين وبلاد الشام وإلى وادي النيل وشمال إفريقيا.

– في بلاد الرافدين:

تميز هذا المجتمع الذي يعتمد على ممالك المدن وهي ممالك صغيرة، كان يقسم المجتمع وخاصة في العهد البابلي إلى أحرار وعبيد وفي عهد حمورابي تكونت ثلاث طبقات فالإضافة إلى تلك الطبقتين السابقتين هناك طبقة الموشكينو، وهي طبقة وسطى أدنى من الحر، وأعلى من العبد ويستطيع أن يتملك العبيد، ويطلق

زوجته وإذا أراد الحر أن يطلق زوجته يدفع لها مبلغاً من المال[1]، ويستطيع العبد أن يعترض على الثمن الذي يحدد بيعه ، وكان العبيد يوسمون بعلامات وإشارات لتميزهم عن غيرهم . وكان يكتب اسم صاحب العبد على يده اليمنى ويحق له أن يتزوج من فتاة حرة وأولاده يعدّون أحراراً . وكان القانون لا يسمح إلا بزوجة واحدة في العهد السومري والأكادي، وله الحق أن يكون له أكثر من محظية إذا أراد. وفي عهد حمورابي كان الزوج يدفع المهر لزوجته، ويقوم أهلها بإعطائها متاعاً وأدوات مختلفة وكان للأسرة أهمية خاصة . حيث تقوم الزوجة برعاية البيت وتربية الأطفال، وإذا قصرت في ذلك فلزوجها الحق أن يعيدها إلى أهلها، أو يبقيها كجارية. وقد صان قانون حمورابي الأسرة والعلاقة الزوجية، واشتهرت بلاد الرافدين في عهده بالقانون والتشريعات الأولى في العالم آنذاك، وازدهرت البلاد اقتصادياً في الزراعة والصناعة والتجارة وكان للمرأة مكانة مرموقة في عهد حمورابي وفي بلاد الرافدين كما اشتهرت كافة العلوم.

وقد شملت التشريعات جوانب الحياة والعلاقات بين الأفراد في المجتمع كافة بالإضافة إلى الجوانب الاقتصادية حدد القانون العقوبات المختلفة والشاملة، وتتألف مواد قوانين حمورابي من ٣٠٠ مادة . واستطاع حمورابي أن يصيغ، ويجمع التشريعات التي سبقته في العصر السومري والآكادي كافة وقد اعتمدت على قانون العين بالعين والسن بالسن . وكان للمرأة المكانة المرموقة في المجتمع البابلي، وعالج القانون أيضاً كافة الأمور المتعلقة بالزراعة والعلاقات الزراعية والإيجار كافة وجوانب الحياة كافة.

ـ أما في العهد الآشوري فكان المجتمع يقسم إلى طبقة الأحرار وطبقة

---

١) د. نور الدين حاطوم - د. نبيه العاقل - د. أحمد طربين - د. صلاح مدني . كتاب: موجز تاريخ الحضارة. مطبعة الكمال -١٩٦٥ - ص٢٧٣.

العبيد وكان للأسرة أيضاً مكانتها المرموقة وللمرء زوجة واحدة والأب هو رب الأسرة . وكان يتم الزواج بالخطوبة أولاً، وقد صان المجتمع الآشوري الأسرة والحياة الزوجية . وكان يحق للزوجة الزواج إذا توفى زوجها، أو غاب عنها مدة خمس سنوات . وعرف في الأسرة الآشورية نظام التبني وبموافقة الأبوين الجديدين .

ـ وعند الفينيقيين كان النظام الاجتماعي يعكس طبيعة الحياة التي يعيشها الناس فهناك مجلس يساعد الملك في أوامره . واهتم الفينيقيون بالقبور والموت لأنهم عدوا أن له قدسية خاصة وراحة للجسم .

ـ أما في العهد الآرامي فقد اشتهرت العلوم كثيراً، وكذلك ازدهرت التجارة، واهتموا بالاقتصاد، واشتهروا بممالك المدن .

ومما ساعد على ازدهار الحياة الاجتماعية والاقتصادية في بلاد الرافدين، وجود العوامل الجغرافية الملائمة. إذ تشكل سهل رسوبي خصب والذي تكون بفعل عمليات الحت والنقل والترسيب وخلال آلاف السنين . وتعد هذه اللحقيات من أخصب الترب في العالم ، وقد ساعد هذا الوضع الجغرافي على نشوء حضارة عريقة ، ونشأت المدن والقرى والتجمعات السكانية في سهل يزيد طويلة على ٣٠٠ ميل . وقد أطلق عليها اسم الجزيرة أو بلاد ما بين النهرين . وكانت جاذبة للسكان والهجرة والإقامة وخاصة من شبه الجزيرة العربية التي دفعت بالمهاجرين منها لأسباب ذكرت سابقاً . ونشأت هنا مدن منها بابل وأكاد ونينوى وغيرها . والتي كانت مركز إشعاع حضاري وفكري واجتماعي ومنطقة استقرار وتطور، ولذلك تعرضت المنطقة لغزوات وحروب لشعوب جاءت قادمة من أواسط آسيا مثل الحيثيين – والعيلاميين – والكاشيين – والميديين وفيما بعد المغول والتتار وغيرهم من الغزاة الذين عملوا على تخريب الحضارة وأصيب المجتمع العربي هناك بالانتكاسات المتلاحقة جراء ذلك.

وفي سورية نشأت الحضارة الآرامية ، وظهرت ممالك المدن، وبلغ عددها ٣٣ مملكة في وقت واحد ، وتميز المجتمع الآرامي بازدهار الحياة الاقتصادية ، ونشطت حركة التجارة، وانتشرت اللغة الآرامية في أنحاء العالم آنذاك ، وكان للأسرة مكانة هامة في المجتمع الآرامي، ومن أهم الممالك الآرامية حين ذاك مملكة دمشق، وقد امتد نفوذها جنوباً وغرباً ، ومملكة حلب ، ومملكة حماه ، وغيرها .

وازدهرت زراعة الحبوب وخاصة في حوران جنوب سورية ، حتى أصبحت مصدراً لغذاء أغلب الممالك الآرامية التي تستورد القمح منها، واشتهرت بزراعة الحور والبلوط الحوراني ، ويعود ذلك لأسباب طبيعية من تربة خصبة ، ومياه وفيرة سواء كانت مياه أمطار أم ينابيع ووجود أنهار دائمة الجريان مثل وادي الزيدي الذي يمتد من جبل العرب شرقاً إلى مدينة درعا غرباً ونهر اليرموك الذي يحتوي على ينابيع غزيرة .

واشتهر الآراميون بالتطور الاجتماعي والاقتصادي مثل التجارة والصناعة وخاصة صناعة الألبسة والأغذية وغيرها .

وفي مصر القديمة نشأت حضارة عريقة ، وتميز المجتمع بعدة خصائص ، منها انقسام المجتمع لعدة طبقات ، وهي طبقة العبيد ، وهم من غير المصريين وأغلبهم من أسرى الحرب، ويعد مقياس ما يمتلكه السيد من العبيد هو دليل على الغنى والسيطرة والنفوذ والجاه ، وللزواج تقاليده الخاصة ، وكان ينتسب الولد إلى أمه ، ومن العادات الاجتماعية إذا توفي الزوج وليس له ولد ذكر بالغ فإن رئاسة العائلة تعود للأم.

وقد لعبت النساء دوراً سياسياً كبيراً في الحياة العامة المصرية ، وكان الآباء يهتمون كثيراً بتربية أبنائهم ، ويعلمونهم متطلبات الحياة كافة وكيفية التعامل معها وطرق الحرب والفروسية، وكان للفلاح دور كبير في المجتمع كونه يقوم على زراعة الأرض ويقدم الغذاء للسكان. ومن هنا فإن التركيب الداخلي للمجتمع كان يقوم على وجود الطبقات الاجتماعية ولكل طبقة خصائصها وميزاتها.

مجتمع شبه الجزيرة العربية في العصر الجاهلي :

تميز مجتمع الجزيرة العربية بعدة خصائص ومميزات في العصر الجاهلي ، وهي تتعلق بطبيعة حياة السكان ومتأثرة بالوسط الجغرافي المحيط الذي يعيش فيه الإنسان كما تبين ذلك سابقاً.

وشملت خصائص المجتمع في هذه المرحلة طبيعة النظام القبلي والقضاء والتحالف والعادات والتقاليد ووضع المرأة والإرث وطبقات المجتمع. وهي كما يلي:

١ـ النظام القبلي :

وهو النظام الاجتماعي الذي ساد في شبه الجزيرة العربية ، وهو مجتمع قبلي تحكمه الأعراف والتقاليد . ولكل قبيلة نظامها الاجتماعي الخاص، ورئيس القبيلة هو سيدها ، وهو الآمر والناهي ويساعده في ذلك مجلس استشاري هو مجلس القبيلة ، أو مجلس العشيرة إذا كانت عشيرة . وذلك المجلس مؤلف من الوجهاء ، وهو الذي يتخذ قرارات الحرب والسلم والصلح، والتنقل والترحال بحثاً عن الطعام والماء والكلأ .

وقد اهتم العرب هناك بالأصول والأنساب ، وقسمت مراتبه إلى (شعب مثل عدنان وقحطان[1] – ، وقبيلة مثل ربيعة ومضر وقريش وكنانة، وبطن مثل عبد مناف وبني مخزوم، وفخذ مثل بني هاشم وبني أمية، والعشيرة والفصيلة) .وهنالك العشيرة وهي جزء من القبيلة وكانوا يتفاخرون بأنسابهم . وأصبح لكل قبيلة نظامها الخاص .

---

١)مرجع سبق ذكره – د. جواد علي – المفصل في تاريخ العرب – الجزء الثاني – نشر دار العلم للملايين بيروت– الطبعة الأولى ١٩٦٨.

٢.القضاء :

اتخذ القضاء شكلين ، القضاء المدني والذي يؤخذ في المدن والقرى والتجمعات السكانية المستقرة. وخاصة في مدن يثرب ومكة . وغيرها من المدن مع أن قبيلة قريش هي أقوى القبائل فإن سادتها لهم سيطرة على طرق القوافل التجارية ، وعلى حركة الاقتصاد والتجارة ، ووجهاء قريش كانوا يجتمعون في دار الندوة باستمرار، وهو مجلس استشاري تقرر فيه أمور الحرب والسلم والتجارة . ويتم فيه التشاور في النواحي والأمور كافة .

أما القضاء البدوي : فهو الشكل الآخر من القضاء تحكمه الأعراف والتقاليد وفي كل قبيلة أو عشيرة شخص هو بمثابة القاضي، ويطلق عليه اسم (العارفة) والذي يلجأ إليه الأفراد في العشيرة أو القبيلة ليحكم بينهم في حال حصول خلاف . أو قضية ما ، ويمكن أن يقوم الكاهن أحياناً بدور القاضي، وتأخذ به القبائل الموجودة في شبه الجزيرة العربية كافة .

٣.التحالف :

وهو نظام اجتماعي يعتمد على إقامة التحالف بين قبيلتين أو أكثر وذلك للقيام بغزو أو لدرء خطر وهجوم من قبيلة أو قبائل أخرى وكان هذا النظام السائد تعتمد عليه الكثير من القبائل في شبه الجزيرة العربية .

٤.العادات والتقاليد :

تعد الأعراف والعادات والتقاليد هي من أهم خصائص مجتمع شبه الجزيرة العربية فيما يتعلق بالزواج والطلاق والكرم والشجاعة والمروءة وإغاثة الملهوف، وتقديم العون لمن يحتاجه، والصدق والأمانة وغيرها.

الأسرة:

تعد الأسرة الركن الأساسي للمجتمع في شبه الجزيرة العربية في تلك الفترة، ولذلك كانت مثار اهتمام الأفراد والقبيلة والعشيرة ، إذ كان الرجل يتباهى بما عنده من أولاد ذكور ، والذين يعدهم أساس قوته ، وبالتالي قوة العشيرة أو القبيلة .

أما عن الزواج فقد كان يتم حسب الأعراف والتقاليد ، وكانت عادة وأد البنات من أهم سلبيات نظام الأسرة ، ومن العادات التي كانت سائدة ظاهرة سبي النساء عند حدوث الغزوات . فيقدم المنتصرون على نهب الأموال من القبيلة المهزومة ، وتصبح السبية أمة عنده

ومن عادات الخطبة والزواج أن يقدم الخاطب مهراً لخطيبته، ويصبح ذلك المهر ملكاً لأبيها . وكانوا يلجأون في العصر الجاهلي إلى شرط الكفاءة في المستوى الاجتماعي للزوج والزوجة . فابن السيد يتزوج ابنة السيد ، وابن الوضيع والعبد يتزوج ابنة الوضيع والعبد . وأما عن الطلاق فكان يحق للرجال أن يطلق ثلاث مرات .

وسادت في العصر الجاهلي ظاهرة التبني والإرث الذي كان يعتمد على نقل الإرث بعد الوفاة .

وكان نظام المحالفة مقبولاً ويعمل به ، والحي يرث الميت . وكان المحلال الزواج يتم بالطلاق والخلاع والمخالفة .

ويلاحظ من خلال ما سبق أن تلك العادات قد توارثها الأبناء عن الآباء وهذه طبيعة الحياة الاجتماعية للسكان ، وتعد جزءاً من طبيعة حياتهم، وفي مرحلة تالية تم التخلي عن كثير من تلك العادات ، مثل وأد البنات والسبي . حيث لفظها المجتمع فيما بعد . وكل ذلك أثر في تطور المجتمع والتخلي عن تلك العادات التي لم تقبل في المجتمع الجديد وهذا يعد مظهراً من مظاهر تقدمه وتطوره .

طبقات المجتمع:

تميز العصر الجاهلي بوجود عدة طبقات وهي طبقة الأحرار والسادة ، السيد أو الحر هو الذي يملك حريته الكاملة ويتميز بالغنى والسلطة . وهنالك طبقة من عامة الشعب وهم أصحاب الحرف والصناعات والعمال والفقراء وطبقة العبيد حيث كان العبد يباع ويشترى في سوق النخاس، وكان هذا النظام يسمى باسم نظام الرق والعبودية وغالباً ما كان سائداً عند المجتمع البدوي ومصدر الرقيق هو السبي والأسر والشراء من مناطق وبلدان بعيدة مثل الحبشة وبلاد فارس ومصادر مختلفة وعندما جاء الإسلام ألغى هذا التمايز الطبقي حيث حارب العبودية، وحرر العبيد، وساد نظام جديد، وظهر أهل الذمة وهم من الأجانب وهم من غير العرب ويدفعون الجزية للمسلمين ونظام الجزية قديم كان سائداً يفرضه الغالب على المغلوب والقوي على الضعيف والمنتصر على المهزوم لقاء حمايته، ولا يتولى أهل الذمة مناصب حكومية ووظائف ، وكان هنالك الموالي ومعنى كلمة الموالي مفردها المولى أي النصير وهم من الفقراء المساكين . إن هذا النظام الاجتماعي الذي كان سائداً في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام عكس التمايز الطبقي بين الناس والنظم الاجتماعية التي كانت تفتقد إلى العدل والمساواة، ولا تعترف إلا بالسلطة وبالقوة والنظام العشائري القبلي الذي يستند إلى الأعراف والتقاليد ، وكان للجوار حقوق صانها نظام ملكية الأرض وخاصة حول الينابيع ومصادر المياه والتي تزرع بأنواع مختلفة لقاء ضريبة يدفعها المالك للكهنة ودور العبادة، واشتهرت مدن كبيرة مثل الطائف وخيبر ويثرب ومكة وتجمعات سكانية في تهامة والحجاز أما البادية فكانت الملكية مشاعية، وكان يلجأ شخص ما إلى منطقة، ويضعها تحت حمايته من خلال قوته وعدد أفراد عشيرته ورجالها ، وبعد انتهائها يتركها ويتجه لمنطقة ثانية دون قانون ينظم ذلك فالقانون هو القوة بنظرهم . أما نظام الملكية الفردية فكان يقوم على أن يأتي

شخص، ويمتلك أرضاً، ويدفع ثمن المحصول والإنتاج .

أما الخراج فهو ما يخرج من الأرض من ضريبة تدفع لبيت المال. وهنالك نوع من الأرض هي أراضي الموات. فالأرض الميتة لمن يحييها أي لمن يقوم باستصلاحها. وهنالك الملكية المشتركة للأرض.وسيتم الحديث عنها بالتفصيل وخاصة في ظل اتساع الدولة. والفتوحات العربية الإسلامية التي شملت مناطق واسعة في أنحاء العالم. تشمل بلاد الشام والمغرب العربي والأندلس وشرقاً إلى حدود الصين. ونشأ فيما بعد مجتمع جديد هو المجتمع الأموي .

خصائص المجتمع العربي في العصر الأموي:(بين٤١-١٣٢هـ / ٦٦١-٧٥٠م)

تميز العصر الأموي باتساع رقعة الدولة في الشام والحجاز والعراق ومصر والمغرب واستمرار الفتوحات .

وتميز المجتمع العربي في هذه الفترة بعدة خصائص وهي :

أولاً- تحولت كثير من القبائل التي كانت تعتمد على التنقل والترحال وتعيش حياة البداوة الخالصة ، إلى حياة الاستقرار والعيش في بيوت مصنوعة من الطين والحجر والإقامة في القرى والمدن ، بدلاً من الإقامة في بيوت مصنوعة من الشّعر ، وأصبحت هذه القبائل تمارس حرفة الزراعة ، وظهرت ملكيات الأراضي الواسعة ، والنظام الإقطاعي، واهتمت الدولة بحفر الأقنية ، ونشطت الزراعة، وتطورت، وازدهرت وخاصة في القرى، وقسمت الأراضي إلى عدة أنواع وأصناف. وهي :

١- أراضي الملكية الخاصة :

وهي الأراضي التي يملكها الأفراد في القرى والمزارع، ويقومون باستثمارها شخصياً. وهي عبارة عن إقطاعيات كبيرة في أكثر الأحيان . وهي ملك للقادة، وأصحاب النفوذ أو أراض يديرها وكلاء بالنيابة عن أصحابها الذين يقيمون في المدن .

٢- أراضي الموات :

وهي الأراضي غير الصالحة للزراعة إما صخرية، أو توجد صعوبات في استصلاحها. وإذا قام شخص باستصلاحها فإنها تصبح ملكاً له شريطة أن يستمر في استثمارها. وإلا تتحول ملكيتها للدولة .

٣- أراضي الخراج[١] :

وهي الأراضي التي تقع في البلاد المفتوحة ، ويقوم أصحابها باستثمارها. مقابل دفع نسبة من الإنتاج كجزية تدفع إلى الدولة(بيت المال)، وتبلغ تلك النسبة ١٠% ، ثم أضيفت إليها ضريبة الخراج فالجزية. والخراج شرط لاستمرار الملكية واستثمار الأرض .

٤- أراضي الإلجاء:

وهي الأراضي التي تعود ملكيتها لملاكين صغار يقومون بالاحتماء بالملاكين الكبار. وخاصة من أجل التخفيف من دفع الخراج والضريبة المترتبة عليهم، وسمي هذا النوع من الأراضي أراضي الإلجاء.

---

١) د. فاضل الأنصاري .الجغرافية الاجتماعية . نشر جامعة دمشق – ١٩٩٠ – ١٩٩١ – ص ٣٩٧.

٥- أراضي الصوافي :

وهي الأراضي التي تعود ملكيتها لبيت المال ، وكان الخليفة يتصرف بها كيف يشاء، ويقوم بتوزيعها على من يريد من القادة والأمراء ، ويعود إنتاجها لبيت المال وللخزينة العامة للدولة ومن الجدير ذكره أن هذا النوع من الأراضي قد تقلص مع مجيء الخلافة العباسية .

واستمر انتعاش النظام الإقطاعي في هذه الفترة ، وزادت الفوارق الطبقية، وارتفعت وتيرة التناقض الاجتماعي بين المالكين و الإقطاعيين والفلاحين ، وساد نظام الرق والعبودية ، وازداد الطلب على اقتناء العبيد وشرائهم ، وقد ترافق ذلك مع اتساع النظام الإقطاعي ونفوذه.

أما عن التعليم فقد كان مقتصراً على أبناء الفئة الإقطاعية والقادة ، وكانت نسبة قليلة في الريف ، وتمثل ذلك بوجود شخص يدعى بـ (الخطيب) يقوم بتجميع أولاد القرية وتعليمهم القراءة والكتابة وظل هذا النوع سائداً في المجتمع العربي حتى منتصف القرن العشرين ، وهو نوع من التعليم الشعبي .

ثانياً- التحول في مجال التطوير العمراني والفكري :

وتمثل ذلك بازدهار العلوم وتطورها في كافة المجالات ، ففي مجال الطب ظهر العديد من الأطباء الذين اكتسبوا شهرة واسعة ، وتم بناء المشافي (البيمارستانات) ، وتوزعت في أنحاء المدن العربية ، وأهمها بيمارستان دمشق، ومن أشهر الأطباء آنذاك (ابن أبي الحكم الدمشقي) . وبني العديد من المشافي في مصر مثل بيمارستان الفسطاط .

وفي مجال التطور العمراني تم بناء العديد من المدن ذات التخطيط العمراني الجيد ، وتم الاهتمام ببناء القصور الأموية والبيوت السكنية ، وبناء أبواب المدن

ومن المدن التي تم تخطيطها وإعمارها مدينة الرملة في فلسطين ، ومن

القصـــور الأمويـــة ، قصـــر الحير الغربي والشرقي ، وقصر هشام قرب مدينة أريحا في فلســطين، ومـــن المـــدن الشـــهيرة آنـــذاك ، مديـــنة القيروان في المغرب وواسط في العراق.

وعـــلى صـــعيد العـــلم انتشـــرت المدارس في أنحاء الدولة . وتم الاهتمام كذلك بالأسرة والتي هي أساس المجتمع .

ويتضـــح مـــن خـــلال ذلـــك أن الـــتطور كـــان شاملاً في مناحي الحياة كافة، عمرانـــياً وصـــحياً وعلمـــياً ، وفي مجـــال الفن وهذا دليل على اهتمام الدولة والأفراد بـــإحداث تقـــدم كـــبير في المجـــتمع العـــربي . وفي مجـــال الفلسفة ظهرت المذاهب الفلســـفية وازدهـــرت وكـــان لهـــا أتـــباعها ومـــنها الجبرية ، والقدرية ، والمرجئة ، والمعـــتزلة ، وازدهـــر عـــلم الكـــلام آنذاك وعلوم أخرى مثل علم الفلك، ونشأت المراصـــد الفلكـــية ، وعـــلم الـــتاريخ ، والشـــعر ، وبقيت العصبية القبلية سائدة في المجـــتمع الأمـــوي . وســـتتم مناقشـــة تلـــك المذاهـــب والحديـــث عنها لأنها خاصة مـــن الخصـــائص الفكـــرية للمجـــتمع العـــربي آنذاك . وبقي المجتمع العربي كذلك. ثم جاءت فترة سقوط الدولة الأموية عام ١٣٢هـــ وظهرت الدولة العباسية .

أما عن تلك المذاهب الفلسفية التي سادت آنذاك فهي :

١- المعتزلة:

ظهـــرت المعـــتزلة إبـــان الحكـــم الأمـــوي ، وأصـــبح لهـــا الكثير من الأنصار والمؤيديـــن ن وكـــان هدفهـــا في ذلـــك ومن خلال فكرها (الدعوة للحرية الفكرية والاستنارة).

وقـــد حقـــق هـــذا المذهب الكثير من النجاح مما أثار حفيظة السلطة على أتباع المعـــتزلة، وقـــد تفـــرق أنصـــار هـــذا المذهب الفلسفي إلى عدة فرق مثل الواصلية والنظامـــية والهذيلـــية والحائطـــية والبشرية والمعمرية والمزوارية والهشامية والجاحظية والخياطية والجبائية.

ويبدو من خلال ذلك بأن هذه الفرق التي تعود بأصلها إلى المعتزلة قد أدت إلى إضعافها . ولكن تعددها مع بقية الحركات والمذاهب الفلسفية أدت لإضعاف السلطة المركزية. وجاءت تسميتها كناية عن مبدأ الاعتزال.

٢- القدرية:

القدريون هم أتباع المعتزلة . وقام مبدأ القدرية على مبدأ الدعوة للحرية. والذين جاهروا بأن الإنسان يستطيع أن يختار قدره وأعماله ، ومن أهم دعاة القدرية ، عبد الله الجهني البصري المتوفي عام ٨٠ هـ .

٣- المرجئة:

وهي إحدى الفرق التي ظهرت خلال الحكم الأموي ، وظهرت آنذاك حزباً سياسياً وهم لا يحكمون برأي شخص ، أو بتناقض رأي شخص آخر ، وقد اهتم الأمويون بأصحاب هذا المذهب ، وتم توظيفه لصالحهم . ثم توزعت إلى عدة تيارات ، وهي مرجئة القدرية ، ومرجئة الجبرية ، والمرجئة الخالصة .

ثم تفرعت إلى اليونسية والعبيدية والغسانية والثوبانية نسبة إلى ثوبان المرجى والتومنية نسبة إلى أبي معاذ التومني . والصالحية والمريسية أتباع غياث المريسي . ثم انتشرت في خراسان على يد الحارث بن سريج المرجى في عهد الخلافة الأموية.

٤- الجبرية:

يتلخص مذهب الجبرية أن الإنسان مجبر على أفعاله، ولكن تختلف درجة ذلك بين كل فعل وآخر ، وصنفت الجبرية آنذاك إلى عدة أصناف، وفي جميع تلك الأصناف فإن الإنسان مجبر على تلك الأفعال والأعمال. وهي :

جبرية خالصة وهي لا تترك للإنسان أي خيار في القيام في الفعل أو عدمه، وجبرية متوسطة . وهي تترك للإنسان نوعاً من الخيار لكنه عديم التأثير. وظهرت

عـــدة فـــروق مـــنها الجهمية ، والبخارية ، والضرارية[1] ، ونسبت الجهمية نسبة إلى جهـــم بـــن صـــفوان والـــذي عاش في العصر الأموي . والحفصية نسبة إلى أبي عمرو حفص .

بالإضـــافة إلى فـــرق عديـــدة أخـــرى مـــثل البرغوثية والمستدركة والضرارية ويتضـــح مـــن خـــلال مـــا ســـبق أن هـــذه الفرق والمذاهب والتي ظهرت في العهد الأمـــوي أدت إلى إضـــعاف جســـم المجـــتمع العـــربي في هـــذه الفـــترة ، وتكالبت مـــع الأســـباب الأخـــرى إلى تقويـــض الحكم الأموي . وبعض تلك الفرق والمذاهب اســـتمر تـــأثيره ودعاتـــه ومـــبادئه إلى فترة الحكم العباسي، وبرز أكثرها كحركات مناوئة للحكم العباسي.

ومـــن هـــنا يتضـــح أن هـــذه التجزئة في الفكر وخصوصاً ظهور الفرق العديدة أدت إلى سهولة النفاذ للسيطرة عليها .

خصائص المجتمع العربي في العصر العباسي: (بين ١٣٢-٦٥٦هـ/ ٧٥٠-١٢٥٨م)

تمـــيزت فـــترة الحكـــم العباســـي بعـــدة خصائص . وقد شملت مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع آنذاك . وهي .

أولاً- فئات المجتمع وطبقاته :

تمـــيز المجـــتمع العباســـي بوجـــود طبقـــتين هما ـــ طبقة السادة وتشمل الحكام والأمـــراء والـــوزراء ، وفي مقدمـــة هؤلاء الخليفة العباسي واتباعه وملاك الأراضي . وتمتاز هذه الفئات بالغنى والترف وبناء القصور .

والطـــبقة الثانـــية هـــي طبقة الشعب .. وتشمل عامة الشعب الفقراء والموظفين وتتمـــيز حـــياتهم بالبســـاطة، وانخفـــاض الدخل، وعدم ملكية الأراضي وعمل هؤلاء

---

١) محمد عمارة ، المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية-الموسسة العربية للدراسات- بيروت ١٩٧٧- ط١ - ص٣١.

بأعمال وضيعة وهناك أيضاً طبقة العبيد والخدم.

إن هـذا التمايز الطبقي جعل الهوة واسعة بين الطبقتين، وعاش المجتمع في العصر العباسي حالة من عدم الاستقرار، وتمثل ذلك بنشوء حركات التمرد الداخلي المناوئة للحكم العباسي من جهة . وكان عاملاً من عوامل ضعف الدولة العباسية ، وظهور الدويلات والتي عدت شكلاً آخر من أشكال الخروج على السلطة المركزية .

ثانياً - الوضع الاقتصادي : تميز الوضع الاقتصادي بظاهرتين هما :

١-في مجال الزراعة:

اهتم العباسيون بفتح الأقنية وبناء الجسور ، والاهتمام بالزراعة ، وخصوبة التربة ، وإنشاء المزارع والبساتين وزيادة غلّة الأرض ، وحراثتها ، وازدياد نفوذ النظام الإقطاعي في بغداد ودمشق . وازداد الإنتاج الزراعي بالفواكه والخضروات والحبوب .

٢-في مجال التجارة :

تطورت التجارة ، وازدهرت ، وتم شق الطرق التجارية، وتأمين حماية القوافل التجارية المتجهة إلى مصر والمغرب . وتم بناء السفن التجارية التي تعبر البحار إلى أقصى الشرق والغرب ، واشتهرت مدينة إنطاكية على الساحل ومدن أخرى ساحلية مثل بيروت وطرابلس والإسكندرية وصيدا واللاذقية . وإلى الشرق في الخليج العربي نشأت موانئ هامة، وكانت السفن تبحر منها إلى جنوب آسيا ، وكانت هذه السفن تأخذ الحرير الشامي والألبسة والغذاء، وتعود بالتوابل والعطور . ووصلت السفن العربية إلى الصين، واشتهرت التجارة كثيراً .

وكانت أهم الصادرات القمح والفواكه والزجاج والحرير والأقمشة .

والعطور والزعفران وأما الواردات فكانت الخيزران والتوابل والكافور والقرنفل. وظهرت عدة طرق تجارية برية وبحرية . وظهر الركاض في المدن، ونشأت الطبقة البرجوازية الغنية بالمال ، ونشأت الشركات العديدة التجارية مثل شركة المفاوضة ، وشركة الضمان ، وشركة الوجوه ، وانقسم التجار لعدة أقسام حسب المهنة التي يمارسها التاجر هي :

المحتكر : وهو الذي يقوم باحتكار البضاعة إلى الوقت الذي يمكن بيعها بسعر عال، ويطلق عليها اسم (الخازن أو الخزان)[1] .

المجهز : وهو الشخص الذي يقوم بتجهيز القافلة وتأمين البضاعة لها وتحميلها أي تأمين الحمل.

الركاض : وهو الشخص الذي يسافر بنفسه مع بضاعته وذلك لإيصالها لمكانها المطلوب .. ويأخذ جراء ذلك بضاعته .

وظهر تجار كبار وتجار صغار ، كما ظهر العديد من المؤسسات المالية والمصارف التي تهتم بالمال، وغالباً ما يكون مركزها المدن مثل بغداد ودمشق ومعظم المدن في الشرق العربي حيث كانت مراكز تجارية هامة يتبادل فيها التجار البضائع كما ظهرت أنواع من الأوراق المالية التي استخدمها التجار فيما بينهم، وسميت آنذاك (السفاتج) والحوالات المالية . أما البنوك فكان يطلق عليها اسم البنوك أو الجهابذة .

ويتضح من خلال ما سبق ومن خلال الدراسة التحليلية لذلك الواقع ازدهار التجارة بشكل واضح كما هو الحال بالنسبة للزراعة وبسبب الحاجة الماسة لتامين الغذاء للسكان ، فإنه تم الاعتماد على الإنتاج المحلي وخاصة في فترة الحكم العباسي الأول .

وبالنسبة للتجارة والمال فقد ازدهرت كثيراً، وتطورت حتى وصلت المنتجات إلى

---

١) د. فاضل الأنصاري - الجغرافية الاجتماعية - ص ٤٠٣ - ٤٠٤ - جامعة دمشق.

أقصى الشرق والغرب متجاوزة حدود الدولة العباسية . والتي بلغت مجد ذروتها في هذه الفترة.

ويستنتج من ذلك أن هذا التطور كان عامل قوة بالنسبة للدولة العباسية وارتبط ازدهار التجارة بتطور الإنتاج الزراعي . وكانت هذه من عوامل تطور المجتمع في تلك المرحلة الهامة من تاريخ الدولة (ويبين الشكل رقم٢)مختلف مجالات وأوجه تطور الدولة العباسية .

٣-في مجال الصناعة :

ازدهرت الصناعة كثيراً في فترة الخلافة العباسية ، وانتشرت المصانع في المدن خاصة ، ومن أهم الصناعات التي ظهرت . صناعة الزجاج والخزف. وتم استخراج المعادن مثل الحديد والنحاس والذهب والفضة، من بلاد فارس . ويعد زجاج الشام من أفخر أنواع الزجاج . وكذلك صناعة الورق والحرير والمنسوجات . وخاصة الحرير الدمشقي المزين والديباج وصناعة السجاد واللباد والبُسط وصناعة الحصر . والحبال من القنب في دمشق، والفسيفساء والذي استخدم كوسيلة للزينة . وتم استخراج الحديد من بلاد الشام وصناعة النسيج والثياب والألبسة . وتوزعت الصناعة في حلب ودمشق وبيروت والأقمشة الحريرية .

٤-في المجال العمراني :

تم الاهتمام ببناء المدن والقصور الفخمة، وبنيت مدينة بغداد في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور.

ونشأت المدن المخططة عمرانياً بشكل جيد . من حيث إشادة أسوار للمدن ليكون بمثابة حماية لها ، وتزيين والقصور والبيوت ومخطط للشوارع والطرقات والمقابر . وازدهر العمران بشكل جيد . وبناء أبواب للمدن . وازداد الاهتمام بالقلاع والحصون لأنها وسيلة دفاعية هامة.

الشكل رقم (٢) تطور المجتمع العربي في العصر العباسي

ثالثاً – في مجال تطوير الفلسفة والعلوم :

ازدهرت كافة العلوم في العصر العباسي وخاصة في المرحلة الأولى من الخلافة العباسية ، في مجالات علم الفلك والطب والهندسة والعلوم الفلسفية . وتعد هذه أحد المظاهر الرئيسية للتطور الاجتماعي الذي شهدته البدايات الأولى من الحكم العباسي . ويتبين ذلك من خلال ما يلي:

١-في مجال علم الفلك :

شهد علم الفلك تطوراً كبيراً في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٤-٧٧٥م) وتمثل ذلك في الاهتمام بعلم التنجيم وازدياد عدد المنجمين[١] . وكذلك ازدهرت حركة الترجمة ومن أهمها كتاب السوهانتا الذي نقله عن السنسكريتية إلى العربية محمد إبراهيم الفزاري، وأسماه كتاب السند هند الكبير . ومن كبار المنجمين – نوبخت الفارسي وابنه أبو سهل وجابر بن حيان.

وفي عهد الخليفة الأمين. ازداد الاهتمام بعلم الفلك والخليفة المأمون الذي اهتم بالرصد الفلكي فتم إنشاء مرصد ضخم في بغداد .

وتم قياس محيط الأرض، وظهر علماء الفلك مثل محمد بن موسى الخوارزمي–الصاغاني المروزي – وهارون بن علي.

وفي عهد المعتصم وبقية الخلفاء العباسيين . اشتهرت أماكن ومدن في المجال التجاري والعلمي ومن مدن العلوم سمرقند – وبخارى وعدت أهم مراكز العلوم والفنون . ونشأت مدرسة سمرقند الفلكية ، ومدرسة القاهرة الفلكية. ومدرسة الأندلس الفلكية.

---

١) د. علي موسى – أعلام الفلك في التاريخ العربي– كتاب–منشورات وزارة الثقافة في سورية–٢٠٠٢ ص٣٣.

ويستنتج من خلال ما سبق أن التطور كان شاملاً في الدولة العباسية في هذه الفترة . وشمل التطور علوم الفلك . ويعود هذا لاهتمام الخلفاء العباسيين في التطور العلمي لكونه مقياساً للتقدم ، وتفوقت آنذاك الدولة العباسية على بقية بلدان العالم والحضارات ، واهتم العرب في تلك الفترة بعلم النجوم والتنجيم . وهذا ما يميز المدرسة العربية الفلكية المتطورة على غيرها في أنحاء العالم .

٢-في مجال الطب والهندسة والترجمة :

ازداد الاهتمام في مجالات العلوم الطبيعية، وظهر العديد من الأطباء والمشاهير في هذا المجال ، ومنهم أبو بكر الرازي ، واستمر بناء (البيمارستانات) أي المشافي . ومن كبار الأطباء آنذاك الطبيب يوحان بن ماسويه، ومن عوامل ازدهار العلوم انتقال مركز الحكم العباسي إلى بغداد وجدت تطوراً كبيراً في مجال الرياضيات والكيمياء والعلوم الطبيعية .

وازدهرت حركات الترجمة وخاصة عن اللغات اليونانية والفارسية إلى اللغة العربية. وظهر الكثير من الأدباء والسفراء ومن هؤلاء الجاحظ والأصمعي، وازداد الاهتمام بعلم العروض والمعلقات وعلم النحو . وفي مجال الترجمة ظهرت كتب مترجمة كثيرة ومنها كتاب (كليلة ودمنة)وكتاب السند هند.

وفي مجال علم التاريخ والرياضيات . يعد محمد بن موسى الخوارزمي أو أبو كامل شجاع الحاسب من أهم العلماء في تلك الفترة.

وفي مجال الجغرافية الوصفية ظهر العديد من الجغرافيين آنذاك مثل اليعقوبي، والاصطخري، والبلخي ابن حوقل ، والمسعودي ، وابن خرداذبة الذي قام بتأليف كتاب (المسالك والممالك) واشتهرت جغرافية الرحلات . ومن الكتب الهامة كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي.

وفي مجال الفلسفة :

اشتهر كثير من الفلاسفة العرب ، ومنهم يعقوب بن إسحاق الكندي والفارابي وإخوان الصفا – وظهرت مدارس فلسفية كثيرة . وكانت هذه المدارس تعبر عن التطور في الفكر الفلسفي والتنوير العقلي ، وشملت أيضاً ترجمة كثير من مؤلفات الفلسفة اليونانية ومن الفلاسفة آنذاك – ابن طفيل، وابن رشد، وابن سينا، والمعتزلة .

ويقوم مبدأ الاعتزال كما ذكر سابقاً على تحكيم العقل . وكانت هذه المدرسة الفلسفية في البداية ضد السلطة العباسية ، ولكنها أصبحت تؤيد السلطة، وقد ناهضوا الأمويين والعباسيين . ولكنها أصبحت في عهد المأمون مع السلطة العباسية . وتم اعتناق مذهب الاعتزال من قبل الدولة، ثم ظهر أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري . وقد استخدم المنهج العقلاني في علم الكلام وكان مناوئاً للاعتزال.

ويتضح من خلال ذلك ازدهار كافة العلوم ومنها الفلسفة التي تعد أحد العلوم البارزة آنذاك ، واهتمام بعض الخلفاء العباسيين في هذا العلم واستخدامه أحياناً كعامل تأييد للسلطة .

ثالثاً – الحركات الداخلية المناوئة للحكم العباسي وظهور الدويلات الصغيرة:

ظهرت العديد من الحركات السياسية الاجتماعية الداخلية المناوئة للعباسيين، وذلك بهدف السيطرة على مقاليد السلطة ، وكانت هذه الحركات تعتمد على مبادئ وأفكار اجتماعية واقتصادية ، من عدل ومساواة وتحسين الظروف الاقتصادية ، وبالرغم من القضاء على قسم كبير منها إلا أنها أضعفت السلطة المركزية، ومهدت لزوال حكم العباسيين ومن هذه الحركات ما يلي:

١- حركة الزنج:

مؤسس هذه الحركة علي بن محمد ، وقد اعتمدت الثورة في أسلوبها ونهجها ، وتعتمد على أفكار اجتماعية تقاوم الإقطاع ، وأكثر اتباعها كانوا من العبيد ، وقد ثاروا على سادتهم ، وقدر اتباعها آنذاك بأكثر من مليون ونصف شخص ، وقد شملت مناطق واسعة ، وأصبح لها العديد من الأتباع .

٢- حركة القرامطة:

وهي ثورة اجتماعية سياسية ، مؤسسها حمدان بن الأشعث القرمطي ، وقد أعلن عن بدء حركته وتمرده على العباسيين عام ٢٧٨هـ .

وكانت مبادئها تقوم على تحقيق المساواة والعدالة الاجتماعية والاقتصادية ، وتعد أفكارها بذوراً مبكرة للفكر الاشتراكي الذي ظهر في العصر الحديث .

وقد انتشرت في مناطق عديدة من الجزيرة العربية مثل القطيف والبحرين وأرض العراق . وأصبح لها أتباع كثيرون .

٣- البويهيون : /٣٣٣ - ٤٧٧/هـ :

قاد هذه الحركة المناوئة للعباسيين أحمد بن بويه عام ٣٣٣ هـ والذي يعود لأصل غير عربي ، وازداد أنصاره بين العناصر الفارسية والتركية . والبويهية من قبائل رعوية أرمينية تعود أصولها لمنطقة الخزر والتي رفدها بالعديد من العناصر الأجنبية والتي تغلغلت في المجتمع العباسي .

٤- الحمدانيون : /٢٣٩ - ٤٠٥/ هـ

ينعود الحمدانيون إلى قبيلة بني تغلب العربية، وكانت بداية هذه الحركة في مدينة الموصل شمال غرب العراق، وامتد نفوذها إلى مدينة حلب، وازداد نفوذ هذه الحركة وأنصارها، وسيطرت على مساحة واسعة من بلاد الشام وخاصة في مدينة حلب في القسم الشمالي من سورية ومن أهم حكامها سيف الدولة الحمداني.

٥- الشطار والعيارون:

قامت هذه الحركة في نهاية القرن الثاني للهجرة ، وتعتمد على مبدأ أخذ قسم من أموال الأغنياء . وتوزيعها على الفقراء، ويتم ذلك عنوة في أغلب الحالات . بسبب رفض الأغنياء التخلي عن تلك الأموال .

٦- حركة الأحداث:

وهي حركة من الحركات المناوئة للعباسيين، وكان أعضاؤها من الشباب ، وقد قامت في دمشق وحلب .

وهنالك حركات أخرى ذكرت سابقاً مثل المعتزلة . ومن الأشخاص الذين ناهضوا الحكم العباسي – وخاصة في عهد أبي العباس السفاح حبيب بن مرة في البلقاء ، وقامت حركة أخرى في قنسرين في شمال سورية .

٧- حركة أبي حرب المبرقع اليماني[1]:

قامت هذه الحركة تحت شعار العدالة والمساواة ، لتحقيق التطور الاجتماعي والاقتصادي ، وعملت من خلال مبادئها على تحرير الفلاحين من سيطرة الإقطاع . أما المكان الذي قامت به فهو بجوار نهر الأردن . وكان شعارها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقامت في عهد الخليفة العباسي المعتصم لكنه قضى عليها .

ومن الثورات التي قامت ضد العباسيين ثورة مضر بن شعث العقيلي ١٩٨ هـ ٨١٣م وفي بلاد الشام . ثورة حوران والبثينة وثورات في حمص ودمشق وقادها أو الورد الكلابي ومحمد بن عبد الله السفياني، وثورة اسحق بن مسلم العقيلي في منطقة الجزيرة، وثورات عديدة أخرى في دمشق

---

١) د. فاضل الأنصاري–الجغرافية الاجتماعية–نشر جامعة دمشق–١٩٩٠-١٩٩١ – ص٤٠٩

سنة ١٣٣هـ - ٧٥٠م ومن أسباب هذه الثورات سوء الأحوال المعيشية والاقتصادية للسكان.

وثورة عام ٢٤٠ هـ ، وقامت ثورات أخرى في حمص ولبنان ومن هذه الثورات ثورة الجراجحة سنة ١٣٥ هـ - ٧٢٥م، وثورة المبرقع اليماني في الأردن وفلسطين سنة ٢٢٦ وكثر أتباعه وزاد على مئة وعشرين ألف.

وجميع هذه الثورات هدفت لتسلم السلطة من جهة ولتحسين الظروف المعيشية . حيث كان المجتمع يعاني من المشكلات الاقتصادية والمعيشية وسوء الأحوال .

ومن أسباب تفكك الدولة العباسية الصراع على السلطة بين الأخوة وأفراد الأسرة العباسية الواحدة كما حصل بين الخليفة المنصور وعمه عبد الله ابن علي ، وبين الأخوين الهادي والرشيد والأمين والمأمون . والصراع بين المعتصم وابن أخيه العباس ، والصراع بين المأمون وإبراهيم المهدي بالإضافة إلى الثورات السابقة الذكر مثل ثورة محمد بن عبد الله النفس الزكية وأخيه إبراهيم عام ١٤٥ هـ ، وثورة الحسين بن علي بن الحسن ، وثورة إدريس بن عبد الله وأخيه يحيى ثم الصراعات التي دارت بين العرب والموالي والصراع بين أبي مسلم الخرساني وأبي جعفر المنصور ، والصراع بين الخلفاء والوزراء، وحركات الشعوبية ، وحركة الزندقة والصراع بين العباسيين والموالي مثل حركة الروانديه وهي حركة فارسية نشبت في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور نسبة إلى مدينة راوند قرب نيسابور ، وحركة المقنع الخراساني ، وحركة بابك الخرمي وثورة أستاذ سيس (عام ١٥٠ هـ-٧٦٧م) في خراسان .

ومن الدول الأخرى الأدارسة في المغرب العربي ودولة المرابطين عام ٤٤٨-٥٤١هـ .

ظهور الدويلات وضعف الدولة المركزية العباسية :

نتيجة لضعف الدولة المركزية في بغداد والخلافة العباسية ، بدأت تظهر دويلات صغيرة وكثيرة زادت من ضعف الدولة المركزية العباسية ، وهذه الدويلات هي :

١- في الشرق :

الدولة الطاهرية عام ٢٠٥- ٢٥٩هـ / ٨٢٠-٨٧٢م[1] مؤسسها هو طاهر بن الحسين ، والدولة الصفارية /٢٥٤-٢٩٠هـ/٨٦٨-٩٠٣م مؤسسها ليث الصفار، والدولة السامانية عام ٢٦١-٣٨٩هـ/٨٧٤-٩٩٩م

٢- الدول التركية :

وهي دول العساكر الترك – تم استقلال الطولونيين عن الدولة العباسية في الفترة بين ٢٥٥-٢٩٣هـ . وقام هؤلاء بفصل مصر عن جسم الدولة العباسية، وينتسب هؤلاء إلى أحمد بن طولون وهو تركي الأصل في عهد الخليفة العباسي المهتدي بالله، وكان نائباً لوالي مصر . لكنه استقل بدعم من الجيش التركي، ثم استولى على بلاد الشام، وحدث صراع بينه وبين الحمدانيين ، وصراع بينه وبين الفاطميين ، وقد صمد الحمدانيون في وجه الجيش الإخشيدي.

رابعاً- الغزو الخارجي والاجتياحات الأجنبية :

تعرض الوطن العربي والدولة العباسية إلى غزوات متلاحقة واجتياحات أدت في النهاية إلى انهيار الحكم العباسي وزواله ، وجاءت هذه الجهات من خارج الوطن العربي ، واستولى على مقاليد السلطة ، فجاء البويهيون غزاة عام ٣٤٠هـ . ولم يدم حكمهم طويلاً بعد أن أمن الناس لهم في عهد السلطان

---

١) ابن خلدون – مقدمة – جزء ٣ – منشورات الأعلمي – بيروت – ١٩٧١ – ص ٢٥١ .

(ملكشاه)، وقد أمر السلاجقة الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله عام ٤٨٥هـ بمغادرة بغداد . ولم يسمح له بالبقاء شهراً واحداً . وأنشأ السلاجقة إمبراطورية كبيرة إلى أن جاء الأتابكة عام ٥٤٩هـ ومنهم نور الدين الزنكي ، وعماد الدين الزنكي الذي كان في أتابكية الموصل . ثم ظهرت الدولة الفاطمية عام ٢٩٧-٥٦٧هـ/٩٠٩-١١٧١م/ وظهرت في تونس، وانتصروا على الإخشيديين، وانتزعوا منهم مصر، وقامت هذه الدولة تمرداً على العباسيين . وامتد نفوذهم عام ٤٢٧هـ إلى بلاد الشام والحجاز وفلسطين وصقلية ومؤسسها هو عبد الله المهدي .

١- الصليبيون :

اجتاح الصليبيون المنطقة عام ٤٩٢هـ واحتلوا القدس وارتكبوا الجرائم حيث قتلوا ٧٠ ألف نسمة من سكان القدس وانتصر عليهم صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين انتصاراً ساحقاً عام ١١٨٧م واستعاد العرب القدس محررة .

واستمرت الحملات الصليبية فترة طويلة متواصلة وشملت ٩ حملات ، ثم جاء الحكم الأيوبي وانتهى نفوذه عام ١٢٥٠م ، ثم جاء المماليك ليسيطروا على مقاليد السلطة وكان مركزهم الرئيسي في مصر.

٢- الغزو المغولي التتاري :

هاجم هولاكو بغداد عام ٦٥٦ هـ حيث زحف على بغداد وقتل عشرات الآلاف ، وارتكب المجازر، واستباح بغداد وعلى الرغم من الاستسلام والمهادنة فقد أبيدت بغداد ، وحرقت ، وقضى على الخليفة العباسي فيها وكان آخر الخلفاء العباسيين هو المستعصم بن المستنصر عام ٦٤٠-٦٥٦هـ . وسيطر المغول بعد ذلك ولسنتين على بلاد الشام حتى عام ٦٥٨هـ .

وتعرض الوطن العربي لموجة جديدة من الاحتلالات وهي كما يلي :

١- الغزو المغولي التيموري :

نسبة إلى تيمورلنك الذي قام بتجهيز الرعاة المغول والترك وتجميعهم ليحتل بهذا الجيش بغداد عام ٧٩٥هـ والذي استباحها ، وارتكب بها المجازر ثم دخل دمشق وحرقها ، ثم غادرها عام ٨٠٣هـ ، وأصيب المجتمع العربي بالإحباط جراء تلك الاحتلالات والانتكاسات المتلاحقة .

٢- المجتمع في العصر المملوكي :

تميز المجتمع في هذه الفترة عام ٩٢٦هـ بالاضطراب وانتعاش الإقطاع واستمر المماليك باحتلال الحجاز والشام الجنوبية ودمشق .

٣- المجتمع في عهد الاحتلال العثماني للوطن العربي:

والذي بدأ في عام ١٥١٦ بعد معركة مرج دابق واحتلال السلطان سليم الأول حلب ثم دمشق والقاهرة وتميز المجتمع بما يلي :

تم نقل أصحاب الخبرات والصناع والمهرة إلى الاستانة من دمشق ، وبالقوة وتم احتلال بغداد عام ١٥٣٤م ، وتم تقسيم بلاد الشام إلى ثلاث ولايات هي: دمشق وحلب وطرابلس.. وساد النظام الإقطاعي وأصبح السلطان العثماني هو مالك أراضي الدولة كافة ، ويمنح الأرض لمن يشاء ، ويقوم الولاة بتوزيعها كما يريدون وفق مصلحتهم ، وازدادت الضرائب ، وانتشرت المجاعات والأمراض والضغط السياسي على الناس ، وأصبح التعليم مقتصراً على أبناء الإقطاعيين ، واتبع العثمانيون سياسة التتريك ومحاولة فرض اللغة التركية، وارتفعت نسبة الأمية بشكل كبير.

٤- المجتمع العربي في عهد محمد علي باشا :

تميز المجتمع في هذه المرحلة بازدياد نفوذ الإقطاع وتطوير التعليم، وازدادت الضرائب، وتم احتلال بلاد الشام والحجاز والسودان وغيرها من ألحاء الوطن العربي، وأنشئت المدارس والمصانع الكبيرة، وازداد الاقتصاد انتعاشاً، وتطورت الزراعة ، وشقت الترع ، وجاءت حملة نابليون على مصر وسورية عام ١٧٩٨ -١٨٠١م .

وازدادت مقاومة الاحتلال العثماني، ونشأت الجمعيات الأدبية والسياسية، وقام الأتراك بإعدام شهداء ٦ أيار عام ١٩١٦م ، واستمر النضال من أجل التحرير. وتحقق ذلك عام ١٩١٨ وهزم الأتراك وخرجوا من سورية والوطن العربي بعد مقاومة بطولية من أبناء الأمة العربية.

وما أن هُزم العثمانيون ، وتحرر الوطن العربي حتى جاء الاحتلال الغربي ليستعمر البلاد العربية من جديد . بعد أن قامت فرنسا وبريطانيا باقتسام الوطن العربي حسب اتفاقية سايكس بيكو . وبدأ هؤلاء المستعمرون تنفيذ بنود تلك الاتفاقية .

وصدر إنذار غورو في ١٤ تموز عام ١٩٢٠ - وبدأ احتلال سورية في ٢٥ تموز من العام المذكور بعد مقاومة بطولية من أحرار سورية في معركة ميسلون .

٥- المجتمع العربي في عهد الاحتلال الغربي :

استمر المجتمع يعاني من التخلف ونهب الخيرات وانتشار الإقطاع والبرجوازية وانخفاض مستوى التعليم وكان يناضل لينال الاستقلال . وقامت الثورات في سورية وألحاء الوطن العربي، وتحررت البلدان العربية من الاحتلالات الأجنبية - الاستعمار الفرنسي والبريطاني والإيطالي . وبدأت مرحلة جديدة لمعالجة الوضع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي بعد سنوات طويلة من القهر

والتسلط والاستعمار والتخلف والتجزئة .

ويستنتج مما سبق أن الوضع الداخلي المضطرب في الدولة العباسية الناجم عن حركات التمرد الداخلية والانقسام إلى دويلات في المشرق العربي ومغربه . أدت إلى إضعاف الحكم العباسي مما جعل أواصر الدولة الواحدة تتعرض للتفكك والتجزئة . مما شجعه الغزاة والطامعين أن يحتلوا الوطن العربي آنذاك وكما تبين من خلال هذه الدراسة التفصيلية للمجتمع العربي والاحتلالات التي تعرض لها . ومرور الوطن العربي لحالات الإحباط والقهر والتخلف أصاب الجسم العربي . وكان آخرها الاحتلال العثماني والاستعمار الغربي .

وأثر كل ذلك في درجة تطوره وتقدمه ولحاقه بركب التقدم العالمي أما في القرن العشرين فقد حدثت تحولات كثيرة في مجتمع الوطن العربي ومن الأهمية دراسة هذه التحولات لما لها من تأثير في بنيته وتطوره .

خامساً - التحولات الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع العربي :

تعرض المجتمع العربي بعد عام ١٩٥٠ لمجموعة من التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي أثرت في بنيته ، من خلال خصائص مميزة، وكان لها تأثير واضح في تركيبه الاجتماعي وهذه التحولات هي :

١- حصول الكثير من بلدان الوطن العربي على استقلالها ، وتحررت من نير الاحتلالات الأجنبية المختلفة ، وأدى ذلك إلى مرحلة انتقالية تميزت بوجود النظام الإقطاعي والبرجوازي والذي ولد وعاش في ظل ورعاية الاحتلال الأجنبي .

٢- حدوث ثورات تحررية ذات صفة سياسية اجتماعية واقتصادية، وانتهجت طريق التحول الاشتراكي والتي قضت على كل مخلفات الاستعمار السابقة مثل الإقطاع والبرجوازية كما هو الحال في ثورة الثامن من آذار عام

١٩٦٣م في سورية . وقضت على كل عوامل التخلف والإحباط وقادت الى التطور والتقدم ، وثورة تموز في مصر عام ١٩٥٢م .

٣-إن وجود الصهيونية في قلب الوطن العربي واحتلالها فلسطين كل ذلك عمل على تكريس التجزئة السياسية والاقتصادية،وهي تعمل على ضرب أي وحدة عربية ناشئة ، وحصول نكسة عام ١٩٦٧م والتي كادت أن تولد الإحباط في المجتمع العربي . ولكن حرب تشرين التحريرية عام ١٩٧٣م وانتصار تشرين العظيم أعاد للإنسان العربي ثقته بنفسه، وعمل على تحقيق النصر .

ومن التحولات الاجتماعية الأخرى التي حدثت في تلك الفترة تحسن المستوى الصحي والتعليمي وانخفاض نسبة الأمية ، والقضاء على رواسب التخلف الاجتماعي والاقتصادي ، وزيادة عدد المراكز الحضرية ، والانفجار السكاني وتضخم المدن وخاصة مدن العواصم . ولكن نجد تفاوتاً بين البلدان العربية من حيث درجة التطور الاجتماعي وفي المجالات كافة وخاصة في مجال المستوى الثقافي والتقني ، ونشوء العديد من المشكلات في العديد من تلك البلدان مثل البطالة ومشكلة السكن العشوائي والزحف العمراني باتجاه الأراضي الزراعية وتباين في مستوى الدخل .. والهجرة الداخلية والخارجية . ويبدو ذلك من خلال التحليل التالي لتلك المظاهر .

أولاً-التحولات الديموغرافية والنمو السكاني :

شهد الوطن العربي تحولات ديموغرافية كثيرة ، وتمثل ذلك بالزيادة الهائلة في عدد السكان ، وذلك بسبب النمو السكاني وارتفاع معدلاته . وخاصة في النصف الثاني من القرن العشرين، وتمثلت هذه التحولات بما يلي :

١ - النمو الطبيعي للسكن:

تميز النمو الطبيعي للسكان في الوطن العربي بارتفاع معدلاته بشكل عام، وأدى ذلك للزيادة الهائلة في عدد السكان . ومن خلال المقارنة بين الأقطار العربية نجد أن بعض البلدان عملت على تنظيم النمو السكاني لديها مما أدى إلى انخفاض تلك المعدلات .

ومن خلال الجدول رقم (١) والشكل رقم (٣) يمكن تصنيف البلدان العربية حسب معدل النمو الطبيعي للسكان :

أ- بلدان تزيد معدلاتها على ٣٠ بالألف وتشمل العراق وفلسطين وليبيا واليمن وسورية وقطر عام ١٩٩٨م .

ب- بلدان تتراوح فيها بالنسبة على ٢٥ إلى ٣٠ بالألف وتشمل الأردن والسعودية والسودان والصومال وموريتانيا ولبنان وسلطنة عمان .

ج- بلدان تزيد النسبة على ٢٠ بالألف وتشمل مصر وبلداناً عربية أخرى . وذلك بسبب اتباع مصر سياسة سكانية تقوم على تنظيم النمو السكاني

أما بالنسبة لسورية فقد اتبعت خطوات ناجحة تقوم كذلك على تنظيم النمو السكاني، ونشطت المنظمات الشعبية وجمعية تنظيم الأسرة بنشاط واسع، وحقق ذلك نتائج إيجابية . إذ انخفض معدل النمو الطبيعي للسكان من ٣٦ بالألف عام ١٩٧٤م إلى ٣٢ بالألف عام ١٩٩٨م.

أما سبب ارتفاع معدلات النمو الطبيعي للسكان فإن له أسباباً اجتماعية كثيرة منها العادات والتقاليد وحب إنجاب البنين الذكور ، وتعدد الزوجات ، وارتفاع معدلات الخصوبة السكانية . وزيادة معدلات الإنجاب والزواج المبكر وانخفاض الوفيات بسبب تحسن المستوى الصحي للسكان . الشكل رقم (٣) يبين تلك المعدلات.

٢- الزيادة الهائلة في عدد السكان :

تميز المجتمع العربي وللأسباب السابقة الذكر بالزيادة الكبيرة في عدد السكان ويوضح ذلك الجدول رقم (٢) والشكل رقم (٤) .

ويبدو من الجدول المذكور أن مصر هي البلد العربي الأول في عدد السكان إذ بلغ عام ٢٠٠٢ حوالى ٧٢ مليون نسمة بينما كان في عام ١٩٩٩ حوالى ٦٢ مليون نسمة، وجاء هذا الارتفاع وهو ١٠ ملايين نسمة في عدد السكان كون مصر هي أكبر حجماً في عدد السكان ، وللأسباب المذكورة سابقاً والمتمثلة في الأسباب الاجتماعية والديموغرافية، ويقدر عدد سكان الوطن العربي حالياً بحوالى ٣٠٠ مليون نسمة .

ثم تأتي المملكة المغربية إذ كان عدد سكانها عام ١٩٩٩ – ٢٨,٤٤٨ مليون نسمة أصبح عام ٢٠٠٤ – ٣٠ مليون نسمة . وهذا يعني وجود زيادة بحوالى ٢ مليون نسمة للأسباب السابقة الذكر .

ومن البلدان التي غزتها الزيادة الكبيرة في عدد السكان . السعودية – وسورية – والسودان – وفلسطين – والجزائر والعراق . وموريتانيا والصومال وجاءت هذه الزيادة بسبب ارتفاع معدلات النمو الطبيعي للسكان.

أما بالنسبة للبلدان في منطقة الخليج العربي . فقد حصلت فيها الزيادة بسبب الهجرة الوافدة الخارجية من أنحاء الوطن العربي ومن البلدان الأجنبية وذلك طلباً للعمل . ويجب الإشارة أن هذه الهجرة الوافدة قد بدأت منذ ما يزيد على ٥٠ سنة مضت بسبب اكتشاف النفط واستثماره. وبسبب الحاجة إلى الأيدي العاملة للعمل في ميادين مختلفة منها ، وفي مجالات البناء والعمران وقطاع الخدمات والأعمال المصرفية والتجارية وغيرها . كما هو الحال في الإمارات والسعودية وقطر والبحرين وسلطنة عمان . وتعد الهجرة الآسيوية هي أهم مصادر الهجرة الوافدة .

تطور معدل النمو السكاني الطبيعي بين أعوام ١٩٧٤ – ١٩٩٨
لكل ١٠٠٠ من السكان في البلدان العربية :

جدول رقم (١) :

الدولة	معدل النمو السكاني عام ١٩٧٤	معدل النمو السكاني عام ١٩٩٨
سورية	٣٦	٣٢
الأردن	٣٤	٢٧
الإمارات	٣٠	١٣,١٥
مصر	٢٥	٢١,٤٠
البحرين	٣٤	١٨,٦٣
تونس	٣٠	١٢,٣٠
الجزائر	٣٥	١٦,٨٨
جيبوتي	٢٣	٢٨,٧٠
السعودية	٢٨	٢٧,٧٤
السودان	٢٧	٢٧,٣٠
الصومال	٣٣	٢٩,٢٠
العراق	٣٣	٣١,٥
سلطنة عمان	٣٠	٢٦,٤٠
فلسطين	٢٩	٣٧,٩١
قطر	٤٨	٣٨
القمر	٣٥	٣٦,٦٠
الكويت	٩٨	١٦,٩
لبنان	٣٠	٢٧
ليبيا	٣٧	٣٢,٩
المملكة المغربية	٣٠	١٦,٦٠
موريتانيا	٣٢	٢٩,٥
اليمن	٢٧	٣١,٦٠

المصدر : عام ١٩٩٨ ــ المجموعة الإحصائية لجامعة الدول العربية، عام ١٩٧٤ ــ إحصائيات جامعة الدول العربية.

الشكل رقم (٣) تطور معدل النمو السكاني الطبيعي في الوطن العربي

بين أعوام ١٩٧٤ -١٩٩٨

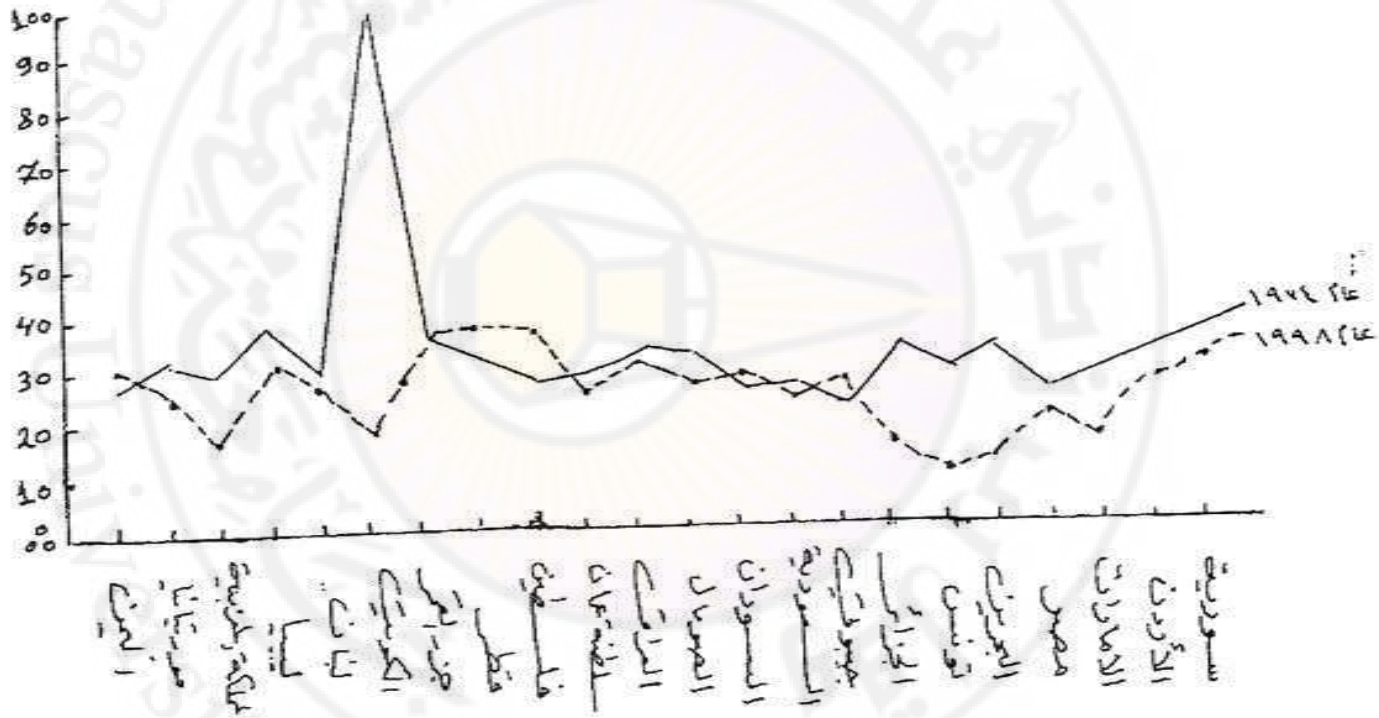

تطـــور عـــدد ســـكان الوطـــن العربـــي بيـــن أعوام ١٩٩٠ – ٢٠٠٢م

مليون نسمة

الجدول رقم (٢) :

الدولة	عدد السكان عام ١٩٩٩/مليون نسمة	عدد السكان عام ٢٠٠٢/مليون نسمة
مصر	٦٢,٠	٧٢
المغرب	٢٨,٤٤٧	٣٠
السعودية	٢١,٣٣٤	٢٥
سورية	١٦,١١١	١٨,٥
السودان	٣٠,٢٤٨	٣٣
فلسطين	٣,٠٥٧	٥,٥
الجزائر	٣١,٤٤٦	٣٦
العراق	٢٣,٢٨٢	٢٦
تونس	٩,٤٤٣	١٣
لبنان	٤,١٨٣	٥,٥
ليبيا	٤,٩٥٨	٥,٥
الإمارات	٢,٩٣٨	٣,٥
البحرين	٦٦٦ ألف	٨٠٠ ألف
جيبوتي	٦٢١ ألف	١
الصومال	٩,٢٧٥	١٢,٥
قطر	٥٥٦ ألف	٧٠٠ ألف
جزر القمر	٧٥٣ ألف	١,٣
الكويت	٢,١٠٧	٢,٨
اليمن	١٧,٦٧٧	٢١
الأردن	٤,٩	٥
موريتانيا	٢,٥٢٧	٣,٥
سلطنة عمان	٢,٣٢٥	٢,٥

١- المصـــدر : إحصـــائيات عام ١٩٩٠م المجموعة الإحصائية لجامعة الدول العربية .

٢- ســـكان عام ٢٠٠٢م – تقدير الباحث د. قاسم الربداوي اعتماداً على معدل النمو الطبيعي للسكان في بلدان الوطن العربي.

الشكل رقم (٤) تطور عدد سكان الوطن العربي بين أعوام ١٩٩٠- ٢٠٠٢

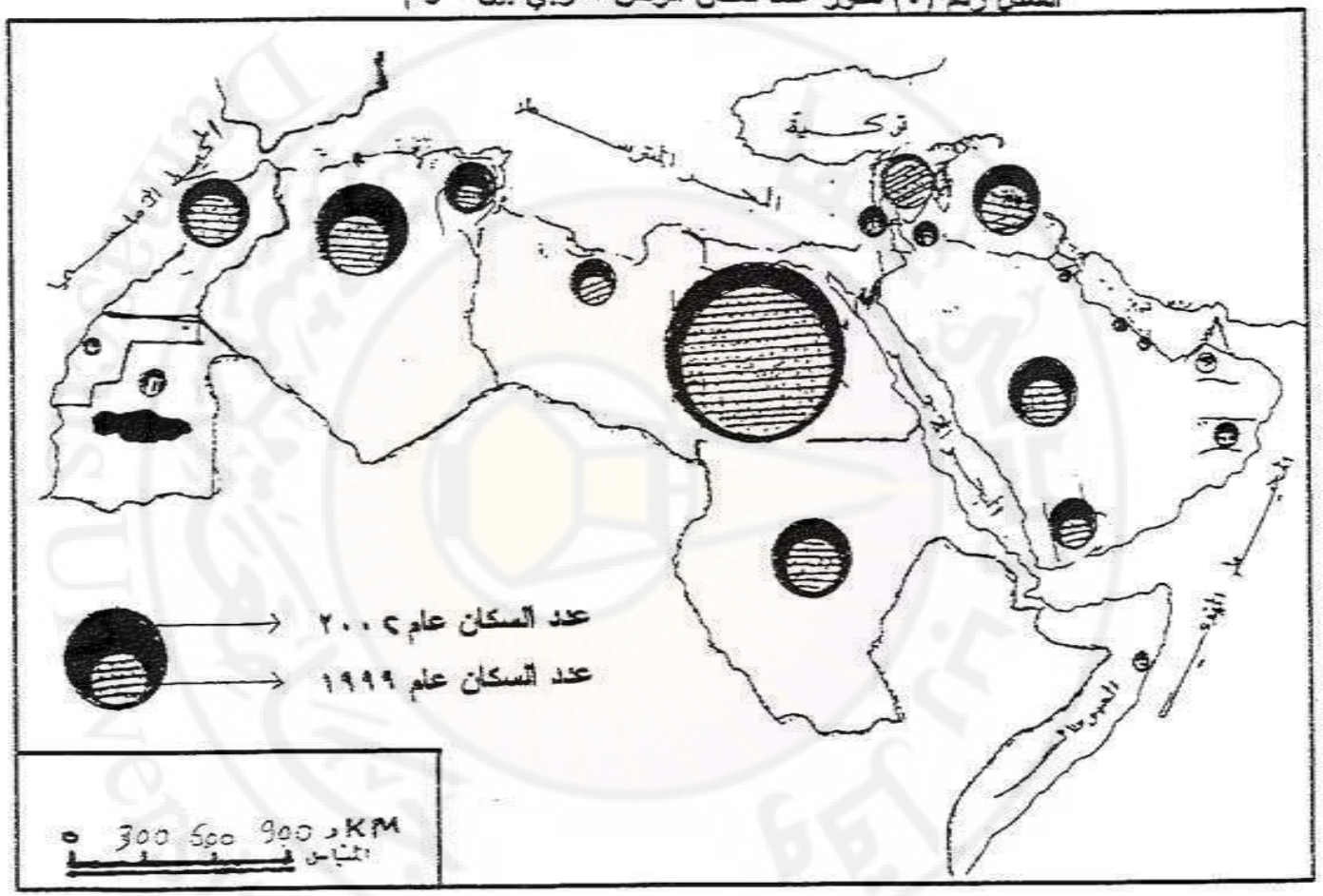

وتعود أسباب تلك الزيادة في عدد السكان إلى: ارتفاع معدلات النمو الطبيعي للسكان في أنحاء الوطن العربي ، ويتضح من خلال ذلك أن معدلات النمو السكاني هي بحالة تناقص مستمر وذلك بسبب تخطيط هذه الظاهرة ، وليكون هنالك تلاؤم وتوازن بين النمو السكاني والنمو الاقتصادي ، وتأمين الخدمات اللازمة لهؤلاء السكان، وخاصة مع تطور التعليم وتحسن المستوى الثقافي عند السكان وخاصة عند الأبوين، حيث إن هنالك علاقة عكسية بين ارتفاع المستوى الثقافي وانخفاض معدلات الإنجاب والولادة .

أما بالنسبة إلى سورية فقد تميز معدل النمو السكاني بارتفاع أعوام ١٩٦٠ - ١٩٧٠. وقد وصل آنذاك إلى ٣٢,٨ بالألف، وبين أعوام ١٩٧٠ - ١٩٨١ وصل المعدل إلى ٣٣,٦(١) وتعود أسباب تلك الزيادة إلى عدم اتباع وسائل تنظيم الأسرة ، وتدني نسبة الوفيات ، وتحسن المستوى الصحي للسكان . ثم ارتفع المعدل إلى ٣٦ بالألف أما خلال الفترة الممتدة بين ١٩٩٤ - ٢٠٠٢ فقد انخفض معدل النمو السكاني إلى ما دون ٣٢ بالألف ، وذلك بسبب اتباع وسائل تنظيم النمو السكاني، وازدياد الاهتمام بتخطيط حجم الأسرة وتختلف معدلات النمو الطبيعي للسكان في المدن الكبرى في الوطن العربي خاصة العواصم . وذلك بسبب عدم اتباع وسائل تنظيم الأسرة ، وانخفاض سن الزواج، من الهجرة الوافدة وارتفاع معدلات الخصوبة وخاصة في مناطق السكن العشوائي، وهي المناطق التي يتم فيها التوسع السكني العشوائي دون تخطيط أو برمجة كما هو الحال في ضواحي القاهرة الكبرى ودمشق الكبرى وعمان الكبرى وبيروت الكبرى ومختلف العواصم . ويتضح ذلك أثناء دراسة النمو السكاني في مدن العواصم العربية . كما أن تلك التجمعات التي تعيش في تلك المناطق . بوجود التناقضات الاجتماعية.

---

١) المجموعة الإحصائية السورية للأعوام ١٩٧٠ - ١٩٨١.

أمـــا عـــن أســـباب ارتفـــاع معدلات النمو الطبيعي للسكان في البلدان العربية في القرى والمدن والبلدان ومعظم التجمعات السكانية فيها. فهي:

١ - العوامل الديموغرافية:

ويـــأتي في طلـــيعة العوامـــل الديموغرافـــية ارتفـــاع معدلات الولادة والخصوبة والإنجـــاب وخاصـــة في الـــريف . إذ تـــبين مـــن خلال الدراسة الميدانية للتجمعات الســـكانية في العديـــد مـــن الـــبلدان العربـــية ، ارتفاع معدلات المواليد الخام والتي وصلت سابقاً إلى ٥٢ بالألف . في عام ١٩٩٢ .

وتشـــير الإحصـــاءات أنه في عام ١٩٨٤ كان قد بلغ عدد الولادات في سورية ٥٣,٧٦٩ حالة ولادة ، بينما كان عددها عام ١٩٨٠ قد بلغ ٦٧٩٥٠ ولادة . ويبدو مـــن خـــلال ذلك الفرق الداخل في هذه الزيادة وذلك بسبب عدم اتباع وسائل ضبط الخصوبة، وبسبب الزيادة في عدد حالات الزواج.

وممـــا أثـــر في ذلـــك انخفـــاض معـــدلات الوفـــاة . الناجم عن تحسن المستوى الصـــحي وزيـــادة عـــدد الأطـــباء وبـــناء المزيد من المشافي العامة والخاصة ، وذلك نـــاجم عـــن تـــأمين الخدمـــات كافـــة للمواطنين ، ويتضح ذلك أثناء دراسة التنمية الصحية في سورية من هذا الكتاب .

وبالنسبة للوطن العربي فإن انخفاض الوفيات وارتفاع معدلات الولادة أدت لارتفاع في معـــدلات النمو الطبيعي للسكان . وذلك بسبب اهتمام معظم البلدان العربية بتقديم الخدمات الصحية كافة للسكان وزيادة الاهتمام بالتنمية السكانية .

٢ - العوامل الاجتماعية :

وتتمثل في العادات الاجتماعية للسكان مثل الرغبة في إنجاب البنين وخاصة الذكور والزواج المبكر ، وانخفاض سن الزواج عند الشباب والفتيات ، والتسرب من المدارس إذ ترغب الكثير من الفتيات وهؤلاء الشباب إلى الزواج بمجرد التسرب من المدارس.

وفي ريف الوطن العربي الذي يشكل سكانه نسبة كبيرة يسارع الشاب إلى الزواج بمجرد بلوغه سن الـ ١٨ سنة ، وخاصة عندما يستطيع تأمين بيت ومهر زواج. وبينما ساكن المدينة يجد صعوبة في تأمين ذلك بسرعة ، وهذا يؤدي إلى زيادة عدد المواليد في الريف أكثر مما هو عليه في المدينة .

ومن هنا يستنتج أن نسبة الولادات في الريف هي أكثر مما هي عليه في المدن. ومن الأسباب الاجتماعية الأخرى التي تدفع المرأة لإنجاب المزيد من التبني هو خشيتها من الطلاق وتعدد الزوجات . إذ تزداد حالات الزواج بزوجتين أو ثلاثة أو أربع وخاصة في الريف والبادية في أنحاء الوطن العربي .

ومن العوامل الاجتماعية الأخرى ما يلي :

١- عامل الاستقرار النفسي والذي يؤدي لإنجاب المزيد من الولادات من خلال تأمين البيت السكني، والراحة النفسية ، والدخل المناسب، والعمل الدائم.

٢- افتتاح المزيد من مشاريع التنمية الريفية ، وافتتاح مراكز الرعاية الصحية الأولية . وزيادة الاهتمام بدور المرأة وتقديم القروض للمرأة الريفية سواء كانت قروضاً عينية أم قروضاً مالية فإن ذلك يساعد بشكل كبير على زيادة الاستقرار النفسي والصحي للمرأة مما يدفع الكثير من النساء لإنجاب المزيد من الولادات .

٣- الاهتمام بصحة الأطفال حديثي الولادة . وتقديم الخدمات على الولادات الموجودة ، وارتفاع معدلات الإنجاب .

٣- العوامل الاقتصادية :

للعوامل الاقتصادية تأثير كبير في معدلات النمو للسكان ، ويتمثل ذلك في التركيب المهني للسكان ، ومستوى الدخل ، ونوعية غذاء السكان ، والبطالة، وعدد ساعات العمل ، وحجم القوة العاملة . وهذه التأثيرات هي :

١- المهنة : يعد عمل الرجل والمرأة من العوامل المهمة في التأثير على حجم الولادات في

مجـــتمع الوطن العربي ، فالأشخاص الذين يعملون بمهن إدارية وساعات عمل محددة تكون نسبة الإنجاب عندهم كبيرة . ويكون لدى المرأة الوقت الكافي لتربية الأطفال ودلت الدراسات الميدانية أن النساء اللواتي يتفرغن للعمل المنزلي تكون نسبة الإنجاب عندهن كبيرة. بينما النساء العاملات تكون عندهن حالات الإنجاب قليلة ، لأنه ليس لديهـــا الوقت الكافي للتفرغ للعمل المنزلي وتربية الأطفال، كما أن الأعمال المجهدة اليدوية لدى الرجال . تؤدي لانخفاض في عدد الولادات .

٢- القوانـــين الصادرة : والتي تمنح المرأة العاملة الإجازة المناسبة للأمومة ، حيث يؤدي لتشجيع إنجاب المزيد من الولادات ، كما هو في سورية نص قانون العاملين الأساسي عـــلى أن تأخذ المرأة إجازة أمومة لمدة شهرين تبدأ خلال الشهر التاسع من الحمل، حيث تعطى المرأة الإجازة كاملة حتى ولو توفي المولود . ويصرف للمرأة العاملة عن مدة إجازة الولادة ، التي حصلت عليها أجراً يعادل ٧٠%[١] من أجرها بشرط أن تكون قد أمضت مدة انقطاعها عن العمل سبعة أشهر متتالية .

٣- عمل المرأة : دلت الدراسات أن نسبة كبيرة من النساء العاملات في القطاع الزراعي وخاصة المرأة الريفية تكون نسبة الإنجاب عندها كبيرة، وهذه حال المرأة الريفية في الوطـــن العـــربي بشكل عام . ويتضح من خلال ذلك أن خصائص المرأة العاملة في الوطن العربي تؤثر بشكل كبير في زيادة نسب الإنجاب .

٤- معـــدلات الإعالـــة : تعد معدلات الإعالة من أهم العوامل في تأمين الحياة المناسبة للأبـــناء، وتـــبين من خلال الدراسة[٢] الميدانية . أن معدلات الإعالة ما بين ٦-٧ أشخاص . أي أن كل فرد عليه أن يعيل نفسه ، ويعيل معه حوالى٦ أشخاص . وهذا يعـــني أن معدلات الإعالة مرتفعة، وتنخفض هذه النسبة في المجتمع الريفي الزراعي

---

١) المادتين ١٣٣ - ١٣٤ من قانون العمل للمرأة السورية .

٢) د.قاسم الربداوي: نتائج الدراسة الميدانية في الأحياء الشعبية بدمشق . عام ٢٠٠٢م .

وذلـــك كون أفراد الأسرة جميعاً يعملون في الحقل أو المزرعة ، بغض النظر عن سن العمـــل لديهم . وهذا يعد عاملاً هاماً من عوامل زيادة الولادات والإنجاب . كون الأولاد سيساعدون أهلهم في العمل الزراعي .

٥- الدخـــل : يعـــد الدخـــل عـــاملاً هاماً في التأثير على حجم الولادات والإنجاب، إذ إن المجتمعات الفقيرة تتميز بارتفاع معدلات الإنجاب لديها، ويظهر ذلك بوضوح من خلال المسكن والغذاء ، وينطبق هذا على معدلات الولادة في آسيا وإفريقيا أو أمـــريكا اللاتينـــية. إذ إن أعلى معدلات الإنجاب وجد في تلك البلدان، وهذا حال الكثير من بلدان الوطن العربي .

٦- الغذاء وصحة الإنسان : من المعروف أن الغذاء الذي يتناوله السكان يؤثر في نسبة الخصـــوبة . إذ تـــبين أن الشـــعوب الـــتي تتـــناول مـــواد بروتينـــية نباتـــية هـــي أكثر إنجاباً من الشعوب التي تتناول مواد بروتينية حيوانية، وأن الجوع يشكل ضغطاً على السكان بدلاً من أن يكون نتيجة عنه ، حيث إن الزيادة الكبيرة في عدد السكان ستقود إلى ضرورة تأمين الحاجة الماسة للغذاء والمواد الاستهلاكية ، كما أن تـــأمين الغذاء اللازم للنساء بين سن ١٥ – ٤٥ سنة يؤدي لارتفاع نسبة الإنجاب. ولذلك فإن أغلب سكان الوطن العربي يتميزون بتناول مواد بروتينية نباتية أكثر مما هـــي عليه بروتينات حيوانية . وتبين من خلال التجارب العملية أن نقص تناول[1] البروتينات الحيوانية يؤدي لزيادة قابلية المرأة على الإنجاب.

٢- زيادة عدد سكان العواصم العربية :

تعرضـــت مـــدن العواصـــم العربـــية لزيادة كبيرة في عدد السكان ، وأصبحت خـــزانات بشـــرية هائلـــة بســـبب ارتفاع معدلات النمو الطبيعي لسكان ، وبسبب الهجـــرة الوافـــدة مـــن أنحـــاء الريف والمدن الأخرى ، وكونها تحتوي على المؤسسات

---

١) د. فاضل الأنصاري – جغرافية السكان . منشورات جامعة دمشق . ١٩٩٩-٢٠٠٠ – ص١٤٣ .

التجارية والصناعية والإدارية الكبيرة والمركزية ، ومؤسسات التعليم العالي من جامعات ومعاهد عليا ، ووجود مجالات عمل كثيرة ، وبسبب وجودها كعواصم وتشكل مدناً مركزية في البلدان العربية وبسبب البحث عن شروط إقامة وسكن وعمل أفضل من الريف كما كان سائداً سابقاً ، وبسبب وجود عوامل نابذة في الريف وتوالي سنوات القحط . والجفاف المطر كلها كانت عوامل دافعة للإقامة في العواصم . ولذلك نشأت مدن العواصم الكبرى مثل القاهرة الكبرى والتي يزيد سكانها على حوالى ١٨ مليون نسمة . ودمشق الكبرى ٥,٣ مليون نسمة وتونس الكبرى والخرطوم، وبغداد أكثر من ٥,٥ مليون نسمة .

ويتضح من الجدول رقم (٣) والشكل رقم (٥) أن عدد سكان دمشق المسجلين ، كان عام ١٩٩٤ حوالى ١,٥٤٢ مليون نسمة. فأصبح العدد عام ١٩٩٦ حوالى ٤,٥ مليون نسمة من المقيمين والمسجلين . ونشأت دمشق الكبرى حيث تم حساب السكان ضمن الحدود الإدارية مضافاً إليها سكان مناطق الأحياء الشعبية المحيطة بدمشق والتي اتصلت معها عمرانياً .

ومدينة بيروت تحتوي على حوالى ٥٠% من سكان لبنان كونها المركز الإداري والسياسي والاقتصادي والعلمي والخدمي الأول في لبنان.

وكذلك الأمر بالنسبة لما هو في العواصم مثل الخرطوم وعمان وطرابلس والرياض وغيرها ويقدر عدد سكان العواصم بحوالى٧١,٣ مليون نسمة[1] عام ٢٠٠٢م ، وتقدر نسبة سكان العواصم العربية ٢٥% من سكان الوطن العربي، ويتضح من الجدول السابق الذكر أن نسبة سكان دمشق هي ٢٥% من نسبة سكان سورية .

---

١) د. قاسم الربداوي – النمو السكاني والسكن العشوائي في مدن العواصم العربية – بحث مقدم للملتقى الثالث للجغرافيين العرب – في مدينة الرياض – عام ٢٠٠٣م .

وسكان بغداد ٢٦% من سكان العراق ، وسكان تونس ١٦% من سكان الجمهورية التونسية والسبب في ذلك هو ارتفاع معدلات الخصوبة السكانية والهجرة الداخلية من أنحاء الريف .

وأدى ذلك إلى نتائج اقتصادية واجتماعية في المدن والريف . ومنها زيادة الطفح الريفي في العواصم ، وارتفاع الكثافة السكانية والتي تصل إلى ٨٠ ألف نسمة/كم٢ كما هو الحال في جنوب دمشق الكبرى . وارتفاع معدلات الإعالة ، وارتفاع الكثافة السكنية والنمو السكني العشوائي على حساب الأراضي الزراعية والمتوسطة التي تعاني منها معظم العواصم العربية والمدن العربية الصغيرة المتوسطة والكبرى. ونشوء مشكلات خدمية كثيرة مثل مشكلة الحصول على مياه الشرب – والتعليم – والصحة – والنقل والمواصلات . وانخفاض الأجور، ونشوء أحياء الصفيح حول مدن العواصم ومشكلة تأمين الحاجات اليومية، وتلوث البيئة ، ونشوء ظاهرة التكدس الحضري حول المدن. ومشكلات صحية والتسرب من المدارس وانتشار البطالة والعمل الجزئي المتقطع ومشكلة عمل المرأة ، ونشوء مشكلات اجتماعية متنوعة في مناطق السكن العشوائي حول المدن . وهي أجواء المخالفات السكنية والتراكم السكني في مساحات محدودة من الأراضي وبالنسبة للريف انخفاض نسبة العاملين في الزراعة والحاجة إلى الأيدي العاملة الزراعية .

عدد سكان العواصم في الوطن العربي بالنسبة لمجموعة السكان بين أعوام ١٩٧٦ – ١٩٩٦م

جدول رقم (٣) :

الدولة	المدينة الكبرى	عدد سكان المدينة الكبرى ١٩٧٦م	نسبة سكانها بالنسبة لمجموع السكان	
			١٩٩٦	١٩٩٦
مصر	القاهرة الكبرى	٥,٠٨٤	٩,٦٢٦	%١٠
المغرب	الدار البيضاء	١,٧٥٢	٣,٠٨٣	%١١
الجزائر	الجزائر	١,٥٢٣	٢,٥٠٧	%٩
السودان	الخرطوم	٨٠٠	١,١٦٢	%٦
العراق	بغداد	٣,٢٠٦	٥,٢١٦	%٢٦
السعودية	الرياض	٦٦٩	١,٠٥١	%١٨
سورية	دمشق	١,٥٤٢	٤	%٢٥
اليمن	صنعاء	١٣٩	٧٨٨	%٦
تونس	تونس	٩٠٠	١,٥٦٧	%١٦
لبنان	بيروت	١,٢	١,٩٥٠	%٤٨
الأردن	عمان	٩٦١	١,١٦٠	%٢٣
ليبيا	طرابلس	٥٥٢	٨٢١	%٣٤
الكويت	الكويت	٥٧٠	٩٨٨	%١٨
الإمارات	أبو ظبي	١٤١	٣٢٤	%٢٥
البحرين	المنامة	١١	٢٣٠	%٤٣
قطر	الدوحة	١٤٥	٣١٢	%٨٢

عدد السكان بالملايين :

١ ــ المصدر : المجموعة الإحصائية – إحصائيات الجامعة العربية .

الشكل رقم (٥) تطور عدد سكان مدن العواصم في الوطن العربي بين أعوام ١٩٧٦ -١٩٩٦

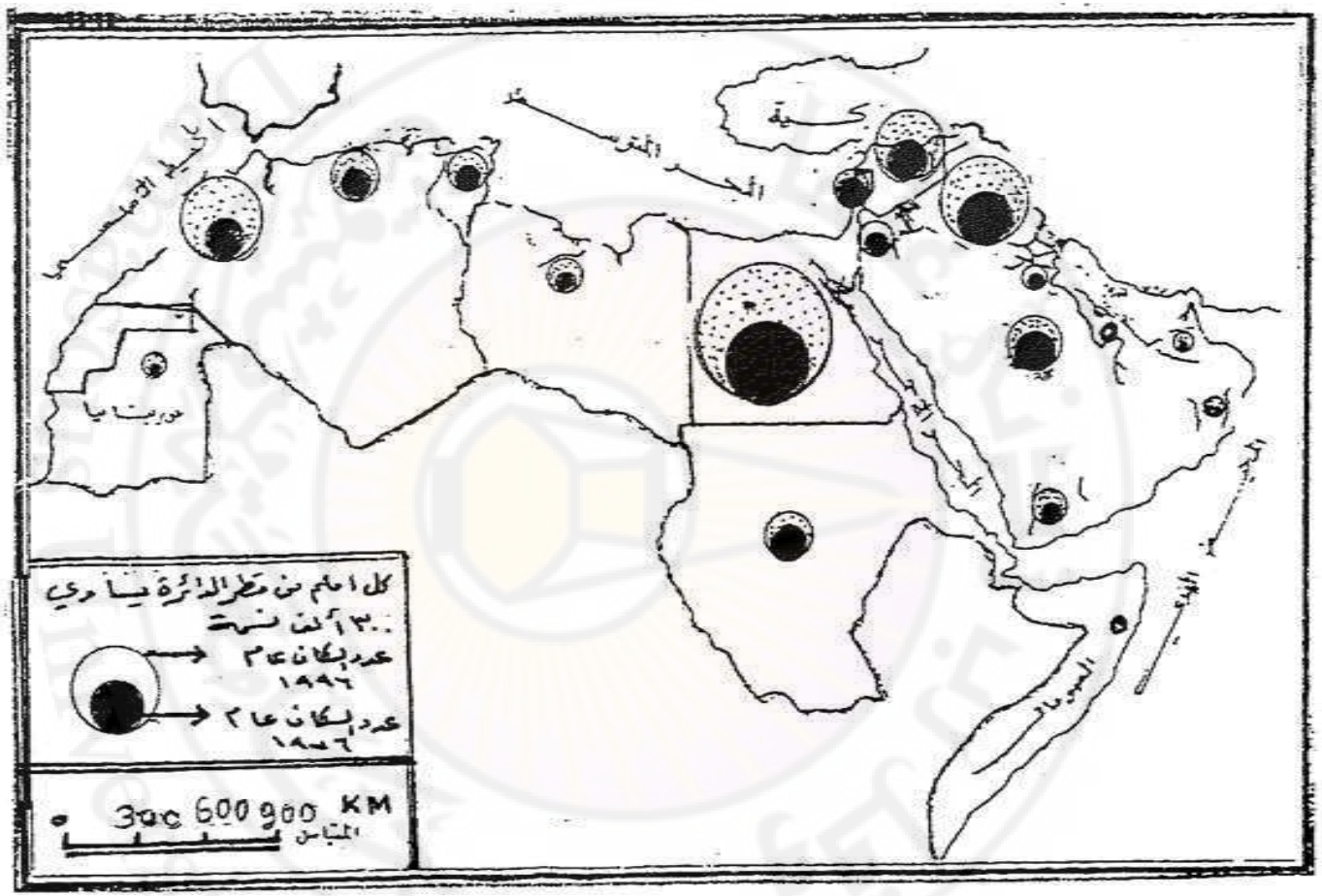

إن تلك التحولات الديموغرافية في المجتمع العربي أدت إلى زيادة كبيرة في حجم المدن العربية وخاصة العواصم ، وأدى ذلك إلى تضخمها ، ونشأ مجتمع جديد يعيش خارج تلك المدن وهو محسوب عليها ، وخاصة في الضواحي وهو بعيد عن الريف وقريب من المدينة ؛ إنه مجتمع الضواحي .

ثانياً – نشوء مجتمع الضواحي :

نشأ هذا المجتمع الجديد في ضواحي المدن العربية المتوسطة والكبيرة والكبرى وهذا المجتمع خصائصه التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والديموغرافية ، وهو يشكل جزءاً هاماً من مجتمع الوطن العربي وله طبقة خاصة في حياته وعاداته وتقاليده ، وسأوضح فيما يلي خصائص هذا المجتمع حديث التشكل ، وهو مجتمع وسط بين الريف والمدينة .

١ ــ المراحل التاريخية: مر هذا المجتمع بعدة مراحل تاريخية وهي المرحلة الأولى وهي الفترة أو الممتدة بين أعوام ١٩٣٠ – ١٩٥٠ ، وتميزت هذه المرحلة بالبطء في النمو السكاني واتساع الحجم. وفي أغلب المدن العربية وخاصة العواصم . وذلك بسبب وجود الاستعمار والسيطرة الأجنبية على كثير من مقدرات الوطن العربي .

٢ ــ المرحلة الثانية: وهي المرحلة الواقعة بين أعوام ١٩٥٠–١٩٦٠ حيث نالت الكثير من البلدان العربية استقلالها ، بعد كفاح طويل ، وكانت بداية التطور الاقتصادي . حيث بدأت الصناعة تظهر في ضواحي المدن وخاصة العواصم ، ونشأت صناعات خفيفة ومتوسطة ، وخاصة حول دمشق وحلب في سورية والقاهرة والإسكندرية في مصر ، وتبين أن ١٥% من البيوت السكنية البسيطة حول القاهرة قد ظهرت في هذه المرحلة . وظهرت حول دمشق صناعات الغزل والنسيج وبعض الصناعات الغذائية.

٣ ــ المرحلة الثالثة: الممتدة بين ١٩٦٠ - ١٩٨٠م وازداد حجم مجتمع الضواحي في المدن العربية وذلك بسبب ارتفاع معدلات النمو الطبيعي للسكان ، وبسبب الهجرة الريفية الوافدة إلى المدن وذلك بحثاً عن شروط حياتية أفضل وبحثاً عن العمل ودخل أكبر، وبدأت ظاهرة السكن العشوائي بالتفاقم وخاصة حول المدن المركزية والعواصم . واستخدام المواد الأولية البسيطة في بناء المسكن مثل الحجر الإسمنتي والأخشاب وأكواخ الصفيح والخيم أحياناً .

٤ ــ المرحلة الرابعة: وهي الفترة الممتدة بين أعوام ١٩٨٠-٢٠٠٢، وقد تميزت هذه المرحلة بزيادة حجم مناطق الضواحي واتساعها حتى أصبحت مجمعات سكنية ضخمة تطفح بسكانها للأسباب السابقة الذكر ، وازداد حجم المدن في منطقة الخليج العربي. وذلك بعد اكتشاف النفط واستثماره أصبحت الحاجة ماسة لمزيد من الأيدي العاملة للعمل في القطاعات الإنشائية المختلفة.

أسباب ظهور مجتمع الضواحي :

لظهور مجتمع الضواحي أسباب عديدة ، وتتمثل هذه الأسباب فيما يلي :

أولاً- الهجرة الوافدة : تعد الهجرة الوافدة أحد أهم المصادر الرئيسية لنشوء هذا المجتمع . وذلك لأسباب عديدة منها ما يتعلق بالعوامل الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية ، ويمكن حصرها بالعوامل النابذة من الريف ، وعوامل جاذبة إلى المدن .

أ- **العوامل النابذة :** كان انحباس المطر وتوالي سنوات القحط والجفاف وخاصة في النصف الثاني من القرن العشرين وإصابة بعض المزروعات بالآفات الزراعية ، وعدم الاستغلال الأمثل للأراضي الزراعية ، وانخفاض الأجور للعمال الزراعيين، وعدم وجود الخدمات الضرورية وعدم وجود وسائل الرفاه والتسلية في الريف ، ودخول الآلة ميدان العمل والتي أصبحت تستغني عن جهود عشرات الآلاف من

العمال الزراعيين في الوطن العربي، والزحف الصحراوي باتجاه الأراضي الزراعية ، كما هو الحال في إنحاء الوطن العربي ، والتحولات المناخية ، وانخفاض منسوب المياه الجوفية ، وتلوث البيئة كلها أسباب أدت إلى تفاقم ظاهرة الهجرة الريفية والتوجه إلى المدن والإقامة في الضواحي .

ب- **العوامل الجاذبة:** وتتمثل في توافر فرص العمل في المدن، وإنشاء المعامل والمصانع فيها، وخاصة في فترة الخمسينيات من القرن الماضي . كما ذكر سابقاً وتوافر وسائل الراحة والرفاهية ، ووجود مؤسسات التعليم العالي في المدن، من جامعات ومعاهد عليا ومتوسطة ، كما هو الحال في معظم العواصم العربية ، وكذلك إنشاء الشركات الإنشائية ووجود أراضي قابلة لإنشاء مساكن عشوائية رخيصة الثمن بالمقارنة مع الأراضي داخل المدن ذات السعر المرتفع ، وانعكس ذلك على طبيعة المسكن وعمر المسكن ومواد بنائه البسيطة ، ووجود أقارب سابقين للمهاجرين الجدد في تلك المناطق يعملون على مساعدتهم في تأمين سكن سريع، ويهيئون لهم الظروف المناسبة لذلك، وكذلك البحث عن دخل أفضل ، والأمل في إيجاد عمل دائم ، وكذلك بهاء المدينة ورونقها وأضواء المدينة كلها عوامل جذابة للإقامة والسكن في المدن وخاصة في الضواحي .

وقد كانت تلك العوامل جميعها أسباباً هامة لظهور مجتمع الضواحي .

ثانياً- النمو الطبيعي للسكان: إن ارتفاع معدلات النمو الطبيعي للسكان وزيادته أدت إلى زيادة حجم مجتمع الضواحي . وكما تبين ذلك أثناء الحديث عن أسباب ارتفاع معدلات النمو الطبيعي للسكان ، وأشارت الدراسات الميدانية أن مجتمعات الضواحي تتميز بارتفاع معدلات النمو الطبيعي للسكان كما هو الحال في مجتمع ضواحي دمشق إذ وصلت النسبة إلى ٣٦ بالألف عام ١٩٩٠ ، و ٣٧ بالألف عام ٢٠٠٤م[1] .

---

١) د. قاسم الربداوي – نتائج الدراسة الميدانية عام ٢٠٠٤م .

وكذلك الأمر في بقية ضواحي مدن بيروت والقاهرة والخرطوم وتونس والرباط والجزائر وبغداد إذ تصل معدلاته إلى ٣٧ بالألف . والجدول التالي يبين ذلك .

الجدول رقم (٤)

معدل النمو السكان في ضواحي مدينة دمشق الكبرى

الحي الشعبي	معدلا النمو السكني صافي التزايد عام ١٩٩٨	المعدل عام ٢٠٠٤
مساكن الزاهرة	٣٦	٣٥
مساكن برزة القابون	٣٩	٣٧
مخيم اليرموك	٣٨	٣٢
مخيم السبينة	٣٩	٣٦
منطقة الطبالة	٣٧	٣٥
الدويلعة	٣٨	٣٨
قاسيون	٣٨	٣٧

المصدر : نتائج دراسة ميدانية للباحث د. ربداوي عام ٢٠٠٤م

الشكل رقم (٦) تطور عدد سكان الأحياء الشعبية في دمشق الكبرى بين أعوام ٢٠٠٠-٢٠٥٠

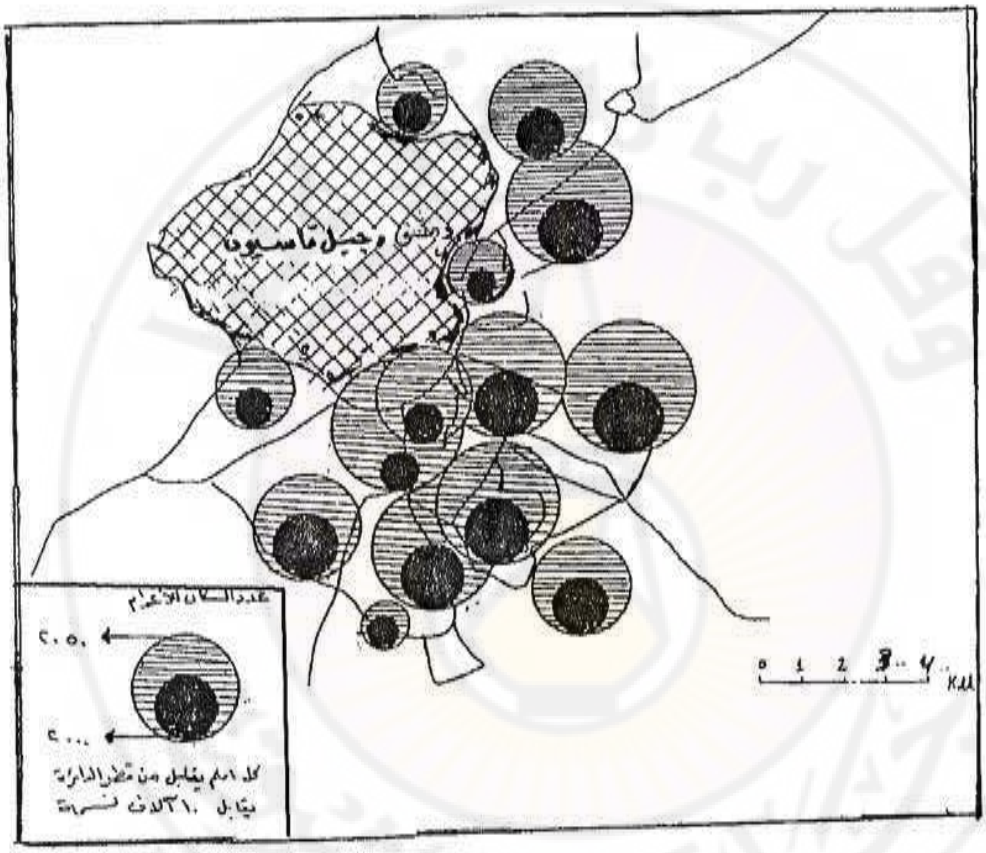

ويبين ذلك الشكل رقم (٦) والذي يظهر معدل النمو السكني في مناطق مجتمع ضواحي دمشق الكبرى .

وأما الشكل رقم (٧) فيظهر النمو السكاني في تلك الضواحي ، مما أدى لتضخم مناطق السكن العشوائي فيها .

وتتميز معظم الضواحي في الوطن العربي بالخصائص نفسها والتي أصبحت عالمية، وخاصة في البلدان النامية ، وفي مختلف قارات العالم .

ومن خلال الدراسة الميدانية تبين بأن الضواحي في العواصم العربية تتسم بالنمو السكاني الكبير الناجم عن الأسباب السابقة الذكر ، كما هو الحال في بيروت والقاهرة وعمان والخرطوم وبغداد والرياض ، ومسقط وأبو ظبي وطرابلس وتونس والجزائر والدار البيضاء والرباط ونواكشوط وفي مقديشو .. وغيرها من المدن .

إذ تصل معدلات النمو السكني ٣٨ [1] بالألف وسطياً عام ٢٠٠٤م .

ويتميز مجتمع الضواحي بالخصائص التالية :

---

١) د. قاسم الربداوي -الدراسة الميدانية للعديد من الضواحي في المدن العربية -مثال دمشق - ١٩٩٩-٢٠٠٠.

الشكل رقم (٧) معدل النمو السكاني السنوي في مناطق السكن العشوائي بدمشق بين أعوام ١٩٩٠-٢٠٠٠

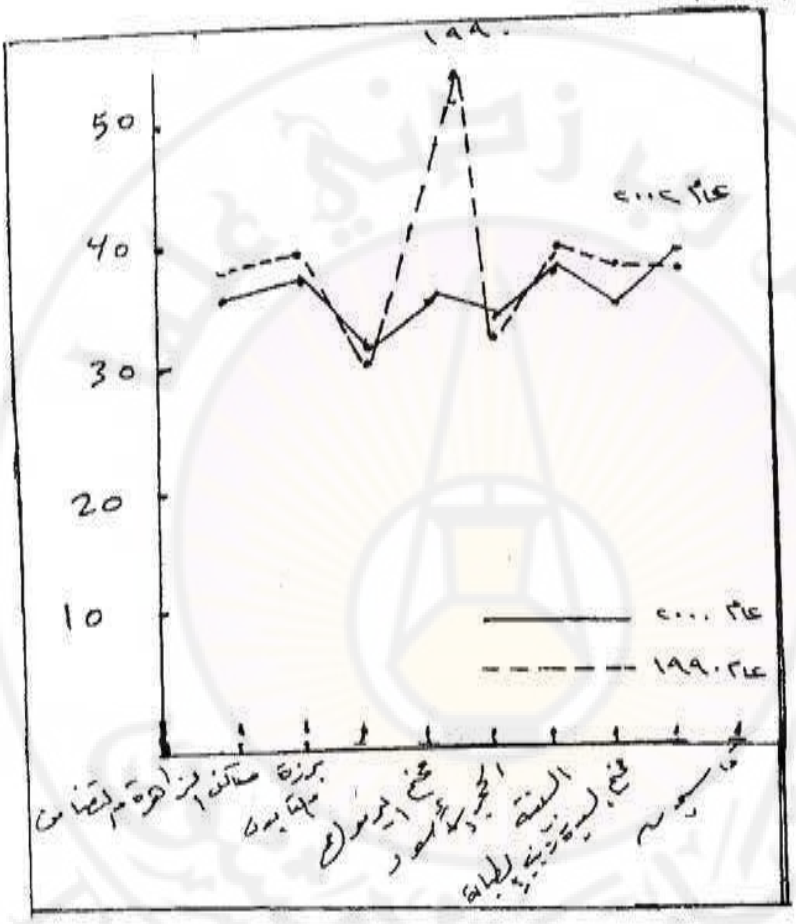

أولاً- الخصائص العمرانية لمجتمع الضواحي في الوطن العربي :

يمكن تصنيف نوعين من الضواحي السكنية من الناحية العمرانية :

- ضواحي سكنية مخططة عمرانياً ، كما هو الحال في ضواحي دمشق مثل ضاحية دمر السكنية، وضاحية قدسيا ، وضواحي أخرى عديدة ، وضواحي بيروت والقاهرة والخرطوم وبغداد وطرابلس وتونس .

- هناك ضواحي من دون تخطيط عمراني ، بل تتصف بالعشوائية كما هو حال ضواحي العواصم والمدن العربية كافة ، ذات السكن المخالف والتي كانت تتم على حساب الأراضي الزراعية في عدة حالات . وتتميز بالفوضى العمرانية، على شكل كتل متراصة أحياناً والتي تفتقد إلى التخطيط العمراني، أو بشكل متناثر بين البساتين والأشجار . كما هو الحال في الأحياء الشعبية إلى الجنوب من دمشق مثل أطراف مخيم اليرموك، والحجر الأسود، والسبينة، والحرجلة، ومناطق السيدة زينب، والدويلعة، والطبالة، وعش الورور، وإلى الجنوب الغربي من دمشق حي ٨٦ - ومنطقة الربوة . وأحياء الضاحية الجنوبية في بيروت مثل مناطق الغبيري، وحرش بير حسن، والمصيطبة، وحي السلم، وحرش ثابت، وغيرها من الأحياء . وفي القاهرة مناطق العشش السكنية وأحياء القاهرة الشعبية، وكذلك مدن طرابلس وتونس والجزائر والدار البيضاء والخرطوم وبقية المدن العربية.

ومن الخصائص العمرانية والسكنية للأحياء السكنية العشوائية والتي يعيش فيها مجتمع الضواحي تطرح مشكلات اجتماعية واقتصادية ما يلي :

١ ـ حالة الإشغال : يقصد بحالة إشغال المساكن نوع الملكية ، إذ تبين أن ٦٥% من مناطق السكن العشوائي هي ملك لأصحابها و ٢٥% هي إيجار و ١٠% تعد مجاناً . وهذا يعكس الحالة الاقتصادية للسكان في هذه المناطق.

٢ــ مواد البناء المستخدمة: هي مواد خفيفة بسيطة سريعة الإنشاء إذ تبين من خلال الدراسة الميدانية أن ٣٧% منها حجر إسمنتي وسقف إسمنتي و ٢٥% حجم إسمنتي مع سقف ألواح قصديرية و ١٣% خيم يسكنها جماعات تعتمد على الترحال والتنقل الدائم .

الجدول رقم (٥)

مواد البناء المستخدمة في الضواحي الشعبية في المدن العربية

مادة البناء	النسبة
حجر إسمنتي مع سقف إسمنتي مسلح	٣٧ %
حجر + إسمنت مع سقف خشب	٢٥ %
حجر إسمنتي مع ألواح قصديرية	٢٥ %
ألواح الصفيح مع خيم	١٣ %

المصدر : نتائج الدراسة الميدانية للباحث في دمشق وبيروت

أما حالة المسكن وعدد الغرف : تتصف مساكن مجتمع الضواحي الشعبية بأن ٢٧% منها بحالة جيدة ، و٥٠% بحالة غير جيدة ، بسبب مواد البناء المستخدمة البسيطة التي ذكرت سابقاً ، و٢٣% منها متضررة بسبب القدم، وتبين بأن ٤٥% منها مؤلفة من غرفة واحدة وحوالى ٣٥% منها مؤلفة من ثلاث غرف و٢٠% أكثر من ثلاث غرف سكنية .

وأما عن مساحة المسكن فقد تبين بأن ٢٢% منها مساحة كل مسكن فيها بين ٥٠-١٠٠م^{٢} .

تجهيزات المسكن :

تبين من خلال الدراسة الميدانية بأن ٧٤% من المساكن العشوائية من دون مطبخ مستقل، وأن ٦٠% خالية من الحمام، أو بدون مياه شرب وصرف صحي مناسب ومن دون كهرباء أو مياه شرب .

مواد البناء المستخدمة :

تبين من خلال الدراسة الميدانية أن ٢٥% من مجموع السكان فيه من حجر إسمنتي وألواح قصديرية ، و ٣٧% حجر أسمنتي مع سقف إسمنتي مسلح. والشكل رقم (٨) يوضح ذلك وعن حالة إشغال المسكن تبين أن ٦٠% من مجموع المساكن هي تلك العائدة لأصحابها، و٣٠% إيجار بسبب عدم تمكن هؤلاء من شراء المساكن أو أرض مخصصة للبناء ، ولعدم وجود إمكانية مالية لديهم . والشكل رقم (٩) يوضح ذلك . وهذا يعكس الحالة الاجتماعية للسكان .

ثانياً - الخصائص الديموغرافية :

يتميز مجتمع الضواحي الشعبية في مدن الوطن العربي بخصائص ديموغرافية عديدة، فالتركيب العمري والنوعي للسكان ، يتميز أولاً بازدياد نسبة الفئات العمرية بين ٠-٤ (٥-٩) وحتى (١٥ - ١٩) سنة . وذلك بسبب ارتفاع نسبة الولادات كما تبين ذلك وللأسباب المذكورة سابقاً . وهي تتفوق على غيرها من الفئات العمرية . ويبين ذلك قاعدة الهرم السكاني الواسعة ، وتميز هذا المجتمع بازدياد نسبة الشباب على غيرها من الفئات ، أما فئة السكان ٦٠ سنة فما فوق فإنها تتميز بانحسارها وذلك بسبب انخفاض العمر المتوسط عند السكان، وخاصة زيادة حالات الوفاة عند كبار السن وانخفاض العمر الوسيط للسكان . ويوضح ذلك الشكل رقم (١٣) .

ومـــن الخصـــائص الأخـــرى زيـــادة نسبة الذكور على الإناث ، والتي تصل إلى ١١٠ ذكـــور مقـــابل ١٠٠ أنـــثى وذلـــك بســـبب زيادة نسبة المهاجرين الذكور والعـــزاب خاصـــة الذيـــن جـــاءوا بحـــثاً عـــن العمـــل في المدينة، ويقيمون في تلك الضـــواحي نظـــراً لـــرخص تكاليف الإيجار أو لمتابعة الدراسة في الجامعات والمعاهد ، والإقامة في هذه الأحياء .

أمـــا عـــن حجـــم الأســـرة فيصل وسطياً بين ٧ –٨ أشخاص للأسرة الواحدة، وأحـــياناً يصـــل الحـــد الأقصـــى إلى ١٢ نســـمة أو ١٥ نسمة ، بسبب عدم اتباع وســـائل تنظـــيم الأســـرة وتعـــدد الـــزوجات ، والـــزواج المبكر .. وأسباب أخرى ذكرت سابقاً .

الشكل (٨) مواد البناء المستخدمة في بناء بيوت مناطق السكن العشوائي في دمشق الكبرى

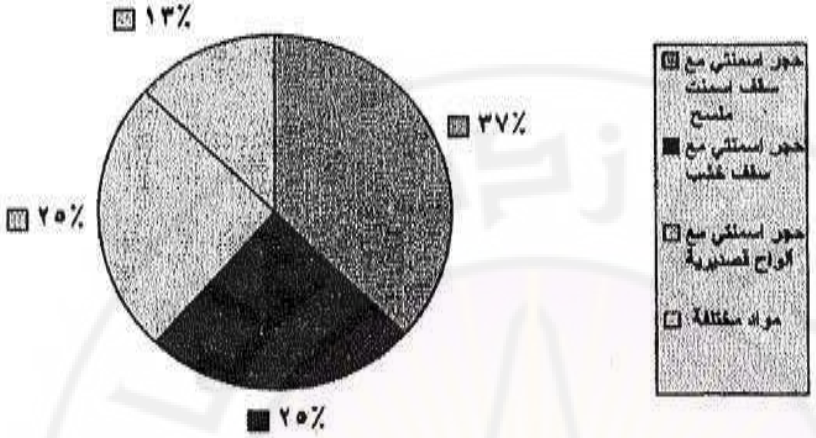

الشكل (٩) حالة اشغال المساكن في مناطق السكن العشوائي

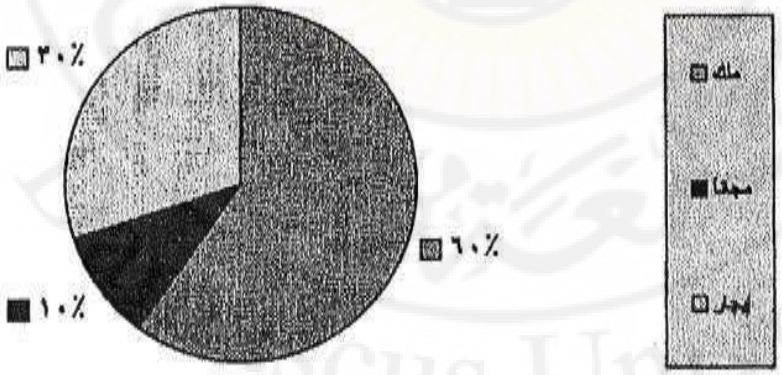

ثالثاً- الخصائص الاجتماعية لسكان الضواحي الشعبية:

تتصف تلك المناطق بمساهمة المرأة في ميادين عمل مختلفة ، مثل العمل في القطاعات الإنتاجية والصناعية من جهة ، أو العمل في الخدمة المنزلية، كذلك العمل في تجارة المفرق وفي سوق الهال الشعبي ، وفي كل حي شعبي كبير ومن الخصائص الأخرى:

١- ارتفاع نسبة الجنوح عند الشباب وحدوث المشكلات الاجتماعية الأخرى وارتفاع نسبة التسرب من المدارس، وحدوث الخلافات بين السكان.

٢- ارتفاع نسبة حالات الطلاق حيث تزداد حالات الطلاق لأسباب اقتصادية، وترتفع نسبة تعدد الزوجات .

٣- انتشار الفقر : يتميز المجتمع في تلك المناطق بانخفاض الدخل وزيادة الفقر . وهذه ظاهرة عالمية أصابت أغلب مناطق السكن الشعبي في مدن عالمية كثيرة كما هو الحال في العواصم العربية.

٤- ضعف القطاع الخدمي ، وخاصة أنها مناطق تقع خارج حدود المخططات التنظيمية وهي مناطق المخالفات السكنية ، ولذلك فإنها تعاني من انخفاض في تأمين الخدمات .

٥- تناقص مساحة الأراضي حول المدن . مقابل الزحف العمراني العشوائي باتجاه تلك الأراضي {اشحيث تقلصت المساحات المزروعة، وأصبحت تشكل تلك الأحياء سوراً حول مدن العواصم .

٦- حركة السكان اليومية من أنحاء الضواحي السكنية إلى وسط المدن خاصة العواصم ، وذلك في حركة يومية تمتد منذ الصباح وحتى المساء للتسوق أو للعمل الإداري في وبسبب متابعة الدراسة في الجامعات والمعاهد العلمية أو لقضاء حاجات مختلفة بسبب تركز معظم الدوائر والمؤسسات والأسواق التجارية في قلب المدينة ، أو ناجم عن حركة العمال اليومية إلى الضواحي . والشكل التالي رقم (١٠) يوضح ذلك في حركة السكان .

٧- ارتفاع الكثافة السكانية: تتميز مناطق الضواحي بارتفاع الكثافة السكانية بشكل

كـــبير ، وخاصة ضواحي دمشق الكبرى والقاهرة الكبرى وبيروت الكبرى وتونس الكبرى وعمان الكبرى ، والجزائر الكبرى، وتبلغ هذه الكثافة ٨٠ ألف نسمة /كم ٢ في دمشـــق بســـبب الاكتظاظ السكاني الكبير الناجم عن زيادة معدلات النمو الســـكاني والهجرة الداخلية الواحدة كما ذكر سابقاً . والشكل التالي رقم (١١) يوضح ذلك.

٨- أزمـــة النقل والمواصلات : يشكل تأمين النقل والمواصلات من الأزمات، التي تعاني منها تلك الضواحي السكنية الشعبية ، وذلك بسبب الضغط السكاني الكبير مقابل توفير عدد معين .

الشكل رقم (١٠) الحركة اليومية لسكان الأحياء الشعبية إلى مركز مدينة دمشق عام ٢٠٠٣

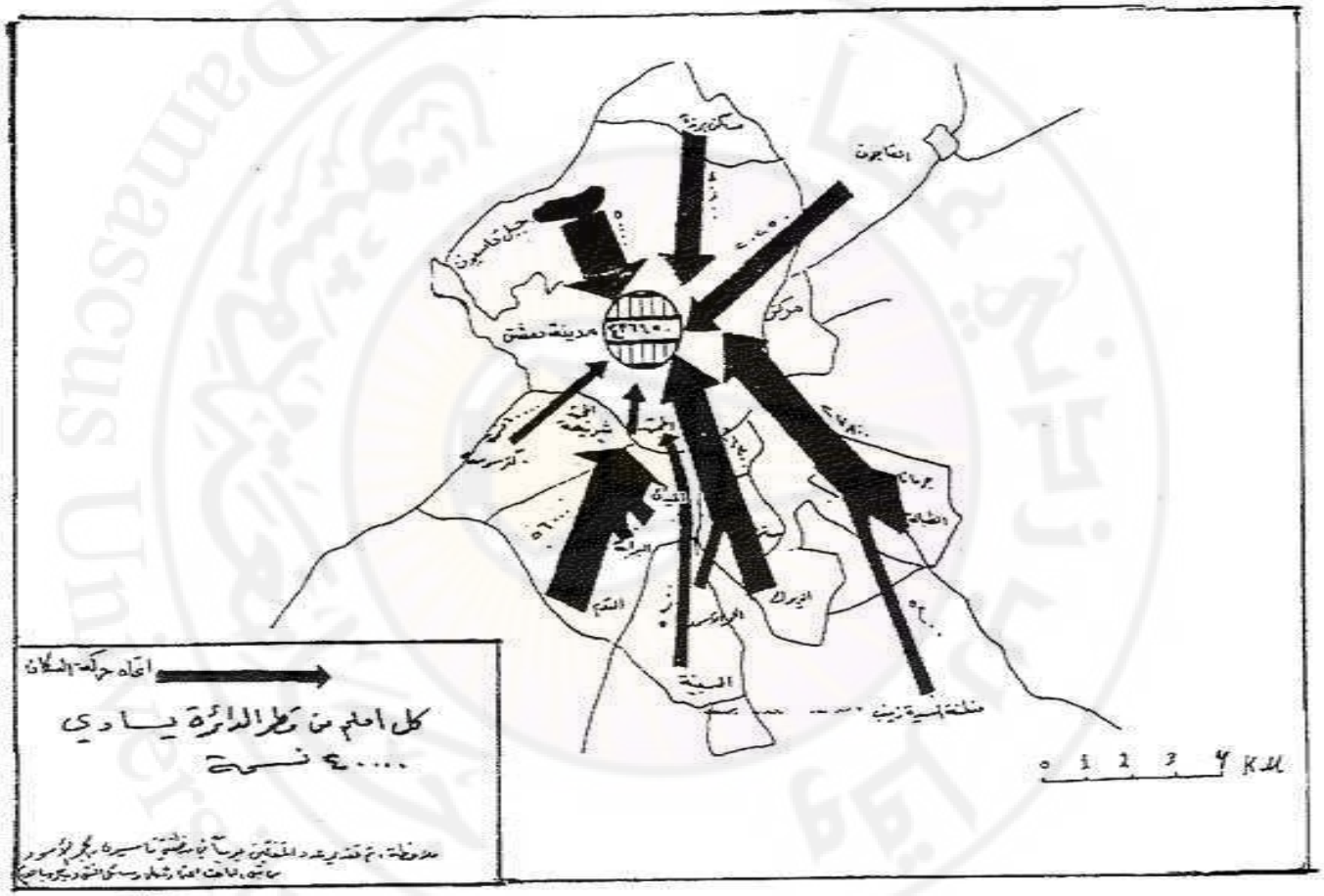

الشكل رقم (١١) الكثافة السكانية في مناطق ضواحي دمشق الكبرى لعام ٢٠٠٠

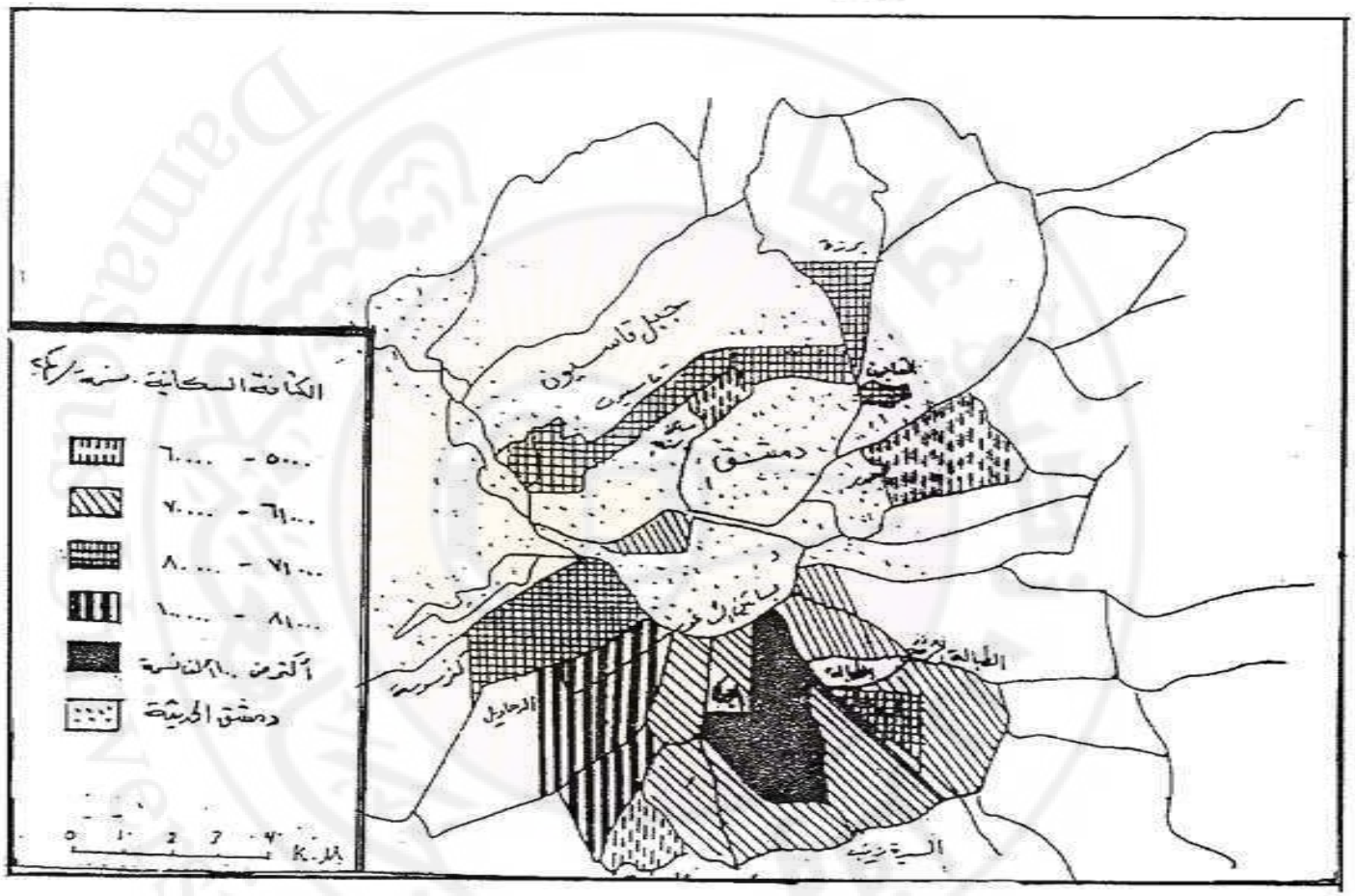

وهـــذه المشـــكلة تعانـــيها أغلـــب مدن العواصم العربية . وتم حل هذه المشكلة في ضـــواحي دمشـــق . حيـــث اســـتطاعت وســـائل الـــنقل الموجودة وزيادة عددها ونوعيـــتها وحداثـــتها أن تحـــل هـــذه المشـــكلة وأن تقوم بنقل عشرات الآلاف من السكان يومياً . من الضواحي وسط دمشق وبالعكس .

رابعاً - الخصائص الاقتصادية :

تمـــتاز المجـــتمعات في ضـــواحي المـــدن العواصم العربية بوجود نسبة كبيرة من الـــبطالة فـــيها بأشـــكالها الظاهـــر والمقـــنع . بالإضافة إلى البطالة الجزئية والكاملة، حيـــث تـــزداد نســـبة الذين يطلبون العمل ولا يجدونه ، أو يجدونه بشكل متقطع أو جـــزئي أو موســـمي أو يومـــي. وهـــذا يشـــكل عـــامل عدم استقرار نفسي، وتنشأ مشـــكلات اجتماعـــية مخـــتلفة مـــثل انخفـــاض الدخل . وزيادة التسول في ضواحي العواصـــم العربـــية وعـــدم تـــأمين عمـــل دائـــم أو العمـــل في مهـــن بســـيطة أو بأعمال بسيطة مختلفة ، وتؤدي إلى ارتفاع نسبة التسرب من المدارس .

ومـــن المشـــكلات الأخـــرى ، مشكلة تأمين المدارس والمستوصفات والخدمات الأخـــرى، وعـــدم تخطـــيط الأراضي المناسبة للتوسع السكني . وترتفع نسبة التلوث البيـــئي . وخاصـــة مـــن خـــلال وجـــود البيوت السكنية بين المعامل والمصانع وعدم الاهـــتمام بالـــنظافة العامـــة وتلـــوث البيـــئة ، وعـــدم وجود صرف صحي مناسب وارتفاع معدلات الإعالة .

١.نشوء ظاهرة التكدس الحضري:

أي زيـــادة عدد سكان المراكز الحضرية حول المدن بشكل كبير وعشوائي دون تخطيط وبرمجة ودون أن يتم التطور في جوهرها .

٢. ظاهرة التريف:

أي زيادة عدد الريفيين حول المدن دون أ ن يندمجوا في المدينة وعاداتها وتقاليدها بل إنهم يتمسكون بعاداتهم الريفية التقليدية، وأصبحت هذه الظاهرة شاملة على مستوى الوطن العربي ، وزيادة عدد هؤلاء الريفيين باستمرار .

٣. تضخم العواصم العربية :

تميزت العواصم العربية بالتضخم والزيادة الهائلة الكبيرة خلال العشرين سنة الأخيرة للأسباب السابقة الذكر .

ومن أهم خصائص تلك المجتمعات نشوء ظاهرة مجتمع السكن العشوائي.

ويمكن تعريف مجتمع السكن العشوائي : بأنه المجتمع الذي يقطن بشكل عشوائي غير منظم ، وينشئ مساكنه على أرض غير مخططة عمرانياً ، ولا يخضع لضابطة البناء . وخارج الحدود الإدارية للمدن والبلدان والقرى . ويمكن تعريفه بأنه المجتمع الذي يمر بمرحلة انتقالية نحو الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي ، وقد أصابت هذه الظاهرة المدن في الوطن العربي وخاصة العواصم كما يلي :

١- في بيروت الكبرى :

نشأت أحياء شعبية سكنية تعيش فيها مجموعات سكانية مهاجرة وافدة ، في أحياء صبرا وشاتيلا وفي مناطق مار الياس . وطريق المصيطبة ، وحوش الرمال، وكرم الزيتون، وبير حسن[1] وبرج البراجنة والغبيري وجسر الباشا وتل الزعتر ، برج حمودة وحوش ثابت. وتوسع السكن بشكل كبير نحو الجنوب فنشأت الضاحية الجنوبية ، ونشأت بيروت الكبرى . وتصل نسبة السكان في

---

١) د. علي فاعور . بيروت – مأساة شعب وأرض – التحولات الاقتصادية والاجتماعية عام ١٩٧٥-١٩٩٠ - كتاب- نشر المؤسسة الجغرافية- ٣٧٥ ص.

تلك الضواحي إلى ٣٠% من مجموع سكان بيروت.

٢- دمشق الكبرى :

نشأت دمشق الكبرى منذ ما يزيد على ١٥ سنة للأسباب السابقة الذكر، أثناء الحديث عن التزايد السكاني في مدن العواصم . ومجتمعات الضواحي الشعبية وهي تمثل مناطق دف الشوك والتضامن وأطراف مخيم اليرموك ونهر عائشة وبساتين الشاغور والقدم والحجر الأسود ومخيم اليرموك والسبينة والسيدة زينب ومن الجنوب الشرقي الدويلعة والطبالة وجرمانا ومن الشرق حرستا ودوما والقابون ومساكن برزة من الشمال ومن الغرب الهامة وقدسيا والضواحي السكنية الحديثة مثل ضاحية دمر وضاحية قدسيا وغيرها من الضواحي ومن الجنوب الغربي حي٨٦ في منطقة المزة .

ويبلغ عدد سكانها ما يزيد على ٥,٣ مليون نسمة عام ٢٠٠٣م ويعيش فيها مجتمع يتميز بخصائص معينة تحدثت عنها أثناء البحث في خصائص المجتمعات في مناطق الضواحي السكنية .

٣- في القاهرة الكبرى :

نشأت القاهرة الكبرى مع ازدياد النمو السكاني والهجرة الوافدة وخاصة حول الترع والمصارف المائية[1] مثل ترعة الإسماعيلية والترعة الموازية لسكة حديد الوجه القبلي وفي المناطق الزراعية .

وأدت الزيادة السكانية الكبيرة والحاجة الماسة لمزيد من المساكن إلى ظهور أحياء العشش في كل المناطق السكنية ، حيث هاجرت أعداد كبيرة من السكان، من قلب المدينة إلى خارجها ومن أنحاء مصر إلى ضواحي القاهرة

---

١) د. فتحي محمد مصيلحي - كتاب - تطور العاصمة المصرية والقاهرة الكبرى عام ١٩٨٨ . ص٤١١ - طبع دار المدينة المنورة .

وأصبح عدد سكانها ما يزيد على ١٨ مليون نسمة .

وتبين أن أكثر من ٣٠% من سكان القاهرة الكبرى يعيشون في عشش مادة بنائها بسيطة ، وهي تفتقد إلى الشروط الفنية الجيدة والمتانة .

٤- الخرطوم :

يعيش في ضواحي مدينة الخرطوم مجتمع خاص يتميز بخصائص معينة، وتقدر نسبة هؤلاء السكان أكثر من ٣٠% من مجموع سكان العاصمة في أحياء شعبية ، ويتم التوسع السكني نحو المناطق السهلية .

٥- مدينة طرابلس :

تصل نسبة مناطق الأحياء الشعبية بحوالى ٢٥% من مساحة المدينة ، ويعيش فيها حوالى ٣٠% من السكان للأسباب السابقة الذكر .

٦- مدينة الجزائر العاصمة :

وتميزت بتوسع مناطق السكن العشوائي ، ويعيش فيها حوالى ٣٥% من مجموع سكان العاصمة .

٧- مدينة صنعاء :

تزداد مناطق السكن العشوائي فيها . وتصل نسبة السكان في تلك المناطق حوالى٣٥% من مجموع السكان .

٨- في الدار البيضاء :

ازدادت فيها أحياء السكن العشوائي وتصل نسبة سكانها حوالى ٣٠% من مجموع سكان هذه المدينة . ومن المعروف أنها المدينة الأولى كماً بينما العاصمة هي الرباط.

وتتميز المدن المغربية بوجود المستوطنات البشرية العشوائية حولها .

٩- في مدينة نواكشوط :

يعيش حوالى ٤٥% من السكان في مناطق السكن العشوائي .

١٠- مدينة الرياض :

تتميز هذه المدينة بنموها السكني المنظم المخطط عمرانياً وفق أسس علمية حديثة بشوارعها وأبنيتها وجمالها العمراني ، لكن فيها مناطق سكن شعبي يقدر حجم هؤلاء السكان ٢٠% من مجموع السكان .

١١- مدينة بغداد :

تتميز بغداد بنموها الطولاني الأفقي وخاصة على ضفاف دجلة ويقدر عدد سكانها بأكثر من ٥,٢١٦مليون نسمة منهم حوالى ٢٥% يعيشون في مناطق الأحياء الشعبية والسكن العشوائي.

١٢- مدينة عمان :

تقدر نسبة سكان مناطق السكن العشوائي بحوالى ٢٥% من مجموع السكان في عمان الكبرى .

١٣- مدينة تونس :

يعيش نسبة من السكان في مناطق السكن العشوائي حول العاصمة تونس بسبب النمو السكاني من الهجرة .

والحال نفسه في الصومال واليمن ولكن في الإمارات العربية المتحدة تنخفض نسبة مناطق السكن العشوائي بسبب قلة وجود تلك المناطق كون هذه المدن هي مدن نفطية ، ويتم بناؤها وتوسعها بشكل منظم ومخطط عمراني.

٤-التركيب العمري والنوعي للسكان:

يتميز المجتمع في الوطن العربي بارتفاع نسبة صغار السن والفئات العمرية الشابة وخاصة لذوي الأعمار من (٠-٤)، (٥ - ٩) ، (١٠ - ١٤) وحتى (١٥ - ١٩) ، (٢٠ - ٢٤) وذلك بسبب ارتفاع معدلات الولادة وارتفاع الخصوبة ، وهذا يعني ارتفاع نسبة القوى العاملة وتزداد نسبة الذكور على الإناث في المدن بسبب الهجرة من الريف وتناقص تلك النسبة في الريف . وهذا يعني أن المجتمع العربي مجتمع فتي وهو مجتمع نشيط اقتصادياً .

تلك هي الخصائص الاجتماعية الناجمة عن التحولات الديموغرافية لمجتمع الوطن العربي .

الشكل رقم (١٢) اتجاهات الهجرة بين البلدان العربية

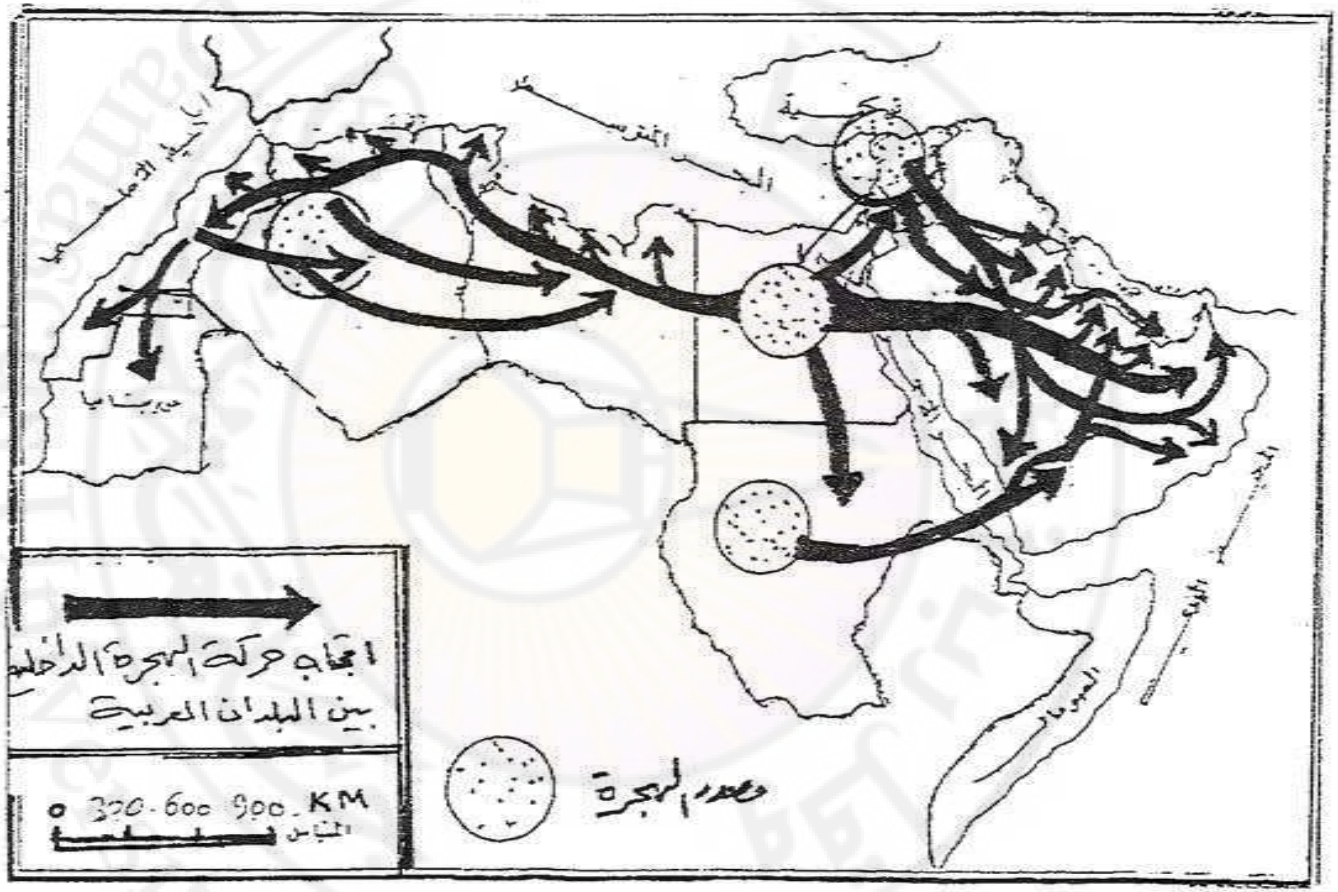

الشكل رقم (١٣) الهرم العمري و النوعي لسكان الأحياء الشعبية بدمشق عام ٢٠٠٠

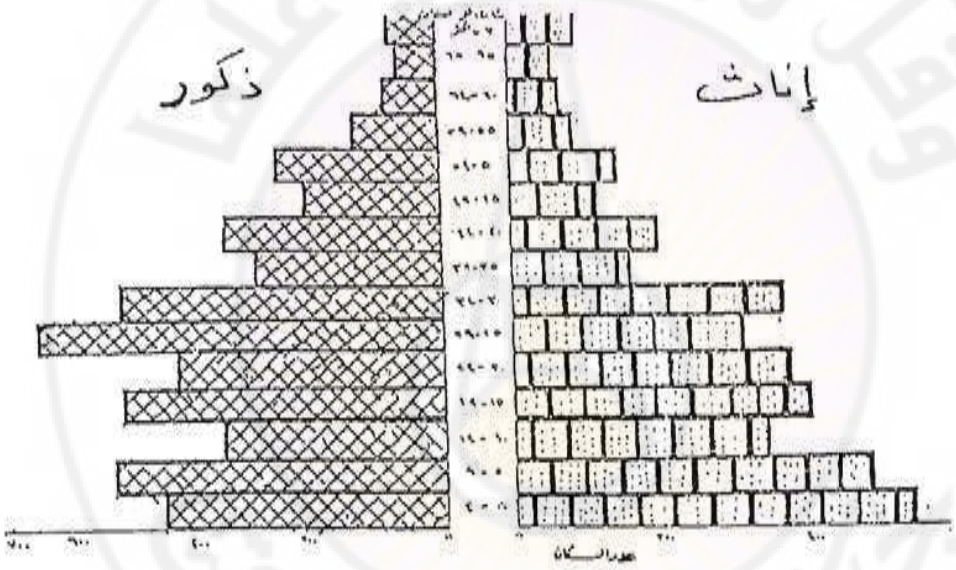

ثانياً- الهجرة وحركتها واتجاهاتها :

تعرض مجتمع الوطن العربي لحركة هجرة داخلية ضمن البلدان العربية، وتمثلت بالهجرة من الريف إلى المدن ، أو هجرة بين المراكز الريفية أو بين المدن ، ومن المدينة إلى الريف .

وهناك هجرة خارجية بين الأقطار العربية ، هجرة داخلة إلى الوطن العربي من مختلف القارات ، وهجرة خارجة من أنحاء الوطن العربي إلى مختلف بلدان العالم وقاراته وإلى أوروبا وإفريقيا وأمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية واستراليا .

وهنالك هجرة خارجة ذات أهمية كبيرة وفقدانها يشكل خطراً كبيراً على الوطن العربي، وهي هجرة الكفاءات العربية، وتصنف الهجرة إلى عدة أنواع وهي:

١- الهجرة الداخلية :

بدأت حركة الهجرة الداخلية في الوطن العربي في فترة الخمسينات من القرن العشرين ، وذلك لأسباب اقتصادية واجتماعية وديموغرافية ، وتمثل ذلك بانتقال السكان فردياً وجماعياً وأسرياً من الريف إلى المدن ، وكانت المدن الكبرى ومدن مراكز المحافظات أهم المناطق التي استقبلت مهاجرين .. خاصة العواصم لأسباب ذكرت سابقاً .

وللهجرة الداخلية تأثير كبير في المظاهر العمرانية والاقتصادية الاجتماعية، في المدن والريف ، سواء في المناطق المصدرة أو في المناطق المستقبلة لهم . كما تؤثر الهجرة الداخلية في حجم القوى العاملة وعلى التوزع الجغرافي للسكان وإعادة توزيع السكان وكثافتهم . من كثافة واقتصادية وإسكانية وسكنية ، وتؤثر في التطور الإيكولوجي للمدن ، وعلى التركيب العمري والنوعي للسكان

ومـــن هـــنا تـــأتي الأهمـــية الـــبالغة لدراسة الهجرة الداخلية. وضرورة تخطيط وتنظيم هذه الظاهرة الاجتماعية والديموغرافية في الوطن العربي .

وعرفـــت الهجـــرة عـــلى مر العصور التاريخية في المجتمع العربي . وكما ذكر في القســـم الأول مـــن هـــذا الكـــتاب أثناء الحديث عن الهجرة شبه الجزيرة العربية إلى سورية وبلاد الرافدين وأنحاء الوطن العربي .

ويمكن تصنيف الهجرة الداخلية إلى ما يلي :

١- الهجرة من الريف إلى المدن :

وتتمـــثل في انـــتقال الســـكان فـــردياً وجماعياً من أنحاء الريف لأسباب ذكرت ســـابقاً. وبســـبب الـــنظم الاجتماعية السابقة مثل النظام الإقطاعي . الذي كان يجبر الفلاحين على ترك أراضيهم والتوجه للبحث عن ظروف حياتية أفضل .

ويقـــدر أن حـــوالى ٤٥% مـــن ســـكان المدن العربية كافة سواء المدن الكبرى مـــثل مـــدن العواصـــم أم المـــدن المتوسطة أو الكبيرة . والتي يتراوح عدد سكانها بين ١٠٠ ألـــف وحـــتى ١ ملـــيون نسمة . هم وافدون قد هاجروا إليها بحثاً عن ظروف حياتـــية ومعيشـــية أفضـــل. وكـــان قـــدوم هـــؤلاء سبباً في تضخم العواصم والمدن الأولى .

٢- الهجرة من المدن إلى المدن :

وتمـــثل ذلـــك هجـــرة وانتقال السكان داخل القطر الواحد بين المدن في الدولة الواحدة. بسبب ظروف العمل وانتقال الشخص للعمل في وظيفة جديدة .

٣- الهجرة بين المراكز الريفية المختلفة :

وحصـــلت هـــذه الظاهـــرة بســـبب التطور الكبير الذي شهده الريف في كثير من البلدان العربية . وبسبب العمل الزراعي أحياناً.

٤- الهجرة من المدن إلى الريف:

وذلك بسبب البحث عن مكان مناسب لتوظيف الأموال وبسبب تطور السياحة . ووجود كثير من القرى والبلدان ذات موقع سياحي هام وبسبب تطور الريف وعودة الكثيرين ممن بلغوا سن التقاعد بالعودة إلى القرى التي ولدوا فيها وهاجروا منها قبل عشر سنوات .

وهناك هجرة مؤقتة : وتشمل هذه حركة انتقال الطلاب والدارسين للعمل في المدن أو لمتابعة الدراسة وبسبب العمل الموسمي، أو انتقال البدو بين المناطق الهامشية في البوادي والمناطق الداخلية حيث تنتقل العشائر الغنامة والبقارة وأنصاف الرحل .. والذين يقيمون في بيوت الشعر . وسيتضح ذلك في الفصل الثاني من هذا الباب .

وانتقال العشائر المتحضرة ويسمون الفلاليح وتبين من خلال الدراسة الميدانية أن ٨٥% من مجموع العشائر البدوية ترحل نحو المناطق الداخلية في أنحاء الوطن العربي، بحثاً عن الماء والكلأ .

أما عن أنواعها فهنالك هجرة دائمة وهي أن يستقر الشخص بشكل دائم في المدينة التي هاجر إليها أو هجرة مؤقتة قد تكون موسمية أو سنوية أو لعدة سنوات. مثال هجرة الطلاب لمتابعة دراستهم في مختلف الجامعات العربية . والعودة بعد انتهاء الدراسة.

وهنالك حركة السكان اليومية في رحلة عمل يومية بين الضواحي ومدن العواصم والمدن المركزية في مراكز المحافظات أو الأقاليم حيث هناك توسعات للتعليم العالي في مدن الوطن العربي وخاصة الجامعات مثل جامعات القاهرة ، الإسكندرية وأسيوط وغيرها من عشرات الجامعات . وفي سورية جامعات دمشق وحلب وتشرين في اللاذقية وجامعة البعث في حمص.

وفي بيروت عدة جامعات مرموقة تستقبل أعداداً كثيرة من الطلاب . وفي

الخرطوم وبغداد وطرابلس وتونس والجزائر والمغرب وعمان عشرات الجامعات . التي تستقطب أعداداً كبيرة من الطلاب بالإضافة للجامعات الخاصة الحديثة التي تم إنشائها.

وتشير الدراسات إلى أن حوالى ٥٠٠ ألف نسمة يقدمون يومياً إلى دمشق ويعودون مساءً وقسم منهم يعود بعد يومين أو أكثر من مختلف المحافظات السورية يحضرون لقضاء أعمالهم .. وإلى مدينة حلب يصل يومياً حوالى ٢٠٠ ألف نسمة لقضاء حاجات مختلفة ، وكذلك القاهرة حيث يصلها يومياً حوالى ٢ مليون نسمة ، وكذلك الأمر بالنسبة لبقية العواصم يأتون للأسباب السابقة الذكر .

نتائج الهجرة الداخلية :

أثرت الهجرة الداخلية في المجتمع العربي بشكل واضح وتمثل ذلك بعدة نتائج وهي :

١ - النتائج الاقتصادية:

وتتمثل بالنسبة للريف أولاً ، وهي فقدان اليد العاملة الزراعية وارتفاع تكاليفه والبحث عن اليد العاملة ، وانخفاض التوسع الرأسي والأفقي للأراضي الزراعية . وكان هذا في فترة الخمسينات.

٢ - النتائج الديموغرافية :

حيث أدت الهجرة وتؤدي إلى خلل في التوزيع الجغرافي والديموغرافي للسكان بين المدينة والريف . وعدم وجود توزيع جغرافي مناسب للسكان وزيادة نسبة الذكور على الإناث في المدن وخاصة في مدن العواصم والمدن الكبرى . مثل دمشق وحلب والإسكندرية والقاهرة ونواكشوط والجزائر وتونس ، وبغداد وعمان . وغيرها من المدن وخاصة ذوي الأعمار ٢٠-٣٩سنة

، ويؤدي هذا الانخفاض فئات الأعمار الشابة في الريف وأدى ذلك لإحداث عدم اتساق في الهرم العمري النوعي للسكان .

٣- النتائج الاجتماعية :

وتتمثل في إفراغ العديد من التجمعات السكانية والأحياء من سكانها . وارتفاع نسبة البطالة في المدن . وخاصة في مجتمعات الضواحي . إذ يتجمعون في الساحات العامة طلباً للعمل . أو إنهم قد يهاجرون خارج البلاد للبحث عن العمل في بلدان عربية أخرى .

وكذلك تؤدي لنشوء مشكلات عديدة اجتماعية واقتصادية أخرى سبق وإن تم ذكرها وارتفاع معدلات الإعالة .

ومن النتائج الأخرى نشوء المدن المهيمنة اقتصادياً وإدارياً على حساب المدن الأخرى حيث يزداد عدد سكانها وترتفع الكثافة السكانية . ونشوء ظاهرة الأحياء الشعبية ، وتضم المدن كما ذكر سابقاً بشكل مفصل .

الهجرة الخارجية :

تعرض المجتمع العربي لعدة أنواع من الهجرة الخارجية وتمثل ذلك بما يلي :

أولاً- الهجرة الخارجية من الوطن العربي إلى مختلف بلدان العالم :

وذلك بقصد العمل، وسميت باسم هجرة الاغتراب ، وخاصة إلى الأمريكيتين وإلى أوروبا وأستراليا . وذلك نتيجة الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي عاشها الإنسان العربي في ظل الاحتلالات الأجنبية المختلفة منذ الاحتلال العثماني للوطن العربي واتباع الأتراك سياسة التتريك والضغط الذي مارسه هؤلاء على المثقفين والثوريين وأصحاب الكفاءات العلمية، وكذلك في فترة الاستعمار الغربي – الفرنسي والبريطاني والإيطالي.

وقد أقام المغتربون قرب بعضهم البعض ، وبشكل جماعي وأحياناً في أحياء

واحـــدة في المـــدن الـــتي هاجـــروا إليها على شكل جاليات عربية ، وأنشأوا النوادي والجمعـــيات القومـــية الـــتوجه للدفـــاع عـــن القضايا القومية العربية، وتسلم قسم منهم ، مسؤوليات كبيرة في تلك البلدان ، ويتوزع هؤلاء جغرافياً كما يلي :

١- الهجرة إلى الأمريكيتين :

قـــدر عـــدد المهاجـــرين العـــرب عام ١٩٨٤م بحوالى ١٠,٥٠٦٠٠٠ مهاجر يـــتوزعون في كـــل مـــن الولايـــات المتحدة الأمريكية والبرازيل والأرجنتين وفنزويلا وتشـــيلي وكولومبـــيا والمكســـيك وكندا وبوليفيا وكوبا والإكوادور وهاييتي والبيرو والأورغـــواي وبوروغـــواي، وغواتـــيمالا وبـــناما ، وقدر عدد المهاجرين من سورية ٤,٧٥٣٠٠٠ نســـمة ، ومـــن لبـــنان ٤,٩٢٠٠٠٠ نســـمة ومـــن البلدان العربية الأخرى ٨,٣٣٠٠٠ .

وتـــدل الدراســـات أن الهجـــرة العربـــية قد بدأت إلى أمريكا اللاتينية منذ عام ١٨٣٣م إلى الأرجنـــتين وإلى الـــبرازيل عـــام ١٨٦٠م، وإلى الولايـــات المتحدة عام ١٨٧٨م ثم تلـــتها الهجـــرات الأخـــرى في القرن العشرين وذلك للأسباب المذكورة ســـابقاً والهجـــرة إلى القـــارات الأخرى فإلى إفريقيا هاجرت أعداد كبيرة من العرب عـــلى شـــكل مجموعـــات ، وخـــلال فـــترات مختلفة وخاصة إلى جنوب شرق إفريقيا وإلى ســـواحلها ،وامـــتدت مـــنذ القـــرن التاســـع عشر إلى القرن العشرين وخاصة إلى تنزانـــيا وكينـــيا وغانـــا ونـــيجيريا وســـيراليون والنـــيجر وقـــدر عددها بحوالى ٢٠٠,٠٠٠ مهاجر خلال تلك الفترة .

الهجـــرة إلـــى كـــل مـــن أوروبـــا وأستراليا: كانت على شكل مجموعـــات مـــتلاحقة، وقـــد بـــدأت هـــذه الهجرة منذ عام ١٨٨٠، وبلغ حجمها حـــوالى ٣٠٠,٠٠٠ نســـمة إلى اســـتراليا في القرن الماضي ، أما إلى أوربا فقد شكل العـــرب جاليـــة كـــبيرة قـــدر عددها عام ١٩٨٢ بحوالى ١,٨ مليون نسمة والنسبة

الكبيرة منها إلى فرنسا وذلك بسبب فتح أبواب الهجرة والتجنس من قبل فرنسا وخاصة من بلدان المغرب العربي كونها كانت تستعمر تلك البلدان من الجزائر وتونس والمغرب، وعمل هؤلاء في مجالات مختلفة في الصناعة والخدمات والتجارة وأعمال إدارية عديدة ، وبلغ عدد الجزائريين في فرنسا عام ١٩٧٠م ٦٣٥,٠٠٠ نسمة ، ويقدر حجم الجاليات العربية في أوروبا وأمريكيا حالياً بحوالى ١٠ مليون نسمة (تقدير عام ٢٠٠٢).

وهنالك هجرات عربية إلى القارة الآسيوية وخاصة إلى الصين والهند بقصد العمل ، وإلى جنوب شرق آسيا بقصد التجارة .

ثانياً- الهجرات الأجنبية الوافدة :

تعد الهجرة الصهيونية إلى فلسطين من أخطر هذه الهجرات حيث أدت إلى اغتصاب فلسطين العربية من الصهاينة ، وبدعم من بريطانيا والدول الاستعمارية الغربية ، وقد توالت هجرات الصهاينة منذ عام ١٨٩٧ وعلى شكل موجات متلاحقة . وبدأت الموجة الأولى منذ عام ١٨٨٠م حتى عام ١٩٤٨م ونجم عنها اغتصاب فلسطين بعد أن قام الصهاينة بارتكاب الجرائم والقتل والتشريد للفلسطينيين العرب ، وطردوهم من أراضيهم بقوة السلاح ، وقدر عدد الصهاينة عام ١٩٦٨ بحوالى ٢,٤٣٤,٨٠٠نسمة يهودي ، واستمرت الهجرة الصهيونية بعد عام ١٩٤٨م على شكل موجات متلاحقة . ثم بعد عام ١٩٩٠م وانهيار الاتحاد السوفييتي من أوروبا الشرقية إلى فلسطين .

هجرة الكفاءات العربية:

يشكل انتقال قسم من ذوي الكفاءات العلمية إلى خارج الوطن العربي وبشكل دائم ظاهرة ديموغرافية واقتصادية واجتماعية وعلمية ذات مخاطر كبيرة على واقع المجتمع العربي ، أطلق عليها اسم هجرة الكفاءات العربية ، وبعضهم أسماها هجرة الأدمغة أو هجرة العقول . وخاصة إلى أمريكا وأوروبا الغربية .

وينطوي على هذه الهجرة الكثير من المخاطر والآثار السلبية ، إذ يفقد الوطن العربي قسماً كبيراً من قدراته العلمية والفكرية والإبداعية، والتي هو بحاجة ماسة إليها لتكون قادرة على بناء مجتمع متطور قادر على مجابهة التحديات والأخطار .

وكلما ازداد حجم هذا النوع من الهجرة ازدادت المخاطر الناجمة عنه ، وليس الوطن العربي وحده يعاني من هجرة العقول والأدمغة . بل إن البلدان النامية تعاني من هذه الظاهرة ، ويقدر عدد المغادرين كل عام من تلك البلدان ما يزيد على ١٢٥ ألف عالم وباحث ومتخصص ، ومن هنا فإن هذا الموضوع يكتسب أهمية كبيرة خاصة بالنسبة للوطن العربي.

وقد مرت هذه الهجرة مراحل تاريخية عديدة ، وخاصة منذ العصر العباسي ومروراً بالمراحل التاريخية التالية .. وما تعرض له العلماء والباحثون من ضغوط أيام الاحتلالات الأجنبية .. والغزو المغولي للوطن العربي وأيام الاحتلال العثماني حيث تم نقل الصناع والمهرة وأصحاب الفكر العلمي إلى خارج حدود الوطن العربي إلى الآستانة ، وذلك للاستفادة من خبراتهم ولحرمان الوطن العربي منهم ، ولجأ قسم منهم للهروب من بطش الاحتلال العثماني والاستعمار الغربي ، وخاصة إلى الأمريكيتين .

وأما المرحلة الثانية فقد امتدت بين الحربين العالمية الأولى والثانية ، وذلك للأسباب السابقة الذكر . وللبحث عن ظروف حياتية ومعيشية أفضل إبان فترة

الاستعمار الغربي للوطن العربي ، وتوجهت الهجرات إلى أوروبا وأمريكا.

أما عن أسباب هذه الهجرة ، فهي عديدة ، وتتمثل في متابعة الدراسة والبحث العلمي والطموح لدى الكثيرين للحصول على المؤهلات العلمية العليا ، وهي أسباب اجتماعية ، منها انعدام وجود الوسائل العلمية والتقنيات الحديثة وغياب يتوافر المناخ العلمي المناسب في العديد من البلدان العربية ، وتفضيل الخبير الأجنبي على الاختصاصي والخبير العربي ، بالإضافة إلى الزواج من أجنبية للعديد من الأشخاص الذين ذهبوا للدراسة والتخصص .

وعدم وجود التخطيط القومي الشامل لحل هذه المشكلات. وهنالك أسباب جاذبة لهم . وهي أسباب اقتصادية والإغراءات المالية التي تقدمها تلك البلدان ، ومنحهم الجنسية ، وتقديم التسهيلات لقدومهم والسياسة الاستعمارية التي تنتهجها تلك البلدان لتجريد العرب من قواهم الفكرية والعلمية وذلك لتسهل السيطرة عليهم.

حجم الكفاءات العربية المهاجرة :

تشير الإحصائيات التي تم الحصول عليها وفق التقديرات بأن الكفاءات العربية التي غادرت الوطن العربي منذ عام ١٩٥٠م قد ازداد حجمها .

وبينما كانت عام ١٩٥٠ - ٧٥٠٠ باحث ومتخصص ،

أصبحت عام ١٩٩٠ -١٦٠ ألف ، وعام ١٩٩٨ - ٢٠٠ ألف باحث ومتخصص .

وعام ٢٠٠٣ - ٢٢٥ ألف باحث ومتخصص .

في مجالات العلوم كافة من مهندسين وعلوم طبية وعلوم طبيعية وتطبيقية أساسية ومن مختلف الاختصاصات .

أما عن البلدان المصدرة فهي أنحاء البلدان العربية كافة وتوزع هؤلاء جغرافياً بين أنحاء البلدان النامية في أمريكا وأوروبا .

وكانت لهذه الهجرة نتائج اجتماعية واقتصادية كبيرة على الوطن العربي، حيث يفقد الوطن العربي قسماً كبيراً من قدراته العلمية والتكنولوجية، وتصبح القدرة على حل المشكلات الاجتماعية والاقتصادية محدودة ، على الرغم من وجود أعداد مضاعفة للرقم السابق في الوطن العربي يقومون بأعمالهم ويمارسون تخصصاتهم المختلفة .

بالإضافة إلى ضعف وتيرة العمل العلمي العربي والخسائر المالية المختلفة ومرور الزمن الكبير لتجهيز تلك الخبرات.. وتشير الدراسات إلى أن حوالى ٦٠ ألف طالب ذهبوا للدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية، ولم يعودوا إلى بلدانهم بعد انتهاء مدة الدراسة .

أما بالنسبة للبلدان المستقبلة لهم فهي المستفيدة من ذلك ويسهم هؤلاء بخدمة تلك البلدان ، ويقدمون لها خبراتهم العلمية . وهذا يشكل خللاً في جسم المجتمع العربي الذي يهدف نحو التقدم والتطور .

وقد خطت سورية خطوات رائدة وكبيرة في استقطاب العلماء والباحثين العلماء العرب عن طريق عقد المؤتمرات العلمية لهم والملتقيات في سورية بغية جذبهم للوطن العربي والاستفادة من تخصصاتهم العلمية .

الهجرة بين البلدان العربية :

وهي تشمل حركة الانتقال الدائمة والمؤقتة بين الأقطار العربية بقصد العمل وخاصة إلى بلدان الخليج بعد اكتشاف النفط وذلك للعمل وجلب رؤوس أموال ، وتركزت هذه الهجرة بشكل رئيسي من لبنان وسورية والأردن وفلسطين ومصر والسودان إلى بلدان الخليج والسعودية وإلى ليبيا والجزائر ، ومن بلدان المغرب العربي إلى ليبيا بقصد العمل وتأمين الدخل المناسب .

وأصبح لهذه الهجرة أهمية اقتصادية واجتماعية كبيرة بسبب ما يحصل عليه المهاجرون من أموال كثيرة يتم إرساله إلى بلدانهم ، وإقامة المشاريع الاقتصادية والاجتماعية المختلفة . ويوضح الشكل المرافق رقم (١٢) حركة انتقال الهجرة الداخلية بين الأقطار العربية.

ثالثاً - المستوى التعليمي في المجتمع العربي :

يؤثر المستوى التعليمي للسكان في درجة تطور هذا المجتمع، ويعد ذلك أحد المقاييس الهامة في ذلك ، ومن المعروف أن المراحل السابقة من حياة المجتمع العربي ، كانت تتميز بارتفاع نسبة الأمية وخاصة عندما كان التعليم مقتصراً على أبناء فئة الإقطاع والرأسمالية وغيرهم من أصحاب النفوذ ، وخصوصاً إبان الاحتلال العثماني للوطن العربي ، ويسهل على الاحتلال السيطرة على ذلك المجتمع وتعرضت اللغة العربية إلى محاولات طمسها مقابل اتباع سياسة التتريك كي تسود اللغة التركية ضمن حدود الاحتلال العثماني، لكن ذلك لم ينجح مع سياسة الاحتلال ، وبقيت اللغة العربية هي السائدة وهي الأقوى، وظهرت الجمعيات والأحزاب والأدباء والمفكرون العرب الذين دافعوا عن اللغة العربية ، وهزم الاحتلال وتحرر الوطن العربي ، ثم جاءت مرحلة الاستعمار الغربي ليعمل على تكريس التجزئة السياسية والاقتصادية ، كما ذكر سابقاً. وبقي التعليم مقتصراً على طبقة معينة ، واستمر ذلك حتى تحقق الاستقلال والتحرر من نير الاحتلال الغربي . وكانت نسبة الأمية كبيرة آنذاك .

ثم بدأت حركة التعليم تنشط، وازداد الاهتمام بذلك ، حيث تم بناء المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية ، وتم افتتاح الجامعات، وتخرج عشرات الآلاف من الطلبة. وبدأت الأمية تنحسر وعلى الرغم من ذلك فقد بقيت نسبة كبيرة منها . ولكن هنالك تفاوت في درجة التطور العلمي والتعليمي بين البلدان

العربية، وتشير الدراسات إلى أن نسبة الأمية في الوطن العربي حالياً تصل إلى حوالي[1] ٢٨% من السكان .

في سورية حدث تطور كبير في مجالات التعليم بمراحله كافة ، وتم تطبيق التعليم الإلزامي على كل من بلغ السادسة من العمر وحتى نهاية المرحلة الابتدائية وفي عام ٢٠٠٣م أصبح التعليم الإلزامي حتى نهاية المرحلة الثانية من التعليم الأساسي . أي حتى نهاية المرحلة الإعدادية بهدف رفع سوية التعليم الأساسي .

وتم افتتاح الجامعات في سورية لتصبح أربع جامعات في دمشق وحلب واللاذقية (جامعة تشرين) و جامعة البعث في حمص .

وقد تطور التعليم بشكل كبير خاصة بين أعوام ١٩٧٠ – ٢٠٠٤م وذلك بسبب تقديم الخدمات الاجتماعية والتعليمية . وصدر قانون الاستيعاب الجامعي أيضاً والذي سمح للطلاب كافة الذين حصلوا على الشهادة الثانوية الانتساب إلى جامعات القطر ومعاهده ، وكذلك مجانية التعليم ، وهذه الخطوات الهامة عملت على تطوير التعليم العالي في سورية . وللمقارنة فقد بلغ عدد طلاب الجامعات في سورية عام ١٩٧٠ – ٣٧ ألف طالب وطالبة، ليصبح عام ١٩٨٠م – ١٣٦ ألف طالب وطالبة ، ويعود هذا إلى افتتاح جامعتان جديدتين هما جامعتي تشرين والبعث والعديد من المعاهد المتوسطة العليا ، وبلغ عدد طلاب الجامعات في سورية عام ١٩٩٨-١٩٩٩ : ١٥١٥٠٢ طالب وطالبة وبلغ عدد الطلاب المسجلين في العام نفسه ٣٠٥٧٠ طالباً وطالبة ، بينما كان عدد الجامعات عام ١٩٧٠م جامعتين فقط . ويوضح ذلك الشكل رقم (١٤) .

أما بالنسبة لمرحلة الابتدائية قد كان عدد المدارس الابتدائية عام ١٩٧٠م

---

١) الأمم المتحدة : تقدير عام ٢٠٠٤م .

٥٢٦١ مدرسة ، أصبح عددها عام ١٩٩٨ – ١٠٩٩٥ مدرسة ، للأسباب السابقة الذكر. وبسبب الزيادة الكبيرة في عدد السكان من جهة ، وبسبب رعاية الحكومة واهتمامها بذلك وافتتاح المزيد من المدارس وفق خطط اجتماعية واقتصادية مناسبة لاستيعاب ذلك العدد الكبير من الطلاب وعند بلوغهم السادسة من العمر ، وهو سن الدخول للمرحلة الابتدائية.

وفي عام ١٩٧٠ كان عدد طلاب تلك المرحلة الابتدائية ٨٤٥ ألف طالب وطالبة، بينما أصبح عام ١٩٩٨ – ٢,٦٥٩ مليون طالب ويوضح ذلك الشكل رقم (١٥) ، وبلغ عدد المدارس الإعدادية والثانوية ١٩٧٠ – ٨١٣ مدرسة ، وقد بلغ عددها ١٩٩٨ – ٢٦٩٥ مدرسة للأسباب السابقة الذكر، ويوضح ذلك الشكل رقم (١٦) . وقد كان عدد طلاب تلك المرحلة آنذاك ٢١٦ ألف طالب إعدادي و٧٥ ألف طالب ثانوي ، أصبح العدد عام ١٩٩٨ – ٧٣٨ ألف طالب وطالبة إعدادي، و١٥٢ ألف طالب وطالبة ثانوي. للأسباب المذكورة سابقاً .

وكذلك تطور التعليم المهني والفني كثيراً في سورية حيث ازداد عدد المدارس الثانوية ، وهذه مؤشرات هامة على تطور التعليم في سورية . أما بالنسبة للبلدان العربية الأخرى فقد حصل فيها تطور في مجالات مختلفة . ففي لبنان مثلاً تطور التعليم كثيراً بمراحله كافة ، وتعاني أغلب بلدان الوطن العربي من الأمية . ولكن تختلف النسب في ذلك . وتشير الإحصائيات إلى أن نسبة الأمية في العراق كانت تشكل ٨١,٧% من السكان في عام ١٩٧٥م ثم انخفضت بحدود ١١,٨%[1] في فترة عشر السنوات التالية، وفي مصر بلغ عدد

---

١) د. فاضل الأنصاري – الجغرافية الاجتماعية – نشر جامعة دمشق – ١٩٩٠ – ١٩٩١ – ص٤٤٤ .

الأطفال في سن التعليم الابتدائي عام ١٩٧١-٩ ملايين طفل، ولم تستوعب المدارس الابتدائية منهم سوى ٤٢% من المجموع العام فقط، وترتفع نسبة الأمية في العديد من بلدان الوطن العربي مثل السودان واليمن وبلدان الخليج والصومال وفي المغرب العربي وموريتانيا.

Damascus University

شكل رقم (١٤): تطور عدد طلاب الجامعات السوريين بين أعوام ١٩٧٠-١٩٩٩

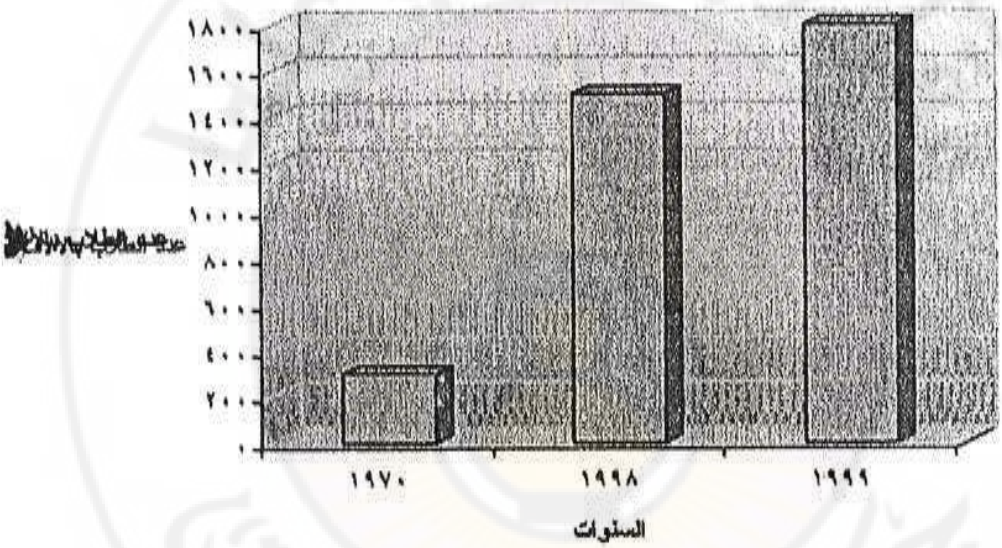

شكل رقم (١٦) : تطور عدد المدارس الإعدادية والثانوية بين أعوام ١٩٧٠-١٩٩٨

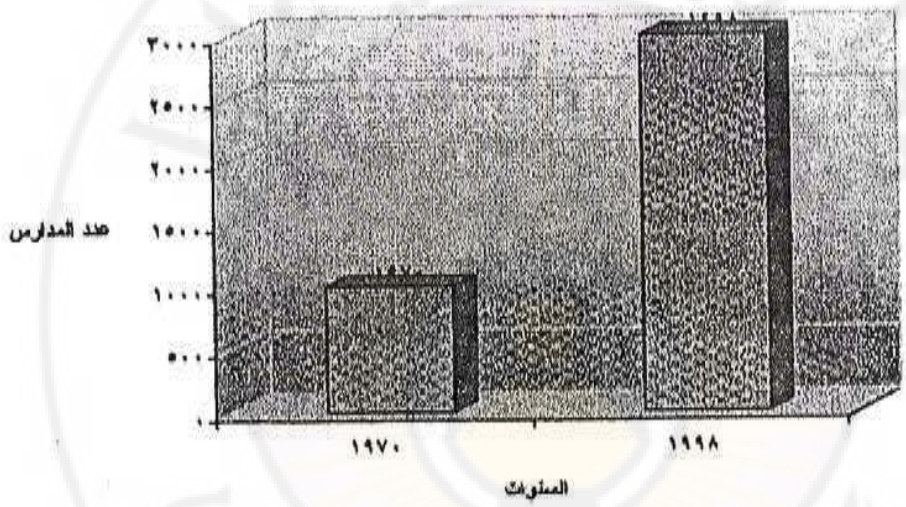

الأمية في الوطن العربي :

بلغ عدد الأميين في الوطن العربي عام ١٩٨٠م – ٣٥,٧٩ مليون نسمة، أي كانوا يشكلون ٥١,٣% من السكان آنذاك أما تفسير ذلك فهو عدم استيعاب المدارس الموجودة لإعداد السكان المتزايدة ، وارتفاع تكاليف التعليم في العديد من الأقطار العربية ، وعدم وجود خطة تعليمية كافية لاستيعاب ذلك العدد في ظل التزايد السكاني الكبير، وكون نسبة كبيرة من الأميين هم من كبار السن فوق أعمار ٣٥-٣٤ سنة ، وكون نسبة كبيرة منهم من الإناث . حيث ترتفع نسبة الإناث الأميات بشكل كبير حتى تكاد تصل إلى ٩٥% من مجموع الإناث في كثير من البلدان العربية ، والسبب الرئيسي في ذلك عدم وجود قوانين للتعليم الإلزامي آنذاك في أنحاء الوطن العربي .

وتدل الإحصائيات في عام ٢٠٠٤ أن عدد الأميين بلغ ٧٠ مليون نسمة[1]. أي حوالى ٢٨% من سكان الوطن العربي . وذلك بسبب الزيادة الهائلة في عدد سكان الوطن العربي . يوضح ذلك الشكل رقم (١٧) يبين ذلك

ويجب التنويه إلى أن نسبة الأمية قد انخفضت لكن سبب ارتفاع العدد هو الزيادة في عدد السكان والذي بلغ عام ٢٠٠٣ حوالى ٣٠٠ مليون نسمة .

رابعاً – التنمية الصحية في المجتمع العربي :

تطور المستوى الصحي للمجتمع العربي بشكل كبير ، فلم تعد هنالك أمراض فتاكة سارية تودي بحياة الآلاف إذ تحسن الوضع الصحي. ولكن هناك تفاوت في درجة التقدم في هذا المجال بين البلدان العربية ، يتمثل ذلك بزيادة عدد الأطباء في الاختصاصات كافة وعدد المستوصفات والمشافي وتجهيزها،

---

١) تقديرات الأمم المتحدة عام ٢٠٠٤م .

ومراكـــز الـــرعاية الصـــحية الأولية ، وانعكس ذلك على المتوسط العمري للفرد إذ أدى ذلـــك لارتفـــاع المتوســـط العربي للسكان . وتشير الإحصائيات إلى زيادة عدد الأطباء. والجدول التالي رقم(٦) والشكل رقم(١٨) يوضحان ذلك.

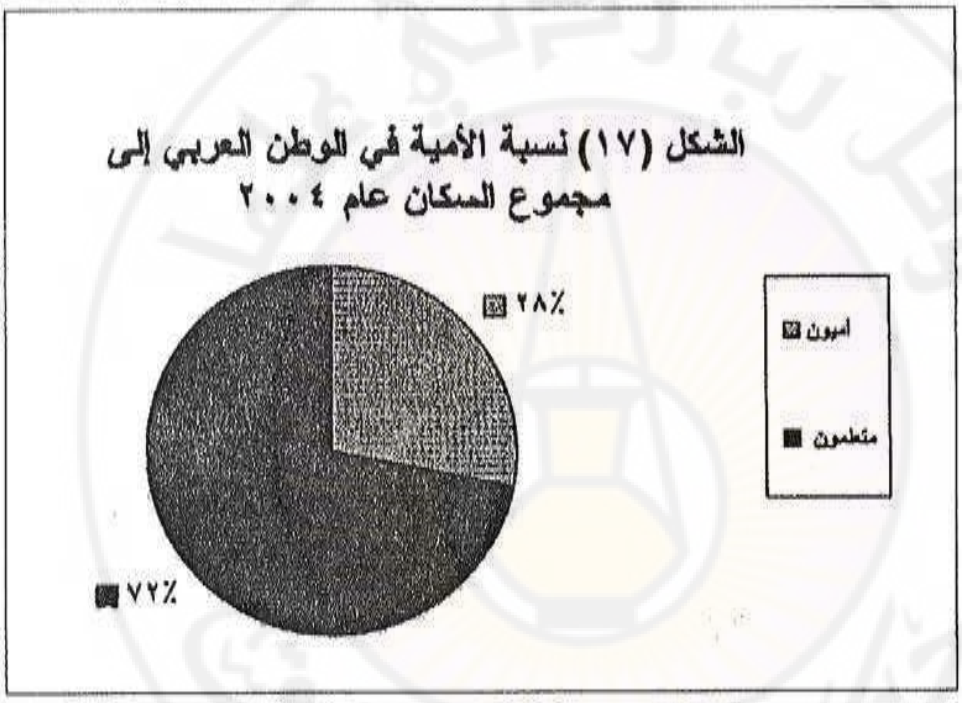

شكل رقم (١٨): عدد الأفراد مقابل كل طبيب في الوطن العربي عام ١٩٩٢

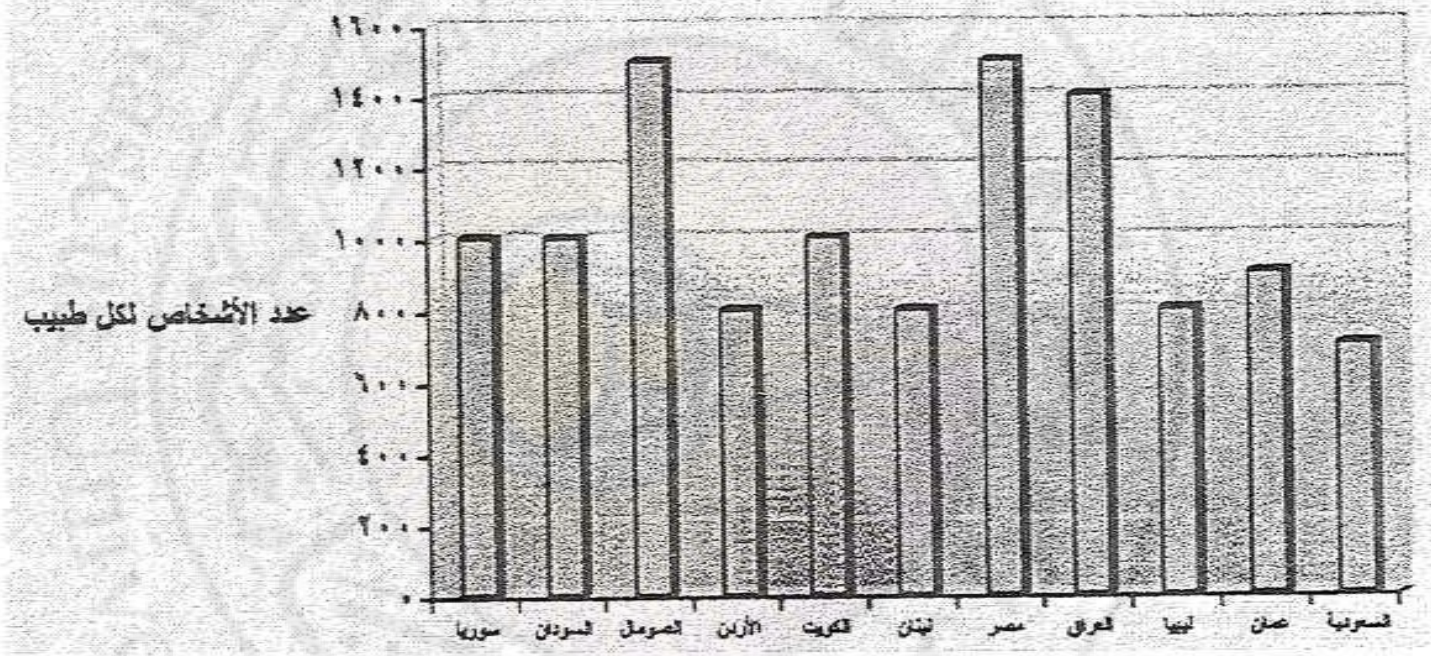

عدد الأفراد مقابل كل طبيب في الوطن العربي عام ١٩٩٢م

الجدول رقم (٦) :

الدولة	عد الأشخاص لكل طبيب
سورية	١,١٦٠ نسمة
السودان	١١١١٠ نسمة
الصومال	١٤,٢٩٠ نسمة
الأردن	٧٧٠ نسمة
الكويت	٩٦٠ نسمة
لبنان	٦٧٠ نسمة
مصر	١٣٢٠ نسمة
العراق	١,٨١ نسمة
ليبيا	٦٩٠ نسمة
عمان	١٠٦٠ نسمة
السعودية	٦٦٠ نسمة

المصدر : تقرير صادر عن الأمم المتحدة عام ١٩٩٤م – اللجنة الاقتصادية لغرب آسيا – دمشق.

ويستنتج من الجدول السابق أن عدد الأفراد مقابل كل طبيب يختلف بين دولة وأخرى ، وذلك بسبب التباين في عدد الأطباء من جهة ، وبسبب التباين في مستوى دخل السكان . ولكن يلاحظ أن الصومال هي أكبر دولة من حيث زيادة عدد السكان مقابل كل طبيب إذ تصل إلى ١٤,٢٩٠ نسمة وهذا عدد كبير من الأفراد وذلك بسبب النقص في عدد أطباء الصحة العامة . وأقلها في السعودية إذا تصل إلى ٦٦٠ نسمة ويعود ذلك للتعاقد مع عدد من الأطباء للعمل في السعودية، ووجود الأطباء السعوديين أيضا الذين تخصصوا في مختلف الجامعات.

ويمكن تصنيف الوطن العربي إلى مجموعتين، مجموعة يزيد فيها عدد الأطباء مثل سورية ، والأردن ولبنان وليبيا والسعودية . وهي تساوي طبياً لأقل من ١٠٠٠ نسمة ، وبلدان أخرى طبيب لأكثر من ١٠٠٠ نسمة مثل السودان والصومال واليمن وعمان وغيرها للأسباب السابقة الذكر .

وبالنسبة لسورية فقد تطور القطاع الصحي كثيراً منذ عام ١٩٧٠ – فقد كان عدد أطباء الصحة العامة ١٦٢٣ طبيباً وكان متوسط عدد سكان ٣٨٥٦ لكل طبيب ، أصبح في عام ١٩٨٠– ٢٣١٤ نسمة مقابل كل طبيب ، وعام ١٩٩١ ١٠٦١ نسمة مقابل كل طبيب ، وأصبح في عام ١٩٩٨– ٧٤٦ نسمة لكل طبيب، بينما بلغ عدد الأطباء في ذلك العام ٢٠٨٨٨ طبيباً . ومن خلال المقارنة نجد أن الزيادة قد بلغت – ١٩٢٦٥ طبيباً خلال تلك الفترة، وذلك بسبب زيادة عدد الخريجين من الجامعات السورية في اختصاص أطباء الصحة العامة، وبلغ عدد المشافي والمصحات عام ١٩٧٠– ٨١ مشفى ومصحاً ، بينما أصبح العدد عام ١٩٩٨– ٣٥٣ مشفى ومصحاً، ويوضح ذلك الشكلان رقم (١٩–٢٠)، حيث تم افتتاح أحدى المشافي العامة وتم تجهيزها بأحدث الأجهزة العلمية والتقنية. مثل مشفى الأسد الجامعي، ومشفى الأطفال، والمواساة، والمجتهد، وغيرها من

شكل رقم (١٩): تطور عدد الأفراد لكل طبيب في سورية بين أعوام ١٩٧٠-١٩٩٨

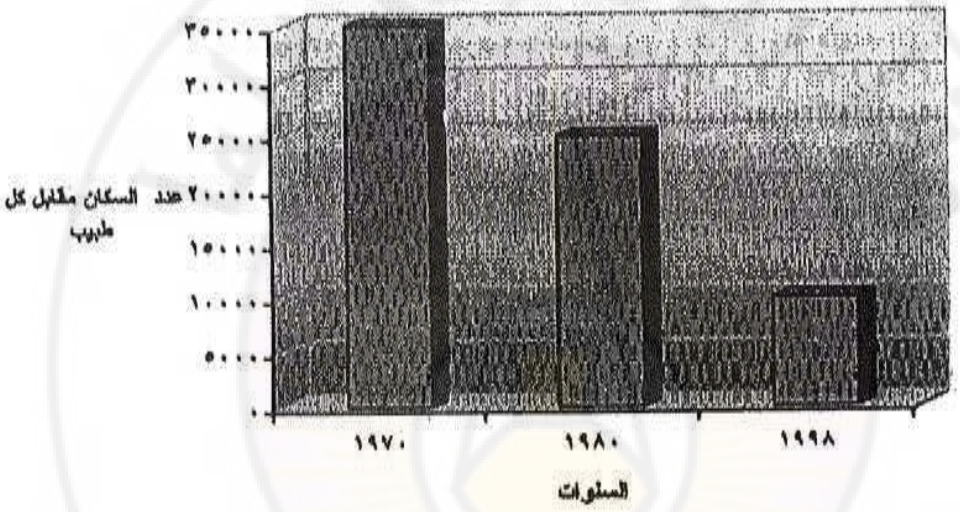

شكل رقم (٢٠): تطور عدد المشافي بين أعوام ١٩٧٠-١٩٩٨

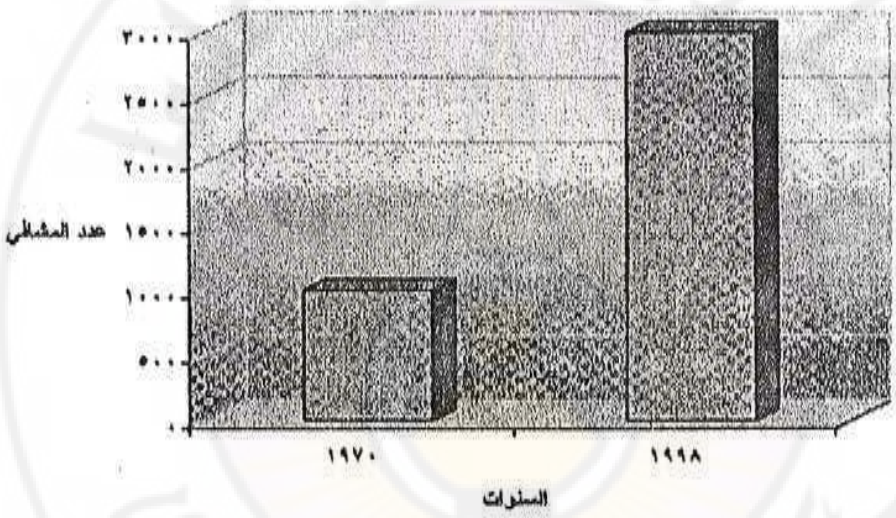

Damascus University

المشافي العامة والخاصة . ومن مؤشرات التطور الصحي في سورية كذلك زيادة عدد الصيادلة إذ كان العدد عام ١٩٧٠- ١٠٩٩- صيدلياً - فقد بلغ العدد عام ١٩٩٨ - ٧٩٣٦ صيدلياً وكذلك الأمر بالنسبة للباقي في أنحاء الوطن العربي . إذ تحسن المستوى الصحي بشكل كبير .

خامساً- تنمية الخدمات :

تطور المستوى الخدماتي للسكان في الوطن العربي ، وتم تأمين الخدمات للسكان، وتمثل ذلك في تطور البنية التمنية من طرقات معبدة ، وبناء المراكز الثقافية ، ودور النشر ، والمهرجانات الثقافية ، وكذلك بناء الحدائق ، والملاعب والجسور ، والتسوق ، والنوادي ، ومكافحة التلوث البيئي ، وغيرها في مختلف العواصم والمدن العربية .

سادساً- التنمية الاعلامية :

تطور الإعلام كثيراً والذي يعد أحد مقاييس التطور الاجتماعي : من تلفزيون، وإذاعة وصحف، ومجلات، ودور النشر العامة والخاصة ، والمكتبات، والفضائيات التي أصبحت موجودة في التجمعات السكانية كافة تقريباً.

وكذلك انتشار المعلوماتية، ووسائل الاتصال الحديثة السلكية واللاسلكية، والهاتف النقال - وغيره من وسائل الاتصال الحديثة عبر الانترنيت والعديد من وسائل خدمة المجتمع وهذا بسبب التطور الحاصل في العالم . حيث يعيش العالم ثورة علمية تكنولوجية . واستخدام تلك الوسائل من معظم أفراد المجتمع العربي، وهذه كلها مظاهر تطور في مجتمع الوطن العربي .

سادساً- التنمية الاقتصادية :

تتميز التنمية الاقتصادية بتطورها، وتشمل الواقع الاقتصادي، وتوزع السكان على الأنشطة الاقتصادية وعلى الفعاليات الاقتصادية، تشير الاحصائيات إلى أن السكان يتوزعون على مختلف الفعاليات الاقتصادية وهي :

١- الفعالية الأولى

وتشمل الزراعة والرعي وصيد الأسماك والصيد البري والعاملين في قطع الأخشاب والأعمال التي تتبع هذا الجانب كافة وتبلغ نسبتهم ٣٥ % .

٢- الفعالية الثانية

وتشمل العمل في القطاع الصناعي وحقول النفط، والذين يعملون بقطاع الانشاءات والبناء، ويعمل بها نسبة كبيرة من السكان وخاصة حول المدن الكبرى في الوطن العربي . وكذلك الذين يعملون في مدن النفط كما هو الحال في بلدان الخليج و السعودية وليبيا و الجزائر و المدن النفطية. ويتميز بارتفاع دخل العاملين في هذا المجال . وتبلغ نسبة العاملين في هذه الفعالية حوالى ١٥%

٣- الفعالية الثالثة

وهم العاملون في قطاعات التجارة والخدمات والبنوك، والمطاعم والفنادق والإدارة والموظفين - والذين يعملون بمهن الطب والمحاماة والصيدلة و التعليم وتبلغ نسبتهم أكبر من مجموع السكان، وينحصر التركيب العمري لهؤلاء السكان جميعاً بين نسبة أعمار١٨-٦٠سنة . وهذا هو سن العمل. أما الذين هم دون ١٨ سنة فهم الطلاب و خاصة في المرحلة الثانوية. وترتفع الولادات والخصوبة السكانية وعدم التقييد بوسائل تنظيم الأسرة.

وأما الذين فوق سن ٦٠ سنة فهم الذين بلغوا سن التقاعد، ولا يدخل هؤلاء ضمن أي فعالية اقتصادية، وتبلغ نسبة هؤلاء حوالى ٢٥% من السكان ممن هم دون سن ١٨ وأكثر من٦٠ سنة.

ومـــن المظاهـــر والمشـــكلات الاقتصـــادية والاجتماعية التي بحاجة إلى حلول في المجـــتمع الوطـــن العـــربي مشـــكلة البطالة التي ازداد حجمها كثيراً بشكليها الظاهر والمقـــنع والجـــزئي وذلـــك بســـبب الانفجار السكاني من جهة وبسبب عدم وجود مجـــالات عمـــل جديـــدة تستوعب ذلك العدد الكبير من السكان وخاصة من هم في ســـن العمـــل ، و أصـــبحت مـــدن الوطن العربي ومجتمعاته السكانية تغص بالأعداد المـــتزايدة مـــن العـــاطلين عـــن العمـــل والذيـــن يبحـــثون عـــن العمـــل ولا يجدونـــه ، وخاصـــة مـــن ذوي الكفـــاءات العلمـــية وحملة الشهادات . أي إن المجـــتمع العـــربي يعـــاني مـــن بطالـــة المثقفين ، وكذلك الأمر بالنسبة للذين يعملون بشـــكل مـــياوم . ومـــن مظاهـــر تلك البطالة أيضاً العمل الجزئي و المتقطع والعمل الموسمـــي والعمـــل المـــياوم . وتـــدني نسبة الأجور و الدخل ،وهذه المظاهر لكثير من المشـــكلات الاجتماعـــية الـــتي يعـــاني منها الكثير من السكان والأسر والتي تقود إلى الطـــلاق وأشـــكال أخـــرى مـــن المظاهر السلبية وارتفاع معدلات الإعالة في الأسرة الواحـــدة ، حيـــث هـــناك شـــخص يعمـــل بين ٧-١٠ أشخاص من أفراد الأسرة وهم لا يعملون .

سابعاً- دور المرأة في النشاط الاجتماعي والاقتصادي :

تـــنخفض نســـبة دور المـــرأة في النشاط العام الاجتماعي والاقتصادي في الوطن العـــربي، ويعـــود ذلـــك لأســـباب عديدة منها العادات والتقاليد والعوامل التاريخية ، وحيـــث اعـــتادت ســـابقاً أن تـــبقى في البيـــت ، ولكـــن مـــع مرور الزمن وخلال الخمســـين ســـنة الماضـــية تطور دورها، و اصبحت تسهم في مختلف مجالات الأنشطة الاجتماعـــية والاقتصـــادية ، عـــلماً بـــأن نســـبتها تـــزيد على ٥١ % من مجموع الســـكان ، ودخلـــت مـــيدان التعلـــيم ونالت الشهادة العلمية – وأصبح لها تنظيمها الـــنقابي، وأصـــبح لـــلمرأة العربية دورها الهام والبارز . وأصبحت الطبيبة والمهندسة والمعـــلمة والحقوقـــية والقاضـــية وتســـلمت مهـــام ادارية – ودخلت ميدان العمل

المهني في المؤسسات والشركات والمعامل والمصانع ، واتبعت دورات محو أمية . ولكن تختلف بلدان الوطن العربي من حيث درجةمساهمة المرأة في تلك الأنشطة، ويمكن تصنيف تلك البلدان .

بأن هنالك بلداناً ترتفع فيها نسبة مشاركة في النشاط السابق الذكر وهي سورية ولبنان ومصر – والمغرب – والجزائر – وتونس وبلداناً تنخفض فيها تلك النسبة وهي باقي تلك البلدان .

ففي سورية . تطور دور المرأة منذ عام ١٩٧٠ في تنمية المجتمع . حيث صدر المرسوم التشريعي رقم (٦)[١] لعام ١٩٨٤ والذي رفع إجازة الأمومة من ٦٠ يوماً إلى ٧٥ يوماً ، وقد كانت نسبة النساء العاملات عام١٩٧٠–٨,٢ %[٢] من مجموع القوى العاملة .

وأصبحت النسبة عام ١٩٧٤– ١١,٤ % . أما في عام ١٩٧٩ فقد وصلت النسبة إلى ٢٥ %وقد توزعت هذه النسبة كمايلي ٥١ % في مجال الزراعة ، و ١٦ % في مجال الصناعة و٢٦ % في مجال الخدمات و ٧ % في قطاعات اقتصادية أخرى . وحتى عام ٢٠٠٠– تضاعفت تلك النسبة حيث وصلت ٤٠% والشكل رقم (٢١) يبين ذلك .

وفي مجال محو الأمية صدر في سورية القانون رقم –٧– عام ١٩٧٢– والذي تضمن طرق الحماية من الأمية ، وتم إحداث المجلس الأعلى لمحو الأمية، وكيفية اتخاذ الطرق المناسبة لمحو الأمية ، واتبعت النساء دورات عديدة لمحو الأمية (ربات المنازل) بالإضافة لقانون التعليم الالزامي في سورية الذي يلزم الآباء والأمهات بتسجيل أولادهم في المدارس ذكوراً وإناثاً لمن بلغ من العمر ٦ سنوات .

---

١) المرسوم التشريعي رقم ٦– لعام ١٩٨٤ في الجمهورية العربية السورية .

٢) سورية اليوم – إصدار وزارة الإعلام في الجمهورية العربية السورية – ١٩٨٥ – ص ٣٦

شكل رقم (٢١) : تطور نسبة المرأة العاملة في سورية بين الأعوام ١٩٧٤-١٩٧٩-٢٠٠٤

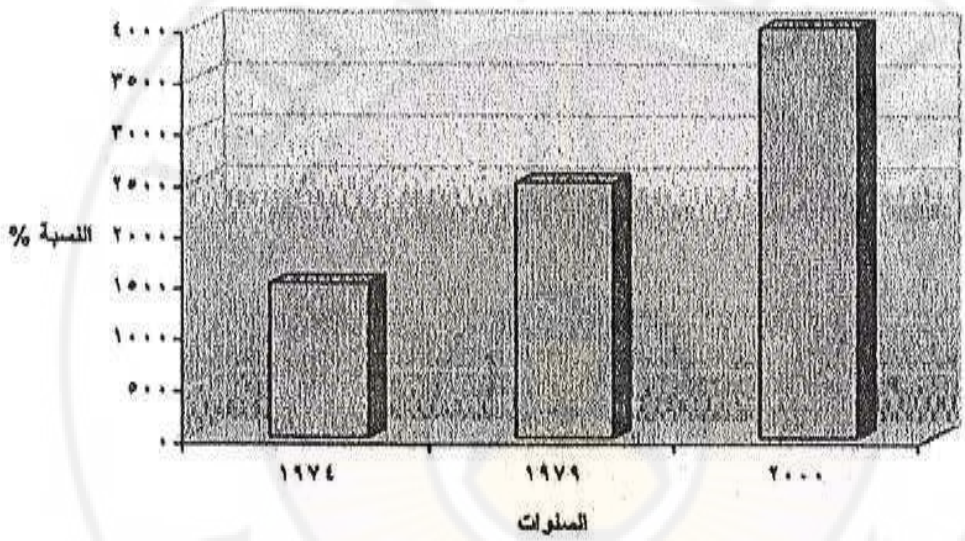

وفي سورية صدر المرسوم التشريعي عام ١٩٧٧ والذي يعطي للمرأة حق التعويض العائلي عن أولادها إذا كانت أرملة أو مطلقة إذا كان زوجها لا يتقاضى تعويضاً عائلياً من الدولة . ونصت المادة ٤٥ من الدستور على حق المرأة بأن تنال حقوقها كاملة . وهي كما يلي[1] :

(تكفل الدولة للمرأة جميع الفرص التي تتيح لها المساهمة الفعالة والكاملة في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، تعمل على إزالة القيود التي تمنع تطورها ومشاركتها في بناء المجتمع العربي الاشتراكي الموحد) .

وترجمة لذلك شاركت المرأة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والثقافية والأكاديمية . فقد أصبحت المرأة وزيرة وعضواً في مجلس الشعب وفي المنظمات الشعبية (الاتحاد العام النسائي) وقاضية ، ومحامية ، ومدرّسة ، وأستاذه في الجامعة ، ونالت الشهادة العليا . وفي مجال التعليم بمختلف مراحلة الابتدائية . والإعدادية والثانوية والجامعات والدراسات العليا . وأصبحت مهندسة وطبيبة من خلال ذلك يتضح دور المرأة الهام في سورية وبتطور دورها كذلك يوماً بعد يوم .

وخطت العديد من البلدان العربية خطوات هامة في مجال تطوير ذلك الدور للمرأة العربية .

ثامناً- التنمية الحضرية في مجتمع الوطن العربي :

يقصد بالتنمية الحضرية الخطوات التنموية التي تتم في البلدان العربية كافة، لتحقيق التقدم والتطور ، وفق خطط مدروسة اجتماعية واقتصادية ، والتي من شأنها رفع مستوى التحضر ، سواء بالنسبة للمدينة أم بالنسبة للريف وكافة التجمعات السكانية.

---

١) الدستور السوري للجمهورية العربية السورية . المادة ٤٥ .

ويمكن تصنيف البلدان العربية حسب درجة التحضر إلى عدة مراتب ، ويدل على ذلك الجدول رقم (٧) والشكل رقم (٢٢) الذي يبين تطور التحضر بين أعوام ١٩٦٠-٢٠٠٣ في الوطن العربي ويتضح من خلال الجدول المذكور بأن مستوى التحضر قد ازداد بين أعوام ١٩٦٠ -١٩٩٢ . وذلك بسبب الهجرة المتزايدة إلى تلك المراكز الحضرية وخاصة مدن العواصم .وبسبب الزيادة الطبيعية للسكان . ويمكن تصنيف تلك البلدان كما يلي :

١- بلدان تزيد فيها نسبة التحضر على ٦٥ % وهي تشمل لبنان وسورية وليبيا والإمارات العربية المتحدة ، والسعودية والكويت والعراق وسبب ذلك نمو المدن سكانياً بسبب هجرة الداخلية والنمو الطبيعي للسكان وبسبب اكتشاف النفط واستثماره وخاصة في أقطار الخليج

٢- بلدان تبلغ نسبة التحضر فيها بين ٤٠ – ٦٥ % وتشمل بلدان الجزائر وتونس ، والمغرب ، ومصر وذلك لأسباب ذكرت سابقاً بالإضافة لتطور الريف الذي حصل في تلك البلدان .

٣- بلدان تنخفض فيها نسبة التحضر وتبلغ أقل من ٤٠ % وتشمل بلدان اليمن – الصومال – السودان وذلك بسبب ارتفاع نسبة العاملين في قطاع الرعي واعتمادهم على حياة التنقل باستمرار حيث تنتشر القبائل الرعوية في أنحاء تلك البلاد .

وتشمل التنمية الحضرية في مجتمع الوطن العربي مايلي :

١ ــ التنمية المدنية:

وتميزت بازدياد عدد سكان المدن في الوطن العربي وخاصة المدن المتوسطة والكبيرة والكبرى ، كما ازداد عدد المدن الصغيرة ومراكزالمحافظات والأقاليم ، كما تم تطبيق الخطط التمنوية في تلك المدن وخاصة الصغيرة والمتوسطة لكن المدن الكبيرة والكبرى التي يزيد عدد سكانها على مليون نسمة. فقد ازدادت فيها المشكلات الاجتماعية والاقتصادية .

وازدادت المراكز الحضرية المدنية كماً ونوعاً بشكل منظم من جهة وبشكل عفوي أحياناً أخرى ، مما نجم عنه زيادة هائلة في عدد سكان المدن بسبب الهجرة الداخلية من الريف إلى العواصم ، ومراكز المحافظات والاقاليم ، ونجم عن هذا الكثير من النتائج السلبية ونشوء مشكلات عديدة – مثل مشكلة النمو السكاني الكبير غير المنظم ، والنمو السكني العشوائي على حساب الأراضي الزراعية حول المدن ، كما هوتضخم مدينة دمشق الكبرى والتي أصبح عدد سكانها يزيد على ٥,٣ مليون نسمة وتونس والخرطوم ، وعمان ، وبيروت – والجزائر – والدار البيضاء وبغداد أكثر من ٥ ملايين نسمة وبقية العواصم العربية.

وقد أدى هذا النوع من النمو السكني العشوائي ، وبسبب الزيادة الهائلة في عدد السكان الكثير من المشكلات المعيشية والخدمية . وشكل خللاً في التنمية الحضرية وزيادة عدد المراكز الحضرية ، والطفح الريفي في مدن العواصم خاصة . وتشير الاحصائيات أن عدد سكان العواصم قد وصل إلى أكثر من ٧٠ مليون نسمة ، ويمكن تصنيف المدن والمراكز الحضرية كما يلي :

١– مدن ومراكز حضرية صغيرة بين ٢٠– ٥٠ ألف نسمة

٢– مدن ومراكز حضرية متوسطة بين ٥٠– ١٠٠ ألف نسمة

٣– مدن ومراكز حضرية كبيرة بين ١٠٠٠٠٠– ١ مليون نسمة

٤– مدن ومراكز حصرية كبرى أكثر من مليون نسمة . وتشمل كافة العواصم الكبرى في الوطن العربي تقريباً . وتشمل المدينة المركزية وضواحيها .

التحضر في الوطن العربي بين أعوام ١٩٦٠- ١٩٩٢

الجدول رقم (٧)

الدولة	نسبة التحضر عام ١٩٦٠ %	نسبة التحضر عام ١٩٩٠ %	نسبة التحضر عام ٢٠٠٣
سورية	٣٧	٥١	٦٠
مصر	٣٨	٤٤	٦٥
العراق	٤٣	٧٣	٧٥
الأردان	٤٣	٦٩	٧٢
الكويت	٧٨	٩٦	٩٨
لبنان	٤١	٨٥	٩٠
الصومال	١٧	٣٥	٥٥
اليمن	٩	٣١	٥٠
ليبيا	٢٢	٨٤	٩٠
عُمان	٧,٥	٧,٥	٤٠
السعودية	٣٠	٧٤	٨٠
المغرب	٢٩	٤٧	٦٥
تونس	٣٦	٥٧	٦٤
الامارات العربية المتحدة	٤٤	٨٢	٩٠
السودان	١٨	٢٢	٤٠
الجزائر	٣٠	٥٣	٦٠

المصدر : تقرير صادر عن الأمم المتحدة – اللجنة الاقتصادية الغربي آسيا – دمشق ١٩٩٨

الشكل رقم (٢٢) التحضر في الوطن العربي بين أعوام ١٩٦٠-١٩٩٠ -٢٠٠٣

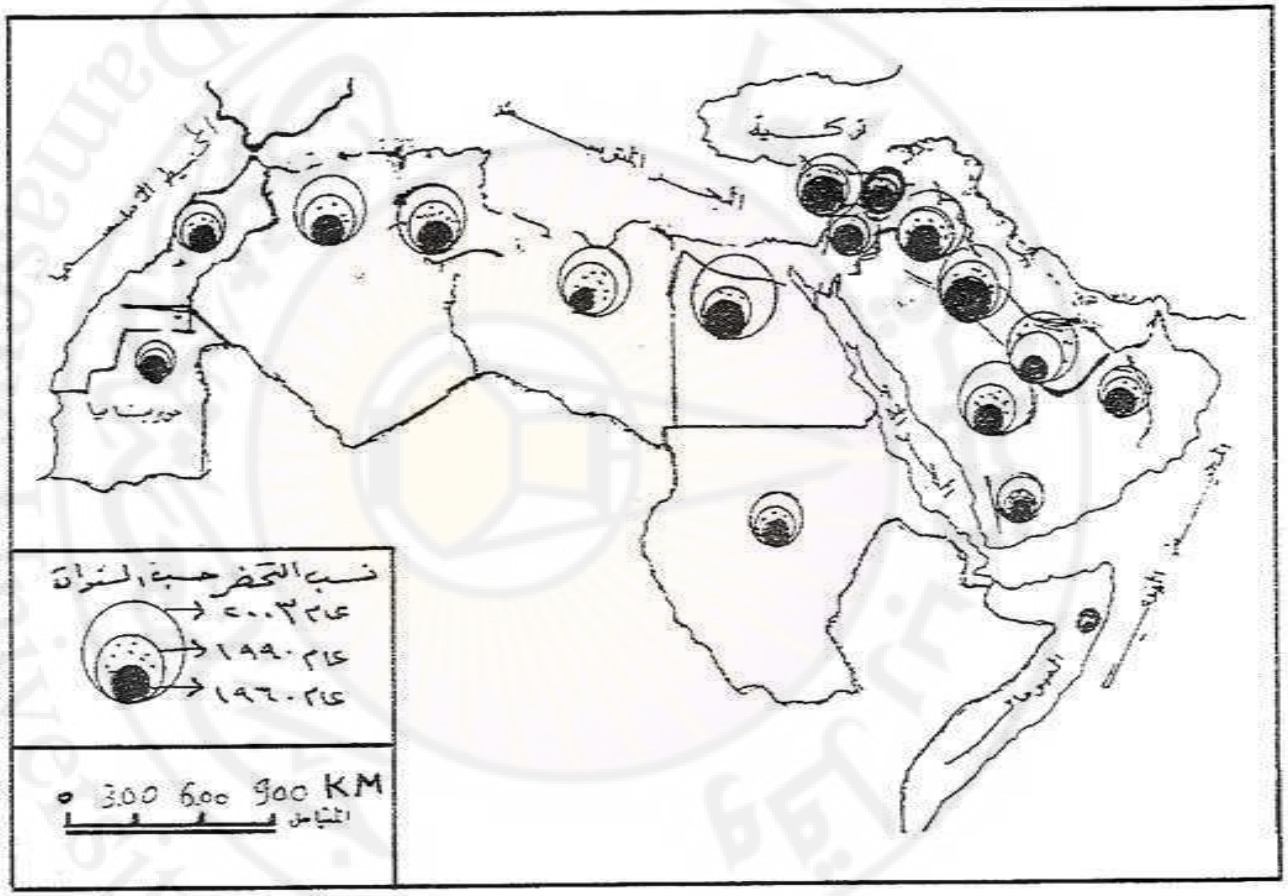

٢ـ التنمية الريفية:

تعد التنمية الريفية إحدى أوجه التنمية الاجتماعية والاقتصادية في الريف، وقد شهد الريف في الوطن العربي تطوراً كبيراً ، وتمّ تحقيق التنمية في أنحاء الريف ، ولكن هنالك تفاوت في درجة تطور الريف بين البلدان العربية، فهنالك بلدان تطور في الريف كثيراً حتى يكاد يقارب المدينة ، وهنالك ريف لم يبلغ حتى الآن درجة التطور المناسبة ، وتم تخديم الريف عموماً بالخدمات اللازمة ، من كهرباء ومياه شرب وشبكة صرف صحي ، وتعبيد الطرقات ، وإنشاء الحدائق ، وتم تزويد الريف بالمستوصفات ومراكز الرعاية الصحية الأولية . ودور الحضانة ، والمدارس الابتدائية والاعدادية والثانوية العامة والمهنية والفنية ، ومؤسسات البيع والشراء ، والمناطق الصناعية ، وتم إصدار المخططات التنظيمية التي تواكب النمو السكاني لتأمين السكن الريفي المنظم وفق أسس عمرانية ، وإقامة دورات محو أمية وخاصة لكبار السن وللاناث ، وإنشاء المنظمات الشعبية ، مثل روابط الاتحاد العام النسائي ، والجمعيات الفلاحية ، والوحدات الإرشادية الزراعية ، ووحدات إرشادية لصناعة السجاد ، والمراكز الثقافية وبعض المرافق السياحية ، والهاتف ، وتم افتتاح عيادات الأطباء، أطباء الصحة العامة ، وأطباء الأسنان ، وكافة الخدمات في هذا المجال والتي تحققت في الريف السوري ، وأدى ذلك إلى إيقاف بناء الهجرة من الريف إلى المدينة، وتلاشي الهوة بين المدينة والريف في أغلب الحالات، وكذلك توفير وسائل النقل والموصلات . وتم كذلك شق الطرق الزراعية لإيصال الانتاج الزراعي ، وتم إنشاء أسواق الهال التي تتم فيها عمليات البيع والشراء للمنتجات الزراعية ، وتم أفتتاح الأسواق الشعبية والتي تقام خلال أيام الأسبوع والتي تتم فيها أعمال البيع والشراء وتجارة الجملة والمفرق ، وتم إقامة مهرجانات التسوق السنوية وذلك بهدف تنشيط الحركة التجارية في الريف وتم إقامة مراكز إنعاش الريف في العديد من

القرى والبلدان في إنحاء الريف السوري ، وحدث تطور للريف كذلك في مصر والمغرب العربي ، ولبنان وتونس والجزائر والأردن والسعودية وبلدان عربية أخرى مثل اليمن – والسودان والعراق . أما في بلدان الخليج فإن النسبة الكبيرة من السكان تقطن في المدن . وتلك هي مؤشرات هامة على تحقيق الريفية في المجتمع العربي .

٣ـ تنمية البادية :

تعد تنمية البادية جانباً من جوانب التنمية في مجتمع الوطن العربي ، حيث أقامت البلدان العربية الكثير من المشاريع الخدمية في البادية وعلى أطراف المناطق الصحراوية ، والمناطق الهامشية ، وتمثل ذلك بتزويد تلك المناطق ، بطرق إسفلتية معبدة، ولمسافات كبيرة كما هو الحال في البادية السورية لتخديم القبائل والعشائر البدوية التي تعيش في تلك المناطق ، وتم تزويد البادية وأماكن التجمعات السكانية في البادية السورية بالمستوصفات ، والمدارس ، ومراكز الرعاية البيطرية ، وقيام أطباء الصحة العامة بجولات ميدانية على تلك التجمعات وكذلك تأمين الأعلاف المربي الأغنام وتم إيصال الكهرباء لتلك التجمعات السكانية قدر الإمكان . وتزويدهم بمياه الشرب وحفر الآبار الارتوازية لتأمين سقاية الأغنام ، وتم كذلك إقامة السدود والحفر التي تحجز المياه لتحقيق تلك الغاية، وقام سكان البادية بالتزود بالحاجات الضرورية اللازمة وأجهزة التلفزيون والراديو والهاتف في عدة حالات . كما تم تجهيز المستوصفات بالأجهزة الطبية الحديثة والمزودة بالصيدليات والأطباء الذين يقومون بمعالجة السكان.

وحقق كثير من البلدان العربية تلك الخدمات للقبائل البدوية – مثل السعودية والعراق والأردن ومصر وليبيا والجزائر والمغرب وتونس والسودان والإمارات وغيرها من البلدان، وأدى هذا لتنمية التجمعات السكانية في تلك

المناطق وتم اقتناء السيارة من قبل السكان في تلك المناطق بالإضافة لوسائل النقل التقليدية مثل الجمل والخيل وبقية الحيوانات المستخدمة للركوب .

ففي سورية ، ازداد الاهتمام بتنمية البادية وبالمجتمع الرعوي . فقد بلغ عدد السدود المنفذة في البادية السورية ٣٧ سداً[1] بحجم تخزيني ٢٢٥ مليون م ٣ لأغراض عديدة معظمها لسقاية الماشية، و ٧ مشاريع لري مساحة ٦٥٥ هكتاراً.

٤ ـ في مجال التنمية الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع العربي:

تعد التنمية البشرية، وبناء الإنسان العربي، وتحفيز قدارته الفعلية والفكرية والابداعية أحد الأركان الأساسية لبناء المجتمع العربي خلال المرحلة المقبلة ، كون الإنسان هو الذي يقود عملية التنمية الاجتماعية والاقتصادية وعلى الرغم من حصول تحولات في هذا المجال خلال النصف الثاني من القرن العشرين ، في العديد من البلدان العربية ، إلا أن هنالك العديد من البلدان مازالت بحاجة إلى المزيد من الخطوات العملية لتحقيق تطور اجتماعي شامل والتي تبدأ من الإنسان، خاصة مع النمو السكاني الكبير الذي تعرض له مجتمع الوطن العربي كما تبين ذلك سابقاً في أثناء البحث في دراسة االوضع الديموغرافي في الوطن العربي ، وتشمل تنمية الإنسان جوانب عديدة ، وهي التنمية الفكرية والثقافية والأدبية وفي مجال التنمية العلمية في مختلف مراحل التعليم ، وخاصة التعليم العالي وبكل اختصاصاته، وكذلك في مجال الفن والإعلام ، والإبداع والصحة ، وتنمية دور المرأة ، والخدمات الاجتماعية ومحو الأمية، وفي المجال الاقتصادي إيجاد مجالات عمل جديدة، والقضاء على البطالة من خلال الخطط الخمسية الاقتصادية .

---

١) د. قاسم الربداوي – سورية والتحولات الاقتصادية والاجتماعية – الجزء الأول –كتاب عام ٢٠٠٤ –ص ٤١ .

٥ ـ التنمية الفكرية والثقافية:

للتنمية الفكرية والثقافية دور بارز في تنمية العقل البشري للانسان ، وهو يشكل ركناً أساسياً لتطوير عقل الفرد والذي يمثل جزءاً هاماً من المجتمع ، ليكون لديه القدرة على العطاء والابداع ويتمثل ذلك بإنشاء المراكز الثقافية في أنحاء ريف الوطن العربي ، وتنمية تلك المؤسسات الفكرية والثقافية ، وإصدار المجلات وطباعة الكتب والدوريات كي تصبح بمتناول الأفراد ، وحماية الملكية الفكرية في المجتمع العربي ، ودعم الثقافة ، وتشجيع المؤلفين، وإحداث هيئات ومنظمات فكرية ((كما هو الحال في اتحاد الكتاب العرب)) ومحو الأمية ، وخاصة أن نسبة الأمية مرتفعة في الأقطار العربية ، وإقامة دورات ومعاهد لمحو الأمية ، ودعم المنتديات الفنية والأدبية والثقافية ، والعمل على تطوير الفكر الثقافي الانساني ، وتطوير الثقافة القومية الاشتراكية، والحفاظ على التراث القومي ودعم المثقفين والأدباء والكتاب .

٦ـ التنمية الفنية :

وتشمل تنمية القدرات الفنية في المجتمع العربي ، والتي تتمثل في دعم الفنون والفنانين مثل الفن التشكيلي والمسرح والجوانب الفنية كافة لأنها تشكل جانباً هاماً من جوانب تنمية الانسان، وكذلك إقامة المهرجانات السنمائية ، وإقامة المعارض الفنية، وإيجاد صيغة للتعاون بين الأقطار العربية في هذه المجالات وغيرها، ومنح الجوائز للمتفوقين .

٧ـ التنمية الإعلامية

تشكل التنمية الإعلامية وسيلة هامة من وسائل تطوير المجتمع العربي وخاصة بعد التقدم التكنولوجي الذي وصل إليه التقدم العلمي والبشري ، وما وصل إليه من تطور محلياً وعربياً ودولياً وخاصة بالنسبة لوسائل الاعلام من

صحف ومجلات وإذاعة وتلفزيون، وأقنية فضائية عالمية ووسائل اتصال وغيرها من وسائل الاعلام. ومن خلالها يستطيع الفرد في المجتمع العربي أن يطلع على ما يستجد في العالم كافة .

٨ ـ تنمية دور المرأة وتعميق دورها في المجتمع العربي

تشكل المرأة ما يزيد على نصف المجتمع العربي ، ولذلك لا بد من دعم دورها ، وأن تأخذ مكانها في المجتمع من تعليم ، وثقافة في أنحاء الوطن العربي بشكل أكبر.

٩ـ في مجال التنمية الحضرية :

دعم المراكز الحضرية وخاصة في أنحاء الريف وتطبيق الخطط الاجتماعية والاقتصادية . وفي هذا أهمية كبيرة وتوجيه التنمية والاقتصادية، وفي هذا أهمية كُبيرة وتوجيه التنمية لأن تترسخ أكثر في الريف والتجمعات السكانية المختلفة ، والحد من الهجرة الريفية إلى المدن، وتخفيف الضغط عن المدن الكبيرة والتي أصبحت ترزح بحمل ثقيل من السكان وخاصة مدن العواصم ويتمثل تطوير الريف بتأمين الخدمات الضرورية له من بنية مثل الطرقات ومراكز انعاش الريف ، والكهرباء والهاتف والمياه والصرف الصحي ومراكز التسوق وتنشيط حركة البيع والشراء ، وإشادة المستوصفات والمراكز الصحية والمراكز الثقافية ووسائل الترفيه والحدائق، وتنشيط الحركة الرياضية والنوادي والمدارس، وتلبية حاجة ريف الوطن العربي من تلك الخدمات .

المجتمع العربي بين الحاضر والمستقبل:

تبين من خلال الدارسة التحليلية لواقع المجتمع العربي منذ ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد وحتى الآن وكافة المراحل والظروف التي مرّ بها يمكن التوصل إلى الاستنتاجات التالية :

١- تأثر البنية الداخلية للمجتمع العربي بالتحولات المناخية والطبيعية التي حدثت في شبه الجزيرة العربية وخاصة التحول من مناخ رطب ماطر إلى مناخ صحراوي جاف قاحل، وانعكس هذا الواقع المناخي والطبيعي الجديد . من ارتفاع في الحرارة وتربة فقيرة ، والمحباس في المطر . انعكس على تصنيف جديد للمجتمع إذ أصبح هنالك مجتمعان بدوي في قلب شبه الجزيرة العربية يعتمد على الترحال والتنقل وله عاداته وتقاليده ونظامه الاجتماعي الخاص كما تبين ذلك من خلال ما سبق ، ومجتمع مستقر يعيش حول الواحات ومنابع المياه والمناطق التي تتوزع فيها كميات من الأمطار وخاصة في الجنوب وساحل البحر الأحمر . وهو مجتمع متحضر يعيش في قرى ومدن . وله أيضاً خصائصه الاجتماعية . ونظام حكم معين . وهنا يبدو التفاعل واضحاً بين الخصائص الطبيعية والخصائص الاجتماعية . كما يبدو تأثير العامل الجغرافي بكل وضوح في المجتمع العربي أي أن العامل الجغرافي الاجتماعي انعكس تماماً على البنية الداخلية للمجتمع العربي وعلى درجة تطوره . وعلى حركة السكان وتمثل ذلك بالهجرة التي حدثت في هذه المنطقة المميزة من العالم . حيث توجهت موجات الهجرات العربية السامية من شبه الجزيرة العربية التي أصبحت قاحلة جافة إلى منطقتين هامتين : هما بلاد الرافدين وبلاد الشام شمالاً وذلك بسبب توافر المياه اللازمة الصالحة للزراعة والمناخ الملائم للاستقرار في تلك المناطق والتي كانت مناطق جذب سكاني وبشري، ونشأت فيها أعرق الحضارات عبر التاريخ .

٢- كانت الخصائص الطبيعية للوطن العربي مثل الموقع والمياه الوفيرة والمناخ الملائم ، ووجوده ضمن قارتين أسية وأفريقيا واحتوائه على ثروات طبيعية باطنية مثل النفط والغاز والمعادن الأخرى . بالإضافة لتحكمه في طرق التجارة العالمية سابقاً .

قبل آلاف السنين وحالياً في القرن العشرين والحادي والعشرين . أكبر

الأثـــر في إثـــارة أطمـــاع الاحتلالات الأجنبية التي تعرض الوطن العربي لها . من قبل الكيشـــين والمـــديين ، والعيلانـــيين ، وهجمـــات شـــعوب آسية الوسطى والرعاة الذيـــن شـــكلوا جيوشـــاً غازية مثل المغول والتتر والموريين والصفويون والسلاجقة ، البديهـــيين ، والغـــزو الصـــليبي – والممالـــيك والعـــثمانين والاستعمار الغربي بكل أشـــكاله وتســـمياته وقـــد ورد ذكـــر ذلـــك في الفصـــل الأول ماضـــياً وحاضراً، وارتكبـــت تلـــك القـــوى الاســـتعمارية والاحـــتلالات جميعها أبشع الجرائم من قتل وتشـــريد ونهـــب لـــلخيرات والثروات الطبيعية تلك القوى الأجنبية التي تفهم إلالقة القـــوة فقـــط للســـيطرة الاســـتعمار الأجنبـــية ومـــن هنا يبدو أثر العامل الجغرافي الاجتماعي أيضاً في الواقع العربي وسلوكه الانساني .

٣– عـــاش المجـــتمع العـــربي حالـــتين مـــن الصراع على مر العصور والأزمان والفـــترات التاريخـــية صـــراع داخلي على السلطة وخاصة منذ ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، وتجســـد ذلـــك في العصـــر الجاهـــلي بين القبائل للسيطرة على مناطق واسعة للقبيلة وفي داخـــل المجـــتمع المســـتقر . مجـــتمع المدينـــة أو في فـــترة عصـــر الخلافة – مثل الأمويـــين العباســـيين وقـــيام حـــركات داخلـــية مـــناوئة للحكم الأموي والعباسي، ونشـــاطات فكـــرية ومذهبـــية وعســـكرية، وقيام الدويلات المستقلة . فظن المجتمع العـــربي أنـــه مجـــتمع منقســـم مشـــتت يعيش حالة التجزئة السياسية والاقتصادية، ويوضـــح ذلـــك الفصـــل الأول وهذا الوضع مهد لحالة الصراع الثاني . هو الصراع الخـــارجي مـــع الغـــزاة والطـــامعين والأعداء ، بل إن هؤلاء الغزاة الأجانب استغلوا انشـــغال المجـــتمع العـــربي في صـــراعه الداخـــلي على السلطة والنفوذ ليجهزوا عليه والأمـــثلة عـــلى ذلـــك كـــثيرة تحدثت عنها في الفصل الأول وخاصة في الفترة الثانية من الحكم العباسي .

٤– أعطـــت الفـــتوحات العربـــية في أقصـــى الوطن العربي غرباً حتى الأندلس وشـــرقاً حـــتى بـــلاد الهـــند وإلى أواسط وشرق وجنوب آسيا دوراً كبيراً للمجتمع

العباسي ، وتعد تلك الفترة عصر قوة العرب والعصر الذهبي لهم، واستطاع العرب أن ينتصروا على أكبر قوى آنذاك وهي الإمبراطورية الفارسية البيزنطية .

٥- اشتهر العرب في مختلف ميادين العلوم والفلسفة والطب والهندسة والرياضيات، ونشأت المدارس الفلسفية العربية - وفي القانون كما هو الحال في قانون حمورابي في بابل، نشوء حضارات عريقة عربية وهي الآكادية والبابلية والأشورية والكنعانية والفنيقية والأرامية وغيرها، وكان العالم ينهل من العلوم والمعرفة العربية والحضارة العربية ومن المدارس الفلسفية كما لاحظنا المعتزلة والجبرية والقدرية والمرجئة وغيرها، وظهر فلاسفة عرب كبار، وسادت في المجتمع العربي بنية طبقية تقوم على وجود طبقة السادة وطبقة العبيد ، وهناك طبقة وسط هي طبقة الصناع والتجار والموظفين في عصر الخلافات الأموية والعباسية ، وفي ظل الاحتلالات الأجنبية التي غزت الوطن العربي إنتعش النظام القبلي والاقطاعي المستغل، وظهر التمايز الطبقي بكل وضوح في تلك الفترات، بل إن المحتل الأجنبي يكرس ذلك الواقع لتسهل السيطرة عليه، ولوحظ ذلك من خلال الدارسة التحليلية في هذا الفصل وأصيب الفلاح بالارهاق والقسوة من خلال النظام الاقطاعي أو من خلال الضرائب وظهور نظام المرابع[1] أيام الحكم العثماني للوطن العربي. ويقوم هذا النظام على أن يقوم الفلاح بخدمة الاقطاعي طيلة أيام السنة مقابل أن يأخذ (ربع الإنتاج)، ويعيش بأقسى الظروف وحتى ربع الإنتاج لا يحصل عليه كاملاً فيبقى في حالة من الجوع واليأس .

يمكن عد فترة الحكم العباسي الأول فترة ازدهار وتطور فكري وعلمي متميزة، وفترة استنارة وتطور وهنالك فترات أولى مضيئة كثيرة من تاريخ

---

١) هذا النظام كان سائداً في الريف السوري - وهو نظام قديم في فترة وجود الإقطاع وفي فترة الاحتلال العثماني والفرنسي .

العرب أبرزت التطور الكبير للمجتمع العربي .

وقد عملت القوى الاستعمارية والأجنبية التي سيطرت على مقدارت العرب وخيراتهم خلال حقب تاريخية طويلة على زرع الصهيونية في فلسطين العربية قلب الوطن العربي لتكون جبهة متقدمة للقوى الاستعمارية تحركها متى تشاء، ولتعيق تحقيق الوحدة العربية. وقامت هذه القوى الاستعمارية الغربية بالعمل على تقديم المساعدة والدعم الكامل لها لتبقى عامل تهديم وتخريب وتقويض واعتداء على العرب، وعلى أي مظهر حضاري عربي ويقوم الصهاينة باحتلال الأرض ويرتكبون الجرائم وينهبون خيرات العرب ويمارسون القتل والتشريد يومياً .

وقد أصيب المجتمع العربي خلال الحقب السابقة بالإحباط من خلال ذلك الواقع والاحتلالات المتواصلة، ومن خلال محاولات التأثير على الإنسان العربي نفسياً .

وقد تحقق التحرر من الاحتلالات الأجنبية المختلفة والاستعمار على مر العصور المختلفة من خلال المقاومة البطولية للعرب في وجه الاحتلالات، وقامت الثورات التحررية ومثال على ذلك الثورات السورية لطرد المستعمر الفرنسي .

وفي المغرب العربي الجزائر وفي كل شبر عربي لم يعرف العرب الاستكانة لأي عدو أو محتل ، وشكل ذلك عامل قوة في المجتمع العربي. ومهما كانت قوة العدو وجبروته فإن مصير الاحتلال الزوال والهروب أمام ضربات المقاومة في فلسطين المحتلة وفي كل شبر عربي .

وقامت في الوطن العربي ثورات عديدة سياسية اجتماعية غيرت الواقع السياسي والاجتماعي، وغيرت الكثير من النظام الاجتماعي السياسي .

أمام هذا الواقع العربي وخلال التاريخ الطويل لا بد من وضع الحلول المستقبلية لتطوير مجتمع الوطن العربي والتي تعد ضرورية ووضع الملامح

المستقبلية لهذا المجتمع خاصة أننا نعيش عصر التكتلات الاجتماعية والاقتصادية وهذه الملامح والحلول هي :

إن المجتمع العربي بحاجة إلى مجموعة من المتطلبات الأساسية لتحقيق تطوره خصوصاً أننا نعيش في القرن الواحد والعشرين، وهذه المتطلبات والضرورات الملحة هي :

١ – القضاء على التجزئة، وتحقيق الوحدة العربية الشاملة وترسيخ مفهوم الوحدة الشعبية وذلك انطلاقاً من الحاجة الأساسية لتوحيد الطاقات العربية ، والقوى البشرية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية كافة. ويتمثل ذلك في القضاء على التجزئة بكل أشكالها وأنواعها وأبعادها . والانتقال إلى الفعل الواقعي والطبيعي كون هذه الوحدة هي الأساس في تحقيق عنصرين هامين هما . تجميع طاقات العرب من جهة، وتفعيل دور هذه الطاقات من خلال وحدة الفكر والصف والهدف من وهذا العلاج الاستراتيجي هام جداً ، والتجارب كثيرة وهذا يحقق للعرب وحدهم وقوهم .

وتجارب الشعوب غنية في هذا المجال خصوصاً أن عدد سكان الوطن العربي ٣٠٠ مليون نسمة، ويمكن أن تكون دولة واحدة بدلاً من ٢٣ دولة عربية يسهل السيطرة عليها، وتقف في وجه القوى الأجنبية الغاشمة وخاصة مع الإمكانيات الموجودة – البشرية والسياسية والعلمية والاقتصادية والفكرية ، وعند تحقق ذلك نستطيع أن نصل إلى تحقيق الهدف المنشود وهو مجتمع متحرر قائم على العدل والمساواة .

٢ – أهمية الحل الاشتراكي وتحقيق المجتمع الاشتراكي حيث أثبتت التجربة أن مقاومة التوجهات الرأسمالية كافة والاستغلال والسيطرة لا تكون إلا بالحل الاشتراكي لتحقيق مجتمع العدالة والمساواة .

٣ – التخطيط القومي الشامل لتحقيق مجتمع التطور العلمي خصوصاً مع الامكانيات الموجودة.

٤- إنشـــاء رابطـــة قومـــية عربية شاملة، وتنمية الشعور القومي والتنسيق بين المؤسسات كما يلي :

- الاستفادة من الأهمية الاستراتيجية العربية، واتخاذ الخصائص الطبيعية في الوطن عربي أساساً لقوته ، وليس لتكون مثار احتلال وغزو ومصدراً لتهديده.
- إن العمـــل عـــلى ايجـــاد المجتمع العربي الاشتراكي هو الأساس في مقاومة المشاريع الاستعمارية والاجنبية كافة .
- تحقيق الديمقراطية للفرد تعد الأساس في تطور المجتمع العربي وتشجيع روح الإبداع من خلال المجتمع الاشتراكي الديمقراطي ودعم المبدعين .
- تحرير العقل من رواسب الإحباط والتخلف والاقليمية، وتنمية الشعور القومي العربي لدى الانسان ، وبث روح الديمقراطية والتحرر في فكر المواطن العربي، وغرس روح الوحـــدة في فكره ونضاله وفي ممارساته ، انطلاقاً من أن الوحدة هي الطريق الأمثل لإجهـــاض المشـــاريع المعادية كافة ، ومقاومة الغزو الثقافي الأجنبي المعادي، وحماية الفكـــر العربي من كل المفاهيم الغربية الدخيلة مثل مفهوم العولمة والشرق أوسطية وغيرها من المفاهيم المعادية، ومنعها من التسلل إلى الفكر العربي .
- ترسيخ مفهوم الديمقراطية الشعبية لدى الانسان العربي ، وتوحيد الإعلام العربي بما يخدم قضاياه القومية والتحررية ، وبإيصال ذلك الإعلام إلى أنحاء العالم كافة .
- العمل على عودة الكفاءات العربية المهاجرة والتي قد يحتاجها الوطن العربي للنهوض الاقتصـــادي والاجـــتماعي . والـــتي تشمل جزءاً هاماً من الفكر العربي المتطور، والاستفادة من تلك الخبرات العربية .

الفصل الثاني

المجتمع الرعوي

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

مقدمة :

تشكل دارسة حرفة الرعي والمجتمعات التي تمارسها أهمية كبيرة وذلك لسببين أولهما قدم هذه الحرفة والتي تعود لآلاف السنين ، وثانيهما الأهمية الاقتصادية التي تتمتع بها ومن خلال ماتقدمه من غذاء للسكان على مر العصور والأزمان التي عاشها الانسان، والخصائص الطبيعية للمناطق الرعوية .

وتشمل دارسة المجتمع الرعوي كيفية تأهيل الحيوانات للرعي ، والتوزيع الجغرافي لحرفة الرعي والمجتمعات الرعوية في العالم، ثم خصائص تلك المجتمعات والقبائل الرعوية ، وتخصصها مثل رعاة الإبل وهم (الجمالة)، ورعاة الأغنام (الغنامة)، ورعاة الأبقار (البقارة)، ورعاة الخيل ، ورعاة الرنة وتتضمن كذلك ، وخصائصه والتوزع الجغرافي للقبائل والعشائر البدوية في بلاد الشام ، وشبه الجزيرة العربية ، وفي السودان ، وفي المغرب العربي، ودارسة العادات والتقاليد عند تلك المجتمعات ثم الاطلاع على المشكلات التي يعاني منها المجتمع الرعوي، واقتراح الحلول المناسبة لتطوير ذلك المجتمع لما له من دور هام في الاقتصاد الوطني القومي .

أولاً- تأهيل حيوانات الرعي :

نشأت حرفة الرعي خلال الفترة التي تم فيها تأهيل حيوانات الماعز والغنم والأبقار وتم العثور على بقايا الماعز العظمية منذ ٩٠٠٠-٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، والعثور على تلك البقايا في منطقة رأس شمرا التي تعود لعام ٧٠٠٠ قبل الميلاد ، وعثر على عظام الأبقار في منطقة أريحا في فلسطين. وتشير المصادر التاريخية أنه قد تم تأهيل الغنم للمرة الأولى في التاريخ في القسم الشمالي من بلاد كنعان وبالتحديد في فترة العصر الحجري الحديث ، وقد تم العثور على أقدم الآثار العظمية للأغنام في وادي اليرموك جنوب سورية.

وتبين كذلك بأنه قد تم تأهيل الأبقار في فترة متأخرة عما هو عليه بالنسبة لبقية الحيوانات السابقة الذكر ، وبالتحديد بين ٦٠٠٠-٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، ويعتقد أن سبب ذلك يعود إلى عدم العثور على الأبقار في المنطقة التي عاش فيها الإنسان آنذاك ، إذ إنه كان يغادر أية منطقة يعيش فيها الإنسان مباشرة ويهجرها ، خاصة أن المنطقة التي كان يعيش فيها هي منطقة غابات واسعة ، ولم يعثر عليه في مناطق الاستقرار البشري إلا خلال تلك الفترة كما أن قوة جسم الأبقار كانت تساعدها على الترحال والتنقل على شكل قطعان ، وهذه الأسباب كانت سبباً في تأخر تأهيل حيوان البقر .

وتدل الدارسات المتعلقة بذلك بأن الأبقار استخدمت في عمليات الحراثة والجر من قبل الانسان في منطقة صفد في فلسطين وللحصول على الألبان واللحوم والصوف ، وجلود الأبقار والحيوانات والأغنام والماعز والإبل وحمايتها وخاصة من الحيوانات المفترسة، ومن كوارث الطبيعية حيث يؤمن لها زرائب خاصة حتى ولو كانت بسيطة والإشادة والبناء وخاصة سياج صغيرة من الحجارة ، أو وضعها في مناطق محمية أخرى حيث تم بناء زرائب لها فيما بعد مع تطور الفكر الانساني ، وقيامه ببناء بيت سكني له فإلى جانب المسكن وهناك زريبة للحيونات، وقد يضطر الانسان أحياناً للتنقل والهجرة مع حيواناته ، والتي يقوم بتربيتها ورعيها ، من منطقة لأخرى وذلك بحثاً عن تأمين الطعام والماء لها بين السهل والجبل، أو بين البادية والمنطقة الداخلية ، ومن الصحارى إلى أطرافها وتم في مرحلة أخرى استملاك هذه الحيوانات من قبل الانسان، وأصبح يقوم بشراء وبيع هذه الحيوانات حيث أصبحت ملكاً له .

أما عن النطاق الجغرافي الذي كان يتم فيه الرعي فكان يمتد بين منطقة البحر المتوسط والصحراء الكبرى والربع الخالي في الجزيرة العربية وهذه المنطقة وخاصة تلك الصحاري كانت منطقة رطبة في الزمن الجيولوجي الثالث والرابع

، في العصر المطير ، ذات أمطار غزيرة حيث كانت ملائمة للاستقرار البشري ولرعي الحيوانات وتربيتها وخاصة الأبقار والأغنام والماعز، وأما بالنسبة للحصان فقد تم تأهيله ورعيه في أواسط آسيا وفي الجزيرة العربية، أما الجمل فقد تم تأهيله كما تشير الدارسات منذ ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وتشير البحوث بأن منطقة وادي اليرموك جنوب سورية هي المكان الأول الذي استوطن فيه الجمل ، ومعروف عن الجمل أنه يتحمل العطش والجوع لفترة طويلة . وقد أسماه البعض بأنه (سفينة الصحراء)، ثم وجد الجمل كذلك في شبه الجزيرة العربية ، وقد انتقل فيما بعد إلى فلسطين . وارتبط وجود الجمل وانتشاره وتاهيله وتربيته والاهتمام به في المناطق الصحراوية مثل صحراء شبه الجزيرة العربية، والصحراء العربية الكبرى ، وبادية الشام . ويوضح الشكل رقم (٢٣) أنواع الرعي في العالم.

أما بالنسبة للخنزير فقد تم تأهيله بالفترة السابقة نفسها التي تم فيها تأهيل الماعز، ووجدت آثار ذلك في جنوب سورية .

وأصبح لحرفة الرعي أهمية كبيرة، وتقاس درجة غنى الشخص بقدر ما يملك من تلك الحيوانات وكذلك بالنسبة للخيل الذي تتم تربيته في أواسط آسيا ، وفي الوطن العربي أصبح للفرس العربية الأصيلة أهمية كبيرة لدى سكان البادية والعشائر البدوية وجميع الأشخاص الذين يهتمون بتربيتها في الريف ولمربي الخيول في كافة المناطق .

ثانياً – الخصائص الطبيعية للمناطق الرعوية :

تتميز المناطق الرعوية بعدة خصائص طبيعية جغرافية متنوعة، وقد بدأت بالتأثير في حياة السكان البشرية والاقتصادية وفي الخصائص الاجتماعية والنفسية لقاطن البادية والصحراء والمناطق الرعوية الأخرى،

الشكل (٢٣) أنواع الرعي في العالم

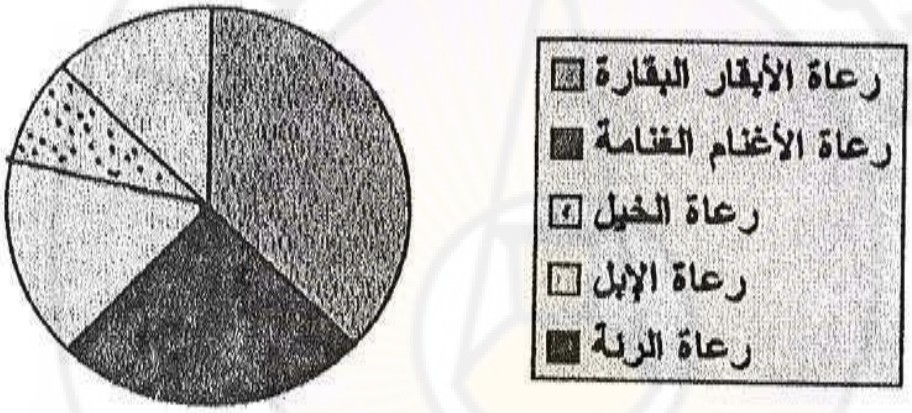

Damascus University

وتتأثر تلك المناطق بالعوامل المناخية من حيث الحرارة والرطوبة والأمطار والضغط الجوي والرياح ، والتربة ، ودرجة خصوبتها ، والنباتات الطبيعية وكثافتها – وعمرها . ومثال منطقة السافانا .

وهي مناطق رعي الأبقار ، أو الصحاري مناطق رعي الإبل ، أو المناطق السهبية والجبلية مناطق رعي الأغنام والماعز ، ويبين ذلك الشكل رقم (٢٤) . ويمكن تحديد تلك الخصائص الطبيعية بما يلي :

١ – الصحاري والبوادي الجافة :

مثل الصحراء العربية الكبرى وشبه الجزيرة العربية والتي كانت مناطق جذب سكاني ورعوي سابقاً في الزمن الجيولوجي الثالث والرابع كما تم ذكره سابقاً ، أصبحت اليوم منطقة ذات حرارة عالية جداً والتي تزيد على ٦٠° ، وتربة صحراوية رملية فقيرة بالنباتات . وتكثر فيها الكثبان الرملية وتكاد تنعدم فيها الحياة البشرية باستثناء بعض القبائل البدوية التي تعيش حول الواحات ، وفي مناطق وجود المياه والآبار وترعى فيها الإبل والأغنام وخاصة على أطراف الصحاري والبوادي مثل بادية الشام .

وهنالك مناطق رعوية في أمريكا الجنوبية وفي أمريكا الوسطى حيث ترعى فيها الإبل والأغنام والأبقار والحصان ، خاصة في أمريكا وأواسط آسيا .

٢ – مناطق ذات أعشاب كثيفة:

أمطارها غزيرة والتي كانت سبباً في النمو الكثيف للأعشاب وهي مناطق السافانا المدارية ، ومناطق الغابات ، وهي تلائم رعي الأبقار والسافانا عبارة عن حشائش طويلة ، وتختلف كثافتها بين منطقة وأخرى وبعضها يسمى السافانا الشجرية أو البستانية ، وذلك حسب كميات الأمطار وبعضها قصير حتى تصل إلى المناطق الصحراوية.

الشكل رقم (٢٤) التوزع الجغرافي للمناطق الرعوية و غير الرعوية في العالم

وتعيش وسط حشائش السافانا الطويلة حيوانات غير رعوية ، بل فيها حيوانات آكلة العشب مثل الوعول والفيلة وغيرها مثل الغزلان والزراف .

وأما المناطق الملائمة للرعي في السافانا فهي ذات الطول المتوسط وتعتبر هذه المناطق ملائمة تماماً لرعي الأبقار .

والسافانا القصيرة صالحة لرعي الأغنام والماعز والإبل .

وأثرت هذه الخصائص الطبيعية على التركيب المميز للسكان ، حيث اعتبرت حرفة الرعي المهنة الرئيسية لسكان هذه المناطق .

ويتوزع إقليم السافانا جغرافياً في عدة مناطق في العالم ، ويمتد على نطاق واسع من السودان حتى إفريقيا الغربية .. والمحيط الأطلسي .

وتمتد السافانا إلى الجنوب من خط الاستواء في هضاب إفريقيا الشرقية ويصل كذلك إلى استراليا .

وتبلغ حرارة مناطق السافانا ٣٢مْ درجة مئوية ، وهي مرتفعة أغلب أيام السنة ويلطف منها سقوط الأمطار الموسمية الصيفية .

وتعيش في مناطق السافانا مجموعة قبائل تعتمد على الرعي في حياتها الاقتصادية والمعيشية . ومن هنا فإن الخصائص الطبيعية لمناطق السافانا أثرت على حياة السكان وتوزعهم الجغرافي واحترافهم للرعي .

٣- المناطق السهبية المعتدلة:

والتي تتوزع جغرافياً في المناطق الباردة والمناطق الحارة وكذلك في المناطق المعتدلة .وهي تمتد على مساحات واسعة . وتتميز بأنها ذات أعشاب قصيرة ملائمة لرعي الأغنام .

٤- مناطق غابات التايغا (التوندرا)

وتعتبر هذه المناطق مناسبة لرعي حيوانات الرنة وهي الحيوانات التي يهتم السكان برعيها على شكل قطعان .

ومـــن الخصـــائص الطبيعـــية لمناطق الرعي المذكورة ، بما فيها آسيا الوسطى التي تهـــتم بـــرعي الخـــيول . إنهـــا ذات أمطـــار وحرارة مختلفة عن بعضها حسب موقعها الجغـــرافي وامـــتدادها في القـــارات . مـــثل الصـــحاري والبوادي والسافانا والمناطق السهبية والجبلية وقد تم ذكر ذلك سابقاً .

وبعضـــها ذات أمطـــار شـــتوية وخاصة في أطراف بادية الشام والتي تعيش فيها قـــبائل رعويـــة تـــربي الأغنام . وسيتم ذكرها أثناء الحديث عن تصنيف حرفة الرعي والقبائل التي تقوم برعيها وتربيتها .

ثالثاً - التوزع الجغرافي لحرفة الرعي :

تنتشـــر هـــذه حـــرفة الـــرعي في مختـــلف مناطق العالم ، حيث توجد المراعي، والحشـــائش والأعشـــاب والمـــناطق الواسعة ، التي تتوفر فيها ظروف الرعي الطبيعي ، وذلـــك لإطعـــام الماشـــية والأغـــنام والماعز وغيرها من الحيوانات الرعوية ، وحيث تتوفر المياه . وهي تتوزع جغرافياً كما يلي :

١ - رعي الأبقار:

تنتشـــر مراعـــيها في المـــناطق المداريـــة وخاصـــة في إقليم السافانا في السودان وفي الهـــند ، حيـــث للديانـــة الهندوســـية طقوس خاصة تحد من الاستفادة من الأبقار كونهـــا مقدســـة عـــند الهـــندوس كمـــا تنتشـــر تربيتها في جنوب شرقي آسيا ، وفي وســـط أوربـــا وفي أمـــريكا الشـــمالية وأمريكـــية الوســـطى وخاصة في الأرجنتين والـــبرازيل والأراغـــوي ، وفي جـــنوب إفريقـــيا واســـتراليا ونيوزيلـــندا ، وفي أنحاء الوطـــن العـــربي ويوضـــح ذلـــك الشكل رقم (٢٥) وقامت العديد من البلدان وفي مختـــلف أنحـــاء العـــالم بتقديم العناية البيطرية لها ، نظراً لما تقدمه تلك الأبقار للإنسان مـــن الحليـــب والـــلحوم وتكاد جميع بلدان العالم تهتم بتربية ورعي الأبقار . وللأبقار أصناف معينة ومتعددة ، وهي مصادر غذاء هامة ورئيسية للإنسان.

٢ـ رعي الأغنام :

وتعيش في البوادي والمناطق الهامشية ، في المنطقة الفاصلة بين البادية والداخل ، وتنتقل في حركة مستمرة وذلك بحثاً عن الأعشاب والحشائش ، وفي أواسط آسيا ، وفي أنحاء الوطن العربي وفي بادية الشام وسورية والجزيرة العربية والعراق ومصر والمغرب العربي ، وفي تركيا وللأغنام أنواع مختلفة ، وهناك مراعي لها كذلك في استراليا وأمريكا الشمالية وجنوب إفريقيا ونيوزلندا وسبب الانتشار الواسع لها جغرافياً . هو الحاجة لها من قبل السكان نظراً لما تقدمه من غذاء للإنسان من لحوم وحليب .

٣ – الماعز :

ينتشر الماعز في المناطق الجبلية والداخلية ، ويتلاءم انتشاره جغرافياً مع مناطق الرعي الفقيرة بالأعشاب ، حيث يمتلك القدرة على التنقل والبحث عن الأعشاب ومن ميزات الماعز أن يتسلق على سفوح الجبال ، ويوجد في مناطق تربية الأغنام .

٤ – الإبل:

تنتشر مراعي الإبل في المناطق الصحراوية ، وشبه الصحراوية ذات المناخ الحار وخاصة في الصحراء العربية الكبرى ، وشبه الجزيرة العربية وفي أواسط آسيا وللجمل أنواع : (ذو السنام الواحد وبعضها ذو سنامين) .

وللرعي أنواع مختلفة منها الرعي التجاري والذي يتحدد بمناطق معينة ، حيث يتم بناء حظائر خاصة بها ، وهنالك الرعي البدوي والذي يمتد على مساحة أوسع جغرافياً حيث تنقل قطعان الماشية والأغنام والماعز مسافات بعيدة لتأمين مراعي غنية بالأعشاب والحشائش.

٥- رعي الخيل:

وتنتشر مراعي الخيل في أواسط آسيا وفي شمال جنوب غرب أوروبا وفي بلدان عديدة من العالم . وتستخدم الخيل كوسائل للنقل والركوب والجر .

٦- الرنة :

تتركز مناطق رعي الرنة في المناطق الباردة حيث تقوم قبائل عديدة تعيش في المناطق الجليدية والتلوج الدائمة بتربية قطعان حيوان الرنة وخاصة في المناطق القطبية الشمالية في سيبريا في روسيا وغيرها.

رابعاً- الخصائص العامة للمجتمع الرعوي :

يتميز المجتمع الرعوي بمجموعة من الخصائص التي تعد ملازمة له وهذه الخصائص هي :

أ- التنقل والهجرة شبه الدائمة المستمرة:

حيث ينتقل الرعاة مع قطعانهم من منطقة لأخرى وبشكل مستمر وذلك بحثاً عن العشب، ويتعلق ذلك بكميات الأمطار الهاطلة ، وحسب مواسم هطولها كما هو الحال : تنقل البدو رعاة الأغنام في المنطقة الهامشية من البادية السورية في محافظات ريف دمشق والسويداء وحمص وحماه وحلب إلى الداخل ، وخاصة في فصل الصيف حيث ينتقل الرعاة مع أغنامهم إلى تلك المحافظات لإطعامها من بقايا الحصاد والعودة في فصل الشتاء إلى البادية حيث تسقط الأمطار في المناطق الهامشية وتنبت الأعشاب القصيرة والحشائش ، ويتم تزويد تلك الأغنام بكميات كبيرة في محافظات الرقة والحسكة ودير الزور في سورية حيث تعيش القبائل والعشائر البدوية والتي تعتمد على رعي الأغنام بشكل رئيسي كمصدر لدخل سكان تلك المناطق .

الشكل رقم (٢٥) التوزع الجغرافي لرعي الإبل والخيل والرنة في العالم

ومـــن نمـــاذج هجـــرة رعاة الأغنام الهجرات الرئيسية كما هو الحال عند رعاة جبال الألب ، والهجرة بين سفوح الجبال والمناطق السهبية .

٢ـ القبيلة البدوية:

هـــي نـــواة للمجـــتمع الـــرعوي ويعد رعي الماشية أو الإبل والماعز والأغنام ، هـــي المهـــنة الرئيســـية لأفراد القبيلة ، وتعيش في نطاق جغرافي واسع، وتتحد أحياناً مـــع قـــبائل أخـــرى في نظام قبلي هو التحالف في حياتها الاجتماعية كما هو الحال في شبه الجزيرة العربية حيث عرفت نظام التحالف في العصر الجاهلي .

وللقبـــيلة نظامهـــا الاجـــتماعي الخـــاص بها ، حيث يعد رئيس القبيلة هو أساس الســـلطة، وهـــو الـــذي يوجـــه القبـــيلة للهجرة من منطقة لأخرى وشيخ القبيلة هو أكـــبر الأفـــراد ســـناً ، وهو رجل من أكثر أفراد القبيلة غنى وأولاداً، ويحظى باحترام وتقديـــر الجمـــيع، وكلمـــته هـــي الـــنافذة، في القبـــيلة يساعده في ذلك مجلس يمثل العشـــيرة أو القبـــيلة وهـــو كأنه مجلس شورى حيث يأخذ رئيس العشيرة رأي هؤلاء الأشـــخاص الذيـــن يســـاعدونه ، والذيـــن يتم اختيارهم على أساس الخبرة وهم من كـــبار الســـن ، ومـــن أشـــخاص كبار ملاك قطعان الماشية والأغنام أو الإبل والماعز، ومن هنا نشأ المجتمع الرعوي والذي اتخذ البادية نطاقه الجغرافي.

وهـــو عـــلى علاقـــة مـــع مجتمع المدينة والتحضر ، ونظراً لحاجاته التي يتزود بها مـــن المديـــنة والمراكـــز الحضـــرية الأخرى ، وبالمقابل يقوم بتوريد منتجاته من الألبان والحليـــب وبـــيع الأغـــنام والماعز وبقية الحيوانات الرعوية لساكن المدينة أو القرية ، ومـــن هـــنا نشـــأت علاقة اقتصادية واجتماعية بينهما . كما تم افتتاح مدارس كثيرة في الـــتجمعات الســـكانية في الـــبادية (كمـــا هـــو الحـــال في البادية السورية) ، وتم تـــزويدها بحاجاتهـــا الأساســـية مـــن المواد التموينية والكهرباء ومياه الشرب ووسائل المواصلات.

٣ـ المجتمع الرعوي

يعتمد المجتمع الرعوي على حياة اقتصادية تتصف بالبساطة ، حيث تعد الأغنام والماعز وبقية الثروة الحيوانية المورد الرئيسي لاقتصاده وغناه ، ومنها يحصل على ما يحتاج من غذاء .

وينشأ في المجتمعات الرعوية الأفريقية رئيس للرعاة كما هو الحال عند قبائل وجماعات النوير في جنوب السودان[1] . ويمتاز أهل البادية بالشجاعة والكرم والمروءة وإغاثة الملهوف ، وحماية الدخيل ويدافعون عنه ويؤمنون له الحماية .

٤ـ الوضع السكني:

يعتمد الرعاة على العيش في بيوت مصنوعة من شعر الماعز أو الخيم لسهولة التحرك والهجرة والتنقل ، يحملها البدوي أينما حلّ ورحل ، وهنالك بدو يطلق عليهم أنصاف الرحل يقطنون في بيوت مبنية من الحجر أو الطين والإسمنت وخاصة في المناطق الهامشية ، كما هو الحال على أطراف البادية السورية في محافظات حمص وحماه وحلب وريف دمشق ، ومحافظة درعا وخاصة في منطقة اللجاه والتي تبلغ مساحتها ١٠٠٠كم٢ تنتشر فيها مساكن لكثير من العشائر البدوية . وفي محافظة السويداء وخاصة للبدو أنصاف الرحل .

٥ـ الوضع الاجتماعي للمجتمع الرعوي

يتميز المجتمع الرعوي أنه يعيش حياة خاصة له عاداته وتقاليده وطعامه وكساؤه ولباسه ، وعلاقاته كما أنهم يعتمدون على القضاء العشائري، فهنالك شخص هو "العرّاف" أو "العارفة"[2] كما يسمونه . وهو القاضي الذي يفصل

---

١) د. فؤاد محمد الصفار . دراسات في الجغرافية البشرية نشر وكالة المطبوعات – الكويت – ١٩٩٣- طبعة ثانية - ص(١٣٣) .

٢) العارفة : هو شخص يحتكم إليه الناس في القبيلة البدوية ، نظراً لما يتمتع به من خبرة وحنكة وعدل وثيق بين جميع الناس ويقبلون بحكمه في كافة القضايا وخاصة القضايا المستعصية الحل .

بين أفراد القبيلة في المجتمع الرعوي .

أما عن العلاقات الاجتماعية فهي تقوم على التعاون بين أفراد العشيرة والقبيلة ، والزواج بين الأقارب هي سمة خاصة لهم ، فابن العم يتزوج ابنة عمه غالباً ، أو قد يتزوج بفتاة لا تربطه بها صلة قربى ، ويعد الزواج وسيلة من وسائل تقوية الصلة بين القبائل، والنسب عندهم له مكانة خاصة ، والمصاهرة لها تقدير كبير بين قبيلة وأخرى أو ضمن القبيلة أو العشيرة الواحدة .

وعادة الغزو كانت سائدة بين تلك العشائر والقبائل والتي تعود لأسباب كثيرة ،منها محاولة السيطرة على أماكن الرعي والتنافس عليها بسبب خصوبتها ويتوافر المياه فيها .

ويشتهر المجتمع البدوي بتمسكه بعاداته وتقاليده ، ومسكن رئيس العشيرة يتميز بأنه أكبر بيت شَعرْ موجود . ومؤلف من عدة أقسام ويسمى "بالشق"[1] وهنالك "المحرم" وهو مخصص للنساء ولا يدخله أحد ، وبيت استقبال الضيوف. ويطلق عليه "المضافة" [2]وهي مفروشة بالسجاد أو البساط المصنوع من شعر الماعز أو غيره .

ومعروف عن البدوي الترحيب بالضيف مجرد قدومه ورؤيته على مشارف بيت الشَعرْ .

ويوجد في كل قبيلة عدد من الشعراء الذين يقولون الشعر العربي، ويسمى "بالشعر النبطي" ويعزفون على آلة موسيقية خاصة بهم هي "الربابة"[3] ويقوم

---

١) د. قاسم الربداوي – دراسة ميدانية للتجمعات السكانية في البادية السورية – عام ١٩٩٧م

٢) نفس المرجع السابق .

٣) الربابة : هي آلة موسيقية بسيطة يستخدمها الشعراء في البادية يعزفون بها أثناء قيامهم بنشيد الشعر النبطي وهو شعر شعبي يختصون به .

هـؤلاء الشـعراء بمـدح رئـيس القبيلة أو أحد الوجهاء فيها ، من خلال الشعر، أو يقومـون ببـث روح المقاومـة قـبل القيام بأي غزو أو يستنهضون بشعرهم مشاعر الجميع، ويبعثون في نفوس فرسان العشيرة أو القبيلة القوة

٦ـ الدخل :

يتناسـب دخـل أفـراد المجـتمع الرعوي بمقدار ما يملك من رؤوس الأغنام أو الماعـز أو الأبقـار أو الإبـل ، وتعـد هـذه الحيوانات الرعوية هي مصدر دخلهم الرئيسـي ، حيـث يـتفرغون للرعي ويتمثل بمقدار ما تدره عليهم من حليب وألبان وبيعها للاستفادة من لحومها .

وفي المـناطق العالمـية الـتي تـتم فيها حرفة الرعي على سفوح جبال الهيمالايا ، وفي أواسـط آسـيا وفي كـثير مـن المـناطق الجبلـية ، تم بـناء المدرجات اللازمة والضرورية للزراعة والرعي، وقد اعتاد عليها الرعاة في هذه المناطق.

خامساً – التوزع الجغرافي للقبائل الرعوية وخصائصها :

تـتوزع القـبائل الـرعوية جغرافياً في أنحاء العالم ولكل قبيلة رعوية خصائصها الديموغرافـية والاجتماعـية والاقتصـادية والحياتـية وظروفها المعيشية وانتشارها ، وخصائصـها التاريخـية ، وتخصصـها في الـرعي ، مثل رعي الأغنام والماعز والأبقار والإبل والخيل والرنة. وهذه القبائل والجماعات الرعوية هي :

أولاً– القبائل البقارة :

وهي القبائل الرعوية المتخصصة برعي الأبقار وتتوزع جغرافياً كما يلي :

– داخل الوطن العربي :

١– قبائل النوير :

تعـد قـبائل الـنوير من أهم القبائل العربية التي ترعى الأبقار، ويعود ذلك إلى حجـم عـدد رؤوس الأبقـار التي تملكها جماعات النوير والتي تتفوق على غيرها من

القبائل ، وبسبب المجال الجغرافي الواسع الذي تشغله هذه الجماعات، في جنوب السودان وبالتحديد في منطقة مليئة بالمستنقعات ، في بحر الجبل ويتوزعون جغرافياً إلى الجنوب[1] من خط عرض ٣٠ شمالاً . وتبلغ المساحة التي يشغلها هؤلاء ٢٦ ألف ميل مربع ، ويصل عددهم حالياً ما يزيد على ١,٢ مليون نسمة[2] . (تقدير عام ٢٠٠٣م) .

ويعيش النوير في قرى تتباعد عن بعضها ولمسافة تقدر بين ١٥ – ٢٠ ميلاً من منطقة وجود أعشاب وحشائش السافانا والتي تمتد على مساحة كبيرة (كما ذكر في الخصائص الطبيعية للمناطق الرعوية) .

ويقوم النوير بالتجمع في مناطق معينة خلال أيام السنة وفي أوقات محددة تعد أماكن انطلاق للرعي إلى المناطق المجاورة ، ويقوم الرجال بالرعي في كل يوم ، بينما تقوم النساء بالإضافة للأولاد بحلب قطعان الأبقار .

الخصائص الاجتماعية لجماعة النوير :

تعد ملكية رؤوس الأبقار وعددها مقياساً هاماً لدرجة الغنى وتقاس ثروة الرجل من النوير بمقدار ما يملك منها ، وتستخدم الأبقار في التعامل التجاري فيما بينهم ، وتقدم عادة مهراً للزواج بدلاً من النقد ، كما تعد مصدراً رئيسياً للغذاء فهي تقدم لأصحابها ورعاتها اللحوم والحليب .

وتعتمد جماعات النوير على النظام العشائري ، والعشيرة تضم مجموعة من القبائل كما هو معروف ومن العادات والتقاليد إن رئيس العشيرة هو مقرر شؤونها وحياتها اليومية حيث تنتقل للرعي من منطقة لأخرى بأمر منه وعندما تقوم جماعة من النوير أو قبيلة ما بغزو معين فإنها تستعين بشخص يسمى باسم

---

١) د. فؤاد محمد الصفار . دراسات في الجغرافية البشرية ص(٢٠٦) مرجع سبق ذكره

٢) د. قاسم الربداوي . تقدير العدد وفقاً لحساب معدل النمو الطبيعي لقبائل النوبرة .

(ساحر الحروب)[1] ، ويدعى بساحر العشيرة، وهو يؤمن لها تحقيق النصر مع رجالها . ويقوم ذلك الشخص بقراءة التعاويذ، واتباع السحر كما يعتقدون في ذلك، ولهذا الشخص مكانة مرموقة عند النوير .

والأب هو المسؤول عن الأسرة وهو رئيسها ، ومن العادات كذلك إذا تزوج رجل من جماعات الدنكا من إحدى الفتيات من النوير، فإن الأبناء ينتسبون للأم ، وإذا تزوج أي شاب من إحدى الفتيات النويرية فإن عليه أن يقوم بخدمة أسرة زوجته، ويستمر ذلك حتى تنجب زوجته طفلاً وعندها يستطيع أن يغادر أسرة زوجته . ومن عاداتهم أيضاً فإن الزواج من عشيرة الأب غير مسموح بل إنه محرم .

بينما نجد أن زواج الشاب من عشيرة أمه مسموح ، ويستطيع الشاب أن يدخل سن الرجولة بعد أن يجتاز امتحاناً . ويتمثل ذلك بشطب جبهة ذلك الشاب بآلة حادة (هي النصل الحاد)، ويتم ذلك من خلال عملية جراحية، ويبقى ذلك الوشم على جبهته طيلة حياته ، وهم يقومون بهذه العملية الجراحية كي يعرف أبناء العشيرة من جهة في أي زمان ومكان ، وكي يتحمل الشاب قساوة الحياة وتمهيداً لقيامه بالمساهمة والاشتراك بالغزوات التي تقوم بها العشيرة

أما عن سن الزواج فهو يتراوح بين عمر ٢٠ – ٣٠ سنة، وأما المهر فهو ٤٠ بقرة تقدم لأهل الفتاة من قبل الشاب الذي يرغب بالزواج . وتوزع تلك الأبقار بالتساوي ١٠ بقرات للأب ، ١٠ بقرات للأم ، و١٠ بقرات لأقارب الأب ، و١٠ بقرات لأقارب الأم .

ومن العشائر والجماعات البقارة – قبائل عربية عديدة تعيش جنوب السودان وبالتحديد في إقليم كوستي السوداني في منطقة النيل الأبيض وإلى

---

١) د. فؤاد محمد الصفار . دراسات في الجغرافية البشرية . ١٩٧٣ – ص(٢٠٦) مرجع سبق ذكره

الجنوب من مدينة الخرطوم وفي جنوب كردفان ودارفور ، وقسم من تلك القبائل يعود نسبها إلى قبائل الحقلين وإلى قبائل جهينة أو إلى فزارة وقبائل البقارة عديدة وهي (الجمع ، سليم ، التعايشة ، بنو جرار) .

وأما الجهنيون فيعود نسبهم إلى قبيلة قضاعة ويقيمون في منطقة الجزيرة في السودان ، وتعد قبيلة كنانة من أهم القبائل هنا والتي ترعى الأبقار .

وتعد حياتهم الاجتماعية مماثلة لقبائل وجماعات النوير، وتمتد قبائل البقارة إلى الصومال وإريتريا .

ومن العشائر البقارة كذلك في جنوب السودان وقبيلة الحلنقة في كسلا، وقبيلة بني عامر والتي تعيش في إريتريا، وقسم منها في السودان وبالتحديد يقيمون في خور بركة . وخور القاش وفي إريتريا أيضاً قبائل عربية جاءت مهاجرة من شبه الجزيرة العربية ذات أصل حامي أو سامي ومن هذه القبائل الأسورنا – والساهو – ومعظم هذه القبائل تعتمد على تربية الأبقار في حياتها الاقتصادية ، ومتخصصة في ذلك .

٢ – الدنكا :

وهي من القبائل التي تنتسب إلى المجموعة النيلية، وتشتهر بتربية الأبقار، والمتخصصة بذلك ولها علاقة وطيدة مع قبائل عديدة تهتم برعي الأبقار كذلك ، وهي من أهم القبائل في جنوب السودان إذ يصل عدد أفرادها حالياً إلى حوالى ٢ مليون نسمة وهم من العشائر البقارة . ويمتد توزعهم الجغرافي حتى المديرية الاستوائية في القسم الجنوبي من السودان . ويسكنون في مديرية بحر الغزال ، قسم من أعالي النيل وفي جنوب كردفان، وتعتمد تلك القبائل على الترحال والتجوال بشكل دائم بحثاً عن مراعي الحشائش والأعشاب . وذلك لإطعام أبقارهم .

٣- قبيلة الباري :

من القبائل العربية الأخرى التي ترعى الأبقار ، وهي من الجماعات النيلية الحامية ، وقبيلة الشلك على الجانب الغربي من الضفة الغربية للنيل الأبيض ويقدر عددهم بحوالى ١,٢ مليون نسمة وقبائل دارفور الواقعة في غرب السودان وكذلك قبائل الغونج .

٤- قبيلة بني عامر :

تتوطن قبيلة البني عامر في إريتريا وتختص برعي الأبقار، وهم من القبائل العربية الحامية التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية ، ويتركزون في غرب إريتريا، وتتوزع هذه القبيلة جغرافياً في عدة مديريات إريترية مثل أغوردات وكران وسراي، وإلى الغرب يتوغلون في السودان وتتميز مناطق إقامتهم وترحالهم في رحلة الرعي التي يقومون بها بين خطي المطر ٣٠٠ - ١٠٠٠ ملم وفي القسم الشمالي من إريتريا تنتشر السافانا القصيرة والشوكيات. وتزداد الكثافات، وتتميز الخصائص الاجتماعية لقبيلة بني عامر بان الأب له السلطة في الأسرة وهو الذي يدير شؤونها، ويعيشون في أكواخ مصنوعة من الخشب والقش والقصب ، ولهم عاداتهم وتقاليدهم الخاصة للزواج والاحتفالات ورعاية الأبناء والاحتفال بهم وخاصة حفلة العرس من حيث استقبال العريس وصحبه الذين يأتون لأخذ العروس .

وللوفاة طقوس خاصة بهم ولباس الحداد خاص . ويتم تأهيل وضع إشارة على جبين الأولاد الذين يتم تأهيلهم وذلك بتشطيب جباههم بنصل سكين حادة ثلاث خطوط في كل خد[1] ثم تتم معالجته . كما ذكر ذلك عند قبيلة النوير .

---

١) د. فاضل الأنصاري - الجغرافية الاجتماعية - نشر ١٩٩٠ - ١٩٩١ - ص٣٩٣ . مرجع سبق ذكره

وفي المغـــرب العـــربي هـــناك العديد من القبائل التي تهتم برعي الأبقار . وخاصة في المملكـــة المغربـــية في مـــنطقة العـــرائش والرباط وفي الأقسام الداخلية وما زالت أســـاليب تربيـــتها ورعـــيها أساليب قديمة . وذلك بسبب عدم إدخال وسائل حديثة إلـــيها مـــن مـــزارع، ومنشـــآت تربية الأبقار مثل الحظائر الكبيرة والأعلاف والطب البـــيطري وبســـبب أن الـــرعي التقليدي يعتمد على التنقل والترحال بحثاً عن الطعام والماء والماشية في مناطق الأطلس وفي أطراف الصحاري .

وهـــنالك العديـــد مـــن قـــبائل الـــبربر تهتم برعي الأبقار، وكذلك في الجزائر وتونـــس في مـــناطق أطلـــس الـــتل والأطلس الصحراوي . وفي السودان هناك قبائل النيلين الحاميين يهتمون برعي الأبقار .

في بلاد الشام :

تـــتوزع العشـــائر في بـــلاد الشـــام والـــتي تخـــتص بالـــرعي في سورية ولبنان والأردن وبادية الشام ، في عدة مناطق كما يلي :

١ – في سورية:

إن أهـــم مـــا تمـــتاز بـــه هـــذه القبائل والعشائر هو ظاهرة تعدد التخصص في الـــرعي ، فهـــنالك العديـــد مـــنها الـــتي ترعى الأبقار ، وإلى جانب ذلك تهتم برعي الأغـــنام والماعـــز والإبـــل والخـــيل وذلـــك بســـبب حاجة تلك العشائر لتربية تلك الـــثروة الحيوانـــية المـــتعددة ، وتعـــدد مصادر الحصول على الحليب منها، ولحاجتها لـــلحوم ، وبســـبب الظـــروف والخصـــائص الطبيعـــية وخاصة في المناطق الداخلية وتلك العشائر هي :

النعيم :

في الجـولان ومـن فـندها[1] – النميرات – الرحيلات – الخزيمات – البينون – الشـفافون – المعديـون – وعتـبة – وحرب – الحمامرة – الوهيب والطحان في الجـولان في وادي العجـم ، وفي محافظـة ريف دمشق في الدرجية والصبورة والطيبة وسعسـع وديـر ماكـر وكـناكر والزريقـية وفي حـوران ومحافظة حمص وهنالك السلوط في منطقة اللجاه وهم من العشائر البقارة .

ومن العشائر الأخرى .

الفضـل واللهيـب في فلسـطين والجـولان وجـنوب لبنان وكذلك عشائر الفضـل والـتلاوية في الجـولان ، والسلوط القبليون . وفي منطقة الزوية في الجولان – الدياب – والمناظرة في اللجاه وفي وادي اليرموك وحوران جنوب سورية .

ومن العشائر

الـتي تهـتم بـرعي الأبقـار وتربيتها البوشعبان في محافظة الرقة، ومنهم العفادلة في الـرقة والجـولان ومحافظـات أخـرى عديدة، ولأبو عساف في السنجة والولدة ، وفي الجزيـرة السـورية توجـد عشـائر البقارة وهم ينتشرون في جبل عبد العزيز ، ومـنهم بقـارة ديـر الـزور وفي لبـنان تنتشـر عشائر وخاصة في منطقة البقاع، ويوضـح الشـكل رقـم (٢٧) الـتوزع الجغـرافي لرعي الأغنام والأبقار في الوطن العربي .

وفي العراق :

هناك العديد من العشائر البقارة والغنامة والمعازّة والجمالة والخيالة وهي:

---

١) د. وصفي زكريا –عشائر الشام . ، الطبعة الأولى ،١٩٤٥ ، ص ٣٩٦ .

الفـندة : هـي فـرع مـن فـروع تلـك العشيرة ، وقد تكون من البطون أو الأفخاذ وغير ذلك . وهي تسمية متفق عليها بين العشائر البدوية في بلاد الشام .

شمر وعنزة[1] والظفير ويتفرع كل منها إلى عدة أفندة أو فروع وتنتشر تلك القبائل في بلاد الشام والجزيرة العربية والعراق وتبين ذلك من خلال ما سبق ذكره عند التوزع الجغرافي لعشائر بلاد الشام .

وتمتد حركتها على مسافة مئات الكيلومترات عبر بادية الشام والعراق .

- رعاة البقر خارج حدود الوطن العربي :

تتوزع قبائل رعاة البقر جغرافياً خارج حدود الوطن العربي في عدة مناطق من العالم، وفي مختلف القارات وذلك كما يلي :

١ - قبائل الماساي:

وهي قبائل متخصصة برعي الأبقار، وتتوزع جغرافياً في شرق إفريقيا وخاصة في مناطق تنزانيا، وفي الأقسام الجنوبية والغربية من كينيا وفي المنطقة الاستوائية التي يزيد ارتفاعها على ١٥٠م .

وجماعات الماساي هم من الأنصاف الحاميين والنيليين، وهم من الزنوج. وللبقرة أهمية اقتصادية كبيرة عند الماساي ، إذ إنها تعد مصدر الحليب واللحوم التي يتناولها السكان، وكذلك وسيلة النقد الذي يقدم مهراً للزواج ، حيث يقدم الشاب الأبقار لأهل الفتاة مهراً لزواجه منها وللبقرة مكانة خاصة في المجتمع عندهم حيث إنهم لا يقدمون على ذبحها إلا حين تصل إلى مرحلة الشيخوخة، ومن خصائصهم الاجتماعية أن المجتمع مقسم إلى عدة طبقات فهنالك طبقة السادة وهم المتخصصون بالرعي أو الذين يعود أصلهم إلى الرعاة وطبقة المحاربين، وطبقة الرعاة من كبار السن ولهم مكانة خاصة كونهم يمتلكون خبرة واسعة يستفاد منها ، وهنالك طبقة

---

(١) د. فاضل الأنصاري – مشكلة السكان نموذج في القطر العراقي – كتاب – نشر وزارة الثقافة – الإرشاد القومي في سورية – ١٩٩٠ – ٢٠٠٠ – ص٢٦٣م

أولى تضم الطبيب -المعالج- وهو طب شعبي يعتمد على قراءة التعاويذ والأعشاب الخاصة . بالإضافة إلى طبقة الكهنة ورئيسهم الذي له مكانة خاصة دينية عند الماساي، وهنالك طبقة الخدم وهي طبقة دنيا في المجتمع . ومعظمهم من الأسرى الذين يتم أسرهم في الغزوات (المعارك) ومن أشخاص آخرين في مجتمع الماساي وبالنسبة لسكنهم فإنهم يقيمون في أكواخ مصنوعة من الخشب، وإلى جانب غرف السكن هناك حظائر الأبقار والمحاطة بأسوار خشبية . لحماية الأبقار يسمى (كرال)[1] .

وأما نظام الخدمة عند الماساي فهو أن يقوم الشباب وهم من المحاربين بمرافقة قطعان الأبقار أثناء الرعي . وذلك حماية لها ولقبيلة الماساي نفوذ واسع بين القبائل، ولها شهرتها الواسعة من حيث العدد والسيطرة على مراعي كثيرة .

٢- ومن رعاة البقر :

هناك قبائل وشعوب يطلق عليها اسم "الزولو[2] والأكسوزا" وهم في جنوب إفريقيا . وهم يسكنون في مسكن خاص هو الكرال **Kraal**، وهو يمثل مسكناً إلى جانب حظيرة الحيوانات، وحوله الأراضي الزراعية والتي تستخدم مراعي للأبقار .

٣- في القارة الآسيوية :

هناك العديد من الجماعات والقبائل التي ترعى الأبقار وخاصة في أطراف صحراء إيران وجماعات أخرى في الباكستان .

---

(١) فاضل الأنصاري – الجغرافية الاجتماعية – مرجع سبق ذكره - ص٢٣٦م

(٢) صلاح الدين عمر باشا . د أديب باغ – المدخل إلى دراسة الجغرافيا البشرية – ١٩٦٣ – مطبعة جامعة دمشق – ص١٢٣ – ١٢٤ .

٤- الهندوس :

للبقرة مكانة خاصة في الهند وخاصة عند جماعات الهندوس حيث تعد مقدسة عندهم ، ولذلك تقدم لها الطقوس الدينية وتنتشر في مناطق التوزع الجغرافي لإقامة ومسكن الجماعات الهندوسية . ويحرم أكل لحم البقرة عندهم لذلك فإن أعداد تلك الأبقار في حالة تزايد مستمر .

Damascus University

الشكل رقم (٢٦) التوزع الجغرافي لرعي الأبقار و الأغنام في الوطن العربي

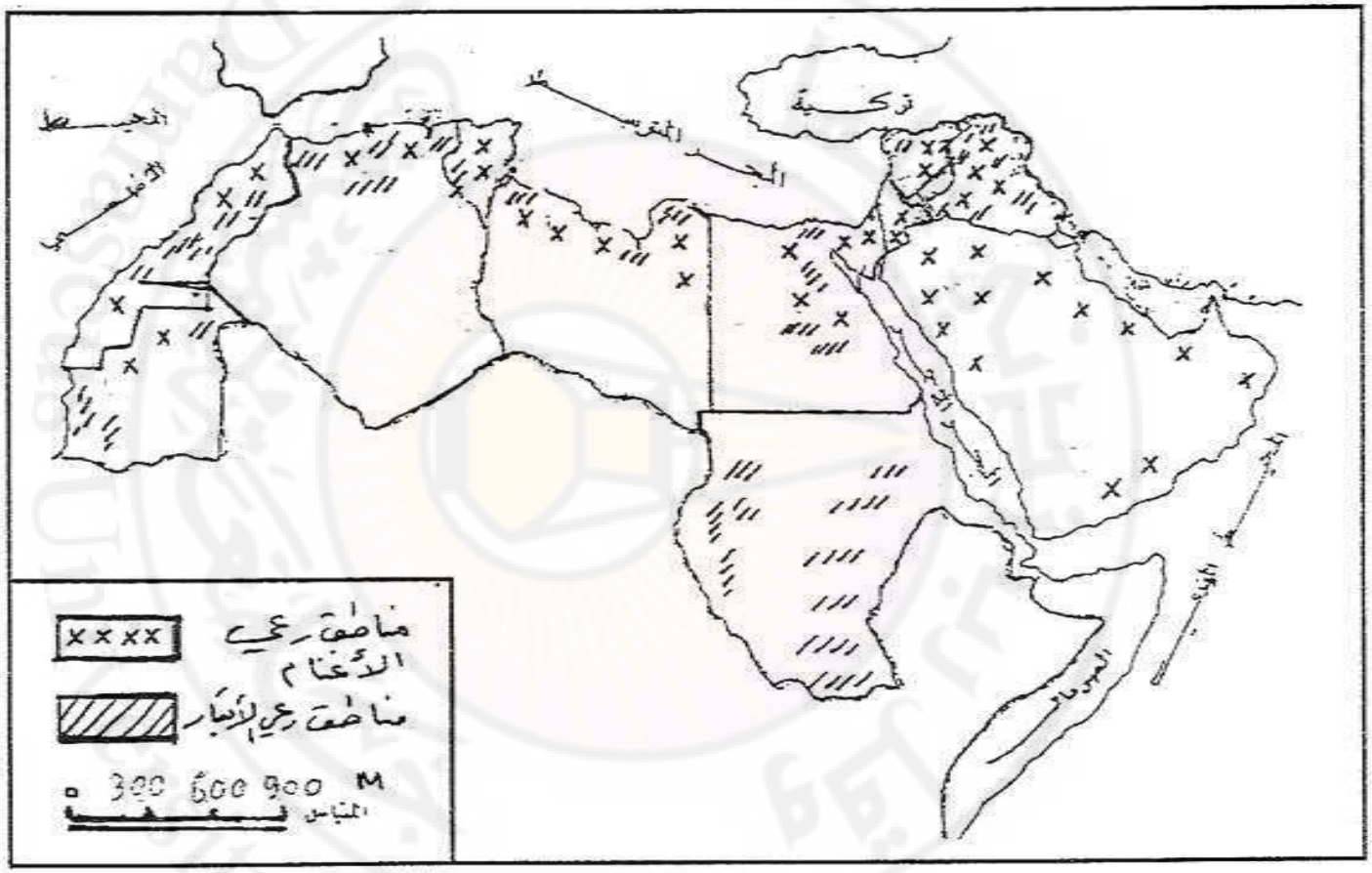

٥- في القارة الأمريكية :

تعد حرفة رعي الأبقار هي من أهم الحرف الرعوية في أمريكا الشمالية والوسطى، فهي تعد أقدم مهنة للسكان، وكان يقوم بها الهنود الحمر الذين هم سكان أمريكا الأصليون . وبعد أن جاءت عدة جماعات قاموا بالقضاء عليهم، ويقطن رعاة البقر في أمريكا الشمالية في عدة أماكن حيث الحشائش والأعشاب وأطراف الصحاري، وكذلك في أمريكا الجنوبية والوسطى في صحراء بيرو وصحراء أتاكاما وجنوباً في صحراء كلهاري .

٦- وفي أوروبا :

هناك العديد من الجماعات الرعوية التي تعتمد على رعي الأبقار، وهي تتجول بين المناطق العشبية والحشائش بحثاً عن المراعي في ألمانيا والنمسا وبريطانيا والدول الاسكندنافية وفي مختلف بلدان القارة الأوروبية . ويوضح ذلك الشكل رقم (٢٦) .

ويقدر عدد رؤوس الأبقار في العالم ١,٢٨٥[1] مليار رأس ، عام ١٩٩٠ وهي موزعة جغرافياً كما يلي : في الهند ١٩٥,٥ مليون رأس، وبسبب وجود العقيدة الهندوسية التي تقدس البقرة، وتمنع ذبحها لذلك ازدادت أعدادها ، وفي الولايات المتحدة ٨% من أبقار العالم ، وفي روسيا مع رابطة الدول المستقلة ٩% وفي البرازيل ١% بينما الأرجنتين تصدر ¼ أو ٢٥% من أبقار العالم بسبب كثرة المراعي الطبيعية ووجود اهتمام كبير برعي الأبقاروتربيتها.

---

(١) د. علي فاعور . الجغرافية البشرية والاقتصادية- كتاب ص٩٠- إصدار المؤسسة الجغرافية- بيروت- لبنان١٩٩٢-١٩٩٣ .

ثانياً- رعاة الإبل :

تتوزع القبائل التي ترعى الإبل جغرافياً في العديد من المناطق داخل الوطن العربي وخارجه ، ويمكن التمييز بين نوعين من القبائل الرعوية ، قبائل متخصصة لرعي الإبل، وهم القبائل الجمالة وقبائل أخرى يكون رعي الجمل جزءاً من رعي آخر وفي هذه الحالة يكون الرعي مشتركاً بين الإبل والغنم والماعز وتلك القبائل والجماعات :

- في داخل الوطن العربي :

١- الطوارق :

تستوطن قبائل الطوارق في منطقة واسعة في الصحراء العربية الكبرى الإفريقية وهي تعيش حياة بدوية كاملة ، وتهتم بتربية الإبل، وهي من العشائر الجمالة ويعد الجمل الثروة الرئيسية للطوارق . وتقاس درجة غنى الشخص بقدر ما يملك من عدد رؤوس الإبل (الجمل) ويستفاد من وبره ولحمه وحليب إناثه (الناقة) ومن المعروف بأن الجمل يتحمل العطش والجوع لفترة طويلة، وقد يشرب الجمل ٣٠ أو ٥٠ ليتراً دفعة واحدة[١] .

وأما عن الخصائص الجسدية للفرد من الطوارق فهي طول القامة ، ولون بشرتهم تميل إلى الصفراء ضاربة للحمرة ، وذلك بسبب الظروف الطبيعية للصحراء التي تؤثر في خصائصهم الجسدية وارتفاع الحرارة وبسبب اللثام الذي يغطي الوجه بشكل دائم ، وشعرهم متموج غالباً ، أما العيون فهي سوداء قاتمة ، وأما عن اللثام الذي يغطون به وجههم فهو دائم، ولا يخلع "الطوارقي"

---

(١) د. صلاح الدين عمر باشا ـ د. أديب باغ – المدخل إلى الجغرافية البشرية – ص١٢٥ – ١٩٦٣.

اللثام عن وجهه إلا حين النوم ، وعن سبب وجود هذا الغطاء فله أحد السببين كما تشير الدراسات.

أولهما :

أنه في إحدى الغزوات التي تعرضت لها قبائل الطوارق قد خسروا المعركة ولم يبق إلا النساء تدافع عن مضارب القبائل، وحققت النساء النصر، وتمكنّ من طرد الغزاة، وأن رجال الطوارق قد خجلوا من هذه الفعلة أنهم بدؤوا يلبسون اللثام حياءً وخجلاً .

وثانيهما :

هو أن الرياح التي تهب من الصحراء تحمل معها الغبار والأتربة حيث تؤذي عيونهم ووجوههم فعليهم أن يلبسوا ذلك الغطاء اتقاءً لتلك الأخطار أما عن النساء فيقمن بتلوين أظافرهن بالحناء .

وأما عن رحلة الطوراق فهي تتجه شتاءً نحو الجنوب حيث هناك منطقة واسعة تدعى نطاق الأحجار والتي تقع إلى الجنوب من الصحراء العربية الكبرى.

وبما أن الإبل هي الثروة الرئيسية عندهم فإنهم يستخدمونها في التجارة وفي التبادل وفي مهر الزواج ولدفع الديّة .

وللمقارنة فإن الإبل في بلاد الشام تقطع مسافات كبيرة أثناء رحلتها . وتصل حتى مسافة ٨٠كم .

٢ – الكبابيش:

يعد الكبابيش رعاة إبل بشكل رئيسي ، وهم يعيشون في مديرية كردفان وشمال دارفور ويبلغ عدد الإبل التي يرعونها ٨٠ ألف رأس ، ويضاف إليها ١٣٠ ألف رأس غنم ، ٦٥ ألف رأس ماعز وأكثر من ٣٠ ألف بقرة ويستنتج من ذلك أن قبائل الكبابيش لا يتخصصون فقط برعي نوع واحد من الحيوانات وذلك بسبب الظروف الاجتماعية والطبيعية والاقتصادية التي يعيشها السكان

وملائمة تلك المنطقة لرعي كافة تلك الحيوانات ولتكون مصادر الدخل عديدة .

أما أصلهم فيعود إلى قبيلة جهينة وقبائل أخرى عديدة ، هاجرت من شبه الجزيرة العربية أثناء فترة الجفاف التي حلت بالمنطقة ، حيث هاجروا أولاً إلى مصر ثم إلى السودان . وذلك عن طريق الصحراء الشرقية ثم إلى غرب وادي النيل . وبعضهم توجه غرباً إلى ليبيا وبلاد المغرب العربي حيث تعد الرعي الحرفة الرئيسية لهم . ومن هؤلاء قبائل أولاد علي في شمال صحراء مصر ومن فروع الكبابيش قبائل النوراب ، وأولاد عون ، وأولاد الطريفي والعوايضة، وكل تلك القبائل تفرعت إلى عدة قبائل وهي[1] :

الربيكات ، دار أم لجيب – أولاد الجبر – كبيشاب – هواراب – كردناب – دار الحاج – الكريساب – أولاد عون – المريخاب – أشهاب – أولاد طريفي – أولاد رحمة – أولاد مقبول – أولاد الهلالي – بشيرات – العوايضة – عدلاناب .

أما ناظر الكبابيش فهو من النوراب من عائلة التوم ، وتشير الدراسات بأنه يرأس كل قبيلة فرعية من فروع الكبابيش شيخ تدين له العشيرة وكل أفراد القبيلة يطلق عليه اسم "ناظر الكبابيش" وهذا دليل على النظام الاجتماعي الذي كان سائداً عندهم ، وإن القبيلة كان لها نظام خاص بها وتتماثل مع بقية القبائل الأخرى في وجود هذا الشخص في كل منها .

ومن عاداتهم الاجتماعية تفضيل ابنة العم للزواج ، ويحدد سن الخطبة بين ٩–١١ سنة للفتاة ، وبين ١٥ – ١٨ سنة للشاب، ويحدد مهر الزواج بخمسة رؤوس من الإبل للفقير ، ومئة رأس إبل للغني ، يقدمها مهراً لزوجته.

---

(١) د. محمد فؤاد الصقار – الجغرافية البشرية – ص ٢٠٦ – ١٩٧٣– مرجع سبق ذكره .

عندهم عادة تعدد الزوجات والطلاق ، وأما في مجال الإرث فإنهم يورثون الرجال بينما تحرم النساء من الإرث، ومن عاداتهم كذلك أولاد العم يرثون المتوفي إذا لم يكن له أبناء .

ومن صفات الكبابيش الكرم والشجاعة والإقدام ، ويتميز هؤلاء بحركة هجرة داخلية وذلك حسب كميات سقوط الأمطار شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً . وتبلغ المسافة التي يقطعها رعاة الإبل من الكبابيش تصل إلى أكثر من ٢٥٠ كم للجمل، و ٩٠كم بالنسبة لبقية الحيوانات مثل الأغنام والماعز .

ويتجه الكبابيش نحو الغرب في وادي الملك خلال فترة من السنة وذلك بسبب سقوط الأمطار والتي تؤدي لزيادة نمو الأعشاب .

– في بلاد الشام:

هناك العديد من القبائل الجمالة التي تهتم برعي الإبل مع رعي الأنغام والماعز .

وفي هذه الحالة تستخدم الإبل وسيلة نقل هامة عند تلك القبائل في ترحالها وتنقلها عبر الصحراء في الجزيرة العربية وبادية الشام . مثل قبائل شمر وغزة والحديدين. وغيرهم . وسنذكر هذه القبائل بالتفصيل أثناء الحديث عن رعي الأغنام والماعز كون الرعي مشتركاً لتلك الحيوانات سوية مع الخيل.

– في شبه الجزيرة العربية :

تعد شبه الجزيرة العربية الموطن الأول للقبائل العربية الجمالة حيث انطلقت مهاجرة إلى بلاد الشام بحثا عن العشب والماء لإطعام وسقاية الأغنام والماعز والإبل والماشية وإلى بلاد الرافدين ولوجود أراض خصبة صالحة للزراعة، ومناخ ملائم للاستقرار البشري .

وبقيت فيها قبائل عديدة انتشر توزعها الجغرافي من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الشام الفرات . ومن هذه القبائل في شبه الجزيرة العربية عشائر الرولة .

٣- قبائل الرولة :

وهم من رعاة الإبل، ويعيشون في شبه الجزيرة العربية، ويعتمدون على الترحال والتنقل، وتشبه حياتهم حياة الكبابيش في السودان. وهم من اكبر القبائل في شبه الجزيرة العربية وخاصة في الجزء الشمالي والتي تمدها من الغرب هضبة حوران ودمشق وحلب ومن الشرق أواسط وادي الفرات ومن الجنوب وادي شمر وجنوبا حتى صحراء النفوذ ووسط شبه الجزيرة العربية وبقيت في حالة صراع مع القبائل الأخرى حتى سيطرت على واحة الجوف عام ١٩٠٩ ويعد شهر آب من أشد الأشهر ضراوة في شبه الجزيرة العربية لذلك يتنقلون للعيش قرب المدن على هامش الصحراء. أما في الشتاء تراهم يعيشون في البادية ومن مناطقهم في جنوب تدمر حتى حائل وجنوبا حتى صحراء النفوذ وتعد الإبل أهم الحيوانات التي يعتمدون عليها، وتمدهم باللبن وهم من العشائر الجمالة .

السكن:

يعيش الرولة في خيام وهي بيوت مصنوعة من الشعر، ويستخدمون السكن المتنقل ولباسهم خفيف وطعامهم يعتمد على التمر واللبن واللحوم والقمح والشعير ، ويعسكرون بجانب أبار المياه .

حياتهم الاجتماعية :

لقبائل الرولة خصائص اجتماعية حيث تعتمد على شيخ القبيلة الذي له منصب تمثيلي وهو من كبار ملاك الإبل ومنصبه وراثي ولهم عاداتهم وقضاؤهم الخاص ويتنقلون للبحث عن الماء والكلأ ويصنعون السيوف والحراب. وللزواج عندهم عادات خاصة ،ويتصفون بالشجاعة والأقدام والغزوات، ويتفاخرون بنسبهم والأخذ بالثأر وإكرام الضيف.

ثالثاً – رعاة الرنة :

يعيشون في أو راسيا وفي سيبيريا وهم عبارة عن قبائل تختص برعي الرنة التي يستفاد من جلودها، وأهم هذه القبائل هي :

اللاب – الفن في شمال أوروبة – الاوستياك – التنجس في شمال سيبيريا . وفي أقصى شرق سيبيريا هناك جماعات البوكاغير ثم التشكشي والكورياء ويعيشون في بيئة قطبية باردة يطلق عليها اسم التو ندرا أو الصحاري الجليدية، وتمتد في العروض العليا، وتنتشر الرنة جغرافيا في نصف الكرة الشمالي في سواحل المحيط القطبي الشمالي في شمال كندا في أمريكا الشمالية وشمال اسكندافيا وشمال روسيا الأوروبية وشمال سيبيريا . صيفها بارد والنهار طويل، والشتاء طويل وقارص البرد، وتصل الحرارة إلى –٦° وتعد التوندرا غنية بالحياة الحيوانية والطيور، وتغطيها الثلوج معظم أيام السنة، وفي الصيف تنمو الأعشاب، وتكثر قطعان الرنة والكاريبو التي تتغذى على الأعشاب وهناك في سيبيريا قبائل قد قامت بتأهيل حيوان الرنة .

ومن العادات الاجتماعية عند جماعات التنجس أنه في حالات الزواج ، يقوم أهل الزوجة بتقديم الخيمة للزوجين هدية للزواج ، مع قليل من الأثاث ، ويقوم الزوج بخدمة أسرة زوجته ، خلال فترة معينة ، ويندر عند التنجس تعدد الزوجات ، وأفضل أنواع الزواج عندهم أن يتم بين الشخص (الزوج)[1] وبنت خالته . ويعدون ذلك أفضل أنواع الزواج .

ومن عاداتهم أن مهر الزواج هو حيوانات الرنة أي عدد منها تقدم لأهل الخطيبة التي تصبح زوجة بعد أن يتم قبول ذلك .

---

(١) د. محمد فؤاد الصقار أسس الجغرافية البشرية –١٩٧٣– ص ٢٦٨ . مرجع سبق ذكره .

وعلى العموم فإن حياة التنجس تتسم بالبساطة . ومن الجماعات التي تهتم برعي الرنة . قبائل الساموید . وجماعة النشوكشي . والتي تعيش في شمال شرقي آسيا . وجماعة الكورباك ، والتي تعيش شمال جزيرة كامشتكا . على ساحل المحيط الهادي . وجماعة البوكاغير وتعمل في صيد حيوان الرنة وصيد الأسماك . ويعد فصل الخريف والربيع هو أفضل أوقات صيد حيوان الرنة بسبب ذوبان الجليد في هذه الفترة وخاصة الربيع ويعد حيوان الرنة المصدر الرئيسي لغذاء السكان وكسائهم .

٢- خارج الوطن العربي :

ينتشر رعاة الإبل خارج حدود الوطن العربي ، وخاصة في منطقة أواسط آسيا والتركستان . ويعتقد بعض الباحثين أن الإبل وجدت في تلك المناطق منذ آلاف السنين ، وخاصة عند القبائل التي عاشت هناك آنذاك وأنه قد تم استخدامها أثناء غزو الحيثيين والكيثيين والميديين والمغول والتتار للوطن العربي بتلك الغزوات الهمجية العدوانية . وفي منغوليا . ووجد الجمل كذلك في أمريكا الوسطى الجنوبية ، ويستفاد من لحم الجمل كغذاء لكافة القبائل التي تقوم على تربيته كما يتناول هؤلاء حليب أنثى الجمل (الناقة)، وهو وسيلة نقل هامة عبر الصحاري والبوادي قاطبة .

رابعاً- رعاة الخيل :

يتوزع رعاة الخيل جغرافيا في مناطق التركستان ، وتتميز حياتهم بالتنقل والترحال بشكل دائم أيضا، وذلك بحثا عن المكان الذي يؤمن فيه إطعام الخيل ليس فقط من أجل استخدامه وسيلة نقل كما هو الحال عند القبائل الرعوية الأخرى مثل الجمالة والغنامة والبقارة، بل يستفاد منه لحما وحليبا وغذاء عند تلك الشعوب ، ومن أهم القبائل التي تهتم به قبائل القيرغيز والقازاق عبر

السهول والصحاري والتي تمتد بين بحر قزوين وبحر آرال . ويقوم الشباب برعي الخيل مع الأغنام والماعز .

وتستغرق فترة رعي الخيل خلال فصل الربيع والصيف والخريف ، أما في فصل الشتاء فيستقر الرعاة في أكواخ ثابتة .ويسكن الرعاة من تلك القبائل في خيم سريعة التركيب وسريعة الطي . ويستخدم الخيل للركوب وهم يتعلمون الفروسية من خلالها .

ويتناول السكان حليب الخيول (الفرس) ويعد مجتمع رعاة الخيل من المجتمعات المتطورة . حيث قاموا بتهجين أنواع جديدة من الخيول والأغنام والماعز .

وينحصر رعي الخيل تجاريا في آسيا الوسطى، وتقاس درجة غنى الرجل بمقدار ما يملك من الخيل وخاصة الفرس والحصان . ويهتمون بها كثيرا فهم يركبونها ويتباهون في استخدامها وما زاد الاهتمام بها كثيرا حتى أكبر الشعوب تتناول لحم الحصان . كوسيلة غذاء هامة .

ويعتقد (بيركت)[1] أن سهول آسيا الوسطى هي أقدم منطقة في العالم لرعي الخيل . وهنا تم استئناس الخيل . ولكن للرد على هذا الرأي على القول بأن الوطن العربي هو أقدم مناطق في العالم استئناس للحيوانات بسبب المناخ الرطب الذي كان سائدا فيه ، وإلا من أين جاءت الخيل العربية الأصيلة . التي استخدمها الإنسان منذ القديم كما أن الإنسان البدائي عاش في سورية وخاصة في جنوبها وفي منطقة يبرود وتم استئناس حيوانات الغنم والماعز والجمل والبقر في سورية ــ وخاصة في وادي اليرموك . وكانت الخيل هي إحدى الحيوانات التي استأنسها الإنسان في هذه المناطق واستخدمها للركوب.

---

١) د. صلاح الدين عمر باشا ، أ.د أديب باغ. ص١٢٨ . الوجيز في الجغرافية البشرية والاجتماعية. دمشق . مطبعة جامعة دمشق . ١٩٦٤

خامساً – رعاة الأغنام.

قبائل رعي الأغنام (الغنامة):

وهي تشمل القبائل المتخصصة برعي الأغنام وبعضها الآخر ذات الرعي المستعدد ، وخاصة في بلاد الشام حيث تنتقل هذه القبائل في بادية الشام وبين المنطقة الهامشية والداخلية، وتلجأ للانتجاع في عدة شهور من السنة وهي رعي الأغنام والماعز والإبل والأبقار والخيل. وهي تتوزع جغرافيا كما يلي :

أولاً – داخل الوطن العربي :

١ – في بلاد الشام :

تعد قبيلة العترة من القبائل الواسعة الانتشار ، وهي تتألف من عدة عشائر تجوب بأغنامها وقطعانها أنحاء بلاد الشام . وهي شمر والجربة ، والأحسنة والولد علي ، وجاءت هذه العشائر من شبه الجزيرة العربية مهاجرة مثل الفدعان والأسبعة ، والعمارات والبوشعبان واللهيب والوهيب والبوخميس والكبار والعمور والأبو جرادة وجميعها في سورية ، وعبد محجم وعشيرة المهيد والملحم .

ومن العشائر الأخرى ، قبيلة الرولة وتهتم بتربية الابل والأغنام والخيل ورعيها، والتي كانت تستخدم للركوب في أيام السلم والغزوات، وللخيل العربية الأصيلة قيمة وأهمية كبيرة . حيث كانت تستخدم للغزو منذ عام ١٩٢٣[١].

ومن فروع الرولة عشائر الجمعان ، والكواكبة ، والعتاقة، والعزجة ، والأشاجعة ، والمطلق ، وفي منطقة الغزلانية إلى الشرق من مدينة دمشق ، بسبب

---

(١) د. وصفي زكريا – مرجع سبق ذكره – ص٣٧٤ .

ملائمة الظروف الطبيعية من مراعي طبيعية ، ومناخ ملائم ومياه ، لسقاية الأغنام والماعز والإبل وإطعامها .

ويعد الجمل وسيلة نقل هامة عبر البادية والصحراء، ويستخدمه البدو في تنقلهم بالإضافة إلى الخيل والتي تعد وسائل نقل هامة في السلم ، وفي الغزوات والتي كانت تتم بين فترة وأخرى . وأما مصدر هذه العشائر فهو شبه الجزيرة العربية والفرات ولكن فترة هجرتها امتدت منذ ما يزيد على ١٥٠٠ سنة وهي فترة متأخرة والقرن الماضي . ومن خصائص حركة هذه العشائر وتنقلها هو عدم خضوعها لقانون ، بل إنها تنتقل متى أرادت وبأي شكل تريد مجتازة الحدود في بادية الشام ، بين الجزيرة العربية وسورية والأردن والعراق .

كما قاومت تلك القبائل الاستعمار والاحتلالات الأجنبية التي تعرضت لها تلك البلاد في الوطن العربي .

ومن العشائر أيضا : السوالمة – والعبد الله التي تتوزع جغرافيا في منطقة الفرات – والقيبة وشرق دمشق ، والعبادة وحران العواميد . وجديدة الخاص والهيجانة والبيطارت .

وتهتم برعي الأغنام عشائر النعيم وقد تم ذكرها سابقا –والفضل والتلادية في الجولان ، وكذلك الحمامرة – والحسيكات و الرهيب الصياد – والعقيدات وكانوا سابقا يملكون ١٢ ألف شاة و٣٥٠٠ جمل .

وقبائل الغياث في محافظة ريف دمشق وجبل العرب .

وفي الجولان : هناك عشائر الفضل (ذكرت سابقا) الهلالات – والشحاقبة البلاجة . البحاترة – المرازقة – وفي جنوب سورية – عشائر السلوط – والكواكبة – والمعرض والنصير –والدرعان – والولد علي والدياب والمناظرة والكلابات الفحيلة والمساعيد والشرافات والعظامات والشنابلة والحسن والرذية – والجوابرة وهم عشيرة زبيد ومنهم الغانم والحواش والربيدات.

وفي محافظة حمص :

هناك عشائر النعيم والرولة ومنهم الأسبعة والأحسنة وهم عشائر غنامة يتوجهون صيفا إلى ضفاف بحيرة قطينة .

وفي حماه :

الأسبعة ومنهم البيطنات يرعون الإبل والأغنام والخيل والعقيدات والبشاكم والجملان والموالي والحديدين . السماطية والجماجمة و(ذكرت سابقا) .

وفي محافظة حلب :

الموالي والحديدايين في جبل سمعان السفارنة والعساسنة، والابوليل والولدة، الأبوشيخ والبقارة من دير الزور والوهب والأبو شعبان

في محافظة ادلب:

الحديديون – الوهب – البوخميس ويرعون الإبل والخيل والأغنام . وعشائر المجادمة والعون من الأبوعاصي والأبوجميل والفردون والتوامان والنهادي .

وفي عين العرب:

الفدعان و العون والولد علي والأبو بنا والتوامان وبن سعيد والأبو سلطان وهم من بقارة دير الزور . الجلاد والنميرات و أبو بطوش و الابو خميس والولدة وهم غنامة وبقارة

وفي دير الزور:

العقيدات والأبوسرايا والأبو خابور والأبو ليل والكبير وهم غنامة وجمالة .

وفي الميادين :

الحسون والعقيدات والأبو مريج و المجاورة والمشاهدة و الابو حردان

والابو شعبان و العفادلة والولدة والأبو عساف الجيام والمشهور وغيرهم .

وفي الجزيرة السورية:

شمر وسنجارة والخرصة والعبده والأسلم والفرحان وشمر الزور و شمر الحدود وطيء .

وتنتشر عشائر طيء في محافظة الحسكة وكذلك عشائر قيس وتلفظ (الجيس) وهي من العشائر التي هاجرت من الجزيرة العربية . ويوضح الشكل رقم (٢٧) التوزيع الجغرافي للعشائر في بلاد الشام .

ويقدر عدد رؤوس الأغنام في العالم ١/١٧٥ مليار رأس عام ١٩٩٠ وهي موزعة جغرافيا كما يلي : ١٢% في روسيا ورابطة الدول المستقلة ، وفي الصين الشعبية ٩ % ثم في بلدان تركيا والأرجنتين وجنوب أفريقيا و الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وأورغواي والبرازيل وأثيوبيا و نيوزلندة واستراليا.

الشكل(رقم ٢٧) التوزع الجغرافي للمناطق الرعوية في سورية

٢- في شبه الجزيرة العربية والعراق :

ينتشر العديد من القبائل المذكورة سابقا بين شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق حيث تجوب البوادي . مع قطعان الأغنام التي تمتلكها . وذلك بحثا عن المراعي ومناطق الواحات . مثل قبائل العنزة والرولة وشمر وغيرها . وتعد حرفة رعي الأغنام خاصة . الحرفة الرئيسية لها مع وجود بعض قطعان الأبقار والخيل والإبل والماعز أحياناً عند بعضها .

وفي العراق:

هناك عشائر العمارات ومنهم الجبل والداهمشة وبنو خالد والذين يعيدونهم إلى مخزوم من قبيلة من قريش العدنانة، ويعود نسبهم إلى خالد ابن الوليد . وهنالك عشائر الفواعرة في الجولان ومناطق أخرى من سورية ولبنان وعشائر الحروك وهم من العشائر الغنامة . ومنهم بيت جريبان وبيت شاهر – الروبسات . وهم يهتمون بتربية الغنم والإبل والخيل، وكذلك عشائر العقيدات والعمور ، ومنهم عمور الخزسان وعمور الأبوحربة والبدور والنجاد، والصليب "الصلبة" ومنهم المالك والهزيم والمسيلم والجميل ، والطرنة . والصبيحات – الطيبة – واليتيم والواقية والماجد والحازم وغيرهم في بادية الشام. وهم عشائر جمالة وغنامة وخيالة .

وكذلك عشائر العويشات في وادي خالد . يرعون (غنماً وبقراً وابلاً) والعجارمة والحمدون ، واللقلوق في جبل لبنان وعرب المسلخ في وسط وجبل لبنان وفي محافظة اللاذقية الزعيرات – وبني عامر وفي محافظة حمص الدنادشة في منطقة تلكلخ .

٣- في إفريقيا العربية :

وجد العديد من القبائل الغنامة في صحراء مصر الغربية والشرقية وبعضها

في السودان وفي إقليم المغرب العربي ومما يساعد على انتشار حرفة رعي الأغنام وجود المراعي الطبيعية في المناطق السهبية وفي الواحات وعلى أطراف الصحراء العربية الكبرى .

ومن قبائل المغرب العربي:

الرقيبات وأولاد دليم والمناصير وآل الشيخ وماء العينين وغيرهم .

سادساً – الخصائص الاجتماعية للقبائل البدوية :

تهتم القبائل البدوية بالأنساب ومراتبها ، لأنها تشكل صلة القربى ضمن القبيلة الواحدة وبين قبيلة وأخرى ، وهي الرابطة الدموية للقبائل العربية المتحضرة والبدوية، خاصة وأنها كانت تعتمد الغزو والترحال والتنقل ، وكان هذا النظام قائماً في شبه الجزيرة العربية لتلك القبائل قبل هجرتها إلى بلاد الشام وبلاد الرافدين وإلى الغرب عبر وادي النيل، وقد حملت تلك القبائل معها هذه الخصائص القبلية وهي ما زالت تمارس حرفة الرعي وهذه الأنساب هي الفصيلة ، ومجموع الفصائل[1] ثم الأفخاذ ومجموع الأفخاذ تؤلف البطون ، ومجموع البطون تؤلف عمارات، والعمارات تؤلف القبيلة ، والقبائل تشكل شعباً وتعتبر العشائر هي الإطار الواسع لصلات القربى بينها [2] .

أما كلمة بدوي فقد جاءت من بدا ، أو التبدي والظهور على سطح الصحراء والأرض ومنها اشتقت كلمة بدوي وبداوة .

وقد امتازت حياتهم بالتنقل والترحال والتجوال بحثاً عن سبل العيش وإطعام الماشية، والأغنام والإبل ، ويرحلون حيث المياه والواحات وهذا ما يفسر

---

(١) د. جواد علي – المفصل في تاريخ العرب – الجزء الأول – مرجع سبق ذكره .

(٢) د. قاسم الربداوي – دراسة ميدانية في التجمعات السكانية للبادية السورية عام ١٩٩٩م .

أنهم بحاجة إلى مسكن ينتقل معهم ويسهل حمله وبناؤه ولذلك فإن بيت الشعر هو ذلك البيت المتنقل معهم في حلّهم وترحالهم .

وتعد العصبية القبلية هي إحدى صور القربى الشديدة بين تلك القبائل والعشائر وفروعها، وتهتم بها كثيراً وعليها تقع مسؤوليات عديدة من الأخذ بالثأر أو دفع الدية . كما هو سائد بينهم .

وبالإضافة إلى ذلك هنالك العديد من الخصائص وهي :

مراتب البنية الداخلية للقبيلة الواحدة :

تتدرج المراتب للقبيلة أو العشيرة بدءاً من سيدها أولاً ، ويتميز بأنه صاحب العقل الراجح ، يساعده رؤساء الأفخاذ، وهم يقدمون له المشورة وهنالك طبقة العامة ، وهم عموم أفراد القبيلة أو العشيرة ، وطبقة العبيد وهم يقومون على خدمتها .

أما رئاسة العشيرة فإنها تنتقل بالإرث إلى الأبناء وإلى أحفادهم بالإضافة إلى شروط أخرى يجب أن تتوافر بمن يتسلم رئاسة العشيرة أو القبيلة ، ومعروف عنه بالكرم والشجاعة والحكمة ووجود المضافة الكبيرة عنده، ويعد هو المرجع الرئيسي للعشيرة وله سلطات عديدة منها قيادة العشيرة أو القبيلة وهو الذي يقرر رحيلها إلى منطقة أخرى حيث يرسل في البداية عدداً من الفرسان الذين يبحثون عن المكان الذي تتوافر فيه شروط الرعي وأحياناً هو يقوم بالاستطلاع شخصياً ليستطيع تأمين مرتع جديد للقبيلة أو العشيرة فهو المسؤول عنها ، كما يقوم بحل المشكلات بين أفراد عشيرته بالوجاهة، ويساعد الفقراء والضعفاء ويسهر على راحة العشيرة أو القبيلة .

كما أنه يقوم بمهام كثيرة حين يقرر مع مجلس يساعده من كبار السن في أمور الحرب والسلم والتحالف مع العشائر الأخرى ويمثل عشيرته أمام السلطات المختصة.

ويعتمد أيضاً رئيس العشيرة على التشاور مع أعضاء المجلس وفي حال الغزو وعندما تعلن الحرب يقوم برفع الراية السوداء إيذاناً بأن هناك معركة ستحدث فيستعد الجميع من الشباب والقادرين على حمل السلاح على خوض هذه الغزوة أو المعركة أو صد غزو لعشيرة أخرى ليحموا مضارب عشيرتهم والدفاع عنها، وتضرب الطبول إعلاناً للغزو أو المعركة .

وعندما يصبح رئيس العشيرة كبيراً في السن، أو يتعرض للمرض الشديد الذي سينتهي بالوفاة فإنه يورث رئاسة العشيرة كبيراً وغالباً ما يكون أحد أبنائه بالدرجة الأولى أو أحد أخوته أو أحد أحفاده أو يوكل أمر العشيرة لشخص ما إذا لم يكن له أولاد أو أخوة ولكن يشترط دائماً أن يكون الوريث على قدر كبير من المسؤولية والصفات الحميدة والحكمة والذكاء والقدرة على تسيير أمور العشيرة والحكم بين الناس بالعدل ومتابعة أمور العشيرة يومياً وحل مشكلاتها . وتأمين مرعاها وسكنها بالإضافة إلى صفات الكرم والشجاعة والحلم والحكمة والتشاور مع مجلس العشيرة أو القبيلة وتنطبق هذه الصفات المذكورة على مختلف العشائر البدوية في بادية الشام والعراق والجزيرة العربية .

ويعد هذا النظام الاجتماعي في سلطة العشيرة نظاماً خاصاً لها وفق منهج تقليدي معتمداً لدى تلك القبائل منذ آلاف السنين .

ومن مهام هذا النظام الخاص تسيير الأمور، والفصل في كافة الأمور ، من حل خلافات، وترحال، والزواج، والطلاق ، وإدارة شؤون القبائل والعشائر . وتنتقل رئاسة العشيرة أو القبيلة بعد وفاة رئيسها إلى أحد أبنائه أو أخوته أو المقربين جداً منه إذا لم يكن لديه أبناء أو أخوة . وربما تنقل إلى شيخ من فخذ آخر إذا لم يكن له ورثة .

من الخصائص الأخرى – الصداقة بين القبائل والعشائر والتي تقود إلى التحالف . وعندما تتعرض عشيرة إلى غزو فإنه يجب على العشيرة الصديقة أن

تنجدها، وتقف إلى جانبها فالغزوات والحروب هي سائدة بين تلك القبائل والعشائر وذلك بسبب التنافس على المرعى أو بسبب الثأر أو لأسباب أخرى عديدة . وقد تتحالف قبائل لرد الغزو أو القيام به .

أما عن بيوت البدو _ وقد ذكرت سابقاً فهي مجموعة بيوت شعر ، يطلق على قاطنيها (فريق عرب) وتكون متقاربة من بعضها البعض . وقسم من البيت مخصص للنوم وقسم آخر للضيافة ، ففي كل بيت يوجد (شقّ المضيف) ولكنه أكبر البيوت حجماً واتساعاً للضيافة هو بيت رئيس القبيلة أو رئيس العشيرة .

ويقسم البيت داخلياً إلى (الربعة أو الشق للرجال ، والمحرم أو الحذر للنساء) وفي داخل البيت حفرة صغيرة لإشعال النار أيام البرد الشديد والأمطار في فصل الشتاء – يطلق عليها اسم (النقرة أو الكانون) ويشعل فيها الحطب أو مخلفات الحيوانات للتدفئة .

وتعد القهوة العربية الأصلية رمزاً لكل بيت . ويحتفظ كل رب أسرة في بيته "بدلال القهوة" (جمع دلة) وتكون مليئة بالقهوة والموضوعة على الحطب المشتعل النار، وهي رمز للضيافة تقدم للضيف بعد جلوسه .

وأما عن لباسهم:

فالرجال يلبسون "ثوباً" يسمى كلابية ، وشماخ وعقال وعباءة و يلبس "فروة" في فصل الشتاء وفي الليالي الباردة وهي مصنوعة من جلد الخاروف أو الماعز المغطاة بالقماش.ويحزم البدوي خصره دائماً بزنار صوف أو نطاق جلد عريض ، أو جناد وهو دائماً لديه وسيلة دفاعية . ويضع البدوي على رأسه (قضاضة) بيضاء وتسمى "شورة" عند أهل الحضر .

أما لباس النساء

فهو عباءة (وعصبة على الرأس والشمبر) والثوب المطرز (بألوان مختلفة

الخيوط) ومن مظاهر الزينة الخزام الذي يتدلى من الأنف. والمصنوع من الذهب والفضة ، بالإضافة الأقراط الذهبية المعلقة في الأذان .

وعندما يصاب البدوي بالأمراض العارضة فإنه يلجأ للمعالجة بالطب الشعبي حيث في كل قبيلة طبيب أو أكثر يقوم باستخدام الحشائش والأعشاب كأدوية أو أن تتم معالجة الأمراض المعدية والأوبئة باستخدام (القطران) لدهن الجلد مثلاً، أو أن يلجأ الطبيب باستخدام التعاون لطرد الأرواح الشريرة من جسم المصاب وقد يقوم البدوي بذبح (النذر) أي ذبيحة كي يشفى من المرض أو قضيت له حاجة استعصى حلها . أو إذا أنجبت زوجته ابناً ذكراً . ولم يكن عنده سابقاً أي ابن من الذكور .

الزواج والطلاق عند البدو :

يعد الزواج عند البدو ذا أهمية كبيرة كونهم دائماً يرغبون في إنجاب المزيد من البنين ليصبحوا عدداً إضافياً للقبيلة لحاجتهم إليهم ، . وتزيد من أواصر القربى والنسب .

ومن المعروف أن الشاب عندهم يتزوج في سن مبكر بين ١٨-٢٤ سنة. والفتاة من سنة ١٤ سنة .

ويقوم أهل الشاب وأقاربه بخطبة الفتاة التي يريدها زوجة له ويخطبها من أهلها . ولوالدها الرأي في أن يزوجها لمن يشاء . وعند الموافقة يتم الاتفاق على دفع مهر للزواج وهو عبارة عن عدد من رؤوس الإبل أو الغنم أو الماشية مع عدد من الليرات الذهبية بالإضافة إلى تجهيز البيت كاملاً من قبل أهل العريس .

ويقوم الأهل بإهدائها بعض الهدايا والتي تصبح ملكاً لها وكان المهر سابقاً حوالى ١٠٠ ليرة ذهبية، ويقوم العريس بإهداء أم عروسه هدية .

وهنالك زواج "البديلة" (أن يقوم كل شاب بتزويج أخته لشاب آخر مقابل أن يتزوج هو أخت ذلك الشاب رسمياً) دون الحاجة لدفع المهر وبالنسبة

لتعدد الزوجات ، فإن هذه الظاهرة موجودة عند شيوخ القبائل والعشائر. وقد يتزوج سيد القبيلة زوجتين أو ثلاث أو أربع زوجات وبعضهم يلجأ للطلاق ليتمكن من الزواج من أكثر من ذلك ، وهنالك العديد من أفراد القبيلة من يتزوج بأكثر من امرأة رغبة في إنجاب المزيد من البنين، والطلاق موجود عندهم ولكن بنسبة قليلة.

ومعروف عن البدوي أنه يختار زوجته بعد معرفة أهلها وحسبها ونسبها وهنالك نوع من الزواج هو "الخطيفة" أي (الخطف) أن يقوم الشاب بخطف فتاة يرغب بزواجها لكن أهلها يرفضون زواجه منها . ويكون الخطف رضائياً من قبلها . وتتم فيما بعد المصالحة بين أهل الخاطف وأهل الفتاة المخطوفة . ويقوم هو بإجراء عقد رسمي وعرفي بينه وبينها ويسمى هذا بالخطف الرضائي . وهنالك خطف بالقوة ويصعب إجراء الصلح عليه فيما بعد إلا بعد فترة طويلة .

ويحدد يوم العرس بعد أن تتم إجراءات الخطبة الرسمية . ويجتمع أقارب العريس والعروس، ويقوم العريس وأهله بدعوة الأقارب كافة للعرس، ويستغرق الفرح . ودبكة العرس والتعليلة كما يسمى عدة أيام قبل يوم الزفاف .

ويقوم العريس وأهله بذبح الخراف الكثيرة يوم الزفاف . وتقدم الهدايا لأهل للعريس من قبل أصدقائه وأقاربه . ويدعو العريس وأهله القبائل المجاورة من العشائر في الديرة احتفاءً بالعرس .

ويكون عرس ابن رئيس القبيلة كبيراً، ويدعى له الجميع وحتى أبناء وجهاء العشيرة. ويدعى لحضور العرس أفراد العشيرة كافة .

وتركب العروس على الجمل بموكب يسمى "الهودج" المزين ويحيط بها الحيّالة، وهم يتسابقون بوساطة الخيل التي يركبونها.

ويعد شرب القهوة دليلاً على الكرم، ومؤشراً على استجابة الضيف للمضيف إذا كان له عنده حاجة أو طلب ما . ومن العادات أن يستمر صاحب

البيت بصب القهوة في الفنجان حتى يقوم الضيف "بهز الفنجان بيده" . أما عن طعام البدو فهو الخبز والذي يصنع من القمح المطحون ، بوساطة الرحى أو الطحين المستورد بوساطة أكياس من المدن ، أو الجاروشة التي تطحن القمح ليخرج على شكل حبيبات (البرغل)، ويطبخ بالسمن مع اللبن ، واللحوم ، ويعد اللبن الغذاء الرئيسي للسكان . ويتم اصطياد بعض الحيوانات في الصحراء والبادية مثل الأرانب والغزلان والطيور أحياناً . ويصطادون أحياناً الجربوع والضب ويأكلونهما. حتى إنهم يأكلون لحم الضبع ويعدونه علاجاً لكثير من الأمراض، ويقدمون للضيف الطعام وهو اللحم مطبوخاً مع البرغل ، وللضيف مكانة خاصة عند البدو، ويقدمون له القهوة العربية الأصيلة .

ويكون مكان الضيف هو بيت رئيس العشيرة، ومدة الضيافة عندهم ثلاثة أيام حيث يصل الضيف، ويبقى تلك الفترة، ويُسأل بعدها عن طلبه .

ويتسلحون بالسيف والرمح والسهام قديماً، وكذلك يتسلحون بالمقلاع وغيره ، ومن عادات البدوي الارتحال حيث يعتمدون عليه بشكل دائم طلباً للبحث عن الماء والكلأ .

ويقوم الرجال بمهمة الرعي حيث يغادرون مكان الإقامة عند الصباح الباكر، وتذهب النساء عند الظهر للقيام بحلب (الأغنام) أو الماعز، ثم يقومون بتصنيع الحليب أو بيعه إلى شخص متخصص لتصنيعه يقيم بجانب (فريق العرب)

وأثناء الرحيل ينتقل الشباب مع الأغنام، والنساء تركب على الجمل، ويركب الرجال الخيل، وتحمل بيوت الشعر إلى أن يصلوا منطقة النزول الجديد حيث تبنى بيوت الشعر .

ومن عادات البدو الأخرى حملات الغزو أي الهجوم على القبائل الأخرى وذلك بقصد الانتقام والثأر، أو بسبب الحصول على المال والثروات الأخرى ،

أو القيام بعمليات الإغارة. وتقوم القبيلة أو رجالها بإرسال أشخاص في البداية ليستطلعوا مضارب أعدائهم الذين سيقومون بغزوهم ويكون الغزو فجائياً ومباغتاً وذلك لتحقيق النصر على الخصوم ثم يعودون وقد حققوا نصراً، أو لحقت بهم الهزيمة وفي حال كتب لهم النصر فإنهم يقومون بأخذ الغنم أو الإبل أو الماشية أو الماعز أو الخيل ، وكل ما يقع تحت سيطرتهم ، وكانت عادة سبي النساء عند العرب في العصر الجاهلي سابقاً وهي عادة ترفضها كل القوانين والأعراف والتقاليد وتعد تعدياً على كرامة الإنسان ومثله وقيمه وللقيام بعمليات الغزو أو الوقوف في وجه الغزوات لجأ العرب إلى مبدأ التحالف والتضامن مع القبائل والعشائر الأخرى .

التحكيم والقضاء وقانون العشائر يعتمد البدو على قضاء خاص عندهم للفصل في الكثير من القضايا والمشكلات، ويعتمدون على العرف من خلال التجارب والممارسة والخبرة والثقة التي يحظى بها القاضي والمعروف باسم "العارفة". ومن خصائص الحكم عنده اعتماده على القياس بأحكام سابقة، وكما يقولون أي مثيل هذه القضية وصدر لبعض العشائر قانون سمي (بقانون العشائر) الذي يتضمن مختلف القضايا الاجتماعية من أحكام الزواج والطلاق والأفعال الجزائية والعقوبات، والدية، وعقوبة الخطف بالعنف، والخطف بالرضى حيث إن العديد من الحكومات أخضعت الكثير من البدو لأحكام قانون العشائر خاصة، وحصرته في البادية والمقيمين هنالك ، ومن القبائل التي حددت العوارف (قبيلة شمر) وتعود كلمة عارفة إلى من له معرفة بتلك الأحكام العشائرية، والابن يرث الأب في أن يكون عارفة مثل أبيه، وللقاضي البدوي مكانة كبيرة وكلمته هي المحترمة والفاصلة في القضايا والمشكلات كافة ، كما أن الأحكام التي يصدرها هي نافذة، وتكون علنية أمام الناس جميعاً الذين يحضرون المحاكمة. وإذا اعترض أحد على حكم ما . فله الحق أن يعترض على ذلك وتحال القضية إلى

قاضٍ آخر هو قاضي (المنهي أو قاضي المناهي)[1] .

ويتضح من ذلك أن القضاء البدوي قد أعطى الحق بالاستئناف لمن يريد من الناس، وهذا يعد عامل مرونة في تلك الأحكام وأعطى للشخص حق المرافعة عن قاضي آخر قد يكون أكثر خبرة . واكتسب القضاة والعوارف الخبرة في هذه الأحكام .

ويتم انتخاب القاضي في بيت شيخ العشيرة وأمام جمع من الناس ، وتجري المحاكمة حيث يطرح كل من المتخاصمين حجته وقضيته ، ويقدم كل واحد كفيلاً له . ويحضر الشهود إذا استدعى الأمر ثم يصدر الحكم . وقد يحتاج الأمر أن يقسم أحد الطرفين اليمين ، ويعد القسم من أخطر الأشياء عن البدوي. أما بالنسبة للبيع والشراء فتتم بموجب عقود ، وللشفعة حق يؤخذ به عند البدو ، فمثلاً يقصد به : إعلام الأقارب عن تقدم شخص لخطبة إحدى بنات من العشيرة. فإذا أراد أحد أن يخطبها من الأقارب وأبناء العم مثلاً ، والشفعة مراتب حسب درجة القرابة فالشفيع له الحق أن يجبر المخطوبة . وإذا أراد بأنه يخطبها .

وللإرث عند البدو حق للأبناء والبنات وثم الزوجة أو الزوج والأخوة والأقارب ، وهنالك طرق لمعرفة الحقيقة أمام القاضي مثل البشعة، وهي تلحيس النار لمن ينكر الاعتراف بقضية ما .

هنالك الكثير من القضايا الجزائية التي يتم حلّها وفق قانون العشائر بالنسبة للرجال والنساء ، وهنالك الدخالة: وهي إحدى العادات والتقاليد الهامة حيث تتم حماية الدخيل، وهو الذي التجأ إلى العشيرة لحادثة ما أو لخطر يلحق به فمن واجب القبيلة أو العشيرة تأمين الحماية له.

---

(١) د. وصفي زكريا – تاريخ العشائر – ص٢٦٢ . مرجع سبق ذكره .

ويتم حل الكثير من القضايا بالصلح ضمن العشيرة الواحدة أو بين العشائر والقبائل . ولكل قضية حسب نوعها، وحق الجيرة وحماية الجار إحدى التقاليد البدوية الهامة ، فلا يجوز الاعتداء على من منح حق الجوار وحق الإخاء أو "الخاوة" ، وهو مبلغ يدفعه الضعيف للقوي من البدو . حيث كانت تقوم الكثير من القبائل بأخذ " الخاوة " أو الجزية من جماعات ضعيفة، وهي تعد نوعاً من أنواع استضعاف القوي للضعيف، وهي تؤخذ بغير وجه حق .

تلك هي أهم العادات والتقاليد والخصائص الاجتماعية عند القبائل البدوية الغنامة والبقارة والجمالة في بلاد الشام والوطن العربي والتي تتخذ من الرعي مهنة رئيسية لها.

الوضع التعليمي :

يتميز الوضع التعليمي في البادية السورية بوجود المدارس وارتفاع نسبة المتعلمين في المجتمع البدوي . ووجود الكادر التعليمي بسبب اهتمام الحكومة بذلك .

وتبين من خلال الدارسة الميدانية ارتفاع نسبة المتعلمين ، وانخفاض نسبة الأمية والتي تصل إلى ٢٠ % وخاصة عند كبار السن ولذوي الأعمار ٥٠ سنة فما فوق. ويتم تطبيق التعليم الإلزامي على الأبناء المسجلين في الأحوال المدنية كافة ومن ذوي الأعمار ٦ سنوات، وبعد مرحلة التعليم الأساسي يبدأ التلاميذ بالتسرب من المدارس لمساعدة أهلهم في الرعي . ويوضح ذلك الجدول رقم (٨) والشكل رقم (٢٨) .

الحالة التعليمية للبدو في البادية السورية

الجدول رقم (٨)

الحالة التعليمية	العدد	البنية
أمي	٨	٢٠
ابتدائية	٢٥	٦٢
إعدادي	٥	١٢
ثانوي	٢	٥
المجموع	٤٠	١٠٠

المصدر : نتائج الدارسة الميدانية عام ١٩٧٧

الشكل رقم (٢٨) :

الحالة التعليمية للبدو في البادية السورية

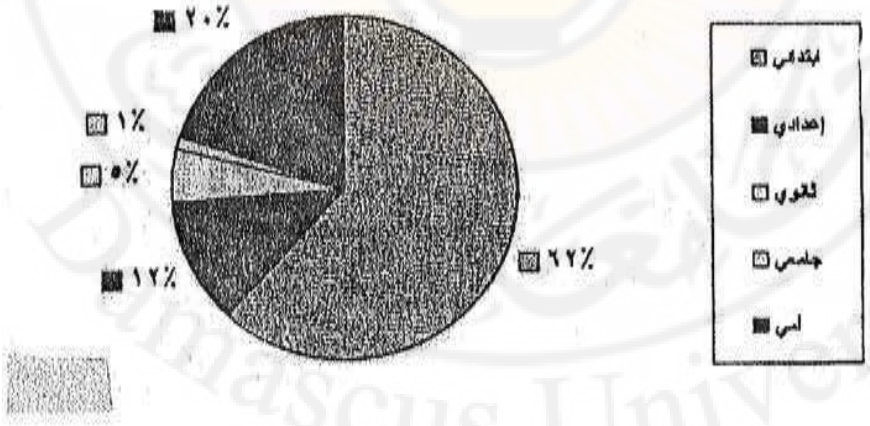

الخصائص الديموغرافية:

١. يتميز المجتمع البدوي ديموغرافياً بزيادة نسبة الفئات العمرية الصغيرة الشابة بين فئات الأعمـــار (٠-٤) (٥-٩) (١٠-١٤) (١٥-١٩) (٢٠-٢٤) ، وذلك بسبب ارتفاع نسبة الولادات . وتعدد الزوجات . وارتفاع الخصوبة السكانية وتعود زيادة الولادات للعادات والتقاليد . وحب إنجاب البنين من الذكور ولمساعدة الأهل على الرعي . وانخفاض سن الزواج وخاصة عند الذكور .

٢. الحالة العائلية : تبلغ نسبة العزاب حوالى ٦٠ % من مجموع السكان وأغلبهم من ذوي الأعمار دون سن ٢٠ سنة ، وسبب ارتفاع تلك النسبة هي ارتفاع نسبة صغار السن، وترتفع نسبة المتزوجين فوق سن ٢٠ سنة حتى تصل إلى أكثر من ٨٠ % من المجموع العام لتلك الفئات العمرية .

٣. تشير الدارسة الميدانية إلى أن ٩٠ % من مساكن البدو هي بيوت شعر ، كما وقد ذكر ذلك سابقاً ، وأن ١٠ % من مجموع مساكن البدو في البادية السورية الجنوبية هـــي مبنـــية من الحجر البازلتي بسبب كثرة البازلت، ووعورة المنطقة، وحاجة هذه القبائل والعشائر أن تقيم شتاء في بيوت مستقرة بعد عودها من مرحلة الرعي باتجاه الغرب حيث المناطق الداخلية.

٤. يتميز التركيب المهني للسكان . بأن ٩٢ % من البدو يعملون برعي الأغنام بالنسبة للقـــبائل الغـــنامة ، وأن ٦ % يعملون بتجارة الأغنام و ٢ % يعملون في فلاحة الأرض حيـــث تحضر قسم منهم، ويعملون على تجهيز زراعة الأرض، ويستخدمونها للرعي بعد الانتهاء من عمليات الحصاد.

سابعاً – المشكلات التي تعاني منها القبائل البدوية :

تبين من خلال دراسة خصائص المجتمع الرعوي عند القبائل البدوية ، ومن خلال الدراسة الميدانية بأن هنالك عدة مشكلات تعاني منها تلك القبائل وهي:

١) مشكلات رعوية وتتمثل في نقص المراعي بسبب زيادة عدد رؤوس الأغنام والماعز والإبل والأبقار ، وعدم توسع المراعي . وتبين من خلال الدارسة الميدانية أن ٦٠ % من القبائل والعشائر تعاني من نقص المراعي وخاصة في فصل الشتاء ، أما في فصل الصيف فهناك حركة تنقل للبدو باتجاه مناطق الزراعة للرعي بعد القيام بعمليات الحصاد

٢) مشكلات خدمية ، وتتلخص في نقص طرق المواصلات ووسائلها وخاصة في قلب الصحاري والبوادي . وصعوبة الوصول إلى مضارب الكثير من العشائر والقبائل البدوية. بالإضافة لنقص العناية البيطرية لمعالجة الأمراض التي تصيب الحيوانات المرعية .

٣) عدم تقديم الخدمات الطبية للقبائل البدوية بشكل متواصل باستثناء وجود جولات ميدانية للأطباء . ولكن بعض القبائل تحظى بوجود المستوصفات والخدمات الطبية كما هو الحال عند القبائل التي تعيش في البادية السورية حيث تم بناء مستوصفات طبية مع كادر طبي لها .

٤) وجود الكثير من أبناء البدو غير مسجلين في دوائر السجل المدني وهو ما يعرف بالمكتومين .

٥) عدم تأمين المياه اللازمة والكافية للجماعات الرعوية .. مما يؤدي لإصابة العديد منها بالعطش وخاصة وسط البوادي والصحاري . حيث يتم تأمين المياه بوساطة الصهاريج . وهذه مشكلة ، إذ أن ٨٥ % من سكان التجمعات البدوية يفضلون

حفـــر آبار ارتوازية . أو هي بحاجة إلى جر المياه بوساطة قساطل المياه إذا تعذر حفر آبار ارتوازية .

٦) تناقص عدد الإبل عند الكثير من القبائل البدوية مع العلم أن الإبل تمثل ثروة حيوانية هامة يجب الحفاظ عليها .

٧) عـــدم وجود أماكن لتسوق البدو قريبة من تجمعاتهم السكنية باستثناء وجود الباعة الجوالين الذين يجوبون تجمعات البدو وبين بيوت الشعر للقيام ببيع الحاجات المختلفة

٨) عدم وجود المدارس في التجمعات البدوية في أنحاء الوطن العربي كافة. وارتفاع نسبة الأمية بين الجماعات البدوية .

٩) تعد كميات الأمطار الهاطلة هي التي تتحكم في التوزع الجغرافي للبدو . وخاصة في رحلاتهم الفصلية بحثاً عن الطعام والماء .

ثامناً – تطوير المجتمع الرعوي

يعـــد تطويـــر المجـــتمع الـــرعوي الـــبدوي من أهم الحلول المستقبلية والمسائل الهامة والضرورية. التي يأتي من خلال حل المشكلات السابقة الذكر كافة وهي:

١. زيادة الاهتمام بتحضير البدو . وقد قطعت الكثير من البلدان خطوات هامة في هذا المجـــال كمـــا هـــو الحال في السعودية وسورية وبلدان الخليج، ويتمثل ذلك بتقديم الخدمات للتجمعات السكانية البدوية كافة.

٢. ربط مراكز تجمع البدو شتاءً وصيفاً بطرق مواصلات إسفلتية هامة معبدة، وتأمين وسائل المواصلات من آليات وسيارات ووسائل نقل الأغنام والماعز (الشاحنات) .

٣. الاهتمام بالإبل والخيل والماشية وتقديم الأعلاف لها حين اللزوم وذلك حفاظاً عليها . وعلى زيادة عددها . وإيصال تلك الأعلاف لتلك التجمعات السكانية البدوية .

٤. إنشاء الحظائر اللازمة والضرورية في مناطق وجود القبائل البدوية وذلك حماية لتلك الثروة من عوامل الطبيعة .

٥. العمل على إيصال مياه الشرب الخاصة بالأفراد إلى مختلف تجمعات البدو . وكذلك لتأمين سقاية الحيوانات المرعية، أو القيام بحفر آبار ارتوازية وبناء السدود في الصحاري والبوادي، وبناء الحفر لحجز المياه .

٦. تـأمين الخدمات البيطرية اللازمة للحيوانات التي يرعاها البدو كافة ويتم ذلك عن طريق إرسال الأطباء البيطريين .

٧. القيام ببناء المراكز الصحية في أماكن تجمع القبائل البدوية ، إما بوساطة مراكز ثابتة أو بوساطة كرافانات بحيث ترافق البدو مع تنقلهم ترحالهم .

٨. إيصـال الكهـرباء للتجمعات السكانية في البادية وعلى أطراف الصحاري وذلك لاطلاعهم على مختلف سبيل الحياة الحديثة .

٩. العمل على الحفاظ على الغطاء النباتي الذي هو ضروري لرعي تلك الحيوانات .

١٠. إيصـال الثقافة ووسائلها إلى مختلف التجمعات السكانية البدوية من خلال السينما والتلفزيون.

١١. افتتاح المدارس ودور الثقافة بشكل متواصل .

٢- رعي الأغنام خارج حدود الوطن العربي :

تنتشـر حـرفة رعـي الأغـنام في أنحاء العالم في أواسط أسيا ومنغوليا ، والهند والصـين وتركـيا واسـتراليا ، وأوربـا وامريكا وأفريقيا حيث تقوم جماعات رعوية عديـدة متخصصـة بـرعي الأغـنام . وهي تنتقل مع قطعانها بحثاً عن الماء والكلأ . ولها طبيعة حياتها الاجتماعية الخاصة بها .

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الفصل الثالث

المجتمع الاشتراكي

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

مقدمة :

تميز المجتمع الاشتراكي بعدة خصائص ، ومر بعدة مراحل تاريخية منذ قيام ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ في روسيا . والتي أصبح اسمها فيما بعد الاتحاد السوفيتي، وتوسعت حدود الدول الاشتراكية لتشمل مناطق وبلداناً عديدة في العالم، وخاصة في أوربا الشرقية وفي آسية وأمريكا اللاتينية .

وقد أثرت الخصائص الجغرافية لتلك البلدان في درجة تطورها من خلال استغلال الثروات الطبيعية بشكل مخطط ومنظم ، وشكلت عاملاً اقتصادياً قوياً، بالإضافة إلى تمكن الإنسان الذي استوعب الفكر الاشتراكي من الارتقاء بفكره إلى تحقيق التطور والتقدم خلال ما يزيد على ٧٠ عاماً .

حيث تعرض الاتحاد السوفيتي ودول المنظومة الاشتراكية إلى انهيار بفعل عوامل داخلية وخارجية . انتهت بانهيار الاتحاد السوفيتي ودول المنظومة الاشتراكية في أوربا الشرقية ، وأعلنت تلك البلدان استقلالها، وأصبح لها نظامها الاقتصادي والسياسي ، ولكن بقيت العديد من البلدان متمسكة بخطها الاشتراكي ولم تؤثر فيها عوامل التغيرات والتحولات . مثل الصين وكوريا الشمالية وفيتنام وكوبا . ويتضمن هذا الفصل دارسة شاملة عن تلك البلدان . وخصائصها الجغرافية والاجتماعية . ودرجة تطور مجتمعاتها .

المراحل التاريخية :

اجتاز المجتمع الاشتراكي عدة مراحل تاريخية منذ التأسيس وثورة عام ١٩١٧ – وحتى ١٩٩٠ وهذه المراحل هي:

١-المرحلة الأولى ما قبل عام ١٩١٧ :

تميزت فترة الحكم القيصري لروسيا قبل عام ١٩١٧ بسيطرة الإقطاع والرأسمال على مقاليد السلطة ، وتعرض العمال والفلاحون إلى أقسى ظروف القهر والحرمان ، وتحول الفلاح إلى رجل فقير حقوقه مسلوبة ولا يملك شيئاً بل يعمل عند الإقطاعي بأجر زهيد ومحروم من إنتاجه ، وكذلك الأمر بالنسبة للعمال إذ كانوا يعيشون أيضاً وسط أشكال التسلط والقهر وإطالة ساعات العمل وانخفاض في الأجور، وفي خضم هذه الظروف كثرت الاحتجاجات والغليان . وسبق ذلك قيام الحرب العالمية الأولى . مما أدى إلى قيام ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ التي نجحت في إسقاط الحكم القيصري . وبدأت تطبيق الاشتراكية

٢-المرحلة الثانية : بين أعوام ١٩١٧ – ١٩٣٩ :

امتازت هذه المرحلة بمجموعة كبيرة من الخطوات لترسيخ الفكر الاشتراكي إذ شملت قرارات تأميم الأراضي . والتي تحولت إلى ملكية عامة، وسيطر الفلاحون على الأراضي، وانتشرت السوفخوزات والكولخوزات .

وتم إنشاء المصانع والمعامل واستيعاب العمال في مختلف الشركات والمؤسسات والمعامل والمصانع . وبقيت كذلك حتى عام ١٩٣٩ – وهي بداية نشوب الحرب .

٣-المرحلة الثالثة بين ١٩٣٩-١٩٤٤ :

وهي مرحلة الحرب العالمية الثانية حيث تعرض الاتحاد السوفيتي إلى هجوم ألمانيا النازية، وقدم السوفييت مئات من الضحايا، وحققوا النصر على النازية، وتوسعت فيما بعد حدود البلدان الاشتراكية، وقسمت إلى قسمين الشرقية والغربية. ودخلت كثير البلدان دول المعسكر الاشتراكي في أوربا الشرقية.

٤-المرحلة الرابعة امتدت بين ١٩٤٥-١٩٩٠ :

ازداد عدد البلدان الاشتراكية خلال هذه المرحلة، وأصبح المعسكر الاشتراكي يضم البلدان التالية :

الاتحاد السوفيتي وألبانيا ، بلغاريا ، يوغسلافيا ، رومانيا ، هنغاريا، ألمانيا الديمقراطية ، وبولندا ، تشيكوسلوفاكيا ، وفيتنام ومنغوليا كوريا الديمقراطية وفي القارة الأمريكية كوبا . وهذه البلدان كانت تساوي ٢٦ % من سكان بلدان العالم واستمر بناء المجتمع الاشتراكي . وتم دعم حركات التحرر العالمية المناهضة للاستعمار والإمبريالية .

٥-المرحلة الخامسة وهي ما بعد عام ١٩٩٠ :

وتشمل انهيار الاتحاد السوفيتي وبلدان المعسكر الاشتراكي حيث تحولت إلى دول مستقلة، وتغير نظامها السياسي والاقتصادي ، ودخلت فيما يسمى النظام العالمي الجديد. وأصبح نظامها وتوجهها المنهج الرأسمالي . وبقي العديد من البلدان الاشتراكية تحافظ على نظامها الاقتصادي والسياسي الاشتراكي . وهي –الصين الشعبية – كوريا الديمقراطية – وفيتنام وكوبا .

خصائص المجتمعات الاشتراكية :

تتميز المجتمعات الاشتراكية بعدة خصائص اجتماعية واقتصادية وفكرية تستند عليها وهي :

١-الخصائص الاجتماعية :

وتشمل عدم استغلال الإنسان للإنسان ، وكل حسب جهده ، والحفاظ على كرامة الإنسان ومقاومة الاستعباد والقهر والتخلف ، والاستعمار ، والعمل على تحرر الإنسان من كل أنواع التبعية والجهل والتخلف ، وتشجيع الإبداع

والمبدعين، والقضاء على كل أنواع التسلط ، والفقر ، وتحقيق مبدأ العدالة الاجتماعية بين كل أفراد المجتمع ، وسيادة القانون ، وتفسير تطور المجتمعات بالتطور التاريخي والملكية العامة لوسائل الإنتاج ، والمساواة بين الرجل والمرأة، في الحقوق والواجبات ، ومحاربة البطالة والفساد، والقيادة الجماعية للمجتمع ، واحترام حقوق الأفراد ، وعد حرية الفرد جزءاً من حرية المجتمع، والمساواة بين كافة أفراد المجتمع وقيمة الفرد بعمله وبما ينتج ومكافحة البطالة.. وتحقيق مبدأ تكافؤ الفرص ومحاربة الرأسمالية والإقطاع .

٢-الخصائص الفكرية :

تعتمد الاشتراكية في تلك البلدان على طبقة البروليتاريا في قيادة المجتمع الاشتراكي بينما في الصين اعتمدت الاشتراكية على طبقة الفلاحين، وهي التي تحكم المجتمع إلى جانب الطبقات الأخرى، وتعمل الاشتراكية على دعم حركات التحرر في العالم الثالث . وسمي العالم الثالث لوجود عالمين اشتراكي ورأسمالي، والبلدان النامية سميت باسم بلدان العالم الثالث .

الخصائص الاقتصادية :

تقوم الاشتراكية على تحقيق التطور الاقتصادي من خلال استغلال كافة الثروات الباطنية وأيد وطنية ، وتعتمد على مبدأ التخصص والتكامل بين البلدان الاشتراكية وخاصة في الاتحاد السوفيتي السابق . بين جمهورياته الاتحادية والمستقلة .

وتعمل البلدان الاشتراكية على الاستفادة من كل ما تحتويه أراضيها من ثروات ومياه وغابات وترب ، وأراض مستصلحة وأراض لم يتم استصلاحها. وتحقيق مبدأ الاكتفاء الذاتي، ودعم دول المنظومة الاشتراكية كافة . وتأمين المواد الغذائية ، والحفاظ على الأسعار وغلى قوة النقد .

وفي المجال الصناعي إعطاء هذا الجانب الأهمية الكبيرة من خلال تطوير الصناعات القائمة وتحديثها ، من صناعات ثقيلة وميكانيكية وكهربائية ، واستغلال الثروات من نفط وغاز ومعادن . وإنشاء مدن جديدة صناعية، وإعطاء الحوافز الإنتاجية للعاملين في مجال الصناعة والتعدين .

وفتح أبواب الهجرة للعمل على استغلال الثروات الباطنية والصناعة وخاصة في ظل كافة الظروف مثل سيبريا في الاتحاد السوفييتي، وإنشاء المعامل والمصانع الرئيسية بعيدة عن المناطق الساخنة التي يمكن أن تكون جبهات قتال كما حصل في الحرب العالمية الثانية ، وبسبب تركز الثروات الباطنية والتي يتم استغلالها في تلك المناطق من أنحاء الاتحاد السوفييتي السابق. خاصة في سيبيريا .

التوزيع الجغرافي للمجتمعات الاشتراكية قبل عام ١٩٩٠ :

توزعت المجتمعات الاشتراكية جغرافياً قبل عام ١٩٩٠ في عدة قارات خاصة في قارتي أوربا وآسيا، وكوبا في أمريكا اللاتينية . وقد دخلت في مجموعة بلدان المعسكر الاشتراكي . وهذه المجتمعات هي :

١ - الاتحاد السوفيتي :

كان الاتحاد السوفيتي يتألف من عدة جمهوريات اتحادية ، وجمهوريات مستقلة . عرفت بذلك الاسم ، وجاء قيامه بعد ثورة أكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧- وظهر ميثاق الاتحاد السوفيتي عام ١٩٢٢ وبلغت مساحته ٢٢,٤ مليون كم٢ و وبلغ عدد سكانه عام ١٩١٣ - ١٣٩,٣ مليون نسمة ، وفي عام ١٩٢٦ - بلغ عدد السكان ١٤٧,٢٨ مليون نسمة وجاء هذا بسبب زيادة معدلات النمو السكاني وخاصة في آسيا الوسطى السوفيتية . وارتفاع معدلات الخصوبة السكانية ، وبسبب انضمام كثير من البلدان إلى الاشتراكية إلى الاتحاد السوفيتي ، حيث توسعت حدوده عام ١٩٤٥ - وهزيمة

ألمانيا في الحرب وانتصار الاتحاد السوفيتي وقد وصل عدد السكان عام ١٩٥٩ – ٢٠٨,٨٢٧ مليون نسمة وعام ١٩٦٥–٢٢٩,١٢٨ مليون نسمة ، وعام ١٩٩٠ – ٢٧٠ مليون نسمة .

ويتألف الاتحاد السوفيتي من جمهوريات روسيا الاتحادية الاشتراكية وأوكرانية، وبلاروسيا ، لاتافيا ، ليتوانيا، ملدافيا ، جورجيا ، أرمينيا ، أذربيجان – كازاخستان ، تركمانستان، طاجاكستان ، قيرغيزيا ، استونيا .

ويتبع الاتحاد السوفيتي كذلك ٢٠ جمهورية مستقلة . وبلغ عدد ضحايا الحرب العالمية الثانية أكثر من ١٧ مليون نسمة من الاتحاد السوفيتي . ومعظمهم من الذكور دفاعاً عن البلاد في وجه ألمانيا النازية .

الخصائص الجغرافية للاتحاد السوفيتي :

امتاز الاتحاد السوفيتي السابق بعدة خصائص جغرافية و هي ، الموقع والموضع ، إذ يقع في قارتين هي أوربا وآسيا – ويحده شرقاً المحيط الهادي ، وشمالاً المحيط المتجمد الشمالي ، وجنوباً تركيا وإيران والبحر الأسود . وغرباً أوربا الغربية .

ومن خصائص الموضع امتداده من الشرق للغرب بمسافة ١٢ ألف كم ، ومن الشمال للجنوب ٤٠٠٠ كم ، مناخه قاري بارد جداً شتاءً إذ تصل درجات الحرارة إلى –٧٠ درجة مئوية[1] مئوية تحت الصفر في سيبيريا والتي هي من أبرد مناطق العالم .

ويحتوي على ثروات باطنية عديدة مثل النفط والحديد والنحاس وكل أنواع المعادن ، ويحتوي على أراض زراعية عديدة ومتنوعة وهي في الشمال

---

(١) د. علي فاعور – الجغرافية البشرية والاقتصادية – إصدار المؤسسة الجغرافية – ص١٨٠ ١٩٩٢-١٩٩٣. بيروت – لبنان.

الغـــربي عـــلى شـــواطئ بحر البلطيق ، والتربة السوداء في أوكرانيا وجنوب سيبيريا ، وشـــبه جزيـــرة القـــرم ، ومناطق الواحات في جمهوريات أسيا الوسط السوفيتية مثل كازاخســـتان ، وقيرغـــيزيا وأوزباكســـتان . وفـــيها ســـهول مـــثل السهل الروسي وســـهول آســـيا الوســـطى الســـوفيتية وسهل سيبيريا الغربي وفيها الهضاب الواسعة، وســـهول غـــربي الأورال، وتحـــتوي عـــلى أنهـــار طويلة مثل الغولغا – وموسكو – ولبـــنا – وويتســـي وأوب ، وآمـــور وآرتيشـــي وكـــتلة جـــبال الأورال وجـــبال الكربات ، وهضاب سيبيريا وهضبة البامير، وجبال القوقاز .

ومـــياه باطنـــية وفـــيرة ويتمـــيز بالتنوع المناخي وهذا الامتداد والتنوع المناخي واحـــتوائه الأراضـــي الزراعـــية ساعد كثيراً على التطور الاقتصادي الكبير. وأعطى الاقتصـــاد الســـوفيتي القـــوة اللازمـــة لـــيكون دولـــة عظمى رئيسية في العالم مع الإمكانيات البشرية الهائلة .

وقـــد بلـــغ عـــدد الســـكان عـــام ١٩٩٠ – ٢٨٩ مليون نسمة منها –٢٧٥ ملـــيون نســـمة في رابطـــة الـــدول المســـتقلة الـــتي تشكلت في أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتي ويبلغ متوسط الكثافة السكانية ١٣ نسمة كم^{٢}.

المجتمع السوفييتي

تميزت السنوات الأولى من القرن العشرين بتغيرات في الخارطة الجغرافية السياسية للعالم ، حيث وجدت خلال العقد الأول والثاني من القرن العشرين دولة عظمى هي الاتحاد السوفييتي ، وقد أصبح لها دور كبير في العالم، في المجالات كافة ، وأصبحت قوة عظمى ، وخلال عشر السنوات الأخيرة من القرن المذكور كان زوال تلك الدولة العظمى لتعود إلى نقطة البدء . وكان انهيار الاتحاد السوفييتي السابق لتنشأ رابطة الدول المستقلة ، وأصبح لكل دولة استقلاليتها واقتصادها وخططها ، وتحولت إلى دولة مستقلة يجمع بينها رابطة خاصة ، وتحولت إلى ما يسمى بالنظام العالمي الجديد وهو اتجاه عند الرأسمالية . ولكل دولة نطاقها الاقتصادي ، ولذلك سيتركز البحث في هذا القسم على دراسة الخصائص السكانية والتركيب الاتنوغرافي للمجتمع السوفييتي السابق . ثم الخصائص الاقتصادية لهذه الحضارة التي لم تعش أكثر من ٧٠ عاماً .

التركيب القومي والاتنوغرافي للمجتمع السوفييتي:

يتألف المجتمع السوفييتي السابق من أكثر من ١٠٠ قومية ، والتي كانت تنظم العلاقة بينها على أساس ميثاق ، ولكل شعب وقومية لغة خاصة بها هي اللغة المحلية ولكن هنالك لغة رسمية هي اللغة الروسية ، ويبلغ مجموع الشعوب الهندوأوربية أكثر من ٤٨% من السكان. وقد توزع الروس في أنحاء الاتحاد السوفييتي السابق على شكل هجرات قاموا بها ، واستوطنوا في تلك الجمهوريات السوفيتية السابقة .

وتتوزع الشعوب الهندوأوربية في مختلف أنحاء البلاد ، وتضم الروس والأوكرانيين والبولونيين والبلغار والتشيك والسلاف واللتوانيين واللاتفيين، وهنالك المجموعة الرومانية والألمانية والإغريقية والهندية والعائلات القفقاسية،

الداغستانية ، الأورالية، السموديا ، ومجموعة التاي، وهنالك مجموعات الأذربيجان ، والتركمان والتتار والقرغيز والكازاخ، والأوزبك، والشاشان والأنغوش والأبخاز وقوميات أخرى وجماعات النورْ.

وكانت تعيش هذه القوميات .. وفق علاقات اجتماعية واقتصادية قائمة على المصلحة المشتركة ، ويتوزع سكان كل جمهورية على أساس أنتوغرافي في الجمهوريات كافة ، ويتضح ذلك من خلال دراسة كل جمهورية .

وعرف الاتحاد السوفييتي السابق بأنه بلد متعدد القوميات ، وإن أغلب أراضيه تعيش فيها شعوب السلافية، مثل الروس والأوكرانيين والبيلاروس الذين يؤلفون جميعاً ثلاثة أرباع الاتحاد السوفييتي السابق .

ويؤلف الروس أكثر من نصف سكان الاتحاد السوفييتي ويعيش هؤلاء في الأقاليم الوسطى والشمالية من روسيا الأوروبية وخاصة في مناطق الأورال والفولغا وسيبيريا والشرق الأقصى وتعد اللغة الروسية هي اللغة الرسمية لجميع السكان ، وما زالت هي اللغة الأساسية في العديد من جمهوريات رابطة الدول المستقلة الروسية .

ويعيش الأوكرانيون في القسم الجنوبي من روسيا الأوربية ، والبيلاروسيون يسكنون في الغرب .

ويعيش الكاراتشايون والبلغاريون في المنحدرات الشمالية .. ويتكلمون اللغة التركية، ويقطن الأوستونيون وهم من الشعوب القفقاسية في المنحدرات الشمالية والجنوبية لجبال القفقاس، ويقسمون إلى شماليين وجنوبيين .

وفي الجبال يسكن الداغستان والآفار والكوميك والدارغين واللاك والليزغيون والأنغوش والشاشان ويقطنون بجوارهم .

الخصائص الاقتصادية للمجتمع السوفييتي السابق :

بني الاقتصاد السوفييتي على مبدأ تعميم الثورة الاشتراكية والتي قامت على أساس "من كل فرد حسب إمكاناته ولكل حسب حاجاته"(١) واستطاع الاقتصاد الاشتراكي أن يترسخ في المجتمع السوفييتي .

وبعد حوالى ربع قرن تعرضت لحرب قدم فيها الاتحاد السوفييتي ١٧ مليون نسمة انتصر في نهايتها على النازية والفاشية في الحرب العالمية الثانية .

واستطاع المجتمع الاشتراكي أن يستثمر الطاقات المنتجة البشرية كافة، ويقدم كل فرد جهوده في بناء المجتمع السوفييتي .

البنية الاجتماعية :

يمكن تصنيف المجتمع الاشتراكي إلى نوعين من المجتمعات :

١ - المجتمع الفلاحي :

يتميز بوجود النسبة الكبيرة من السكان يعملون في الأراضي الزراعية ، وهم الريفيون ، ويعملون في الكولخوزات، ويستطيع الفرد في ذلك المجتمع أن يمتلك منزل إلى جانب ذلك بعض الحيوانات الصغيرة وحديقة صغيرة حول المنزل . وهنالك فارق في مقدار دخل الفرد حسب جهده وساعات العمل التي يقوم بها . وينال زيادة على أجره من خلال ما يبذله من جهود وإنتاج .

أما السوفخوز فهو عبارة عن شكل آخر من أشكال الإنتاج والاستثمار الزراعي يتم من خلاله دفع إيجار للأرض الزراعية من خلال الإنتاج .

---

(١) بيار جورج ، جغرافية العالم الاجتماعية . منشورات عويدات ، بيروت ، لبنان ١٩٧٦- ص٧٢ .

٢- مجتمع يمارس فيه السكان حياتهم في المدن،

ويمتهنون أعمال مختلفة مثل الصناعة، والنقل ، والخدمات في المصارف والتجارة.

طبيعة الحياة الاجتماعية للسكان:

تتميز الحياة الاجتماعية للسكان بالتساوي بين المرأة والرجل وفي كافة المجالات والحرف كل حسب مقدرته ، فتعمل المرأة في كل المجالات، ونجدها تقود حافلة نقل الركاب والتكسي، وتشتغل بأعمال تتطلب الجهد مثل أعمال البناء، وتتولى قيادة كثير من المؤسسات، وفي أعمال الصيانة، وفي مجال النقل والمواصلات والصحة والإعلام، وحتى الأعمال المجهدة، وتنعدم البطالة في المجتمع ، أما العجزة فتتم رعايتهم من الدولة وساعات العمل محددة وتختلف الأجور حسب طبيعة العمل. والروبل العملة النقدية في البلاد وقيمتها الشرائية كبيرة داخل المجتمع . كما تهتم الدولة بالثقافة والنشر والإعلام والمسارح، وتنتشر المكتبات بكثرة، ويتميز سعر الكتاب بأنه رخيص الثمن ، وللرياضة أهمية كبيرة واهتمام، وللطفولة أهميتها من حيث تأمين الملاعب والحدائق والرحلات والألبسة بأسعار زهيدة .

الخصائص الاقتصادية للمجتمع السوفييتي:

يتميز الاقتصاد السوفيتي السابق بالتطور والتخصص والتكامل في ظل النظام الاشتراكي ، مستفيداً من الخصائص الطبيعية والتنوع المناخي ، واحتوائه على الثروات الباطنية والطبيعية الكبيرة ، كل تلك العوامل أسهمت بشكل كبير في قوة الاقتصاد السوفيتي وتطوره ، فقد كانت الزراعة تسهم في ١٢%[١] من

---

(١) د. علي فاعور- الجغرافية البشرية والاقتصادية ص ١٨٢ اصدار المؤسسة الجغرافية -بيروت - لبنان ١٩٩٣ - مرجع سبق ذكره .

مجمـــوع الدخـــل الوطـــني ، عـــلماً بأنـــه كان يعمل بها ١٧ % من القوى العاملة . وأن مســـاحة الأراضـــي الزراعـــية تســـاوي الثلـــث مـــن المســـاهمة الكلية للاتحاد السوفيتي ، ومناطق الغابات تشغل ٤٥ % من مساحة البلاد .

وأمـــا مـــبدأ التخطـــيط الاقتصـــادي الـــذي كان سائداً فإنه يعد إحدى ركائز الاقتصـــاد الاشـــتراكي ، ومـــن خصائصـــه الاعـــتماد عـــلى الذات ، وتعتمد كل جمهوريـــة عـــلى تخصـــص اقتصادي معين ، صناعي أو زراعي وهي بالتالي تتكامل مع بـــاقي الجمهوريـــات في الإنـــتاج والتصـــدير والتبادل، ومن الخصائص الاقتصادية: توفـــير فـــرص العمـــل لكـــل المواطنين ، وإيجاد فرص عمل جديدة للسكان القادرين عـــلى العمـــل داخـــل كـــل جمهوريـــة وخارجها ، وتشجيع هجرة الشباب للعمل في ســـيبيريا، وتوفـــير الســـكن الـــلازم لهـــم مـــع الأجـــور المناسبة التي تحفز العاملين والشـــباب عـــلى الذهـــاب، والمســـاهمة في بـــناء الاقتصـــاد الاشتراكي السوفيتي ، كذلـــك سياســـة دعـــم الـــنقد الســـائد ((الروبل))، والحفاظ على قوته الشرائية ، وتشـــجيع الإبـــداع والابـــتكارات الجديـــدة ، إن تلـــك الخصـــائص والمـــيزات والسياســـات الاقتصـــادية الاشـــتراكية جعلـــت منه اقتصاداً قوياً تم فيه القضاء على البطالة وأشكالها.

المجتمع الكوبي

مر المجتمع الكوبي بعدة مراحل تاريخية خلال العقود الماضية إذ وقع تحت سيطرة الاستعمار الإسباني ، وقامت فيها الثورة الاشتراكية منذ عام ١٩٥٩ عاصمتها هافانا . تبلغ مساحتها ١١٤،٥ ألف كم٢ كان عدد السكان عام ١٩٣١ – ٣،٤٥ مليون نسمة ، وعام ١٩٤٣ وبلغ عدد السكان فيها ٤،٧٧٩ مليون نسمة وعام ١٩٦٥ – ٧،٦٣٠ مليون[١] .

ويتصف المجتمع الكوبي بعدة خصائص ، فهو واحد من المجتمعات التي انتهجت الفكر الاشتراكي تطبيقاً وممارسة ، وسيطر العمال والفلاحون على مقاليد السلطة منذ عام ١٩٥٩م من خلال ثورة قادها فيدل كاسترو، ولم يعد لأصحاب المزارع الكبرى ومعامل السكر والتبغ أي وجود .

وصدرت قرارات التأميم للأراضي والمعامل والشركات والمؤسسات ، وأصبحت ملكاً للشعب ، ونشأت مزارع الدولة ، مكان المزارع الفردية التي كانت تسيطر على كافة الأراضي، وقضي على الإقطاع والرأسمالية . ونشأ في كوبا نوعان من المجتمعات المتأثرة بطبيعة الحياة الاشتراكية .

١ – في الريف :

ازداد اهتمام الفلاح بأرضه التي أصبحت ملكاً عاماً . وأصبح يعمل بأرضه بعد أن طرد الإقطاع ، وقضى على الاستغلال ، وحدثت التحولات في ملكية الأراضي خلال مرحلتين ، المرحلة الأولى تحولت فيها المزارع الفردية إلى مزارع تعاونية وحتى الصغيرة منها، والمرحلة الثانية تحولت فيها المزارع التعاونية إلى مزارع للدولة ، ويطلق عليها اسم "رغرنجاس" .

وأصبحت تلك المزارع التي تحتوي على مساحات شاسعة من الأراضي

---

(١) جغرافية العالم الاجتماعية – بيار جورج – ص١٤٣ – منشورات عويدات . بيروت . لبنان ١٩٧٦.

تقوم بالعملية الإنتاجية المتكاملة، وقد حققت أرباحاً كبيرة .

وبهذا فقد حققت الثورة الزراعية التي عمت البلاد كاملة الكثير من التطور خلال فترة وجيزة .

٢- في المدن :

إن وجود المعامل والمصانع في المدن، ووجود تكدس حضري وخاصة في مدينة هافانا العاصمة ، وهي المدينة الكبرى في كوبا . وقد نشأت هذه المدينة بسبب الهجرة الداخلية من أنحاء البلاد، وبسبب ارتفاع معدلات النمو الطبيعي للسكان حتى إنها أصبحت تضم حوالى ٣٠% من سكان كوبا .

ومعظم المنشآت الصناعية الموجودة في العاصمة لا تكفي لاستيعاب الأعداد المتزايدة من القوى العاملة . وبدأ إجراء العديد من الخطوات الهامة لمكافحة البطالة منذ بداية الثورة الاشتراكية في كوريا .

فتم إشادة المعامل والمصانع الجديدة وخاصة مصانع التبغ ومعامل السكر، وغيرها من المعامل لاستيعاب الأعداد المتزايدة، وللمساهمة في تطور البلاد صناعياً. وتحرر الاقتصاد الكوبي من التبعية الأجنبية الرأسمالية . وبقيت الثورة الكوبية تنهض بالمجتمع لتحقق الكثير من الخطوات في هذا المجال . وهي جزء من المنظومة الاشتراكية التي كان يقودها الاتحاد السوفييتي السابق.

ورغم التغيرات التي حصلت في العالم، وانهيار الاتحاد السوفييتي ومجتمع أوروبا الشرقية الاشتراكي فقد بقيت كوبا تحافظ على نهجها الاشتراكي الشامل، وعلى مكتسباتها وتطورها على قاعدة اشتراكية ثابتة . ومعروف عن المجتمع الكوبي أنه مجتمع حقق انتصاره، ويعد حفاظه على النهج الاشتراكي جزءاً من استقلاله الوطني .

المجتمع الصيني

يعد المجتمع الصيني مجتمعاً اشتراكياً له خصائصه المميزة ، يستند إلى تاريخ طويل بعد صراع طويل مع الإقطاع الذي كان يسيطر على كافة أنحاء البلاد والقوى المساعدة له من رأسمالية وغيرها .

ومع التحولات الاشتراكية في البلاد تم تأميم الأراضي الزراعية وقضي على الإقطاع، وتحرر الفلاحون من السيطرة الإقطاعية ، وأصبحت مؤسسات الدولة بكاملها ملكاً عاماً للشعب، وترسخت الاشتراكية في المجتمع الصيني الذي وضع مجموعة من الخطط الاقتصادية لتحقيق التطور والتقدم والازدهار للبلاد مع الزيادة الهائلة في عدد السكان والتي وصلت عام ١٩٩٠ إلى مليار[١] و ١٣٣ مليون نسمة ويقدر هذا العدد بربع سكان الكرة الأرضية ، وبلغت الكثافة العامة للسكان ١١٧ نسمة/كم .

وأعلنت الصين الشعبية نظامها الديمقراطي عام ١٩٤٩ – وتتألف البلاد من ٢٢ ولاية تتوزع جغرافياً على مساحة واسعة تبلغ ٩،٥٦١،٠٠٠ كم٢ وهي مساحة الصين الشعبية والتي تمتد من الشرق للغرب بطول ٥٠٠٠ كم ، و٥٥٠٠ كم بين الشمال والجنوب. إن لهذه المساحة والامتداد أهمية كبيرة في بناء الاقتصاد الصيني ، حيث تنوع الثروات الطبيعية والباطنية مما يشكل دعماً لبناء اقتصاد اشتراكي متين، وتتألف الصين طبيعياً من عدة مناطق – وهي القسم الشمالي، وتكون من هوانغ مع الجبال العالية ، وسهل منشوريا، والقسم الجنوبي ويشمل ، المنطقة الوسطى – ويجري نهر اليانغ تسي أو النهر الأزرق ، مع السهول الواسعة ويتميز هذا القسم بأنه زراعي فيه عدد من المدن . والشكل رقم (٢٩) يوضح ذلك .

---

(١) د. علي فاعور – الجغرافية البشرية والاقتصادية ص ١٩٥- توزع المؤسسة الجغرافية للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان عام ١٩٩٣ .

وهـــي ذات خصـــوبة عالـــية ، وفي الجنوب الشرقي زراعات كثيفة عديدة مثل الأرز وقصـــب الســـكر بالإضـــافة إلى تـــايوان الـــتي تعد جزءاً من الصين الشعبية، ويـــبلغ عـــدد ســـكانها ٢٥ ملـــيون نســـمة وهـــنالك مناطق – والقسم الجنوبي من الصـــين . وهـــي مـــناطق جبلـــية عالـــية يتوسطها نهر سي كيانغ وتشتهر هذه المنطقة بزراعة الأرز وجوز الهند .

أمـــا المـــناطق الوســـطى في الصين فهي منغوليا وسي كيانغ . ويتميز مناخها بأنه متـــنوع مـــن الـــبارد جـــداً إلى المعـــتدل . وريـــاح تهب شتاءً باردة وشديدة وصيفاً أمطـــار تهـــب ريـــاح جنوبـــية شـــتوية تســـبب سقوط الأمطار وتتميز الصين بعدة خصائص .

تقـــوم طبـــيعة الـــنظام الاشتراكي في الصين على إعطاء الفلاحين دوراً بارزاً إذ تمـــثل الـــيد العاملـــة الزراعـــية حـــوالى ٦٥ % مـــن مجموع القوى العاملة كما أن الزراعة تسهم بحوالى ٤٠ % من الدخل القومي .

وبعـــد قـــيام الـــثورة وتســـلم ماوتســـي تونغ زعامة الصين بدئ بتطبيق قانون الإصـــلاح الـــزراعي الـــذي تضـــمن مصـــادرة أراضي الإقطاعيين وتم توزيعها على الفلاحـــين، وتســـلم الفلاحـــون قـــيادة البلاد، ونهجت الصين نهجاً خاصاً بها يختلف عـــن الاشـــتراكية في الاتحـــاد الســـوفيتي السابق ، وقدرت مساحة الأرض التي تمت مصـــادرتها وتوزيعهـــا عـــلى ٧٠ مليون[1] عائلة كادحة كانت لا تملك شيئاً وقدرت مســـاحة الأرض تلـــك ٤٧ ملـــيون هكـــتار. ويقوم النظام الاشتراكي الصيني على نمطـــين عـــن الوحـــدات الزراعـــية الـــتي يعمل فيها الفلاحون، وتسمى التعاونيات الزراعـــية الـــتي هـــي عـــلى شكل قرى، وكان عددها عام ١٩٥٧ م ٧٤٠,٠٠٠ قـــرية تعاونـــية ، ونـــوع آخر هو الكومونات الشعبية وهي عبارة عن وحدات شعبية

---

(١) د. علي فاعور . الجغرافية البشرية الاقتصادية – مرجع سبق ذكره . بيروت لبنان . ص ١٩٧

إنتاجية واسعة ولها خصائصها الاقتصادية كاملة ، وقد تطورت الوحدات الإنتاجية بشكل كبير وتم استصلاح الأراضي، وتوفير الآلات اللازمة للثورة الزراعية وهي صناعة وطنية وقد شمل التطور كذلك المجال الصناعي حيث تم إعطاء هذا القطاع أهمية كبيرة، وتنوعت الصناعة من ثقيلة ومتوسطة وخفيفة وتم استدراج الثروة الباطنية بشكل كبير مثل الحديد والصلب ، وكل هذه العوامل إضافة إلى القوى البشرية الهائلة في الصين والتخطيط الناجح شكلت عوامل مهمة لتطور المجتمع الاشتراكي في الصين ، وتميز المجتمع الصيني بالتطور الثقافي نتيجة للثورة التي عاشتها الصين ، حيث تعد إحدى ركائزاً الثورة الاشتراكية . وعلى الصعيد الاقتصادي يتم التطور الاقتصادي وفق خطط خمسية اقتصادية والتي بدأت منذ عام ١٩٥٣ ، وأصبحت قطاعات التجارة والنقل والمصارف ملك للدولة وازداد عدد التعاونيات الزراعية ، وتطور عدد المزارع الفلاحية عام ١٩٥٧ لتصل إلى ٧٤٠ ألف مزرعة[١] .

ومن الخصائص الاجتماعية للسكان وتركيبهم السلالي فان ٩٣ % منهم من جماعة الهان ، و ٧ % هم من السلالات والقوميات الأخرى .

وتنتشر الديانات في الصين بكثرة مثل الكونفوشوسية والبوذية والطاوية والإسلامية .

وبالنسبة للغة السكان تعد اللغة الصينية اللغة الرسمية للسكان.

وترتفع نسبة النمو السكاني في الصين وتحقق الصين في أكثر السنوات الاكتفاء الذاتي ويعد المجتمع الصيني من المجتمعات التي حققت تقدماً وتطوراً كبيراً، وتم افتتاح عشرات الجامعات في أنحاء الصين . عاصمتها بكين وهي من العواصم المليونية في العالم والتي يزيد تعدادها على ٢٥ مليون نسمة (بكين الكبرى) .

---

(١) د. علي فاعور - الجغرافية البشرية الاقتصادية - مرجع سبق ذكره . بيروت لبنان - ص ١٩٧.

يقسم المجتمع الصيني إلى قسمين : مجتمع الريف ومجتمع المدينة ولكل منهما خصائصه وتطورت هذه المجتمعات بشكل كبير بعد قيام الثورة الاشتراكية[1] .

١ - المجتمع الريفي :

بعد قيام الثورة الاشتراكية في الصين بدأ بتطبيق الإصلاح الزراعي عام ١٩٥٠م حيث تم تأميم الأراضي ومصادرها، وأصبحت ملكيتها عامة بدلاً من أنها كانت ملكاً للإقطاع، وتم توزيع ٤٧ مليون هكتار من الأراضي وزعت على ٣٠٠ مليون فلاح مع أسرهم، ويتميز المجتمع الريفي الصيني بتطور القطاع التعاوني فنشأت التعاونيات الزراعية التي سبق الحديث عنها وتعود فيها ملكية الأرض للتعاونيات . ويستطيع الفلاح أن يمتلك مساحة صغيرة على شكل حديقة مع المنزل، وتم إحداث التطور التقني بالنسبة لهذه التعاونيات حيث تم إدخال الجرار الزراعي والحصادة الحديثة وآلات البذار، وتم تدعيم هذه التعاونيات بالخبرات الفنية مثل الهندسة الزراعية والإرشاد الزراعي ومن خلال هذه التعاونيات يستطيع الفلاح أن يأخذ نصيباً من إنتاج الأرض، ويعتمد الفلاحون الصينيون على نظام التقنين للمواد الغذائية بغية إيجاد التوازن الكامل بين ما ينتج من الحبوب والمواد الغذائية الأخرى وخاصة القمح الذي يعد المادة الغذائية الأساسية للاستهلاك .

ومعروف أن الريف الصيني قد تطور كثيراً وخاصة في ظل الثورة الاشتراكية، وتم تأمين الخدمات الضرورية واللازمة لتأمين الحياة اليومية للفلاح.

---

(١) المصدر : بيار جورج – جغرافيا العالم الاجتماعية – مرجع سبق ذكره .

٢ - مجتمعات المدن :

تعد الصناعة أهم مصادر الدخل الاقتصادي لسكان المدن، وقد تطورت حياة المدن مع الثورة الاشتراكية حيث نشأت الصناعات المختلفة الثقيلة والخفيفة، وتم تأمين اليد العاملة، وازداد عدد سكان المدن عن طريق الهجرة الداخلية إلى المدن وخاصة بكين العاصمة وشنغهاي وغيرها من عشرات المدن وكذلك مدينة يوهان وشينيانغ وغيرها .

ويلبس العمال لباساً موحداً هو عبارة عن البزة الزرقاء ولاستيعاب أعداد العمال المتزايدة والهجرة الريفية إلى المدن نشأ نموذجين من المساكن مساكن حديثة ومساكن شعبية يقطن فيها أغلب السكان وهي مؤمنة خدمياً بشكل جيد ومن خلال المقارنة بين مجتمع المدن نجد أن كل منهما يختص بنوع معين من النشاط الاقتصادي فبينما يهتم الجميع الريفي بالزراعة والأرض فإن مجتمع المدن يهتم بالصناعة والتجارة والنقل والمواصلات والخدمات، وعلى أي حال يعد المجتمع الصيني نموذجاً متقدماً ومتطوراً اشتراكياً بقي محافظاً على مكتسباته وعلى هويته الاشتراكية في ظل التحولات العالمية .

ومن المشكلات الديموغرافية والاجتماعية الهامة الزيادة الكبيرة في عدد السكان . والتوقعات المستقبلة وهذه بحاجة إلى حل ومعالجة نظراً للمخاطر الكبيرة للصين التي يسببها الانفجار السكاني لما يترتب على ذلك من مشكلات اقتصادية واجتماعية وخدمية خلال السنوات المستقبلة.

الشكل رقم (٢٩) التوزع الجغرافي للمجتمع الصيني في المقاطعات و المدن الكبرى

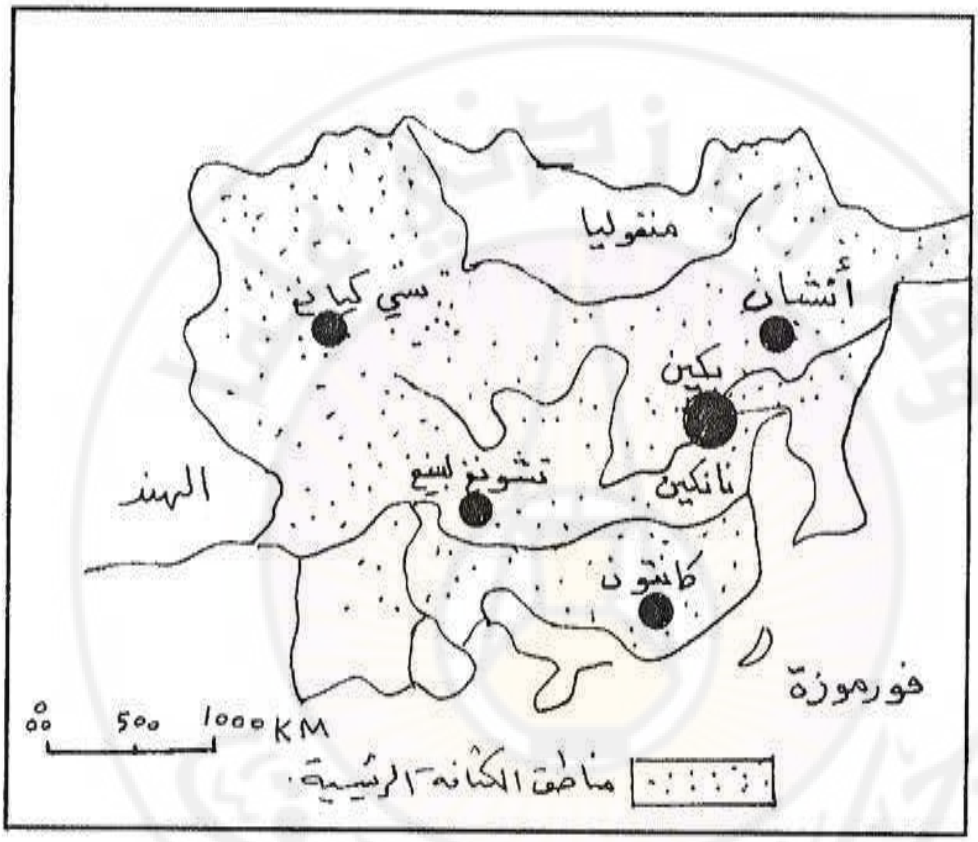

المجتمع الكوري الشمالي

هو مجتمع اشتراكي ، ويقوم على قاعدة الملكية العامة لوسائل الإنتاج ، وحققت كوريا الشمالية تطورات اقتصادية واجتماعية وتقنية كبيرة ، وتعتمد على الزراعة والصناعة في دخلها .

وكوريا الديمقراطية إحدى بلدان شرقي آسيا ، تبلغ مساحتها ٢٢٠,٨ ألف كم٢ ، وقد بلغ عدد سكانها عام ١٩٦٣ – ٣٨,٥٦٤ مليون نسمة وحالياً يقارب عدد سكانها ٦٠ مليون نسمة وبقي فيها النظام الاشتراكي هو النظام السائد ، رغم كل التحولات العالمية وانهيار الاتحاد السوفيتي السابق . ويقسم المجتمع الكوري إلى مجتمع الريف الذي يعتمد على الزراعة بشكل رئيسي . ومجتمع المدينة الذي يعتمد على الصناعة والتجارة والنقل والخدمات في ظل النظام الاشتراكي. وقد حققت كوريا الديمقراطية درجات عالية من التطور والتقدم التكنولوجي والصناعي.

حدث في كوريا الشمالية قفزات حضارية كبيرة في كافة المجالات . وتميز المجتمع الكوري الشمالي بحصول تطورات كبيرة خلال فترة قياسية. وتميز البناء الاقتصادي فيها بالاعتماد على الأسس الاشتراكية .

وتم تنفيذ خطط عديدة بنجاح مثل الخطة السداسية والخطة السباعية الثانية والسباعية الثالثة لتطوير الاقتصاد الوطني على قاعدة من الأسس المادية والتقنية الاشتراكية .

وتميز المجتمع الكوري بالخصائص التالية:

١ – التطور الفكري والثقافي والعلمي .

٢ – اعتماد الاشتراكية أساساً في التخطيط والتنفيذ والتطور .

٣ – مقاومة الاضطهاد الاجتماعي كان سبباً في قيام ثورة كوريا الشمالية ضد الانتهازية والإقطاع والرأسمالية.

٤- الانتقال من مجتمع الفردية إلى مجتمع قائم على الجماعية . وهذه ضرورة حتمية للتاريخ

٥- المساواة في المجتمع القائم على العدل والملكية العامة والقضاء على الاستغلال والاضطهاد والتفاوت الاجتماعي والملكية الخاصة.

٦- بناء مجتمع جديد قائم على التنوير والتحرر والبناء الاقتصادي السليم المتطور .

٧- يقوم المجتمع الكوري على أسس من التعاون بين أفراده وعلاقات اجتماعية تقوم على زوال الفوارق وتضافر جهود كافة أفراد المجتمع لبناء بلد متطور اشتراكي يقف في وجه النكسات التي أصابت المعسكر الاشتراكي وانهيار الاتحاد السوفييتي ومجموعة البلدان الاشتراكية .

ومن خصائص المجتمع الكوري الشمالي اعتماد تطوره العلمي والتقني على الأتمتة التي تم إدخالها إلى مختلف القطاعات العلمية والأكاديمية والصناعية. وتم تطبيق تجارب ناجحة في هذا المجال، وقطع المجتمع أشواطاً متقدمة في الثورة التقنية العالمية، وحقق التفوق الكبير، وهدف إدخال الأتمتة في العلمية الإنتاجية هو خدمة الإنسان، وخاصة العاملين في القطاعات الإنتاجية، وتسريع وتيرة الإنتاج ودقته.

ومن هنا فإن للإنسان قيمة كبيرة في المجتمع الكوري الشمالي وتم تطبيق تلك التقنيات في مجمع "هوانغ هاي" للصناعات الثقيلة.

ومن خلال تلك الخطوات حقق الكوريون الشماليون أعلى درجات النهضة العلمية والصناعية والتقنية في مختلف القطاعات الإنتاجية والاقتصادية على قاعدة متينة من البناء الاشتراكي السليم.

وفي المجال الفكري والثقافي والتعليمي العالي والتربوي تم تحقيق أعلى الدرجات وعلى نطاق واسع فقد تم بناء الجامعات والأكاديميات والمعاهد العليا

التطبيقية والتي تخرج أصحاب الكفاءات العلمية بالإضافة لبناء المدارس لمختلف المراحل ما قبل الجامعي في أنحاء كوريا الشمالية.

ومن الملامح البارزة في المجال الثقافي بناء المكتبة الشعبية الكبرى ودار "تشانغ كوانغ" للخدمة الثقافية والسياحية.

وفي نطاق التطور الصحي تم بناء المشافي الكبرى والمراكز الصحية في أنحاء البلاد وصناعة أحدث الأجهزة الطبية حيث تم تغطية المدن والريف مما تحتاجه في هذا المجال ويتضح مما سبق الأهمية الكبرى التي بلغها المجتمع الكوري الشمالي في تحقيق التطور والتقدم وفق الأسس الاشتراكية التي تنمو وتتطور باستمرار.

المجتمع الفيتنامي

هو مجتمع اشتراكي يقوم على تطبيق الاشتراكية ومبادئها وتعد الزراعة والصناعة هي مصادر الدخل الرئيسية ، ويمارس السكان نشاطهم الاقتصادي وفق أسس اشتراكية . وحققت الكثير من التطور والتقدم في المجالات كافة . وتقع فيتنام جنوب شرقي آسيا عاصمتها هانوي ، وتبلغ مساحتها ١٥٥,٥٨٨ كم٢ وبلغ عدد سكنها عام ١٩٦٠م ١٥,٩١٧ مليون نسمة ويعمل في قطاع الزراعة أكثر من ٨٠ % من السكان وهو المجتمع الريفي وعام ٢٠٠٣ يقدر عدد سكانها بـ ٣٠ مليون نسمة .

وهناك مجتمع المدينة والذي يعتمد على الصناعة والتجارة والخدمات والنقل.

وقد حقق الشعب الفيتنامي النصر على أمريكا بعد حرب طويلة قدم فيها التضحيات . واستطاع المجتمع الفيتنامي أن يحقق درجات كبيرة من التطور والتقدم في ظل النظام الديمقراطي الاشتراكي.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الفصل الرابع

مجتمع رابطة الدول المستقلة

المجتمع الهندي

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

أولاً: مجتمع رابطة الدول المستقلة:

تعرض الاتحاد السوفيتي السابق للانهيار والذي تزعم المعسكر الاشتراكي منذ عام ١٩١٧ وحتى عام ١٩٩١ وبسبب التحولات الداخلية ولأسباب عديدة داخلية وخارجية وبعد مضي أكثر من سبعة عقود من الزمن، وبعد بناء الدولة الاشتراكية بخصائصها التي تم ذكرها سابقاً ، حصلت تلك التحولات المفاجئة والتي كان لها تأثير كبير في العالم أجمع .

١- فقد أصيبت تلك البلدان الاشتراكية والتي كانت تشكل حلف وارسو ودول المعسكر الاشتراكي بالانتكاسة الكبيرة من خلال انهيار أنظمتها الاشتراكية، وعادت تلك البلدان إلى أنظمة مستقلة اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً ، وتحولت الملكية العامة لوسائل وأدوات الإنتاج إلى ملكية خاصة وأصبح الاقتصاد حراً وبشكل مفاجئ حدثت تلك التغيرات وانهارت أنظمتها الاشتراكية بشكل متتالٍ وسريع .

٢- تحولت المجتمعات الاشتراكية في تلك البلدان إلى نظام جديد رأسمالي، وعاد القطاع الخاص ليسيطر على كافة ممتلكات القطاع العام، وبدأت الرأسمالية والبرجوازية بالتغلغل الجديد في المجتمع . وثم تحولت الأنظمة الاشتراكية إلى أنظمة مستقلة تتجه نحو الانخراط في المجتمعات الرأسمالية

٣- انعكس هذا الموضع على العملية النقدية لتلك البلدان حيث أنهارت العملة، واستبدلت، وتحول اقتصادها إلى اقتصاد السوق الحر .

٤- أصيب حركات التحرر العالم والتي كانت تلقى الدعم من الاتحاد السوفيتي ودول المعسكر الاشتراكي بخيبة الأمل . وبدأت تلك البلدان والمرتبطة عضوياً بالاتحاد السوفيتي السابق بالانهيار أيضاً وخاصة في أوروبا الشرقية وإفريقيا .

٥- نتيجة لذلك حدثت تغيرات عالمية إذ أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية تعمل على تكريس مفهوم القطب الواحد ((الرأسمالي)) وتزعمت هي

ذلك المعسكر، وبدأت تظهر مفاهيم جديدة مثل القطب الواحد (العولمة) وبدأت تمارس الحكم العالمي وحدها . والذي يقوم على الاستفراد ببلدان العالم . وتفرض من خلال ذلك سياستها باسم بالنظام العالمي الجديد .

٦- نشأت في دول الاتحاد السوفيتي السابق رابطة الدول المستقلة، وتتألف هذه الرابطة أو جامعة الدول المستقلة . وفيما يلي دارسة تفصيلة عن مجتمعات تلك البلدان .

أولاً- تأسيس رابطة الدول المستقلة :

تم في الثامن من كانون الأول عام ١٩٩١ في مدينة مينسك وحضره رؤساء روسيا - بلا روسيا - أوكرانيا - وأعلنت لتونيا - استونيا - ليتوفيا الانفصال الاستقلال ثم جورجيا وفي ٢٢ كانون الأول وقعت الاتفاقية ٨ جمهوريات أخرى خلال اجتماع هام عقد في مدينة المآتا، وأصبح عدد تلك الجمهوريات مشتركة ١١ جمهورية شاركت في هذا اللقاء بزعامة جمهورية روسيا بينما جورجيا جمهورية مستقلة لوحدها تشارك في هذا الاجتماع ولم توقع ذلك الاتفاق .

- بتاريخ ٢٥ كانون الأول من عام ١٩٩١ استقال غورباتشوف من منصبه رئيساً للاتحاد السوفيتي .

واحتلت جمهورية روسيا موقع الاتحاد السوفيتي نفسه في مجلس الأمن كعضو دائم في الأمم المتحدة .

تشكلت جامعة الدول المستقلة مؤلفة من روسيا الاتحادية، روسيا البيضاء، أوكرانيا ، مولدافيا ، أرمينيا ، أذربيجان ، أوزباكستان قيزغيزيا ، تركمانستان كازاخستان - طاجاكستان. ويوضح ذلك الشكل رقم (٣٠) .

١ـ المجتمع الروسي:

يطلق اسم المجتمع الروسي على سكان جمهورية روسيا. والتي تعتبر أكبر جمهوريات رابطة الدول المستقلة، إذ تبلغ مساحتها ١٧,٧٥مليونكم٢، ويعيش فيها أكثر من نصف سكان الرابطة وقد بلغ عدد سكانها عام ١٩٢٦ـ ٩٢,٣٣٧ مليون نسمة وعام ١٩٦٠ ـ١١٨,٨ [١] مليون نسمة وعام ١٩٩٢ ـ ١٦٠ مليون نسمة.

وبعد قيام ثورة اكتوبر الاشتراكية فهو عام ١٩١٧ وزوال النظام القيصري الروسي أصبحت روسيا دولة اشتراكية، وقد تزعمت الاتحاد السوفيتي حتى عام ١٩٩٠ـ١٩٩١. ومنذ ذلك التاريخ وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي أصبحت دولة ليبرالية تتجه نحو اعتناق الرأسمالية واقتصاد السوق والتجارة الحرة ونشأت الشركات الخاصة وتعرضت شركات ومؤسسات القطاع العام إلى البيع والاستثمار.

التركيب القومي للمجتمع الروسي:

يتكون المجتمع الروسي مما يزيد على ٥٠قومية، وشكل بعضها جمهوريات مستقلة ومن هذه القوميات الروسية وتشكل ٨٣% من سكان جمهورية روسيا. بالإضافة لقوميات أخرى مثل الأوكرانية، والبشكيرية، وبلاروسيا وكازاخ، وشيشان، وأرمن وكذلك، بوريان، أستونية، ياقوتية، بلقانية، ملدافية. أغريقية، أوزبكية، تركمانية، والتنور "القرباط". وكان يعيش هؤلاء في ظل الحكم السوفيتي السابق على أسس من التعاون والتآخي.

وعلى أسس من قاعدة الاتحاد. وقد تأثرت الحياة الاجتماعية السكان بالظروف والخصائص الطبيعية المختلفة. وخاصة أنها تمتد على مساحة هائلة،

---

(١) الأمم المتحدة نيويورك ـ تقرير عن التطور البشري في بلدان العالم.

وهذه الخصائص هي:

١ــ الامتداد الواسع من الشرق وإلى الغرب ومن الشمال للجنوب إذ يقع قسم كبير من أراضيها في مناطق التو ندرا والتايغا، والسهوب الغابية وتمتد مساحة كبيرة منها في المنطقة القطبية المتجمدة الشمالية وتشغل الغابات منطقة واسعة. إذا كانت تضم روسيا الاتحادية ٩٢% من غابات الاتحاد السوفيتي السابق.

وقد أثر هذا الامتداد الواسع على الكثافة السكانية، حيث تنخفض جداً وخاصة في المناطق الباردة والقطبية المتجمدة، ويعيش السكان حياة قاسية تعتمد على الصيد، والتجمع في قرى صغيرة متناثرة على شكل جماعات من صيادي الرنة كما هو الحال في سيبريا إذ تنخفض الحرارة كثيراً.

٢ــ تحتوي أراضي جمهورية روسيا على ثروات باطنية كثيرة، إذا كانت تحتوي على ٩٠% من فحم الاتحاد السوفيتي السابق. و٩٠% من خام الحديد بالإضافة لأملاح البوتاسيوم، والأباتيت، والميكا والنحاس.

ووجود النفط والغاز وساعد كثيراً على ظهور مجتمع المدينة ونشأت مدن صناعية كبرى وفي أنحاء الجمهورية وخاصة في سيبريا إذ كانت تحتوي على ٧٢ % من صناعة الاتحاد السوفيتي ومن تلك الصناعات الآلات والمعدات الثقيلة والسيارات والقطارات والفولاذ، والصناعات الكيميائية، واستخراج وتكرير النفط والصناعات الخفيفة مثل النسيجية والأحذية، والصناعات التحويلية، والورق وتصنيع الأخشاب بعد قطعها من الغابات الكثيفة.

٣ــ إن التنوع المناخي الزراعي، والامتداد الكبير على درجات العرض والطول وتوفر المياه والتربة الصالحة للزراعة، ساعد كثيراً على ظهور زراعات متنوعة، مثل القمح الذي كان يشكل ٦٠% من قمح الاتحاد السوفيتي السابق بالإضافة للمحاصيل الصناعية مثل الكتان، والشوندر السكري، ودوار

الشمس، والبطاطا والحنوب بأنواعها، وكذلك تربية الماشية والتي يوجد فيها ما يزيد على نصف أبقار بلدان رابطة الدول المستقلة.

وقد ساعد هذا على نشوء المجتمع الزراعي الريفي والذي كان يقيم في قرى ومزارع جماعية ومن أشكاله "السوفخوزات والكولخوزات".

ومن هنا ازدهر وتطور المجتمع الريفي ونشأت القرى الصغيرة والمتوسطة والكبيرة، وتحول بعضها إلى مدن زراعية.

ولذلك فقد تأثرت الحياة الاجتماعية للسكان بالخصائص الطبيعية، وانعكس ذلك على التركيب المهني، وعلى المسكن وطبيعية، وعلى الدخل والمستوى الاقتصادي والتعليمي، والعلاقات الاجتماعية، واللباس، والعادات، والتقاليد، والغذاء والصحة والتعليم وعلى درجة التمدن الاجتماعي للسكان لذلك تعتبر دراسة تلك الخصائص الطبيعية ذات أهمية من كبيرة أثناء دراسة الحياة الاجتماعية التبيان العلاقة بين الإنسان وبيئته الجغرافية. ومن هنا يمكن دراسة المجتمع الروسي حسب المناطق الجغرافية إلى ما يلي:

أولاً: المجتمع الروسي الأوربي:

١ـ الخصائص الطبيعية لروسيا الأوروبية: يمتد هذا القسم على منطقة واسعة، ويتصف أكثر من نصفه غني بالمياه وخاصة من حوض الفولغا وساعد هذا على الاستقرار السكاني ونشأت هنا مدن ضخمة وكبيرة.

ويتميز هذا القسم بأن سطحه غير متجانس فإلى الشمال ترتفع شبه جزيرة كولا الجبلية، العالية إلى ١١٩١م. وجنوباً يقع سهل كاريليا ذو التلال العالية.

وتنتشر في القسم الشمالي مساحات جليدية هائلة نادرة السكان تقريباً باستثناء بعض الجماعات الصغيرة التي اعتادت العيش في تلك الظروف القاسية، وفي مناطق الجنوب يذوب الجليد في فصل الربيع وأوائل الصيف بسبب المناخ الدافئ الذي يؤدي لزيادة الكثافة السكانية وفي أواسط روسيا الأوروبية وعلى

مسافة أكثر من ١٠٠٠كم، يوجد مرتفع "فالداي" مع مرتفعات أخرى تنحدر منها المياه إلى بحار البلطيق والأسود وقزوين.

ويتميز مناخ هذا القسم بأنه كثير الأعاصير والعواصف الثلجية والشتاء البارد جداً والمثلج وهو قاس وطويل، ويصل متوسط درجات الحرارة شتاء إلى ١٧درجة مئوية تحت الصفر في موسكو وصيفاً +١٩ْفوق الصفر.

ومن المعروف بأن القسم الأوسط من روسيا الأوروبية ملائم لزراعة القمح والبطاطا والزراعات الصناعية مثل القنب والكتان أما في القسم الجنوبي يوجد مناخ قاري متوسط حرارته، -٨ْ درجة تحت الصفر شتاء و٢٥ درجة فوق الصفر صيفاً.

وتنتشر في المنطقة بحيرات وأهمها بحيرة "لادوغا" ويعتبر نهر الفولغا أهم الأنهار في روسيا الأوروبية إذ يبلغ طوله مع روافده التي تشكل مجموعة نهرية كبيرة، ٨٠ ألف كم ويتميز النهر بانحدره الخفيف ففي طول ٣٧٠٠كم للنهر لا يزداد هبوطه وانحداره إلا قليلاً.

ويبلغ عرض النهر ٢كم أما وادي الفولغا فيصل عرضه إلى ٢٠كم وتبلغ مساحة حوضه١,٥مليون كم٢ ولذلك كان وجوده سبباً في استقطاب أكثر من ربع سكان رابطة الدول المستقلة الذين يمارسون الزراعة ويعيشون حياة مستقرة.

الخصائص الاجتماعية:

تعتبر روسيا الأوروبية هي موطن الشعب الروسي الأصلي عبر التاريخ، وتميز المجتمع بالتطور الثقافي والعلمي، والتاريخي وظهر منه الأدباء والمفكرون وعاش إلى جانب هؤلاء شعوب أخرى عديدة لها علاقة تاريخية بالمجتمع الروسي وخاصة على ضفاف نهر الفولغا ومناطق القفقاس ومن تلك الشعوب ـ الكاريليون، والكومي والنينيتس، والموردفا، والماري، والتشوفاش والتتر

والكالميك، والداغاستان والأنغوش والشاشان بالإضافة إلى البلغار والبكارديون والأديغيون. وأسست العديد من تلك الشعوب جمهوريات ذات حكم ذاتي إبان الحكم السوفياتي وأصبحت جمهوريات مستقلة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي أما الخصائص الاجتماعية فهي.

١ـ حققت تلك الشعوب الكثير من التطور الاقتصادي والعلمي والثقافي وفي ظل الاتحاد السوفيتي السابق إذ انتشرت الجامعات والمدارس والمعاهد المتوسطة والعليا في أنحاء البلاد، وقضي على الأمية وحقق هؤلاء التحرر من الاضطهاد القيصري.

٢ـ اختلاف الكثافة السكانية بين مناطق روسيا الأوروبية فهنالك المناطق الجبلية في القفقاس تتميز بانخفاض كثافتها، بينما ترتفع في المناطق السهلية.

٣ـ ظهور المدن الكبرى والمتوسطة قرب حوض الفولغا بسبب وجود العوامل المساعدة على الاستقرار وتوفر المياه والتربة الصالحة للزراعة مثل موسكو ولينغراد "سان بطرس بورغ" حالياً. لذلك ظهر المجتمع الزراعي الريفي هنا بشكل كبير.

٤ـ ظهور القرى على منحدرات في جبال القفقاس الشمالية وأقام السكان الزراعيون فيها وتسمى المناطق المأهولة باسم "آؤول" وهي عبارة عن نقاط يتجمع فيها السكان وانتشرت البيوت والتي تسمى "ساكليا" **Saklula** وهي مبنية من الحجر وذات سقوف مستوية مصنوعة من أغصان الأشجار والخشب وقد اقيم بعضها على المدرجات الجبلية.

٥ـ ظهور مدن صناعية ضخمة في منطقة الفولغا لذلك ظهر مجتمع صناعي بالإضافة للمجتمع الزراعي وظهرت فيها مدن صناعية كبرى مثل غوركي ـ كويبشيف ـ فولفوغراد. وانشأت محطات كهربائية ضخمة.

ويتضح من خلال ذلك نشوء المجتمعات المتنوعة الزراعية الصناعية بسبب اتساع مساحة البلاد واحتوائها على ثروات باطنية وسطحية عديدة.

٦ــ ظهور مجتمع الصيد البري والبحري والنهري وخاصة عند الشعوب التي تعيش في القسم الشمالي الروسي الأوروبي وتعتبر حرفة الصيد من أقدم الحرف التي عرفها السكان.

وخاصة صيد الأسماك، وصيد الحيوانات ذات الفراء مثل الثعالب وغيرها التي يتغذى السكان بلحمها ويستخدم فراؤها لباساً لاتقاء البرد الشديد القارس.

٧ــ نشأت مدن كبيرة في هذا القسم مثل موسكو وقد كانت عاصمة للاتحاد السوفيتي السابق، وهي مدينة هامة ذات مركز سياسي واقتصادي وإداري وصناعي وتجاري وثقافي وعلمي تبلغ مساحتها ٨٨٦,٥كم٢ ومن أهم معالمها الكرملين مركز الحكم السوفيتي السابق والروسي حالياً ويوجد فيها الجامعات المرموقة والأكاديميات العلمية، وفيها شبكة خطوط المترو الشهيرة والمسرح الكبير وهي أكبر مركز صناعي في رابطة الدول المستقلة.

ويبلغ عدد سكانها حالياً ما يزيد على ١٣ مليون نسمة تقدير عام ٢٠٠٢

وظهرت فيها مدن كبرى مثل لينغراد وغوركي كازان ساراتوف ــ وكويبشيف ــ استراخان ــ روستوف ــ ياروسلافل ــ كراسنادار ــ وأرخانجلسك.

وتعبر مدينة ليغراد ثاني مدينة صناعية في روسيا بعد موسكو.

ثانياً: مجتمع منطقة الأورال:

تمتد جبال الأورال من الشمال للجنوب وتبدأ من المحيط المتجمد الشمالي إلى الشرق من السهل الروسي بطول ٣٠٠٠كم[1]. حتى المجرى الأوسط لنهر الأورال جنوباً إلى الشرق بر التوندار والتايغا والسهوب الواسعة وتدعى جنوباً

---

(١)ستروييف ــ جغرافية الاتحاد السوفيتي كتاب ص١١٨ نشر دار التقدم موسكو عام ١٩٧١.

"جبال موغرجاري" وتعتبر هذه الجبال حداً فاصلاً بين القسم الأوروبي والقسم الآسيوي في جمهورية روسيا وترتفع شمالاً إلى ١٨٩٤م في جبل "نارودنايا" وجنوباً ١٦٣٨م في جبل "بامانتاو"

وتتميز منطقة الأورال بأنها غنية بالثروات الباطنية والتعدينية وأثر هذا الوضع على طبيعة حياة السكان الاجتماعية.

وتمتاز بتقلبات الظروف المناخية إذ تكسوها الثلوج خلال فترة طويلة من أيام السنة والحرارة فيها منخفضة جداً وتقسم إلى ثلاثة أقسام الأورال الشمالية والأوال الوسطى الأورال الجنوبية الغنية بالغابات ويتميز مجتمع منطقة الأورال بالخصائص التالية:

١ـ التركيب القومي: تعيش هنا عدة قوميات وهي الباشكيرية وفي الجنوب الغربي والأودمورت والكومي ويعيش هؤلاء في جمهورية بشكيرية، بالإضافة للروس مع قوميات أخرى.

٢ـ المجتمع الحضري: يتميز هذا المجتمع بزيادة عدد سكان المراكز الحضرية والتي نشأت بسبب غنى منطقة الأورال بالثروات الباطنية فأشيدت المعامل والمصانع والمدن العديدة وخاصة في القسم الأوسط.

واشتهرت فيها أضخم المصانع مثل صناعة الآليات والحفارات والجرارات والمكنات والعربات.

وأشيدت الجامعات في المدن المختلفة وتتميز حياة السكان باعتمادها على العمل في المصانع والمعامل المذكورة.

ومن أهم المدن فيها مدينة سفيرداوفسك وهي مدينة ملتقى السكك الحديدية التي تعتبر من أهم طرق المواصلات وسط الثلوج بالإضافة لمدينة بيرم ومدينة أوفا عاصمة بشكيريا.

٣ـ المجتمع الريفي الزراعي: تنتشر في تلك المنطقة القرى الكثيرة على سفوح الجبال وأقام الناس المدرجات للزراعة ومن أهم الزراعات القمح والذرة والشعير والزراعات الصناعية مثل الكتان والشوندر السكري.

ويهتم السكان بتربية المواشي التي تكون دائماً مترافقة مع الزراعة وخاصة الأبقار.

ويقيم السكان في بيوت مبنية من الحجارة المحلية والمغطاة بالأخشاب والإسمنت أيضاً.

ويعتمد السكان الزراعيون على الصيد ويعيشون وسط ظروف مناخية قاسية لكنهم يعتمدون على وسائل التدفئة المختلفة لمقاومة البرد واللباس الصوفي والجلود ذات الفراء وغيرها.

ثالثاً: مجتمع سيبريا الغربية:

يعيش مجتمع سيبريا الغربية في منطقة واسعة تمتد من جبال الأورال غرباً إلى نهر الينيسي شرقاً على شكل سهل تمتد حدوده إلى كازاخستان جنوباً إحدى جمهوريات رابطة الدول المستقلة وإلى الجنوب الشرقي منها تتربع جبال الطاي التي تتميز بارتفاعها إلى ٣٥٠٠م وهي مكسوة بالثلج أغلب أيام السنة اما سهول هذه المنطقة فإن حرارتها منخفضة جداً وباردة إذ تغطيها الثلوج لأكثر من تسعةشهور وتنخفض فيها الحرارة لتصل إلى أكثر من ٤٠تحت الصفر وخاصة في القسم الجنوبي من سيبريا الغربية أما صيفها فهو دافئ حار إذ تصل الحرارة إلى +٢٠° فوق الصفر وتجري فيها العديد من الأنهار وتغطيها التوندرا ذات النباتات الفقيرة، وهنالك غابات التايغا ذات المناخ القاري القاسي والبارد جداً ويأتي في طليعتها غابات الصنوبر ولقد اعتاد الناس العيش في هذه المناطق الباردة جداً ولكن تتميز بأن الكثافة السكانية فيها قليلة لكن توجد فيها العديد من القرى والمدن ولذلك نشأت مجتمعات عديدة وهي تتميز بما يلي:

١ــ التركيب الاجتماعي القومي للسكان: يعيش في هذه المنطقة الواسعة الروس ويشكلون ٩٠% من السكان ويضاف إليهم الأوكرانيون جنوباً وقد هاجر قسم كبير منهم سابقاً إلى جمهورية أوكرانيا بالإضافة إلى التتر والبنيتيس المانسي والهانتي وفي منطقة الطاي يعيش الطائيون.

٢ــ المجتمع الريفي: تزداد كثافة السكان حول خطوط السكك الحديدية لذلك نشأت القرى والتجمعات السكانية ما حول هذه الخطوط وعلى امتدادها.

ويعيش فيها القرويون ونسبة كبيرة من المهاجرين الذين لهم لباسهم القومي الخاص والمسكن والعادات والتقاليد وخاصة عند تلك الشعوب التي تعيش في هذه البلاد أي لكل قومية عاداتها وتقاليدها وطراز بيوتها وحتى الأغاني الخاصة بها والرقصات الشعبية والزواج عندهم له عاداته وتقاليده ويمارس السكان الزراعة وخاصة الحبوب والبطاطا والذرة ويربون الماشية في منطقة السهوب الغربية.

وتعتبر حرفة الصيد من أهم حرف سكان سيبريا الغربية وخاصة صيد الحيوانات ذات الفراء الثمينة وخاصة عند أقوام الهانتي والمانسي في منطقة التايغا ويقومون بيع جلود وفراء الحيوانات التي يصطادونها بأسعار عالية بالإضافة لصيد الأسماك من مجاري الأنهار بعد ذوبان الثلوج في نهاية فصل الربيع والصيف.

ويعمل الطائيون بتربية الماشية وزراعة الحبوب وغيرها من أنواع الزراعات.

٢ــ مجتمع المدينة: نشأ مجتمع المدينة مع اكتشاف الثروات الباطنية وخاصة الحديد والفحم والمعادن الثمينة الأخرى ومن المدن التي نشأت مدينة نوفوسيبيرسك وهي من أكبر المدن في سيبريا الغربية بالإضافة لمدينة نوفوكوزيستك وتعتبر السكك الحديدية من اهم وسائل النقل والمواصلات

وذلك بسبب وجود الثلوج والحرارة المنخفضة حيث تجتاز القطارات تلك المسافات الشاسعة من سيبريا، ونشأت صناعات كثيرة مثل صناعة استخراج الثروات الباطنية ومصانع الآلات الثقيلة والسيارات وغيرها.

وترافق ذلك مع إنشاء الجامعات والمعاهد العليا المرموقة وكافة مرافق الحياة.

وكانت تعطى المكافآت والمرتبات الإضافية العليا لمن يهاجر قادماً ويسكن في سيبيريا الغربية ويعمل بالمعامل والمصانع والشركات هناك، وكان هذا سبباً من أسباب الهجرة والإقامة في تلك المدن الصناعية الشهيرة مثل مدينة نوفوكوزنيستك وهي مدينة تعدينية كبرى في سيبريا الغربية.

رابعاً: مجتمع سيبريا الشرقية:

تقع سيبريا الشرقية بين منطقة الشرق الأقصى شرقاً وسيبريا الغربية غرباً وتمتاز بغناها بالثروات الباطنية وخاصة الحديد الذي يستخرج من أنغارا وكذلك النحاس والنكيل والذهب والميكا والأحجار الكريمة والنفط والفحم والماس وتعتبر هذه المنطقة شديدة البرودة إذ تتجمد فيها المياه لعدة سنوات وتنخفض درجة الحرارة من ٥٠ـ٧٠ درجة تحت الصفر، والهواء جاف فيها وصيفها قصير ودافئ وتجري فيها العديد من الأنهار مثل نهر النيسي ونهر لينا وفيها بحيرة بايكال وهي منطقة غنية بالنباتات الطبيعية والغابات.

وتمتاز بوجود الطرق المائية وخاصة عبر نهر لينا بالإضافة نهر الينيسي ويمتاز المجتمع بما يلي:

١ـ يعيش في سيبريا الشرقية العديد من القوميات وهم الروس والبوريات والياقوت ونشأت فيها جمهورية ياقوتيا وجمهورية بورياتيا وكانت كل منهما تتمتع بحكم ذاتي في ظل النظام الاشتراكي السابق وهنالك الهاكاسيون، والنينيتس، والايفينك.

٢ــ المجتمع الريفي:

يعيش الريفيون في قرى عديدة تنتشر في هذه المنطقة وعلى مساحات واسعة ويمارس السكان الزراعة ومن أهم مزروعاتهم القمح الربيعي والذرة واستطاع السكان أن يطوروا الزراعات القطبية مثل الملفوف مع الجزر والبطاطا واللفت وذلك بسبب قدرة هذه الزراعات على تحمل البرد الشديد.

ويمارس السكان صيد الحيوانات ذات الفراء الثمينة وخاصة وسط التايغا والتوندرا مثل السنجاب والسمّور والثعلب القطبي ومن أهم الحيوانات التي يتم اصطيادها السمّور الملقب "البور غوزيني" ذو الفراء الكثيفة والجميلة بالإضافة للوعل السيبري الشرقي والوعل السبري والماعز الجبلي وللسكان عاداتهم وتقاليدهم الخاصة مثل الزواج وتعيش في أقصى شمال سيبريا الشرقية جماعات الأسكيمو الذين يصطادون الرنة ويقطنون في أكواخ مصنوعة من الثلج وغيره.

٣ــ مجتمع المدينة:

نشأ مجتمع المدينة نتيجة لوجود المدن الصناعية بسبب وجود الثروات الباطنية الكثيرة والمتعددة وتعد صناعة تكرير النفط من أهم الصناعات الكيميائية.

ومن أهم مدنها كراسنويارسك وفيها أضخم محطة توليد كهرباء في العالم بالإضافة لمدينة فرخويانسك.

وأنشأت المدارس والجامعات في أنحاء مدن سيبريا الشرقية ومنها مدينة نوريلسك.

وتعتبر السكك الحديدية أهم خطوط المواصلات ويعتبر السفر بالقطارات والطائرات أهم وسائل النقل وخاصة بين المدن والقرى بسبب طبيعة المنطقة المتجمد والباردة جداً والمغطاة بالثلج وبسبب انتشار الجليد.

خامساً: مجتمع الشرق الأقصى الروسي:

يقصد بمنطقة الشرق الأقصى الروسي الشريط المحاذي للمحيط الهادئ وهي تشغل الحدود الشرقية لجمهورية روسيا ويغلب عليها الطابع الجبلي، وبعضها شاهق الارتفاع ومن الأجزاء المهمة فيها شبه جزيرة كامتشاتكا ذات البراكين العديدة ومن أهم خصائص المنطقة غناها بالثروات الباطنية والحرارة فيها منخفضة وتصل ٣٠ درجة تحت الصفر وتسقط فيها الثلوج بشكل كبير وخاصة في الجزيرة المذكورة.

أهم الأنهار فيها نهر آمور ومن البحيرات الهامة بحيرة خانكا.

وتنتشر فيها الغابات وخاصة الصنوبريات ومن أهمها الآرز الكوري ويبلغ ارتفاع أشجاره بين ٤٠ــ٤٥م وقطر شجرته متر واحد أو أكثر.

وتعتبر الغابات إحدى الثروات الهامة الرئيسية في هذه المناطق وتعيش وسطها حيوانات كثيرة اهتم الإنسان بصيدها ولقد أثرت هذه الخصائص الطبيعية على الحياة الاجتماعية للسكان والتي تتميز بالخصائص التالية:

١ــ التركيب القومي للسكان في هذا المنطقة يتألف من الروس وهم يشكلون النسبة الأكبر ثم الأوكرانيون والبلوروسيون وقوميات أخرى مثل الايفينك والايفين والتشوكتشي الناناتيس في منطقة الآمور الأسفل والنيفخي في سخالين وآليوت في جزيرة كوماندورسكي.

٢ــ المجتمع الريفي: وهو مجتمع يمارس الزراعة والرعي والصيد وخاصة في القسم الجنوبي حيث يزرع السكان القمح الربيعي وفول الصويا والبطاطا ويرعى للسكان الأبقار والأغنام وشمالاً يرعون الآيائل.

ويعيش وسط الغابات الأيل الغابي، والدب البني والغزال ويقوم السكان بصيد الأسماك والحيوانات البحرية والثعالب الفضية ويقوم الصياديون باستخدام فراء تلك الحيوانات كلباس لمقاومة الصقيع الشديد البرودة، ويبيعون قسم منها

بأثمان مرتفعة وقد تم استصلاح الأراضي الزراعية في بداء القرن السابع عشر.

ويعيش السكان في قرى متباعدة ويمارسون حرفاً متعددة وخطوط المواصلات مؤمنة، وخاصة السكك الحديدية وتغطي المدارس معظم أنحاء الريف.

٣ـ المجتمع الحضري: وهو المجتمع الذي يسكن في المدن ويمارس أفراده حرفة الصناعة والتعدين ومن أهمها تصنيع أ خشاب الغابات بعد قطعها وكذلك مصانع لبناء الآلات ومصنع تكرير البترول في سخالين وإنتاج الصناعات الغذائية ومن أهم المدن التي يقيم فيها السكان فلاديفوستوك ومدينة ماغادان وكان بداية انشائها عام ١٩٢٩ ويقوم السكان باستخدام الأخشاب في صناعة البيوت وتم إنشاء العديد من الجامعات والمعاهد العليا المتخصصة في أنحاء الشرق الأقصى. ويظهر التوزع الجغرافي بالمجتمع الروسي في الشكل رقم(٣٠).

٢ـ المجتمع البلاروسي (روسيا البيضاء):

تقع جمهورية روسيا البيضاء في القسم الغربي من رابطة الدول المستقلة ولها حدود مع بولونيا وجمهوريات ليتوانيا ولاتفيا وروسيا وأكرانيا.

تبلغ مساحتها ٢١,٧,٦ ألف كم٢ وقد وصل عدد سكانها عام ١٩٢٩ ٤,٩١٣ مليون نسمة وعام ١٩٣٩ ـ ٨,٩١٠ مليون نسمة وعام ٢٠٠٢ يقدر عدد سكانها ٢٠ مليون نسمة.

وتحتوي أراضيها على كميات كبيرة من الثروات الباطنية وفيها مصانع للأسمدة وصناعات كيمائية متعددة، أما مناخها فهو معتدل صيفاً وبارد مثلج شتاء وتصل درجة الحرارة ١٠ْ درجة تحت الصفر شتاء وصيفاً في تموز ١٧

الشكل رقم (٣٠) التوزع الجغرافي للمجتمع الروسي

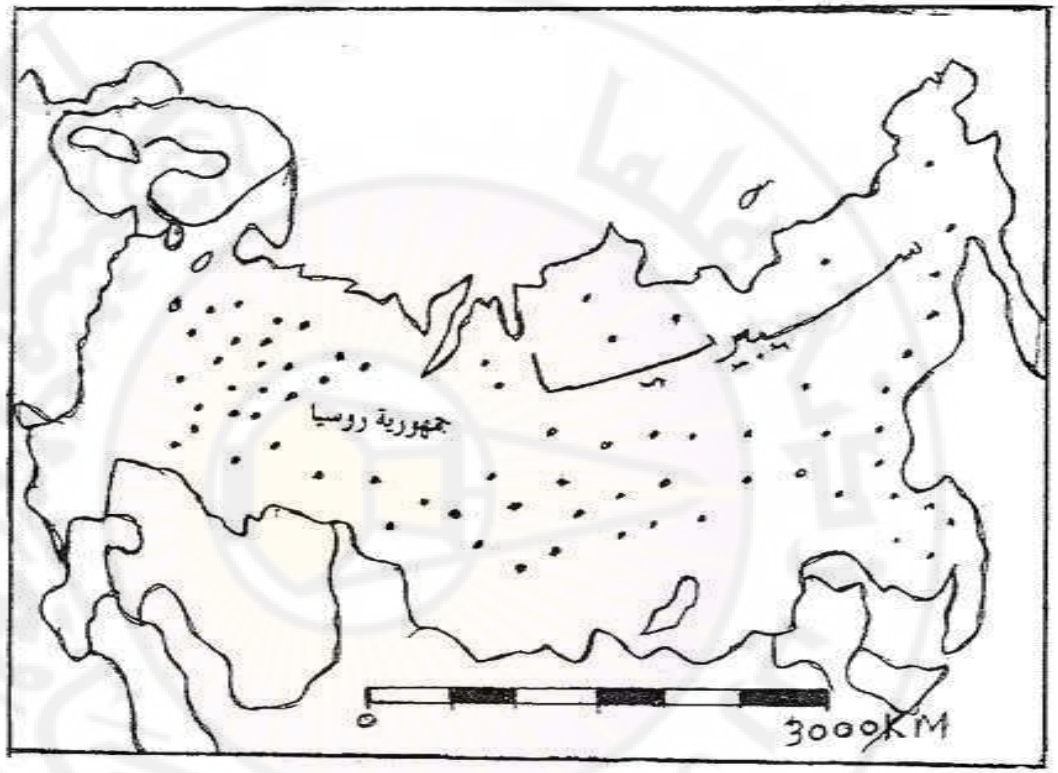

... مناطق التركز الرئيسية

الشكل رقم (٣١) التوزع الجغرافي للمجتمع البلاروسي

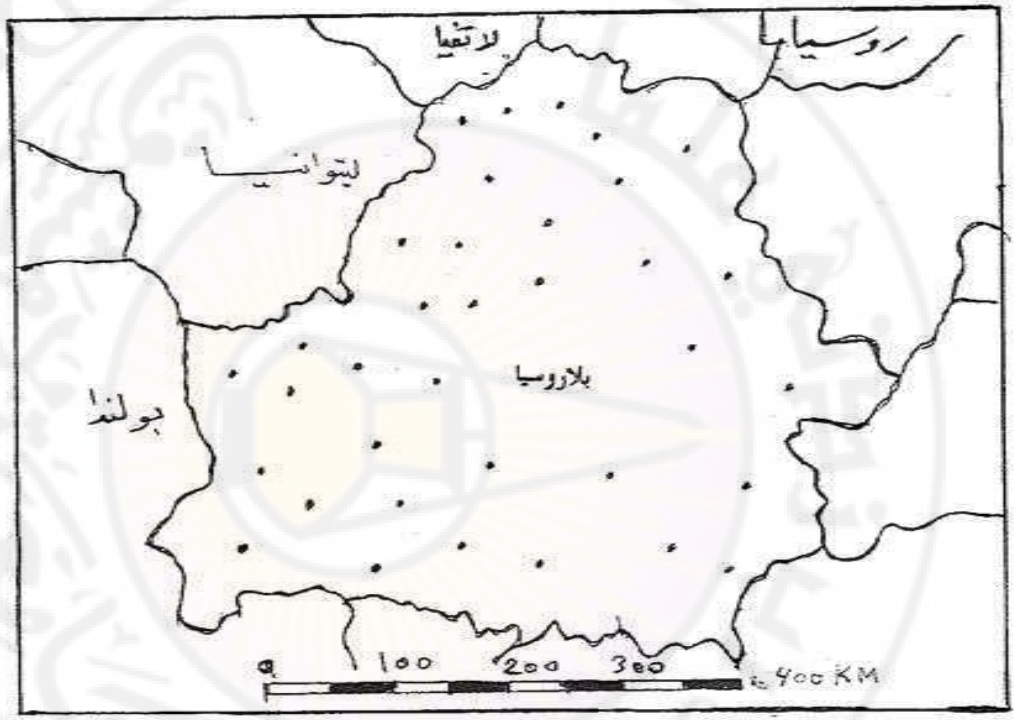

مناطق التركز الرئيسية

درجة فوق الصفر وهي تتأثر بالرياح الدافئة القادمة من جهة المحيط الأطلسي.

ويعتبر نهر الدينبر من أهم الأنهار في هذه المنطقة والمنطقة غنية بالغابات وفيها حيوانات كثيرة وسط الغابات وتعتبر حرفة الصيد لكثير من السكان حرفة رئيسية.

الخصائص الاجتماعية:

١ـ التركيب القومي للسكان: تعيش في روسيا البيضاء عدة قوميات منذ القديم وخاصة منذ قيام ثورة اكتوبر الاشتراكية ومن هذه القوميات الروسية البلاروسية ـ الأوكرانية ـ التترية ـ النور (القرباط) ـ الليتوانيون.

وتقوم العلاقة بين تلك القوميات على أساس الاحترام المتبادل وفق القوانين التي تنظم حياة السكان في تلك البلدان.

٢ـ المجتمع الريفي: يعيش الريفيون حياة تعتمد على الزراعة والصيد، ويقطنون في قرى وبلدان في الأماكن السهلية والمرتفعة، وتعرضت القرى والمدن إلى التدمير خلال الحرب العالمية الثانية لكن أعيد بنائها وإعمارها بعد انتصار الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية على النازيين.

وتطور التعليم في الريف حيث تم بناء المدارس ورياض الأطفال والمعاهد المتوسطة والعليا والجامعات في أنحاء البلاد وقبل ثورة عام ١٩١٧ الاشتراكية كانت نسبة الأميين في بيلاروسيا تزيد على ٨٢% ثم التحقت نسبة كبيرة من السكان بالمدارس والمؤسسات التعليمية للحصول على المؤهلات العلمية، ويمارس هؤلاء السكان الزراعة التي تطورت الآن بفضل استخدام الآلات الزراعية ومن أهم الزراعات الكتان وقصب السكر والبطاطا والحبوب وتعتبر المنطقة الشمالية ملائمة لزراعة الكتان بسبب توفر الظروف المناخية المناسبة لذلك.

ويعتمد السكان على تربية الحيوانات وتعتبر الثروة الغابية هامة وواسعة الانتشار في بيلوروسيا وخاصة أشجار البلوط وشجر الخشب الأبيض الصلب والشوح والصنوبر وشجر الحور الرومي، ووسط هذه الغابات يلجأ قسم من المجتمع الريفي إلى احتراف الصيد ولذلك نشأ مجتمع الصيد على أطراف الغابة ووسطها ويقيم الصيادون في خيم وبيوت مصنوعة من الحجارة المحلية ذات السقوف الخشبية الهرمية الشكل وذلك لمنع تراكم الثلج على سطح ذلك البيت وإلى جانب غرف السكن توجد حظيرة خاصة ليتم فيها وضع الحيوانات التي يتم اصطيادها ويتزود الصياد بمؤونة غذائية تكفيه لأسابيع عديدة.

ويحدد الصيادون وقت الصيد الرئيسي عندما تذوب مياه الأنهار المتجمدة، حيث تفيض المياه وتجبر عندها تلك الحيوانات والطيور على اللجوء للغابة احتماء من مياه الفيضانات عندها تبدأ عملية الصيد للآيائل والديب والثعالب وخاصة الثور البري وهو من أهم الحيوانات وأكثرها رغبة في الصيد وقد وصل إلى تلك البلاد مهاجراً من أوروبا.

٢ـ مجتمع المدينة: يعيش سكان المدن حياة حضرية تعتمد على القيام بأعمال التجارة والخدمات والنقل والمواصلات والصناعات بكل أشكالها خاصة أنها قد تطورت كثيراً خاصة بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧ وتصل نسبتهم حوالي ٥٠% من مجموع السكان، وتعتبر مدينة مينسك عاصمة جمهورية بيلوروسيا وتمر عبرها خطوط السكك الحديدية بين موسكو ووارسو[١] وبرلين.

وتعتبر من أهم المدن الصناعية وفيها مؤسسات تعليمية كبرى وجامعة مينسك ومن المدن الأخرى (فيتيبسك وغوميل) ومن أهم الصناعات في تلك

---

(١) ستروييف ـ جغرافية الاتحاد السوفيتي ص١٤٩ـ نشر دار التقدم ـ موسكو عام ١٩٧١

المدن تصنيع الأخشاب والكتان، والتريكو ومصانع للسيارات الشاحنة والجرارات والآلات الزراعية والمكنات وغيرها من الصناعات الخفيفة ويظهر التوزع الجغرافي للمجتمع البلاروسي في الشكل رقم (٣١).

٣ـ المجتمع الأوكراني:

يتكون المجتمع الأوكراني من عدة قوميات يأتي في طليعتها الأوكرانيون وهم يشكلون ثلاثة أرباع السكان، ويضاف إليهم الروس والبولونيون والأوكرانيون هم من الشعوب السلافية كما هو الحال بالنسبة للروس والبيلورسيون وتربطهم ببعض علاقات وثيقة تاريخية.

وتعتبر أوكرانيا ثاني دولة مستقلة بعد جمهورية روسيا من حيث عدد السكان والأهمية الاقتصادية كونها تحتوي على ثروات طبيعية وباطنية كبيرة إذ يبلغ عدد سكانها أكثر من ٦٠مليون نسمة.

ويعتبر ميناء أوديسا أهم موانئ الجمهورية، وكان يعتمد عليه كثيراً من قبل الاتحاد السوفيتي السابق كميناء هام على البحر الأسود، وليكون منفذاً نحو مختلف بلدان العالم وتغطي السهول مساحة كبيرة من أوكرانيا وفي القسم الغربي والجنوبي من أوكرانيا تتربع جبال الكاربات والقرم، ومن أهم الأنهار نهر الدنيبر ونهر الدونيتس في البلاد وتعتبر جبال الكاربات من أهم الجبال التي يدخل منها حوالي ٢٠٠كم في حدود جمهورية أوكرانيا وتتألف جبال القرم من عدة سلاسل جبلية وهي تشرف على شبه جزيرة القرم ولها أهمية سياحية كبيرة.

وتحتوي أوكرانيا على ثروة باطنية كبيرة مثل الفحم الحجري في حوض الدونيس والدوبناس وغرباً حوض (الفوف وفولين) وكذلك الحديد والبترول والغاز الطبيعي الملح من الكاربات.

ويعتبر مناخ أوكرانيا ومولدافيا مناخ قاري معتدل يتأثر بالرياح القادمة من المحيط الأطلسي.

وفي كانون الثاني تنخفض درجات الحرارة إلى -٥ درجة مئوية تحت الصفر في القسم الجنوبي الغربي وشرقاً -١٠ درجة مئوية تحت الصفر وصيفاً تتراوح درجات الحرارة بين ٢٣-٢٤ فوق الصفر.

وتغطي الثلوج أراضي الجمهورية قاطبة طيلة أكثر من تسعة شهور في السنة ويكون الصيف في شاطئ شبه جزيرة القرم دافئ وطويل من أهم الأنهار الدينبر في أوكرانيا، وهو الذي ينبع من جمهورية روسيا كما تغطي الغابات المتنوعة مساحة كبيرة من البلاد، إن ذلك الوضع الطبيعي قد اثر بشكل كبير على طبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية للسكان ولذلك نشأ مجتمع ريفي في أنحاء قرى أوكرانيا ومجتمع حضري عاش في المدن والمراكز الحضرية وفيما يلي دراسة عن هذه المجتمعات.

١- المجتمع الريفي: يتوزع الريفيون في أوكرانيا على مختلف أنحاء البلاد وخاصة في المناطق السهبية وقرب ضفاف الأنهار المذكورة سابقاً وفي بعض المرتفعات الخفيفة، ويقام المسكن الريفي في الأرض السهلية بأسلوب هندسي متواضع جميل محاطاً بالزهور والورود، وتدعى مجموع المنازل بالمنازل البيضاء "خاتا" باللغة الأوكرانية.

وتعتبر الزراعة الحرفة الرئيسية للمجتمع الريفي ومما يساعد على ذلك وجود الترب الخصبة الصالحة للزراعة ويقوم الريفي بزراعة أرضه وخاصة القمح الشتوي وقصب السكر ودوار الشمس والذرة والشعير وخاصة في المنطقة السهبية من أوكرانيا.

بالإضافة إن تربية المواشي مثل الأبقار والأغنام ويهتم الفلاح الأوكراني بتربية الطيور.

أما الصيد فهو مهنة هامة للكثير من السكان ولذلك نشأ مجتمع الصيد إلى جانب المجتمع الريفي الزراعي ويقوم الصياديون باصطياد الحيوانات وسط

الغابـات مـثل الثعالـب والطـيور البرية والأبقار الوحشية والنعام والحصان البري وبقـر الوحـش وحصـان "برجـيفا لسـكي"[1] ويستفاد من جلود تلك الحيوانات الثمينة بشكل رئيسي.

وتم تخـديم القـرى والـتجمعات الريفـية بالمدارس والمعاهد التعليمية وبالمراكز الصـحية والترفيهـية وبوسـائل المواصـلات ولا يوجد فرق كبير بين القرية والمدينة في أوكرانيا بسبب تطور الريف كثيراً.

٢ـ المجـتمع الحضـري: وهـو مجـتمع يقطـن في المدن إذ توجد في أوكرانيا العديـد مـن المـدن الهامـة ومن أهمها مدينة كييف العاصمة ويبلغ عدد سكانها أكثر مـن ٣مليـون نسـمة تقديـر عام ٢٠٠٢ ، وهي مدينة صناعية وتوجد فيها مصانع الآلات الميكانيكـية الضـخمة وفـيها مؤسسـات تعليمـية علـيا وأكاديمية للعلوم وجامعـة كـبرى وهـي مخططـة عمرانـياً بشكل جيد ومن وسائل النقل الهامة فيها مـترو كيـيف وهـنالك مـدن هامـة صـناعية مثل خاركوف وفيها ملتقى لخطوط السـكك الحديديـة ومديـنة دونيتسـك وتحتوي على صناعات تعدينة كبيرة ومدينة الفـوف في الجـزء الغـربي مـن اوكرانيا ومدينة أوديسا ميناء أوكرانيا وروسيا الهام عـلى الـبحر الأسـود، ومدينة سيفاستوبول المدينة التاريخية ذات الأهمية الكبرى في حـرب القـرم عـام ١٨٥٤ـ١٨٥٦ وفي الحرب العالمية الثانية في الفترة بين أعوام ١٩٤١ـ١٩٤٥ ويظهـر الشـكل رقـم (٣٢) الـتوزع الجغـرافي للمجـتمع الأوكراني.

---

(١) ستروييف ـ جغرافية الاتحاد السوفيتي ص٢٢٦ـ١٩٧١ مرجع سبق ذكره.

الشكل رقم (٣٢) التوزع الجغرافي للمجتمع الأوكراني

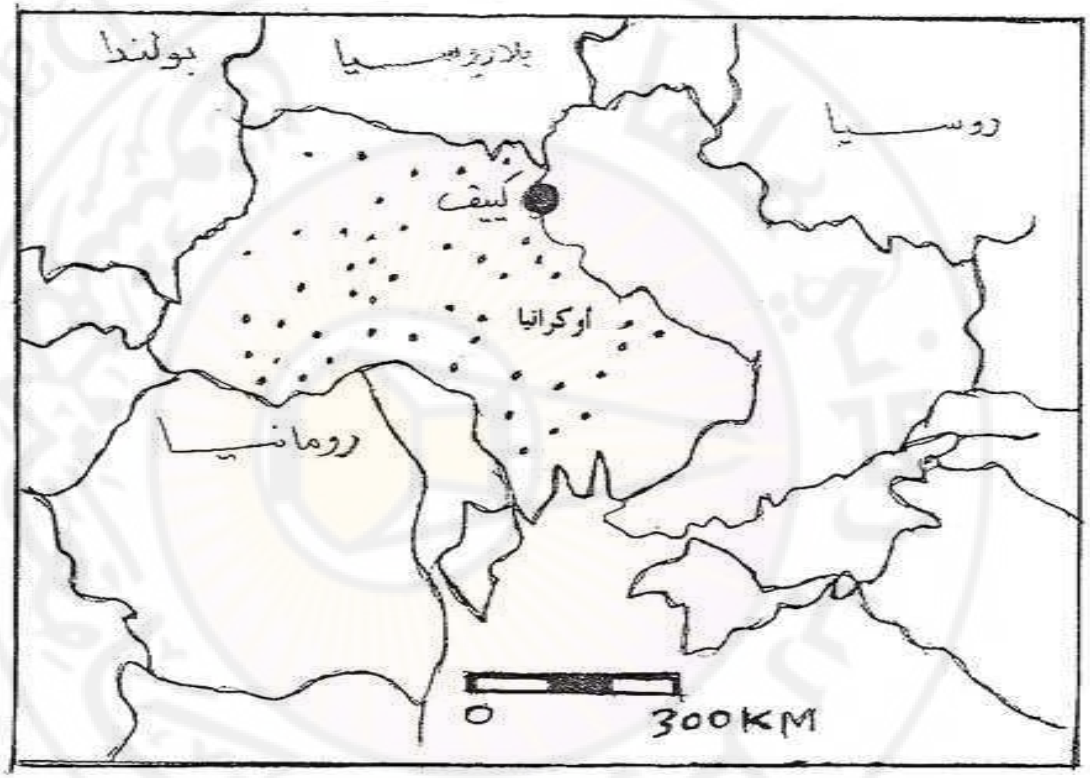

مناطق التركز الرئيسية

٤ـ المجتمع المولدافي:

وهو مجتمع يعيش في جمهورية مولدانيا المجاورة لأوكرانيا ويتألف المجتمع المولدافي من المولداف وهم من المجموعة السلافية والأوكران والروس، ويتميز المجتمع في هذه الجمهورية بأنه مجتمع قروي ريفي ومجتمع يعيش في مراكز حضرية أي في مدن مناخها قاري معتدل وتحتوي على أراضي زراعية خصبة وثروات باطنية عديدة وتقع إلى الجنوب الغربي من رابطة الدول المستقلة.

ويصنف السكان من الناحية الاجتماعية إلى مجتمعين ريفي وحضري:

١ـ المجتمع الريفي: تغلب على المجتمع المولدافي صفة المجتمع الريفي وتصل نسبة المولدافيين ٤٠% من مجموع السكان ويقيم هؤلاء في قرى وسط المنطقة السهبية وعلى المرتفعات المتوسطة على شكل مدرجات وبنيت بيوتهم من الحجارة ذات السقف الخشبي الهرمي على شكل مثلث الشكل وتطل على الفناء الخارجي بنوافذ.

ويعمل السكان الريفيون بزراعة الخضار والبطاطا وكروم العنب والتبغ، والبندورة والقمح... وغطت المدارس والمعاهد المتوسطة العليا أنحاء البلاد.

٢ـ المجتمع الحضري: وهو المجتمع الذي يقطن في المدن ويعمل أفراده بالصناعة والتجارة والنقل والأعمال الإدارية المختلفة.

ويقطن هؤلاء في المدن وتعتبر مدينة كيشينف عاصمة مولدافيا وبنيت فيها الجامعة والمعاهد العليا والمتوسطة.

٥ـ المجتمع الأذربيجاني:

تعتبر جمهورية أذربيجان إحدى بلدان ما وراء القفقاس الهامة وبلغ عدد سكانها عام ١٩٩٢ـ ٧,٣مليون نسمة وتختلف كثافة السكان من منطقة لأخرى فيها حسب الظروف الطبيعية وتعتبر أذربيجان إحدى جمهوريات رابطة الدولة المستقلة منذ عام ١٩٩١ وتبلغ مساحتها ٥,٥ ألف كم٢ وتتألف من ٦٠ وإقليم ومقاطعة ويتبع لها إقليم

ناغورني كاراباخ تبلغ مساحته ٤,٤ألف كم٢.

وتتميز بتنوع التضاريس فيها فعند مشارف القفقاس مناخ معتدل وتتميز المناطق المنخفضة بارتفاع الحرارة صيفاً وتغطيها الثلوج لأكثر من ٩شهور في السنة وتنتشر فيها الغابات وخاصة الأشجار عريضة الأوراق حيث يوجد فيها الزان والبلوط والخشب الأبيض ويتميز المجتمع الأذربيجاني بالخصائص التالية:

١ـ يتألف السكان من عدة قوميات مثل الأذريين، والأبخاز والأسيتيين والتاتين والروس وغيرهم، وحققت أذربيجان تطوراً كبيراً في ظل الاتحاد السوفيتي السابق.

٢ـ المجتمع الريفي: يتميز المجتمع الريفي بأنه زراعي يعتمد على ممارسة حرفة الزراعة والرعي والصيد، ويعيش السكان في قرى منتشرة في أنحاء البلاد وتسمى المناطق التي يسكنها أفراد المجتمع الريفي اسم (كيشلاك) وتبنى البيوت غالباً من الحجر والطين والسقف الخشبي المستوي، وللسكان عادات وتقاليد خاصة بهم ويمارس السكان زراعة الخضراوات والحبوب وكروم العنب، كما نشأ مجتمع الصيد وخاصة صيد الثعالب والوعول والطيور وغيرها ويربي السكان الماشية والأغنام والماعز الجبلي للاستفادة من جلودها ولحومها.

٣ـ المجتمع الحضري: وهو يشمل سكان المدن الذين يعملون بمهن مختلفة مثل الصناعة واستخراج وتكرير النفط والأعمال الإدارية والتجارية وتشتهر أذربيجان بوجود النفط والغاز بشكل كبير وتصدر إلى مختلف جمهوريات ما وراء القفقاس النفط والغاز كما توجد فيها مصانع للآلات والسيارات والصناعات الثقيلة.

وتعتبر مدينة باكوهي عاصمة أذربيجان ويقطن فيها حوالي ٢مليون نسمة وهي مدينة نفطية و تقع على الشاطئ الجنوبي لشبه جزيرة أبشيرون وهي ملتقى

الشكل رقم (٣٣) التوزع الجغرافي للمجتمع الأذربيجاني

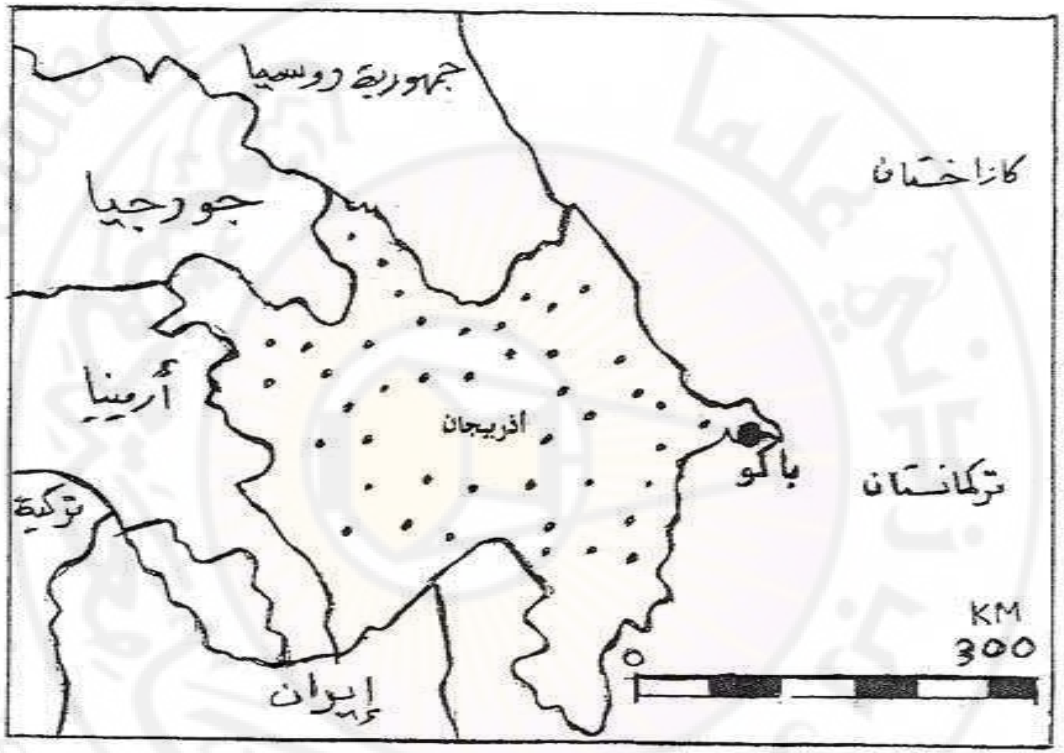

مناطق التركز الرئيسية

لطـرق السـكك الحديديـة ويوجد فيها جامعة كبيرة وفي هذه المدينة عاش الإنسان مـنذ القـديم ولهـا مـاض تاريخي هام وتحمل الطابع الشرقي في طراز البناء وتشتهر فـيها المسـارح ودور الـثقافة ويتميز المجتمع الحضري في أذربيجان بأنه مجتمع متطور ولـه علاقـة متواصـلة بالمجـتمع الـريفي باسـتمرار مـن خلال العلاقات الثقافية والاقتصـادية والاجتماعـية والتخصـص والـتكامل بـين المدينة والريف ويوضح الشكل رقم (٣٣) التوزع الجغرافي للمجتمع الأذربيجاني في أنحاء الجمهورية.

٦ـ المجتمع الأرميني:

تعتـبر جمهوريـة أرميـنا إحـدى جمهوريـات رابطة الدول المستقلة الهامة تبلغ مسـاحتها ٢٩,٨كـم٢ وكـان عـدد سكانها عام ١٩٢٦ـ٨٨٠ ألف نسمة وعام ١٩٥٩ ١,٧٦٣ ملـيون نسـمة وحـوالي ٥ ملايـين نسمة عام ٢٠٠٣ وتتصف أراضـي أرمينـيا بوجـود تـنوع تضريسي كبير فهناك النجد الأرميني والذي يشكل مسـاحة كـبيرة وتغطـي الـبلاد سلاسل جبلية يطلق عليها جبال القفقاس الصغير، وهـنالك سـهول واسـعة في أرمينـيا وتتخـلها مخاريط بركانية ذات حجارة قاسية ومـن أهـم الجـبال هـذه المنطقة بركان جبل أراغاتس الذي يبلغ ارتفاعه ٤٠٩٠م وتـتكون تـربة مـن رسـوبيات كـثيرة توضـعت خلال فترات تاريخية جيولوجية ثقافية.

وظهـرت في أرمينـيا ينابـيع معدنـية كـثيرة ويتميز إقليم أرمينيا بأن مناخه معـتدل وصـيفه حـار، وشـتاؤه قاسـي بارد تغطيه الثلوج لحوالي تسعة شهور في السنة وتهب عليه رياح باردة أمطاره غزيرة وتصل ١٠٠٠ملم.

وتعتـبر مـياه الـثلوج مصـدراً رئيسـياً هاماً للمياه الجوفية ولقد أثرت هذه الخصائص الطبيعية في الخصائص الاجتماعية والاقتصادية للسكان.

الشكل رقم (٣٤) التوزع الجغرافي للمجتمع الأرميني

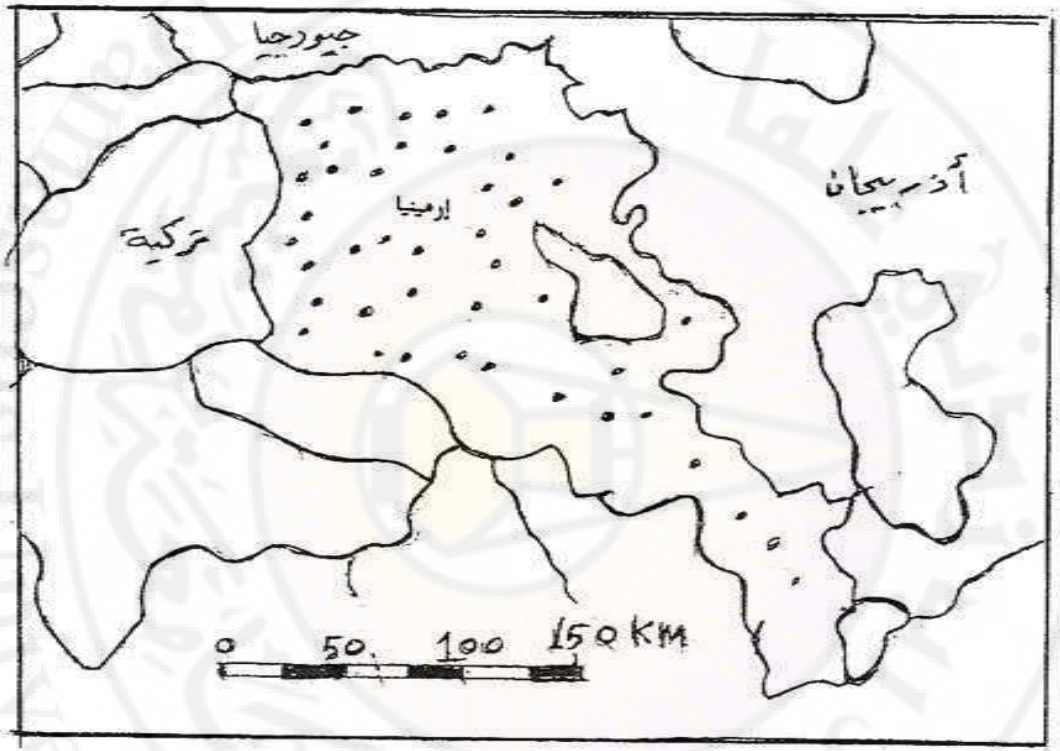

مناطق التركز الرئيسية

الخصائص الاجتماعية:

ويتألف المجتمع الأرميني من الأرمن والأذربيجان والروس وغيرهم ويصنف ذلك المجتمع إلى ما يلي:

١ـ المجتمع الريفي: وهو الأكثر اتساعاً في البلاد ويمثله السكان في القرى والتجمعات الريفية التي تنتشر في المناطق السهلية أما المناطق المرتفعة فتستخدم مراعي ويقطن الريفيون في بيوت مبنية من الحجارة المحلية وذات سقوف خشبية هرمية الشكل وبعضها مستوى وخاصة في القسم الجنوبي ويعمل الريفيون بأعمال مختلفة وخاصة الزراعة ويأتي في طليعتها الحبوب والبطاطا والخضراوات وكروم العنب وتعرض المجتمع الأرميني لظروف قاسية ويمارس السكان الصيد بأنواعه، وتتميز البيت الأرميني بأنه مربع الشكل من الحجارة وتتوسط سقفه فتحة ليخرج منها الدخان، الناجم عن حرق الأخشاب الذي يستخدم في التدفئة في فصل الشتاء البارد والذي تتساقط فيه الثلوج وأما البيوت الحالية فقد اصبحت تبنى بسقف مثلث الشكل وذلك لتنساب الثلوج والأمطار على جانبيه.

وتطور الريف أكثر في العهد السوفيتي الاشتراكي فتم تأمين الكهرباء ومياه الشرب ووسائل وطرق المواصلات وخاصة السكك الحديدية، وتم بناء المدارس والجامعات والمعاهد العليا وأكاديمية للعلوم في العاصمة يرفان.

وللأرمن تقاليد خاصة في الزواج ولهم لباسهم التقليدي الخاص والرقصات والأغاني والأهازيج الخاصة بهم.

٢ـ المجتمع الحضري: وهو مجتمع يتركز في المدن وخاصة في العاصمة يرفان ومدن أخرى في أنحاء أرمينيا وهي مراكز إدارية واقتصادية وصناعية وعقد مواصلات إقليمية هامة ويعمل السكان في الأعمال الإدارية والتجارة والنقل

والخدمات الأخرى وتقع مدينة يرفان على نهر رازدان "زانغا" في منطقة تجويف محاط بالجبال وإلى الغرب منها توجد سهول واسعة ذات أصل رسوبي تتخللها بعض البراكين.

ويوجد ضمن المدينة الواحد نموذجين من البناء بناء قديم تقليدي وبناء حديث في الأطراف متعدد الطوابق.

وتنتشر عشرات المعامل والمصانع وخاصة للصناعات الكيميائية ، وصناعة الآلات الحديثة وصناعة الآلات الحديثة والسيارات.

وفيها أكاديمية علوم الجمهورية أثينا وتم فيها بناء المؤسسات التعليمية العليا.

كما انتشرت المدارس والمعاهد في اتحاد البلاد.

وأدى هذا التطور المستوى العلمي والثقافي عند السكان في ظل الحكم الاشتراكي السوفيتي السابق. ويظهر الشكل رقم (٣٤) التوزع الجغرافي للمجتمع الأرميني.

٧ـ المجتمع الكازاخي:

يتشكل المجتمع الكازاخي من سكان جمهورية كازاخستان والتي تمتد على رقعة جغرافية كبيرة من الغرب للشرق بسافة ٣٠٠٠كم ، بين المجرى الأدنى لنهر الفولغا وحتى جبال الطاي ، ومن الشمال للجنوب بطو ل١٥٠٠كم ، بين حدود جمهورية روسيا وحتى حدود جمهوريات آسيا الوسطى .

ويتميز سطحها الطبوغرافي بتنوعه ويتألف من مناطق شديدة الإرتفاع حيث تتوضع جبال تيان شان بارتفاع ٥٠١٧ م. والقسم الآخر سهلي تتخلله بعض التلال شرقاً ، ومرتفعات أخرى عديدة مثل مرتفعات " توغاري" الواقعة بين "موغوجاري" والأورال الجنوبي في الغرب التلال الكازاخية من الشرق.

إن هـــذا الوضـــع التضريســـي المعقـــد لتلك المنطقة جعل الاستغلال والاستثمار الاقتصـــادي ينحصـــر في المـــناطق الســـهلية ، الـــتي تحـــوي على كثير من الثروات الباطنية (الطبيعية من توفر التربة الصالحة للزراعة والمياه الوفيرة).

ومن الثروات الباطنية الزنك و الرصاص والفضة والبترول.

أما المناخ فهو قاري ، وتعتبر هذه البلاد بعيدة عن التأثيرات البحرية .

وتتمـــيز درجـــة الحـــرارة بالانخفـــاض الشديد ، وتصل إلى – ١٩° تحت الصفر شمـــالاً وتصـــل جـــنوباً إلى ٢ درجـــة تحت الصفر كما تصل كمية الأمطار الهاطلة إلى (٧٠٠ملم).

وتغطـــي الـــثلوج ســـطح كازاخســـتان بشـــكل متواصل خلال فترة طويلة من الســـنة، ويتمـــيز الخـــط الأوســـط من كازاخستان بأنه شبه صحراوي، وأما القسم الجـــنوبي فهـــو صـــحراوي رمـــلي. ولذلـــك فإنها تستخدم كمراعي أما الغابات في كازاخســـتان فهـــي قلـــيلة ولا تـــزيد مســـاحتها عـــن ٣% وخاصة على أطراف المـــنحدرات الجبلـــية مـــثل شـــجرة الصـــنوبر والشـــوح على مرتفعات تيان شان . وشمالاً نحو غابات البتولا.

إن هـــذا الوضـــع الجغـــرافي لكازاخســـتان قـــد أثـــر على الوضع الاقتصادي والاجتماعي للسكان وعلى تصنيف الخصائص الاجتماعية للسكان بما يلي :

١ــ تـــتألف كازاخســـتان مـــن ١٥ مقاطعـــة ويـــتألف سكانها من الكازاخ، والأوكـــرانين ، والـــروس ، وخاصـــة في الشـــمال والكوريـــن والأوزبك والأيكور جنوباً.

٢ــ المجـــتمع الـــريفي : يـــتألف هذا المجتمع من سكان الريف والذين ينتشرون في القـــرى العديـــدة ، وقـــد عـــرف هـــؤلاء الاستقرار في بيوت مبنية من الحجارة المحلية ذات السطوح القرميدية .

ويعمـــل أغلـــب ســـكان المجتمع الريفي بأعمال الزراعة وخاصة زراعة الحبوب والخضراوات والبطاطا.

وتعتمد الزراعة على مياه الأمطار من جهة وعلى وجود بعض الينابيع وخاصة في الشمال حيث توجد الترب السوداء الصالحة للزراعة .

وثم حفر آبار ارتوازية عديدة للتزود بالمياه العذبة.

وعلى هذا فإن الشمال هو زراعي ، أما الجنوب فهو مقفر صحراوي باستثناء المنطقة الواقعة على ضفاف نهر سيرداريا.

وانتشرت وسائل الثقافة والتعليم في أنحاء كازاخستان وخاصة خلال فترة الحكم الاشتراكي ، وبنيت الجامعات والمعاهد المتوسطة والمتخصصة في أنحاء البلاد .

٣ــ المجتمع الرعوي: وهو مجتمع قديم يحترف الرعي ، ولذلك فإنه يعتمد على الترحال والتنقل بحثاً عن الماء والكلأ لإطعام الماشية (الأبقار والأغنام والخيل والأبل) وكانت الخيمة تبنى بشكل دائري تغطى باللباد ، وللخيمة باب واحد فقط تخلو من النوافذ .

ولكن فيما بعد أصبح الرعاة يستخدمون خيمة اللباد السميك عبارة عن مسكن متنقل

٤ــ المجتمع الحضري : وهو مجتمع يقطن في المدن ، وتبلغ نسبته ٤٥% من سكان كازاخستان .

ويعمل السكان بالصناعة والتجارة والأعمال الإدارية ، والتنقل والخدمات وتم بناء المشافي والجامعات المرموقة والأكاديميات العلمية العليا . والمعاهد المتوسطة في أنحاء المدن .

وثم بناء دور الثقافة والمسارح ، وللشعب الكازاخي عادته وتقاليده ولباسه وثقافة خاصة.

الشكل رقم (٣٥) التوزع الجغرافي للمجتمع الكازاخي

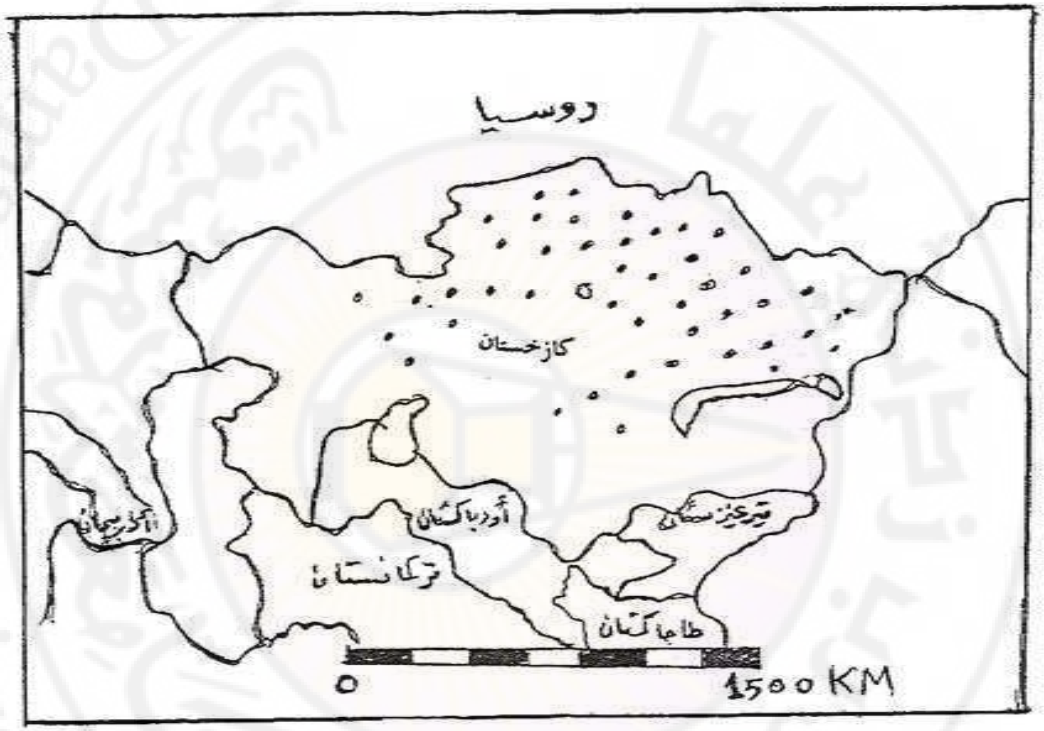

٠٠٠ مناطق التركز الرئيسية

ومدينة المأتا عاصمة كازاخستان ، وهي مركز صناعي وتجاري وثقافي هام وهناك مدن أخرى مثل مدينة بلخاش الواقعة على شاطئ بحيرة بلخاش الشمالي، ويوضح الشكل رقم (٣٥) التوزع الجغرافي للمجتمع الكازاخي.

مجتمعات جمهوريات أسيا الوسطى:

وهي تتألف من مجتمعات أوزباكستان ، وتركمانيا ، وطاجكستان ، وقيرغيزيا ، والتي تتميز بالتشابه فيما بينها من حيث التركيب السلالي والعادات والتقاليد وطبيعة الحياة الاقتصادية والاجتماعية وإن كان هناك بعض التباينات من حيث اللغات واللهجات المحلية وتأثير الظروف الطبيعية على كل منها .

ومن المعروف أن تلك الجمهوريات تقع في أسيا الوسطى ، وقد شملها التطور في ظل الحكم الإشتراكي . في كافة المجالات الاجتماعية من ثقافة وتعليم وصحة وسكن وخدمات ، وصناعة حيث غطت المعامل والمصانع والشركات أنحاء المدن في تلك الجمهوريات ومن الخصائص الطبيعية لها . وجود الجبال العالية وإلى جانبها توجد السهول الواسعة ، ووجود مساحات صحراوية كبيرة . وفي القسم الشرقي من أسيا الوسطى توجد الجبال الشاهقة وهي جبال بامير وخاصة الشرقية والتي تبلغ ارتفاعها ٦٠٠٠م وجبال تيان شان إلى الغرب والشمال الغربي منها توجد سهول واسعة ذات أهمية اقتصادية كبيرة.

ويفصل تلك الجمهوريات عن جمهوريات ما وراء القفقاس بحر قزوين.

أما بالنسبة للمناخ فهو بارد ثلجي لحوالي ٩ شهور في السنة ، وخاصة على القمم الجبلية في بامير وتيان شان حيث توجد الجليديات الواسعة والتي تعتبر مصادر تغذية للأنهار . وترتفع قمة جبال تيان شان إلى أكثر من ٧٤٣٩ م

أما في فصل الصيف فتكون الحرارة عالية ، وتبدو أسيا الوسطى حوض مغلق ، ويعتبر نهر أموداريا وسيرداريا هما أهم الأنهار في أسيا الوسطى.

أمـا الغطـاء النـباتي فهـو يـتدرج بين النباتات الصحراوية والشوكيات بين الأشجار العالية والتي تتشكل منها الغابات.

إن لـتلك الخصـائص الطبيعـية تـأثير كـبير عـلى الخصـائص الاجتماعية والاقتصادية للسكان وفيما يلي دراسة لتلك المجتمعات .

١ـ المجتمع الأوزبكي:

يعـيش المجـتمع الأوزبكـي فـوق مساحة قدرها ٤٤٩,٦ ألف كم٢، ويقدر عدد السكان ٥ ملايين نسمة عام ٢٠٠٢.

ويـتكون المجـتمع الأوزبكـي مـن الأوزبـك ، والطاجـاك ، والأوكراليون والقيرغـيز، والـتركمان ، والأرمـن ، والبشـكيريون ، والـروس وغيرهم . وقد حلـت أوزباكسـتان في مـنظومة الإتحـاد السوفيتي عام ١٩٢٤ ــ وانفصلت عنه بعـد انهـيار الإتحـاد السوفيتي عام ١٩٩٠ــ ١٩٩١ لتصبح دولة مستقلة وواحدة من جمهوريات رابطة الدول المستقلة .

ويقسم المجتمع الأوزبكي إلى قسمين :

١ــ المجـتمع الـريفي: وهـو المجتمع القروي الذي يعتمد على الزراعة والصيد والرعي في حياته الاقتصادية.

ويـزيد عـدد سـكان الـريف على عدد سكان المدن وتزداد نسبة العاملين في الـزراعة عـلى عـدد العـاملين في الصناعة ، لكن عدد سكان المدن بدأ يتزايد مع تطـور الصـناعة واحـتراف الـناس للـتجارة والـنقل والخدمات ، ولذلك بدأت قوافل الهجرة تتجه من أنحاء الريف للعمل في المدن .

ويسـتقر الأوزبـك في القـرى ويعملـون بالـزراعة المـروية وتسمى المناطق المأهولـة بالسـكان في أوزباكسـتان وآسيا الوسطى (الكيشلاكات) ومن خصائصها أن الطـرق المعـبدة الـتي تخـترقها تجـري بجوار أقنية الري ، وبيوتها مبنية من اللبن وهـو عـبارة عـن طـين مخلوط بالتبن ، ولكل بيت سطح مغطى بالقرميد الخام غير

المحروق وتطل البيوت على الأقنية المحيطة بها بواسطة نوافذ وكل بيت محاط بأسوار مبنية من الطين واللّبن .

ويقوم لسكان بزراعة الدراق والمشمش والأشجار المثمرة ويمارس السكان زراعة الخضراوات والفواكه والمروية بواسطة المياه المتوفرة بواسطة الأقنية المذكورة .

٢ـ المجتمع الحضري: وهو مجتمع سكان المدن حيث ازدهرت المدن وازداد عدد سكانها ، وكبر حجمها مع توافد الهجرة إليها خلال الخمسين سنة الماضية بسبب وجود المعامل والمصانع والشركات والمؤسسات الاقتصادية ، ويعمل أغلب سكانه بالأعمال الادارية والصناعية والنقل والخدمات ويقيم السكان في بيوت وشقق سكنية حديثة.

وتم في المدن بناء الجامعات والأكاديميات العلمية العليا .

وتعتبر مدينة طشقند عاصمة أوزباكستان وهي من المدن الهامة في أسيا الوسطى ، ولها عراقة تاريخية وأصالة عبر السنين الغابرة، ويوضح الشكل رقم (٣٦) توزع المجتمع الأوزبكي.

٢ـ المجتمع القيرغيزي:

يتكون المجتمع القيرغيزي من عدة قوميات وهي القيرغيزية والروسية والأوزبكية والأوكرانية والتترية والكازخية البشكيرية والأرمنية.

كانت قيرغيزيا تابعة للإتحاد السوفيتي منذ عام ١٩٢٤ تبلغ مساحتها ١٩٨,٥ ألف كم٢ . وتتألف من ١٧ إقليم ومقاطعة.

ومنذ انتصار الثورة الاشتراكية عام ١٩١٧ في روسيا ودخول قيرغيزيا منظومة الإتحاد السوفيتي ، تم بناء المدارس والمشافي والمسارح ودور الثقافة والنوادي والمكتبات والجامعات في مختلف أنحاء قيرغيزيا ويصنف مجتمع القيرغيزي إلى ما يلي:

١ــ المجتمع الريفي: يتوزع الريفيون في أنحاء قيرغيزيا ، ويعملون بالزراعة والرعي . وتعتبر الحبوب والخضراوات والبطاطا والأشجار المثمرة أهم أنواع الزراعات وللمرأة مكانة خاصة في مجتمع أسيا الوسطى ويعمل السكان في المجتمع الريفي بتربية الحيوانات وخاصة الأغنام والماعز والخيل والإبل ، وتوجد في هذه الجمهورية المراعي الواسعة والتي تنبت فيها الأعشاب والحشائش الملائمة للرعي وتم تغطية أنحاء الريف بالمؤسسات التعليمية والصحية الشاملة .

٢ــ المجتمع الحضري : وهو المجتمع الذي يقطن في المدن وازداد عدد سكان المدن خلال الثلاثة عقود الماضية ، وذلك بسبب تطور الصناعة حيث تم بناء المعامل والمصانع في أنحاء المدن وخاصة مدينة فرونزة عاصمة قيرغيزيا.

ويعمل السكان بالنقل والتجارة والخدمات وقطاع الصحة وتم بناء الجامعات والمعاهد العليا والأكاديميات في البلاد وخاصة في المدن. ويوضح الشكل رقم (٣٧) التوزع الجغرافي للمجتمع القيرغيزي.

٣ـ المجتمع التركمانستاني :

يتألف المجتمع التركمانستاني من عدة قوميات هي التركمانية ، والروسية ، والأوزبكية ، والأوكرانية ، والأرمنية وغيرها ويقيم هؤلاء في جمهورية تركمانيا والتي تبلغ مساحتها ٤٨٨,١ ألف كم٢

وكان عدد سكانها عام ١٩٥٧ ــ ١,٦ مليون نسمة . ويقدر عدد سكانها عام ٢٠٠٠ بحوالي ٦ مليون نسمة.

ويصنف المجتمع التركمانستاني إلى نوعين من المجتمعات وهما

١ــ المجتمع الريفي : وهو مجتمع يعتمد على الزراعة والرعي والصيد،

الشكل رقم (٣٦) التوزع الجغرافي للمجتمع الأوزبكي

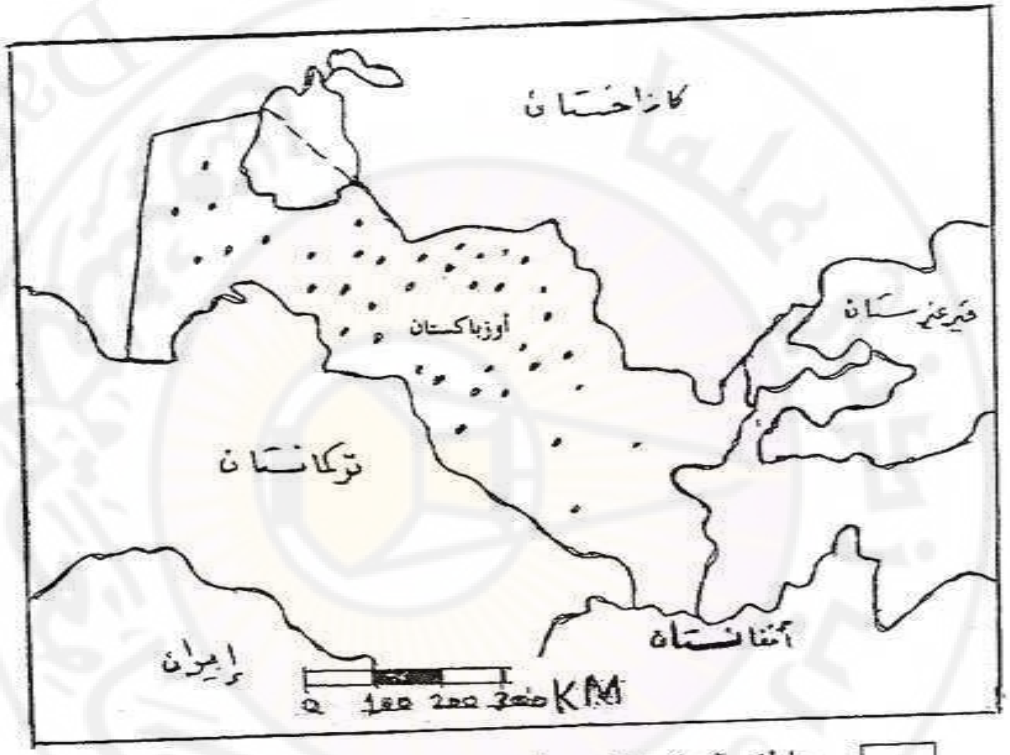

مناطق التركز الرئيسية

الشكل رقم (٣٧) التوزع الجغرافي للمجتمع القيرغيزي

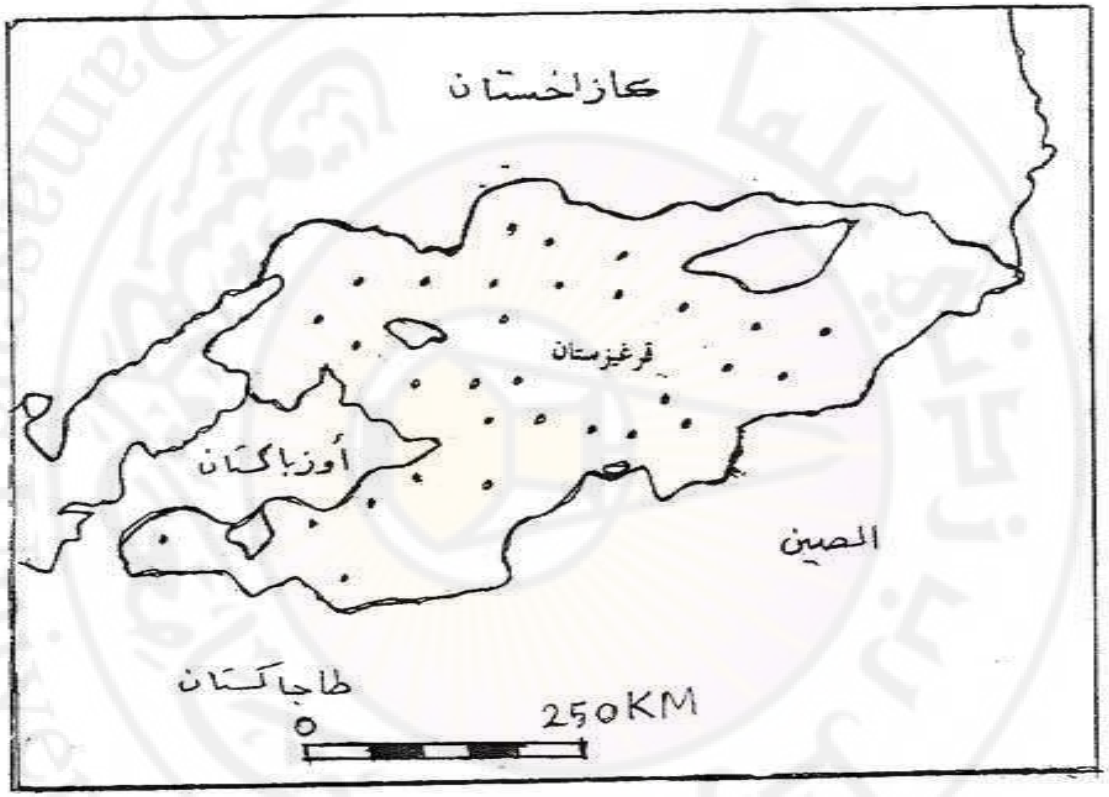

مناطق التركز الرئيسية

وهـــو قـــديم نشـــأ مـــنذ مئات السنين، ويعتمد على الزراعة ومن أهم الزراعات ـــ الحـــبوب ـــ الخضـــراوات والفواكـــه ، وكذلك رعي الأغنام والماعز والأبقار والخيل والجمل الآسيوي ويتغذى السكان باللحوم والحليب من تلك الحيوانات

٢ـــ المجـــتمع الحضـــري : وهـــو المجـــتمع المقـــيم في المدن وخاصة مدينة عشق آبـــاد وهـــي عاصـــمة تركمانســـتان . تقع هذه المدينة عند سفوح كوبية داغ الواقعة عـــلى حـــدود الصـــحراء وبلـــغ المجـــتمع درجـــة عالية من الثقافة والتطور الفكري والاجتماعي في ظل الحكم الاشتراكي.

ويعمل سكان المدن بأعمال إدارية وتجارية وصناعية مختلفة وتم بناء أكاديمية العلوم في جمهوريـــة تركمانيا في عشق آباد وقد تطور عدد سكان المدن بسبب الهجرة إليها من أنحاء الريف. ويبين الشكل رقم (٣٨) التوزع الجغرافي لمجتمع التركمانستاني.

٤ـ المجتمع الطاجاكي:

وهـــو مجـــتمع جمهوريـــة طاجاكستان ويتألف من عدة قوميات وهي التركمانية والروسية والكازاخية والطاجاكية والتترية والأذربيجانية وغيرهم .

وقـــد أصـــبحت هذه الجمهورية مستقلة عام ١٩٩١ بعد انهيار الاتحاد السوفيتي الســـابق . وأصـــبحت فـــيما بعـــد إحدى بلدان رابطة الدول المستقلة. وتبلغ مساحة طاجاكســـتان ١٤٣,١ ألف كم٢ . وتتألف من ١٩ اقليم ومقاطعة وكان عدد سكانها عام ١٩٩٢ـــ ٥,٦ مليون نسمة وقدر العدد عام ٢٠٠٠ بـــ٧ مليون نسمة.

ويتكون المجتمع الطاجاكي من مجتمعين هما :

١ـــ المجتمع الريفي : وهو مجتمع يعتمد على الزراعة والرعي والصيد ويعمل سكانه بزراعة الخضار والفواكه والحبوب ويسكن الفلاح الطاجاكي في مسكن مبني من الطين واللبن والحجارة والمسقوف بالخشب والاسمنت والقرميد

الشكل رقم (٣٨) التوزع الجغرافي للمجتمع التركمانستاني

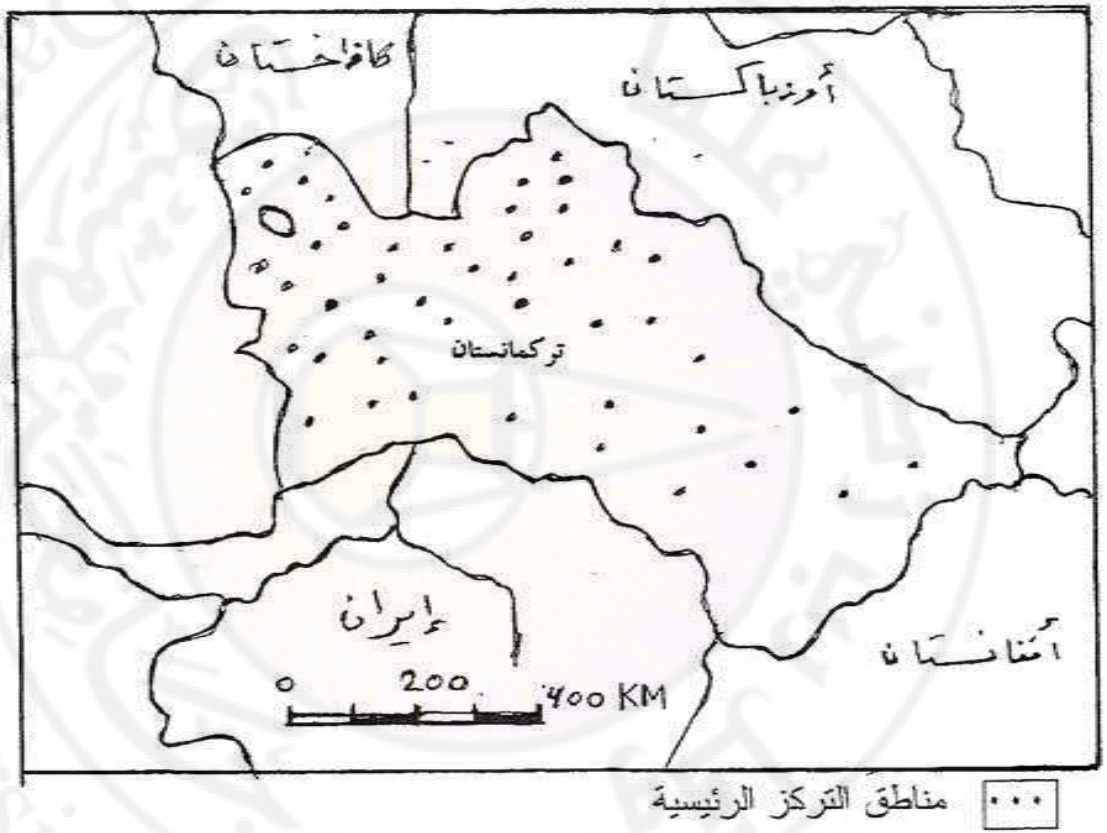

ويرعى السكان الأغنام والماعز والخيل والجمل وتعتبر حرفة الرعي من اقدم الحرف التي مارسها أغلب السكان، ثم تعلم الإنسان الزراعة في الريف الذي تطور كثيراً الريف كثيراً في ظل الحكم الاشتراكي، وتم تغطية انحاء الريف بالمدارس والمستو صفات والمشافي والمؤسسات الخدمية الأولى . وتعتبر السكك الحديدية وسيلة النقل الهامة . بالإضافة للسيارات بينما كانت الخيل وسيلة ركوب هامة ، بالإضافة إلى العربات التي تجرها الخيول .

٢ـ المجتمع الحضري : ويتكون من سكان المدن ، حيث تم بناء الجامعات والمعاهد والأكاديميات العليا العلمية ـ وخاصة في العاصمة دوشنبيه وهي مدينة جديدة صناعية ويعمل قسم من السكان بالمصانع والمعامل فيها وخاصة معامل النسيج والصناعات الغذائية وترتبط هذه المدينة ببقية المدن بالسكك الحديدية وطرق مواصلات برية معبدة .

ويعتبر مجتمع المدينة في طاجاكستان من المجتمعات المتطورة والتي إزداد حجمها بسبب الهجرة من أنحاء الريف إليها. ويبين الشكل رقم (٣٩) التوزع الجغرافي لمجتمع الطاجاكي.

١ـ مجتمع بلدان بحر البلطيق:

يتألف مجتمع جمهوريات بحر البلطيق من مجتمعات استونيا ولاتفيا وليتوانيا وهي مجتمعات تعتمد بشكل رئيسي على الزراعة بسبب الخصائص الطبيعية للمنطقة وهي جمهوريات مستقلة كانت سابقاً تشكل جزءاً هاماً من الاتحاد السوفيتي السابق وبلغ عدد سكانها حوالي ٨,١ مليون نسمة عام ١٩٩١، ويقدر عدد سكانها عام ٢٠٠٢، ١٠ ملايين نسمة وتقع تلك البلدان على بحر البلطيق فإنها تجاور جمهورية روسيا وأما جمهورية ليتوانيا فإنها تجاورها جمهورية بيلوروسيا ومن الجنوب الغربي فتحدها بولونيا.

الشكل رقم (٣٩) التوزع الجغرافي للمجتمع الطاجاكي

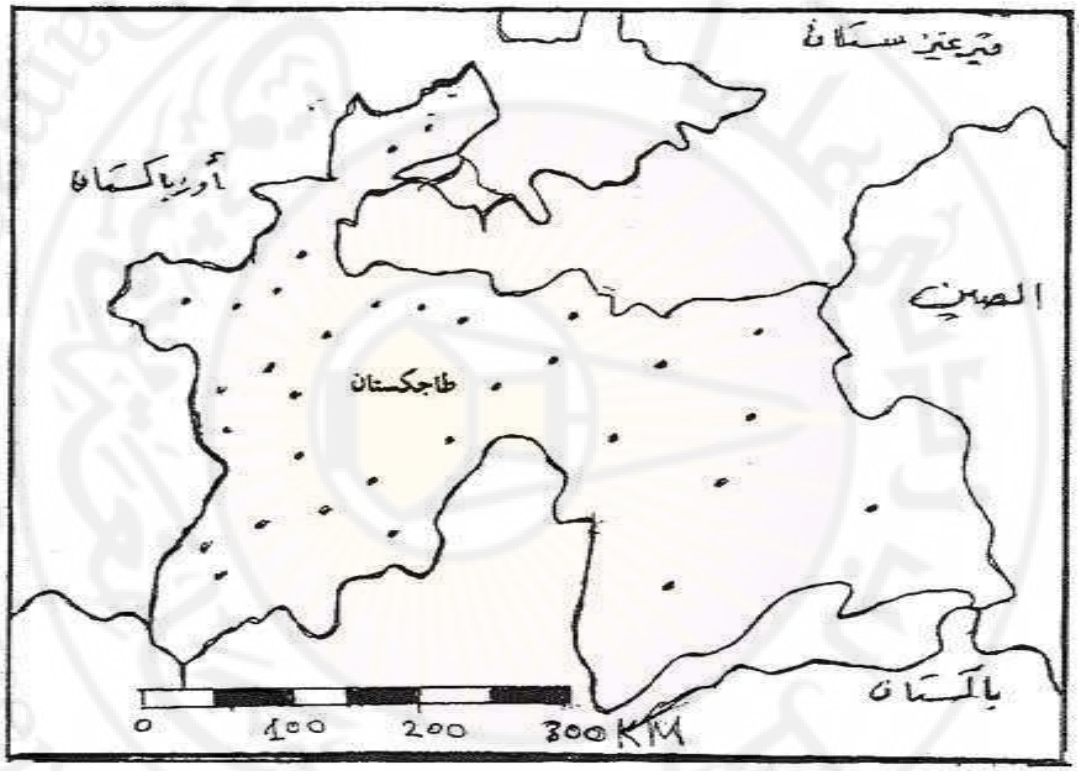

مناطق التركز الرئيسية

وتتوضع تلك الجمهوريات الثلاث في القسم الشمالي الغربي من السهل الروسي.

وتكثر في هذه المنطقة الجليديات وهي غنية بالثروات الباطنية مناخها قاري معتدل وتتساقط الثلوج فيها خلال أكثر من تسعة شهور في السنة ومنخفض درجة الحرارة شتاء إلى -٨ تحت الصفر وخاصة في كانون الثاني أما صيفاً فالحرارة مرتفعة وأهم الأنهار فيها نهر دفينا الغربي وجنوباً نهر دينحان وهي غنية بالغابات.

ويصنف المجتمع في تلك الجمهوريات إلى ما يلي:

أولاً: مجتمع جمهوريات استونيا ولاتفيا وليتوانيا.

١- المجتمع الريفي: وهو مجتمع متخصص بالزراعة يتكون سكانه من عدة قوميات هم سكان جمهورية استونيا، ويسكنها الاستونيون. وجمهورية لاتفيا يقطن فيها اللاتفيون. وجمهورية ليتوانيا يسكن فيها الليتوانيون. ويسكن في منطقة البلطيق بالإضافة للسكان المذكورين الروس والبلاروسيون، والبولونيون.

ويتألف المجتمع الريفي فيها من أكثر من ثلثي سكان البلاد وهم يعملون في زراعة الحبوب والبطاطا والقنب وقصب السكر.

ويعملون بتربية الماشية وخاصة الأبقار للاستفادة من حليبها ولحومها.

ونشأ مجتمع الصيد: والذي يعمل أفراده بصيد الأسماك وخاصة في المنطقة الساحلية والمطلة على المحيط الأطلسي وكذلك صيد الحيوانات ذات الفراء الثمينة وسط الغابة مثل الثعالب والوعول وغيرها.

وشمل التطور مختلف أنواع الزراعات بعد استخدام الآلات الزراعية الحديثة كما يستفيد السكان من الغابات بتصنيع الأخشاب كما شمل التطور الثقافي أنحاء الجمهوريات وتم بناء الجامعات والمعاهد والمدارس في مختلف المناطق والبلدان.

٢ــ مجتمع المدينة: وهو مجتمع متخصص بالصناعة حيث ظهرت صناعات حديثة ونشأت مدن حديثة خاصة على شاطئ المحيط الأطلسي ومن هذه المدن موانئ ريغا وتالين وطرابين.

فمدينة تالين هي عاصمة جمهورية استونيا المستقلة وتوجد فيها جامعة ومصانع للآلات وتصنيع الخشب.

ومدينة ريغا عاصمة جمهورية لاتفيا المستقلة وهي مركز صناعي وثقافي علمي هام وهي مدينة سياحية هامة تجذب إليها السياح أما مدينة فيلنوس فهي عاصمة جمهورية ليتوانيا المستقلة وتعتبر تلك العواصم مدن ذات أهمية اقتصادية وعلمية بنيت فيها أحدث الجامعات والمعاهد العليا والأكاديميات. ويظهر التوزع الجغرافي للمجتمع الاستوني والليتواني في الشكلين (٤٠، ٤١)

ثانياً: المجتمع الجيورجي:

تقع جمهورية جيورجيا في المنطقة الغربية ما وراء القفقاس وهي جمهورية مستقلة لم توقع اتفاق رابطة الدول المستقلة في ٢٢ كانون الأول عام ١٩٩١ ويقسم سطحها إلى قسمين جبلي عالي نادر السكان وسهلي منبسط يعيش فيه السكان في التجمعات السكانية في قرى ومدن. وبلغ عدد سكانها عام ١٩٩٢، ٥,٥ مليون نسمة ويقدر عدد سكانها عام ٢٠٠٢ ٧مليون نسمة.

وتعتبر جبال القفقاس عالية شديدة الانحدار وترتفع في القفقاس الأوسط إلى ٥٠٠٠م.

وتغطي أراضي جيورجيا الثلوج أغلب أيام السنة وخاصة على قمم ومرتفعات الجبال القفقاسية.

وتتميز أراضيها بوجود الغابات والتي تشكل مساحات كبيرة ومنها شجر الصنوبر والزان والبلوط والخشب بالإضافة لنوع من الخشب يطلق عليه

الشكل رقم (٤٠) التوزع الجغرافي للمجتمع الأستوني

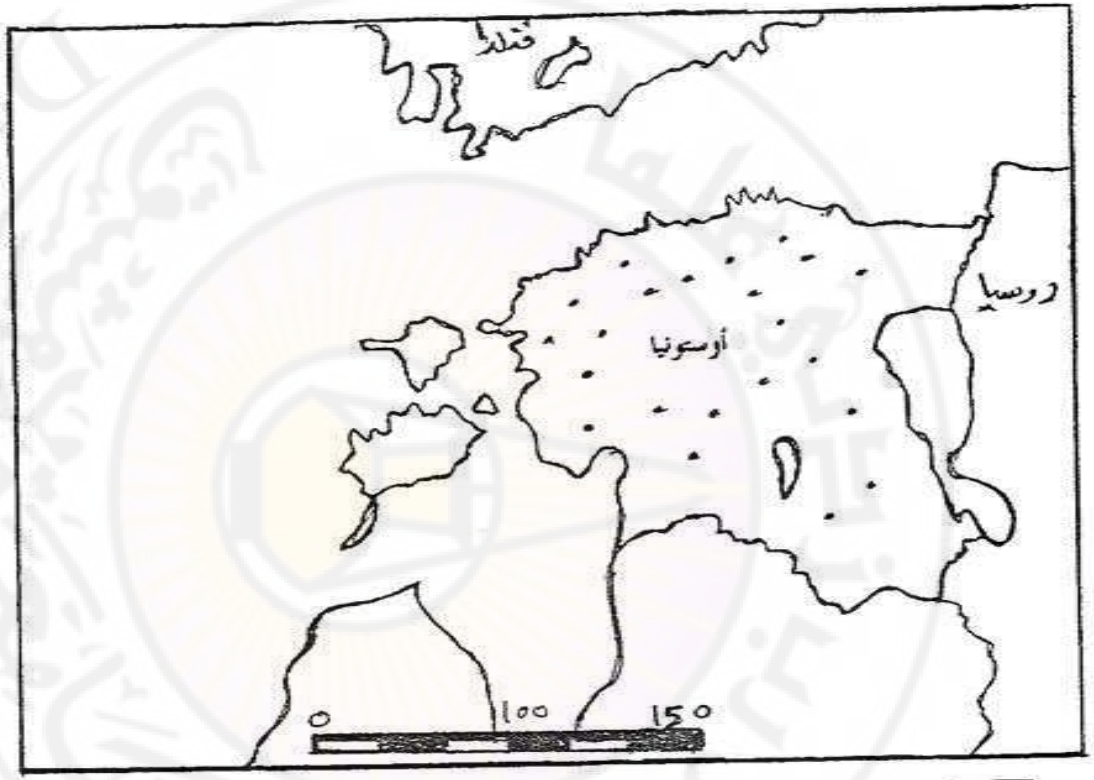

مناطق التركز الرئيسية

الشكل رقم (٤١) التوزع الجغرافي للمجتمع الليتواني

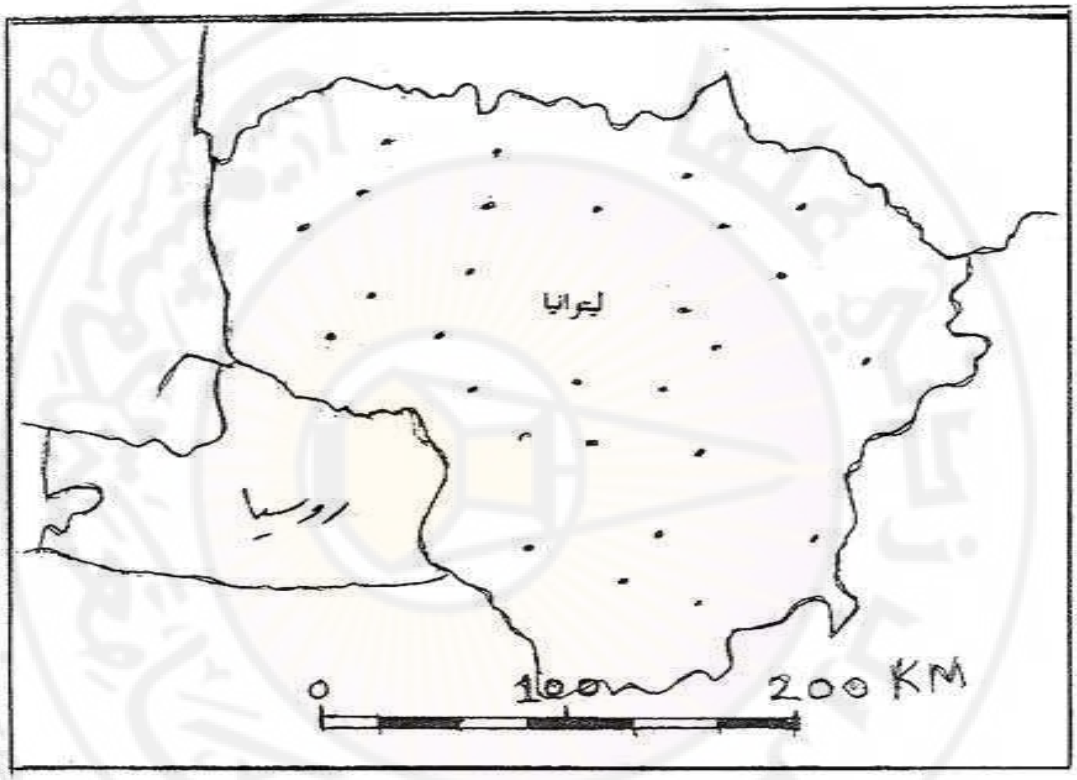

مناطق التركز الرئيسية

الخشب الأبيض وهنالك شجر الحور وشجرة يطلق عليها اسم لابينا والتي يصل ارتفاعها ٣٠م تنتشر في أنحاء الجمهوريات المجاورة مثل أذربيجان وأرمينيا.

يبلغ عدد سكان جيورجيا وقد حصلت على استقلالها بعد انهيار الاتحاد السوفيتي.

ويقسم المجتمع الجيورجي إلى قسمين:

١ـ المجتمع الريفي: يعتمد على الزراعة والصيد في القرى العديدة المنتشرة في أنحاء البلاد يقوم السكان بزراعة الحبوب والبطاطا والخضراوات وقصب السكر.

وكذلك يحترفون صيد الثعالب من الغابات والطيور والأسماك من الشواطئ البحرية والأنهار ويقطن هؤلاء في بيوت حجرية مسقوفة بالأخشاب.

٢ـ مجتمع المدينة: حيث يقيم السكان في المدن العديدة وأهمها مدينة تبليسي عاصمة جمهورية جيورجيا المستقلة والمشتق اسمها من كلمة تيبلي وتعني دافئ وهي كلمة جيورجية وهذه المدينة قديمة تاريخياً تعود لأكثر من ١٥٠٠سنة ويعمل السكان في الصناعة والتجارة والخدمات والنقل والعمل الإداري وأنشأت فيها جامعة مرموقة وأكاديمية للعلوم وانتشرت الثقافة في أنحاء الجمهورية جيورجيا وتمكن السكان من متابعة التعليم العالي والمتوسط وانتشرت المعامل والمصانع في مختلف أنحاء المدن وخاصة العاصمة تبليسي. ويظهر التوزع الجغرافي للمجتمع الجيورجي في الشكل رقم(٤٢).

الشكل رقم (٤٢) التوزع الجغرافي للمجتمع الجيورجي

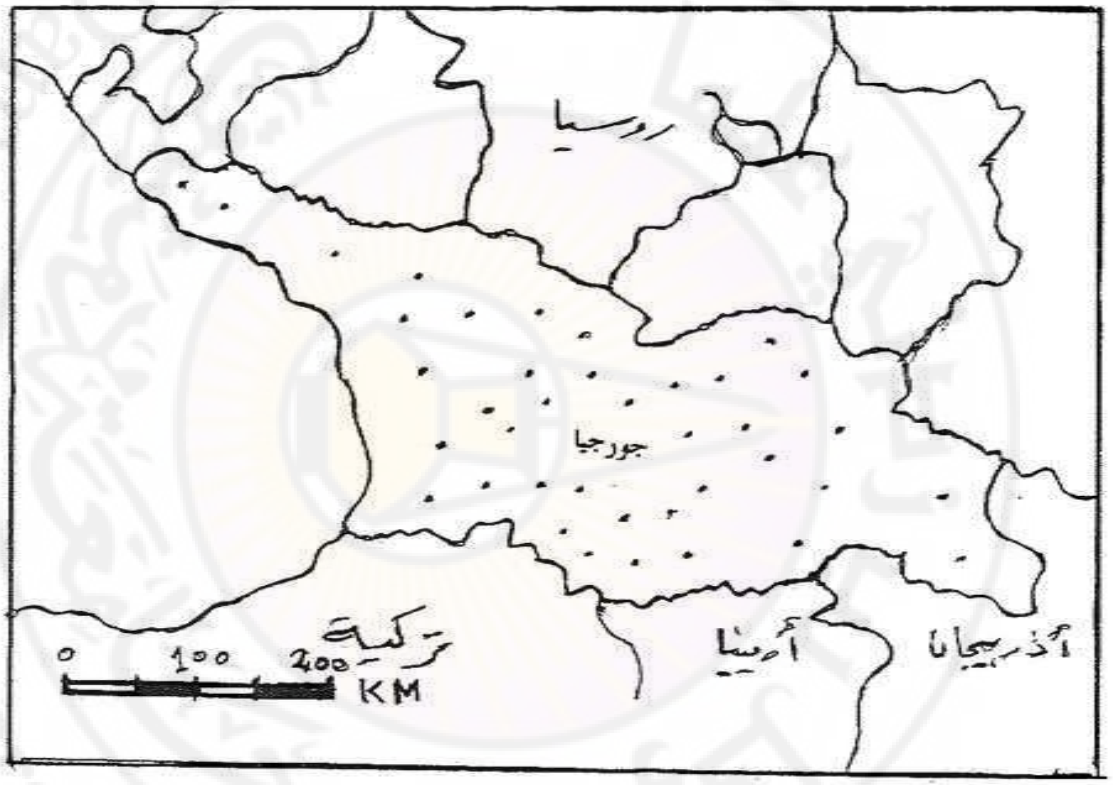

مناطق التركز الرئيسية

مجتمعات أوربا الشرقية:

تتألف مجتمعات أوربا الشرقية من مجموعة بلدان كانت تشكل مع الاتحاد السوفيتي السابق دول المنظومة الاشتراكية ، وفي حلف عسكري (حلف وارسو)، وبقيت كذلك حتى عام ١٩٩١ حيث استقلت، ودخل أكثرها في نظام اقتصادي جديد هو النظام الرأسمالي بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وهذه المجتمعات هي :

أولاً ــ المجتمع الألباني:

يعد المجتمع الألباني أحد المجتمعات الاشتراكية السابقة، ومنذ عام ١٩٩٠ ــ ١٩٩١ بدأت ألبانيا بالتحول إلى دولة ذات نظام رأسمالي بعد انهيار الاتحاد السوفيتي والمجموعة الاشتراكية في أوربا الشرقية، ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٦ ــ أصبحت جمهورية شعبية اشتراكية.

يتوزع المجتمع الألباني بين المدن والريف على مختلف أنحاء البلاد في ٢٦ إقليماً أو مقاطعة في مساحة ٢٨,٧ ألف كم٢، وقد كان عدد سكانها عام ١٩٢٣ــ٨٠٤ ألف نسمة، وعام ١٩٦٤ ــ ١,٨٤١ مليون نسمة، وعام ١٩٩٢ ــ٣,٣ مليون نسمة وتقدر عام ٢٠٠٠ ــ ٤مليون نسمة، وبلغت نسبة النمو السكاني ٢,٩% بين أعوام ١٩٥٠ــ ١٩٦٤.

ويتميز المجتمع الألباني بالخصائص التالية:

١ــ مجتمع متعدد القوميات حيث يتكون من الألبان، وتساوي نسبتهم ٩٥% من مجموع السكان، والإغريق والأرمن والميكدون، والنور وقوميات أخرى.

ويتكلم السكان اللغة الألبانية وتعد اللغة الرسمية في البلاد بالإضافة إلى لهجات محلية عديدة يتكلمها السكان ولكل قومية لغة خاصة بها، محلية

وحدلت وكان هجرة عديدة في المجتمع الألباني سواء كانت داخلية أم خارجية وكان ذلك في أعقاب حرب البلقان عام ١٩١٢ــ ١٩١٣ ــ حيث وفدت إلى ألبانيا عدة موجات مهاجرة قادمة من الخارج.

٢ــ مجتمع الريف: يتوزع المجتمع الريفي في أنحاء ألبانيا في الأقاليم المحيطة بالمدن، ويمارس السكان الزراعة بشكل رئيسي كمهنة رئيسية للسكان خاصة الحبوب والخضراوات، وتزيد نسبة هؤلاء السكان على نسبة سكان المدن وازدادت نسبة الذين يتابعون دراستهم وانخفضت نسبة الأمية كثيراً لذوي الأعمار أكثر من ١٥سنة والتي بلغت ٧٥% عام ١٩٤٥ و٢٨% عام ١٩٥٥، وتم افتتاح المدارس والمعاهد والعليا والمتوسطة في أنحاء الريف الألباني، وتم بناء المشافي والمستوصفات والمراكز الصحية في أنحاء البلاد كما تنتشر حرفة الصيد عند الكثيرين من سكان ألبانيا وتعد هذه الحرفة مترافقة مع حرفة الزراعة.

ومن الخصائص الطبيعية في ألبانيا هطول الثلوج في أغلب أيام السنة مما جعل السكان يتلاءمون مع تلك الظروف والخصائص وقد حقق المجتمع الألباني الاكتفاء الذاتي في ظل الحكم الاشتراكي من المنتجات الزراعية والصناعية كافة.

٣ــ المجتمع الحضري: وهو المجتمع الذي يقطن في المدن خاصة في مدينة تيرانا، وهي العاصمة ويتوزع السكان بين أنحاء المدن الصغيرة والمتوسطة والكبيرة ويعمل هؤلاء السكان بالصناعة والأعمال الإدارية والخدمات.

وحقق المجتمع الألباني تطوراً كبيراً وهو في ظل الحكم الاشتراكي ومنذ ما يزيد على ١٢ سنة، وهو يسير نحو التحول إلى المجتمع الرأسمالي.

ثانياً ــ المجتمع البلغاري:

كانت بلغاريا إحدى لجمهوريات الاشتراكية السابقة في أوروبا الشرقية، وإحدى دول البلقان، وتعرض المجتمع البلغاري لحرب البلقان عام ١٩١٢ــ ١٩١٣ والحرب العالمية الأولى.

وحدثت حركات هجرة خارجية وفدت إلى بلغاريا بعد تلك الحروب وأثناء مرحلة الاستقرار إبان الحكم الاشتراكي من الشعوب البلقانية، وخرجت من بلغاريا إلى تركيا مجموعة واحدة خلال عام ١٩٥٠ــ١٩٥١ حجمها ١٥٠ ألف نسمة ومعظمهم من الأتراك، وتبلغ مساحة بلغاريا ١١٠,٦ألف كم٢ وكان عدد سكانها ١٩٢٠ــ ٤,٨١٧ مليون نسمة وعام ١٩٦٥، ٨,٢٠٦ مليون نسمة وعام ٢٠٠٠ حوال ١٠ ملايين نسمة، ويتكون المجتمع البلغاري من عدة قوميات هي البلغارية التركية، النور وفي عام ١٩٥٦ كانت تلك القوميات تتوزع كما يلي:

بلغارية ٦,٥٠٦ مليون نسمة، التركية ٦٥٦ ــ ألف نسمة ــ النور [1] "تسيغان" و١٩٨ ألف نسمة، الميكدونية ١٨٨ ألف نسمة الأرمنية ٢٢ ألف نسمة الروسية ١٠ آلاف نسمة، الإغريقية ٨ آلاف نسمة، التترية ٦ آلاف نسمة، وقوميات أخرى ١٢٠ ألف نسمة.

ولكل قومية منها لغتها المحلية الخاصة بها، وهنالك لغة رسمية في البلاد وهي اللغة البلغارية وتقيم المجموعة التركية في القسم الشمالي الشرقي والجنوبي من بلغاريا بينما يقيم "التسيغان" في أنحاء البلاد خاصة في أطراف المدن وفي القرى، ويمارس هؤلاء حرفاً خاصة بهم، وهم يعتمدون على حياة التنقل والترحال بشكل دائم وتتميز بيوتهم بأنها مبنية من مواد بسيطة خفيفة مثل التنك والصفيح والخيم.

---

(١) النور يطلق عليهم في بلدان أوروبا الشرقية وروسيا اسم تسيغان **tsikan** وهم من المجموعة الهندية.

ومن المعروف أن هذه المجموعة ذات الأصول الهندية قد خرجت مهاجرة من الهند قبل مئات السنين، وانطلقت تجوب أنحاء العالم، ويطلق عليها اسم "المجموعة الغجرية أو النور أو القرباط".

ويصنف المجتمع البلغاري إلى ما يلي:

١ـ المجتمع الريفي: ويشمل سكان الريف حيث يعيش في قرى تنتشر في أنحاء بلغاريا ولهم عاداتهم وتقاليدهم الخاصة، ويعملون بالزراعة التي تعد الحرفة الرئيسية لهم ويسكنون في بيوت مصنوعة من الحجارة والمواد الأولية المحلية البسيطة والإسمنت والخشب ويضاف إليهم مجتمع الصيد الذي يعتمد على صيد الثعالب ذات الفراء خاصة في الغابة، ويتأثر المجتمع البلغاري الذي يتميز بالبرودة وانخفاض الحرارة، وهطول وتساقط الثلوج الذي يغطي البلاد خلال فترة طويلة من أيام السنة حيث يقوم بزراعة الأرض بما يتلاءم مع المناخ الملائم والتربة الصالحة للزراعة والمياه الوفيرة.

٢ـ المجتمع الحضري: يتوزع هذا المجتمع في أنحاء بلغاريا ويقيم في المدن خاصة في العاصمة "صوفيا" التي تزايد عدد سكانها بشكل كبير وقد استقبلت تعرجات هجرة قادمة من خارج بلغاريا، وداخلية من أنحاء الريف البلغاري في مرحلة تاريخية سابقة وتعمل في القطاع الصناعي والتجاري والخدمي.

وحقق المجتمع الاشتراكي درجات متطورة وكبيرة من التقدم والنجاح لقطاعات الاقتصادية والاجتماعية كافة وتم بناء الجامعات والأكاديميات العليا وتم تشغيل معظم القوى العاملة والسكان في تلك الفترة وتم استغلال الثروات الباطنية والطبيعية.

وتنتشر المدن في معظم الأقاليم والمناطق والمقاطعات ويعد المجتمع البلغاري واحداً من المجتمعات الاشتراكية التي تحولت إلى المجتمع الرأسمالي بعد انهيار الاتحاد السوفييتي السابق.

ثالثاً ـ المجتمع البولندي:

المجتمع البولندي هو أحد المجتمعات الاشتراكية السابقة، وتحولت إلى النهج الرأسمالي منذ عام ١٩٩٠ ـ ١٩٩١ في شرق أوروبا وقد عانت بولندا من الحرب العالمية الثانية حيث كانت مع غرب أوكرانيا وبلاروسيا وروسيا ميداناً لهجوم القوات النازية التي غزت روسيا أوروبا الشرقية ولكنها تحررت عام ١٩٤٤ـ ١٩٤٥ وقد خسر المجتمع البولوني مئات الآلاف من الضحايا إبان تلك الحرب وتبلغ مساحة بولندا ٣١١,٧ ألف كم٢ وبلغ عدد سكانها عام ١٩٦٤ ـ ٣١,٣٩٩ مليون نسمة وعام ١٩٢٢ ـ ٣٨,٤ مليون نسمة وعام ٢٠٠٠ حوال ٤٠ مليون نسمة يتكون المجتمع البولندي من عدة قوميات هي البولونية ٣٠,٢٣٠مليون نسمة، ٩٨,٧% من مجموع السكان الأوكرانية ١٨٠ ألف نسمة والبلاروسية ١٦٠ ألف، والسلوفاكية ١٢٠ألف والروسية ١٢٠ ألف نسمة والتسيفان ١٥ ألف نسمة، واللاتفية ١٠ آلاف والميكدونية ٥ آلاف والإغريقية ٥ آلاف الألمانية ٣ آلاف تشيك والتشيكية وغيرها.

وقد حقق المجتمع البولندي التطور الكبير خلال فترة الحكم الاشتراكي وكان له اتصالات مفتوحة مع مجتمع أوروبا الغربية، وتغلب عليه صفة التحضر وترتفع نسبة سكان المدن بشكل كبير ولذلك يصنف المجتمع البولندي إلى ما يلي:

١ـ المجتمع الريفي: وهو مجتمع متخصص بالزراعة والصيد إذ كانت تنتشر فيه المزارع الجماعية ويمارس السكان الزراعة والصيد والرعي. وهذه المزارع ملك للدولة وهي قرى صغيرة ومتوسطة إنتاجية مخدمة بالمدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية. والمعاهد المتوسطة، ويمارس السكان أيضاً قطع الأخشاب من الغابات، واعتاد الإنسان على العيش في حياة ريفية وسط الظروف المناخية القاسية، حيث تتساقط الثلوج أغلب أيام السنة ويلجأ الصيادون لاصطياد الحيوانات من وسط الغابات والأسماك من المسطحات المائية.

واستطاع السكان التخلص من الأمية التي كانت منتشرة بين السكان لجهود الحكومات الاشتراكية المتعاقبة.

وتعد اللغة البولندية اللغة الرسمية في بولندا، ولكل قومية لغتها الخاصة ولهجتها المحلية.

أما عن المساكن فأغلبها مساكن مبنية بالإسمنت والحجارة ومغطاة بالخشب والإسمنت، وتتميز البيوت الريفية بالبساطة ذات سقوف مثلثة الشكل، وأغلبها قرميدي. وللسكان عاداتهم وتقاليدهم الخاصة بهم.

٢ـ المجتمع الحضري: وهو مجتمع يعتمد على العيش في المراكز الحضرية في المدن، الصغيرة والمتوسطة والكبيرة وهي مدن كثيرة العدد، واستقبلت أعداداً كبيرة من المهاجرين من أنحاء الريف وذلك للعمل في الصناعة التي انتشرت في ضواحي المدن التي تستقطب مئات الآلاف من العمال وتم بناء الجامعات والأكاديميات العليا في أغلب المدن البولونية.

وتتوزع القوميات جغرافياً في أنحاء البلاد، ففي الجنوب الشرقي يعيش بشكل رئيسي الاوكرانيون، وفي الأقاليم الشمالية البولونيون، والبلاروس واللاتفيون يعيشون في الأقاليم الشمالية الشرقية، والسلوفاك في الأقاليم الجنوبية.

رابعاً ـ المجتمع الروماني:

عاش المجتمع الروماني مرحلة تاريخية هامة، في ظل الحكم الاشتراكي ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥، وتحررها من الاحتياج النازي، وطولها المعسكر الاشتراكي. أصبحت رومانيا دولة اشتراكية حققت الكثير من المنجزات في المجالات كافة، وبقيت كذلك حتى عام ١٩٩٠ـ ١٩٩١، حيث بدأت بالتحول إلى المعسكر الرأسمالي بعد انهيار الاتحاد السوفييتي ودول المنظومة الاشتراكية في أوروبا الشرقية.

و يعيش المجتمع الرومان فوق مساحة تقدر ٢٣٧,٥ ألف كم٢، وبلغ عدد سكان رومانيا عام ١٩٦٥ــ١٨,٩٨٠مليون نسمة وعام ٢٠٠٠ــ ٢٣,٣ مليون نسمة عام ٢٠٠٠ حوالي ٢٥ مليون نسمة وتعد اللغة الرومانية اللغة الرسمية في البلاد، بالإضافة إلى اللغات المتعددة المحلية لمختلف القوميات والتي كانت تعيش في ظل الاشتراكية على أسس من حقوق المواطنة والواجبات لكل قومية وهذه القوميات هي الرومانية التي بلغ عدد أفرادها عام ١٩٦٣ والتسيفان ١٦,١٣٠ مليون نسمة والألمانية وبلغ عددهم آنذاك ١٢٠ ألف نسمة ولهم يقود في سجلات الأحوال المدنية والأوكرانية[1] والصربية والسلوفيتية والروسية، والتشيكية، والبلاروسية، والبلقانية، والإغريقية، والأرمينية، والأورالية، والهنغارية، والطائية، والتترية، والتركية، وقوميات أخرى عديدة.

ويتوزع المجتمع الروماني كما يلي:

يعيش الرومان والهنغار في الوسط والأقاليم الغربية وفي الجنوب الغربي يعيش الرومان "التسيفان".

ويقسم المجتمع الروماني إلى ما يلي:

١ــ المجتمع الريفي: ويعيش هذا المجتمع القرى الصغيرة والمتوسطة والكبيرة في أنحاء رومانيا ويعتمد على الزراعة والصيد والحرفي والحيوانات وهو مجتمع متطور، حيث يمارس الزراعة الحديثة بوساطة الآلات الزراعية الحديثة وقد حقق الاكتفاء الذاتي في ظل الحكم الاشتراكي السابق.

وكانت تنتشر المزارع الجماعية الحكومية في أنحاء رومانيا لكن بعد التحول نحو اعتناق الرأسمالية وبعد انهيار دول المعسكر الاشتراكي أصبحت تلك

---

(١) سيرافوجنيك سكان الكرة الأرضية ــ موسكو ١٩٧٠

المزارع فردية تعود ملكيتها لأشخاص حيث تم بيع الكثير من مؤسسات القطاع العام للقطاع الخاص، وطرحت للاستثمار الخاص ولم يبق فيها إلا القليل.

٢ـ المجتمع الحضري: وهي تشمل مجتمع المراكز الحضرية التي انتشرت في أنحاء البلاد حيث المدن الكبرى وأهمها مدينة بخارست العاصمة ومدن عديدة أخرى، واستقبلت تلك المدن موجات المهاجرين في أنحاء الريف والمناطق والأقاليم.

خامساً ـ النجتمع التشيكلوفاكي:

يعد المجتمع التشيكلوفاكي أحد المجتمعات الهامة في وسط أوروبا وكانت تشيكوسلوفاكيا إحدى دول المعسكر الاشتراكي الرئيسية وحققت المجتمع التشيكلي مراحل هامة من التطور الاجتماعي والاقتصادي، ويقسم تاريخياً إلى قسمين هما التشيكي والسلوفاكي وأصبح مجتمعاً واحداً التشيكوسلوفاكي يعيش فوق مساحة ١٤٠,٥ألف كم٢.

ويتكون المجتمع التشكي من عدة قوميات هي التشيكوسلوفاكية والألمانية والبلقانية والأوكرانية والروسية والهنغار وقوميات أخرى.

وبلغ عدد السكان عام ١٩٦٥ ـ ١٤,١٠٣ مليون نسمة عام ٢٠٠٠ حوالي ٢٠ مليون نسمة، ويتكلم السكان لغات عديدة ولهجات محلية فلكل قومية لغتها ولكن يجمعها لغة رسمية واحدة هي اللغة التشيكية.

وخلال فترة الحكم الاشتراكي انتشرت المدارس بأنحاء البلاد، وانخفضت نسبة الأمية إلى أدنى درجاتها وخاصة عند كبار السن فوق ١٥ سنة فما فوق.

أما صغار السن دون ١٥ سنة فهم يتعلمون في المدارس وتم بناء المعاهد العليا والمتوسطة في أنحاء تشيكلوسلوفاكيا.

وحدثت موجات هجرة سكانية من الريفان إلى المدن وهجرات خارج قادمة إلى تشيكوسلوفاكيا وخاصة إبان الحرب العالمية الثانية وبعدها بسبب

التغيرات التي حصلت في أوروبا الشرقية بعد هزيمة الألمان التاريخية في الحرب.

ويصنف المجتمع التشيكوسلوفاكي إلى صنفين:

١ـ المجتمع الريفي: ويشمل سكان القرى الذين يعيشون في أنحاء الريف ويعملون في الزراعة والصيد وقطع الأخشاب حيث تنتشر الغابات في مناطق عديدة من تشيكوسلوفاكيا، ويلجأ الصيادون لصيد الحيوانات ذات الفراء.

وتغطي الثلوج معظم أراضي البلاد حوالي تسعة شهور في السنة.

٢ـ المجتمع الحضري ويشمل سكان المدن والتي تنتشر في المقاطعات والأقاليم وهي تشكل مراكز لها ومن أهم المدن مدينة براغ وهي العاصمة ويقطنها نسبة كبيرة من السكان، ويعمل سكان المدن بالصناعة والتجارة والنقل والخدمات ولهذه المدن أهمية تاريخية كبيرة كما هو الحال بالنسبة لبقية المدن الكبيرة.

سادساً ـ المجتمع اليوغسلافي :

وهو مجتمع ريف زراعي، ومجتمع مدن صناعي ، وقد حققت يوغسلافيا الكثير من التطور في مختلف المجالات ، ويوغسلافيا هي إحدى الجمهوريات ذات الاقتصاد الحر والتي كانت سابقاً إحدى البلدان الاشتراكية بلغ عدد سكانها عام ١٩٦٥م ١٩,٥٥٢ مليون نسمة وعام ٢٠٠٠ ويقدر عدد سكانها ٣٥ مليون نسمة، ويعيش فيها عناصر وقوميات عديدة وهم ، سلافيون ، وأتراك وهنغار، وألبان، وبلغار، وإيطاليون .

ومن خصائص تلك المجتمعات (وجود القطاع العام والمتمثل بالتعاونيات الزراعية في الريف ، ومزارع الدولة وفق النهج الاشتراكي مع السيطرة على قطاع النقل والمواصلات والخدمات والصناعة التي تتبع القطاع العام، مع وجود القطاع الخاص الذي يشرف على العديد من المواقع الإنتاجية خاصة فيما يتعلق بقطاع الاستثمارات المختلفة مع الاهتمام بقطاع تجارة الجملة والمفرق).

ولكن التفوق لصالح القطاع التعاوني والاشتراكي بمؤسساته المختلفة.

ومعظم الاستثمارات الفردية سواء كانت على العمل الزراعي أم على المستوى الخدماتي والصناعي محدودة بالمقارنة مع القطاع العام الاشتراكي . وهذا النوع انتشر في معظم المجتمعات الاشتراكية الأوروبية مثل المجتمع الروماني واليوغسلافي .

ومعظم الملكيات الفردية هي ملكيات صغيرة وبسيطة، وتنحصر في وجود مزارع فردية صغيرة . ومؤسسات صناعية صغيرة وغالباً ما تكون يدوية بسبب سهولة تشغيلها وانخفاض حجم رأس المال ومنها يستنتج أن عامل التنافس بين تلك القطاعين العام الاشتراكي، والخاص الفردي قليلة، وتنخفض نسبتها وهذا دليل على قوة الاقتصاد الاشتراكي ، ضعف القطاع الخاص وظهر نوع من التعددية الإنتاجية والاقتصادية .

أما الدولة الوحيدة التي عملت على تعزيز القطاع الخاص وبشكل كبير هي بولونيا خاصة أن حركة العمال قد بدأت فيها بشكل مبكر وحتى في ظل الحكم الاشتراكي . وسيطرت تلك الحركات على قيادة البلاد فترة وبشكل مبكر، مما انعكس على الوضع الاقتصادي للمجتمع البولوني الذي لاقى الدعم من الحكومات المتعاقبة آنذاك خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي السابق .

وبالمقارنة فإن حكومتي تشيكوسلوفاكيا وبلغاريا قد دعمتا القطاع العام بالمؤسسات المختلفة . سواء كانت الزراعية في الريف وخاصة التعاونيات الزراعية ومزارع الدولة أم الصناعية في المصانع والمعامل بشكل كبير. وذلك من أجل تحقيق الاكتفاء الذاتي والتقدم الشامل .

وعملت تلك الحكومات على تدعيم الحياة الاشتراكية وتشجيع الإبداع والابتكار .. والاهتمام ببناء مزيد من المرافق العامة والخدمات والمشافي والمستوصفات والمدارس والجامعات والمؤسسات الإنتاجية المختلفة والاهتمام

بقطاع التعليم العالي والفني والمهني.

واستمرت تلك البلدان الاشتراكية مثل ألمانيا و البانيا والمجر وهنغاريا ويوغسلافيا ورومانيا والبلدان الاشتراكية كافة ببناء المزيد من المعامل المصانع.

وتطور مجتمع المدينة بشكل كبير ومتواصل وازداد الاهتمام به خاصة مع تطور الصناعة والخدمات . وازداد ذلك المجتمع تطوراً كبيراً كما هو الحال في المجتمع الريفي. وخاصة مع ازدياد حركة الهجرة نحو المدن وخاصة العواصم وغيرها من المدن .

ومن خلاله يستنتج أن هنالك مجتمع الريف والمدينة، كل منهما له مجال تطوره وتوسعه في ظل منظومة التطور الاشتراكي .

وانعكس ذلك على مستويات التعليم المختلفة الذي أصبح تعليماً مجانياً، وللطالب حرية اختيار اختصاصه، ومتابعة دراسته الجامعية ، وتنعدم البطالة في هذه المجتمعات .

وتم الاهتمام بالطفولة بشكل كبير وتأمين كافة الخدمات للأطفال .. وبالنسبة للمرأة تتساوى مع الرجل في الحقوق والواجبات، وتعمل في مختلف مجالات الحياة ، كما هو الحال بالنسبة للمرأة السوفييتية وعلاقة المجتمعات الاشتراكية الأوروبية متينة مع المجتمع السوفييتي.

وكان هنالك توازن قوي شامل بين مختلف القوميات في تلك البلدان ، تعيش مشتركة وسوية مع بعضها على قاعدة المصلحة القومية والوطنية المشتركة. على أسس اشتراكية . ولكن بعد انهيار الاتحاد السوفييتي ، وأصبحت كل دولة على حدة بمؤسساتها الاقتصادية والاجتماعية، وأصبحت تنتهج نهجاً رأسمالياً، وانضم أكثرها مؤخراً إلى حلف شمال الأطلسي.

ثانياً: المجتمع الهندي

يتأثر المجتمع الهندي بمجموعة من الخصائص الطبيعية والتاريخية والاقتصادية والعكس هذا على أوضاع السكان ونشاطهم وطبيعة حياتهم، ويتميز المجتمع الهندي بالخصائص التالية :

١- الخصائص التاريخية:

خضعت الهند للاستعمار البريطاني خلال حقبة طويلة وقد عدت إحدى المستعمرات الرئيسية للإمبراطورية البريطانية ، وكانت تعتمد عليها في الحصول على المواد الأولية الضرورية لصناعتها، وأقام المستعمرون الكثير من المعامل والمصانع والشركات البريطانية في الهند ، يضاف إلى ذلك وجود اليد العاملة الكافية الرخيصة التكاليف ، ووجود السوق الاستهلاكية المناسبة لكافة المنتجات الغذائية والصناعية والتحويلية . مما أدى لزيادة عدد سكان المدن وأكبرها دلهي العاصمة وبومباي ، ففي عام ١٩٢١م[١] كان فيها ٣٥ مدينة يزيد عدد سكانها على ١٠٠ ألف نسمة . وازداد عددها لتصبح مئات المدن الصغيرة والمتوسطة والكبيرة . يوضح ذلك الشكل رقم (٣٤) .

ويهتم المجتمع الهندي بتقاليده القديمة والموروثة عن الأجداد في الهند ، ولكل طائفة هندية تقاليدها وعاداتها وملكيتها للأراضي ، عبر التاريخ لذلك سيطر الإقطاع على المجتمع الهندي بشكل كبير، وهو مازال حتى اليوم . ومنذ العصر الوسيط : قسم المجتمع إلى طبقة الزراع والتجار والصناع.

---

(١) بيار جورج- جغرافية العالم الاجتماعية-ترجمة فايز كم نقش- ص ١٢٤ منشورات عويدات- بيروت لبنان.

٢- الخصائص الديموغرافية:

يتميز المجتمع الهندي بارتفاع نسبة الولادات ، وخاصة لذوي الأعمار بين ٠ - ٢٠سنة . وذلك بسبب ارتفاع معدلات الخصوبة وعدم ضبط النمو السكاني وانتشار الفقر ، والعادات والتقاليد .

وقد بلغ عدد سكان الهند عام ١٩٧٦ م ٦٠٦ مليون نسمة ويقدر عدد السكان عام ٢٠٠٠ م بـ ٨٠٠ مليون نسمة ، وترتفع نسبة الوفيات بحدود ٤٠ بالألف . وهي نسبة عالية بسبب انخفاض الخدمات الصحية في الريف ، وعدم الوعي الصحي عند الكثيرين .

٣- التركيب الاجتماعي للسكان:

في الهند مجموعة من القوميات المختلفة، ولكل مجموعة وقومية لها تاريخها الطويل عبر آلاف السنين .

ولكل مجموعة وقومية خصائصها وحقوقها، ومناطق جغرافية لتوزعها ، فهنالك المجموعة الهندوسية والآرية ، والمغولية ، والبراهمية ، والبنغالية ، والاسامية ، والأوريا .

وتعد الفئة الهندوسية هي أكبر الفئات والمجموعات السكنية ولها طقوسها وعاداتها ومعابدها . ومن المعروف أنهم يقدسون البقرة التي لها مكانة خاصة عندهم، وقد توارثوا هذا التقديس عن أجدادهم .

ومن دياناتهم الهندوسية والبوذية التي تعود لمؤسسها بوذا، وأتباعه يتقيدون بتعاليمه ، ويعدونه المثل الأعلى لهم . وتعد تلك التعاليم معتقداً دينياً لهم ويزيد عدد الهندوس على ٥٠٠ مليون نسمة .

وهنالك ديانات أخرى عديدة مثل (السيخ) ، والجينية، والإسلامية، والمسيحية. وهم يعملون بأعمال بسيطة وضيقة، مثل أعمال الدباغة، وتكنيس

الطـرقات والشـوارع والبـيوت . ويحظر عليهم دخول أي معبد، وهم يسكنون في أحياء خاصة بهم.

ويقسـم المجـتمع الهـندي إلى عـدة طـبقات وهي طبقة البراهما – وهي طبقة السـادة ورجـال الديـن الهـنود وخاصة الهندوس ، وطبقة المحاربين القدماء . الذين قـد أسـهموا كـثيراً في تحريـر البلاد عبر التاريخ ، وطبقة الإقطاع وهم من الفئات المالكـة للاراضـي والغنـية . وطبقة التجار والصناع – وطبقة المنبوذين كما ذكرت سابقاً.

٤ – الهجرة الداخلية والخارجية:

تعـرض المجـتمع الهـندي لهجـرات عديـدة داخلية، أولاً من الريف إلى المدن وخاصة الكبيرة منها . مثل مدينة دلهي وغيرها، وأدى ذلك لزيادة عدد سكانها

وإلى خـارج الهـند هاجـرت مـئات الآلاف مـن السـكان بحـثاً عن العمل وظـروف أفضـل، ودخـل مناسب، وقبل مئات السنين هاجرت مجموعة هندية وقد انتشروا في أنحاء العالم . وهم جماعات (النور)أو القرباط أو الغجر كما يسمون.

وقـد انتشـر هـؤلاء في أوربـا الشـرقية والغربية . ومختلف القارات والوطن العـربي، وهـم يتكـلمون لغـة هـندية خاصة بهم، ويعتمدون على التنقل والترحال الدائـم، ويعيشـون في أطـراف القرى والمدن، ويسكنون في خيم، ويعملون بأعمال بسيطة تدر عليهم دخلاً.

٥ – النظام الإقطاعي:

يعـد الـنظام الإقطـاعي من أقدم النظم في المجتمع الهندي ، ومازال حتى الآن، وتم تأمين بعض ملكيات الأراضي لتصبح ملكاً عاماً للدولة.

ويملـك الإقطاعـيون مسـاحات كـبيرة مـن الأراضـي ، ويعمل الفلاحون الصـغار والفقـراء عـند الإقطاعيين بظروف سيئة للغاية إذ لا ينالون إلا أجراً ضئيلاً

جداً من نصيبهم . وقد ساد سابقاً نظام الأتاوات الإقطاعية ، وسيطرت طبقة البراهما على الأراضي كافة والإشراف عليها وعلى استثمارها ، لكن الحكومة عملت على أن يتملك قسماً من تلك الأراضي أكبر عدد من الفلاحين الصغار الفقراء . وفق نظام يسمى – الريوتفاري[1] Reyotvari.

وتعد طبقة الإقطاع هي طبقة السادة والذي يتحكمون بالاقتصاد الزراعي للبلاد. وقد تعرضت طبقة الكادحين والفلاحين والفقراء إلى الجوع وارتفاع الوفيات بسبب الفقر وانتشار الأمراض وخاصة بأن الحكم الاستعماري البريطاني.

كما أن السلطات قد حاربت الاضطهاد العنصري، وعملت على التقليل من الفوارق الطبقية . وعملت الحكومات على إلغاء النظام الإقطاعي ولهذا فقد صدر قانون الإصلاح الزراعي عام ١٩٤٨ الذي عمل على الحد من ارتفاع بعض الملكيات الزراعية.

٦- تعدد اللغات واللهجات المحلية :

تعد اللغة الإنكليزية هي اللغة الرسمية في الهند وهذا ناجم عن استعمار بريطانيا للهند خلال مئات السنين .

وهنالك لهجات ولغات محلية لتلك القوميات والمجموعات السكانية الهندية وهي لغة خاصة بها

٧- طبقات المجتمع :

يقسم المجتمع الهندي إلى عدة طبقات منذ بداية العصور الوسطى ، فهنالك من يزرعون الأرض، ويسمون بالزراع ، وطبقة التجار الذين يمارسون أعمال

---

(١) بيار جورج – جغرافية العالم الاجتماعية – ترجمة فايز كم نقش ص ١٢٤ وهو نظام يقوم على تحويل الأراضي المستثمرة إلى ملك لمستثمريها .

التجارة المختلفة، وطبقة الصناع الذين يمارسون الصناعة .

وهنالك طبقة الإقطاع وهي التي تملك الأراضي الواسعة وقد حصلت على الأراضي بشكل هبات من الاستعمار ولملاك الأراضي ، ويعمل الفلاحون في تلك الإقطاعات الشاسعة كعمال، وتجبى منهم في نهاية الموسم ضريبة من الإنتاج يقوم بجبايتها أشخاص لهم الحق بالتصرف بما يساوي العشر لقاء جبايتهم الأموال من الفلاحين .

ومن هنا .. فإن مجموعات الفلاحين هي تعمل ولكن لا تملك، بل إن أولى طبقات المجتمع هم الذين يملكون الأراضي ، كما أن كبار الملاكين هم سادة المجتمع وقادته وهم من البراهما ، والذين يخضعون أساساً للجاجير دار، والزاميندار ، والايناملدار . وهذه الفئات الهندية والطبقات قد نشأت منذ القديم.

ويقسم المجتمع الهندي بشكل عام إلى نموذجين من المجتمعات:

١ - المجتمع الريفي :

وهو المجتمع الذي نشأ من خلال وجود فئة الإقطاع التي نمت، وترعرعت، وازدادت اتساعاً وخاصة من خلال سيطرتها على الأراضي الواسعة، وحتى أصبح الإقطاعي هو المتسلط والمسيطر ، وأصبح الفلاحون أجراء يعملون عنده وبالأجر بعد أن كانوا هم أصحاب الأراضي ولكن الظروف التي مر بها الفلاحون وقيامهم باقتراض الأموال من المرابين الذين ينتشرون وبكثرة ، وفي العديد من السنوات، وعندما يعجز ذلك الفلاح عن إيفاء الدين للمرابي ، كان يجبر على بيع أرضه لذلك وبأسعار زهيدة مما زاد من ملكيات الإقطاعيين، وزادت مساحات تلك الأراضي فالإقطاعي هو مالك الأرض الواسعة، وفي

الوقت نفسه هو المرابي . وكان نظام الربا سائداً في المجتمع الهندي وهو كان السبب في نشوء المجتمع الإقطاعي الكبير، وفي ظهور طبقة فقيرة كادحة هي طبقة البسطاء والفلاحين .

ومن المعروف عن المجتمع الريفي الهندي أنه كان يتسم بالفقر وخاصة مما كانت تتعرض له البلاد . ومن سنوات قحط وجفاف ووجود آفات زراعية مثل الجراد وإتلاف المحصول . حيث تصبح معيشة ذلك الفلاح بحالة ضيق شديد يصبح معه بحاجة ماسة لاقتراض الأموال بأي شكل كان، وكان انتشار الأمراض والمجاعات والفقر يعم أغلب أنحاء البلاد رغم اتساعها . وفي ظل تلك الظروف يتحكم الإقطاعي بالفلاح ويفرض عليه شروطاً قاسية في العمل والحياة.

وبقي المجتمع الريفي بهذا الشكل يعاني من الظروف القاسية حتى قامت الحكومات الهندية المتعاقبة بتطبيق مجموعة من الإجراءات التي من شأنها .

دعم الفلاح وللمدن نفوذ الإقطاع والقضاء عليه وخاصة من خلال تمكين الفلاحين من تملك الأراضي التي يعملون بها . من خلال النظام السابق المسمى "الريوتفاري" .

ولكن من المشكلات التي كانت تعيق العمل في النظام الزراعي الجديد هو تجزئة ملكية الأراضي حيث تقسم الملكية الكبيرة إلى ملكيات صغيرة مفتتة وبمساحات ضيقة مما يعيق العمل الزراعي واستخدام الآلات الزراعية ، ومن المشكلات الأخرى أن كثيراً من ملاك الأراضي الكبار الذين يسمون البراهماة كانوا يعملون بشكل دائم على عرقلة تقسيم الأراضي الواسعة إلى ملكيات صغيرة، وقامت الحكومات المتعاقبة بتأمين حاجة السكان من المواد الغذائية . وذلك للقضاء على المجاعات والأمراض التي كانت تجتاح البلاد في كثير من السنوات.

٢ - مجتمع المدن:

نشأ مجتمع المدينة في الهند في عام ١٩٢٩ وذلك بعد حدوث أزمات زراعية وكان عدد المدن آنذاك ٣٥ مدينة[١] يزيد عدد سكانها على ١٠٠,٠٠٠ نسمة، ويوضح الشكل رقم (٣١) التوزع الجغرافي لسكان المجتمع الهندي في المدن الرئيسية وتطورت هذه المدن من حيث العدد والمساحة والسكان مع تطور الصناعة والهجرة للمدن وبسبب النمو الطبيعي للسكان وكان من أسباب تضخم المدن، وتطور المجتمع فيها سيطرة النظام الإقطاعي والظروف البائسة التي عاش فيها الفلاحون حيث أجبروا على ترك أراضيهم والهجرة إلى المدن وبسبب انتشار البطالة وأزمات العيش الخانقة ، فتوسعت المدينة على حساب الريف، وانتشرت الصناعات والمعامل بكثرة في المدن وازداد عدد العاملين في القطاع الصناعي، وظهرت الطبقة البرجوازية والرأسمالية التي عملت بشكل كبير على إقامة المنشآت الصناعية والتجارية في المدن، ونشأت دور الثقافة والجامعات والمدارس، وتوسع قطاع الخدمات في المدن، وبسبب تطور هذه الخدمات المختلفة نشأت أحياء سكنية مختلفة النماذج فهنالك البيوت والعمارات الفخمة الطابقية التي يسكنها الأغنياء، وهنالك أحياء الفقراء وهي عبارة عن بيوت بسيطة مبنية من الصفيح والتنك والخشب والإسمنت على شكل كتل وأكواخ تفتقد إلى الشروط الصحية، وهي أحياء الفقراء والكادحين والعمال ولذلك نلاحظ التناقض بين النموذجين أدى إلى نشوء مجتمعين:

---

(١) بيار جورج – جغرافية العالم الاجتماعية – ترجمة فايز كم نقش ص ١٢٤ .

١- مجتمع الأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال والذين يملكون العمارات الفخمة والسيارات.

٢- مجتمع الفقراء والعمال والمهاجرين إلى المدن والذين يسكنون في ضواحي بائسة فقيرة، دخلهم محدود، وحياتهم تعتمد على ما يستطيعون تأمينه من دخل يومي بظروف بائسة .

وحصل في المجتمع الهندي خلال مائة السنة الأخيرة تطور وشمل عدة مجالات، وكان التطور الاجتماعي بطيئاً بسبب وجود عوامل تاريخية سابقة عاشها المجتمع الهندي عبر مئات السنين. ولكن حدث تطور اقتصادي في البلاد شمل الكثير من الجوانب خاصة بعد أن حصلت البلاد على استقلالها من الاستعمار الإنكليزي .

الشكل رقم (٤٣) التوزع الجغرافي للمدن الهندية الرئيسية ذات الكثافة السكانية الكبيرة للمجتمع الهندي

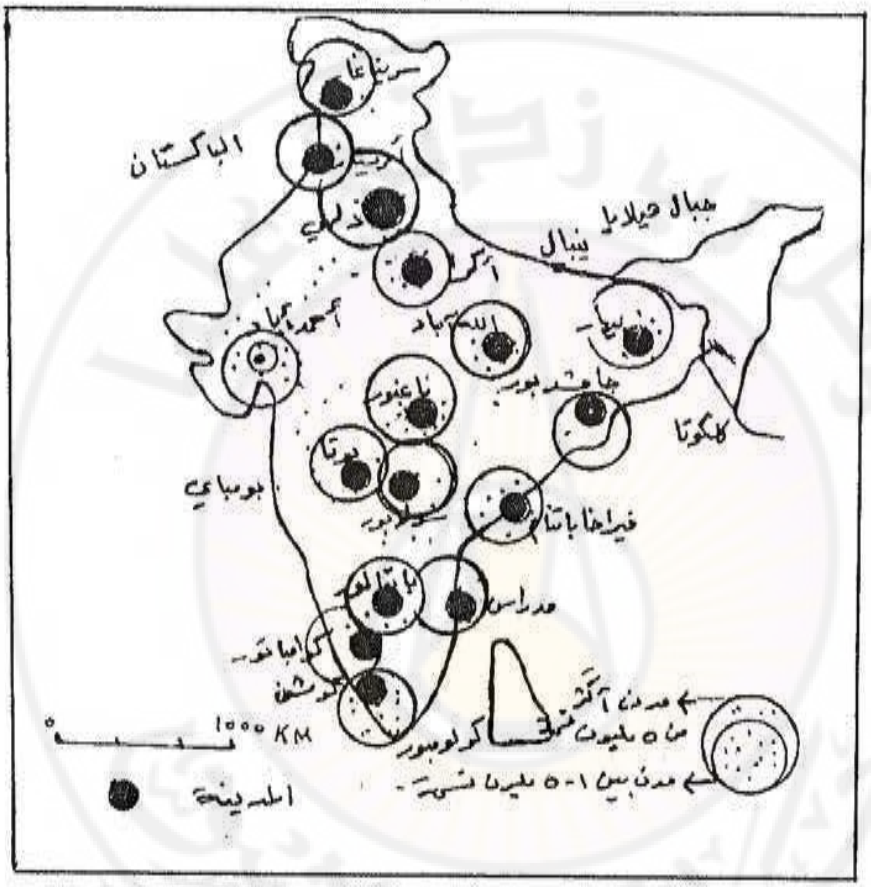

مراجع الباب الثاني

١) ابن خلدون ، مقدمة ، الجزء الثالث، ١٩٧١، بيروت . منشورات الأعلمي.

٢) د. أمينة بيطار– تاريخ العصر العباسي ، منشورات جامعة دمشق –١٩٩٩– ٢٠٠٠

٣) د. جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب . نشر دار العلم للملايين . بيروت . الطبعة الأولى – ١٩٦٨ .

٤) د. صلاح الدين عمر باشا د. أديب باغ – المدخل إلى الجغرافية البشرية– كتاب – مطبعة جامعة دمشق – ١٩٦٣.

٥) د. صلاح الدين عمر باشا د. أديب باغ – الوجيز في الجغرافية البشرية والاجتماعية – مطبعة جامعة دمشق – ١٩٦٤ .

٦) الدكتور علي فاعور : الجغرافية البشرية – إصدار المؤسسة الجغرافية ، بيروت لبنان –١٩٩٢ .

٧) الدكتور علي فاعور : بيروت مأساة شعب وأرض – التحولات الاقتصادية والاجتماعية بين ١٩٧٥–١٩٩٠ ، كتاب نشر المؤسسة الجغرافية.

٨) د. علي موسى – أعلام الفلك في التاريخ العربي . كتاب . نشر وزارة الثقافة في سورية – دمشق عام ٢٠٠٢م .

٩) د. علي الجباوي ، الجغرافيا التاريخية ، كتاب ، دار المعارف للطباعة، نشر جامعة دمشق–١٩٩٠–١٩٩١ .

١٠) د. فاضل الأنصاري – الجغرافية الاجتماعية . جامعة دمشق . ١٩٩٠–١٩٩١

١١) د. فاضل الأنصاري – مشكلة السكان نموذج القطر العراقي – كتاب نشر وزارة الثقافة في سورية – ١٩٨٠.

١٢) د. فاضـــل الأنصاري – جغرافية السكان – منشورات جامعة دمشق – الطبعة الثانية ، ١٩٩٩ – ٢٠٠٠ .

١٣) د. فتحي محمد مصيلحي : كتاب – تطور العاصمة المصرية – القاهرة الكبرى – عام ١٩٨٨– طبع دار المدينة المنورة .

١٤) فؤاد محمد الصقار ، دراسات في الجغرافية البشرية – كتاب – الطبعة الثانية– نشر وكالة المطبوعات – الكويت – ١٩٩٣ .

١٥) محمد عمارة . المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية – المؤسسة العربية للدراسات – بيروت – ١٩٧٧ .

١٦) د. قاســم الــربداوي – سورية التحولات الاقتصادية الاجتماعية – كتاب – الجزء الأول– عام ٢٠٠٤ .

١٧) د. قاســم الــربداوي – دمشق التحولات الاقتصادية والاجتماعية ١٩٧٠– ٢٠٠٠، إصدار دار المجد – ١٩٩٤ م .

١٨) د. قاســم الــربداوي – محافظــة درعا الطبيعية والسكان والسياحة – كتاب عام ٢٠٠٢م .

١٩) د. قاســم الــربداوي ــ نتائج البحث الميداني والدراسات التطبيقية للأعوام ٢٠٠٠، ٢٠٠٢.

٢٠) د. نــور الدين حاطوم – د. نبيه العاقل – د. أحمد طربين – صلاح مدني – موجز تاريخ الحضارة ،الجزء الأول ، مطبعة الكمال ، دمشق ، ١٩٦٥.

٢١) د. وصفي زكريا ، عشائر الشام ، الطبعة الأولى ، ١٩٤٥ .

الأبحاث والدوريات

١) د. قاسم الربداوي – النمو السكاني والسكن العشوائي في مدن العواصم العربية – بحث – مقدم إلى الملتقى الثالث للجغرافيين العرب – الرياض – ٢٠٠٣م .

٢) د. قاسم الربداوي – الدراسة نتائج الدراسة الميدانية لجميع الضواحي في مدينة دمشق ، ٢٠٠٠ .

٣) د. قاسم الربداوي – التجمعات السكانية في البادية السورية – مجلة نضال الفلاحين العدد رقم ٢٥ أيلول ٢٠٠٢ .

٤) المجموعات الإحصائية السورية عام ١٩٧٠-١٩٧٤-١٩٨١-١٩٩٤.

٥) الأمم المتحدة – إحصائيات عام ٢٠٠٢-٢٠٠٤ – اللجنة الاقتصادية لغرب آسيا

٦) القانون الأساسي للعاملين في الجمهورية العربية السورية.

٧) المرسوم التشريعي رقم٦-لعام ١٩٨٤ -في الجمهورية العربية السورية.

٨) دستور الجمهورية العربية السورية .

٩) سورية اليوم ، إصدار وزارة الإعلام ، في الجمهورية العربية السورية ، ١٩٨٥ .

المراجع الأجنبية

١) بـــيار جورج – جغرافيا العالم الاجتماعية ،ترجمة فايز كم نقش ، كتاب ، منشوارت عويدات – بيروت لبنان – ١٩٧٦.

٢) سيرافوجنك ، سكان الكرة الأرضية ، موسكو ١٩٧٠ .

٣) ف. ف. باكشيشسفكي– جغرافية السكان للبلدان الأجنبية. موسكو ١٩٧.

٤) تقرير الأمم المتحدة ، نيويورك ، لعام ١٩٩٤ .

فهرس الأشكال والجداول للباب الثاني

فهرس الأشكال الصفحة

١ــ اتجاه حركة الهجرات العربية السامية والحامية وهجرة القبائل العربية إلى أنحاء الوطن العربي.

٢ــ تطور المجتمع العربي في العصر العباسي.

٣ــ تطور معدل النمو السكاني الطبيعي في الوطن العربي بين أعوام ١٩٧٤ ــ ١٩٩٨.

٤ــ تطور عدد سكان الوطن العربي بين أعوام ١٩٩٠و٢٠٠٢

٥ ــ تطور عدد سكان مدن العواصم في الوطن العربي بين أعوام ١٩٧٦ و ١٩٩٦.

٦ ــ تطور عدد سكان الأحياء الشعبية في دمشق الكبرى بين أعوام ٢٠٠٠ و ٢٠٥٠.

٧ ــ معدل النمو السكاني السنوي في مناطق السكن العشوائي بدمشق بين أعوام ١٩٩٠و٢٠٠٠.

٨ ــ مواد البناء المستخدمة في بناء بيوت مناطق السكن العشوائي في دمشق الكبرى.

٩ ــ حالة إشغال المساكن في مناطق السكن العشوائي.

١٠ ــ الحركة اليومية لسكان الأحياء الشعبية إلى مركز مدينة دمشق عام ٢٠٠٣.

١١ ــ الكثافة السكانية في مناطق ضواحي دمشق الكبرى لعام ٢٠٠٠

١٢ ــ اتجاهات الهجرة بين البلدان العربية.

١٣ ــ الهرم العمري والنوعي لسكان الأحياء الشعبية بدمشق عام ٢٠٠٠.

١٤ ــ تطور عدد طلاب الجامعات السوريين بين أعوام ١٩٧٠ و ١٩٦٩.

١٥ ــ تطور عدد طلاب المرحلة الابتدائية في سوريا بين أعوام ١٩٧٠ و١٩٩٨.

١٦ ــ تطور عدد المدارس الإعدادية والثانوية بين أعوام ١٩٧٠و ١٩٩٨

١٧ ــ نسبة الأمية في الوطن العربي إلى مجموع السكان العربي عام ٢٠٠٤

١٨ــ عدد الأفراد مقابل كل طبيب في الوطن العربي عام ١٩٩٢

١٩ ــ تطور عدد الأفراد مقابل كل طبيب في سورية بين أعوام ١٩٧٠ و١٩٩٨

٢٠ ــ تطور عدد المشافي بين أعوام ١٩٧٠ و١٩٩٨

٢١ــ تطور نسبة المرأة العاملة في سورية بين أعوام ١٩٧٤ و١٩٧٩

٢٢ــ التحضر في الوطن العربي بين أعوام ١٩٦٠ و١٩٩٠ و٢٠٠٣

٢٣ــ أنواع الرعي في العالم

٢٤ــ التوزع الجغرافي في المناطق الرعوية وغير الرعوية في العالم

٢٥ــ التوزع الجغرافي لرعي الإبل والخيل والرنة في العالم

٢٦ ــ التوزع الجغرافي لرعي الأبقار والأغنام في الوطن العربي

٢٧ــ التوزع الجغرافي لعشائر بلاد الشام في سورية

٢٨ ــ الحالة التعليمية للبدو في البادية السورية

٢٩ ــ التوزع الجغرافي للمجتمع الصيني في المقاطعات والمدن الكبرى

٣٠ ــ التوزع السكاني لمجتمع رابطة الدول المستقلة

٣١ــ التوزع الجغرافي للمدن الهندية الرئيسية ذات الكثافة السكانية الكبيرة للمجتمع الهندي

ملاحظة: اشكال الباب الثاني من عمل المؤلف د. ربداوي

فهرس جداول الباب الثاني

الصفحة

تطـور معـدل الـنمو السـكاني الطبيعي بين أعوام ١٩٧٤و١٩٩٨ لكل ألف من السكان في البلدان العربية

تطور عدد سكان الوطن العربي بين أعوام ١٩٩٠و ٢٠٠٢

عـدد سـكان العواصـم في الوطن العربي بالنسبة لمجموع السكان بين أعوام ١٩٧٦و١٩٩٦

معدل النمو السكاني في ضواحي مدينة دمشق الكبرى

مواد البناء المستخدمة في الضواحي الشعبية في المدن العربية

عدد الأفراد مقابل كل طبيب في الوطن العربي عام ١٩٩٢

التحضر في الوطن العربي بين أعوام ١٩٦٠ و١٩٩٢

الحالة التعليمية للبدو في البادية السورية

اللجنة العلمية:

الأستاذ الدكتور ساطع محلي

الأستاذ الدكتورة رجاء دويدري

الأستاذ الدكتور محمد الحمادي

المدقق اللغوي:

الدكتور عادل ديوب

حقوق الطبع والترجمة والنشر
محفوظة لمديرية الكتب والمطبوعات

٦٠٠